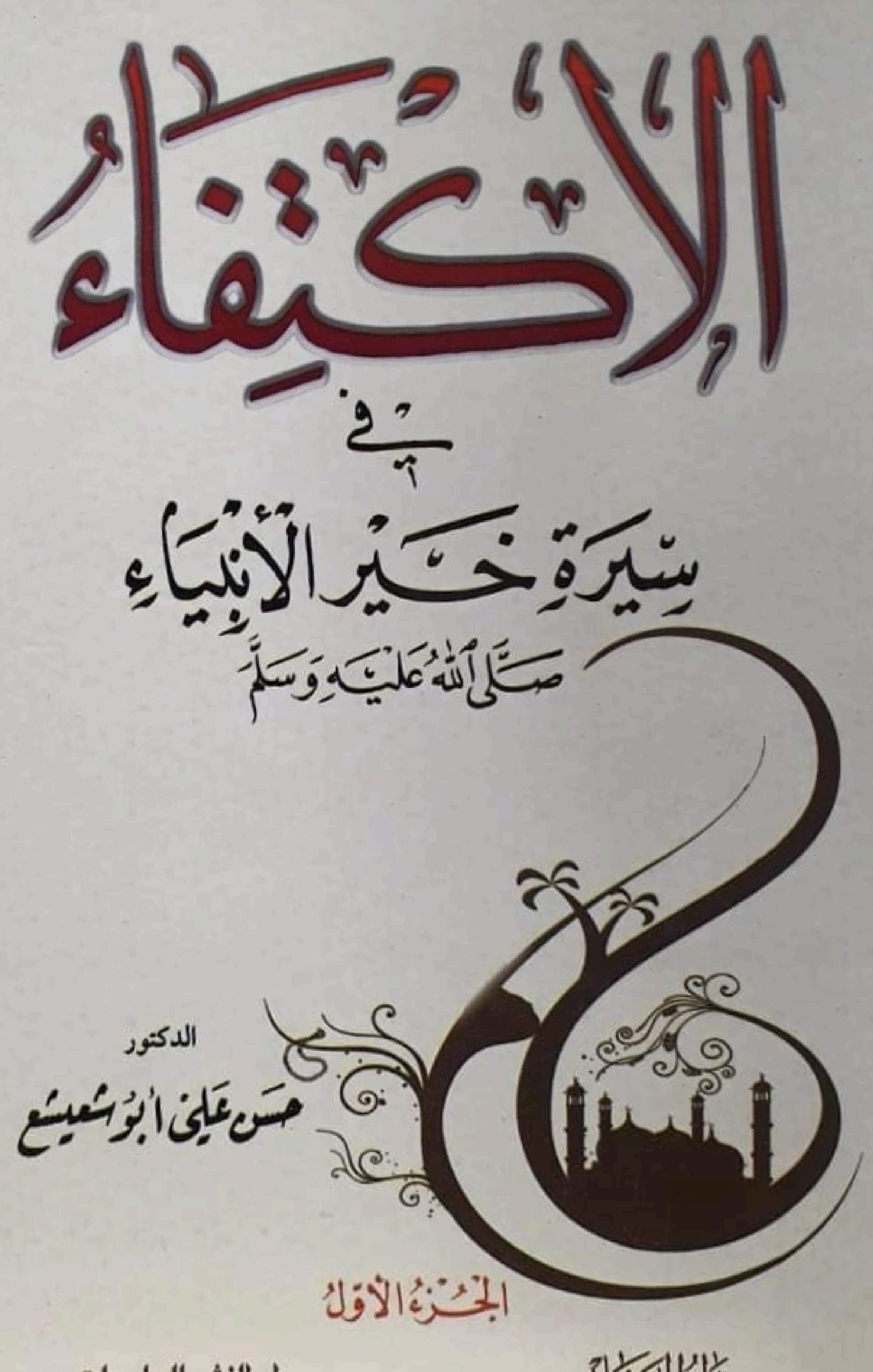
الاكتفاء

في

سيرة خير الأنبياء

صلى الله عليه وسلم



الدكتور

حسن علي أبو شعيشع

الجزء الأول

دار الوفاء

دار النشر للجامعات



الاكتفاء
في
سيرة خير الأنبياء
صلى الله عليه وسلم
الجزء الأول

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

أبو شعيشع ، حسن علي

الاكتفاء في سيرة خير الأنبياء ﷺ / د. حسن علي أبو شعيشع.

ط1- القاهرة: دار الوفاء للنشر والتوزيع، 2018.

مجـ1 ، 776ص، 24سم.

تدمك 7 0677 15 977 978

1- السيرة النبوية أ- العنوان 239

تاريخ الإصدار: 1439هـ - 2018م

حقوق الطبع: محفوظة

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 1810/ 2018م

الترقيم الدولي: ISBN: 978 – 977 – 15 – 0677 – 7

الكود: 2 /508



دار النشر للجامعات

ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518

E-mail: darannshr@hotmail.com

الاكتفاء

في

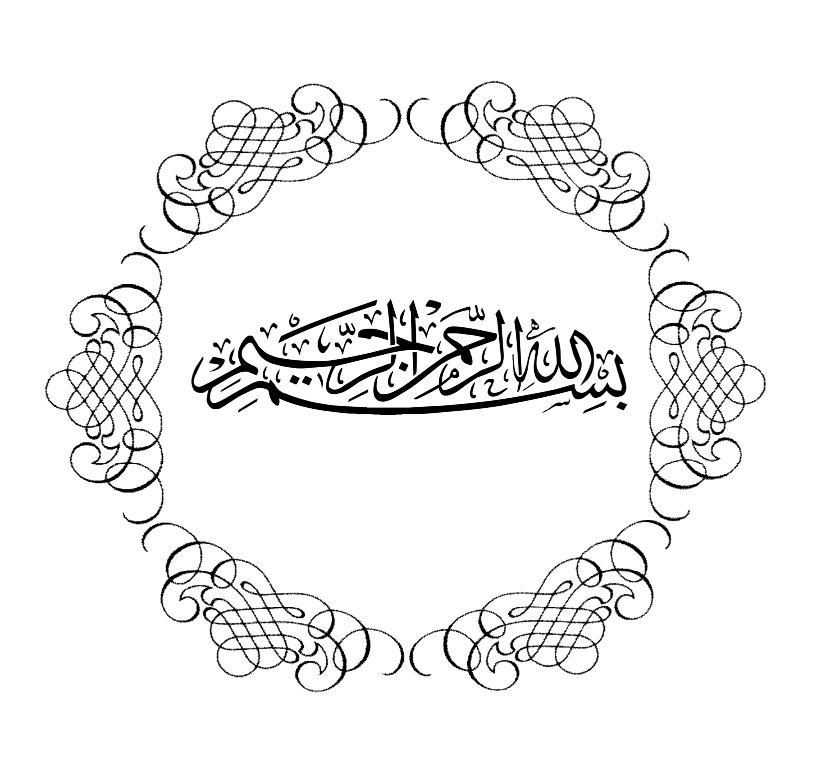
سيرة خير الأنبياء

صلى الله عليه وسلم

تأليف

حسن علي أبو شعيشع

الجزء الأول


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، رب العالمين، وإله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين.

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، أرسله على حين فترة من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق، وأبين السبل، وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعظيمه .. شرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وبعثه بالكتاب بين يدي الساعة؛ حتى يُعبد سبحانه وحده، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، وخصه من الأخلاق بأزكاها، ومن مراتب الكمال بأعلاها، فهو أكمل الناس خَلقًا، وأحسنهم خُلقًا، وأشجعهم قلبًا، وأجودهم كفًّا، وألينهم عريكة، وأوسعهم صدرًا، وألطفهم عشرة، وأفصحهم لسانًا، وأثبتهم حنانًا.. فصل اللّهم عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه، عدد ما أحاط به علمك، وخط به قلمك وأحصاه كتابك.

وبعد:

ثلاثة وعشرون عامًا هي عمر دعوة النبي ﷺ .. ثلاثة وعشرون عامًا هي الأهم في تاريخ البشرية .. نزل فيها الفرقان على محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيرًا، نزل أعظم كتاب على أعظم رسول بأعظم تشريع لخير أمةٍ أخرجت للناس.

ثلاثة وعشرون عامًا هي الأسمى والأعلى في عمر الأرض، أرسل الله -ﷻ- فيها رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، أرسله للناس كافةً بعد أن كان كل نبي يرسل إلى قومه خاصة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 158]، فثقلت المهمة وعظم التكليف، وعلت الهمة، وعلا صاحبها وكان خير الأنبياء وخير الأنام.

ثلاثة وعشرون عامًا ربَّى فيها محمد ﷺ جيلًا من عرب مكة والجزيرة، حملوا رسالة السماء، وباعوا أنفسهم وأموالهم لربهم، فصاروا أعظم من تبع نبي، وصاروا أفضل البشر بعد الأنبياء .. ساحوا في الأرض مبشرين ومنذرين ومجاهدين فاتحين، فدانت لهم جزيرة العرب في حياة نبيهم ﷺ ، ثم دانت لهم إمبراطوريات وممالك الأرض من بعده، ووصلوا برسالتهم إلى أرجاء العالم المعروف لهم.

هذه الفترة الفريدة في التاريخ هي لُب علم السيرة .. فعلم السيرة يتناول حياة الرسول ﷺ من الميلاد إلى الممات، ويتناول النبوة والرسالة والدعوة، ويتناول الجهاد والغزوات والسرايا، ويتناول أخلاق النبي ﷺ القدوة ومعجزاته التي أجراها الله على يديه.

* * *

ومن غير الإنصاف أن ننظر إلى السيرة النبوية العطرة على أنها مجرد سرد لحياة النبي ﷺ ، أو أن نتخذها مصدرًا لإبراز عظمته وإظهار بطولته، أو أن نأنس بالحديث عنها في مجالس العلم كحكايات تبين خطوات حياته قبل البعثة وبعدها؛ فكل ذلك لا يتفهم قيمة هذه السيرة العطرة، التي جسدت المثل الكامل للبشرية، وكانت هدايةً للناس، وترجمةً عمليةً للدين الحنيف، وتصورًا شاملًا للإسلام، تمثل في حياة صاحب الرسالة ﷺ ، ومعينًا لا ينضب للتأسي والاقتداء، وقراءةً مبصرة لحاضر الأمة ومستقبلها، كما كانت عرضًا مفصلًا لما فيها سواءً بسواء [1].

فالأمة إن أرادت العودة إلى الرشاد الذي كانت عليه، لابد لها أن تقتبس من هدي نبيها ، وتنهل من سيرته العطرة؛ فالرسول ﷺ هو مبلغ الوحي، ومعلم الكتاب، وحياته كانت إسقاطًا للتنزيل القرآني على واقع الحياة، وكانت قاعدةً لبناء الأمة، ومنطلقًا لتصوراتها، وتبيانًا لرسالتها في الشهادة على الناس .. ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:78]، والشهادة على الناس يلزم أن تكون من موقع القيادة للمجتمعات الإنسانية، والريادة في كل مجالات الحياة، وأن تكون محاطةً بالفضائل والأخلاق التي أرادها الله من عباده، وذلك لن يكتمل لها إلَّا إذا تأست بنبيها، وألمت بسيرته، ورأت فيها التجسيد العملي للوحي الإلهي، الذي لا يخضع لحدود الزمان والمكان.

* * *

ولما كان رسول الله ﷺ أسوةً وقدوةً ومثلًا كاملًا للبشرية جمعاء: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] ، كان لابد لكمال التأسي أن تتمثل في شخصيته ﷺ كل جوانب الحياة، كما قال سعيد حوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالرسول عليه الصلاة والسلام كان أبًا وما كل رسول كان أبًا، وكان زوجًا وما كل رسول تزوج، وكان رئيس

---

(1) الشيخ محمد الغزالي: فقه السيرة، ص5.

دولة ومؤسسها وما كل رسول أقام دولة، وكان القائد الأعلى لجيش الإسلام والمحارب الفذ وما كل رسول حارب»(1).

كل هذا الشمول في الشخصية، الذي اختص به الرسول الخاتم ﷺ إنما هو أيضًا من تمام منة رب العالمين على هذه الأمة؛ لتنهل من سيرة رسولها ﷺ وتجد فيها العون - بعد الله - في قيامها بما حُملت به من تكاليف الهداية والإرشاد.

«إن جميع الأنبياء كانوا شهداء ودعاة ومبشرين ومنذرين، بيد أن هذه الصفات لم تكن سواسية في جميع الرسل، بل كان بعضها في بعضهم أظهر من أخواتها، فكان يعقوب وإسحاق وإسماعيل عليهم السلام قد غلبت عليهم صفة الشهادة، وكانوا شهداء الحق. وغلبت على إبراهيم وعيسى صفة التبشير فكانا مبشرين. ومن الأنبياء من غلب عليه وصف الإنذار لمن خالف الحق وجحده، فكانوا منذرين، كنوح وموسى وهود وشعيب. ومنهم من غلب عليه صفة الدعوة إلى الحق وامتاز بها أكثر مما امتاز بسائر النعوت الأخرى، كيوسف ويونس عليهم الصلاة والسلام جميعًا. وأما من كان جامعًا لهذه الصفات كلها واتصف بها جميعًا، فكان مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وكانت حياته ملأى بهذه النعوت والشئون، وسيرته ممتازة بهذه الخصال والخلال، فهو النبي الجامع محمد ﷺ ؛ لأنه بُعث ليختم الله به النبيين والنبوات»(2).

وسيرة النبي محمد ﷺ هي الأكثر تفصيلًا في تاريخ البشرية؛ فقد تضمنت كتب السيرة النبوية - إضافة إلى القرآن الكريم وكتب السنة - كل مفردات ومراحل حياته العامة والخاصة؛ فنحن نعرفه وليدًا وطفلًا وشابًّا يافعًا وكهلًا وشيخًا، قبل البعثة وبعدها، نعرفه نبيًّا ونعرفه حاكمًا، نعرفه زوجًا ونعرفه أبًا، نعرفه مربيًا ونعرفه مجاهدًا، نعرفه محاربًا ونعرفه معاهدًا صادقًا .. نعرف وصفه ونعرف لون بشرته ولون شعره، وشكل أنفه وشكل فمه .. نعرف طوله وهيئته، نعرف مشيته وجلسته، نعرف كيف كان يتكلم وكيف كان يضحك، وكيف كان يأكل وكيف كان يشرب، ما امتلك وما باع وما رهن، ومتى غضب ومتى فرح ومتى حزن، وما قاله حال الغضب وحال الفرح وحال الحزن، وسلوكه في بيته مع أهله وأبنائه، حتى علاقاته الزوجية وما حدث من خلاف مع زوجاته!

* * *

(1) سعيد حوي: الرسول ﷺ، ص123.

(2) السيد سليمان الندوي: الرسالة المحمدية، ص40.

ومن نعم الله على الأمة أن حفظ لها سيرة نبيها ﷺ في كتابه الذي تكفل بحفظه إلى يوم الدين، وفي كتب الحديث، التي نعلم منهجها الصارم في التثبت من الرواية؛ مما جعل السيرة النبوية هي أوثق سيرة لبشر، من لدن آدم عليه السلام إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها.

فالقرآن الكريم تناول - في آيات كثيرة منه - أحوال العرب قبل بعثة النبي ﷺ ، وتحدث عن الجزيرة العربية، وما كان فيها من حضارات أُبيد معظمها؛ لطغيان أهلها وفسادهم وإفسادهم، ثم تناولت الآيات مراحل دعوة النبي ﷺ منذ أن نزل الوحي ببواكيره الندية على محمد ﷺ في غار حراء، إلى أن انقطع بوفاته ﷺ.

وبين بواكير الوحي وخواتيمه، خلدت الآيات أحداثًا ومواقف في مراحل السيرة العطرة؛ منها ما خص الغزوات والسرايا، ومنها ما خص بناء المجتمع المسلم، ومواقف سكان المدينة من اليهود والمنافقين، ومنها ما خص التشريعات وتدرجها .. إلى آخر نواحي السيرة المتعددة [1].

أما كتب الحديث، فقد حوت أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته، وتناول بعضها مغازيه وسراياه وبعوثه، وأفردت بعض الكتب أبوابًا لما صح عن سيرة الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها، وعن جهاده وجهاد أصحابه في المغازي والسرايا، وعن مكاتباته وعن زوجاته ... إلخ.

فالسيرة النبوية إذًا هي أصح السير على الإطلاق، وهي محفوظة بحفظ الله عز وجل للذكر (الكتاب والسنة)، ولم ولن يتطرق إليها تحريف، وهو ما لم يقدره الله لبشر غير رسوله ﷺ ، وكلنا يعرف ما حرفه اليهود والنصارى في كتبهم السماوية وفي سيرة أنبيائهم، وتأخرهم لقرون عديدة في تدوينها، والشك والريبة في المدونين أنفسهم.

والأدعى للفخر أن الجانب الموثق من حياة هؤلاء الرسل الكرام صلوات الله عليهم أجمعين، هو ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

* * *

وحين شرعت في إعداد هذه الدراسة واجهتني إشكالية لم تكن بحسباني، تمثلت في غزارة ما كتب في السيرة، وكثرة المصنفات وتنوعها؛ ما بين مستفيض وموجز، وما بين ممحص ومتهاون، وبين ما كتبه المؤرخون القدامى، الذين يعتمدون على غزارة الآثار مع التثبت من الأسانيد، وما كتبه المؤرخون المحدثون، الذين اتسمت كتبهم بربط الحوادث وتبويبها وتحليلها، واستخراج العبر والعظات منها.

(1) السيد سليمان الندوي: الرسالة المحمدية، ص89.

وجدت مصنفات أحصيت منها على قدر ما وصلت إليه بجهدي القاصر (1445) مصنفًا، منها ما اعتمد الدراسة التاريخية، ومنها ما اعتمد الدراسة الموضوعية، فتناول الجانب التربوي أو العسكري أو الحركي أو الاجتماعي ... إلخ.

ووجدت كتبًا تناولت السيرة النبوية بكلياتها، وأخرى تناولت جانبًا من جوانبها؛ كالمغازي أو الشمائل، أو دلائل نبوته، والمعجزات التي وقعت له قبل البعثة وبعدها، أو الخصائص التي ميزته ﷺ عن أمته وعن سائر الأنبياء، وميزت أمته عن سائر الأمم.

غزارة تجعل الباحث في علم السيرة كمن وجد كنزًا ثقيلًا لا يقوى على حمله، ولا يحتمل فواته... فكان لزامًا أن أحدد مسارًا يمنع من التشتت والتردد .. مسارًا تحكمه أهداف محددة **وجدت أنها تجتمع في هذه الأهداف الثلاث:**

1- جمع كل ما وثق من الأخبار والآثار الصحيحة عن سيرة الحبيب ﷺ ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

2- إيجاز ما تم جمعه واختصاره، وإبراز الحقائق الجليلة التي تعبر بذاتها عن دلالاتها، دونما افتعال أو تكلف، أو مبالغة في التعليق عليها.

3- صياغة ذلك كله صياغةً سهلة واضحة، وتبويب يعبر عن كل فترة من فترات السيرة العطرة.

أي أنني أردت أن تكون هذه الدراسة: جامعة - موجزة - سهلة الصياغة، وتقييم ذلك كله لك أيها القارئ الحبيب ... فإن كنت قد أصبت، فذلك من الله وحده، فله الفضل والمنة، وإن كان غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان، وحسبي أني محصت نيتي واجتهدت، وظني بربي أن ذلك لن يضيع.

وأخيرًا .. أسأل الله عز وجل أن يجعل عملي هذا لوجهه خالصًا، وأن يرزقني ومن يقرؤه حب نبيه ﷺ وشفاعته، وورود حوضه وصحبته في الجنة.

الفقير إلى عفو ربه

د. حسن علي أبو شعيشع

فوائد

- **دلالة مصطلح السيرة في اللغة:**

مصطلح السيرة له في اللغة دلالات عدة:

* السيرة: بمعنى الطريقة.

* السيرة: بمعنى السنة.

* السيرة: بمعنى الهيئة.

قال الراغب الأصبهاني: «**السيرة**: الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، غريزيًّا كان أو مكتسبًا، **يقال**: فلان له سيرة حسنة وسيرة قبيحة، وقوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه]، أي الحالة التي كانت عليها من كونها عصى».

- **تعريف «علم السيرة النبوية»:**

عرفها د. محمد الزحيلي بأنها: «الاطلاع ودراسة حياة النبي ﷺ، وشخصيته، وجميع تصرفاته، وطريقته في الدعوة والتبليغ، والتربية لصحابته - رضوان الله عليهم»[1].

- **موضوع علم «السيرة النبوية»:**

1- حياة النبي ﷺ منذ مولده حتى وفاته.

2- النبوة والرسالة والدعوة.

3- المغازي: وتشمل غزواته ﷺ التي خرج فيها وقادها بنفسه، والسرايا التي أرسلها وقادها أحد أصحابه.

4- دلائل نبوته ﷺ (المعجزات).

5- شمائله ﷺ (خلقته وخلقه).

- **تتابع التلقي للسيرة النبوية:**

اعتمد كُتاب السيرة النبوية العطرة على الروايات المسندة المتصلة عن الصحابة - رضوان الله عليهم - ثم التابعين الذين عاصروا الصحابة وسمعوا منهم، خاصةً أن كثيرًا من هؤلاء

(1) مرجع العلوم الإسلامية/ 642.

الصحابة قد امتدت بهم الحياة فعاشوا مع التابعين فترة طويلة. فأنس بن مالك مثلًا توفّي سنة 93هـ، وعبد الله بن بسر المازني سنة 96هـ، ومحمود بن الربيع سنة 99هـ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة سنة 101هـ، وأبو أمامة سنة 86هـ، وعبد الله بن الحارث سنة 86هـ، وعبد الله بن أبي أوفى سنة 87هـ، والسائب بن يزيد سنة 91هـ.

- **تدوين السيرة النبوية:**

بدأ تدوين السيرة النبوية مع تدوين السنة في حياة النبي ﷺ، وذلك بكتابة الأحاديث التي تتعلق بالحوادث التي وقعت منذ بعثته ﷺ وبداية نزول الوحي، وما لقيه بمكة قبل الهجرة، وهجرة بعض أصحابه إلى الحبشة، ثم هجرته ﷺ إلى مكة، وغزواته، وأسفاره، وما يتعلق بشخصه وسلوكه .. وكل ذلك مدون في كتب السنة.

وكان الصحابة – رضوان الله عليهم – يدرسون لجلسائهم مغازي رسول الله ﷺ مثل عبد الله بن عباس، والبراء بن عازب، وعبد الله بن عمرو بن العاص.

- **أول من كتب في السيرة النبوية:**

* هو عروة بن الزبير بن العوام، المتوفّى سنة 93هـ، الذي كتب كتابًا في المغازي أسماه (مغازي رسول الله ﷺ).

* ثم أبان بن عثمان بن عفان المتوفّى سنة 105هـ، وهو من أعلام رواة الحديث والفقه، إلَّا أن شهرته في السير والمغازي فاقت شهرته في الحديث والفقه، وهو ابن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودوَّن ما سمعه من أخبار السيرة النبوية ومغازي المصطفى ﷺ، وسلمها إلى سليمان بن عبد الملك فأتلفها سليمان!!

* ثم وهب بن منبه، المتوفّى سنة 110هـ، وموسى بن عقبة، المتوفّى سنة 141هـ.

وهؤلاء جميعًا عاصروا الصحابة وأخذوا عنهم.

- **واضع علم «السيرة النبوية»:**

هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، وهو وإن لم يكن من طبقات المؤلفين الأولى في السير والمغازي وسبقه في ذلك زمانًا أعلام من العلماء، إلَّا أن الجميع يتفق على إمامته في هذا المجال.

قال عنه ابن شهاب الزهري: (من أراد المغازي فعليه بابن إسحاق)، وذكره البخاري في تاريخه، وروي عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه **قال**: «من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق».

ولا تكاد تجد مؤلفًا في هذا الباب لا ينقل عنه.

ورغم ضياع ما ألفه من المكتبة الإسلامية، إلَّا أن رواة كتبه حفظوا لنا رواياتها في مؤلفاتهم؛ كابن هشام والطبري والواقدي وغيرهم.

- **أول من أطلق مصطلح «السيرة النبوية»:**

هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميدي البصري، المتوفّى سنة 218هـ، وإليه يرجع الفضل في جمع واختصار كتاب ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي) في كتابه (تهذيب السيرة النبوية لابن إسحاق)، ويظهر من ذلك أن ابن هشام أطلق مصطلح (السيرة النبوية) على كتاب ابن إسحاق الذي لم يسمه بذلك.

وانتشر كتاب ابن هشام انتشارًا واسعًا، وطبع عدة طبعات في المشرق والمغرب.

- **حكم تعلم «السيرة النبوية»:**

تعلم «السيرة النبوية» فرض كفائي، إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

- **مصادر «السيرة النبوية»[1]:**

1- القرآن الكريم.

2- كتب السنة الصحيحة.

3- كتب المغازي: ومعظم ما فيها ذكر الغزوات النبوية، وقد تتضمن أمورًا أخرى. ومن المصنفات القديمة في المغازي: مغازي عروة بن الزبير، المتوفّى سنة 93هـ، ومغازي الزهري، المتوفّى سنة 124هـ، ومغازي موسى بن عقبة، المتوفّى سنة 141هـ، ومغازي ابن إسحاق، المتوفّى سنة 180هـ، ومغازي زياد البكائي المتوفّى سنة 182هـ، ومغازي الواقدي، المتوفّى سنة 207هـ، وغيرهم.

4- كتب التاريخ الإسلامي العام: ومن أوثقها طبقات ابن سعد، وتاريخ الرسل والملوك للإمام ابن جعفر الطبري، والتاريخ الصغير والتاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري، وتاريخ ابن حبان.

---

(1) السيد سليمان الندوي: الرسالة المحمدية، ص79 بتصرف.

5- كتب الدلائل: وهي الكتب التي ألفت في المعجزات، ومنها دلائل النبوة لأبي إسحاق الحربي، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني، وأضخمها وأبسطها كتاب الخصائص الكبرى لجلال الدين السيوطي.

6- كتب الشمائل: وهي مقصورة على ذكر أخلاق النبي ﷺ وعاداته وفضائله، وأشهر هذه الكتب (كتاب الشمائل) للحافظ الترمذي، وكتاب (الشفا في حقوق المصطفى) للقاضي عياض.

7- الكتب التي صنفها بعض العلماء المتقدمين في أحوال مكة المعظمة والمدينة المنورة: وأقدم كتاب في هذا الموضوع (أخبار مكة) للأزرقي، و(أخبار المدينة) لعمر بن شبة.

8- كتب السيرة النبوية: وقد كتب في السيرة علماء ثقات من الأقدمين والمحدثين، كعلم جامع، يأخذ من كل المصادر السابقة، **من أمثال:** ابن عبد البر، والنووي، والذهبي، وابن القيم، وابن كثير، ومحمد بن عبد الوهاب، والغزالي، ومهدي رزق الله، والصلابي، والمباركفوري، وغيرهم.

* * *

الأهداف العشر للكتاب

القارئ الحبيب:

ابتغيت من هذا الكتاب (بعد مرضاة الله عز وجل) النفع لإخواني الراغبين في قراءة سيرة النبي ﷺ قراءةً جادةً نافعة ..

ورأيت أن ذلك النفع يتمثل في فوائد عشر جعلتها أهدافًا للكتاب، وحرصت أن تجليها السطور، وترسخ مضمونها الحوادث، وتعبر عنها عناوين الأبواب والفصول ..

وأنبه القارئ الكريم - قبل قراءته للكتاب - لهذه الأهداف العشر؛ ليتأكد من تحققها بعد فراغه من القراءة، فإن لم يجدها أو وجد بعضها ولم يجد البعض الآخر، بحث عنها واستكملها من كتب أخرى ..

وهذه الأهداف العشر هي:

- **الهدف الأول**: أن ترى الإسلام واقعًا.
- **الهدف الثاني**: أن يكتمل إيمانك بمحبته ﷺ .
- **الهدف الثالث**: السير على خطاه ﷺ حتى تلقاه.
- **الهدف الرابع**: أن تتعبد إلى الله بتعلم سيرته ﷺ ، وتعليمها لغيرك.
- **الهدف الخامس**: أن تتضح لك معاني آيات القرآن الكريم.
- **الهدف السادس**: أن ترى المجتمع المسلم الذي نستهدفه.
- **الهدف السابع**: أن ترى الثبات في زمان الغربة.
- **الهدف الثامن**: أن تعرف روح الشريعة.
- **الهدف التاسع**: أن تضبط فكرك بهديه ﷺ .
- **الهدف العاشر**: أن توقن أن المستقبل لهذا الدين.

الهدف الأول: أن ترى الإسلام واقعًا:

لما كان رسول الله ﷺ هو المقتدى به بأمرٍ من رب العالمين، كان لابد أن ترى فيه البشرية كلها واقع الإسلام، في صحة الاعتقاد وسلامة العبادة وعظمة الخلق وسماحة المعاملة، وأن ترى فيه المثل الكامل لخلافة الإنسان لله على الأرض، فتمثلت في شخصيته - كما ذكرنا - كل جوانب الحياة، فكان زوجًا وأبًا وحاكمًا وقائدًا محاربًا ..

وسيرته ﷺ تثبت أن الإسلام ليس أفكارًا نظرية مجردة، ولا تصورات مثالية فوق مستوى التطبيق، بل هو منهج رباني، ألزم الله به البشر بما لا يتجاوز طاقاتهم: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة:286]؛ لأنه سبحانه هو الخالق، وهو العليم بعباده وبما يستطيعون وما لا يستطيعون ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾** ﴾ [الملك]، وهو رءوف بهم: ﴿ **وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾** ﴾ [آل عمران]، وكل ما أمر به في وسع البشر الإتيان به، وكل ما نهى عنه في مقدورهم الامتناع عنه.

وسيرة الحبيب ﷺ كانت إسقاطًا للتنزيل القرآني على واقع الحياة .. وقد أغنتنا السيدة عائشة رضي الله عنها عن التفصيل والشرح في هذا المعنى، حين سئلت عن خلقه، **فقالت:** «ألست تقرأ القرآن؟ **قال:** بلى، **قالت:** فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»(1) أي أن رسول الله ﷺ كان قرآنًا يمشي على الأرض، وسيرته ﷺ هي تفسير لما في القرآن من أحكام وتوجيهات، وحياته كلها وما صدر عنه فيها من أقوال وأفعال، هي تفصيل لما جاء في القرآن، فكل حكم جاء به القرآن قد امتثله الرسول ﷺ، ومثله للناس بفعله، وبينه بقوله.

وقد كان ﷺ حريصًا أن يكون أصحابه - رضوان الله عليهم - كذلك .. وقد تجلت عظمته ﷺ في حمل الرسالة والبلاغ عن ربه يوم ترجم الدين الحنيف في صورة رجال، فرأينا الإسلام في أبي بكر وفي عمر وفي عثمان وفي علي وطلحة والزبير وأبي عبيدة.

بل إنه ﷺ حصر طريق الهداية الذي ينجي أمته من الضلال والزيغ، في أن يكون مسلكها محققًا لما في شريعتها، فقال في حجة الوداع: «**وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله** »(2).

(1) صحيح مسلم: (ح746)، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض.
(2) مسلم في كتاب الحج، (1218).

فدراسة السيرة النبوية إذًا تعين الأمة على إخراج الإسلام إلى واقع الحياة، إذا توفرت لهذه الدراسة **شرائط ثلاثة**:

1- الإلمام الكافي بالسيرة النبوية، والنظر إليها على أنها هي المرحلة الأهم في تاريخ الأمة.

2- القراءة المبصرة للواقع على ضوء قياسه (بعدًا أو قربًا) عن هذه المرحلة.

3- استشراف المستقبل برؤية تحمل الاتباع التام لرسول الله ﷺ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)** ﴾ [آل عمران].

الهدف الثاني: أن يكتمل إيمانك بمحبته ﷺ:

كمال الإيمان مشروط بكمال المحبة للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة:24]، وعن أنس رضي الله عنه **قال:** قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، وماله، وولده، والناس أجمعين»(1)، وكلنا يعرف قصة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما **قال:** «يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. **فقال النبي** ﷺ: لا - والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. **فقال عمر:** فإنه الآن، والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال عليه الصلاة والسلام: الآن يا عمر»(2)، وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(3).

*** حكم محبة النبي ﷺ:**

محبة النبي ﷺ ليست كمحبة أي حبيب؛ فمحبته ﷺ عبادة عظيمة وقربى نتقرب بها إلى الله ﷻ، ودعامة أساسية من دعائم الإيمان، والمسلم ليس مخيرًا في محبته لنبيه ﷺ، فإن شاء أحبه وإن شاء لم يحبه، قال تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب:6].

---

(1) رواه البخاري في كتاب الإيمان (ح15)، ومسلم (ح44)، والنسائي (5029)، وابن ماجه (67).

(2) رواه البخاري (6632).

(3) رواه مسلم، كتاب الإيمان (ح43)، والبخاري، كتاب الإيمان (ح16)، والنسائي (5003)، وابن ماجه (ح4033).

وقد ذكر العلماء أن محبة النبي ﷺ مفروضة ومندوبة في آن واحد:

- **أما المحبة المفروضة:** فهي المحبة التي تقتضي الإيمان بنبوته وبعثته ﷺ، وتلقى ما جاء به بالقبول والرضا والتسليم.

- **أما المحبة المندوبة:** فهي تقصي أحواله، ومتابعة سنته، والحرص على التزام أقواله وأفعاله- قدر المستطاع والجهد والطاقة.

*** في سيرته ﷺ دواعي محبته:**

لم يزل المسلم يرتقي في درجات محبة النبي ﷺ ما أدام النظر في سيرته العطرة؛ فالذين مالت قلوبهم وملئت حبًّا لرسول الله ﷺ إنما سبى قلوبهم، واستمال أنفسهم بما كان عليه من الخلق، وحسن المعاملة، وكمال الرحمة، وعموم الشفقة، وحسن القول .. وهذا ما يجب أن تصل إليه بقراءتك لسيرته ﷺ، والتوقف عند دواعي محبته، التي لا تدانيها محبة لبشر، حتى نفسك التي بين جنبيك، **ومن دواعي محبته** ﷺ:

1- **شمائله وخصاله العظيمة:** وقد أفردنا لها فصلًا كاملًا، ذكرنا فيه غيضًا من فيض عن أخلاقه ﷺ وفضائله، وعن خلقته ووصفه، فقد اجتمعت فيه ﷺ كل المحاسن في خلقه وخلقته.

2- **أنه** ﷺ **بلغ الرسالة وأدى الأمانة**، وترك فينا ما يدفع عنا الضلال، وكان منة الله الكبرى لعباده المؤمنين: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران]، ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة]. وكان ﷺ حريصًا على البلاغ، فلا يدع فرصة إلا ويقول: «**ليبلغ الشاهد الغائب**»، وقد بلغ نصحه للأمة الكمال، فلم يدع شيئًا إلا علمهم إياه، وقد شهد صحابته - رضوان الله عليهم - له بذلك كما روي عن بعضهم: «علمنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراءة»[1].

3- **أنه** ﷺ **أعظم من رحمنا ورأف بنا:** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، ورحمته ورأفته بأمته تدوم

---

(1) أخرجه مسلم (ح262)، وأبو داود (ح6)، **والخراءة:** قضاء الحاجة.

حتى بعد قيام الساعة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم]، و﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]، فرفع يديه **وقال:** «اللَّهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله، فأتاه جبريل فسأله، فأخبره بما قال وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»(1)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا قال ﷺ : «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة - إن شاء الله - من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»(2).

*** الاقتداء بالمحبين:**

حرصت على إبراز محبة الصحابة - رضوان الله عليهم - لرسول الله ﷺ ؛ من أجل الاقتداء بهم في محبتهم الصادقة وإيثارهم له ﷺ على أنفسهم وأولادهم وأزواجهم.

- سترى أبا بكر في مكة حين اجتمع كفار قريش يريدون أن يضربوا رسول الله ﷺ ، جاء مدافعًا عنه، فتركوا الرسول ﷺ وضربوه بنعالهم في وجهه حتى سقط مغشيًّا عليه، ولم يعرف وجهه من أنفه من شدة التورم، فلما أفاق كان أول ما **قال:** ما فعل رسول الله ﷺ؟ **قالوا:** هو بخير كما تحب، **قال:** لا حتى أراه. فحمل يهادي بين الرجلين، فلما رآه تهلل وجهه فرحًا - رضي الله عنه وأرضاه.

- وسترى عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فراش النبي ﷺ يوم خرج مهاجرًا إلى يثرب، يفتديه بروحه.

- وسترى الصحابة - رضوان الله عليهم - يوم أحد حين حاصر المشركون رسول الله ﷺ ، كيف أقاموا حوله سياجًا بأجسادهم وسلاحهم، وشعارهم يومئذ: (نحري دون نحرك يا رسول الله).

- وسترى النساء وقد قتل أزواجهن وأولادهن وإخوانهن يوم أحد، فلا يسألن إلا عن رسول الله ﷺ ، ولا تسكن قلوبهن إلَّا بالتأكد من سلامته.

---

(1) رواه مسلم (ح202) ، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم.

(2) رواه مسلم (ح301) ، وللبخاري أقصر منه (ح6947).

- ستراهم - رضوان الله عليهم - كبارًا وصغارًا، رجالًا ونساءً؛ وقد قدموه على أنفسهم وأهلهم وأموالهم والناس أجمعين.

*** إن كنت من المحبين فأبشر:**

- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ **قال:** «من أشد أمتي لي حبًّا ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله»[1].

- وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ **قال:** «وماذا أعددت لها؟»، **قال:** ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكن أحب الله ورسوله، **قال:** «أنت مع من أحببت». **قال أنس:** فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت». **قال أنس:** فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم»[2].

- وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** جاء رجل إلى رسول الله ﷺ **فقال:** يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ **فقال رسول الله** ﷺ: «المرء مع من أحب»[3].

الهدف الثالث: السير على خطاه ﷺ حتى تلقاه:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

يوم أن بحثت الأمة عن أصول وضوابط لمسارها بمنأى عن مسار نبيها ﷺ زاغت واضطربت، وتفرقت بها السبل .. فإن كان العالم كله في حاجة شديدة إلى سيرة بشر كامل، يتخذ من حياته أسوة وقدوة، ونحن نعرف هذا الإنسان الكامل بتفاصيل أيامه وحياته وفعاله وأقواله، ثم نتنكب خطاه ولا نقتدي بهداه، فهذا لعمرك هو الضلال المبين .. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الجنة، وصف نعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهله وماله (4/2118).

(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (5/ 14-15)، وأخرجه مسلم في البر والصلة، باب المرء مع من أحب (4/2032).

(3) صحيح البخاري، كتاب الأدب، علامة حب الله عز وجل (8/ 48-49)؛ ومسلم، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب (4/2032).

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة].

فالرسول ﷺ، مزكي النفوس والهادي - بعون ربه - من الضلالات، وسيرته العطرة - مع القرآن الكريم - هي منهج التربية المتكامل للأجيال، الذي لا يحتاج إلى الاستدلال على أهميته أو حتمية نجاحه .. فبالإضافة إلى أنه منهج منزل من رب العالمين، فهو أيضًا منهج مجرب، أخرج للأمة أرقى أجيالها خلقًا وأقواها علمًا وعملًا وأثرًا في الحياة، فتحققت فيه الخيرية في أروع صورها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:110] .. «أليس هؤلاء هم العرب الذين كانوا في معزل عن العمران، يعبدون الأوثان، ويعكفون على الأصنام؟! فما بالهم انقلبت أحوالهم وتغيرت شئونهم؟!، إن أرضهم لا تزال هي الأرض، وسماؤهم كما كانت، وبلادهم لم تتغير، فكيف انجلى عنهم ظلام الجهل، وكيف نفخ فيهم ذلك إلَّا من روح الدين الحق، فأصبح جاهلهم عالمًا ومحاربهم مسالمًا، وماذا علمهم حتى انقلب الفاسد صالحًا والمفسد مصلحًا، والذي لم يكن يحسن شيئًا لم يلبث أن صار يدير الملك، ويصرف شئون الحكومة ويسوس أمور الرعايا .. وكيف نبغ عنهم ذوو العقول الراجحة والآراء السديدة والأفكار الثاقبة؟! إن الرسول الأمي الأعزل ﷺ الذي لم يحمل في شبابه سلاحًا، ولم يملك من قبل بلادًا، كيف أقام للأمة التي لم تكن الأمم تقيم لها وزنًا دولة ذات عظمة وجلال، واكتشف في نفوس رجالها كنزًا عن القوة لا ينفد؟!، وكيف جعل هذا الأمي ﷺ هذه الأمة - التي لم تكن تعرف الله ولا تعلم توحيد ربوبيته - عبادًا ناسكين يحيون الليل بذكر الله، ويبلغون رسالاته في النهار؟!»(1).

إن الاقتداء والتأسي برسول الله ﷺ من أهم أهداف هذه الدراسة، وستجده في كل مراحل السيرة، وفي أفعال وأقوال وصفات صاحبها عليه الصلاة والسلام، فهو إمام الهدى والسراج المنير .. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب] .. إن كنت ملكًا فاقتد بسنته وأعماله حين ملك أمر العرب، ودان لطاعته عظماؤهم وذوو أحلامهم .. وإن كنت رعية ضعيفًا فلك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة أيام كان محكومًا بمكة في نظام المشركين .. وإن كنت فاتحًا غالبًا فلك من حياته نصيب أيام ظفره

(1) السيد سليمان الندوي: الرسالة المحمدية، ص132.

بعدوه في بدر وحنين ومكة.. وإن كنت منهزمًا - لا قدر الله ذلك - فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفقائه المثخنين بالجراح.. وإن كنت معلمًا فانظر إليه وهو يعلم أصحابه.. وإن كنت متعلمًا فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثيًا مسترشدًا.. وإن كنت واعظًا ناصحًا ومرشدًا أمينًا فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي.. وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف وأنت لا ناصر لك ولا معين، فانظر إليه وهو ضعيف بمكة، لا ناصر ينصره ولا معين يعينه، ومع ذلك فهو يدعو إلى الحق ويعلن به، وإن هزمت عدوك، وخَضَدْتَ شوكته، وقهرت عناده ، فظهر الحق على يدك، وزهق الباطل، واستتب لك الأمر، فانظر إلى النبي ﷺ يوم دخل مكة وفتحها .. وإن كنت زوجًا فاقرأ السيرة الطاهرة، والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة .. وإن كنت أبًا، فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد الحسن والحسين .. وأيًّا من كنت، وفي أي شأن كان شأنك، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت وعلى أي حال بت أو أضحيت؛ فلك في حياة محمد ﷺ هداية حسنة وقدوة صالحة، تضيء لك بنورها الحياة [1].

الهدف الرابع: أن تتعبد إلى الله بتعلم سيرته ﷺ وتعلمها لغيرك:

من المحال أن يحب المرء من يجهل أوصافه وأحواله، أو أن يقتدي بمن لا يعرف شيئًا عن سيرته وهديه؛ لذا صار تعلم علم (السيرة النبوية) عبادة، توصلنا إلى حب النبي ﷺ والاقتداء به؛ إعمالًا لقاعدة [الوسائل لها أحكام المقاصد]، وقد فقه السلف الصالح - رضوان الله عليهم - هذه المعاني، وأدركوا أهميتها، فجعلوا منها منجهًا لتربية الأجيال، ومادة للبناء الفكري والسلوكي .. يقول علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كنا نُعَلم مغازي النبي ﷺ ، كما نُعَلم السورة من القرآن»[2].

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص **قال:** «كان أبي يعلمنا المغازي (ويعدها علينا) وسراياه، **ويقول:** يا بني هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوها»[3]، **وقال الإمام الزهري:** «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا»[4].

---

(1) السيد سليمان الندوي في الرسالة المحمدية، ص113.

(2) ابن كثير: (السيرة) ح/352- **وعلي بن الحسين:** هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، كان مع والده يوم قتل بكربلاء، ولكنه كان مريضًا فلم يقتل، وكان عالمًا ورعًا كثير الحديث، مات بالمدينة سنة 94هـ، ودفن بالبقيع.

(3) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي: (2/195).

(4) المصدر السابق: (2/195).

ومن المعلوم أن علم المغازي هو المكون الأكبر لعلم السيرة النبوية، ومن التعبد إلى الله أيضًا أن ننقل هذا العلم النافع إلى من يجهله ولا نأل جهدًا في تلمس الطرائق والوسائل المؤدية إلى هذا الهدف النبيل، مع الحرص – كل الحرص – على ترسيخ أسس تعليم السيرة النبوية؛ لكي تكون ممارسة حياتية وسلوكًا تطبيقيًّا في دنيا الناس، فسيرته ﷺ من أهم دعائم بناء الفرد المسلم، الذي هو حجر الزاوية واللبنة الأساسية في بناء المجتمع والدولة وفي صناعة الحضارة، ففيها الشرح التطبيقي للعقيدة الإسلامية وللعبادة الصحيحة، وأصول الأخلاق، ومقدمة مهمة لدراسة علوم السنة والسياسة الشرعية وأصول الحكم في الإسلام، وفيها أعظم مثل للمجتمع والدولة في الإسلام.

وخلاصة القول: أن في السيرة النبوية الحصيلة الضخمة للعلوم الأساسية اللازمة للأفراد، والخبرات والتجارب التي لا غنى عنها للأمة، ولابد أن تكون محورًا للاهتمام، وأن يتناولها الجميع بين عالم ومتعلم .. «وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم» (1).

الهدف الخامس: أن تتضح لك معاني آيات القرآن الكريم:

ذكرنا في (الهدف الأول) أن سيرة النبي ﷺ هي التطبيق العملي للإسلام، وأنه ﷺ كان قرآنًا يمشي على الأرض، ولذا فدراسة السيرة النبوية فيها العون على فهم آيات القرآن الكريم، فكثير من هذه الآيات تفسيرها الأحداث التي مرت برسول الله ﷺ.

فأحداث السيرة النبوية تجلي آيات القرآن المكي التي تتحدث عن نزول الوحي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]، وصدعه ﷺ به ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر]، وأساليب المشركين في مواجهة النور الجديد؛ من مساومة للنبي ﷺ ومحاولة لقتله، والاستهزاء به، ومطالبتهم بمطالب تعجيزية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ [البقرة:118]، وجحودهم بالقرآن ثم تأثرهم به، والإسراء والمعراج، وهجرته ﷺ، وهجرة أصحابه.

(1) ابن القيم: زاد المعاد، فصل: اضطرار العباد إلى معرفة الرسول ﷺ، ص 68.

كما أنها تجلي أيضًا آيات القرآن المدني التي تتحدث عن الغزوات في سور آل عمران والأنفال والتوبة والأحزاب والفتح والحشر ... وأحداث وتشريعات غير الغزوات، **مثل:** حادث الإفك في سورة النور، وتحريم التبني بزواجه ﷺ من زينب بنت جحش في سورة الأحزاب، والإذن بقتال المشركين في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج]، وتحريم الظهار في سورة المجادلة .. وغير ذلك الكثير.

وقراءتك لهذه الأحداث في السيرة النبوية سوف تساعدك حتمًا في فهم الآيات والسور، ونسأل الله ﷻ أن يكون هذا الكتاب مفتاحًا لذلك الفهم.

الهدف السادس: أن ترى المجتمع المسلم الذي نستهدفه:

قراءة السيرة النبوية سياحة جميلة، تعيش فيها مع المجتمع الإسلامي الأول؛ حيث الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه الكرام، وتشعر من خلالها وكأنك تسكن ديارهم، وتسير في طرقاتهم، وتتعجب - في بادئ الأمر - من حال هؤلاء، وكيف كانوا في جاهليتهم، وكيف صنع منهم الإسلام أفضل مجتمع عرفته البشرية، وتوقن - في نهاية الأمر - أن الانحراف المجتمعي الذي نعيشه في عصرنا ليس عصيًّا على الإصلاح، فليس هناك انحراف كانحراف الجاهلية، شريطة أن يتماثل نهج الإصلاح أو يتقارب، وشريطة أن نوقن يقينًا - لا يخالطه - شك أن هذه الأمة لن تنصلح إلَّا بما صلح به أولها، ولن تجدي معها وسائل من هنا أو هناك، وأن الغرب الذي أخذ بناصية الحضارة في زماننا فاشل اجتماعيًّا، وعاجز عن تحقيق السعادة لمجتمعاته، ويجب ألا نأخذ منه إلا العلم والتقنية والجانب الإيجابي من نظامه السياسي، أما النظم الاجتماعية والعلاقات الأسرية والحالة الدينية والمرجعية التشريعية، وغير ذلك من أسس بناء المجتمع، فالغرب فيها فاشل وعاجز، والاقتداء به في ذلك جلب على أمتنا التعاسة، وأدخل نمطًا مجتمعيًّا رماديًّا، الناس فيه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

في هذه السياحة الجميلة سترى مجتمعًا له غاية ائتلف واتحد عليها، غاية لخصها القرآن الكريم في خواتيم سورة الحج: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج]، **وما أروع وصف سليمان الندوي لهذا المجتمع الأول:** «كان الإخلاص

رائدهم، وهداية الخلق أملهم، وإصلاح البشر غرضهم، فالصحابة هداة حيثما حلوا، وعاملون لإصلاح المجتمع البشري أينما ذهبوا، فإذا اختلفت طبائعهم وتنوعت ألوانهم، وتفاوتت مظاهرهم، فقد جمعتهم كلمة التوحيد ووحدة الكتاب العزيز، واتجاههم جميعًا إلى قبلة واحدة، فما سلكوا سبيلًا، ولا عملوا عملًا، إلَّا ابتغوا به إصلاح العالم، وتقويم المجتمع البشري، ومواساة بني الإنسان، وإعلاء كلمة الحق، وتقدم العمران البشري نحو السلام والأمان ونشر الوئام»[(1)].

الهدف السابع: أن ترى الثبات في زمان الغربة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود - كما بدأ - غريبًا، فطوبى للغرباء**»[(2)]. وعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، **قال:** قال رسول الله ﷺ : «**إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوى للغرباء**». **قيل:** ومن الغرباء يا رسول الله؟! **قال:** «**الذين يصلحون إذا فسد الناس**»[(3)]، وعن عبد الله بن عمرو ابن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** قال رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن عنده: «**طوبى للغرباء**» **فقيل:** من الغرباء يا رسول الله؟ قال: «**ناس صالحون قليل في ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»[(4)].

القارئ الحبيب:

بدأ الإسلام غريبًا في عقيدته وعبادته وأخلاقه، غريبًا في مبادئه وأهدافه وغاياته، غريبًا في أوامره ونواهيه وقيمه ومثله، وبدأ محاصرًا ومحاربًا من الجاهلية المذعورة المهددة في تراثها ونظمها، وفي وجودها ذاته .. ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ﴾ [التوبة].

ثم ما لبث هذا الدين القويم أن زالت غربته، وانتشرت دعوته، وارتفعت رايته، فأعز الله جنده ونصر عبده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وقامت دولة الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجًا: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣ ﴾ [النصر].

---

(1) السيد سليمان الندوي: الرسالة المحمدية، ص134.

(2) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا رقم (145)، (90/1)؛ وابن ماجه (3986).

(3) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (3056).

(4) رواه الإمام أحمد والطبراني برقم (7193).

وظل الإسلام هكذا سنين طويلة وقرون عديدة، إلى أن بدأ التفرق والوهن يدب بين المسلمين، وتسربت إليهم الأدواء والعلل، وابتعدوا عن النور الذي أضاء لسلفهم الحياة، وأرشدهم دومًا إلى طريق الهداية: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:9]، ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:52].. فتخلوا عن اعتصامهم بكتاب ربهم، وتنكبوا هدي نبيهم ﷺ ، وملأت الدنيا قلوبهم، وصاروا غثاء كغثاء السيل، فتداعت عليهم الأمم من حولهم كما تداعى الأكلة على قصعتها، كما في حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، مولى رسول الله ﷺ : **قال رسول الله** ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها»، **قال: قلنا:** يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ **قال:** «أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاءً كغثاء السيل، تُنتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن»، **قال: قلنا:** وما الوهن؟ **قال:** «حب الحياة وكراهية الموت»(1).

فعادت الغربة.. وعاد الغرباء، وصاروا كالشعرة البيضاء في الجلد الأسود، وصفهم رسول الله ﷺ بالقابضين على الجمر ... ففي حديث أبي ثعلبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سأل النبي ﷺ عن تفسير قوله تعالى: لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:105] **فقال:** «يا أبا ثعلبة، مر بالمعروف وانه عن المنكر، فإذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوى متبعًا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك ودع عنك العوام، إن من ورائكم فتنًا كقطع الليل المظلم، للمتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم»، **قيل:** بل منهم يا رسول الله؟ **قال:** «لا، بل منكم؛ لأنكم تجدون على الخير أعوانًا، ولا يجدون عليه أعوانًا»(2)، ووصف زمانهم في حديث بهز بن حكيم الذي رواه عن أبيه عن جده رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ ، **قال:** «يأتي على الناس زمان علماؤها فتنة، وحكماؤها فتنة، تكثر المساجد والقراء، لا يجدون عالمًا إلَّا الرجل بعد الرجل»(3).

ولله در ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال في نونيته:

يا سلعة الرحمن لست رخيصةً ... بل أنت غاليةً على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلَّا واحد لا اثنان

---

(1) رواه أحمد برقم (22832).

(2) أخرجه أبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه.

(3) رواه أبو نعيم.

يـــا ســـــلعة مـــــاذا كفؤهـــــا إلَّا أولـــو التقـــوى مـــن الإيـــمان

يــا ســلعة الــرحمن ســوقك كاســد بـــين الأراذل ســـفلة الحيـــوان

ولله دره حين نصح:

لا تخـش كثـرتهم فهـم همـج الـورى وذبابـــة أتخـــاف مـــن ذبـــان

وإذا تكـــاثرت الخـــصوم وصـــيحوا فاثبـــت فـــصيحتهم كمثـــل دخـــان

وقد استهدفت في هذا الكتاب (خاصة في الفترة المكية)، إبراز ما عاشه الجيل القدوة من غربة، وما تعرضوا له من أذًى واضطهاد وتنكيل، فصبروا وثبتوا؛ لينالوا ما نالوا من نصر وتمكين في الدنيا، وأجرٍ ومكانةٍ في الآخرة.

فسر على خطاهم - أيها الحبيب - **وليكن شعارك**: أنا مع الله .. إذًا فأنا أكثر منهم جميعًا، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ **قال:** «الله أكثر»(1).

الهدف الثامن: أن تعرف روح الشريعة:

لما كانت السيرة النبوية هي التجسيد الحي لتعاليم الإسلام كما أرادها الله تعالى، صار من البديهي أن تكون منهجًا معياريًّا، تقاس إليه الأعمال والمواقف، وتوزن بميزانه الدقيق ، **فيقول المسلم لنفسه أمام موقف من المواقف:** أحسب أن هذا ليس من الدين في شيء، أو أن هذا لا يتماشى وروح الشريعة (وليس في ذلك غناء بالطبع عن الرجوع إلى العلماء الثقات وأهل الذكر، فيزن أحداث الحياة ومفرداتها، ويضبط عقله وقلبه معًا على خطاه ﷺ ، بعيدًا عن التعصب الممقوت والتفريط المعيب، ويتذوق روح الإسلام ومقاصده السامية؛ مما يحميه (بعد الله ﷻ) من السقوط والتشتت إزاء الأحداث والمواقف.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في نصيحة موجهة إلى الطلبة المسلمين بباكستان: «لأن الطلاب وهم قادة المستقبل، إذا وجهوا توجيهًا إسلاميًّا صحيحًا، ونمت فيهم روح الإسلام، وشبت معهم الأخلاق التي رسمها رسول الله ﷺ للمسلمين، فإنهم يكونون من أعظم أسباب سعادة أمتهم، والسير بها إلى أحسن المناهج، وتجنيبها ويلات المذاهب الهدامة والمبادئ المدمرة والعقائد المنحرفة، التي تفتك بالأمم وتقتل الشعوب»(2).

---

(1) رواه الترمذي برقم (3573)، وصححه الألباني.

(2) مجموع فتاوي الشيخ ابن باز، (238/6).

ومن المعلوم أن علوم الشريعة لم تكن موجودة في العصور الأولى كعلوم نظرية، وإنما اعتني بها تطبيقيًّا، ولذا فإن النبي ﷺ هو الذي وضع اللبنة الأولى للمقاصد الإسلامية، من خلال سيرته العطرة، وهو ما ستلمسه بنفسك في مواقفه وأقواله وأفعاله ﷺ .

ونستدل على ذلك بموقف واحد من هذه المواقف، وهو رفضه ﷺ قتل عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وتعليل ذلك **بقوله لعمر** ﷺ: «دعه؛ لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»[1].

وسيرته ﷺ ملأى بهذه المواقف التي ترتفع بالمسلم من الوقوف عند النتائج القريبة إلى إبصار العواقب والمآلات، وأن تكون لديه خريطة ذهنية واضحة لفقه الأولويات.

الهدف التاسع: أن تضبط فكرك بهديه ﷺ :

إن المرض العضال الذي أصاب هذه الأمة هو الخلل في الفهم الصحيح للإسلام، واجتزاء بعضه وترك البعض، كما جسد ذلك الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مثال الفيل الشهير، **قال:** إن جماعة من العميان وجدوا فيلًا، فلما طلب منهم وصف الفيل وضع أحدهم يده على ناب الفيل، **فقال:** الفيل هو عبارة عن عظم أملس، ووضع الآخر يده على بطن الفيل، **وقال:** هو جسم كبير مفرطح، أما الثالث فوضع يده على خرطوم الفيل أو زلومته، **وقال:** شيء أشبه بكذا وكذا. والحقيقة هي أن الفيل مجموع هذا كله، وإنما قال كل واحد منهم ما عرف أو فهم أو تحسس.

فالبعض اجتزأ الإسلام في العبادة فقط، والبعض اجتزأه في محاربة البدع والمنكرات، والبعض جعل الدين هو الانكفاء على الذات، والبُعد عن المعاصي والآثام، والصبر على ذلك حتى لقاء الله والجنة ... في حين أن قراءة واحدة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونظرة على سيرته ومسيرته من البعثة إلى الممات تؤكد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة، تنتظم شئون الناس في الدنيا والآخرة؛ فهو عقيدة وعبادة، ودين ودولة، وروحانية وعمل ، ومصحف وسيف، وحكومة وأمة، وجهاد ودعوة، وخلق وقوة، وعلم وقضاء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:89]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:9].

(1) رواه البخاري برقم (4905).

وسترى في هذا الكتاب (كما في غيره من كتب السيرة) رسول الله ﷺ، وهو في مكة يعرض نفسه على قبائل الجزيرة العربية؛ طالبًا إسلامهم ومنعتهم، وكيف كان رده على (بني شيبان) حين وافقوا على حمايته حماية جزئية مشروطة، فرفض ﷺ **وقال:** «إنه لا يقوم بهذا الدين إلَّا من أحاطه من جميع جوانبه»[1].

وستراه ﷺ في سني الدعوة كلها لا يعرف الانصياع لأهل الأهواء وأصحاب الشهوات، أو الراغبين في القعود عن الجهاد ... ناهيك عن رفضه لكل أمرٍ من أمور الجاهلية ولكل سنن اليهود والنصارى ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية].

فلما فرغ منها نزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:3]، فبكى عمر، فقال له رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ قال: يا رسول الله، أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل قط شيء إلا نقص، قال: «صدقت»[2].

الهدف العاشر: أن توقن أن المستقبل لهذا الدين:

«المطلع على سيرة النبي ﷺ وسيرة دعوته، يرى انتقالها من نصر إلى نصر، وازدياد أتباع الدعوة من أهل مكة، ثم من النُزاع من القبائل، رغم الأذى الشديد والمواجهة القوية من المشركين، وتنويعهم الأساليب في محاربة الدعوة وأهلها، ويدرك بكل يقين عناية الله وتوفيقه لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ونصرهم على عدوهم، وهذا مما يقوي الثقة في نفوس المؤمنين في كل مكان وكل زمان، بأن العاقبة لهم، والتمكين سيكون لدينه وحملته، فيجدوا ويجتهدوا ويثبتوا حتى يأتيهم النصر، وما يرونه من ظهور الكفار وسيطرتهم في فترة من فترات الزمن، لن يكون وضعًا دائمًا، بل سيزول، ويظهر أهل الحق، وهذا من أعظم العوامل على محاربة اليأس، والقيام بالواجب الشرعي حسب المقدرة والاستطاعة، والاجتهاد في ذلك، ومغالبة الكفار، حتى يمتلك المسلمون زمام القوة وعدة النصر عليهم»[3].

(1) سيرة ابن هشام 163/1.

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (35549).

(3) د. محمد بن صامل السلمي: السيرة النبوية .. أهميتها وأقسامها ومقاصد دراستها.

إن سيرة النبي ﷺ هي فترة زمنية صنعها الوحي؛ ولذا فكل ما تحقق فيها من نصر ونجاح وبناء هو نتاج هذا الوحي، وهذا الوحي بين أيدينا محفوظ حتى قيام الساعة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت]. والوحي (بشقيه الكتاب والسنة) هو منهج الإسلام الذي انتهجه الأولون، ولو أخذته الأمة بحقه - كما أخذه النبي ﷺ والصحابة ومن تبعهم بإحسان - لوجدوا من الله العون والتأييد كأسلافهم، فسنن الله لا تتبدل ولا تتغير، فمن أصلح واتقى ساد وعز، ومن أعرض ونأى خسروذل: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور].

واعلم - أيها الحبيب - أن هذا الدين سوف يسود العالم كله بعز عزيز أو بذل ذليل؛ لأن الله - ﷻ - قد بشرنا بذلك في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة]، وعن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** سمعت رسول الله ﷺ **يقول:** «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلَّا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلًّا يذل الله به الكفر»(1)، وعن ثوبان عن رسول الله ﷺ **قال:** «إن الله زوى لِيَ الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، فإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض»(2)، وحينما سُئل عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي المدينتين تفتح أولًا القسطنطينية أو رومية؟ فدعا بصندوق له حِلق، فأخرج منه كتابًا **وقال:** بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب؛ إذ سأل رجل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولًا، قسطنطينية أو رومية؟ **فقال رسول الله** ﷺ : «مدينة هرقل تفتح أولًا»(3)، ومدينة هرقل هي القسطنطينية (إستانبول الآن)، وقد فتحت، ولم يبق إلَّا رومية (روما) ، وستفتح بإذن الله؛ لأن رسول الله ﷺ بشر بذلك.

---

(1) أخرجه أحمد (4/103) (17082)، والألباني في (السلسلة الصحيحة) (1/7).

(2) أخرجه مسلم (8/171)، وأحمد (5/218) (ح22152).

(3) رواه أحمد (6645)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (4).

وما أروع ما قاله الشيخ يوسف القرضاوي في مصنفه القيم (المبشرات بانتصار الإسلام): «لا يمكن أن تسقط راية الإسلام، قد تصيبنا محن، وقد تنزل بنا الفتن، وقد تحيط بنا الشدائد. ولكن هذا كله لن يفت في عضدنا، ولن يهزم الأمل في صدورنا، سنظل نتطلع إلى الفجر القادم، هل يستطيع أحد أن يمنع أنوار الفجر؟! أن يوقف طلوع النهار؟! لا، كل ما في الأمر أن اللحظات التي تسبق طلوع الفجر أشد لحظات الليل سوادًا وحلكة، ثم ينبثق بعدها الفجر، ونحن ننتظر فجر الإسلام من جديد إن شاء الله».

❊ ❊ ❊



الباب الأول
الأنبياء إخوة ودينهم واحد

الفصل الأول: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

الفصل الثاني: **الرسالة من آدم إلى محمد ﷺ**.

الفصل الثالث: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾.

الفصل الرابع: **الأنبياء إخوة**.

الفصل الخامس: **بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ**.

الفصل الأول

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾

أرسل الله الرسل ليُعبد وحده، ويكون الدين كله لله، وليبين للناس الشرائع والأحكام ، فالعقل وإن كان باستطاعته التمييز بين الخير والشر، إلَّا أنه لا يستقل بمعرفة الطيب والخبيث، ومعرفة ما ينفعه وما يضره، وتسيطر عليه رغباته وشهواته.

وإرسال الرسل هو الذي يليق بكرم الله وفضله، ورحمته وعدله، فما كان الله ليخلق بني آدم، ويجمعهم في الأرض ثم يتركهم سدى، ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث إليهم رسلًا ليبين لهم ما يتقون، فيعتذرون بعدم بلوغ الدعوة إليهم: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه] ، ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة:19] . وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** قال رسول الله ﷺ : «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عَزَّ وَجَلَّ ، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين»(1).

والإيمان بالرسل من أركان الإيمان، فلا يصح إيمان العبد إلَّا به: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة]، وقد أمرنا الله بالإيمان بهم: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران]، وقرن الله سبحانه الكفر بالرسل بالكفر به: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ

---

(1) أخرجه البخاري برقم (4634)؛ ومسلم برقم (2760).

سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء]، وفي مقابل ذلك: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [النساء]، وفي حديث جبريل المعروف أن النبي ﷺ أجاب لما سأله جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن الإيمان، **فقال:** «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1]، وكان النبي ﷺ إذا قام للتهجد؛ **قال:** «اللّهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة، حق والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق» [2].

معنى الإيمان بالرسل:

1- تصديقهم جميعًا فيما جاءوا به، وأنه من عند الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد:19].

2 - عدم التفريق بين أحد منهم: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:285].

3- النظر إليهم بعين الكمال، فلا ينتقص أحدٌ منهم، **قال** ﷺ: «لا تفضلوا بين أنبياء الله [3]، وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ **قال:** «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[4].

4- اعتقاد عصمتهم في تبليغهم الوحي، وعصمتهم من الكبائر والصغائر التي تدل على خسة الطبع وسفول الهمة.

5- موالاتهم جميعًا ومحبتهم، والحذر من بغضهم وعداوتهم: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة].

6- اعتقاد فضلهم على غيرهم من الناس؛ وأنه لا يبلغ منزلتهم أحد من الخلق مهما بلغ من الصلاح والتقوى﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج].

---

(1) مسلم (8).

(2) صحيح البخاري، برقم (1499).

(3) رواه البخاري رقم (3414)؛ ومسلم رقم (2373).

(4) رواه البخاري (3416)؛ ومسلم (2376).

7- محبتهم جميعًا: فمن أبغض نبيًّا من الأنبياء فقد كفر.

8- دفع غلو الغالين فيهم: كغلو النصارى في المسيح ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:171].

9- الصلاة والسلام عليهم مطلقًا عند ذكرهم: فقد نقل غير واحد من العلماء الإجماع على مشروعية ذلك، منهم الإمام النووي، وقد قال تعالى عن نوح: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات].

وقال عن إبراهيم: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات]، وقال عن موسى وهارون: : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات].

صفات وخصائص الأنبياء والرسل:

1- جميعهم رجال من البشر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 43]، فهم مخلوقون، يأكلون ويشربون، وينسون وينامون، ويصيبهم المرض والموت: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:20].

2- جميعهم قد بلغ الكمال في الخلقة الظاهرة، والذروة في مكارم الأخلاق، وهم خير الناس نسبًا، ولهم من العقول الراجحة واللسان المبين ما يجعلهم أهلًا لتحمل تبعات الرسالة والنبوة.

3- حملهم للرسالة هو اصطفاء من الله وحده: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:124]، ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:75].

4- هم معصومون فيما يبلغونه عن الله، فهم لا يخطئون في التبليغ عن الله، ولا يخطئون في تنفيذ ما أوصى الله به إليهم، ولو أخطئوا فالله ﷻ يردهم إلى الحق والصواب، ولا يتسلط عليهم فيما يبلغون إنس ولا جان ولا شيطان: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن].

5- الصدق: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ [يس].

6- الصبر: فقد صبروا وتحملوا في سبيل إعلاء كلمة الله: ﴿**فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف:35].

7- أنهم لا يورثون بعد موتهم: عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **قالت:** قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا نورث، ما تركنا صدقة»[1].

8- تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قصة الإسراء - وفيه - فقال أنس: والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم »[2].

9- أنهم يخيرون عند الموت بين الدنيا والآخرة: عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **قالت:** سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما من نبي يمرض إلَّا خير بين الدنيا والآخرة»[3].

10- أنهم يقبرون حيث ماتوا: عن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لن يقبر نبي إلا حيث يموت»[4].

معجزات الأنبياء والرسل:

المعجزة هي أمر خارق للعادة، يجري على أيدي الأنبياء؛ للدلالة على صدقهم، **ومعجزات الأنبياء كثيرة:**

* **فمن معجزات صالح** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أن قومه طلبوا منه أن يخرج لهم من صخرة عينوها له ناقة ثم حددوا صفات الناقة، فدعا ربه بذلك، فأمر الله الصخرة فانفطرت عن ناقة عظيمة: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾ [الأعراف].

(1) رواه البخاري (3092)، ومسلم (1757).
(2) رواه البخاري (3570).
(3) رواه البخاري (4586)؛ وابن ماجه (1620)؛ وأحمد (26960).
(4) أخرجه أحمد (28).

* **ومن معجزات إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: أن النار التي أشعلها قومه لتعذيبه وإهلاكه جعلها الله بردًا وسلامًا عليه: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾ [الأنبياء].

* **ومن معجزات موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ: العصا التي تحولت إلى حية عظيمة: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١)﴾ [طه]، ومن معجزاته أيضًا أنه كان يدخل يده في درع قميصه، ثم يخرجها فإذا هي بيضاء تتلألأ كالقمر من غير سوء: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢)﴾ [طه].

* **ومن معجزات عيسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه يصنع من الطين ما يشبه الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويمسح الأعمى (الأكمه) والأبرص فيبرأ بإذن الله، وينادي الموتى في قبورهم فيجيبون بإذن الله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة:110].

* **ومن معجزات رسولنا** ﷺ: القرآن العظيم، وهو أعظم معجزات الرسل جميعًا: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء]، وله ﷺ معجزات أخرى كثيرة، أفردنا لها بابًا بعنوان (دلائل النبوة).

الفرق بين الرسول والنبي:

اختلف العلماء في الفرق بين النبي والرسول، **ولعل أرجح الأقوال هو**: أن **النبي** يُبعث لتجديد رسالة سابقة انحرف أتباعها عنها، ولم يلتزموا بهدايتها، وهو الشأن في أغلب أنبياء إسرائيل.

أما **الرسول** فهو الذي يُبعث برسالة مستقلة ابتداء، أو تعديل رسالة سابقة عليه، بنسخ أحكام منها، أو زيادة أحكام عليها(1).

وبذا يكون الله ﷻ نبأ النبي بأمره ونهيه؛ ليخاطب المؤمنين ويأمرهم بذلك، ولا يخاطب الكفار ولا يرسل إليهم، أما الرسول فأرسله إلى الكفار والمؤمنين ليبلغهم رسالة جديدة مستقلة،

---

(1) تفسير الألوسي (17 / 151).

أو ليعدل ما بين أيديهم من رسالة سابقة، ولا يشرط أن تأتي رسالة الرسول برسالة جديدة، فقد كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا على شريعة التوراة، وكلهم رسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر:34].

وقد قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصحيح - والذي عليه الجمعاء الغفير - أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسول».

عدد الأنبياء والرسل:

جرت سنة الله ﷻ أن يبعث في كل أمةً رسولًا؛ لتقوم الحجة على الناس: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر]، فلم تخل أمة من رسول، يبعثه الله برسالة مستقلة إلى قومه، أو نبي يوحي إليه بشريعة من قبله ليجددها ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:36]، ولذا فالأنبياء والرسل صلوات الله عليهم كثيرون، وقد جاء في حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ **قال:** «ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيرًا»، وفي رواية **قلتُ**: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ **قال:** «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل عن ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا»(1).

وذكر الله - ﷻ- خمسة وعشرين منهم بأسمائهم في القرآن، منهم ثمانية عشر ورد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام]. وذكر الباقين في مواضع أخرى من القرآن الكريم:

- هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:65].
- صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف:73].

(1) رواه البيهقي في سننه الكبرى (17784).

- شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [الأعراف:85].

- آدم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ [آل عمران:33].

- إدريس وذو الكفل: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾ [الأنبياء].

- محمد ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح:29].

أولو العزم من الرسل:

أولو العزم من الرسل هم ذوو الحزم والصبر، وهم خمسة: (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ)، وقد ذكرهم الله مجتمعين في موطنين من كتابه، **الأول في سورة الأحزاب:** ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾ [الأحزاب]، **والثاني في سورة الشورى:** ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:13].

وهؤلاء الخمسة هم أفضل الرسل وخيار بني آدم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه **قال:** «خيار ولد آدم خمسة: نوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد ﷺ، وخيرهم محمد ﷺ وصلى الله وسلم عليهم أجمعين»(1)، وأفضلهم محمد ﷺ، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه **قال:** «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»(2).

* * *

(1) أخرجه البزار، والهيثمي في المجمع (255/8)، **وقال:** (رجاله رجال الصحيح)، والحاكم، **وقال:** صحيح الإسناد.

(2) أخرجه مسلم برقم (2218)، وأبو داود (38/5) برقم (4613).

الفصل الثاني

الرسالة من آدم إلى محمد ﷺ

لما مات آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بقي أولاده بعده عشرة قرون على دين أبيهم، دين الإسلام، ثم كفروا بعد ذلك، **وسبب كفرهم:** الغلو في حب الصالحين، كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح]؛ وذلك أن هؤلاء الخمسة قوم صالحون كانوا يأمرونهم وينهونهم، فماتوا في شهر، فخاف أصحابهم من نقص الدين بعدهم، فصوروا صورة كل رجل في مجلسه (أي: صنعوا له تمثالًا)؛ لأجل التذكرة بأقوالهم وأعمالهم إذا رأوا صورهم، ولم يعبدوهم، ثم حدث قرن آخر، فعظموهم أشد من تعظيم من قبلهم، ولم يعبدوهم، ثم طال الزمان، ومات أهل العلم، فلما خلت الأرض من العلماء، ألقى الشيطان في قلوب الجهال أن أولئك الصالحين ما صوروا صور مشايخهم إلَّا ليستشفعوا بهم إلى الله، فعبدوهم!!

فلما فعلوا ذلك أرسل الله إليهم نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ليردهم إلى دين آدم وذريته الذين مضوا قبل التبديل، فكان من أمرهم ما قص الله في كتابه، ثم عمر نوح وأهل السفينة الأرض، وبارك الله فيهم، وانتشروا في الأرض أممًا، وبقوا على الإسلام مدة لا ندري ما قدرها، ثم حدث الشرك، فأرسل الله الرسل، وما من أمة إلَّا وقد بعث الله فيها رسولًا، يأمرهم بالتوحيد، وينهاهم عن الشرك، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:36]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون:44].

ولما ذكر القصص في سورة الشعراء، ختم كل قصة بقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الشعراء]، فقص الله – سبحانه – ما قص لأجلنا، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف:111].

وكثيرٌ من الرسل وأممهم لا نعرفهم؛ لأن الله لم يخبرنا عنهم، لكن أخبرنا عن عاد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، فبعث الله إليهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان من أمرهم ما قص الله في كتابه، وبقي التوحيد في أصحاب هود إلى أن عُدم بعد مدة، لا ندري كم هي، وبقي في أصحاب صالح، إلى أن عُدم بعد مدة، لا ندري كم هي!

ثم بعث الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وليس على وجه الأرض يومئذ مسلم، فجرى عليه من قومه ما جرى، وآمنت به امرأته سارة، ثم آمن له لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومع هذا نصره الله، ورفع قدره، وجعله إمامًا للناس.

ومنذ ظهور إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لم يعدم التوحيد في ذريته، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف].

وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أرض العراق، وبعدما جرى عليه من قومه ما جرى، هاجر إلى الشام، واستوطنها، ثم إنه قدم أرض رجل جبار، كما في الصحيح عن رسول الله ﷺ **قال:** «فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، **فقال لها:** إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك. فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، فأتاه **فقال:** لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلَّا لك. فأرسل إليها، فأتى بها، فقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقُبضت يده قبضة شديدة، **فقال لها:** ادعي الله أن يطلق يدي، فلك الله ألَّا أضرك، ففعلت، فعاد، فقُبضت يده أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، فعاد، فقُبضت يده أشد من القبضتين الأوليين، **فقال لها:** ادعي الله أن يطلق يدي ولك الله ألَّا أضرك، ففعلت، فأطلقت يده. ودعا الذي جاء بها، **فقال له:** إنك إنما جئتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطها هاجر. فأقبلت، فلما رآها إبراهيم انصرف، **فقال لها:** مهيم، **قالت:** خيرًا، كف الله يد الفاجر، وأخدم خادمًا»(1)، وأعطت سارة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الجارية التي أعطاها الجبار، فواقعها، فولدت له إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فغارت سارة، فأمره الله بإبعادها عنها، فذهب بها وبابنها، فأسكنهما في مكة، ثم بعد ذلك وهب الله له ولسارة إسحق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وصارت ولاية البيت ومكة لإسماعيل، ثم لذريته من بعده، وانتشرت ذريته في الحجاز وكثروا، وكانوا على الإسلام - دين إبراهيم وإسماعيل - قرونًا كثيرة، ولم يزالوا على ذلك حتى نشأ فيهم عمرو بن لحي، فابتدع الشرك، وغير دين إبراهيم (وتأتي قصته إن شاء الله).

وأما إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنه بالشام، وذريته هم بنو إسرائيل والروم.

أما بنو إسرائيل فأبوهم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابن إسحاق، ويعقوب هو إسرائيل.

---

(1) رواه مسلم (2371).

وأما الروم، فأبوهم عيص بن إسحق.

ومما أكرم الله به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن لم يبعث بعده نبيًّا إلَّا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت:27]، وكل الأنبياء والرسل من ذرية إسحق، وأما إسماعيل فلم يبعث من ذريته إلَّا نبينا محمدًا ﷺ، فبعثه الله إلى العالمين جميعًا، وكان من قبله من الأنبياء كل نبي يبعث إلى قومه خاصة[1].

* * *

(1) الشيخ محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول ﷺ، ص (9-18) بتصرف.

الفصل الثالث

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾

إن الدين الذي ارتضاه الله لعباده هو الإسلام، فهو لا يقبل من الناس سواه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]، وهو الدين الذي دان به سائر الرسل والنبيين، ولك أن تتدبر ما قاله أهل العلم في قول الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الفرقان]، إن قوم نوح لم يكذبوا إلَّا نبيهم نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكن لما كانت الدعوات واحدة والدين واحد (وهو الإسلام)، اعتبر القرآن الكريم تكذيب قوم نوح لرسولهم تكذيبًا للرسل جميعًا.

والإسلام هو الدين الذي نادى به جميع الأنبياء والمرسلين:

- فنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول لقومه: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس].

- والله - عَزَّوَجَلَّ - أمر به نبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة].

- وهو دين يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبنيه من بعده: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

- وهو الذي نادى به موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قومه: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يونس].

- وهو ما حمله خطاب سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أهل اليمن: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل].

- وهو ما أقر به الحواريون لنبيهم عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [آل عمران].

وكل الرسل أرسلوا بالتوحيد الخالص، وأمروا الناس بعبادة الله وحده، والإيمان بالأنبياء والمرسلين الذين سبقوهم، والإيمان باليوم الآخر، والالتزام بالأخلاق وأصول العبادات، وأمروهم بطاعة الله، ونهوهم عن معصيته .. فهذه الأصول دعا إليها كل رسول أمته، أما الشرائع فتختلف من نبي إلى آخر؛ لأنها تنزل لتنظيم المجتمعات، وهذه المجتمعات تختلف في احتياجاتها وأمراضها: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: 48].

* * *

الفصل الرابع

الأنبياء إخوة

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ **قال:** «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد» [1].

والعلات: الضرائر، وبنو العلات: الإخوة من الأب .. ومعنى الحديث اشتراك الأنبياء في الجانب الأصلي من الرسالة، وهو - كما ذكرنا - الدعوة إلى التوحيد وأصول العبادات والأخلاق، واختلافهم في الشرائع، وهذا الاختلاف ليس افتراقًا، ولكنه اتفاق مبني على أخوة، فهم مختلفون في جانب (شبهه رسول الله ﷺ في أنهم إخوة مختلفون في الأم)، ومتفقون في الرسالة وعصبها (وشبهه رسول الله ﷺ بأنهم من أب واحد).

وأخوة الأنبياء ظاهرة ظهورًا يقينيًّا فيما جاء في السنة:

- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** كتب رسول الله ﷺ إلى يهود: «من محمد رسول الله أخي موسى وصاحبه، بعثه الله بما بعثه به ...» [2].

- وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ **قال:** «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى» [3].

- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: «عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه» [4].

- وفي قصة المعراج حين رأى النبي ﷺ موسى وهارون وعيسى ويحيى وإدريس ويوسف عليهم السلام، تطابقت كلماتهم ترحيبًا بخاتم الأنبياء: «مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح» [5].

---

(1) البخاري (3443)، كتاب أحاديث الأنبياء.

(2) رواه البيهقي في سننه الكبرى (20775).

(3) رواه الحاكم في مستدركه (3587).

(4) رواه الطبراني في المعجم الكبير (11640).

(5) رواه البخاري (349)، ومسلم (164).

الفصل الخامس

بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ

شاءت كلمة الله تعالى أن يهيئ البشرية كلها لاستقبال نبوة محمد ﷺ؛ لأن رسالته ﷺ هي الخاتمة، ويترتب عليها معان كثيرة؛ من وحدة الإنسانية وتوحيد دينها، وهي الرسالة الباقية إلى قيام الساعة، وشريعتها أكمل الشرائع، ورسولها هو أعظم الرسل؛ بل هو سيد الأولين والآخرين، والأمة التي ستحمل الرسالة هي خير أمةٍ أخرجت للناس .. وكل ذلك يحتاج إلى مقدمات ومبشرات؛ لإيجاد الاستعداد لاستقبالها.

معرفة أمره ﷺ قبل خلق آدم:

كان أمر محمد ﷺ مشهورًا معلومًا في الملأ الأعلى من قبل خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فعن العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمجندل في طينته»[1]، وعن ميسرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، **قال: قلت:** يا رسول الله، متى كنت نبيًّا؟ **قال:** «وآدم بين الروح والجسد»[2]، وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سُئل رسول الله ﷺ: متى وجبت لك النبوة؟ **قال:** «بين خلق آدم ونفخ الروح فيه»[3]، وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، **قيل:** يا رسول الله، متى كنت نبيًّا؟ **قال:** «وآدم بين الروح والجسد»[4].

ميثاق النبيين:

إن مما خص الله سبحانه نبيه محمدًا ﷺ به، أن جعله خاتم الأنبياء، وأرسله للناس جميعًا؛ ولذلك أخذ سبحانه عهدًا على كل نبي أرسله، أن يؤمن به ويتبعه وينصره إن بعث وهو حي، كما أخذ العهد على الأنبياء أيضًا أن يبشروا قومهم به، وينعتوه لهم ببعض أوصافه، وأمرهم أن يأخذوا عليهم العهد لئن بعث وهم أحياء ليتبعنه ولينصرنه، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ

---

(1) أخرجه أحمد في المسند (17424)، والحاكم في مستدركه (3587) وصححه، وأقر الذهبي تصحيح الحاكم.

(2) أخرجه أحمد (16891)، وقال الألباني: إسناده جيد، (الألباني، صحيح السيرة النبوية، ص 21).

(3) المصدر السابق.

(4) رواه ابن شاهين في «دلائل النبوة».

ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران]، وعن علي وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ **قالا:** «ما بعث الله نبيًّا؛ آدم فمن دونه إلَّا أخذ عليه الميثاق، لئن بُعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ العهد على قومه: لئن بُعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنه، ثم تلا عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [آل عمران:81][1].

وإنما أخذ الله سبحانه له الميثاق، مع علمه بأنهم لا يدركونه؛ لإظهار فضله ورفع شأنه، وليبلغ بعضهم بعضًا بأمره، ويفشو هذا الخبر من جيل إلى جيل، فإذا أظل زمانه وبعث، اتبعه من عاصره من جميع الأمم»[2].

دعوة وبشارة ورؤيا:

عن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمجندل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني، وقد خرج منها نور ساطع، أضاءت منه قصور الشام»[3].

والحديث قد ذكر رؤيا أمه ﷺ، ولم يذكر دعوة إبراهيم وبشارة عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ اكتفاء بما جاء في القرآن الكريم.

فدعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي التي ذكرها الله سبحانه بقوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة].

أما بشارة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجاءت في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:6].

* ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾:

أكد الله ﷻ في كتابه أن أهل الكتاب يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ويعرفون أنه

---

(1) رواه الطبراني في تفسيره (3/332).

(2) عبد الوهاب عبد السلام طويلة: بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ، ص 19.

(3) أخرجه أحمد في المسند (17424)، والحاكم في مستدركه (3587)، وصححه، وأقر الذهبي تصحيح الحاكم.

رسول من ربه، وقد علموا أوصافه من أحبارهم وعلمائهم، ووجدوه مكتوبًا عندهم في كتبهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

روى القرطبي أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [القصص] سأل عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عبد الله بن سلام، وقد كان كتابيًّا فأسلم: أتعرف محمدًا ﷺ كما تعرف ابنك؟ **فقال:** نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، أما ابني فلا أدري ما الذي قد كان من أمه!

* وقد تعددت البشارات في الكتب السماوية السابقة بقدومه ﷺ، وبوصفه، بل وباسمه وسمته .. فعن عطاء بن يسار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، **قال:** لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، **قلت:** «أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلَّا الله، ويفتح به أعينًا عميًا، وآذنًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا»(1).

وقد روى رجل من الأعراب قصته مع الإسلام، ومع رسول الله ﷺ، **فقال:** جلبت جلوبة (أي بضاعة) إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي، قلت: لألقين هذا الرجل (يعني النبي ﷺ)، فلأسمعن منه، **قال:** فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشر التوراة، يقرؤها، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت (أي يقرأ التوراة أمام ابنه الذي يحتضر بين يديه) كأحسن الفتيان وأجملهم، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجدني في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟»، فقال برأسه هكذا (أي لا)، فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة، إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وأنك

(1) رواه البخاري (2125).

رسول الله. فقال ﷺ: «أقيموا اليهودي عن أخيكم»، ثم تولى كفنه والصلاة عليه (أي أمر بتكفينه والصلاة عليه؛ لأنه مات مسلمًا) [1].

* وعن سلمة بن وقش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** «كان لنا جار من اليهود بالمدينة، فخرج علينا قبل البعثة بزمان، فذكر الحشر والجنة والنار، **فقلنا له:** وما آية ذلك؟ **قال:** خروج نبي يبعث من هذه البلاد – وأشار إلى مكة – **فقالوا:** متى يقع ذلك؟ **قال:** فرمى بطرفه إلى السماء، وأنا أصغر القوم، **فقال:** إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه، قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى بعث الله تعالى نبيه، وهو حي – أي اليهودي – فآمنا به، وكفر هو؛ بغيًا وحسدًا»[2].

* وقد ذكر ابن هشام في سيرته، أن حبرًا من أحبار اليهود، اسمه (ابن الهيبان)، خرج من بلاد الشام، ونزل في بني قريظة، ثم توفيَّ قبل البعثة النبوية بسنتين، فلما حضرته الوفاة، **قال لبني قريظة:** «يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير (الشام) إلى أرض البؤس والجوع والحجاز؟ **قالوا:** أنت أعلم، **قال:** إني قدمت البلدة أتوكف (أنتظر)، خروج نبي قد أظل زمانه، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه».

* وقال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه (الأنصار) **قولهم:** «إن مما دعانا إلى الإسلام – مع رحمة الله تعالى وهداه – لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، **قالوا لنا:** إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

* وروت أم المؤمنين صفية بنت حي بن أخطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن أبيها وعمها اليهوديين ، **قالت:** «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر مغلسين، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس، فأتيا كالين كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى،

---

(1) المحتضرون لابن أبي الدنيا (12).

(2) رواه الإمام أحمد (16083)، والحاكم (584).

فهششت إليهما، فما التفت إليَّ أحد منهما، مع ما بهما من الهم، فسمعت عمي أبا ياسر **يقول لأبي**: أهو هو؟ (أي المبشر به في التوراة)، **قال:** نعم والله، **قال:** أتثبته وتعرفه؟ **قال:** نعم، قال: فما في نفسك منه؟ **قال:** عداوته والله ما بقيت أبدًا»[1].

* وروى ابن إسحاق، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** أتى رسول الله ﷺ بيت المدراس، **فقال:** «أخرجوا إليَّ أعلمكم»، **فقالوا:** عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه، وبما أنعم الله عليهم، وأطعمهم من المن والسلوى، وظللهم من الغمام:« أتعلم أني رسول الله؟»، **قال:** اللّهم نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لمبين في التوراة، ولكن حسدوك**!! قال:** «فما يمنعك أنت؟»، **قال:** أكره خلاف قومي، عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم**!!**

* وعن الفلتان بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** كان النبي ﷺ في المجلس، فشخص بصره إلى رجل يمشي، **فقال:** أبا فلان. **قال:** لبيك يا رسول الله - ولا ينازعه الكلام إلَّا **قال:** يا رسول الله - **قال:** أتشهد أني رسول الله؟ **قال:** لا. **قال:** أتقرأ التوراة؟ قال: نعم. **قال:** والإنجيل؟ **قال:** نعم. **قال:** والقرآن؟ **قال:** والذي نفسي بيده لو أشاء لقرأته، ثم ناشده: هل تجدني في التوراة والإنجيل؟ **قال:** نجد مثلك ومثل مخرجك ومثل هيئتك، فكنا نرجوا أن يكون فينا، فلما خرجت خفنا أن تكون أنت هو، فنظرنا فإذا أنت لست هو. **قال:** ولم ذلك؟ **قال:** معه من أمته سبعون ألفًا ليس عليهم حساب ولا عذاب، وإنما معك نفر**!! فقال** ﷺ: «والذي نفسي بيدي لأنا هو، وإنهم لأمتي، وإنهم لأكثر من سبعين ألفًا وسبعين ألفًا»[2].

* سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يروي:

ثم ذكر ابن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ إسلام سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، من حديث عبد الله بن عباس، **قال:** حدثني سلمان الفارسي - من فيه - **قال:**

كنت رجلًا فارسيًّا، من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها: (جيٌّ)، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته، كما تحبس الجارية.

وأجهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعةً.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (519/1).

(2) رواه البزار في مسنده (3151)، **قال في مجمع الزوائد:** ورجاله ثقات.

قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل في بنيان له يومًا، **فقال لي:** يا بني إني قد شغلت في بنيانٍ هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبس عني؛ فإنك إن احتسبت عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسةٍ من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس؛ لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم، دخلت علهيم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، **وقلت:** هذا والله خيرٌ من الدين الذي نحن عليه.. فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، **فقلت لهم:** أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

فرجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلته عن أمره كله.

فلما جئته **قال:** أي بنيّ! أين كنت؟ ألـم أكن **عهدت إليك ما عهدت؟!**

قال: قلت: يا أبت مررت بناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس.

قال: أي بني ليس في ذلك الدين خيرٌ، دينك ودين آبائك خيرٌ منه.

قال: قلت: كلا والله؛ إنه خيرٌ من ديننا.

قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدًا، ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثْتُ إليَّ النصارى، **فقلتُ لهم:** إذا قدم عليكم ركبٌ من الشام تجارٌ من النصارى، فأخبروني بهم، **قال:** فقدم عليهم ركب من الشام تجارٌ من النصارى، فأخبروني بهم. **فقلت لهم:** إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم.

قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها، **قلت:** من أفضل أهل هذا الدين علمًا؟ **قالوا:** الأسقف في الكنيسة.

قال: فجئته، **فقلت له:** إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأصلي معك، **قال:** ادخل.

فدخلتُ معه، **قال:** فكان رجل سوءٍ، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلالٍ من ذهبٍ وورِقٍ!!

قال: وأبغضته بغضًا شديدًا؛ لما رأيته يصنع.

ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، **فقلت لهم:** إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئًا.

قالوا: وما علمك بذلك؟ قال: **فقلت لهم:** أنا أدلكم على كنزه. **قالوا:** فدلنا، قال: فأريتهم موضعه، **قال:** فاستخرجوا سبع قلالٍ مملوءةٍ ذهبًا وورِقًا، **قال:** فلما رأوها **قالوا:** والله لا ندفنه أبدًا. **قال:** فصلبوه ورموه بالحجارة.

وجاءوا برجل آخر فوضعوه مكانه، **قال سلمان:** فما رأيت رجلًا لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلًا ونهارًا [منه].

قال: فأحببته حبًّا لم أحبَّ شيئًا قبلهُ مثله.

قال: فأقمت معه زمانًا، ثم حضرته الوفاة، **فقلت له:** إني قد كنت معك وأحببتك حبًّا لم أحبه شيئًا قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ **قال:** أي بني! والله ما أعلم اليوم أحدًا على ما كنت عليه .. لقد هلك الناس وبدلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلَّا رجلًا بـ(الموصل)، وهو فلان، فهو على ما كنت عليه، فالحق به.

قال: فلما مات وغيب، لحقت بصاحب (الموصل)، **فقلت:** يا فلان! إن فلانًا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره. **فقال لي:** أقم عندي.

فأقمتُ عنده، فوجدته خير رجلٍ على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، **قلت له:** يا فلان! إن فلانًا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ **قال:** يا بني والله! ما أعلم رجلًا على مثل ما كنا عليه إلَّا بـ(نصيبين)، وهو فلانٌ، فالحق به.

فلما مات وغيب، لحقت بصاحب (نصيبين)، فجئته فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي. **فقال:** أقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر **قلت له:** يا فلان! إن فلانًا كان أوصى بي إلى فلانٍ، ثم أوصى به فلانٌ إليك، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟

قال: يا بني! والله ما أعلم أحدًا بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلَّا رجلًا بـ (عمورية)، فإنه بمثل ما نحن عليه، فإن أحببت فائته؛ فإنه على أمرنا.

قال: فلما مات وغيب، لحقت بصاحب (عمورية)، فأخبرته خبري، **فقال:** أقم عندي. فأقمت عند خير رجلٍ على هدْي أصحابه.

قال: واكتسبت حتى كان لي بقراتٌ وغنيمةٌ.

قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر، **قلت له:** يا فلان! إني كنتُ مع فلانٍ فأوصى بي إلى فلانٍ، ثم أوصى بي فلانٌ إلى فلانٍ، ثم أوصى بي فلانٌ إليك، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟

قال: أي بني! والله ما أعلم أصبح أحدٌ على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبيٍّ هو مبعوثٌ بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرضٍ بين حرتين بينهما نخل، به علاماتٌ لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد، فافعل.

قال: ثم مات، وغيب، ومكثتُ بـ (عمورية) ما شاء الله أن أمكث.

ثم مر بي نفر من (كلب) تجارًا، **فقلت لهم:** احملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. **قالوا:** نعم. فأعطيتهموها وحملوني معهم؛ حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني؛ فباعوني من رجلٍ من يهود عبدًا، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ولم يحق لي في نفسي.

فبينما أنا عنده قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من (المدينة)، فابتاعني منه، فاحتملني إلى (المدينة)، فوالله ما هو إلَّا أن رأيتها، فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها.

وبعث رسول الله ﷺ، فأقام بـ (مكة) ما أقام، لا أسمع له بذكرٍ مما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى (المدينة).

فوالله إني لفي رأس عَذْق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالسٌ تحتي؛ إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، **فقال:** يا فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم لمجتمعون الآن بـ (قباء) على رجل قدم من (مكة) اليوم، يزعمون أنه نبيٌّ.

قال: فلما سمعتها أخذتني الرعدة، حتى ظننتُ سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت **أقول لابن عمه:** ذلك ماذا تقول؟ ماذا تقول؟

قال: فغضب سيدي، فلكمني لكمةً شديدةً، ثم **قال:** ما لك ولهذا؟**!** أقبل على عملك. **قال: فقلت:** لا شيء؛ إنما أردت أن أستثبت عما قال.

قال: وكان عندي شيءٌ قد جمعته، فلما أمسيت أخذته، ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو بـ (قباء)، فدخلت عليه، **فقلت له:** إنه قد بلغني أنك رجلٌ صالحٌ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجةٍ، وهذا شيءٌ كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم. قال: فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ: «كلوا»، وأمسك يده فلم يأكل. **فقلت في نفسي:** هذه واحدةٌ.

ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئًا، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته، **فقلت له:** إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هديةٌ أكرمتك بها. **قال:** فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه.

قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان.

قال: ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو بـ (بقيع الغرقد)، قد تبع جنازةً من أصحابه، وعليه شملتان، وهو جالسٌ في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدبرته أنظر إلى ظهره؛ هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته؛ عرف أني أستثبت في شيءٍ وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم، فعرفته، فأكببتُ عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تحول»، فتحولت بين يديه، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباسٍ**! قال:** فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه[1].

*** أبو سفيان يروي:**

روى مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** حدثني أبو سفيان بن حرب **قال:** انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ إلى الشام، فبينا أنا بها؛ إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل، جاء به دحية الكلبي، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى عظيم الروم هرقل، **فقال هرقل:** هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ **قالوا:** نعم. فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا عليه، فأجلسنا بين يديه، **فقال:** أيكم أقرب نسبًا منه؟ **فقلت:** أنا، فأجلسني بين يديه، وأصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، **فقال:** قل لهؤلاء، إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه. **قال أبو سفيان:** وايم الله لولا أن يؤثر عليّ الكذب لكذبته، ثم

(1) أحمد 5/442 – 444 (3225).

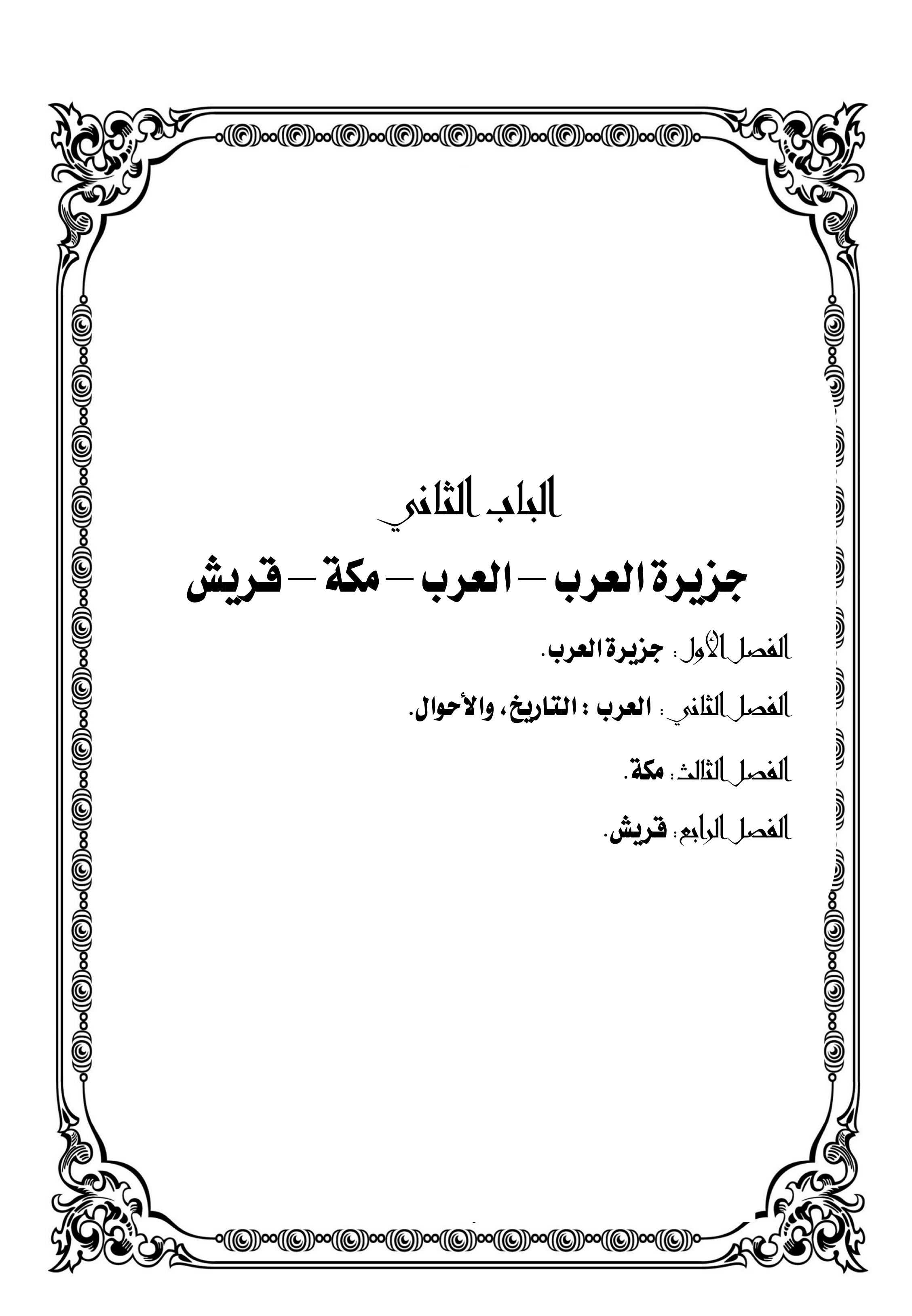
قال لترجمانه: سله كيف نسبه فيكم؟، قلت: هو فينا ذو نسب، **قال:** فهل كان من آبائه من ملك؟ **قلت:** لا. **قال:** فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ **قلت:** لا. **قال:** فهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ **قال:** بل ضعفاؤهم. **قال:** أيزيدون أو ينقصون؟ **قلت:** لا، بل يزيدون. **قال:** هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له، **قلت:** لا. قال: فهل قاتلتموه؟ **قلت:** نعم. **قال:** كيف قتالكم إياه؟ **قلت:** تكون الحرب بيننا وبينه سجالًا، يصيب منا ونصيب منه. **قال:** فهل يغدر؟ **قلت:** لا، ونحن منه في هذه المدة ما ندري ما هو صانع. **قال أبو سفيان:** فوالله ما أمكني من كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه، **قال:** فهل قال هذا القول أحد قبله؟ **قلت:** لا. **فقال لترجمانه:** قل له: إني سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها. وسألتك هل كان في آبائه ملك، فزعمت أن لا، فقلت لو كان في آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم، فقلت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى. وسألتك هل يرتدّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له، فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب. وسألتك هل يزيدون أم ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك هل قاتلتموه، فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم سجالًا، ينال منكم وتناولون منه، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك هل يغدر، فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله، فزعمت أن لا، فقلت لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم، يقول بقول قيل قبله.

ثم قال: بم يأمركم؟ **قلنا:** بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف. **فقال:** إن يك ما تقول حقًّا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي..

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه، فإذا فيه ... فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، فأمر بنا فأخرجنا، **فقلت لأصحابي:** لقد أمر أمرُ ابن أبي كبشة (يقصد رسول الله ﷺ) .. إنه ليخافه ملك بني الأصفر[1]!

---

(1) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (1773).



الباب الثاني

جزيرة العرب – العرب – مكة – قريش

الفصل الأول

جزيرة العرب

هذه الأرض التي تكسوها الرمال والكثبان على مرمى البصر، فلا تلامس عيناك سوى لون الصفرة، اللَّهم إلَّا بعض الأشجار القليلة والشوك الكثير .. هذه الأرض التي ندر فيها الماء إلَّا من خلال بئر هنا وواحة هناك، وحضرت فيها الشمس بقوة؛ لتغشى الأبصار، وتلهب الأرض تحت الأقدام .. هذه الأرض اختارها الله العليم الحكيم مهدًا للرسالة الخاتمة: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص:68]، واختصها من قبل بأول بيت وضع للناس.

حكمة اختيار جزيرة العرب مهداً للرسالة الخاتمة [1]:

قال الشيخ سلمان العودة - حفظه الله: تستطيع أن تتدبر في حكمة الاختيار الإلهي لجزيرة العرب مهبطًا لرسالة الإسلام فيما يلي:

1- الجزيرة مركز الدنيا:

أثبتت الدراسات الحديثة أن مكة هي مركز الأرض، بمعنى: أن اليابسة موزعة على مكة بنسب منتظمة متعادلة، فمكة في الوسط، وقد كتب أحد المتخصصين في المساحة، وهو الدكتور حسين كمال الدين، بحثًا طويلًا، أثبت فيه - بالأدلة والدراسات والإحصائيات والبحوث - أن مكة هي مركز الكرة الأرضية، وهي مركز الدنيا، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى:7]، **قال بعض أهل العلم:** لأن الدنيا كلها حول أم القرى، ورسول الله ﷺ بعث لينذر الدنيا كلها، لا لينذر الجزيرة العربية فحسب.

2- صحراؤها حمتها من كيد الغزاة:

فقد حماها الله ﷻ بصحرائها ورمالها الممتدة، وأرضها الواسعة، من كيد الغزاة المحتلين منذ فجر التاريخ إلى اليوم، كما أن الله ﷻ حماها من تأثير الحضارات المادية؛ فالجزيرة كانت بعيدة عن تأثير حضارة الفرس والرومان واليونان والهند والصين، وكان أهلها أقرب إلى الفطرة السليمة؛ مما سهل من تخلقهم بأخلاق الإسلام بعد ذلك.

---

(1) من محاضرة الشيخ: سلمان العودة بعنوان: (جزيرة الإسلام).

3- **أثر الجزيرة على شعوبها:**

وميزة الصحراء في هذه الجزيرة أيضًا أنها جعلت شعوب هذه الصحراء شعوبًا قوية أبية، لا تحمل الضيم، ولا تقبل الذل، ولا ترضى به، ولا تعطي الدنية في دينها بحال من الأحوال.

إن في الشعوب التي نشأت في الصحراء من القوة والشهامة والعزة والأنفة والكرامة الكثير؛ ولذلك **يقول الرافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إنما الإسلام في الصحراء انتهد [1] ليجيء كل مسلم أسد

4- **جوها وهواؤها:**

الإنسان الذي يعيش في الجزيرة العربية يستطيع أن يتكيف مع الأجواء الأخرى .. وبذلك استطاع الفاتحون والدعاة الأوائل أن يتكيفوا مع أجواء البلاد المفتوحة ويعيشوا فيها، فنشروا الإسلام، وبلغوا رسالته للأنام، ولم يتأثروا بمغايرة مناخ هذه البلاد لمناخ الجزيرة.

5- **الموقع الإستراتيجي:**

إن هذه الجزيرة في موقع إستراتيجي مهم؛ فهي تمسك بخناق العالم كله؛ حيث إنها صلة الوصل بين عدد غير قليل من دوله وقاراته، وهي تربط بينها وتهيمن على ممراتها، وهذه أيضًا ميزة لهذه الجزيرة، اختارها الله ﷻ لها، فأعانت على نشر الرسالة في إمبراطوريات وممالك الأرض من حولها.

*** سبب التسمية:**

العرب: كلمة تعني الصحاري والأرض المجدبة .. وأسماء جزيرة العرب الكثيرة كلها مضافة إلى كلمة (عرب)، **منها اسمان، هما:** (جزيرة العرب)، و(أرض العرب)، وردا في السنة واستعمالات الفقهاء؛ ففي حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»[2]، وفي رواية: «**لئن بقيت لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»[3]، وفي

(1) **انتهد:** أي وجد ونشأ.
(2) رواه مسلم (1767).
(3) رواه الترمذي (1607).

حديث أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «آخر ما تكلم النبي ﷺ في مرض موته: أخرجوا يهود الحجاز ونصارى نجران من جزيرة العرب»(1).

ومن أسمائها (بلاد العرب) و(ديار العرب).

وقد أطلقوا عليها (جزيرة) لإحاطة المياه بها من ثلاث جهات: من الجنوب البحر العربي (المحيط الهندي)، ومن الشرق خليج عمان، والخليج العربي، ومن الغرب البحر الأحمر.

*** الموقع والجغرافيا:**

(جزيرة العرب): تقع في جنوب غرب قارة آسيا، عند تلاقيها مع قارة أفريقيا، وقد تحدثنا عن إحاطة البحار بها من الشرق والغرب والجنوب، أما من الشمال فتتداخل حدودها بالصحراء العراقية والصحراء الشامية، الواقعة أسفل البادية العراقية والبادية الشامية.

وتبلغ مساحة الجزيرة العربية أكثر من مليون ميل مربع بقليل؛ ومن ثم فهي أكبر شبه جزيرة في العالم، ويبلغ طول ساحلها الغربي من رأس خليج العقبة حتى خليج عدن (14000) ميل، وطول ساحلها الشرقي من رأس الخليج العربي شمالًا حتى رأس الحد جنوبًا لخليج عمان (1500) ميل، وامتدادها من بحر العرب جنوبًا إلى الحدود الشمالية (1600) ميل.

أما عرضها في أضيق نطاق بين البحر الأحمر والخليج العربي فهو (750) ميلًا، وأما بين خليج عمان والبحر الأحمر فيصل الاتساع إلى (120) ميلًا (2).

وأوضح معلم في شبه الجزيرة العربية هي الطبيعة الصحراوية التي تضم معظم المنطقة، باستثناء المنطقة الواقعة في الجنوب الغربي؛ حيث تكثر السلاسل الجبلية، والتي تستقبل أمطارًا أكثر من غيرها في بقية المناطق(3).

وهذه الطبيعة الصحراوية تمتد بجذورها في أعماق التاريخ القديم، إلَّا أن الدراسات الجيولوجية الحديثة قد أثبتت أن جزيرة العرب كانت قبل حقب زمنية بعيدة واحة خضراء، تجري فيها الأنهار، وتعج بمظاهر الحياة المتنوعة..

(1) رواه أحمد (1716).

(2) سامي بن عبد الله المغلوث: الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ، ص22.

(3) من ويكيبديا الموسوعة الحرة.

ونحن المسلمين نعلم ذلك وأكثر؛ فقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن جزيرة العرب كانت مروجًا وأنهارًا، وأنها ستعود كذلك في مستقبلٍ لم يحدده ولا نعرفه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**»[1]، وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال أيضًا: «**لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله، فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**»[2].

*** الأقاليم:**

قسم العرب الأقدمون جزيرتهم - وفقًا لاختلاف بقاعها في المناخ وصورة الأرض والنبات - إلى ما يلي:

1- **الحجاز:** [3]

وهي المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية حاليًا، ومن مدنها الرئيسة مكة المكرمة، المدينة المنورة، جدة، الطائف، خيبر، وهي المنطقة التي استوطنتها قريش (في مكة)، وفيها كان مولد النبي ﷺ ومماته.

و(الحجاز) في اللغة: الحد الفاصل.

وفي سبب تسميته توجيهان:

الأول: سميت الحجاز حجازًا، لأنها قد احتجزت بالجبال.

الثاني: لأن جبالها قد حجزت بين نجد (وهو إقليم ظاهر) وبين تهامة (وهو إقليم غائر).

والحجاز حجازان:

- **حجاز المدينة:** وهو ما حجزته الحرار (**الحرار:** هي خيط من حجارة سوداء، تمتد من الجنوب إلى الشمال في سلسلة متتابعة).

- **الحجاز الأسود:** وهو ما حجزته الجبال (سلسلة جبال السراة، وهي أعظم جبال الجزيرة).

---

(1) رواه أحمد (8955).

(2) رواه مسلم (157).

(3) بكر بن عبد الله أبو زيد: خصائص جزيرة العرب، ص24 بتصرف.

2- **نجد:**

هي الهضبة الواسعة التي تقع في وسط شبه الجزيرة العربية، وتشمل المناطق الواقعة ما بين بادية السماوة في الشمال، والدهناء في الجنوب، وأطراف العراق شرقًا، والحجاز غربًا، وهي أوسع أقاليم شبه الجزيرة، ويتخللها الكثير من الأودية، **مثل:** وادي الرمة، ووادي حنيفة، ووادي عاقل[1].

3- **العروض:**

تشمل اليمامة والبحرين وما وليَهما، وسميت عروضًا لأنها تعترض بين اليمن والعراق ونجد[2].

4- **تهامة:**

هي السهل الساحلي الضيق، الذي يحاذي ساحل البحر الأحمر في الجزيرة العربية، وهو يفصل بين البحر الأحمر في الغرب، وجبال السروات في الشرق، ويمتد من خليج العقبة شمالًا حتى اليمن جنوبًا، وجاء اسم تهامة من (التهم)، وهو شدة الحر وركود الريح، ولانخفاض أرضها سميت (الغور).

5- **اليمن:**

منطقة واسعة، تمتد حدودها من تهامة إلى العروض، وسميت بذلك الاسم لتيامن العرب إليها؛ لأنها أيمن الأرض، وعرفت عند العرب بالخضراء؛ لكثرة مزارعها ونخيلها وثمارها، كما عرفت عند اليونان ببلاد العرب السعيدة[3] .

6- **عمان:**

الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية.

---

(1) موقع مدينة الرياض.

(2) المصدر السابق.

(3) موقع مدينة الرياض.

7- **الأحقاف:**

وهو ما يسمى حاليًا الربع الخالي، والأحقاف كما **يقول المفسرون:** (جبال من الرمل)، وفيها كان عادٌ قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:21].

*** رعاية الله لجزيرة العرب:**

تجلت رعاية الله - عز وجل - لجزيرة العرب في أمور عدة، نذكر بعضها فيما يلي:

1- اختصها سبحانه ببيته العتيق: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج] ، وهو أول بيت وضع للناس: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾[آل عمران:96]، وحفظه بحفظه فلم يتسلط عليه جبار .. ولما جاء أبرهة بجيشه لهدمه، قصمه الله، وسلط عليه وعلى جنده الطير الأبابيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل].

2- جعل الله فيها شعيرة الحج، من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى قيام الساعة، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بوادٍ بين مكة والمدينة، **فقال:** أي وادٍ هذا؟ قالوا: هذا وادي الأزرق. **قال:** كأني بموسى هابطًا من هذه الثنية، له جؤار إلى الله تعالى بالتلبية - إذ البيت مزار الأنبياء - ثم مر بثنية أخرى، ثنية هرشى، **قال:** أي ثنية هذه؟ **قالوا:** هذه ثنية هرشى. قال: كأني بيونس بن متى عليه جبة من صوف، راكبًا على ناقته، له جؤار إلى الله تعالى بالتلبية، فالبيت مزار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام(1).

3- ومن رعاية الله لهذه الجزيرة، أن فتحها كان على يد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي حياته، عن نافع بن عتبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال:** «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم تغزون فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله»(2). وقد شرف الله جزيرة العرب أن الذي فتحها هو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما فارس والروم ففتحهما أصحابه - رضوان الله عليهم - من بعده، والدجال سيكون في آخر الزمان.

4- جزيرة العرب وقف على أهل الإسلام، ولا مكان فيها لدين آخر؛ فهي ليست كسائر البلاد، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قالت:** «آخر ما عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يترك بجزيرة العرب

---

(1) رواه مسلم (166)؛ وابن ماجه (2891)؛ وأحمد (1879).

(2) صحيح مسلم (2900)، ومسند أحمد (19277).

دينان»[1]، وعنها أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله ﷺ **قال:** «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان في أرض العرب»[2].

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سمع رسول الله ﷺ **يقول:** «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا»[3].

5- وعن ثمرة هذه الرعاية الإلهية ما أخبر به رسول الله ﷺ في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **فقال:** «إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم». وجاء هذا الخبر عن رسول الله ﷺ في روايات عدة، عن جماعة من الصحابة - رضوان الله عليهم - **منهم:** أبو الدرداء وأبي بن كعب وأبو هريرة وجرير وعبادة بن الصامت وغيرهم، كلهم ذكروا عن النبي ﷺ **أنه قال:** «إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب».

وقد أخذ بعض العلماء من هذه الأحاديث أن الشيطان يئس من اجتماع أهل الجزيرة على الإشراك بالله تعالى، إلَّا أن البعض الآخر رأى عموم هذا الحديث لأمة محمد ﷺ، قال ابن رجب في شرحه لهذا الحديث: (المراد أنه يئس أن تجتمع الأمة كلها على الشرك الأكبر) [4].

* * *

(1) رواه أحمد (26994).

(2) رواه أحمد (7946)؛ والبيهقي (11856).

(3) رواه مسلم في صحيحه (2818)، والترمذي (1937)، أحمد (3/ 313، 354).

(4) بكر بن عبد الله أبو زيد: خصائص جزيرة العرب، ص33.

الفصل الثاني

العرب: التاريخ، والأحوال

المبحث الأول: العرب ساميون

حينما حل الطوفان بقوم نوح العصاة، نجى الله نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والذين آمنوا معه في السفينة: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[هود]، وكان استقرار السفينة على جبل الجودي (يقال: هو جبال آرارات شرقي تركيا اليوم)[1]، وبذا انتقل سكان الأرض من جنوب الرافدين (العراق) إلى تلك المنطقة الجبلية بالشمال، فتكاثروا وبدأت زيادة السكان مرة ثانية.

وشاءت إرادة الله - كما قال أهل العلم - أن جعل النسل والذرية في أبناء نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الثلاثة دون من كان معهم في السفينة، ويُحمل على هذا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات]، وأبناء نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذين ركبوا معه في السفينة فنجاهم الله هم: يافث وهو أكبرهم، وسام وهو أوسطهم، وحام وهو أصغرهم.

أما ابنه الرابع (كنعان)، فقد أبى أن يركب معهم، فأهلكه الله مع الهالكين، وهو الذي قال الله عنه: ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود].

وقد انطلق حام وأولاده نحو الجنوب، فأقاموا في جنوب العراق مرة أخرى بعد أن جفت وبدت خصوبة أرضها، وتابع بعضهم فساروا نحو الجنوب الشرقي نحو السند، بينما اتجه آخرون نحو الجنوب الغربي، حيث انتقلوا عبر مضيق باب المندب إلى أفريقيا، ومن هناك اتجهوا نحو الشمال وبقية مناطق أفريقيا فعمروها.

وأما (يافث)، فقد تحرك وذريته نحو الشرق، ومنهم من سار نحو الغرب حيث أوربا اليوم. وأما (سام) فخرج وأبناؤه نحو الجنوب الغربي، باتجاه جزيرة العرب، وتفرقوا هناك، وتكاثروا

---

(1) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج1، ص 36، الطبعة الثانية.

فكان منهم: عاد، وثمود، وجديس، والعماليق .. وعمروا أجزاء متفرقة من جزيرة العرب، وأقاموا ممالك وحضارات، ذكر الله بعضها في القرآن الكريم[1].

فالجنس العربي إذًا هو أحد الأجناس السامية، ولكنه أكثرها محافظةً على خصائص الساميين، (وترجع هذه المحافظة إلى طبيعة الحياة في شبه الجزيرة، وهي طبيعة الانعزالية، والمحافظة على الأنساب والأحساب، وعدم التزوج من غيرهم، أو تزويجه منهم؛ فقد حرست هذه الحياة الجنس العربي من الهجمات التي تعرض لها غير العرب من الساميين)[2].

المبحث الثاني: أقسام العرب

العرب بأقسامهم يعودون - كما ذكرنا - إلى أصل واحد، هو سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. أما الذي ينسب إليه العرب ويعرفون به، فهو يعرب بن يشجب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ [3].

واتفق النسابون على أن العرب ينقسمون إلى قسمين:

* **العرب البائدة:** وهم أولئك الذين بادوا وانقطعت أخبارهم، ولا يعرف عنهم شيء إلَّا ما قصه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم؛ كأخبار عاد وثمود ومدين (أصحاب الأيكة)، أو ما جاء عن طريق الشعر العربي والآثار المادية، مثل: طسم، جديس، وأميم، وعبيل، وجرهم، والعمالقة[4].

فأما طسم وجديس فقد اقتتلوا حتى هلكوا جميعًا، **وأما عاد وثمود** فقد أصروا على الشرك والتكذيب لرسوليهم هود وصالح عليهما السلام، حتى أهلكهم الله تعالى[5]، وقد جاءت أخبارهم في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة].

(1) سامي بن عبد الله المغلوث: الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ، ص 34.
(2) د. محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج1، ص 45.
(3) أبو بكر جابر الجزائري: هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، ص 18.
(4) سامي بن عبد الله المغلوث: الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ، ص 34.
(5) أبو بكر جابر الجزائري: هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، ص 18.

* **العرب الباقية:** وينقسمون إلى قسمين أيضًا؛ العرب العاربة والعرب المستعربة:

أ- العرب العاربة: وهم الأصلاء في نسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، **ويقال لهم:** القحطانيون، ويعرفون أيضًا بعرب الجنوب، وبنو عمهم هم العمالقة الذين يسكنون الحجاز والشام، ودخلوا مصر وتفرقوا في البلاد المجاورة للجزيرة العربية، وبنو أميم أيضًا، وقد لازموا الجزيرة ولم يخرجوا منها [1].

أما القحطانيون فقد سكنوا الجنوب (اليمن وما حولها)، ومنهم ملوك اليمن، مملكة معين، وسبأ، وحمير، وقد خرجت منهم جماعات وقبائل في ظروف متعددة، من أهمها انهيار سد مأرب، ونزلوا بأجزاء مختلفة من الجزيرة العربية، ومن هؤلاء (اللخميون) الذين نزلوا (الحيرة) على تخوم فارس، وكوّنوا ملكًا بها، ومنهم أيضًا (أولاد جفنة) ملوك الغساسنة، الذين كانوا يسكنون على حدود بلاد الروم، ومنهم ملوك كندة، الذين كانوا بحضرموت، وكان منهم أبو امرئ القيس، كما أن منهم (الأزد) الذين تفرع منهم الأوس والخزرج، ومنهم الجراهمة، الذين حطوا رحالهم بالقرب من وادي مكة، واتصل بهم نبي الله إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كبر، وصاهرهم[2] .

ب- العرب المستعربة (المتعربة): ويقال لهم: (العرب العدنانية) نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقد سموا بالعرب المستعربة؛ لأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتكلم العربية ولم يكن من أولاد يعرب، وإنما كان من أولاد عابر بن شالخ بن أرفخشخذ بن سام بن نوح. ولذا كانت لغته هي السريانية، لغة الكلدانيين، من سكان بابل بالعراق، كما تكلم بلغة الكنعانيين بالشام أيضًا عند هجرته إلى الشام.

وأما إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه بحكم نشأته بين أفراد قبيلته جرهم اليمانية القحطانية، التي سكنت مكة بإذن والدته هاجر - كما سيأتي - تعلم العربية، وفاق أهلها بيانًا وأدبًا وبلاغةً، كما تعلمها أولاده؛ فلهذا **قيل لهم:** العرب المستعربة؛ نظرًا لأن جدهم غير عربي وهو إبراهيم، وإن ولده إسماعيل استعرب هو وبنوه؛ حيث تعلموا لغة العرب، وتكلموا بها [3].

ومن أهم ذرية إسماعيل: [عدنان]، جد النبي ﷺ الأعلى، ومنه كانت قبائل العرب وبطونها، وقد

(1) أبو بكر جابر الجزائري: هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، ص 18.
(2) د. محمد أبو شهبة:السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ج1، ص 47.
(3) الجزائري: هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، ص 19.

سكنوا الحجاز وتهامة ونجد، وهؤلاء هم عرب الشمال، وكان معظمهم بادية (أهل وبر)، باستثناء قبيلة قريش المتحضرة بمكة.

والقبائل التي تركت مكة من عرب الشمال تركتها بحثًا عن مساقط الماء، ومنابت العشب (فنزل عبد القيس البحرين، ونزل بنو حنيفة اليمامة، ونزل بنو هوازن بنواحي أوطاس، وهكذا تفرقت القبائل في ربوع الجزيرة)[1].

المبحث الثالث: لغة العرب

للغة قيمة جوهرية في حياة كل أمة؛ فهي الأداة التي تحمل الأفكار، وتنقل المفاهيم، وتقيم روابط الاتصال بين الناس، وقد جعلها الله - ﷻ- آية من آياته: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم]، وقد كان العرب أهل بيان، وكان للغة في حياتهم شأن أكبر، وقيمة أعظم من قيمتها في حياة أي أمة من الأمم؛ ولذا فقد تحداهم الله بها: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة].

أصل العربية وتطورها:

ليس في مقدور الباحث أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العرب؛ لأن التاريخ لم يسايرها إلَّا وهي في وفرة الشباب والنماء، ولكن الإجماع على أنها إحدى اللغات السامية، وأنها تنتمي إلى الفرع الجنوبي من اللغات السامية الغربية، ويشمل هذا الفرع شمالي الجزيرة العربية وجنوبيها والحبشة.

وقد نشأت العربية الفصيحة في شمال الجزيرة، ويرجع أصلها إلى عرب الشمال (العرب المستعربة أو العدنانيون ومنهم قريش) الذين تكلموا بها، وهي مختلفة عن العربية الجنوبية القديمة، التي نشأت في جنوبي الجزيرة، وعرفت قديمًا باللغة الحميرية، وكان يتكلم بها القحطانيون.

وقد تطورت اللغة العربية عبر مئات السنين، حتى أصبحت - قبيل الإسلام - تسمى (لغة مضر)، وتستخدم في شمال الجزيرة، وقد قضت على اللغة العربية الشمالية القديمة، وحلت محلها.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية (48/1).

وما كاد النصف الأول للألفية الأولى للميلاد ينقضي، حتى كانت هناك لغة لقريش، ولغة لربيعة، ولغة لقضاعة. وهذه تسمى لغات، وإن كانت مازالت في ذلك الطور لهجات فحسب، ويفهم كل قومٍ غيرهم بسهولة، كما كانوا يفهمون لغة حمير أيضًا، وإن بشكل أقل.

القرآن واللغة العربية:

كان نزول القرآن هو الحدث الأعظم، الذي خلد إحدى لغات العرب حينذاك، وهي اللغة التي نزل بها - والتي كانت أرقى لغات العرب - وهي لغة قريش، وسميت لغة قريش ذاك الحين اللغة العربية الفصحى، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء]، وقد ناط وقد ناط بها كلامه المنزل فقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الزخرف]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فصلت]، وقال: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر].

وقد وحد القرآن لهجات العربية، وأضاف إلى معجمها ألفاظًا كثيرة، وأعطى لألفاظ أخرى دلالات جديدة، كما ارتقى ببلاغة التراكيب العربية، وكان سببًا في نشأة علوم اللغة العربية؛ كالنحو والصرف والأصوات وفقه اللغة والبلاغة، فضلًا عن العلوم الشرعية، ثم إنه - من قبل ذلك ومن بعده - حقق لها الخلود بخلوده: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر].

اللغة العربية واللغات الأخرى:

حملت العربية الفصيحة القرآن الكريم، واستطاعت - من خلال انتشار الإسلام - أن تبدأ زحفها جنوبًا؛ لتحل محل العربية الجنوبية القديمة، ثم عبرت البحر الأحمر إلى شرقي إفريقيا، واتجهت شمالًا، فقضت على الآرامية في فلسطين وسوريا والعراق، ثم زحفت غربًا، فحلت محل القبطية في مصر، وانتشرت في شمال إفريقيا، وانفتح لها الطريق إلى غرب إفريقيا والسودان، ومن شمال إفريقيا انتقلت إلى إسبانيا وجزر البحر المتوسط.

كما كان للعربية أثر عميق في لغات الشعوب الإسلامية؛ فتأثيرها واضح في الفارسية والأردية والتركية والبشتو ولغة الملايو واللغات واللهجات الإفريقية.

وفي المقابل، لم تتأثر اللغة العربية باللغات الأخرى كثيرًا، رغم الاختلاط بين العرب والشعوب

الأخرى؛ حيث بقيت قواعد اللغة العربية وبنيتها كما هي، لكن حدثت حركة استعارة من اللغات الأخرى لبعض المفردات التي لم يعرفها العرب.

يقول المستشرق رنان في كتابه (تاريخ اللغات السامية): «إن انتشار اللغة العربية ليعتبر من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، كما يعتبر من أصعب الأمور التي استعصى حلها؛ فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء، فبدت فجأة على غاية الكمال، سلسة أية سلاسة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أدنى تعديل مهم، هل وقع مثل ذلك للغة من لغات الأرض؟!»[1].

المبحث الرابع: القبيلة عند العرب

كانت القبيلة عند العرب هي عالمهم الأهم، وكيانهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، تذوب شخصيتهم في شخصيتها، ويتنافسون في السيادة لها، ويتباهون بالانتماء إليها، وينتصرون لها في مواقف الحق أو الباطل، بل ويموتون من أجلها.

وكان النظام القبلي هو السائد في الجزيرة العربية؛ فرغم انقسام سكان الجزيرة إلى بدو وحضر، ورغم نشأة ممالك متحضرة في الشمال والجنوب، إلَّا أن القبائل لم تنصهر فيها لتكون شعبًا واحدًا، بل ظلت كل قبيلة وحدة متماسكة، تحظى بولاء أبنائها الذين ارتبطوا برباط الدم والنسب.

عناصر القبيلة العربية:

تتكون القبيلة من طبقات ثلاثة:

1- **طبقة الأحرار:** وهم أبناء القبيلة الصرحاء، وهم الذين يجمع بينهم الدم الواحد، والنسب المشترك.

2- **طبقة الموالي:** وهم من انضموا إلى القبيلة من العرب الأحرار من غير أبنائها بطريق الحلف، أو الجوار، أو العتقاء من الأرقاء فيها.

3- **طبقة الأرقاء:** وهم المجلوبون عن طريق الشراء، أو أسرى الحرب.

---

(1) موقع قصة الإسلام، إشراف د. راغب السرجاني.

فالطبقة الأولى: هي صلب القبيلة، وهي تتمتع بحقوق كثيرة، ولكن يقابلها كثير من الواجبات، نظمها القانون العرفي الذي تحكم به القبيلة.

والطبقة الثالثة: كانت في وضع اجتماعي سيئ؛ فقد سلبوا معظم حقوقهم الإنسانية، وفرضت عليهم من الواجبات ما أرهقهم وأهدر إنسانيتهم.

أما الطبقة الثانية: فكانت بين بين؛ فلهم حقوق وعليهم واجبات(1).

رئيس القبيلة:

القبيلة لها رئيس يسمى (السيد)، أو (الشيخ)، وأحيانًا يطلقون عليه الأمير أو الملك.

وهذا الرئيس إنما ترشحه للرياسة منزلته من القبيلة، وصفاته وخصائصه: من (شجاعة، ومروءة، وكرم، ونحوها)؛ فمن ثم لم تكن هذه الرئاسة وراثية، فقد تنتقل هذه الرئاسة إلى ابنه إذا كان كفئًا، وإلا فلابن أخيه، أو لغيره إذا لم يكن كذلك(2).

ولرئيس القبيلة حقوق وعليه واجبات .. أما الحقوق فكانت القبيلة تطيعه وتنزل على حكمه وقضائه، وتحترمه وتجله، وهي تبعًا لرأيه في السلم والحرب، وكان له النصيب الأكبر من الغنائم، ومما تصيبه القبيلة في الحروب من مال العدو.

وإزاء هذه الحقوق، كانت عليه واجبات كثيرة؛ (فهو في السلم جواد كريم، مسئول عن إكرام الضيوف، وقرى الوافدين وعابري السبيل، وإغاثة المحتاج من أبناء القبيلة، وإجارة المستجير .. وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح والمعاهدات)(3).

علاقة القبائل بعضها بعضًا:

كانت العلاقة بين القبائل داخل الجزيرة العربية يغلب عليها التنازع والاختلافات العنصرية والحروب الطويلة، إلَّا أن العرب جميعًا كانوا ينظرون لقريش نظرة تقدير واحترام؛ وذلك لمكانة الحرم في نفوسهم، ولكونهم كانوا يحجون البيت، فيرون قريشًا في خدمتهم وسقايتهم ووفادتهم؛ ولذا فقد كانوا يعتبرونها بمثابة الزعامة الدينية للجزيرة كلها.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية 1/ 61.

(2) المصدر السابق 1/ 60.

(3) المصدر السابق 1/ 61.

المبحث الخامس: العرب والدين

العرب هم أولاد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان أن توارثوا ملة أبيهم، ومنهاجه الذي بعث به، من توحيد الله وعبادته، والوقوف عند حدوده وتقديس حرماته.

فلما امتدت بهم القرون وطال عليهم الأمد، أخذوا يخلطون الحق الذي توارثوه بكثير من الباطل، الذي تسلل إليهم، شأن سائر الأمم والشعوب عندما يغشاها الجهل، ويبعد بها العهد، ويندس بين صفوفها المشعوذون والمبطلون .. فدخل فيهم الشرك، واعتادوا عبادة الأصنام، وتسللت إليهم التقاليد الباطلة، والأخلاق الفاحشة، فابتعدوا بذلك عن ضياء التوحيد، وعن منهج الحنيفية، وعمت بينهم الجاهلية التي رانت عليهم أمدًا من الدهر، ثم انقشعت عنهم ببعثة محمد ﷺ [1] .

أولا: الوثنية:

أول ما بدأ الشرك في العرب المستعربة من ولد إسماعيل، أنهم كانوا إذا خرجوا من الحرم لطلب الرزق، أخذوا معهم حجارة من الحرم، فإذا نزلوا منزلًا وضعوها عندهم، وطافوا بها طوافهم بالبيت، ودعوا الله عندها، وإذا رحلوا أخذوها معهم .. وهكذا وبموت من أحدث لهم هذا الحدث، وبمرور الزمان، نشأ جيل جاهل، ينظر إلى تلك الأوثان من الحجارة على أنها آلهة يتقرب بها إلى الله تعالى رب البيت والحرم!!

فكان هذا مبدأ الوثنية في أولاد إسماعيل من العدنانيين[2]، **قال ابن الكلبي:**

(ذلك أنهم كانوا لا يظعن من مكة ظاعن إلَّا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم؛ تعظيمًا للحرم، وصبابة به؛ فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة؛ تيمنًا منهم بها، وصبابة بالحرم، وحبًّا له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون، ثم لم يلبثوا أن عبدوا ما استحبوا من هذه الحجارة، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، وصاروا إلى ما صارت إليه الأمم قبلهم) [3].

---

(1) د. محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 56.

(2) أبو بكر الجزائري: هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، ص 35.

(3) ابن الكلبي، الأصنام، ص 6.

عمرو بن لحي .. أول من نصب الأوثان:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت عمرو بن لحيّ يجر قصبه في النار**[1]**؛ إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحر البحيرة**[2]**، وسيب السائبة**[3]**، ووصل الوصيلة**[4]**، وحمى الحامي**[5]**...**»[6].

كان عمرو بن لحي[7] رئيسًا لقبيلة خزاعة، التي استمرت على ولاية الكعبة نحوًا من خمسمائة سنة، وكان محترمًا في مكة، بل ومقدسًا عند أهلها؛ لعلمه وفضله، وحرصه على أمور الدين. ثم إنه سافر إلى الشام (كما ذكر ابن إسحاق)، وبها يومئذ العماليق، وهم يعبدون الأصنام، فاستوهبهم واحدًا منها، وجاء به إلى مكة، فنصبه في الكعبة، وهو (هبل)، وكان قبل ذلك في زمن الجراهمة قد فجر (زنى) رجل، **يقال له:** (أساف) بامرأة **يقال لها:** (نائلة) في الكعبة، فمسخهما الله حجرين؛ كي يعتبر بهما الناس ويتعظوا، فأخذهما لحي، فنصبها حول الكعبة، فصار من يطوف يتمسح بهما.

وهكذا انتشرت عبادة الأوثان في بلاد العرب، وشاع في أهلها الشرك، وانسلخوا عن عقيدة التوحيد.

أشهر أصنام الجاهلية:

1- **هبل:** وكان من عقيق أحمر، على صورة الإنسان، وكانوا إذا اختصموا أو أرادوا سفرًا أتوه، فاستقسموا بالقداح عنده، وهو الذي قال فيه أبو سفيان يوم أُحد: (اعل هبل)، فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا: الله أعلى وأجل**».

---

(1) **قصبه:** أي أمعاءه.

(2) **البحيرة:** ذات الأذن المشقوقة، التي يمنع لبنها عن الناس للطواغيت.

(3) **السائبة:** التي كانوا يسيبونها لآلهتهم.

(4) **الوصيلة:** الناقة تترك للطواغيت إذا بكرت بأنثى ثم ثنت بأنثى.

(5) **الحامي:** الفحل من الإبل، لا يركب ولا يحمل عليه إذا لقح ولد ولده.

(6) رواه البزار في مسنده (7822).

(7) بضم اللام وفتح الحاء - المهملة - وتشديد الياء.

2- مناة: وهو من أقدم أصنامهم، وكان منصوبًا على ساحل البحر بقديد، بين مكة والمدينة، وكانت العرب تعظمه قاطبة، ولم يكن أحد أشد تعظيمًا له من الأوس والخزرج. وقد بعث رسول الله ﷺ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهدمه عام الفتح.

3- اللات: وكان في الطائف، **قيل:** إن أصل ذلك رجل كان يَلُت السويق للحاج، فمات، فعكفوا على قبره!! وكان صخرة مربعة، وكان سدنتها ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها بيتًا، فكان جميع العرب يعظمونها، فلما أسلمت ثقيف، بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها، وحرقها بالنار.

4- العزى: صنم العزى أحدث من اللات، وكانت بوادي نخلة، وبنوا عليها بيتًا، وكانت قريش تعظمها، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد فهدمها.

5- ذو الخلصة: كان لجشم وبجيلة صنم يقال له: ذو الخلصة، بين مكة والمدينة، فقال رسول الله ﷺ لجرير بن عبد الله البجلي: «**ألا تريحني من ذي الخلصة؟**»، فسار إليه، فقاتلته همدان، فظفر بهم وهدمه.

6- صنم عم أنس: قال ابن إسحاق: وكان لخولان صنم يقال له: عم أنس، وفيهم أنزل الله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأنعام].

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة، وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعن في وجوهها وعيونها، ويقول: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء:81]، وهي تتساقط على رءوسها، ثم أمر بها، فأخرجت من المسجد وحُرِّقت (1).

الدافع إلى عبادتهم الأصنام:

قال الشيخ صفي الرحمن المباركفوري في كتابه القيم (الرحيق المختوم): «أما فكرة الشرك وعبادة الأصنام، فقد نشأت فيهم على أساس أنهم لما رأوا الملائكة والرسل والنبيين وعباد الله الصالحين من الأولياء والأتقياء والقائمين بأعمال الخير .. لما رأوهم أنهم أقرب خلق الله إليه،

(1) الشيخ محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول ﷺ، ص 71-73.

وأكرمهم درجة، وأعظم منزلة عنده، وأنهم قد ظهرت على أيديهم بعض الخوارق والكرامات، ظنوا أن الله أعطاهم شيئًا من القدرة والتصرف في بعض الأمور التي تختص بالله سبحانه وتعالى، وأنهم لأجل تصرفهم هذا ولأجل جاههم ومنزلتهم عند الله، يستحقون أن يكونوا وسطاء بين الله – سبحانه وتعالى – وبين عامة عباده، فلا ينبغي لأحد أن يعرض حاجته على الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم يشفعون له عند الله، وأن الله لا يرد شفاعتهم لأجل جاههم، كذلك لا ينبغي القيام بعبادة الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم – بفضل مرتبتهم – سوف يقربونه إلى الله زلفى.

ولما تمكن منهم هذا الظن، ورسخ فيهم هذا الاعتقاد، اتخذوهم أولياء، وجعلوهم وسيلة فيما بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، فنحتوا لمعظمهم صورًا وتماثيل .. وهذه الصور والتماثيل هي التي تسمى الأصنام».

ثانيًا: آلهة الجاهلية الأخرى:

1- **الجن:** من العرب من كان يعبد الجن، ويزعم أن بينها وبين الله – سبحانه – نسبًا: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الصافات].

2- **الملائكة:** ومنهم من كان يعبد الملائكة، ويزعم أنها بنات الله: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

3- **الشمس:** وعُبدت في بلاد اليمن: ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل].

4- **النجوم والكواكب:** خاصة في حران والبحرين والبادية، ويقال: إنه كان بمكة رجل يدعى (أبو كبشة) عبد نجمًا اسمه (الشعرى)، ودعا قريشًا إلى عبادته، وانتشرت هذه العبادة بين بعض قبائل لخم وخزاعة وقريش. وعندما دعا الرسول ﷺ إلى عبادة الله وحده، سموه ابن أبي كبشة؛ لمخالفته إياهم في العبادة، كما خالفهم من قبله أبو كبشة[1].

(1) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 15.

5- النار: تسربت المجوسية (عبادة النار) من فارس إلى بلاد العرب. وكانت في تميم، وكان الأقرع بن حابس ممن دان بالمجوسية، وتسربت إلى هجر من البحرين.

ثالثًا: ضلالات الجاهلية:

كان للعرب عقائد باطلة وضلالات منكرة، تضاف إلى وثنيتهم وشركهم، **منها:**

1- الدهرية: كان بعضهم دهريًّا، لا يؤمن بالبعث ولا باليوم الآخر، وقد وصف القرآن الكريم ضلالهم هذا في آيات كثيرة، **نذكر منها:**

* ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية:24].

* ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

* ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ [ق].

* ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس].

2- إنكار رسالة الرسل: كانوا ينكرون رسالة الرسل، وكانوا يتعجبون من أنه يبعث الله بشرًا رسولًا، وقد قال القرآن الكريم فيهم:

* ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس].

* ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل:43].

* ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

3- الاستقسام بالأزلام: وهو: ضرب القداح (قطع من الخشب)؛ لمعرفة ما قسمه القدر، فكانت الأزلام (القداح) ثلاث قطع، مكتوب على أحدها (أمرني ربي)، وعلى الآخر (نهاني ربي)، والثالث ليس عليه شيء. فكان أحدهم إذا أراد سفرًا، أو غزوًا، أو تجارة، أو نكاحًا، أو أمرًا ما،

ضرب القداح، وكانت عند سادن - خادم - الصنم الأكبر (هبل)، وكانت توضع في كيس من جلد، ثم يجلجلها، ثم يضع السادن يده، فإذا أخرج الآمر مضى لشأنه، وإذا أخرج الناهي أمسك ولم يفعل، وإذا أخرج الثالث أعادها مرة أخرى!!

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة].

رابعًا: العرب واليهودية:

دخلت اليهودية بلاد العرب بصفة عامة، والمدينة وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء بصفة خاصة، عندما نزح إليها اليهود [1]، ووصلت إلى اليمن، ودان بها ذو نواس الملك الحميري، وحاول حمل النصارى على اعتناقها، فلما أبوا، حفر لهم أخدودًا، وأوقد فيه نارًا، فقذفهم فيها، وهم الذين حكى الله تعالى خبرهم في الآيات: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ [البروج]. وانتشرت اليهودية أيضًا في بني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة، وربما وصلتهم من يهود يثرب وخيبر [2].

وفي الحق أن اليهودية لم تجد قبولًا ولا انتشارًا في بلاد العرب؛ لأسبابٍ عديدة، منها:

1- لأن اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار؛ فلذلك لم يقبل العربي أن يدخل دينًا يجعله في طبقة دنيا عن طبقة دعاة هذا الدين.

2- كانوا (اليهود) لا يهمهم نشر دينهم، بقدر ما يهمهم جمع الأموال.

3- أخلاقهم التي كانوا يتصفون بها من اللؤم والغدر والخيانة، والحرص والشره إلى المال، والتي تعتبر على الضد من أخلاق العرب - زهدت العرب في دينهم [3].

خامسًا: العرب والنصرانية:

أما النصرانية فكانت منتشرة بنجران شمال اليمن، وطبيعي أنها جاءت من الحبشة، وفي شمال الجزيرة في دولة الغساسنة، وقد كانت وثيقة الصلة بالروم؛ فمن ثم انتشرت فيها النصرانية أكثر من غيرها، وفي الحيرة؛ فقد تنصر معظم الأسرة المالكة.

---

(1) سيأتي ذكر ذلك بالتفصيل.

(2) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 71.

(3) أبو شهبة: السيرة النبوية، ص 79.

والسبب في عدم انتشار النصرانية في بلاد العرب، التعقيدات التي فيها، ولاسيما في باب الألوهية؛ فإنها لا يقبلها العقل العربي، والأمور التي يزعم القس أنها من الأسرار، وطبيعة العربي تأبى ذلك أيضًا [1].

سادسًا: الحنفاء:

كان في العرب بقية من الناس - وإن كانت قليلة للغاية - تدين بدين إبراهيم، وتؤمن بالله ووحدانيته، وبالبعث والنشور واليوم الآخر؛ حيث يُثيب الله المطيع ويعاقب العاصي، وبأن رسولًا سيأتي في آخر الزمان، يُخرج به الله الناس من الظلمات إلى النور، وقد سموا بالحنفاء (أو الحنيفيين)؛ لأن الله وصف دين إبراهيم بالحنيفية: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران]، ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران].

وممن ذُكر من الحنفاء[2]:

1- زيد بن عمرو بن نفيل:

روى ابن إسحاق بإسناده إلى أسماء بنت أبي بكر، **قالت:** «لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندًا ظهره إلى الكعبة، **يقول:** «يا معشر قريش: والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري»، ثم **يقول:** «اللّهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم»، ثم يسجد على راحلته، وكان يصلي إلى الكعبة، ويقول: «إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم»، وكان يحيي الموءودة، **ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته:** «لا تقتلها، ادفعها إليَّ أكفلها، فإذا ترعرعت فخذها، وإن شئت فادفعها»[3].

وروى البخاري[4] : عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام، يسأل عن دين صحيح يتبعه، فلقي عالمًا من اليهود، فسأله عن دينهم؛ لعله يتبعه، **فقال له اليهودي:** «إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله»، **قال زيد:** «وما أفر إلا من غضب الله تعالى،

(1) المصدر السابق.
(2) **انظر:** السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 74-78.
(3) ابن هشام (1/281)؛ ابن كثير البداية والنهاية (2/258).
(4) الفتح (14/299-301، حديث 3827).

ولا أحمل من غضب الله شيئًا ولا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟»، **قال:** «ما أعلمه إلا أن تكون حنيفًا»، **قال زيد:** «وما الحنيف؟»، **قال:** «دين إبراهيم، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا يعبد إلا الله»، فخرج زيد، فلقي عالمًا نصرانيًّا، فدار بينهما مثل ما دار بينه وبين اليهودي، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم، خرج، فلما برز رفع يديه، **فقال:** «اللّهم إني أشهدك إني على دين إبراهيم».

وكان زيد يرفض الأكل من ذبائح قريش، **ويقول:** «إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه»، ويعيب على قريش ذبائحهم، **ويقول:** «الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟!»؛ إنكارًا لذلك وإعظامًا له[1].

ورويت أحاديث أخرى من طرق ضعيفة، لكنها تعتضد وتتقوى بعضها ببعض وبأحاديث البخاري، فترتفع إلى درجة الحسن لغيره، دلت على أن زيدًا كان يبحث عن الدين الصحيح، وأخيرًا استقر على دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ [2].

ولهذا قال عنه الرسول ﷺ: «**يحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى ابن مريم**»[3]. وقال: «**دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو دوحتين**»[4].

لقد لقي زيد بن نفيل رسول الله ﷺ، ومات قبل أن يبعث بالرسالة ﷺ[5].

2- **ورقة بن نوفل:**

روي أنه خرج مع زيد بن نفيل يبحث عن دين صحيح يتبعه، وبعد البحث تنصر ورقة، ولم يرتضِ زيد سوى دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ [6].

قال النبي ﷺ يومًا لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، إنه يرى ضوءًا، ويخشى أن يكون به جن، فطمأنته، ثم أتت

(1) البخاري/ الفتح (14/ 298-299، حديث 3526).
(2) ابن كثير، البداية والنهاية، (2/ 260-265).
(3) المصدر السابق (2/262).
(4) المصدر السابق (2/263)..
(5) البخاري/ الفتح (174/298، حديث 2826).
(6) من رواية الطيالسي، ترتيب البنا (2/161).

به ورقة، وذكرت له ما يقع له، **فقال ورقة:** «إن يك صادقًا فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزره وأنصره وأومن به» [1].

وسيأتي خبره والآثار الواردة في إسلامه عند الكلام على بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ، والمسلمين الأوائل، وله أبيات شعرية رائعة في التوحيد والبعث [2].

3- قس بن ساعدة الإيادي:

روي عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره، أنه عندما قدم وفد إياد على الرسول ﷺ، سألهم عن قس بن ساعدة، فذكروا له أنه هلك، **فقال النبي** ﷺ: «لقد شهدته يومًا بعكاظ على جمل أحمر، يتكلم بكلام معجب مؤنق، لا أجدني أحفظه»، فذكر أحد أفراد الوفد أنه يحفظه، **فهو:** «يا معشر الناس اجتمعوا، فكل من مات فات، وكل شيء آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهر، وجبال مرساة، وأنهار مجراة .. إن في السماء لعبرًا، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا، أقسم قس بالله قسمًا لا ريب فيه، إن لله دينًا هو أرضى من دينكم هذا»، وأنشد في ذلك شعرًا [3].

وروى ابن عباس أنه عندما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ، سألهم عن قس، **فقالوا:** «هلك». **قال:** «...»، فذكر كلامًا بنحو ما جاء في رواية ابن الصامت [4].

4- أمية بن أبي الصلت:

هو الذي **قال فيه الرسول** ﷺ: «كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» [5]، وفي رواية: «فلقد كاد أن يسلم في شعره» [6]، ويقال: إنه ممن دخل في النصرانية وأكثر في شعره من ذكر التوحيد والبعث يوم القيامة [7]، فقد كان من فحول الشعراء .. عاش إلى زمان البعثة، ولم يؤمن؛ تكبرًا

---

(1) أحمد، الفتح الرباني (207/20).

(2) ابن هشام (294/1-295).

(3) ابن كثير، البداية والنهاية (2/ 250-251).

(4) البداية والنهاية (251/2)، ورواه البيهقي في الدلائل (104/1).

(5) البخاري/ الفتح (310/14، حديث 3841)، مسلم (1768/4، حديث 2256).

(6) مسلم (1768/4، حديث 2255).

(7) ابن حجر الفتح (310/14)، ابن هشام (289/1).

عن أن يكون تابعًا للرسول ﷺ[1]، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف:175].

قيل: إنه مات سنة تسع، **وقيل**: سنة اثنتين، وله شعر في رثاء قتلى قريش يوم بدر الكبرى.

5- **لبيد بن ربيعة العامري:**

كان من فحول شعراء الجاهلية، ومن شعراء المعلقات، **قال عنه الرسول** ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[2]، وله قصة مع عثمان بن مظعون، سنذكرها في الكلام عن أساليب حرب المشركين للدعوة.

وقد أسلم لبيد، ومات في خلافة عثمان، بعد أن عاش مائة وخمسين عامًا، **وقيل** أكثر [3].

وممن ذكر من الحنفاء غير هؤلاء: أرباب بن رئاب، والشاعر سويد بن عامر المصطلقي ، وأسعد أبو كرب الحميري، ووكيع بن سلمة بن زهير الإيادي، وعمير بن حيذب الجهني، وعدي بن زيد العبادي - تنصر، وأبو قيس صرة بن أبي أنس البخاري، وسيف بن ذي يزن الحميري، وعامر بن الظرب العدواني، والشاعر عبد الطانجة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، وعلاف بن شهاب التميمي، والملتمس بن أمية الكناني، والشاعر زهير بن أبي سلمى، وخالد بن سنان بن غيث العبسي، وعبد الله القضاعي، وعبيد بن الأبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب القرشي - أحد أجداد النبي ﷺ، وعثمان بن الحويرث، الذي رحل في طلب الدين، فاستقر به المقام عند قيصر، فتنصر وأقام عنده بأحسن مقام[4]، وعمرو بن عبسة السلمي، الذي أكرمه الله بالإسلام [5]، وأكثم بن صيفي بن رباح، وعبد المطلب - جد النبي ﷺ[6].

***

---

(1) من رواية الطبري كما نقله عنه ابن حجر في الفتح (310/14).

(2) البخاري/ الفتح (309/14، حديث 3841)، مسلم (1768/4-1769، حديث 2256).

(3) **انظر**: ابن حجر، الفتح (14/ 310).

(4) ابن هشام (286/1).

(5) تاريخ الطبري (315/2).

(6) الشهرستاني: الملل والنحل (248/2).

المبحث السادس: اقتصاديات العرب في الجاهلية

لم يكن في بلاد العرب اقتصاد ذو قيمة تذكر؛ ذلك لكونها في أغلبها صحراء قاحلة ممتدة، وكان جُل أهلها يعيشون في ضيق وشظف من العيش، إلا ما كان في بعض الأماكن الخصبة التي عملت بالزراعة، أو الأماكن التي عمل أهلها بالتجارة. **وسنعرض فيما يلي لأهم مجالات العمل في الجزيرة قبل الإسلام وملامحه البسيطة:**

أولا: الزراعة:

وكانت في البلاد ذات الأرض الخصبة؛ كاليمن ويثرب ونجد والطائف وخيبر، وما شابهها؛ حيث اعتمد أهلها في معايشهم على زراعة النخيل والفاكهة والحبوب والخضر.

ثانيًا: الصناعة:

كانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة، استعانوا برجل قبطي، نجا من السفينة التي غرقت بجدة، ثم أصبح مقيمًا في مكة[1]، إلا أن أهل اليمن كانت لديهم صناعات متطورة بالنسبة لعصرهم، مثل صناعة السلاح؛ من سيوف وحراب ودروع وغيرها، بالإضافة إلى صناعة الكتان والحياكة والدباغة.

ثالثًا: الرعي:

عمل بدو الجزيرة في الرعي، وكان عماد حياتهم ينتجعون لأنعامهم الكلأ والعشب ومساقط المطر، ويعيشون على ألبانها ولحومها، ويبيعون ما زاد عن حاجتهم منها، ويصنعون من أصوافها وأوبارها أثاثهم ومتاعهم وخيامهم، وكان ثراؤهم يتفاوت بحسب ما يملكون من هذه الأنعام، ولم يكن الرعي قاصرًا على أهل البادية؛ فقد اشتغل به بعض الحضريين من الأشراف وغيرهم، ولم يجدوا في ذلك غضاضة؛ فقد رعى رسول الله ﷺ الغنم في صغره، وعمر وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وغيرهما.

رابعًا: التجارة:

كانت التجارة هي قمة ما يمارسه العرب من أعمال، وأعظم وجوه التكسب والارتزاق، ومن يعمل بها ينعم برغد العيش والغنى، على خلاف غيرها من الأنشطة التي ذُكرت سابقًا، وكان

(1) د. علي الصلابي: السيرة النبوية .. عرض وقائع وتحليل أحداث، ص 26.

أهل الحضر هم الذين يعملون في التجارة، لا سيما أهل مكة؛ بحكم موقعهم ، ولكونهم أهل الحرم الذي يعظمه العرب قاطبةً؛ فلا يتعرضون لتجارتهم بسوء .. فكان لهم رحلتان تجاريتان كبيرتان، يعيشون عليها طيلة العام؛ رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وقد أمنهم الله فيهما، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش].

وقد عقد القرشيون المعاهدات التجارية مع أمراء العرب في الجزيرة العربية، **مثل:** شيوخ قيس، وملوك اليمن، وأمراء اليمامة، وملوك غسان والحيرة، وكان التجار من بلاد الشام يحملون معهم إلى مكة القمح والزيوت والخمور ومصنوعاتهم المتنوعة، أما تجار الجنوب، فيحملون معهم حاصلات الهند؛ من ذهب، وأحجار كريمة، وعاج وخشب، وتوابل ومنسوجات، والأواني الفضية والنحاسية.

وكان لتجار مكة - في الوقت نفسه - تجارة رابحة مع الحبشة والصومال، بواسطة طريق بحري؛ حيث كان لمكة ميناء على البحر الأحمر، يُعرف بميناء الشعيبة، أما العملة التي عرفتها مكة والحجاز عمومًا، فكانت الدينار والدرهم(1).

وظهرت شخصيات تجارية قرشية ناجحة قبيل الإسلام؛ كعبد الله بن جدعان التيمي، والوليد بن المغيرة المخزومي، وأبي سفيان الأموي، كما كان للنساء نشاط ملحوظ في التجارة؛ كخديجة بنت خويلد وهند بنت عتبة.

وقد اشتهر أهل اليمن أيضًا بالتجارة، ولم يقتصروا في نشاطهم على الجزيرة، بل سافروا بتجارتهم إلى الحبشة والصومال والسودان، وغيرها من البلاد الإفريقية، وإلى الهند وعدد من البلاد الآسيوية، بل ووصلوا بتجارتهم إلى جزر البحر العربي (المحيط الهندي)، واستمروا على ذلك بعد الإسلام، وكان لهم الفضل - بعد الله - في نشره بين أهل هذه البلاد.

ربا الجاهلية:

عرف العرب الربا من اليهود، الذين استحلوه في معاملة من هم من غير بني إسرائيل؛ فانتشر في الجزيرة كلها، وكان مفسدةً اقتصاديةً كبيرة، لم يقض عليها سوى الإسلام، ومن أسوء

(1) د. فهمي توفيق، مجلة الدرعية، العدد 42 (1429هـ - 2008م).

صوره (ربا النسيئة)، **وفيه كان الدائن يقول للمدين:** إما أن تقضي (تسدد الدين)، وإما أن تُربي (تزيد في الفائدة)، وأزيدك في الأجل .. فيقبل المدين مضطرًّا، حتى يصير الدين أضعافًا مضاعفة (وهو للأسف من صور الإقراض والائتمان التي نراها في عصرنا في معاملات المصارف والمؤسسات المالية، سواء المحلية أو الدولية).

أشهر أسواق العرب في الجاهلية:

1- **عكاظ:** وهي أعظم أسواق الجاهلية وأشهرها، وكانت تقع جنوب مكة إلى الشرق، بين مكة والطائف، وتقام في ذي القعدة من كل عام، نحوًا من عشرين يومًا.

2- **مجنة:** وكانت في موضع أقرب إلى مكة؛ حيث كانت تقع بمر الظهران أسفل مكة، قرب جبل **يقال له:** الأصفر، وتقام بعد انتهاء عكاظ فيما بقي من شهر ذي القعدة، وهي على بعد بريدين من مكة (**البريد:** اثنا عشر ميلًا).

3- **ذو المجاز:** وهي الأكثر قربًا من مكة، وتقام بعد (مجنة)، من رؤيتهم لهلال ذي الحجة إلى يوم التروية (ثمان ليال)، ثم يصدرون جميعًا إلى منى، وكانت سوقًا لهذيل عن يمين الموقف بعرفة، قرب جبل كبكب، خلف عرفات، وعلى بعد فرسخ منه، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت منتديات أدبية وشعرية، يشهدها الشعراء والخطباء والأدباء، فتحقق ثروة لغوية وأدبية إلى جانب الثروة الاقتصادية[1]، وفيها تقام العهود، ويباع الرقيق، وغير ذلك من الأمور المعيشية.

واستمرت أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز قائمة منذ الجاهلية إلى الإسلام، ثم انتهت وتلاشت وخربت؛ فقد تركت عكاظ بعد أن جاءت فتنة الخوارج (سنة 129هـ = 146م)، ثم تركت مجنة وذو المجاز، واستغنى الناس عنها بأسواق مكة ومنى وعرفة.

المبحث السابع: ممالك العرب وإماراتها في الجاهلية

قامت ممالك وإمارات في أطراف الجزيرة العربية (في اليمن، وفيما جاور العراق من أرض العرب (الحيرة)، وفي مشارف الشام (الغساسنة)، أما باقي الجزيرة فلم يقم بها كيان يمكن أن

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ص 155، بتصرف.

نسميه بالدولة، وإنما بدو وحضر، يحكم كل منها - كما ذكرنا - النظام القبلي، وسنعرض لأشهر هذه الممالك والإمارات.

أولا : ممالك اليمن :

أقدم الممالك التي عرفت باليمن (مملكة سبأ)؛ فقد بدأت حضارتهم قبل الميلاد بأحد عشر قرنًا، وهم من العرب العاربة، وورد ذكرهم في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ]، وكانوا أولي بأس شديد وملك عظيم، وغنى وثراء، يأتيهم رزقهم رغدًا من كل مكان، وتهطل عليهم الأمطار غزيرة في موسم نزولها، ثم تنحدر إلى البحر، فتضيع فيه، فأقاموا سدًّا هائلًا (سد مأرب)، وجعلوا له أبوابًا وعيونًا، يصرفون منها المياه؛ لينتفعوا بها وقت ما يريدون، فكثر الخصب وعم الرخاء، وظلوا كذلك في بلدتهم الطيبة، يأكلون ويشربون من رزق ربهم، إلى أن أعرضوا وتولوا، وطغوا وتجبروا، فأرسل الله عليهم سيلًا عظيمًا، خرب سدهم، وعم بلادهم، فتبدلت حالهم، وصارت البساتين المثمرة أشجارًا لا تغني ولا تسمن من جوع، وقد قال الله فيهم: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ].

وبعد سيل العرم، بدأت هجرة بعض القبائل اليمنية؛ فنزل بعضها في الحجاز، منهم خزاعة، نزلوا ظاهر مكة، ومنهم الأوس والخزرج، نزلوا يثرب، ونزلت قبائل أخرى بالشام، وهم: غسان، وبهراء، ولخم، وجذام، وتغلب، وغيرها.

وفي سنة ثلاثمائة ميلادية، غلبت قبيلة حمير على مملكة سبأ، وكان من ملوكهم (ذو نواس)، الذي اعتنق اليهودية وتعصب لها، وهو الذي حفر الأخدود للنصارى في بلاده، فأحرقهم - كما ذكرنا - جميعًا إلا رجلًا واحدًا، فر وذهب إلى قيصر الروم يستنصره، فكتب (قيصر) إلى النجاشي في الحبشة، فجرد حملة بقيادة (أرياط)، فانتصر على الحميريين، وأغرق (ذو نواس) نفسه لما عاين الهزيمة.

ولم يطل الأمر لأرياط؛ فقد تمرد عليه أحد مساعديه، وهو (أبرهة)، فقتله غيلة وغدرًا، وخلص الأمر له، وأبرهة هذا هو الذي قصد مكة لهدم الكعبة، ولكن الله رد كيده، ونكل به وبجيشه [1].

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ص 66.

ثم فر أحد أولاد ملوك حمير، وهو (سيف بن ذي يزن) إلى ملك الفرس، واستنصره على الأحباش، فأرسل معه جيشًا قضى على الأحباش، وتوج (سيف بن ذي يزن) ملكًا على اليمن، ثم لم يلبث أن قتله الأحباش «الذين استبقاهم عبيدًا له»، بتدبير من الفرس[1]، وبموته انقطع الملك عن بيته، وولى كسرى عاملًا فارسيًّا على صنعاء، وجعل اليمن ولاية، وكان آخر ولاتهم (باذان)، الذي اعتنق الإسلام، وبإسلامه انتهى نفوذ الفرس في بلاد اليمن[2].

ثانيًا: الملك بالحيرة «دولة المناذرة»:

هاجرت بعض القبائل اليمنية بعد السيل إلى شمال شرق الجزيرة، فسكنوا تخوم العراق، التي كانت تُحكم في ذلك الوقت بالطوائف، إلى أن جمع أردشير الفارسي شمل الفرس، ثم سيطر على العراق سنة 226م .. إلا أن بلاده كانت تتعرض لهجمات بعض القبائل العربية من قلب الجزيرة، يخطفون ما يستطيعون ثم يفرون عائدين، فلا يمكنه ملاحقتهم؛ خوفًا من وعورة الطريق وقلة الماء؛ لذا فقد نصَّب على الحيرة ملكًا من سكانها العرب، يُعين بكتاب منه؛ ليقيم بهم حاجزًا بينه وبين باقي قبائل الجزيرة، وأمدهم بالمال والسلاح .. وبذلك تكونت في الحيرة مملكة تحمي الفرس، ويحميها الفرس[3].

ثالثًا: الملك بالشام «دولة الغساسنة»:

هاجرت بطون من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت بها، فاصطنعهم الروم؛ ليمنعوا عنهم غارات العرب، وليكونوا حلفاء لهم ضد الفرس، وولوا عليهم ملوكًا منهم، تعاقبوا زمانًا، إلى أن جاء الغساسنة، فظلوا في الملك من قبل الروم، إلى أن كانت وقعة اليرموك سنة 13هـ = 634م، ودخل آخر ملوكهم (جبلة بن الأيهم) في الإسلام.

***

(1) المصدر السابق.

(2) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 60.

(3) أبو شهبة: السيرة النبوية، ص 68.

المبحث الثامن: المجتمع في الجاهلية

كانت في الكثيرين من العرب كمالات أخلاقية وعادات حسنة، أهلتهم لاصطفاء الله عز وجل لهم لحمل الرسالة الخاتمة[1]، إلا أن المجتمع الجاهلي - في مجمله - كانت حياته تصادم الفطرة والمنطق الإنساني الصحيح، وقد عاب الإسلام عليهم ما يفعلون من رذائل، وحكى عنها القرآن الكريم، حتى **قال ابن عباس** رضي الله عنهما: (إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة آية من سورة الأنعام).

وظل رسول الله ﷺ طوال حياته بعد البعثة، يقوم فيهم جاهلية السلوك، كما قوم فيهم جاهلية الاعتقاد. **ومن جملة هذه الممارسات المرذولة، نورد ما يلي:**

1- **شرب الخمر:** وكانوا يجتمعون عليها، ويتباهون بتعتيقها وغلاء ثمنها، وكان هذا عادة أهل المدن من الأغنياء والأشراف والسادة.

2- **الميسر (القمار):** عند سكان المدن أيضًا؛ كمكة والطائف ويثرب وصنعاء، وغيرها.

3- **التعامل بالربا،** واغتصاب الأموال، وأكل أموال اليتامى بالباطل.

4- **الزنا:** وكان في الإماء وأصحاب الرايات من البغايا، أما الحرائر فيندر أن يكون فيهن الزنا، وموقف هند بنت عتبة بعد الفتح معلوم، لما أخذ النبي ﷺ البيعة على النساء: «على أن لا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين»، **قالت:** أوتزني الحرة؟!

5- **العصبية الجاهلية:** وهي العصبية للدم والنسب والقبيلة، وإعلاء مبدأ: (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)، فكانوا يحيون للقبيلة، ويموتون من أجلها؛ بل كان الاعتزاز بالأنساب والأحساب والتفاخر بها، والتنافس في إظهار درجات الرفعة والشرف، يفضي إلى الاقتتال بين بطون القبيلة الواحدة من أبناء العمومة الذين يجمعهم جدٌّ واحد.

6- **قتل الأولاد خشية الفقر:** وهو مما حكاه القرآن عنهم، وعده من جرائمهم وأخطائهم الكبيرة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء][2]، وقد

---

(1) سيأتي الحديث عن ذلك.

(2) **الإملاق:** الفقر الشديد.

كانوا يقتلون الأولاد (ذكورًا أو إناثًا) عند وجود الفقر والمجاعة، أو لمجرد توقع الفقر لانقطاع المطر أو قلته.

7- وأد البنات: كان العرب يعيرون بالبنات؛ لأن البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا سُبت اتخذت للوطء، تتداولها الأيدي، بل ربما أكرهت على احتراف البغاء؛ ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله - وقد كانت العرب تبيح ذلك - وقد كان هذا يورث الهم والحزن والخجل للأب، عندما تولد له بنت.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل].

وكثيرًا ما كانوا يختارون دسها في التراب، ووأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى؛ ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة[1]، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [التكوير].

8- تبرج الجاهلية: بخروج المرأة إلى الطرقات كاشفةً عن مفاتنها، كاسيةً عارية، مائلة مميلة، متكسرة، تغري الناظرين، كأنها تعرض نفسها (وهو لا يختلف عن تبرج اليوم).

9- اتخاذ الأخدان: الأخدان هو العشيق أو العشيقة، وهو ما حرمه الإسلام عليهم رجالًا ونساءً: ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء:25]، وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة:5].

10- نكاح الجاهلية[2]: تعارف العرب على أنواع من النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **فقالت:** «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها **نكاح الناس اليوم:** يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فَيُصدقها، ثم

---

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص 28.

(2) **انظر:** السيرة النبوية للصلابي، ص 29.

ينكحها. **ونكاح آخر:** كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها[1]: أرسلي إلى فلان فاستبضعي[2] منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسها أبدًا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. **ونكاح آخر:** يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومرَّ عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، **تقول لهم:** قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدُها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل. **والنكاح الرابع:** يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها، جُمعوا لها، ودعوا لهم القافة[3]، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به[4]، ودُعي ابنَه، لا يمتنع من ذلك. فلما بعث محمد ﷺ بالحق، هدم نكاح الجاهلية كلَّه إلا نكاح الناس اليوم» [5].

11- تعدد الزوجات بلا عدد، والجمع بين الأختين، والزواج بزوجة الأب إذا طلقها أو مات عنها؛ لأنه كان إذا مات الزوج تورث زوجته لابنه الأكبر من غيرها، فله أن يتزوجها ، أو يمنعها عن النكاح، وقد حكى القرآن كل ذلك عنهم، ونهاهم عنه، وحرمه عليهم: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [النساء].

---

(1) **طمثها:** حيضها.

(2) **الاستبضاع:** طلب الجماع.

(3) **القافة:** جمع قائف، وهو الذي يعرف شبه الولد بالوالد.

(4) **التاط به:** لحق به.

(5) البخاري، كتاب النكاح (رقم 5127).

12- لا يورثون إلا من حاز الغنيمة: أي من شب من الفتيان، وصار قادرًا على الحرب والنزال، فكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان.

13- الطلاق والظهار: لم يكن للطلاق في مجتمع الجاهلية عدد، فكان من حق الرجل أن يطلق امرأته، ثم يراجعها بلا عدد محدد.

أما الظهار فهو أن **يقول الزوج لزوجته:** أنت عليَّ كظهر أمي، فيكون تحريمًا مؤبدًا لا رجعة فيه. وقد وصفه القرآن بأنه منكرٌ من القول وزور: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا ﴾ [المجادلة:2].

* * *

الفصل الثالث

مكــة

البلد الأمين، أفضل بقاع الأرض، وأحب أرض الله إلى الله، طابت مغانيها، وجلت عن الحصر معانيها .. تنوعت فضائلها، وتعددت أسماؤها، فيها ترفع الحسنات، وتُحط الخطايا والذنوب، إذا دعا فيها أحدٌ بدعاء أمنت عليه الملائكة، تفد إليها الملائكة وتروح في كل لحظة وساعة، يسبحون الليل والنهار لا يفترون .. أم القرى .. فيها البيت العتيق، أول بيت وضع للناس، مثابةً للناس وأمنًا، يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم، ويلتقون فيه مسالمين، تهوى إليه الأفئدة، ويقصده الجميع من كل فج عميق؛ ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ [الحج]، ما من مكان على وجه الأرض فيه شيء من الجنة يُلتمس إلا حجره الأسود، فيه مقام إبراهيم، وحجر إسماعيل، طهره الله للطائفين والقائمين والركع السجود، فيه تُعظم الحرمات والشعائر، ومن يُرد فيه بإلحاد بظلم يذقه الله من عذاب أليم.

مكة .. معقل الإيمان، ومولد الحبيب ﷺ ومبعثه، ومهبط الوحي، بها نزل الروح الأمين على محمد ﷺ؛ ليكون من المرسلين: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [الدخان].

وفي هذا الحي وذاك، كانت مواقف السيرة العطرة، وكانت دائمًا في قلب الأحداث؛ لذا كان لزامًا الوقوف عندها وعند تاريخها، وموقعها، وأماكنها التي تهفو إليها النفوس.

المبحث الأول: الموقع والجغرافيا

تمتد مكة من الغرب إلى الشرق في وادٍ مائل من الشمال إلى الجنوب، منحصر بين سلسلتي جبال، تكادان تتصلان ببضعهما من جهة الشرق والغرب والجنوب، أي على أبواب مكة الثلاثة؛ ولذا لا يشاهد أبنيتها القادم عليها إلا وهو على أبوابها.

والسلسلة الشمالية منها تتركب من:

- جبل الفلج (الفلق) غربًا.

- ثم جبل قيقعان.

- ثم جبل الهندي.

- ثم جبل لعلع.

- ثم جبل (كداء)، وهو في أعلى مكة، ومن جهته دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح.

أما السلسلة الجنوبية فإنها تتركب من:

- جبل أبي حديدة غربًا.

- ثم جبل كدي جنوبًا.

- يتلوه جبل أبي قبيس إلى الجنوب الشرقي.

- ثم جبل محتدمة[1].

وكان عمران مكة القديم محصورًا بين جبل أبي قبيس وجبل قيقعان، وتقع مكة على السفوح الدنيا لهذه الجبال[2] في بطن وادٍ ضيق غير ذي زرع، يسميه المكيون وادي إبراهيم .. وهذا الوادي وصفه الله في القرآن الكريم: (بواد غير ذي زرع)، وهي تقع في الجهة الغربية من شبه الجزيرة العربية، **ويحيط بها:**

- جدة: على بعد 75 كم من جهة الغرب.

- الطائف: على بعد 98 كم من الجنوب الشرقي فوق ربا جبال الحجاز.

- المدينة المنورة: على بعد 460 كم شمالًا.

وترتفع مكة عن سطح البحر بنحو 300 متر، وتمثل نقطة التقاء بين تهامة وجبال السروات.

المناخ:

مناخ مكة المكرمة حار جاف صيفًا، ومعتدل شتاءً، والأمطار قليلة، تهطل في فصل الشتاء القصير. وعلى الرغم من قلة الأمطار، فإن العواصف الممطرة قد تكون قاسية وشديدة في بعض الأحيان؛ لأن الجبال الشديدة الانحدار، والأودية الضيقة، وقلة الغطاء النباتي، كل ذلك يؤدي إلى حدوث سيول جارفة، تجرف معها الصخور من الجبال المحيطة؛ مما يتسبب في الكثير من الأضرار.

---

(1) د. نقولا زيادة: الأعمال الكاملة، الجزء الثالث عشر.

(2) **تسمى هذه الجبال:** جبال السراة (أو السروات).

الغطاء النباتي:

لم تحرم مكة من العود الأخضر، الممثل بأنواع الشجر من الطلح والسمر والسلم والسنط. وتعد شجرة (السدر) أكبر أنواع الشجر في مكة، وكان من تكريم الله سبحانه وتعالى لهذه البقعة الطاهرة من الأرض، أن حرم قطع شجرها.

حدود الحرم المكي:

من أعظم ما اختص الله به مكة من الفضائل، أنه جعلها حرمًا آمنًا، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص].

وأول من نصب أنصاب الحرم الشريف: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يُريه مواضع الأنصاب، ولم تُحرك حتى قام قصي بن كلاب، فجددها، فلم تحرك حتى عهد الرسول ﷺ، حين أرسل في عام الفتح تميم بن أسد الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ليجددها، فلم تتحرك حتى زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث بعث بأربعة من قريش، فجددوا أنصاب الحرم.

وحدود الحرم هي:

- من طريق جدة: منقطع الأعشاش على عشرة أميال.
- من طريق اليمن: طرف إضاءة لبن، في ثنية لبن على سبعة أميال.
- من طريق الطائف: على طريق عرفة، من بطن نمرة على أحد عشر ميلًا.
- ومن طريق جعرانة: في شعب عبد الله بن خالد بن أسيد على تسعة أميال.
- ومن طريق المدينة: دون مسجد التنعيم عند بيوت غفار على ثلاثة أميال.
- ومن طريق العراق: على ثنية جبل بالمقطع على سبعة أميال(1).

وهذا الحرم الآمن بحدوده المعلومة المتوارثة من زمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا يسفك فيه دم، ولا تعضد (تقطع) به شجرة، ولا ينفر له صيد، ولا تلتقط لقطته للتمليك؛ بل للتعريف، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل].

---

(1) علاء عبد الرحيم، جريدة الندوة في العدد 76.

المبحث الثاني: أسماء مكة

لا يعادل مكة بلد من بلاد الأرض في تعدد الأسماء، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، كما قيل في أسماء الله الحسنى، وأسماء المصطفى ﷺ.

ويروى أنها سميت مكة لقلة مائها، **من قول العرب:** (أمتك الرضيع ما في ضرع أمه)، **أي:** امتصه مصًّا شديدًا.

وقيل: لأنها تمك الذنوب، **أي:** تذهب بها.

وقيل: سميت مكة لأنها تمك الظالم، **أي:** تهلكه.

* وقد ورد ذكر مكة بأسمائها وصفاتها في مواضع عديدة من القرآن الكريم، **فمن ذلك:**

1- **مكة:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح:24].

2- **بكة:** ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران].

وفي اللسان العربي: (مكة) هي (بكة)، والميم بدل من الباء، مثل (ضربه لازم) و(ضربه لازب).

3- **أم القرى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:7].

4- **البلد الأمين:** ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين].

5- **البلد:** ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ [البلد].

6- **البلدة:** ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:91].

7- **الكعبة:** ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:95]، أي: واصلًا إلى مكة بأن يذبح هناك (أي: في مكة)، ويفرق لحمه على المساكين، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «... كل فجاج مكة منحر»(1).

8- **المسجد الحرام:** فهو اسم للكعبة، واسم يمتد إلى مكة، ويمتد أيضًا إلى حدود الحرم، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:1]، فتكون مكة هي التي تعنيها الآية الكريمة.

---

(1) سنن أبي داود (2/291)، كتاب الصوم.

* وفي كتاب (معجم أسماء مكة) لعبد الله بن محمد الزهراني، ذكر أن لمكة أكثر من (109) أسماء، جمع منها سبعين اسمًا فقط، **نذكر منها:**

1- **أم الرحمة:** أي أم الرحمة والمغفرة التي بها أنزلت رحمة رب العالمين.

2- **أم زحم:** لأن الناس يتزاحمون بها.

3- **ريتاج:** وهي تعني الباب ذا الحلقة الحديدية اللامعة، والاسم مرتبط بباب الكعبة المعظمة.

4- **أياسة:** التي يئس الشيطان أن يعبد بها، والمشركون من دخولها.

5- **برة:** فلقد برها الله أكثر من باقي البلدان (والاسم يطلق على زمزم أيضًا).

6- **البنية:** وهي التي تكرر بناؤها، وبناء الكعبة مرات عديدة.

7- **تاج:** تاج المدن وفخرها؛ لقدمها وقدرها.

8- **تهامة:** مكة من المدن الواقعة في تهامة، ولكنها أشهرها وأحبها إلى نفوس المسلمين.

9- **الثنية:** موقع من المواقع الشهيرة داخل مكة، وهي من تسمية الكل باسم البعض.

10- **الحاطمة:** حاطمة الفاجرين والملحدين والظالمين، وحاطمة الذنوب.

11- **سبوحة:** أول بيت وضع للتسبيح، وآخر بيت ينتهي فيه التسبيح لله عند قيام الساعة.

12- **السلام:** بلد السلام والأمن والسكينة.

13- **صلاح:** بلد خرج منها صلاح الدنيا والآخرة.

14- **عُربة:** مصدر الاسم هو اللسان العربي لأهل مكة بعد سكن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

15- **كوثر:** من الكثرة، فهي البلد الكثيرة الزوار والمحبين.

16- **معاد:** معاد المسلمين كل سنة لحج بيت الله الحرام.

17- **نادر:** لا يوجد للبيت شبه ولا مثيل في الأرض.

* * *

المبحث الثالث: كيف بدأت الحياة بمكة؟

كانت مكة موجودة قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكانت عبارة عن بلد صغيرة، سكنها بنو آدم، إلى أن دمرت أثناء الطوفان الذي ضرب الأرض في عهد النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث صارت بعد ذلك عبارة عن وادٍ جاف، تحيط بها الجبال من كل جانب.

وقبل ذكر الحياة في مكة وكيف بدأت، يلزم أن نذكر فقرة موجزة عن الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ .. فمن عنده تبدأ الحكاية:

من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت البداية:

كان مولد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأرض الكلدانيين بالعراق، لأب مسن (خمس وسبعين عامًا)، اسمه (آزر) أو تارخ، وكان له أخوان: (ناحور) و(هاران)، و(هاران) هو أبو لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولما كبر إبراهيم تزوج (سارة) ابنة عمه، ثم خرج (آزر) ومعه إبراهيم وسارة ولوط من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا (حران)، وكان أهلها يعبدون الكواكب والأصنام، ولما بعث الله إبراهيم إلى قومه، دعاهم إلى التوحيد ونبذ عبادة الكواكب والأصنام، فلم يستجب إليه أبوه وقومه، فناظره وناظرهم، وقد قص القرآن ذلك كله.

ومات (آزر) عن مائتين وخمسين عامًا، وإبراهيم في حزن وأسى؛ لعدم إيمانه، وتعرض إبراهيم إلى الإيذاء والبلاء من قومه، حتى انتهى به الأمر إلى الإلقاء في النار!!

ثم هاجر إبراهيم وسارة ولوط إلى أرض الشام، وقام بتبليغ أهلها رسالة ربه، أما لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد أرسله الله - عَزَّ وَجَلَّ - إلى أهل (سدوم) بالشام.

ثم ارتحل الخليل وزوجه إلى مصر، وكان بها ملك جبار ظالم، لا يمر به رجل وامرأته إلا اغتصبها منه وقتله، فلما رآهما عيون الملك، **قالوا له:** إن هٰهنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، وسأله عنها، **فقال:** من هذه؟ **قال:** أختي، ثم أتى سارة **فقال:** ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فقبض الله يده قبضةً شديدة، **فقال:** ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق الله يداه، وكرر ذلك ثلاثًا، فدعا بعض حجبته، **فقال:** إنكم لم تأتوني بإنسان وإنما بشيطان، فأخرجوها من أرضي، وأعطاها هاجر[1].

---

(1) الحديث عند البخاري ومسلم، وذكرنا نصه في باب (الأنبياء إخوة، ودينهم واحد).

ثم رجع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه سارة من مصر إلى بلاد الشام، ومعها أنعام وعبيد ومال جزيل ومعهما هاجر، فأقام بها نحو عشرين سنة، وكان يتوق إلى الولد، فألهم الله سارة، **فقالت لإبراهيم:** إن الرب قد حرمني الولد، فادخل على أمتي هذه؛ لعل الله يرزقك منها ولدًا. فلما دخل بها حملت منه، ثم وضعت إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولإبراهيم ست وثمانون سنة[1].

هاجر وإسماعيل إلى جبال فاران[2]:

ضاقت سارة بهاجر، واشتدت بها الغيرة؛ لأنها لم ترزق بولد، فصارت تؤذيها وتلاحقها، حتى أن هاجر اتخذت منطقًا (ما تشد به المرأة وسطها)، له ذيل؛ لتخفي أثرها من الأرض ، فلا تعرف سارة مكانها فتؤذيها!!

فأمر الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يذهب بهاجر وابنها إلى وادٍ بجبال فاران؛ تطييبًا لخاطر سارة الصابرة .. ونترك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يحكي لنا كيف بدأت الحياة بمكة بعد ذلك. فقد روى عنه البخاري في صحيحه أنه **قال:** (أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا؛ لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت - أي مكانه - عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفَّى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، **فقالت:** يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس، ولا شيء؟! وقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، **فقالت له:** آللَّه أمرك بهذا؟ **قال:** نعم، **قالت:** إذن لا يضيِّعنا! ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيَّة حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم:37]، حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السِّقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى - **أو قال:** يتلبط[3] -، فانطلقت كراهية أن

---

(1) أبو شبهة: السيرة النبوية، ص 101-110 باختصار.

(2) **فاران:** هي مكة كما يعبر عنها في التوراة.

(3) يضرب برجليه الأرض عطشًا.

تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر: هل ترى أحدًا؟ فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف دِرعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المَرْوة، فقامت عليها، ونظرت: هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات».

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي الناس بينهما**».

فلما أشرفت على المروة، سمعت صوتًا، **فقالت:** صَهْ[1]، ثم تسمَّعت، فسمعت أيضًا، **فقالت:** قد أسمعت إن كان عندك غواث[2]، فإذا هي بالملك - يعني جبريل - عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - **أو قال:** بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه[3]، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف، **قال ابن عباس:** قال النبي ﷺ: «**يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت** - أو قال: **لو لم تغرف من - زمزم لكانت زمزم عينًا معينًا**»[4].

قال: فشربت وأرضعت ولدها، **فقال لها الملك:** «لا تخافوا الضَّيْعة؛ فإن هذا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهل، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله.

فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كَدَاء[5]، فنزلوا في أسفل مكة، فوجدوا طائرًا عائفًا [6]، **فقالوا:** إن هذا الطائر ليدور على ماء، لَعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء!! فأرسلوا جريًا أو جريين[7]، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، **قال:** وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ **قالت:** نعم،

---

(1) **أي:** اسكتي، تخاطب نفسها.

(2) **أي:** إغاثة، فأغثني.

(3) **أي:** تجعله كالحوض بيدها.

(4) ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض.

(5) مكان أعلى مكة.

(6) يحوم.

(7) **الجري:** الرسول.

ولكن لا حقَّ لكم في الماء[1]، **قالوا:** نعم، **قال ابن عباس:** قال النبي ﷺ: «**فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس**»، فنزلوا معهم.

حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم[2]، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك[3] زوَّجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، **فقالت:** خرج يبتغي لنا[4]، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، **فقالت:** نحن بشرٌ، نحن في ضنك وشدة، فشكت إليه! **قال:** فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، **وقولي له:** يغيِّر عتبة بابه[5]، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا[6]، **فقال:** هل جاءكم من أحد؟ **قالت:** نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنا كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا في جَهْد وشدة، **قال:** فهل أوصاك بشيء؟ **قالت:** نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، **ويقول:** غيِّر عتبة بابك، **قال:** ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج امرأة منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بَعْدُ فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه، **فقالت:** خرج يبتغي لنا، **قال:** كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، **فقالت:** نحن بخير وسعة، وأثنت على الله – ﷻ – **فقال:** ما طعامكم؟ **قالت:** اللحم، قال: فما شرابكم؟ **قالت:** الماء، قال: اللَّهمَّ بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه»، **قال:** فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه[7]. **قال:** فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل **قال:** هل أتاكم من أحد؟ **قالت:** نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنَّا بخير،

---

(1) أي لا حق لكم في امتلاكه، أما الشرب والانتفاع به فمباح.

(2) صار أنفس فرد عندهم.

(3) صار رجلًا.

(4) يطلب الرزق لنا.

(5) **المراد بالعتبة:** المرأة.

(6) **آنس:** أحس شيئًا.

(7) **أي** أن (الحب) يوجد في مكة ببركة دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قال: فأوصاك بشيء؟ **قالت:** نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثِّبت عتبة بابك، **قال:** ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلًا له تحت دَوْحة[1] قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد[2]، قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، **قال:** فاصنع ما أمرك ربك، **قال:** وتعينني؟ **قال:** وأعينك، **قال:** فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، **قال:** فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر[3] فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:127]، **قال:** فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127][4].

المبحث الرابع: الكعبة

الكعبة: هي الشيء المكعب، وتسمى الكعبة بهذا الاسم لتكعيبها، **وقيل:** لعلوها ونتوئها، وتسمى بالبيت العتيق والبيت الحرام، وهي القبلة التي اختارها الله للمسلمين ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:144].

وقد جعلها - سبحانه - منارًا للتوحيد ورمزًا للعبادة: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة:97]، وهي من بقايا كلمة إبراهيم، التي أجمع العرب في جاهليتهم على احترامها وتقديسها، فكانوا يبنون بيوتهم مدورة تعظيمًا للكعبة، وإذا تطاول أحدهم عليها بالبنيان هدموه، وظلت حجة للناس، رغم وجود الأصنام والأوثان وممارسة الشرك عندها، إلى أن أكرمهم الله

(1) شجرة عظيمة.
(2) من المعانقة، والمصافحة، والتقبيل.
(3) الحجر الذي قام عليه الخليل وهو يبني.
(4) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشي، رقم (3364).

بالإسلام، فتمت طهارة البيت ومناسك الحج من كل ضروب الوثنية وعاداتها، فلم يعد يحج إلى البيت كافر، أو يطوف به عريان، وعادت إليه المناسك الصحيحة.

بناء الكعبة:

اختلف العلماء في بناء الكعبة، **فمنهم من قال:** بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، **ومنهم من قال:** إن الكعبة قد تم بناؤها في عهد آدم عليه السلام، **ومنهم من قال:** إن الله أوجدها قبل آدم. ونحن سنتناول الجانب المتيقن عند الجميع، والثابت بالكتاب والسنة الصحيحة، وهو بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للكعبة، ولن نتطرق إلى الآراء الأخرى بنفي أو إثبات. وقد ذكرنا في رواية البخاري عن ابن عباس بناء الخليل وإسماعيل للكعبة، وبقي أن نذكر تتمةً لقصة البناء، أنهما بنيا الكعبة بناءً مربعًا تقريبًا، فكان كل ضلع من أضلاعها ثلاثين ذراعًا بذراعيهم، وارتفاعها تسعة أذرع، ولم يجعلا لها سقفًا، والحجر (بكسر الحاء) داخل فيها، وجعلا لها بابين شرقيًّا وغربيًّا، فلما بلغا موضع الحجر الأسود وضعاه في موضعه الذي هو فيه الآن، ثم حفرا بئرًا عند باب الكعبة؛ ليكون خزانة للبيت يُلقى فيه ما يهدى له. ولما فرغ الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام من بناء البيت، جاء جبريل، وأرسى الخليل المناسك كلها، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج، **فقال:** يا رب وما يبلغ صوتي؟ فقال الله – عز شأنه: (**أذن يا إبراهيم وعليَّ البلاغ**)، فوقف الخليل على جبل أبي قبيس، وصار ينادي: يا أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن، ومن كان سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة: (لبيك اللّهم لبيك)[1].

ودعا إبراهيم وإسماعيل ربهما بما حكاه عنهما القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة]. **قال الطبري**[2]: (وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاصةً، وهي التي كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقول عنها:(أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى)[3].

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 132.

(2) التفسير: (3/82 شاكر)، وقد رواه أحمد في المسند (4/ 127-128)، والحاكم في المستدرك (2/616-17).

(3) د. مهدي رزق الله: السيرةالنبوية، ص 50.

وحج الخليل إبراهيم، وحج إسحاق، وأمه سارة من بيت المقدس، ثم رجع الخليل إلى الشام، وكانت وفاته هناك عليه الصلاة والسلام[1]، ومن يومها صار الحج فريضة محكمة باقية إلى يوم القيامة [2].

ما من نبي إلا وقد حج البيت:

روي عن رسول الله ﷺ أن الأنبياء قد حجوا البيت، ومنهم أنبياء كانوا قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (**مثل:** نوح، هود، صالح - عليهم السلام)، وقد احتج بهذه الروايات القائلون بأن الكعبة بُنيت قبل إبراهيم وإسماعيل، **ورد عليهم بأن:** المقصود الحج إلى المحل والبقعة المعروفة، وإن لم يكن هناك بناء.

ودون تناول لهذا الخلاف، فإن الأنبياء قد حجوا البيت قبل إبراهيم وبعده، وقد صح عن النبي ﷺ فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أنه **قال:** «حج رسول الله ﷺ، فلما أتى وادي (عسفان) **قال:** يا أبا بكر أي وادٍ هذا؟ **قال:** هذا وادي عسفان، قال: لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكرات[3] لهم حمر، خطمها[4] الليف، وأزرهم[5] العباء، وأرديتهم النمار[6]، يحجون البيت العتيق» [7].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا، قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج، **قال:** «يا أبا بكر، أي واد هذا؟»، **قال:** وادي عسفان، **قال:** «لقد مر به هود وصالح - عليهما السلام - على بكرات حمر، خطمها الليف، وأزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون يحجون البيت العتيق »[8].

---

(1) فتح الباري، ج 6، ص 314.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 132.

(3) **بكرات:** جمع بكرة، وهي الناقة الفتية القوية.

(4) **خطم:** جمع خطام، وهو الزمام الذي تشد به الناقة.

(5) **أزر:** جمع إزار، وهو ما يستر به أسفل الجسم من الوسط.

(6) **النمار:** جمع نمرة، وهي الكساء المخطط.

(7) رواه أبو يعلى في مسنده.

(8) رواه الإمام أحمد في مسنده (2096)، وإسناده حسن.

المسجد حول الكعبة:

لما بنى الخليل وابنه إسماعيل البيت عُرف بالكعبة، وصار الناس يحجون إليه ويعتمرون ويطوفون به، ويصلون إليه، وعرف ما حول الكعبة بالمسجد الحرام، وهو أول المساجد المشرفة في الأرض[1] : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦﴾ [آل عمران]، ولم يكن للمسجد الحرام سور، وكانت الدور تحيط به من جميع الجهات.

ولما آلت السيادة على البيت إلى قصي بن كلاب، بنى الكعبة من جديد، وأذن لطوائف قريش أن يبنوا بيوتًا حول الكعبة من جهاتها الأربع، **وقال لهم:** (إنكم إن سكنتم الحرم حول البيت هابتكم العرب، ولم تستحل قتالكم، ولا يستطيع أحد إخراجكم).

وظل المسجد الحرام على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه بلا جدار يحيط به، فضيق الناس على الكعبة، وألصقوا دورهم بها، وكانت الدور محدقة بالكعبة، وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية، فلما استخلف عمر، وكثر الناس، قال: (لابد لبيت الله من فناء، وإنكم دخلتم عليه ولم يدخل عليكم)، فوسع المسجد، واشترى تلك الدور وهدمها، وزاد في المسجد، واتخذ للمسجد جدارًا قصيرًا دون القامة، وكانت القناديل توضع عليه، وكان عمر أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام.

أركان الكعبة:

جاءت تسمية الأركان الأربعة للكعبة باعتبار اتجاهاتها الأربع، أو لخصوصية أخرى فيها:

1- الركن الشرقي: وهو الذي بجوار باب الكعبة، ويقابل بئر زمزم تقريبًا، وسمي بذلك لكونه باتجاه المشرق تقريبًا، ويسمى أيضًا بالركن الأسود؛ لأن الحجر الأسود مثبت فيه، ومنه يبدأ الطواف حول الكعبة.

2- الركن العراقي: وهو الذي يلي الركن الشرقي حسب حركة الطواف، ويسمى بالركن الشمالي؛ لمواجهته للشمال تقريبًا، وسمي بالعراقي لكونه باتجاه العراق.

3- الركن الغربي: وهو الذي يلي الركن الشمالي مع الطواف، وسُمي كذلك لمواجهته للغرب تقريبًا، ويسمى أيضًا بالركن الشامي؛ لكونه باتجاه الشام.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 132.

4- الركن اليماني: ويلي الركن الغربي مع الطواف، وسمي باليماني لكونه باتجاه اليمن، ويُسمى أيضًا بالركن الجنوبي؛ لمواجهته للجنوب.

وفضائل هذا الركن جليلة، ويكفي أن المصطفى ﷺ استلمه بيده الشريفة، وكان يفعل ذلك كثيرًا حتى أصبحت سنة مشروعة، وقد روي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «**كان رسول الله ﷺ لا يدع أن يستلم الركن اليماني والحجر في كل طوافه**»(1).

وقد ثبت عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه قال عن الركنين الآخرين، اللذين لا يستلمان: إني لأظن أن رسول الله ﷺ لم يترك استلامهما إلَّا أنهما ليسا على قواعد البيت(2). **أي** أن الركن اليماني على القواعد الأولى للبيت التي رفعها إبراهيم، لم تغير قريش مكانه حين أعادت بناء البيت قبل بعثة النبي ﷺ، فقصرت بها النفقة، فبنت الكعبة على مساحة أقل من مساحتها الأولى(3).

وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ **قال عن الركن اليماني:** «وكل به سبعون ملكًا، فمن قال: اللّٰهم إني أسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، اللّٰهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، قالوا: آمين»(4).

ولما كانت الكعبة بناءً مربعًا تقريبًا، **فقد كانت جدرانها بين هذه الأركان كما يلي:**

1- عرض وجهها (الذي فيه الباب) عشرون ذراعًا.

2- عرض مؤخرها مثل ذلك.

3- عرض جدارها الذي بين الركن اليماني والركن العراقي (وهو الذي فيه الحجر الأسود) عشرون ذراعًا، وإلى وسط هذا الجدار كان يصلي النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.

4- عرض جدارها الذي فيما بين الركن الشامي والركن الغربي أحد وعشرون ذراعًا.

مقام إبراهيم:

هو الحجر الذي أحضره إسماعيل لأبيه إبراهيم عندما ارتفع بناء الكعبة فوق قامته، فوقف

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه (1876).

(2) أخرجه أبو داود (1875)، والبيهقي في سننه الكبرى (9407).

(3) فؤاد عبد الحميد عنقاوي: مكة .. الحج والطوافة، بتصرف.

(4) رواه ابن ماجه (2957).

عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه ليكمل البناء، وكان إسماعيل يناوله الحجارة وكلما كمل جهة انتقل إلى أخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، حتى انتهى إلى وجه البيت، ثم وقف عليه عند الأذان في الناس بالحج، وكان يستقبله في صلاته عند الباب.

وقد أثرت قدماه فيه؛ فقد كان من معجزات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن صار الحجر تحت قدميه رطبًا، فغاصت فيه قدماه، وبقي أثر قدميه ظاهرًا إلى يومنا، وإن تغير عن هيئته الأصلية، بمسح الناس بأيديهم عليه (قبل وضع الحجر في المقصورة الزجاجية).

وظل موضع المقام هو الذي كان عليه في عهد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى زمان خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث ذهب السيل به، فجُعل في وجه الكعبة، حتى قدم عمر فرده بمحضر من الناس.

الحجر الأسود:

الحجر الأسود هو حجر شبه بيضاوي في شكله، لونه أسود ضارب للحمرة، وبه نقطة حمراء، وتعاريج صفراء، وقطره حوالي ثلاثين سنتيمترًا، يقع في حائط الكعبة في الركن الجنوبي الشرقي من بناء الكعبة، وعنده يبدأ الطواف، ويسميه البعض (الحجر الأسعد)، ويكتفى أحيانًا بذكر كلمة (الحجر) للدلالة عليه، ولقد تكسر في يوم من الأيام ثلاث قطع، ثم ضمت أجزاؤه بعضها إلى بعض، بواسطة حلقة من الأحجار، يطوقها إطار من الفضة، وقد وضعه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكانه الحالي قبل خمس سنين من مبعثه، عندما اختلف المشركون فيمن يضعه[1].

من أين أتى الحجر الأسود؟:

جاء في «أخبار مكة»[2] عن الشعبي قال: لما أمر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبني البيت وانتهى إلى موضع الحجر، **قال لإسماعيل:** ائتني بحجر ليكون علمًا للناس يبتدئون منه الطواف، فأتاه بحجر فلم يرضه، فأتى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الحجر، **ثم قال:** أتاني به من لم يكلني على حجرك.

ومما يشهد لهذا ما رواه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**نزل الحجر الأسود من الجنة أشد بياضًا من الثلج، فسودته خطايا بني آدم**» [3].

(1) موسوعة مقاتل من الصحراء، الإصدار الخامس عشر.
(2) أبو الوليد الأزرقي، أخبار مكة، ج1، ص 61.
(3) أخرجه ابن خزيمة (2733)، والترمذي (877)، **وقال:** حسن صحيح.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا، أن النبي ﷺ **قال:** «الحجر الأسود من الجنة»(1).

ويشرع استلام الحجر الأسود عند البدء بالطواف، وعند أول كل شوط، وكذا يشرع تقبيله، وقد اشتهرت **مقولة الفاروق عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تقبيله له: «لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»(2).

وعن نافع قال: رأيت ابن عمر يستلم الحجر بيده، ثم قبل يده، **وقال:** «ما تركته منذ رأيت رسول الله ﷺ يفعله» (3).

المبحث الخامس: بئر زمزم

زمزم هي سقيا إسماعيل، فجرها جبريل، طعام طعم، وشفاء سقم، لا تنزف أبدًا، ولا تذم، ولا يتوجه إليها ذم، خير ماء على وجه الأرض، نبع في أقدس بقاع الأرض، وهو لما شُرب له؛ إن شربته تستشفي به شفاك الله، وإن شربته ليشبعك أشعبك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وبه غسل جبريل صدر محمد ﷺ.

زمزم فجرها جبريل بجناحه:

ذكرنا أن الماء لما نفد من هاجر وابنها، صار إسماعيل يتمرغ ويتلوى من شدة العطش، فخرجت تسعى بين الصفا والمروة؛ عسى أن تجد ماءً، وتصعد فوق الجبلين في كل مرة حتى أكملت سبعة أشواط، ثم نزلت وهي هلعة جزعة أن لم تجد ماءً، فسمعت من يناديها ويقول: جاءك الغواث، فصارت ترهف سمعها إلى الصوت وتتسمع، فإذا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورة طائر، فضرب الأرض بجناحه، فنبعت عين زمزم، فصارت تحوط عليها التراب من شدة الفرح، **وتقول لها:** زمي، زمي، فشربت وشرب إسماعيل حتى رويا، **وسمعت من يقول لها:** لا تخافي الضيعة؛ فإن هٰهنا بيتًا لله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله (4).

---

(1) أخرجه أحمد (2840)، والنسائي (2935)، وصححه الألباني.

(2) رواه البخاري (1597)؛ ومسلم (1270).

(3) أخرجه مسلم (1268).

(4) **انظر** نص حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند البخاري الذي ذكرناه في فصل (كيف بدأت الحياة في مكة؟).

عبد المطلب وإعادة حفر زمزم:

ولي أمر البيت ومكة إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم ابنه من بعده، ثم وليه رجل من جرهم اسمه (مضاض بن عمرو الجرهمي)، وظل الجراهمة يحكمون مكة، إلى أنه غلبتهم خزاعة[1]، فلما هموا بالخروج من مكة، عمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي إلى نفائسه (غزالان من ذهب، وسيوف محلاة، ودروع)، فدفنها في زمزم، وسوى البئر، وطمس معالمها، قبل أن ينطلق بقومه إلى اليمن، فلم تزل زمزم من ذلك العهد مجهولة، حتى أذن الله - سبحانه وتعالى - أن تعاد على يد عبد المطلب جد النبي ﷺ، فأراه في منامه رؤيا تدله على موضع البئر وتأمره بحفرها، وكان قد ولي السقاية والرفادة في مكة بعد عمه المطلب.

روى ابن إسحاق في سيرته بسنده عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه كان يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها **قال: قال عبد المطلب:** إني لنائم في الحجر؛ إذ أتاني آتٍ[2]، **فقال:** احفر طيبة. **قال: قلت:** وما طيبة؟! **فقال:** ثم ذهب عني، فلما كان الغد، رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني **فقال:** احفر بَرَّة. **قال: قلت:** وما برة؟! **قال:** ثم ذهب عني، فلما كان الغد، رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني **فقال:** احفر المضنونة. **قال: قلت:** وما المضنونة؟! **قال:** ثم ذهب عني، فلما كان الغد، رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني، **فقال:** احفر زمزم، **قال: قلت:** وما زمزم؟! **قال:** لا تنزف[3] أبدًا، ولا تذم[4]، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

فلما بيَّن له شأنها، ودلَّ على موضعها، خرج بمعوله، ومعه ابنه الحارث، وليس له ولد غيره يومئذ، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطي[5] كبَّر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه، **فقالوا:** يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقًّا، فأشركنا معك فيها، **قال:** ما أنا بفاعل!! إن هذا الأمر قد خُصصت به دونكم، **قالوا:** فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، **قال:** فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، **قالوا:** كاهنة بني سعد

---

(1) سيأتي ذكر ذلك في فصل (قريش).

(2) في المنام.

(3) لا يفرغ ماؤها.

(4) لا توجد قليلة الماء.

(5) الحجارة التي تغطي البئر.

هُذَيم، **قال:** نعم، وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، والأرض إذ ذاك مفاوز (صحراء)، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق فني ماء عبد المطلب وأصحابه حتى كادت أعناقهم تنقطع من العطش، وضن عليهم بنو قومهم من قريش بالماء، **وقالوا:** إنا بمفاوز، وإنا لنخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فرأى عبد المطلب أن يحفر كل واحد لنفسه قبره، ففعلوا، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى.

ثم بدا لعبد المطلب، **فقال لأصحابه:** والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت، لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا الماء لَعَجْز، فعسى أن يرزقنا الله ماء ببعض البلاد فارتحلوا؛ حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته انفجرت عين ماء عذب من تحت خفِّها، فكبَّر عبد المطلب، وكبَّر أصحابه، ثم نزل فشرب وشربوا، وملأوا أسقيتهم، ثم دعا قريشًا، **فقال:** هلمُّوا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاءوا، وشربوا، واستقوا ثم قالوا: قد - والله - قُضي لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبدًا، إن الذي سقاك الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدًا، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلُّوا بينه وبينها (أي: زمزم).

وفي رواية أخرى: أن عبد المطلب لما رأى رؤياه، غدا ومعه ابنه الحارث، إلى حيث وصف له مكانها، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب الأعصم ينقر عندها بين الوثنين: إساف، ونائلة، فجاء بالمعول، وقام ليحفر حيث أُمر، فقامت إليه قريش، **وقالوا:** والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما، **فقال عبد المطلب لابنه:** ذُدْ عَنِّي حتى أحفر، فوالله لأمضين لما أُمرت، فلما عرفوا أنه جادٌّ، خلوا بينه وبين الحفر، فلم يحفر إلَّا يسيرًا، حتى بدا له الطي فكبر، وعرف أنه صُدق.

فلما تمادى به الحفر، وجد غزالين من ذهب، ووجد الأسياف والأدرع، **فقالت له قريش:** لنا معه في هذا شرك. **فقال:** لا، ولكن هلمَّ إلى أمر نَصَف بيني وبينكم، نضرب عليها القداح، **قالوا:** وكيف تصنع؟ **قال:** أجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له، ومن تخلَّف قدحاه لا شيء له، **قالوا:** أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطوا القداح لسادن هُبَل، وقام عبد المطلب يدعو الله ﷻ، فضرب صاحب القداح، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب، وتخلَّف قدحا قريش، فضرب عبد المطلب الأسياف بابًا للكعبة، وضرب الغزالين حلية للباب، فكان أول ذهب حليت به الكعبة،

ثم أقام عبد المطلب سقايتها للحاج، فكانت له عزًّا وفخرًا على قريش، وعلى سائر العرب، وقد ذكر عنه أنه قال: إني لا أحلها لمغتسل، وهي لشارب حل وبل[1].

وكانت قريش لما طمست زمزم حفرت أبيارًا بمكة، فحفر هاشم بن عبد مناف بئرًا عند فم شِعْب أبي طالب، وحفر عبد شمس بن عبد مناف بئرًا بأعلى مكة، وحفر أمية بن عبد شمس بئرًا لنفسه، وحفر بنو أسد بن عبد العزَّى بئرًا، وحفر بنو عبد الدار بئرًا، وبنو جُمَح بئرًا، وبنو سَهْم بئرًا، وهكذا.

فلما أعاد عبد المطلب حفر زمزم عَفَت على الآبار التي كانت قبلها، وانصرف الناس إليها؛ لمكانها من المسجد الحرام، ولفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام[2].

السقاية في بني عبد المطلب:

ولما مات عبد المطلب صارت السقاية إلى أبي طالب، ثم اتفق أن أملق (افتقر) في بعض السنين، فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف إلى الموسم الآخر، وصرفها أبو طالب في السقاية، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء، فاستسلف أخاه أربعة عشر ألفًا أخرى، **فقال له العباس:** بشرط إن لم تعطني تترك لي السقاية أكفيكها، **فقال:** نعم، وجاء العام المقبل ولم يكن مع أبي طالب شيء، فأخذها العباس، ثم صارت من بعده إلى ولده عبد الله، ثم إلى علي بن عبد الله، ثم إلى داود بن علي، ثم إلى سليمان بن علي، ثم إلى عيسى ابن علي، ثم أخذها المنصور، واستناب عليها مولاه أبا رزين[3]، وبتوالي العصور ذهبت هذه المفاخر واندرست.

أسماء زمزم:

1- زمزم: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «سميت زمزم لأنها زُمت بالتراب؛ لئلا تسبح الماء يمينًا وشمالًا، ولو تركت لساحت على الأرض حتى تملأ كل شيء».

وقيل: سميت زمزم بزمزمة الماء، وهو صوته.

---

(1) الشفاء والمباح.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 158.

(3) البداية والنهاية، ج3، ص 247-248.

وقيل: لأن هاجر خافت من طغيان الماء على طفلها، فأخذت **تقول:** زمي يا مباركة، زمي.

2- هزمة جبريل.

3- بركة.	4- سيدة.
5- نافعة.	6- مضنونة.
7- عونة.	8- بشرى.
9- صافية.	10- برة.
11- عصمة.	12- سالمة.

13- مروية.

فضل زمزم:

ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرة:

* منها ما رواه مسلم في صحيحه في قصة إسلام أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«إنها طعام طعم»**[1].

* وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«ماء زمزم لما شُرب له»**[2]، أي: أن من شرب من مائها بنية الاستشفاء شفاه الله، ومن شرب بنية طلب العلم أعطاه الله العلم، ومن شرب بنية الغنى أغناه الله.

* عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه **قال لرجل:** «إذا شربت من زمزم فاستقبل القبلة، واذكر اسم الله، وتنفس ثلاثًا (أي اشرب على ثلاث مرات)، وتضلع منها (كناية عن الشرب الكثير)، فإذا فرغت فاحمد الله، فإن رسول الله ﷺ قال: **«إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم»**[3].

* وعنه أيضًا عن النبي ﷺ قال: **«ماء زمزم لما شرب له: إن شربته لتستشفي شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهي هزمة جبريل** (أي ضربته في الأرض بجناحه)، **وسقيا الله إسماعيل»**[4].

---

(1) أي: أن ماءها مشبع؛ رواه مسلم (2473).

(2) رواه أحمد (15078).

(3) رواه ابن ماجه (3061) والحاكم (1744).

(4) رواه الدارقطني (2739)، والحاكم (1745) وصححه.

المبحث السادس: غار حراء، وغار ثور

غار حراء، وغار ثور من الأماكن التي ستعرض لنا في دراستنا للسيرة العطرة للحبيب ﷺ؛ **فالأول** كان مكانًا لخلوته قبل البعث إلى أن نزل عليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي ببواكيره الأولى وهو يتحنث فيه.

أما **الثاني** فالتجأ إليه هو وصاحبه في طريق الهجرة المباركة إلى المدينة .. فكان لابد من نظرة إلى المكانين.

غار حراء مهبط الوحي:

غار حراء يقع في أعلى جبل حراء (جبل النور)، الذي يقع شرق مكة المكرمة على يسار الذاهب إلى عرفات، وارتفاعه 634 مترًا، ويبعد تقريبًا مسافة أربعة كيلو مترات من الحرم الشريف[1]، وينحدر الجبل انحدارًا شديدًا من 380 مترًا، حتى يصل إلى مستوى 500 متر، ثم يستمر في الانحدار على شكل زاوية قائمة حتى قمة الجبل، وتبلغ مساحته 5 كيلو مترات، و250 مترًا مربعًا، وتشبه قمته سنام الجمل.

وغار حراء عبارة عن فجوة في أعلى الجبل، بابها نحو الشمال، طولها أربع أذرع، وعرضها ذراع وثلاثة أرباع الذراع، والداخل لغار حراء يكون متجهًا نحو الكعبة.

ويتسع الغار لخمسة أشخاص جلوسًا، وارتفاعه قامة متوسطة، ولذا فباستطاعة من فيه أن يصلي وأن يجلس، وهذه البقعة الصغيرة كانت أوسع بركة على الدنيا من جُل بقاع الأرض؛ فقد اتسعت لجلال الوحي وتلقي الرسالة، وللنور الذي بدد ظلمات الجهالة .

غار ثور.. المخبأ المبارك:

يقع غار ثور في جبل ثور جنوب مكة، ويفصله عن باقي جبال مكة فج المفجر، ويرتفع عن سطح البحر 760م، وهو جبل مستدير الشكل نسبيًّا، سهل في أدناه، وعر في أعلاه، له عشر قمم مدببة، ترتفع من قاعدته، وكان يعرف بجبل أطحل، ولكن حين سكنه ثور بن عبد مناف نُسب إليه.

والغار عبارة عن صخرة مجوفة، أشبه بسفينة صغيرة، ظهرها إلى أعلى، أي أنه تقريبًا شبه نصف كرة، ويتسع لثمانية رجال جلوسًا، وله فتحتان: فتحة في جهة الشرق، وأخرى في جهة

---

(1) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

الغرب، وهي التي دخل منها النبي ﷺ وصاحبه، وهي في الجدار الجنوبي للغار، وترتفع عن الأرض حوالي 60سم.

المبحث السابع: فضائل مكة

فاضل الله عز وجل بين جميع ما أنشأ على أرضه وسماواته، ففاضل بين الأمم والرسل والأنام، وبين الشهور والأيام، وبين الدهور والأعوام، وكذا فاضل بين البلاد، ففضل مكة على سائر البلاد، وجعل لها من الفضائل ما لا يبارى، **ونوجز من هذه الفضائل ما يلي:**

1- أن فيها بيت الله العتيق، أول بيت وضع للناس، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران].

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، **قال:** «سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض؟ **قال:** المسجد الحرام، **قلت:** ثم أي؟ **قال:** المسجد الأقصى، **قلت:** كم بينهما؟ **قال:** أربعون عامًا».

2- أن الله جعلها حرمًا آمنًا، لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة[1]، ولا ينفر له صيد، ولا يختلى خلاه، ولا تلتقط لقطته للتمليك بل للتعريف ليس إلَّا.

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي شريح رضي الله عنه، أن النبي ﷺ **قال:** «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ، يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فيها (أي: يوم فتح مكة)، **فقولوا:** إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب»[2].

3- ومن فضائلها ما ورد في فضل الصلاة في المسجد الحرام؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده، من حديث جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ **قال:** «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلَّا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة»[3].

---

(1) **لا يعضد شجره:** لا يقطع.
(2) صحيح البخاري (برقم 104)، صحيح مسلم (برقم 1354).
(3) مسند أحمد (46/23) (برقم 14694).

4- أن الله أخبر أنها أم القرى، كما في قوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:7]، فالقرى كلها تبع لها وفرع عليها.

5- أنها قبلة لأهل الأرض كلهم، فليس على وجه الأرض قبلة غيرها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:150].

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ لما خرج من البيت، ركع في قبل البيت ركعتين، وقال: «**هذه القبلة**» [1].

6- الأمن لداخل الحرم، قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:97].

7- أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر البقاع؛ لقوله ﷺ كما في الصحيحين من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ببول ولا غائطٍ، ولكن شرقوا أو غربوا» [2].

8- أن الله اختارها لمناسك الحج، وجعل القصد إليها عبادة، ترفع بها الدرجات، وتُمحى بها السيئات، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ **قال:** «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»[3].

9- أن مكة خير البلاد وأحبها إلى الله ورسوله ﷺ، فقد روى الترمذي في سننه، من حديث عبد الله بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ **قال:** «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض اللهِ إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[4].

وروى الترمذي في سننه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** قال رسول الله ﷺ لمكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك إلي! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»[5].

---

(1) صحيح البخاري (برقم 398)، وصحيح مسلم (برقم 331) مختصرًا.
(2) صحيح البخاري (برقم 349)، وصحيح مسلم (برقم 264)، واللفظ له.
(3) صحيح البخاري (برقم 1521)، وصحيح مسلم (برقم 1350).
(4) سنن الترمذي (برقم 3925).
(5) سنن الترمذي (برقم 3926).

10- أن الله جعلها مسرى نبيه محمد ﷺ إلى السماء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء].

11- أن الرحال لا تشد للسفر إلى غير المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ والمسجد الأقصى. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى»(1).

12- أن الله سبحانه أضاف البيت الحرام في مكة إلى نفسه، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:26]، فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته، ولو لم يكن له شرف إلَّا إضافته إياه لنفسه لكفى بهذه الإضافة فضلًا وشرفًا.

13- أن الله تعالى عطف القلوب إلى بيته الحرام، وجعله مثابة للناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:125]، أي: يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطرًا، بل كلما ازدادوا زيارة له، ازدادوا له اشتياقًا، **قال الشاعر:**

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها ... حتى يعود إليها الطرف مشتاقًا

14- ومما يدل على فضلها ومكانتها: ما جاء في المعاقبة على الهم بالسيئة فيها وإن لم تفعل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾ [الحج].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

وكان لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فسطاطان؛ أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، وإذا أراد أن يصلي صلى في الحرم(2).

* * *

(1) صحيح البخاري (برقم 1189)، وصحيح مسلم (برقم 1319).

(2) د. أمين بن عبد الله الشقاوي: فضائل مكة وحرمتها، مختصرًا.

الفصل الرابع

تاريخ قريش

نعرض في هذا الفصل - في إيجاز - لتاريخ قريش، منذ إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى زمان النبي ﷺ، فمن هذه الذرية كان الاصطفاء الذي أخبرنا به رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[1]، وتاريخ قريش يحكي تاريخ مكة وحكامها، ومن تعاقب على ولاية البيت، ثم إن قريشًا بالنسبة لنا هي ركن ركين في دراسة (السيرة النبوية).

سبب التسمية:

* روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النضر بن كنانة (وهو قريش الأكبر) كان في سفينة، فطلعت عليهم دابة من دواب البحر، يقال لها قريش، فخافها أهل السفينة، فرماها النضر بسهم، فقتلها، وقطع رأسها، وحملها معه إلى مكة[2].

* **وقيل:** إنهم سموا قريشًا نسبة إلى أحد أجدادهم، وهو قريش بن بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة [3].

* **وقيل:** إن قريشًا من التقاريش، وهي التجارة.

* **وقيل:** لقرشهم عن حاجة المحتاج وسد خلته.

جرهم:

مر أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء[4]، فنزلوا في أسفل مكة، فوجدوا طائرًا يحوم، **فقالوا:** إن هذا الطائر ليدور على ماء، ولعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء.

---

(1) رواه مسلم (2276).

(2) القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، 456.

(3) ابن حجر: فتح الباري، ج6، ص 388.

(4) مكان أعلى مكة.

فأرسلوا رسولين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم، فأقبلوا وهاجر عند الماء؛ **فقالوا:** أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ **قالت:** نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم. فنزلوا مع هاجر وابنها[1].

وشب إسماعيل بينهم، وتعلم العربية منهم، وأعجبهم حين شب، فزوجوه امرأة منهم، وعندما ماتت هاجر جاء إبراهيم، ولم يجد حينها ولده إسماعيل بالبيت، فسأل زوجته عن عيشهم، فشكت إليه مما يلاقيانه من شدة، فأوصاها أن تقرئه السلام، وتقول له بأن يغير عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل أخبرته، فعرف من وصفها أنه أبوه، وفهم الوصية، وأن العتبة تعني زوجته، فطلقها، وتزوج امرأة أخرى، وبعد فترة من الزمان عاد إبراهيم مرة أخرى، فلم يجد إسماعيل بالمنزل، وسأل زوجته عن عيشهم، فحمدت الله وأثنت عليه، فأوصاها بأن تقرئه السلام، وتقول له أن يثبت عتبة بيته، فعندما عاد إسماعيل وأُخبر بما حدث، عرف أباه، وفهم وصيته، فأمسك عليه زوجه عَلَيْهِ السَّلَامُ[2].

أولاد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ يحكمون مكة:

صار لإسماعيل من امرأته - رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي - أولاد عدتهم اثنا عشر رجلًا، أكبرهم نابت بن إسماعيل، وكان من أحفاده يعرب، الذي كان من أحفاده عدنان، ومنه كانت قبائل العرب العدنانية كلها.

وقد ولي أمر مكة والبيت إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما مات وليه بعده ابنه نابت ما شاء الله أن يليه، وعاشت جرهم زمنًا في ظل حكم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولاده، إلى أن استولت على الحكم بمكة، وانتزعته منهم.

حكم الجراهمة:

لم ينازع بنو إسماعيل الجراهمة الملك والرئاسة لخئولتهم وقرابتهم، وإعظامًا لمكة أن يكون بها بغي أو قتال، وكان أول من ولي أمر مكة والبيت من جرهم مضاض بن عمرو الجرهمي، جد أولاد إسماعيل، ثم انتقلت بعده إلى ابنه الحارث، ثم إلى عمرو بن الحارث[3]، ثم لم تلبث جرهم أن بغوا، واستحلوا حرمة الكعبة، واغتصبوا المال الذي كان يهدى إليها، فسلط الله عليهم بني بكر بن كنانة وخزاعة، فأجلوهم عن مكة، فالتحقوا باليمن ديارهم الأولى.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 129.
(2) د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص 49.
(3) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 145.

حكم خزاعة:

أصل خزاعة: هم عرب من اليمن، خرجوا منها بعد سيل العرم، وقصدوا مكة، فلم تقبلهم جرهم، فدارت بينهم حرب، انتهت بهزيمة جرهم، واعتزل بنو إسماعيل القتال، ثم انحازوا إلى خزاعة وعاشوا معهم.

وظلت خزاعة تلي أمر مكة والبيت نحوًا من ثلاثمائة سنة (**وقيل:** خمسمائة)، وكانت قريش (وهي من ولد إسماعيل) يومئذ بيوتات متفرقة في قومهم من بني كنانة.

ومازال بنو خزاعة يتوارثون الحكم وأمر البيت، حتى كان آخرهم (حُليل بن حبشية ابن سلول الخزاعي).

قصي بن كلاب .. والتأسيس الحقيقي لقريش:

قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[1]، هو الجد الثاني لعبد المطلب، والجد الرابع للنبي ﷺ.

وكان اسمه زيدًا، وسمي قصيًّا؛ لأن أمه تزوجت بعد وفاة أبيه كلاب بن مرة القرشي، بربيعة بن حرام بن سعد بن زيد القضاعي، وانتقلت به إلى الشام مع زوجها، فسمي قصيًّا لقصوه عن أهله، وشب قصي تحت رعاية ربيعة بن خزام على أنه أبوه، فكان أن تنازع مع بعض بني عذرة (أو بني خزاعة)، فعيروه بأنه دخيل عليهم، فلما سأل أمه، أخبرته بنسبه إلى قريش؛ حيث يقيم أخوه زهرة بن كلاب وبنو عمه[2].

فقدم قصي مكة، وتزوج ابنة حليل بن حبشية الخزاعي (الذي كان يحكم مكة)، ثم مات حليل، فرأى قصي أنه أولى بأمر مكة وبالكعبة من خزاعة وبني بكر، (**ويقال:** إن حُليلًا أوصى بولاية البيت إلى قصي، فأبت خزاعة) [3]، فخاض حربًا شديدة ضدهما، أعانه فيها رجال من قريش وبني كنانة وأخيه لأمه رزاح بن ربيعة، ونفر من قضاعة، وتدخلت قبائل العرب، وانتهى

---

(1) سيرة ابن هشام.

(2) السهيلي: الروض الأنف، ص 1038.

(3) ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص 117.

الأمر إلى التحكيم، الذي قضى بأحقية قصي بولاية الكعبة ومكة، وكان ذلك اليوم بمثابة التأسيس الحقيقي لقريش، ولرفعة مكانتها بين العرب، وتم إجلاء خزاعة وبني بكر عن مكة.

قصي ينفرد بمآثر مكة:

جمع قصي منازل قومه، وكانت بعيدة عن البيت، إلى ما حول البيت، وصارت مآثر أهل مكة كلها إليه، وهي:

* **الحجابة:** أن تكون مفاتيح الكعبة بيده، فلا يدخلها أحد إلَّا بإذنه.

* **السقاية:** هي الشراب الذي كانوا يصنعونه لمن بمكة في موسم الحج، من ماء يخلط تارةً بعسل، وتارة بلبن، وتارة بنبيذ فيه التمر والزبيب، يتطوعون بذلك للجميع من عند أنفسهم.

* **الرفادة:** طعام كانت قريش تجمعه كل عام لأهل الموسم، **ويقولون:** هم أضياف الله تعالى.

* **اللواء:** ما يعقد للحرب.

* **الندوة:** الاجتماع والمشورة.

فحاز شرف مكة كلها، فما تنكح امرأة، ولا يتزوج رجل من قريش، وما يتشاورون في أمر نزل بهم، ولا يعقدون لواء حرب إلا في داره [1].

وعندما كبر قصي، فوض أمر هذه الوظائف والرئاسات إلى أكبر أبنائه (عبد الدار)، ولما مات عبد الدار وإخوته، اختلف أبناؤهم في هذه الرئاسات، ثم اصطلحوا على أن تكون:

- الرفادة والسقاية: لبني عبد مناف.

- الحجابة واللواء والندوة: لبني عبد الدار.

وقسمت الرئاسات التي نالها بنو عبد مناف بين هاشم وأخيه عبد شمس، فكانت السقاية والرفادة لهاشم، والقيادة لعبد شمس.

وولي السقاية والرفادة المطلب بعد وفاة أخيه هاشم، ثم عندما مات المطلب خلفه ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم، ثم عندما مات خلفه ابنه العباس بن عبد المطلب، وقد أبقاهما الرسول ﷺ في يده بعد فتح مكة.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 149، بتصرف.

أما بنو عبد الدار، فقد توارثوا الحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة، وقد أبقى الرسول ﷺ الحجابة بأيديهم عندما فتح مكة، ودفع بمفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة، وهي فيهم إلى اليوم [1].

دار الندوة:

(دار الندوة) مكان سيتكرر ذكره كثيرًا في دراستنا للفترة المكية من السيرة النبوية .. فما هي (دار الندوة)؟ ومن أنشأها؟ ولم أنشأها؟

(دار الندوة): أنشأها قصي بن كلاب، واتخذها مقرًّا لسكناه وإقامته، وفي الوقت ذاته، أدار من خلالها شئون قريش ومكة. **قال ابن عباس:** وفي «دار الندوة» التي جعل بابها إلى البيت، كان يكون أمر قريش كله، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، حتى إن كانت الجارية (الفتاة الصغيرة) تبلغ أن تدرع، فما يشق درعها إلَّا فيها[2]، ثم ينطلق بها إلى أهلها، ولا يعقدون لواء حرب لهم ولا من قوم غيرهم إلَّا في «دار الندوة»، يعقده لهم قصي، ولا يعذر لهم غلام (أي ختانه) إلَّا في دار الندوة، ولا تخرج عير (قافلة) من قريش فيرحلون إلَّا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها؛ تشريفًا له، وتيمنًا برأيه، ومعرفة بفضله[3].

بطون قريش:

(1) بنو قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، **وهم ينقسمون إلى:**

(أ) بنو عبد مناف بن قصي:

1- بنو هاشم بن عبد مناف، وهم آل بيت النبي ﷺ، الذين حرم عليهم الصدقات.

2- بنو المطلب بن عبد مناف (**قال الشافعي:** هم أيضًا من آل محمد ﷺ؛ إذ إنه حرم عليهم الصدقات، وأوجب لهم سهمًا في المغنم والفيء؟

3- بنو عبد شمس بن عبد مناف (ومنهم: بنو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكانت لهم السيادة على قريش قبل الإسلام).

4- بنو نوفل بن عبد مناف.

---

(1) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 63-64.

(2) **درع الجارية:** قميصها المناسب لها.

(3) الطبقات الكبرى، ج1، ص 71.

(ب) بنو أسد بن عبد العزى بن قصي: وكان منهم: خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(ج) بنو عبد الدار بن قصي.

(د) بنو عبد قصي بن قصي: وقد انقرض عقبه.

(2) بنو زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي: ومنهم: آمنة بنت وهب، أم النبي ﷺ.

(3) بنو تيم بن مرة بن كعب بن لؤي: وكان منهم: أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(4) بنو مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي.

(5) بنو عدي بن كعب بن لؤي: ومنهم: عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(6) بنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي.

(7) بنو جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي.

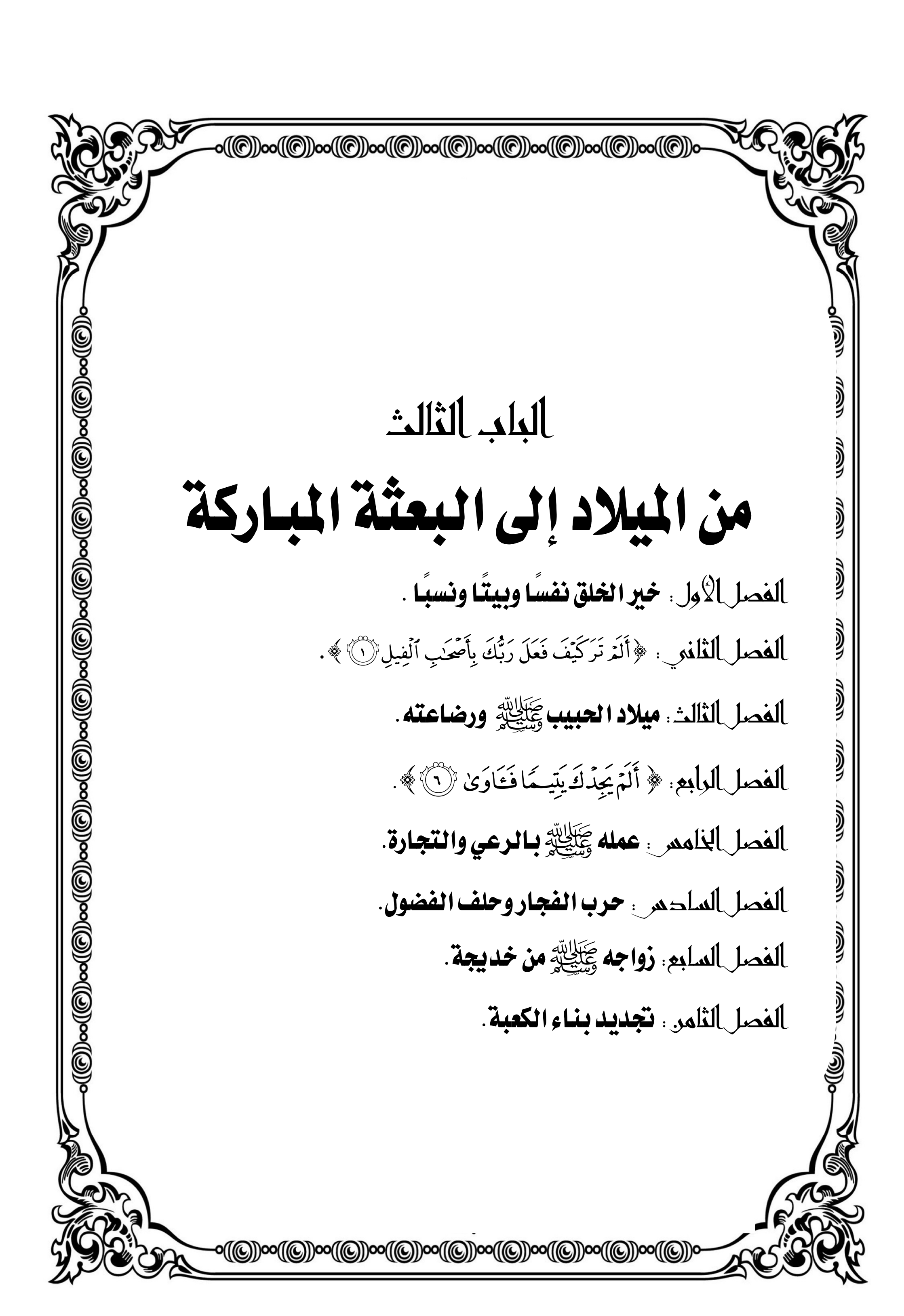
(8) بنو عامر بن لؤي.

(9) بنو تيم الأدرم بن غالب.

(10) بنو الحارث بن فهر.

(11) بنو محارب بن فهر.

* * *



الباب الثالث

من الميلاد إلى البعثة المباركة

الفصل الأول: **خير الخلق نفسًا وبيتًا ونسبًا** .

الفصل الثاني: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ .

الفصل الثالث: **ميلاد الحبيب ﷺ ورضاعته**.

الفصل الرابع: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ .

الفصل الخامس: **عمله ﷺ بالرعي والتجارة**.

الفصل السادس: **حرب الفجار وحلف الفضول**.

الفصل السابع: **زواجه ﷺ من خديجة**.

الفصل الثامن: **تجديد بناء الكعبة**.

الفصل الأول

خير الخلق نفسًا وبيتًا ونسبًا

محمد ﷺ هو خير من مشى على الأرض نسبًا، فعن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[1]، وقد حكى العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ صعد المنبر، ثم قال: «**من أنا؟**»، قالوا: أنت رسول الله. قال: «**أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعله فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتًا فجعلني في خيرهم بيتًا، فأنا خيركم بيتًا وخيركم نفسًا**»[2].

وقد روي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء**» [3].

وقد ذكر الإمام البخاري نسب النبي ﷺ، فقال: «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان»[4]. وهذا هو المقطوع بصحته من شجرة نسبه المباركة ﷺ، ما بين صاحب النسب الشريف محمد ﷺ وبين عدنان، وأما ما بين عدنان إلى إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، فمقطوع بصحته، لكن لا على التعيين، وما بين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أقل صحة، وهكذا ما بين نوح وإدريس عليهما السلام ، وما بين إدريس وآدم عليهما السلام [5].

---

(1) جامع الترمذي (3605).

(2) رواه الإمام أحمد (1813).

(3) المطالب العالية لابن حجر (4210)، **قال الألباني** (في صحيح السيرة النبوية، ص 4): روي من طرق مرسلًا وموصولًا، وسند المرسل جيد.

(4) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ (4/288).

(5) أبو بكر الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 22.

قال ابن القيم - بعد أن ذكر نسبه ﷺ إلى عدنان-: «إلى هنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ»(1).

أما أخوال النبي ﷺ فمن بني زهرة؛ لأن أمه آمنة بنت وهب كانت منهم، ويلتقي نسبه بنسبها في كلاب بن مرة.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون نبيه محمد ﷺ أعلى العرب نسبًا؛ لأن العرب لا تسمع إلَّا لذوي الأنساب العالية فيهم، وحتى لا يتوهم متوهم منهم أنه جاء بالرسالة طلبًا للشرف فيهم، (لقد كان - ومازال - شرف النسب له المكانة في النفوس؛ لأن ذا النسب الرفيع لا تنكر عليه الصدارة، نبوة كانت أو ملكًا، وينكر ذلك على وضيع النسب، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه، ولما كان محمد ﷺ يُعد للنبوة، هيأ الله تعالى له شرف النسب؛ ليكون مساعدًا له على التفاف الناس حوله)(2).

المبحث الأول: عبد المطلب وأبناؤه

عبد المطلب:

كان هاشم بن عبد مناف رجلًا تاجرًا كثير المال، يكثر من الأسفار ما بين مكة والشام، وفي سفرة من سفراته نزل بالمدينة، فرأى سلمى بنت عمرو بن عدي بن النجار، فأعجب بها، فتزوجها، فولدت له عبد المطلب وسمته: شيبة الحمد، فتركه هاشم عندها، حتى صار غلامًا دون المراهقة، فذهب إليه عمه المطلب، فجاء به إلى مكة، وقد احتمله خلفه على بعيره، فظنته قريش عبدًا له جاء به، **فتصايحت:** عبد المطلب ابتاعه (أي: عبدٌ اشتراه المطلب)، **فقال المطلب:** ويحكم**!!** إنما هو ابن أخي هاشم، قدمت به من المدينة، فغلب على الفتى هذا اللقب، وصار مشهورًا به، وتُنوسي الاسم الأصلي: شيبة الحمد، ثم مات هاشم بغزة، وهو في رحلة من رحلاته التجارية، فولي السقاية والرفادة من بعده أخوه المطلب، إلى أن مات باليمن، فولي عبد المطلب السقاية والرفادة، فأقامها للناس، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لهم، وشرُف في قومه شرفًا

---

(1) زاد المعاد: 1/ 91.

(2) الصلابي: السيرة النبوية، ص 45.

لم يبلغه أحدٌ من آبائه، وأحبه قومه، وصار سيد قريش[1].

عبد الله الذبيح:

علمت ما كان من أمر بئر زمزم، ورؤيا عبد المطلب، وأنه أعاد حفرها، ولم يكن له يومئذ من ولد يعينه إلَّا الحارث، فنذر لله تعالى إن رزقه عشرة من الولد، يحمونه ويعينوه، ذبح أحدهم، ولما رزقه الله عشرة من الولد، وأراد أن يفي بنذره لربه، اقترع على أيهم يكون الذبح، فكانت القرعة على عبد الله، وهَمَّ أن يذبحه عند الكعبة فمنعته قريش، وطلبوا إليه أن يرجع في أمره إلى عرافة بالمدينة، تفتيه في أمر ذبح ولده، فأرشدته إلى أن يضع عشرًا من الإبل، وهي دية الفرد عندهم، وأن يضرب بالقداح على عبد الله وعلى الإبل، فإن خرجت على عبد الله الذبيح زاد عشرًا من الإبل، وإن خرجت على الإبل فانحرها عنه، فقد رضيها ربكم، ونجا صاحبكم!!

فوصلوا إلى مكة، وجيء بالإبل وصاحب القداح، وقام عبد المطلب عند هُبل داخل الكعبة، يدعو الله عز وجل، وأخذ صاحب القداح يضربها، وكلما خرجت على عبد الله زادوا عشرًا من الإبل، حتى بلغت مائة، كل ذلك وعبد المطلب قائم يدعو الله ﷻ عند هبل، **فقال رجال قريش:** قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب، فأبى إلَّا أن يضرب عنها القداح ثلاث مرات، ففعل، فكانت في كل مرة تخرج على الإبل، وعندها رضي عبد المطلب، ونحر الإبل، وتركها، لا يصد عنها إنسان ولا حيوان، ونجّى الله تعالى - والحمد لله لا لسواه - عبد الله، والد رسول الله .. فهذا سبب لقب عبد الله بالذبيح، وهو أحب أولاد عبد المطلب العشرة إليه، وزاده حبًّا فيه هذه الحادثة العجيبة![2].

المبحث الثاني: عبد الله وآمنة

زواج عبد الله من آمنة:

لما نجى الله ﷻ عبد الله من الذبح، زوجه عبد المطلب بفتاة من كرائم البيوتات القرشية، وأعظمها نسبًا وشرفًا، وهي آمنة بنت وهب من بني زهرة، وأبوها وهب يومئذ سيد قومه، وهي أفضل امرأة في قريش وداعةً وجمالًا وشرفًا، فبنى بها، وبقي في بيت أبيها (على عادة العرب

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ص 152-153 مختصرًا.

(2) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 62.

حينئذ) ثلاثة أيام، ثم انتقل إلى منازل عبد المطلب، فأقام معها مدة لم تتجاوز العشرة أيام (على قول جمهرة المؤرخين)، كانت هي عمر الحياة الزوجية بينهما، وفيها حملت آمنة بسيد الخلق محمد ﷺ؛ فكان أعظم حمل حملته امرأة من نساء العالمين.

وفاة عبد الله:

قال الزهري: أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة، يختار لهم تمرًا، فمات بها، **وقيل:** بل كان بالشام، فأقبل في عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض، فتوفّي بها، ودفن في دار النابغة الجعدي (عند أخواله بني عدي بن النجار)، وله خمس وعشرون سنة، وتوفّي قبل أن يولد رسول الله ﷺ.

عادت القافلة تحمل أنباء مرضه، ثم جاء بعد قليل نعيه. وكانت آمنة تنتظر رجلها الشاب الجلد؛ لتهنأ بمحياها معه، ولتشعره بأن في أحشائها جنينًا يوشك أن تقر به عينهما، غير أن القدر - لحكمة عليا - حسم هذه الأماني الحلوة، فأمست الزوجة المحسودة أيّمًا!![1].

رؤيا آمنة:

عن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمجندل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني، وقد خرج منها نور ساطع أضاءت منه قصور الشام»[2].

***

(1) محمد الغزالي: فقه السيرة، ص 59.

(2) أخرجه أحمد في المسند (17424)، والبزار في مسنده (4199).

الفصل الثاني

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]

في عام ميلاده ﷺ وقع حادث عظيم، كان دليلًا على ظهور حادث أكبر، وعلى أن الله يريد بالعرب خيرًا، وأن للكعبة شأنًا ليس لغيرها من بيوت الدنيا[1] ... حادث عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التي اختارها الله لتكون ملتقى النور الأخير، ومحضن العقيدة الجديدة، والنقطة التي تبدأ منها زحفها لمطاردة الجاهلية في أرجاء الأرض، وإقرار الهدى والحق والخير فيها[2].

قال ابن كثير في تفسيره: كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ؛ فإنه في ذلك العام ولد، ولسان القدر يقول: لم ننصركم - يا معشر قريش - على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانةً للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، خاتم الأنبياء.

وقد ذكر الماوردي أن رسول الله ﷺولد بعد خمسين يومًا من الفيل، في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

المبحث الأول: قصة أصحاب الفيل

الحادثة بطولها ذكرها محمد بن إسحاق، فقال:

«إن أبرهة بن الصباح كان عاملًا للنجاشي ملك الحبشة على اليمن، فرأى الناس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة - شرفها الله - فبنى كنيسة بصنعاء، **وكتب إلى النجاشي:** إني بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها، ولست منتهيًا حتى أصرف (أنقل) إليها حج العرب، فسمع به رجل من بني كنانة، فدخلها ليلًا، فلطخ قبلتها بالعذرة، **فقال أبرهة:** من الذي اجترأ على هذا؟ **قيل:** رجل من أهل ذلك البيت، سمع بالذي قلت، فحلف أبرهة ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها، وكان له فيل **يقال**

---

(1) أبو الحسن الندوي: سيرة خاتم النبيين ﷺ، ص 21.

(2) سيد قطب: الظلال، سورة الفيل.

له: محمود، لم يُرَ مثله عظمًا وجسمًا وقوة، فبعث به إليه، فخرج أبرهة سائرًا إلى مكة، فسمعت العرب بذلك فأعظموه، ورأوا جهاده حقًّا عليهم، فخرج ملك من ملوك اليمن، **يقال له:** ذو نفر، فقاتله، فهزمه أبرهة وأخذه أسيرًا، فقال: أيها الملك، استبقني خيرًا لك، فاستبقاه وأوثقه.

وكان أبرهة رجلًا حليمًا، فسار حتى إذا دنا من بلاد خثعم، خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمي، ومن اجتمع إليه من قبائل العرب، فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، فأخذ نفيلًا، **فقال له:** أيها الملك إنني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة، فاستبقني خيرًا لك، فاستبقاه، وخرج معه يدله على الطريق، فلما مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال من ثقيف، **فقال له:** أيها الملك، نحن عبيدك، ونحن نبعث معك من يدلك، فبعثوا معه بأبي رغال مولى لهم، فخرج حتى إذا كان بالمُغَمَس (مكان قبل مكة) مات أبو رغال (وهو الذي يُرجم قبره) وبعث أبرهة رجلًا من الحبشة **يقال له:** الأسود بن مفصود، على مقدمة خيله، وأمر بالغارة على نَعَم (بهائم) الناس، فجمع الأسود إليه أموال الحرم، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير.

ثم بعث أبرهة حُناطة الحميري إلى أهل مكة، **فقال:** سل عن شريفها، ثم أبلغه أني لم آت لقتال، إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حناطة حتى دخل مكة، فلقي عبد المطلب ابن هاشم، **فقال:** إن الملك أرسلني إليك ليخبرك أنه لم يأت للقتال إلَّا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت، ثم الانصراف عنكم، **فقال عبد المطلب:** ما عندنا له قتال، سنخلي بينه وبين البيت، فإن خلى الله بينه وبينه فوالله ما لنا به قوة، **قال:** فانطلق معي إليه، قال: خرج (عبد المطلب) معه حتى قدم المعسكر، وكان ذو نفر صديقًا لعبد المطلب، فأتاه **فقال:** يا ذا نفر هل عندكم من غناء (مساعدة) فيما نزل بنا؟ **فقال:** ما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بكرة أو عشية، ولكن سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل، فآمره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير، ويعظم خطرك ومنزلتك عنده، **قال:** فأرسل إلى أنيس، فأتاه، **فقال:** إن هذا سيد قريش، صاحب عين مكة، الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فإن استطعت أن تنفعه فانفعه؛ فإنه صديق لي.

فدخل أنيس على أبرهة، **فقال:** أيها الملك! هذا سيد قريش وصاحب عين مكة، الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في الجبال، يستأذن عليك، وأنه أحب أن تأذن له، فقد جاءك غير ناصب لك (العداء) ولا مخالف عليك، فأذن له، وكان عبد المطلب رجلًا عظيمًا جسيمًا وسيمًا، فلما رآه أبرهة عظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معه على سريره وأن يجلس تحته، فهبط (أبرهة) إلى

البساط، فجلس عليه معه، **فقال له عبد المطلب**: أيها الملك، إنك قد أصبت لي مالًا عظيمًا فاردده عليَّ، **فقال له:** لقد أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت فيك (حين تكلمت)، **قال:** ولم؟ **قال:** جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك وعصمتكم ومنعتكم، فأهدمه، فلم تكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير لك!! **قال:** أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه، **قال:** ما كان ليمنعه مني، **قال:** فأنت وذاك، **قال:** فأمر بإبله فردت عليه، ثم خرج عبد المطلب، وأخبر قريش الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب.

وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول، وعبأ جيشه، وقرب فيله، وحمل عليه ما أراد أن يحمل وهو قائم، فلما حركه وقف وكاد أن يرزم[1] إلى الأرض فيبرك، فضربوه بالمعول في رأسه فأبى، فأدخلوا محاجن[2] لهم تحت مراقه[3] ومرافقه فأبى، فوجهوه إلى اليمن فهرول، فصرفوه (وجهوه) إلى الحرم فوقف، ولحق الفيل بجبل من تلك الجبال، فأرسل الله الطير من البحر كالبلسان (شجر كثير الورق)، مع كل طير ثلاثة أحجار: حجران في رجليه وحجر في منقاره، ويحملن أمثال الحمص والعدس من الحجارة، فإذا غشين القوم أرسلنها عليهم، فلم تصب تلك الحجارة أحدًا إلَّا هلك، وليس كل القوم أصيب، فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل].

وبعث الله على أبرهة داء في جسده، ورجعوا سراعًا يتساقطون في كل بلد، وجعل أبرهة تتساقط أنامله، كلما سقطت أنملة أتبعها مِدَّة من قيح ودم، فانتهى إلى اليمن وهو مثل فرخ الطير (من الهزال) فيمن بقي من أصحابه، ثم مات».

***

(1) **يرزم:** يسقط.

(2) **محاجن:** جمع محجن، وهو أداة معوجة الرأس، تجذب بها الأشياء كالخطاف.

(3) **مراق البطن:** ما رق منه ولان أسافله.

المبحث الثاني: دلالات حادث الفيل

أولا: حادث الفيل من دلائل نبوة محمد ﷺ:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكان جيران البيت مشركون يعبدون الأوثان، ودين النصارى (الذي عليه أبرهة) خير من دينهم، فعُلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل النبي ﷺ الذي ولد في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته؛ فإنه **إذا قيل:** إنما كانت آية للبيت وحفظًا له وذبًّا عنه؛ لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل، **فقد عُلم** أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا البيت ويصلي إليه إلَّا أمة محمد ﷺ، ومحمد ﷺ هو الذي فرض حجه والصلاة فيه».

وقال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: كانت قصة الفيل آية من وجهين:

أحدهما: أنهم لو ظفروا لسبوا قريشًا واسترقوهم، فأهلكهم الله تعالى؛ لصيانة رسوله ﷺ أن يجري عليه السبي حملًا ووليدًا.

والثاني: أنه لم يكن لقريش من التأله (الديانة) ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب؛ لأنهم كانوا بين عابد صنم، أو متدين وثن، أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة (منكر للآخرة)، ولكن لما أراد الله تعالى من ظهور الإسلام، تأسيسًا للنبوة، وتعظيمًا للكعبة، وأن يجعلها قبلةً للصلاة ومنسكًا للحج، جعل المنع منها آية لتأسيس النبوة ومجيء الرسالة.

ثانيًا: حادث الفيل فيه بيان لشرف الكعبة، وحفظ الله لها، وعاقبة من يجترئ عليها.

ثالثًا: تعظيم العرب للكعبة رغم جاهليتهم ووثنيتهم:

فخروج ملك من ملوك اليمن (ذو نفر) لقتال أبرهة؛ لمنعه من وصول مكة، وكذلك خروج قبيلة خثعم لقتاله، ورجم العرب لقبر أبي رغال (دليل أبرهة) بعد هلاكه .. كل ذلك يدل على تعظيمهم للبيت، ومكانته في نفوسهم، وأنهم لا يقدمون عليه شيئًا.

وتعود هذه المكانة إلى بقايا دين إبراهيم وإسماعيل - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ (فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبي هذا البيت، وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب، وكانت معتقداتهم - على تهافتها - أفضل في نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم، وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك)[1].

---

(1) سيد قطب: الظلال، سورة الفيل.

رابعًا: أن الله - سبحانه - لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين:

فإن الله ﷻ لما أراد أن يصون بيته ويحرسه، ويعلن حمايته له وغيرته عليه، ترك المشركين يُهزمون أمام القوة المعتدية، وتدخلت القدرة سافرة؛ لتدفع عن بيت الله الحرام؛ حتى لا تكون للمشركين يد على بيته، ولا سابقة في حمايته بحميتهم الجاهلية[1].

خامسًا: ضعف العرب وهوانهم على الأمم من حولهم:

حادث الفيل دل - بجلاء - على أن العرب قبل بعثة الرسول ﷺ لم يكن لهم مكانة في الأرض، بل لم يكن لهم كيان؛ فقبائلهم وممالكهم وإماراتهم لم تكن ذات وزن عند الدول القوية المجاورة (وما العرب بغير الإسلام؟! ما الفكرة التي قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة؟! وما قيمة أمة لم تقدم للبشرية فكرة؟!

إن كل أمة قادت البشرية في فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة، والأمم التي لم تكن تمثل فكرة - كالتتار الذين اجتاحوا الشرق، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية في الغرب - لم يستطيعوا الحياة طويلًا، إنما ذابوا في الأمم التي فتحوها.

والفكرة الوحيدة التي تقدم بها العرب للبشرية، كانت هي العقيدة الإسلامية، وهي التي رفعتهم إلى مكان القيادة، فإذا تخلوا عنها، لم يعد لهم في الأرض وظيفة، ولم يعد لهم في التاريخ دور .. وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيدًا إذا هم أرادوا الحياة، وأرادوا القوة، وأرادوا القيادة .. والله الهادي من الضلال[2].

سادسًا: إن كان الباغي قويًّا .. فالله أقوى:

خلد القرآن الكريم هذا الحادث؛ ليذكر المؤمنين دائمًا بأن الأمور في هذا الكون لا تجري جزافًا، وما يقع إنما هو بمقادير، وأن للكون خالقًا مدبرًا، وأنه متم نوره، وأن من أهلك أصحاب الفيل حتمًا سيصيب الباغين، وإن أمهلهم .. فالله وحده المتصرف في كونه، والعاقبة للمتقين.

* * *

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

الفصل الثالث

ميلاد الحبيب ﷺ ورضاعته

المبحث الأول: ميلاد الحبيب ﷺ

مرت أشهر الحمل بالسيدة آمنة بنت وهب بلا ألم ولا وهن، حتى أذن الله للنسمة المباركة أن تخرج في صبيحة يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل، الموافق سنة سبعين وخمسمائة من ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان أسعد يوم طلعت فيه الشمس.

حفاوة الاستقبال:

كان أول من رأى الوليد المشرف، والمخلوق الأكرم، قَابِلَتُه التي نزل على يديها (في دار أبي طالب بشعب بني هاشم)، وهي الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أما آمنة فكم كانت سعادتها بوليدها؛ فقد رأت فيه السلوى عن أبيه، ورأته بين يديها نورًا يضيء الدنيا، كما رأته من قبل في منامها، «وكان أول ما فعلته أن أرسلت إلى جده، تبشره بميلاد الحفيد ابن الحبيب، وجاء فرحًا مسرورًا، وضمه إلى صدره ضمات، خفق لها قلبه، وخففت من لوعة الحزن على الحبيب المغيب في ثرى المدينة، وذهب به إلى الكعبة، فقام يدعو الله، ويشكره على ما أنعم به عليه وأعطاه، وسماه (محمدًا)، ولم يكن هذا الاسم شائعًا عند العرب، ولا تسمى به إلَّا عدد جدٌّ قليل، ولكن الله سبحانه ألهم جده ذلك؛ إنفاذًا لأمره، وتحقيقًا لما قدره وذكره في الكتب السماوية التي بشرت به، ولما سئل جده عن سبب تسميته (محمدًا) **قال:** أردت أن يحمده الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض»[1].

أما عمه أبو لهب، فقد أعتق جاريته (ثويبة الأسلمية) لما بشرته بميلاد ابن أخيه عبد الله، وعمت الغبطة بني هاشم أجمعين، فقد رأوا في ميلاد محمد ﷺ وصلًا لحياة عبد الله المغيب تحت ثرى يثرب.

ما وقع مع الميلاد من آيات:

روى محمد بن إسحاق عن حسان بن ثابت، **قال:** «والله إني لغلام يفعة، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت؛ إذ سمعت يهوديًّا يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود!!، حتى إذا اجتمعوا إليه **قالوا له:** ويلك، ما لك؟ **قال:** طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 175.

به»[1]، وعن زيد بن عمرو بن نفيل، **قال:** «**قال حبر من أحبار الشام:** قد خرج في بلدك نبي، أو هو خارج، قد خرج نجمه، فارجع فصدقه واتبعه»[2].

وهذان الخبران هما أصح ما ورد في هذا الباب، أما ما ورد من ذكر ارتجاس الإيوان وسقوط الشرفات، وخمود النيران، وغير ذلك من الدلالات، فلا يصح فيه شيء (فلما أحب الناس - بعد انطلاقهم من قيود العسف - تصوير هذه الحقيقة، تخيلوا هذه الإرهاصات، وأحدثوا لها الروايات الواهية، ومحمد غني عن هذا كله؛ فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهها)[3].

المبحث الثاني: أمهاته اللاتي أرضعنه، وحواضنه ﷺ

1- أمه (آمنة بنت وهب):

كانت أول من أرضعته ﷺ، **قيل:** أرضعته ثلاثة أيام، **وقيل:** سبعًا، **وقيل:** تسعًا[4].

2- ثويبة مولاة أبي لهب:

أرضعته بلبن ابنها مسروح بضعة أيام، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي رضي الله عنه، وهو ابن عمة النبي ﷺ، فكانوا إخوة له من الرضاع.

ولما **قيل للنبي** ﷺ - عقب عمرة القضاء: ألا تتزوج ابنة حمزة (فاطمة)؟، قال: «**إنها ابنة أخي من الرضاع**»[5]، وعن أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، **قالت:** يا رسول الله، انكح أختي عزة بنت أبي سفيان، فقال رسول الله ﷺ: «**أوتحبين ذلك؟**». **قالت:** نعم، لست لك بمخْلِيَة، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال: «**فإن ذلك لا يحل لي**». **قالت:** فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة (**وفي رواية:** دُرة بنت أبي سلمة). قال: «**بنت أبي سلمة؟!**» **قالت:** نعم. قال:

---

(1) الألباني: صحيح السيرة النبوية، ص 6، **قال:** (إسناده جيد).
(2) المصدر السابق، ص 6، رواه أبو نعيم.
(3) محمد الغزالي، فقه السيرة، ص 61.
(4) أبو شهبة: السيرة النبوية، 1/191.
(5) المصدر السابق، 1/191.

«إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي؛ إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن»[1].

واختلف في إسلام ثويبة، فالله أعلم [2].

3- أم أيمن بركة الحبشية:

وهي أم أسامة بن زيد، وكانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ بعدما توفّي أبوه، كانت أم أيمن تحضنه، حتى كبر رسول الله ﷺ فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعدما توفّي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر[3].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان ﷺ يكرمها، ويبرها مبرة الأم، ويكثر زيارتها، وكان ﷺ، عندها كالولد؛ ولذلك كانت تتذمر وتتغضب عليه محبة وشفقة، ومن طريف ذلك ما رواه مسلم في (صحيحه)، عن أنس، **قال:** انطلق رسول الله ﷺ إلى أم أيمن وانطلقت معه، فناولته (أي: أم أيمن) إناء فيه شراب، **قال:** فلا أدري أصادفته صائمًا أو لم يرده (أي: لا يرغب فيه)؟، فجعلت تصخب عليه وتذمر عليه (يعني كما تفعل الأمهات إذا عاف الابن الطعام» [4].

4- حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية:

كانت عادة أهل الحضر من العرب أن يسترضعوا أبناءهم في البدو؛ ليكون ذلك أصفى للذهن، وأصح للبدن، وتقويمًا لألسنتهم من اللحن ومفسدات اللغة، ولقد قال ﷺ معتزًّا بأصله واسترضاعه في البادية: «**أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر**»، والتمس عبد المطلب لحفيده مرضعًا من البادية، فعرضه على جميع المراضع فزهدن فيه، **وكن يقلن:** يتيم، وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ (فلم يكن لمحمدٍ أب تُرقب عطاياه، أو غنى تغرى جدواه، فلا عجب إذا زهدت فيه المراضع، وتطلعن إلى غيره، وكانت حليمة ابنة أبي ذؤيب من قبيلة بني سعد، إحدى القادمات إلى مكة؛ ابتغاء العودة برضيع، تستعين على العيش بحضانته، ولم يرض طموحها أول الأمر طفل يتيم، ثم أنها لم تجد طلبتها، واستحيت أن تعود صفر اليدين، فرجعت

(1) رواه أحمد (28055)؛ وابن ماجه (1939).

(2) ابن القيم: زاد المعاد، 1/81.

(3) الصلابي: السيرة النبوية، ص 49.

(4) صحيح مسلم، رقم (2453).

إلى (آمنة)، تأخذ منها (محمدًا ﷺ)[1].

وندع حليمة تقص قصتها مع هذه النسمة المباركة:

قالت: قدمتُ مكة في نسوة من بني سعد، نلتمس الرضعاء في سنة شهباء (أي: ذات جدب وقحط) على أتان[2] لي، ومعي صبي لنا[3]، وشارف لنا[4]، والله ما تبض[5] بقطرة، وما ننام ليلنا ذلك مع صبينا (الذي ولدته) ذاك، لا يجد في ثديي ما يغذيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلَّا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ، فتأباه إذا **قيل:** إنه يتيم!!؛ وذلك أنا كنا نرجوا المعروف (الأجر) من أب الصبي، فكنا **نقول:** يتيم!! ما عسى أن تصنع أمه؟! فكلنا نكرهه لذلك.

فوالله ما بقيتْ من صواحبي امرأة إلَّا أخذت رضيعًا غيري، فلما لم أجد غيره **قلت لزوجي:** والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي؛ عسى أن يجعل الله لنا فيه بركة، **قالت:** فذهبت إليه فإذا به مُدْرَج في ثوب من صوف أبيض من اللبن، يفوح منه المسك، وتحته حرير أخضر، راقد على قفاه يغط، فأشفقت أن أوقظه من نومه؛ لحسنه وجماله، فدنوت منه رويدًا، فوضعت يدي على صدره، فتبسم ضاحكًا، وفتح عينيه؛ لينظر إلي، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء، وأنا أنظر!! فقبلته بين عينيه، وأعطيته ثديي الأيمن، فأقبل عليه بما شاء من لبن، فحوَّلته إلى الأيسر، فأبى، فكانت تلك حالته بعد (لا يرضع إلا من الثدي الأيمن)!

فروي، وروي أخوه (ابنها)، ثم أخذته بما هو إلى أن جئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء الله من لبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، فقام صاحبي[6] إلى شارفنا[7] تلك،

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 62-63.

(2) **الأتان:** الحمارة (أنثى الحمار).

(3) هو عبد الله بن الحارث، الذي كانت ترضعه.

(4) ناقة مسنة.

(5) **أي:** لا تدر أي لبن.

(6) تقصد زوجها.

(7) ناقتنا المسنة.

فإذا بها لحافل[1]، فحلب لنا، فشرب، وشربت حتى روينا، وبتنا بخير ليلة.

فقال صاحبي: تعلمي يا حليمة، والله إني لأراك قد أخذت نَسَمةً مباركة، قلت: والله إني لأرجو ذلك، **قالت:** ثم خرجنا فركبت أنا أتاني[2]، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم (أي: سارت أسرع من سائر الحُمُر)، حتى إن صواحبي **ليقلن لي:** يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك ارفقي علينا[3]، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟! **فأقول لهن:** بلى - والله - إنها لهي هي!! **فيقلن:** والله إن لها لشأنًا!!

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لُبَّنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان (غيرنا) قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا **يقولون لرُعيانهم:** ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب (بأغنامكم)، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا لُبنًا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفصلته (فطمته)، وكان يشب شبابًا لا يشبُّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا[4].

قالت: فقدمنا به على أمه (بعد مدة من الزمن)، ونحن أحرص شيء على مكثه ها هنا؛ لما كنا نرى من بركته، فكلَّمنا أمه، **وقلت لها:** لو تركت بنيَّ عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة[5] قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا[6].

معجزة شق الصدر:

قال ابن إسحاق[7]: قالت حليمة: فوالله إنه لبعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة مع أخيه من

---

(1) ضرعِها ممتلئ باللبن.

(2) حمارتي.

(3) انتظري وتمهلي.

(4) قويًا شديدًا.

(5) الطاعون.

(6) سيرة ابن هشام (ج1، ص 163-164)، ورواه أبو يعلى، والطبراني، والبيهقي، وأبو نعيم.

(7) تتمة قصة رضاعه.

الرضاعة لفي بَهْم[1] لنا خلف بيوتنا، جاء أخوه يشتدُّ[2]، **فقال:** ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه وشقَّا بطنه!!

فخرجت أنا وأبوه - يعني من الرضاعة - نشتد نحوه، فوجدناه قائمًا مُنْتَقَعًا لونه، فاعتنقته، واعتنقه أبوه، **وقال:** أي بني ما شأنك؟! **قال:** «جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني، وشقَّا بطني، ثم استخرجا منه شيئًا لا أدري ما هو؟ فطرحاه، ثم ردَّاه كما كان»!!

قالت حليمة: فرجعناه معنا، **فقال أبوه:** يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب، فانطلقي بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف عليه، **قالت:** فاحتملناه، فقدمنا به على أمه، **فقالت:** ما أقدمك به يا ظئر[3] وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟! **فقلت:** قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي علي، وتخوَّفت الأحداث عليه، فأدَّيته إليه كما تحبين، **قالت:** ما هذا شأنك، فاصدقيني خبرك، **قالت:** فلم تدعني حتى أخبرتها، **قالت:** أفتخوفت عليه الشيطان؟! **قالت: قلت:** نعم، **قالت:** كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبنيَّ لشأنًا، أفلا أخبرك خبره؟ **قلت:** بلى، **قالت:** رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بُصْرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف علي، ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته، وإنه لواضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء .. دعيه عنك، وانطلقي راشدة.

وفي رواية أبي نعيم عند ابن كثير[4]: أن رسول الله ﷺ **قال:** «... كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم[5] لنا، ولم نأخذ معنا زادًا، **فقلت:** يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، **فقال أحدهما لصاحبه:** أهو هو؟ **فقال:** نعم! فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني للقفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين، **فقال أحدهما لصاحبه:** ائتني بماء ثلج، فغسلا به جوفي، **ثم قال:** ائتني بماء برد، فغسلا به قلبي، **ثم قال:** ائتني بالسَّكِينَة، فذرها في قلبي، **ثم قال أحدهما لصاحبه:** خطه (ضم جراجه لتلتئم)، فخاطه، وختم على قلبي بخاتم النبوة، **فقال**

---

(1) غنم.

(2) يجري.

(3) يا مرضع.

(4) البداية والنهاية (2/299)، **وقال عنه الذهبي** في سيرته، ص 48: (وهو صحيح).

(5) صغار الغنم.

أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة، واجعل ألفًا من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي، أُشفق أن يخر عليَّ بعضهم، **فقال:** لو أن أمته وزنت به لمال بهم! ثم انطلقا، فتركاني، وفرقت (فزعت) فرقًا شديدًا، ثم انطلقت إلى أمي (حليمة)، فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبس بي، **فقالت:** أعيذك بالله، فرحلت بعيرًا لها وحملتني على الرحل، وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، **فقالت:** أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيت، فلم يرعها (يفزعها)، **وقالت:** إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام».

وفي رواية مختصرة لأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، **فقال:** هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمَهُ، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني مرضعته)، **فقالوا:** إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. **قال أنس:** وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»[1].

سِنُّهُ ﷺ حين شق صدره:

لم يتفق كتاب السيرة على سن محددة لحادثة شق صدره ﷺ؛ **فمنهم من قال:** (كان عمره فوق الثانية بشهور)[2]، **ومنهم من قال:** إنها وقعت له وله أربع سنين.

وقال آخرون: إنه كان في الخامسة أو بعدها ..

والراجح: أنه كان في سن تمكنه من رعي الغنم، وأيضًا قبل عودته ﷺ إلى أمه، وبذا تكون سنه بين الرابعة والخامسة حين شق صدره الشريف ﷺ.

تكرار حادث شق الصدر:

تكرر حادث شق صدر الرسول ﷺ مرات أخرى غير هذه التي في بادية بني سعد، فقد روى أحمد وابن عساكر وغيرهما، أن شق الصدر قد وقع له وهو ابن عشر سنين وأشهر، وروى البخاري ومسلم وأحمد والحاكم والترمذي، أن شقًّا لصدره قد وقع له وقد تجاوز الخمسين من العمر، حين أُسري به إلى بيت المقدس، وهناك من ذكر وقوعها مرة رابعة[3].

(1) صحيح مسلم (1/147، حديث: 261).

(2) ابن هشام (1/214).

(3) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 118.

دلالة حادث شق الصدر:

تعد حادثة شق الصدر من إرهاصات النبوة، ودلائل اختيار الله لمحمد ﷺ لأمر لا يدانيه أمر، وأن الله ﷻ حاميه وعاصمه من كل الوساوس التي تناوش البشر؛ ليكون بمنأى عن مفاتن الدنيا ومزالقها.

وينبغي على كل مسلم أن يستيقن بأن هذه الحادثة قد وقعت لرسول الله ﷺ، ولا يصرفها عن حقيقتها إلى معنى مجازي لا تحتمله اللغة العربية، في محاولة للتأويل واستنكار الحقيقة.

فميزان قبول الخبر إنما هو صحة الرواية، وقد تعددت الروايات في هذه الحادثة وصحت، فلا جدوى إذًا من صرف الكلام إلى غير حقيقته، أو تأويله تأويلًا عقليًّا ممجوجًا، كما يفعل أصحاب المدرسة العقلية[1]؛ فإن ذلك لا يأتي إلَّا من ضعف في الإيمان بالله، ثم من ضعف في اليقين بنبوة محمد ﷺ وصدق رسالته، وإلَّا فما أسهل اليقين بكل ما صح نقله، سواء عُرفت الحكمة والعلة أم لم تعرف[2].

* * *

(1) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 118.

(2) البوطي: فقه السيرة، ص 74.

الفصل الرابع

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

تحقق لعبد المطلب ما أراد .. فنشأ محمد ﷺ في البادية على الفطرة والبساطة، وحاز فصاحة اللسان التي اشتهر بها بنو سعد بن بكر، وكان إلفًا مألوفًا، ودودًا، صافي القلب، ونقي السريرة، فلما كان في مبتدأ سنته الخامسة، عاد إلى مكة، وقد قوي عوده، وبلغ ما لم يبلغه صبي في مثل عمره، فعاش في كنف أمه الحنون الصابرة، التي حبست نفسها عليه، وكان كل شيء في حياتها.

المبحث الأول: كفلاء الحبيب ﷺ بعد أمه

وفاة آمنة:

رأت (آمنة) – وفاء لذكرى زوجها – أن تزور قبره بيثرب، فخرجت من مكة، قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو متر في الذهاب، غير مثيلتها في الإياب .. ومعها في هذه السفرة الشاقة ابنها محمد ﷺ، وخادمتها (أم أيمن)، وعبد الله لم يمت في أرض غريبة؛ فقد مات بين أخواله بني النجار، وقد ظل محمد ﷺ لدى أخواله قريبًا من قبر أبيه نحو شهر، ثم قفل عائدًا إلى مكة، وإذا المرض يلاحق أمه، ويلح عليها في أوائل الطريق، فماتت بـ (الأبواء)، وتركته وحيدًا مع الخادمة المشدوهة لحال طفل يفقد أباه وهو جنين، ويفقد أمه وهو ابن خمس سنين[1].

وكان النبي ﷺ يذكر أمورًا في زَوْرته تلك؛ فقد نظر إلى دار بني النجار بعد الهجرة **قائلًا:** «هنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله، وأحسنت العَوم في بئر بني عدي بن النجار»[2].

وكان النبي ﷺ كلما مرَّ بقبر أمه زاره، ويبكي، ويُبْكي من حوله؛ ففي صحيح مسلم، عن أبي هريرة **قال:** «زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، ثم قال: «استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الموت»[3].

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 67.

(2) شرح المواهب، ج1، ص 167-168.

(3) صحيح مسلم بشرح النووي، ج1، ص 46.

وروى الإمام أحمد بسنده عن بُرَيدة، قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ؛ حتى إذا كنا (بَودَّان)، **قال:** «مكانكم حتى آتيكم»، فانطلق، ثم جاءنا وهو ثقيل، **فقال:** «إني أتيت قبر أم محمد، فسألت ربي الشفاعة - يعني لها - فمنعنيها، وإني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». وروى البيهقي بسنده عن بُرَيدة، **قال:** انتهى النبي ﷺ إلى رَسْم قبر، فجلس، وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى، فاستقبله عمر، **فقال:** ما يبكيك يا رسول الله؟، **قال:** «هذا قبر آمنة بنت وَهْب، استأذنت ربي في أن أزور قبرها، فأذن لي، واستأذنته الاستغفار لها فأبى علي، وأدركتني رقتها فبكيت»، **قال:** فما رُئِيْت ساعة أكثر باكيًا من تلك الساعة[1].

إلى كفالة جده:

وصلت أم أيمن مكة، فسلمت محمدًا ﷺ إلى جده عبد المطلب، فكفله، وعاش في كفالته في خير حال؛ فقد كان يؤثره على أبنائه، ويقربه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، ولا يأكل طعامًا إلَّا يقول: (عليَّ بابني)، فيؤتى به إليه، وكان (أي: عبد المطلب) له فراش يوضع في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد منهم؛ إجلالًا له، فكان النبي ﷺ يأتي وهو غلام يافع، فيجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، والغبطة تملأ نفسه: (دعوا ابني؛ فوالله إن له لشأنًا)، ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيمينه، ويضمه إليه[2].

وذات يوم أرسله في طلب إبل، فغاب عليه، فطاف بالبيت وهو يرتجل، **يقول:**

رب رد راكبي محمدًا ... رده لي واصنع عندي يدًا

فلما رجع النبي ﷺ وجاء الإبل، **قال له:** «يا بني، لقد حزنت عليك كالمرأة حزنًا لا يفارقني أبدًا»[3].

وقد تأخرت سن عبد المطلب، حتى **قيل:** إنه توفِّي وله مائة وعشرون سنة، إلَّا أنه فارق الحياة وعمر محمد ﷺ يناهز الثمانية، فرأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة صَغِيرِه إلى عمه أبي طالب[4].

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 206.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، 207/1.

(3) الصلابي: السيرة النبوية، ص 53.

(4) الغزالي: فقه السيرة، ص 67.

وحزن ﷺ حزنًا شديدًا لفقده جده، **وقالت أم أيمن:** رأيت رسول الله ﷺ يبكي خلف سرير عبد المطلب(1).

إلى كفالة عمه :

صار أبو طالب هو ثالث الكفلاء لرسول الله ﷺ، فضمه إلى ولده، وكان أرفق به وأكثر عطفًا عليه من أبنائه، فقدمه عليهم، وكان إذا أراد أن يطعمهم **قال:** كما أنتم حتى يأتي ولدي، فيأتي النبي ﷺ فيأكل معهم .. وأحبه حبًّا شديدًا لا يحبه أحدًا منهم، فيخرج معه، وينام إلى جنبه.

ومازال محمد ﷺ في كفالته حتى بلغ سن الرشد، «ثم لازمه أبو طالب العم الكفيل، فلم يتركه، ولم يسلمه لقريب ولا لبعيد، حتى قبضه الله في السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية العظيمة، ومات أبو طالب على غير ملة الإسلام؛ لما سبق في قضاء الله تعالى أنه يموت غير مسلم، ولا راد لما قضى الله»(2).

المبحث الثاني: الحكمة من يُتْم الحبيب ﷺ

1- لكي لا يدخل الوهم أو الريبة إلى القلوب بأن محمدًا ﷺ قد اصطنع دعوته بإرشاد من أبيه أو جده؛ ليصل إلى جاه الدنيا.

2- محمد ﷺ ليس كغيره من البشر؛ فقد خلق لمهمة لا يقوم بها غيره، وهي حمل الرسالة الخاتمة، والشهادة على الناس جميعًا: ﴿**وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ [الحج:78]، فلابد أن يكون خالصًا لربه، يُصنع على عينه، ويعيش متوكلًا عليه وحده، فإن حزبه أمر **لا يقول:** «أبي ولا أمي»، **ولكن يقول:** «ربي ربي»؛ فهو راعيه وكافله، وما غاض معين فضله عليه يومًا.

3- وليعلم رسول الله ﷺ دائمًا أن الله لن يتركه وحده، يواجه عقبات الطريق في دعوته وحمله للرسالة .. وقد ذكره بذلك؛ ليطمئن قلبه: ﴿**وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦**﴾ [الضحى]، فيستحضر دائمًا في خاطره جميل صنع ربه به، وفيضه عليه،

(1) خالد بن عبد الرحمن الشايع: الطفولة في حياة المعصوم، ص 18.
(2) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 70.

فينظر في واقع حاله وماضي حياته قبل أن يعهد إليه بهذا الأمر، فيرى أن ربه قد أحاط يتمه برعايته، وأدرك حيرته بهدايته، وغمر فقره بعطائه، فيعلم أنه حتمًا قد ادخر له ما يرضيه من التوفيق في دعوته، وغلبة منهجه، وظهور الحق الذي جاء به.

4- لما كان ﷺ هو المثل الكامل، والأسوة والقدوة للعالمين: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، فكان من تعدد الأسوة في شخصه المبارك أن يكون يتمه أسوة لكل يتيم في كل زمان ومكان؛ ليعلم أن اليتم ليس نقمةً ولا سخصةً من الله على العبد لهوان أمره عليه؛ فقد كان سيد الخلق يتيمًا، وهو أحب الخلق إلى الله، وليعلم أيضًا أن اليتم لا يحول بينه وبين الفوز بسعادة الدنيا والآخرة، ولتكون سلواه دائمًا في أن الرسول ﷺ نشأ يتيمًا.

* * *

الفصل الخامس

عمله ﷺ بالرعي والتجارة

كان أبو طالب – على شرفه ومكانته في قريش – فقيرًا كثير العيال، فعمل النبي ﷺ برعي الغنم؛ مساعدةً لعمه .. رعاها له، ورعاها بأجر لبعض أهل مكة، وكان يذكر ذلك لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ **قال:** «ما بعث الله نبيًّا إلَّا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[1]، **قال:** «بُعث موسى وهو يرعى غنمًا لأهله، وبعثت أنا وأنا أرعى غنمًا لأهلي بجياد»[2].

وقد أحاط الله نبيه ﷺ في فترة عمله هذه بحفظه، ومنعه من الصغائر التافهة، التي كان أقرانه يعملونها، فعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته، **قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة:** لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة، وأسمر بها كما يسمر الشباب. **فقال:** أفعل. فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة، سمعت عزفًا، **فقلت:** ما هذا؟، **فقالوا:** عرس فلان بفلانة. فجلست أسمع، فضرب الله على أُذني، فنمت، فما أيقظني إلَّا حر الشمس، فعدت إلى صاحبي، فسألني، فأخبرته. ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بعده بسوء»[3].

وكان رسول الله ﷺ يُعلم أصحابه أن رعي الغنم يُكسب السكينة والوقار، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** افتخر أهل الإبل والغنم عند النبي ﷺ، **فقال النبي:** «الفخر والخيلاء في أهل الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم» [4]؛ ولذا فقد اختار الله تعالى لنبيه ﷺ أن يرعى الغنم دون غيرها.

---

(1) رواه البخاري (2262)، **والقراريط:** جمع قيراط، وهو جزء من الدينار أو الدرهم.

(2) مكان أسفل مكة.

(3) أخرجه الحاكم، **وقال:** حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني من حديث عمار بن ياسر.

(4) رواه الإمام أحمد (12099).

الحكمة في رعي الأنبياء الغنم قبل النبوة:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **قال العلماء:** الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة، أن يحصل لهم التمرن - برعيها - على ما يُكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم من اكتساب الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها، مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة (أي إلى من يتعهدها)، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا (في أمتهم) اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك؛ لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر؛ لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقيادًا من غيرها، وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله، ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء [1].

المبحث الثاني: عمله ﷺ بالتجارة

لما قرر أبو طالب الرحيل إلى الشام؛ ابتغاء الاتجار والربح، قرر محمد ﷺ أن يكون معه، وكان عمره نحو الثلاث عشرة سنة (**قيل:** اثنتي عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام)، فرق له أبو طالب، واستصحبه معه، حتى وصل إلى (بُصرى) من أرض الشام.

بحيرى الراهب:

روى الترمذي بسنده إلى أبي موسى الأشعري، أنه **قال:** «خرج أبو طالب إلى الشام، ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب - يعني بحيرى - هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به، فلا يخرج ولا يلتفت إليهم، **قال:** فنزل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم، حتى جاء، فأخذ بيد النبي ﷺ، **فقال:** هذا سيد العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين. **فقال له أشياخ من قريش:** وما علمك؟ **فقال:** إنكم حين أشرفتم

---

(1) فتح الباري 4/441.

من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلَّا خر ساجدًا، ولا يسجدون إلَّا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه. ثم رجع فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به - وكان هو في رعية الإبل - **قال:** أرسلوا إليه، فأقبل وغمامة تظله، فلما دنا من القوم، **قال:** انظروا إليه، عليه غمامة، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء ظل - شجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، **قال:** انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. قال: فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، التفت (الراهب) فإذا هو بسبعة من الروم قد أقبلوا، **قال:** فاستقبلهم، **فقال:** ما جاء بكم؟ **قالوا:** جئنا لأن هذا النبي (المنتظر) خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلَّا بُعث إليه ناس، وإنا أُخبرنا خبره إلى طريقك هذه. **قال:** فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ **قالوا:** لا، إنما أُخبرنا خبره إلى طريقك هذه. **قال:** أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ **فقالوا:** لا. **قال:** فبايعوه وأقاموا معه عنده، **قال: فقال الراهب** (لأشياخ قريش): أنشدكم الله! أيكم وليه؟ **قالوا:** أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده (إلى مكة) وبعث معه أبا بكر بلالًا، وزوده الراهب من الكعك والزيت».

قال د. مهدي رزق الله:

اختلف العلماء في هذا الحديث؛ فقد حسنه الترمذي وصححه الحاكم والألباني وعرجون وشعيب وعبد القادر الأرناءوط وابن حجر. **وقال ابن حجر:** «رجاله ثقات، وليس فيه (ما يدعو للشك في صحته) سوى هذه النقطة - أي ذكر أبي بكر وبلال في هذه الرحلة - فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهمًا من أحد رواته»، وقال ابن القيم إن هذه النقطة من الغلط الواضح.

وأنكره الذهبي، وقال: «وهو حديث منكر جدًّا، وأين كان أبو بكر؟ كان ابن عشر سنين، فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين ونصف، وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلَّا بعد المبعث، ولم يكن ولدًا بعد، وأيضًا، فإذا كان عليه غمامة تظله كيف يتصور أن يميل فيء الشجرة؟! لأن ظل الغمامة يعدم في فيء الشجرة التي نزل تحتها، ولم نر النبي ﷺ ذَكَّرَ أبا طالب قط بقول الراهب، ولا تذاكرته قريش، ولا حكته أولئك الأشياخ، مع توفر هممهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك، فلو وقع لاشتهر بينهم أيما اشتهار، ولبقي عنده حس من النبوة، ولما أنكر مجيء الوحي إليه أولًا بغار حراء وأتى خديجة خائفًا على عقله .. وأيضًا فلو أثر هذا الخوف في أبي طالب ورده، كيف كانت تطيب نفسه أن يمكنه من السفر إلى الشام تاجرًا لخديجة؟!».

وفي الحديث ألفاظ منكرة، تشبه ألفاظ الطرقية، مع أن ابن عائذ قد روى معناه في مغازيه دون قوله: «وبعث معه أبو بكر بلالًا».

وقال ابن كثير: «فيه من الغرائب: أنه من مرسلات الصحابة، فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة. وعلى كل تقدير فهو مرسل .. إن الغمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا ...».

ثم اعترض على ذكر أبي بكر وبلال بما اعترض عليه الذهبي. **وقال ابن سيد الناس:** إن في متنه نكارة. **وقال الذهبي في تلخيصه على المستدرك:** «وأظنه موضوعًا، فبعضه باطل».

وأنكر الشيخ عبد الرحمن الوكيل في تعليقه على الروض الأنف، ذكر أبي بكر وبلال في هذا الحديث.

ونحن نميل مع الذين قبلوا هذا الحديث ولم يردوه، **أمثال:** الترمذي والحاكم وابن سيد الناس والجزري وابن كثير والعسقلاني والسيوطي وابن حجر والألباني، وغيرهم من القدماء والمُحْدَثين؛ إذ إنه يمكن الجمع بين أقوال النقاد؛ فما دامت المشكلة هي خطأ ورود ذكر أبي بكر وبلال في القصة، فتحمل على أنها مدرجة فيه (زيادة في متن الحديث دون أن يوضح أنها ليست من الحديث)، منقطعة من حديث آخر، وهمًا من أحد رواته، كما قال ابن حجر[1].

* * *

(1) السيرة النبوية، ص 120-122.

الفصل السادس

حرب الفجار وحلف الفضول

المبحث الأول: حرب الفجار

ولما بلغ النبي ﷺ أربع عشرة سنة، شهد حرب الفجار، وكانت بين قريش وغيرها من قبائل كنانة وأحلافها، وبين قيس وأحلافها، **وسببها:** أن النعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة، بعث بقافلة له إلى سوق عكاظ، وكان في حاجة إلى من يجيرها (يحميها) له، فجلس يومًا وعنده البَرَّاض بن قيس الكناني، وعروة بن عتبة الرَّحَّال، **فقال:** من يجير لي تجارتي حتى تبلغ عكاظ، فقال **البرَّاض بن قيس:** أنا أجيرها على بني كنانة، وكان البرَّاض فاتكًا خليعًا، خلعه قومه؛ لكثرة شره، **فقال النعمان:** أنا أريد من يجيرها على الناس كلهم.

فقال عروة (للنعمان ملك الحيرة): أَبَيْتَ اللعن، أكلبٌ خليج يجيرها لك؟ يريد البراض، أنا أجيرها على أهل الشِيح والقَيْصوم[1] من أهل نجد وتهامة، **فقال البَرَّاض:** أتجيرها على كنانة يا عروة؟ **قال:** نعم، وعلى الناس كلهم!!

فأحفظ ذلك البرَّاض، فتربَّص بعروة حتى إذا خرج بالتجارة، قتله غدرًا، وأخذ القافلة، وكانت قريش بعكاظ، فأتاهم آتٍ، فأخبرهم بما كان من البَّراض (حليفهم)، فارتحلوا (لأن البراض منهم فهو كناني) وهوازن (وعروة منهم) لا تشعر بهم، فلما بلغ هوازن قتل (ابنهم) عروة اتبعت قريشًا، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى لاذت قريش بالحرم، فتواعدوا (القتال) العام المقبل بعكاظ[2]، **وقيل:** كان قائد قريش وكنانة (حرب بن أمية بن عبد شمس)، وهو أبو (أبو سفيان بن حرب).

الصلح:

قال السهيلي: وكان آخر الفجار أن هوازن وكنانة تواعدوا العام القابل بعكاظ، فجاءوا للوعد، وكان عتبة بن ربيعة يتيمًا في حجر (في رعاية) حرب بن أمية (قائد قريش وكنانة)، فأشفق حرب من خروجه معه للقتال، فخرج عتبة بغير إذنه، فلم يشعروا إلَّا وهو على بعيره بين الصفين **ينادي:**

---

(1) **الشيح والقيصوم:** من نباتات البادية، **والمراد:** على أهل البادية كلهم.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، (212/1).

يا معشر مضر، علام تتقاتلون؟ **فقالت له هوازن:** ما تدعو إليه؟ **فقال:** الصلح، على أن ندفع لكم دية قتلاكم، ونعفو عن دمائنا، **قالوا:** وكيف نثق بكم؟ **قال:** ندفع إليكم رهنًا منا (أي رجال من قريش وكنانة يكونون رهنًا عندهم)، **قالوا:** ومن لنا بهذا؟ (أي من يضمن لنا هذا) **قال:** أنا، **قالوا:** ومن أنت؟ **قال:** عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فرضيت كنانة ورضوا، ودفعت قريش وكنانة إلى هوازن أربعين رجلًا، فيهم حكيم بن حزام، فلما رأت هوازن الرهن في أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم، وانقضت حرب الفجار، **وكان يقال** (في ذلك): لم يَسُدْ من قريش مملق (فقير) إلَّا عتبة وأبو طالب؛ فإنهما سادا قريش مع الفقر.

موقف رسول الله ﷺ من القتال:

قال ابن هشام: إنها هاجت (أي الحرب) ولرسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، وأن رسول الله ﷺ شهد بعض أيامها مع أعمامه، **وقال:** «كنت أنبل على أعمامي»، أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها[1].

وسميت بحرب الفجار؛ لأنهم استحلوا المحارم بينهم، **وقيل:** إنها استمرت أربع سنوات حتى بلغ رسول الله ﷺ عشرين سنة.

المبحث الثاني: حلف الفضول

عقد هذا الحلف بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم[2]، وكان ذلك في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة، وكان أول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ[3].

سببه:

وكان سببه، أن رجلًا من زبيد، قدم مكة ببضاعة له، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وكان ذا شرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزومًا وجمحًا

---

(1) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 129.

(2) ابن هشام، 182/1.

(3) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 131.

وسهمًا، فأبوا أن يعينوه على العاص، وزجروه. فلما رأى الزبيدي الشر، رقي على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، **فقال بأعلى صوته:**

«يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر»

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب، **وقال:** «ألهذا مترك؟ (أي: كيف نترك هذا يُظلم بيننا؟)»، فاجتمعت قريش وزهرة وتيم، في دار عبد الله بن جدعان، فتحالفوا وتعاهدوا في ذي القعدة الحرام؛ ليكونن يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه، ما بل بحر صوفة[1]، وما رسا ثبير وحراء مكانهما، وعلى التأسي في المعاش. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، **وقالوا:** لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه [2].

حضور النبي ﷺ حلف الفضول:

حضر النبي ﷺ هذا الحلف، وكان أكرم حلف سُمع به، وأشرفه في العرب، فعن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ **قال:** «شهدت مع عمومتي حلف المطيبين، فما أحب أن أنكُثه - أو كلمة نحوها - وأن لي حُمر النعم»[3]. و**(المطيبون)** هم: بنو هاشم، وبنو زهرة، ومن حالفهم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ **قال:** «ما شهدت حلفًا لقريش إلَّا حلف المطيبين، وما أُحب أن لي حمر النعم وأني كنت نقضته» [4]، **وقال** ﷺ **أيضًا:** «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أُحب أن لي به حُمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» [5].

---

(1) **ما بل بحر صوفة:** أي ما قام في البحر ماء ولو قطرة، **يعني** إلى الأبد.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية (2/315-316).

(3) صحيح ابن حبان (4373).

(4) رواه ابن حبان (4374)، **وقال الألباني:** إسناده حسن.

(5) السيرة النبوية لابن هشام، (1/241).

سبب تسميته بحلف الفضول:

قال ابن كثير: فسمت قريش ذلك الحلف (حلف الفضول)، **وقالوا:** لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر[1].

وقيل: سُمي بذلك لأن الداعي إليه ثلاثة من أشرافهم، اسم كل واحدٍ منهم فضل، وهم: الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضل بن الحارث[2].

من هو عبد الله بن جدعان؟:

عبد الله بن جدعان هو صاحب الدار التي عقد فيها حلف الفضول، وكان من أكبر تجار مكة، وأعظمهم غنًى وثراءً، وكان في موسم الحج يكسو ألف رجل من قاصدي البيت، وينحر ألف بعير، ويكنى بأبي زهير، وهو تيمي من قرابة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم ينتفع بعمله هذا؛ إذ مات مشركًا، وقد **قالت أم المؤمنين عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إن عبد الله بن جدعان - يا رسول الله - كان يطعم الطعام، ويقري الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم الدين؟ **فقال:** «لا؛ لأنه لم يقل يومًا من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[3].

دلالات حلف الفضول في الماضي والحاضر:

1- كان من أهل الجاهلية من يرفض الظلم بدوافع فطرية، فلما دخلوا في الإسلام تطابق ما كانوا عليه مع ما جاء به محمد ﷺ، وكان هذا الخلق - مع أخلاق أخرى عظيمة لديهم (سيأتي ذكرها) - من الأسباب الجلية لاصطفائهم لحمل الرسالة الخاتمة، ونشرها في ربوع الأرض؛ فقد كانوا قدوات تحتذى بفعالهم.

2- تقدير النبي ﷺ للفعل الفاضل، ولو صدر من مشرك أو كافر؛ فالعدل واحترام الحقوق، ورفض الظلم، وغيرها من المبادئ الإنسانية السامية التي أعلاها الإسلام، وجعلها دينًا يتعبد الناس به، ويُحاسبون عليه في الدنيا والآخرة، إذا صدرت من غير المسلمين، لابد أن نحترم فيهم ذلك، ونعينهم عليه.

---

(1) البداية والنهاية (2/322).

(2) محمد طه: الأغصان الندية شرح الخلاصة البهية، ص 41.

(3) رواه مسلم (214).

3- لا تعدم في أوقات الانحطاط وفساد الأخلاق وخراب الذمم، أن تجد أهل الفضل والمروءة، والراغبين في إصلاح مجتمعهم (فالحياة مهما اسودت صحائفها، وكلحت شرورها، فلن تخلو من نفوس تهزها معاني النبل، وتستجيشها إلى النجدة والبر) [1]. والدعاة أولى الناس بالتعاون مع هؤلاء، ومساندة خطواتهم؛ (فإن الحمية ضد أي ظالم مهما عز، ومع أي مظلوم مهما هان، هي روح الإسلام، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، والواقف عند حدود الله، ووظيفة الإسلام أن يحارب البغي في سياسات الأمم، وفي صلات الأفراد على سواء» [2].

4- جواز التحالف والتعاهد مع القوى والتجمعات الداعية إلى المعاني والمبادئ السامية (التي هي في حقيقتها من مقاصد الشريعة)، **مثل:** رفض الظلم، واحترام الحريات وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية .. وغيرها، وقد بين الرسول ﷺ استعداده للإجابة لمثل ما كان في حلف الفضول بعد الإسلام، **فقال:** «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت».

* * *

(1) الغزالي: فقه السنة، ص 74.

(2) المصدر السابق، ص 75.

الفصل السابع

زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها

المبحث الأول: تجارته ﷺ لخديجة رضي الله عنها، وزواجه منها

كانت خديجة بنت خويلد الأسدية امرأة عريقة النسب في قومها، ذات أدب رفيع وشرف ومال، وكانت أرملة [1]، فكانت تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه، بأن تجعل لهم نصيبًا من الربح، فلما بلغها عن محمد ﷺ الأمانة والصدق وكرم الأخلاق، أرسلت إليه؛ ليخرج بتجارتها إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، وقد قبل محمد ﷺ عرضها، فرحل بتجارتها إلى الشام، ومعه غلامها (ميسرة)، فحالفه التوفيق، وعاد إليها بأرباح مضاعفة، وأدى لها حقها في أمانة ونبل، فرأت في ماله من البركة ما لم تره من قبل، وحكى لها غلامها عما رآه من محمد ﷺ - من كرم خلق، وصدق حديث، وعظم أمانة - ما ملأ قلبها دهشة وإعجابًا به، وعلمت أنه لا مثيل له بين الرجال الذين طمعوا في الزواج منها، وكانوا طلاب مال، لا طلاب نفوس، وأنه لا يدانيه أحدٌ منهم كرامةً ونبلًا، فحدثت بها في نفسها صديقتها (نفيسة بنت منبه)، التي لم تبطئ من أن تذهب إلى محمد ﷺ، تفاتحه أن يتزوج من خديجة، فوافق، وكلم في ذلك أعمامه، فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد [2]، وتزوجها رسول الله ﷺ، وقد تم له من العمر خمس وعشرون سنة، ولها من العمر أربعون.

وكانت أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت، وكل أولاده ﷺ منها، إلَّا إبراهيم؛ فإنه من مارية القبطية.

المبحث الثاني: أسرته ﷺ

الأبناء:

رزق رسول الله ﷺ من خديجة رضي الله عنها ستة من الأبناء، هم:

---

(1) تزوجها عتيق بن عائذ ثم مات، فتزوجها أبو هالة، ومات عنها أيضًا.

(2) لأن أباها قد مات قبل ذلك.

* **القاسم:** وكان أكبر أولاده، وبه كان يُكنى، وعاش حتى أدرك البعثة، **وقيل:** حتى كان يركب الدابة، وتوفّي بمكة.

* **زينب:** ولدت قبل البعثة بعشر سنين، في العام الثلاثين من عمر النبي ﷺ.

* **عبد الله:** وتوفّي صغيرًا بمكة، وكان **يقال له:** الطاهر، الطيب.

* **رقية:** ولدت وسنه ﷺ ثلاث وثلاثون.

* **أم كلثوم:** ولدت وسنه ﷺ أربع وثلاثون.

* **فاطمة:** ولدت عام واحدٍ وأربعين من عمره ﷺ.

وقد أُخذ (مات) البنون في الصغر، فذاق النبي ﷺ مرارة فقد الأبناء، كما ذاق مرارة اليتم من قبل، ولعل من حكمة الله ﷻ في ألا يعيش لرسول الله ﷺ أحدٌ من الذكور ألا يفتتن بعض الناس بهم، أو أن يدعون لهم النبوة من بعده ﷺ.

زواج البنات:

وقد تزوجت كبراهن زينب بابن خالتها أبي العاص بن الربيع، من أشراف قريش وكبار تجارها، هذا إلى ما كان يتصف به من كريم الخلال؛ مما حبَّبه إلى خالته خديجة، فأشارت على النبي ﷺ بتزويج زينب منه، وسيأتيك من أخبار هذا الرجل شيء غير قليل.

وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجتا من ابني عمهما: عتبة، وعتيبة ابني أبي لهب، ولم يكونا بالزوجين الكريمين؛ فقد أمرهما أبوهما أبو لهب بعد أن نُبئ النبي ﷺ بتسريحهما؛ كي يشغل النبي بمشكلات أسرته عن التفرغ لأداء رسالته، ففارقاهما، على حين أن أبا العاص لما كلمته قريش في تطليق زينب، وتزويجه أي فتاة يريد من بنات قريش أبى، **وقال:** والله ما أحب أن لي بها امرأة من قريش!! ثم كان من أمر رقية، وأم كلثوم أن تزوجها ذو النورين عثمان بن عفان واحدة بعد الأخرى، ولم يعرف أن أحدًا أرخى ستره على بنتي نبيٍّ غير عثمان؛ فمن ثَمَّ لقب بذي النورين.

وأما فاطمة فلم تكن إلَّا فتاة صغيرة، فبقيت في بيت أبيها، وشاهدت ما ناله من البلاء والأذى من قريش بعد النبوة، حتى بلغت المحيض، وصارت أهلًا للزواج، فتزوج بها فتى الفتيان علي بعد بدر، ورزقها الله منه البنين والبنات، ومن نسلها كانت العِتْرة الطيبة من آل النبي ﷺ[1].

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 232.

كفالة علي:

روي عن مجاهد أنه **قال:** «كان من نعم الله على علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ما صنع الله له، وأراده به من الخير، أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب في عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس، وكان من أيسر بني هاشم: يا أبا الفضل إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه نخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه واحدًا، وتأخذ أنت واحدًا. **فقال العباس:** نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، **فقالا له:** إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلًا، فاصنعا ما شئتما، فأخذ النبي عليًّا، وضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا، فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًّا، فاتبعه وصدقه، ولم يزل جعفر مع العباس حتى أسلم واستغنى عنه»(1).

تبني زيد:

هو زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزّى الكلبي، وكان زيد في سفر مع أمه، وهو طفل صغير، فأغار عليهم جماعة من الأعراب، فأسروا زيدًا وباعوه، فاشتراه حكيم بن حزام، فأهداه إلى عمته السيدة خديجة بعد زواجها من النبي ﷺ بقليل، وكان عمر زيد - إذ ذاك - نحو عشرين سنة، فاستوهبه النبي ﷺ من زوجه خديجة، فوهبته له، فرعاه النبي ﷺ وأحسن إليه غاية الإحسان، فلما علم أبوه به، حضر وبعض أهله إلى مكة، وعرضوا على النبي ﷺ ما يريد من الفداء، **فقال النبي** ﷺ: «أوخير من ذلك؟» **قالوا:** وما هو؟ قال: «خيِّروه؛ فإن اختاركم فهو لكم دون فداء، وإن اختارني فدعوه»، فخيروه فاختار النبي ﷺ**!!** فجذبه عمه، **وقال له:** يا زيد، اخترت العبودية على أبيك وعمك؟! **فقال:** إي والله العبودية عند محمد أحبُّ إلي من أكون عندكم**!! فقال النبي** ﷺ عند ذلك: «يا معشر قريش، اشهدوا أن زيدًا ابني، يرثني وأرثه»، وطاف على حلق قريش، يشهدهم على ذلك، فرضي أهله وانصرفوا، ومن ذلك الوقت، أصبح **يقال له:** زيد بن محمد، حتى أبطل الإسلام التبني، وأمر أن ينسبوا إلى آبائهم، فصار يسمَّى زيد بن حارثة.

---

(1) رواه الحاكم (6463)، وابن هشام (1/245).

وقد زوَّجه النبي ﷺ من حاضنته أم أيمن، وكانت أكبر منه سنًّا، فأنجبت أسامة بن زيد، الحب ابن الحب؛ لشدة حب النبي ﷺ لهما، وكان النبي ﷺ يسوِّي بينه وبين الحسن ابن ابنته فاطمة، فيجلس الحسن على فخذه، وأسامة على فخذ آخر، وقد استشهد زيد في غزوة «مؤتة» كما سيأتي[1].

* * *

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 232-233.

الفصل الثامن

تجديد بناء الكعبة

قبل البعثة بسنوات قلائل، انحدر سيل عرم إلى مكة، فجرف الكعبة حتى أوشكت على الانهيار، فلم تر قريش بدًّا من أن تجدد بناءها.

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائد المخزومي، **فقال:** يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلَّا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحدٍ من الناس.

توزيع العمل:

قال ابن إسحاق: «ثم إن قريشًا تجزأت (اقتسمت) الكعبة، فكان شق الباب: لبني عبد مناف وزهرة، وما بين الركن الأسود واليماني: لبني مخزوم وقبائل من قريش انضافت إليهم، وكان ظهر الكعبة: لبني جمح وبني سهم، وكان شق الحِجر: لبني عبد الدار ولبني أسد بن عبد العزى، ولبني عدي، وهو الحطيم».

أعمال الهدم:

لما أقدموا على هدم الكعبة، تهيب القوم ذلك، وخافوا أن يصيبهم أذى (إذا قاموا بالهدم)، فقال الوليد ابن المغيرة: أنا أبدأكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها، وهو **يقول:** اللّٰهم لا تُرع – أو: لم نزِغ – اللّٰهم إنا لا نريد إلَّا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص (انتظر) الناس تلك الليلة، **وقالوا:** إن أصيب، لم نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت، وإلَّا فقد رضي الله ما صنعنا. فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عمله (لم يصبه سوء)، فهدم وهدم الناس معه، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم.

جمع الحجارة للبناء:

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، وقد شارك رسول الله ﷺ العمل ونقل الحجارة، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ والعباس ينقلان الحجارة، **فقال العباس للنبي** ﷺ: اجعل إزارك (ما يستر أسفل البدن) على رقبتك، يقك الحجارة، ففعل (فكادت عورته أن تنكشف)، فخر إلى الأرض (مغشيًّا عليه)

وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق، **فقال:** (إزاري إزاري)، فشد عليه إزاره، فما روئ بعد ذلك عريانًا»[1]، وكان ﷺ يومئذ قد بلغ خمسًا وثلاثين سنة.

البناء:

وكان الذي يلي البناء نجار رومي، يسمى (باقوم)، **يقال:** إنه كان في سفينة محملة بالخشب قاصدة اليمن؛ لترميم كنيسة (القليس)، ولما كانت السفينة قبالة مكة هب عليها إعصار فدمرها، فقصدت قريش إلى ساحل البحر، فاشتروا بقايا السفينة وما كان فيها، واستصحبوا معهم (باقوم)، وهكذا أراد الله سبحانه أن تستعمل الأخشاب التي أرسلت للكنيسة في بناء الكعبة - بيت الله الحرام[2].

من يضع الحجر الأسود؟:

لما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، اختصموا فيه؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، حتى تحاوروا وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، وتعاهدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، فسموا (لعقة الدم)، فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ، أو خمسًا!!

ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، فتشاوروا وتناصفوا، **فزعم بعض أهل الرواية:** أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم المخزومي[3] (وكان يومئذ أسن قريش كلهم) **قال:** اجعلوا بينكم أول من يدخل من باب المسجد، ففعلوا، فكان أول من دخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه، **قالوا:** (هذا الأمين، رضينا به، هذا محمد)، فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر، **فقال** ﷺ: «هلم إليَّ ثوبًا»، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم **قال:** «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعًا»، ففعلوا، حتى إذ بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه[4].

اكتمال البناء على غير قواعد إبراهيم:

كانت النفقة قد ضاقت بقريش عن إتمام البيت على قواعد إبراهيم، فاضطروا إلى أن اقتطعوا منه (من مساحته) قطعة (نحوًا من ست أذرع) من جهته الشمالية، وبنوا على هذا الجزء الذي

(1) رواه البخاري (3829)؛ ومسلم (340).

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، 1/ 228.

(3) والد السيدة أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(4) محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ، ص 61-68.

احتجزوه جدارًا قصيرًا؛ للإعلام أنه من البيت، وهو ما يعرف (بالحجر)[1]، **وقد قال رسول الله** ﷺ لعائشة بعد أن استقر له الأمر في جزيرة العرب: «لولا أن قومك حديثو عهد بالكفر، لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم»[2].

والمراد بقول رسول الله ﷺ: هو أن قرب العهد بالجاهلية، وعدم استكمال الإيمان، يجعل العرب ينفرون من هدم الكعبة وتغيير هيئتها.

وكان ارتفاع الكعبة تسع أذرع يوم بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلما بنتها قريش زادوا في ارتفاعها، إلى أن بلغت خمس عشرة ذراعًا، فسقفوها على ستة أعمدة، وكان لها بابان؛ ليدخل الداخل من أحدهما ويخرج من الآخر، فجعلوه بابًا واحدًا؛ ليدخلوا من يشاءون ويمنعوا من يشاءون، وكانوا إذا أرادوا ألا يدخلها أحد لا يريدون دخوله، تركوه حتى يصعد درج (سلم) الباب، ثم يرمونه.

* * *

(1) أبو شهبة، السيرة النبوية، ص 1/229، والحجر من البيت فلا يصح الطواف إلَّا من ورائه.

(2) صحيح مسلم (1333).



الباب الرابع

من الميلاد إلى البعثة المباركة

الفصل الأول: **حال العالم قبل البعثة.**

الفصل الثاني: **البعثة المباركة وخيرية الزمان والمكان.**

الفصل الثالث: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾.

الفصل الرابع: **إرهاصات النبوة.**

الفصل الخامس: **بدء الوحي.**

الفصل السادس: **السابقون الأولون.**

الفصل السابع: **انتشار الدعوة رغم سريتها.**

الفصل الثامن: **دار الأرقم (مدرسة الدعوة الأولى).**

الفصل التاسع: **السمات الثلاثة لهذه المرحلة.**

الفصل الأول

حال العالم قبل البعثة

توقفنا في باب سابق عند أحوال العرب في الجزيرة العربية قبل البعثة المباركة، وكيف أنها كانت أحوالًا مؤسفة، الناس فيها أخلاط متنافرون، لا تستقيم بهم السبل .. القبيلة عندهم إله يعبد، والخرافة تعلن عن باطلها، وتكشف عن هرائها، والوثنية أغارت على دين إبراهيم وإسماعيل، كما تغير أسراب الجراد على الحدائق الغنَّاء، والظلام الذي ران على الأفئدة والعقول، فقبلت هذه الوثنية، وكان لابد أن يطوي في سواده أيضًا السلوك والتقاليد، فكان الفتك والقتل والاغتيال، وفقد الضعاف نعمة الكرامة والعدل والأمان، وتغلبت قوى الشر والبغي والضلال على دعاة الحق والخير والهدى، وانتكست الأخلاق، وتغيرت القيم والمعاني الإنسانية، فقتلوا أولادهم خشية إملاق، ووأدوا بناتهم؛ كي لا يُعيروا، وأباحوا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام والزنا واتخاذ الأخدان .. فكانت الحياة في جزيرة العرب - في مجملها - تصادم الفطرة والمنطق الإنساني الصحيح.

أما حضارات العالم الأخرى، فإنها وإن كانت قد أفادت علمًا، ووعت تجارب، ونمت عندها آداب وفنون، وشاعت فيها فلسفات وأفكار، فإنها لم تكن أحسن حالًا من العرب في جاهليتهم؛ فالحضارات في فارس ورومية، وفي مصر واليونان، وفي الهند والصين، سادتها أيضًا الوثنيات والخرافات والمفاسد الأخلاقية والاجتماعية، وسنعرض - في إيجاز - لأحوال هذه الحضارات قبل بعثة النبي ﷺ.

المبحث الأول: الحالة الدينية

لما جاء القرن السادس لميلاد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كانت منارات الهدى قد انطفأت في مشارق الأرض ومغاربها، وكان الشيطان يزرع الأقطار، فيرى ما غرس من أشواك قد نما وامتد.

فالمجوسية في فارس طليقة عنيدة للشرك الفاشي في الهند والصين، وبلاد العرب وسائر المجاهيل .. **والنصرانية** التي تناوئ هذه الجبهة، قبست أبرز مآثرها من خرافات الهنود والمصريين القدامى؛ فهي تجعل لله صاحبة وولدًا، وتغري أتباعها في (رومة) ومصر

والقسطنطينية بلون من الإشراك، أرقى مما ألف عباد النيران وعباد الأوثان .. شرك مشوب بتوحيد يحارب شركًا محضًا[1].

ومن قبل كان اليهود قد حرفوا أصول الديانة، واقتبسوا كثيرًا من العقائد والوثنيات الجاهلية من الأمم التي عاشوا فيها، وقبلوا معتقدات تحمل الخرافة والافتراء على الله.

وإليك إطلالة على هذه الملل والديانات التي سادت العالم، فحملت له البؤس والحيرة، حتى أذن الله بهدايته للأنام ببعثة محمد ﷺ.

اليهودية:

أصيبت اليهودية في عقيدة التوحيد، التي فضل الله بها بني إسرائيل على أهل زمانهم، والتي هي جوهر رسالة المرسلين والنبيين إليهم عبر القرون الطويلة، هذا بالإضافة إلى ما أحدثه اليهود من تبديل مروع وتحريف مشين في التوراة، فلم يكتفوا بالزعم بأن عزيرًا ابن الله، بل ملئوها بأوصاف ونعوت لا تليق بذات الله، ولا بأنبيائه ورسله، فتراهم يقولون في توراتهم المحرفة إن الرب قد تعب في اليوم السادس وهو يخلق الكون، فاستراح في اليوم السابع، وبارك هذا اليوم الذي استراح فيه (وهو يوم السبت)؛ ولذلك حرم على اليهود العمل فيه!! وأن الرب أخرج آدم وحواء من الجنة؛ خوفًا من أن تمتد أيديهما دون أن يعلم إلى شجرة الحياة، فيكتب لهما الخلود[2]، وأنه فوجئ بمسلك آدم وأبنائه في الأرض، فندم على خلقهم[3]، وأنه ندم أيضًا على إغراق الأرض بالطوفان[4]، وأنه نزل إلى الأرض بصحبة ملكين؛ تلبية لدعوة إبراهيم؛ حيث أكلوا جميعًا من مأدبته الدسمة[5]، وأنه دخل في عراك ومصارعة مع عبده ونبيه يعقوب، دامت ليلة كاملة، وكانت الغلبة ليعقوب، الذي لم يترك الرب إلَّا بعد أن منحه لقب إسرائيل[6].

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 18.

(2) سفر التكوين، الإصحاح الثالث.

(3) سفر التكوين، الإصحاح السادس.

(4) سفر التكوين، الإصحاح التاسع.

(5) سفر التكوين، الإصحاح الثامن.

(6) سفر التكوين، الإصحاح والثاني والثلاثين.

وفي توراتهم المحرفة أيضًا صوروا نوحًا سكّيرًا، يقارع الخمر، أما لوطًا فصوروه سكّيرًا وعاهرًا، يزني بابنتيه في حال سكره، فتحملان منه وتلدان، أما إبراهيم فصوروه ديوثًا، يغري زوجته سارة بالذهاب إلى جبار مصر؛ من أجل الحصول على حظيرة من الغنم والحمير[1]، ويصورون داود يزني بامرأة أحد ضباطه، ويرسل الضابط إلى ميادين القتال ليهلك؛، ومن ثم يتزوج هو زوجته، ويصورون يعقوب بأنه محتال، سرق النبوة من أخيه البكر بأسلوب قذر[2]، ويصورون ابنة يعقوب المسماة (دينا) بأنها زانية، زنا بها ابن رئيس المدينة المجاورة[3].

وصدق الله العظيم الذي قال فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران]، وقال في آية آخرى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة].

المسيحية:

وكذلك النصارى فعلوا .. فبالإضافة إلى إيمانهم بكل ما ذكر في التوراة من تحريف وافتراء (فهم يؤمنون بها ويسمونها عندهم بالعهد القديم)، فإنهم سبوا الله عدوًا بغير علم، فزعموا له الصاحبة والولد: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم].

وأعظم نكبة أصابت الأديان - إثر عدوان الوثنيات عليها - ما أصاب شريعة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ من تبدل مروع، رد نهارها ليلًا، وسلامها وبلًا، وجعل الوحدة شركة، وانتكس بالإنسان، فعلق همته بالقرابين، وفكره بالألغاز المعماة.

إن خرافة الثالوث والفداء، تجددت حياتها بعدما أفلحت الوثنية الأولى في إقحامها إقحامًا على النصرانية الجديدة، وبذلك انتصرت الوثنية مرتين؛ **الأولى:** في تدعيم نفسها، **والأخرى:** في تضليل غيرها[4].

---

(1) سفر التكوين، الإصحاح الحادي والعشرون.

(2) سفر التكوين، الإصحاح السابع والعشرون.

(3) الإصحاح الرابع والثلاثين.

(4) الغزالي: فقه السيرة، ص 18.

والنصارى بعد أن قالوا: المسيح ابن الله، **قالوا:** إن المسيح هو الله نفسه، وأنه مات وصلب وقتل، وأن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان (وهو ما يحتفلون بذكراه، فيما يسمونه بعيد القيامة المجيد)، وأن الله هو من كان في بطن مريم محمولًا به، وأن الله ثلاثة أشياء (أب وابن وروح قدس)، وأنه مع ذلك شيء واحد: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس].

الملل الأخرى:

كان من الشعوب من يعبد الشمس والكواكب، كما في بلاد سبأ وبابل، وكان منهم من يعبد النار في بلاد فارس وما جاورها، ومنهم من يقول بإله النور وإله الظلمة، ومنهم صابئة لا دين لهم، ومنهم من عبد البقرة في بلاد الهند وما جاورها، ومنهم من ألَّه بوذا وعبده في بلاد الصين وما جاورها، وفي مصر واليونان كانت الوثنية وتعدد الآلهة.

وهكذا كانت الحالة الدينية للعالم في منتصف القرن السادس الميلادي: وثنية تراكمت عبر القرون، أطاحت بمعالم التوحيد في اليهودية والنصرانية، وجعلت البشرية في ظلمات بعضها فوق بعض، وضاع من الأرض ما جاء به الأنبياء والمرسلون، وصار التوحيد وعبادة الله وحده، أمرًا يكاد يكون معدومًا في الأرض.

المبحث الثاني: الحالة الاجتماعية والسياسية

لم تكن الحالة الاجتماعية أحسن حالًا من الحالة الدينية؛ فقد سادت العالم طبقية طاغية، وعصبية عرقية، وتفرقة بين الناس على أساس الجنس والنسب واللون، فكان منهم السادة والعبيد، والأشراف والصعاليك، وعم الظلم والجهل والغلو في الدين، وكانت المرأة - في أغلب المجتمعات - مهضومة الحقوق؛ لا يسمع لها رأي، ولا يقام لها وزن، بل تُورث كما يورث المتاع، (بل وبحثت بعض الأمم الأوربية في قضايا مثل: هل المرأة حيوان أم إنسان؟!، وهل لها روح خالدة أم لا؟! وهل لها حق الملكية والبيع والشراء؟!)[1].

(1) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، ص 44.

أما عن الحالة السياسية، فلم تكن الحروب تفتر بين الفرس والروم، بعد أن اقتسما العالم، ولم تكن هذه الحروب إقامة لمبادئ أو نصرةً لفضيلة، إنما كانت حروبًا توسعية، دافعها حب الغلبة، والتسلط، وبسط النفوذ.

وفي داخل الدولتين كان الاستبداد السياسي والاضطهاد الطائفي، ولعل أوضح مثال ما تعرض له أقباط مصر من قهر ووحشية؛ لاختلافهم مع الدولة البيزنطية حول طبيعة المسيح.

ولم يكن الوضع في بلاد الصين وبلاد الهند أحسن حالًا؛ فالبشرية كلها كانت تعيش في ذروة فترات الفساد والتخبط والضياع، حتى أن الله ﷻ مقت أهل الأرض جميعًا إلَّا بقية قليلة من أهل الكتاب، ظلت مستمسكة بدينها الصحيح، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم؛ عربهم وعجمهم، إلَّا بقايا من أهل الكتاب»[1].

***

(1) من حديث طويل، رواه مسلم في صحيحه (2865).

الفصل الثاني

البعثة المباركة وخيرية الزمان والمكان

كما أصطفى الله ﷻ لرسالته سيد الخلق محمد ﷺ، اصطفى أيضًا مكان وزمان الرسالة ..

فاصطفى جزيرة العرب مهبطًا لرسالة الإسلام، وقد ذكرنا في باب سابق الحكمة من ذلك[1]. واصطفى زمان الرسالة من القرن الذي كان فيه رسول الله ﷺ، وقد صح عنه ﷺ أنه **قال:** «بُعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرن، حتى كنت من القرن الذي كنت منه»[2]، **قال الزمخشري: والقرن:** الأمة من الناس، سميت قرنًا لتقدمها على التي بعدها.

فالأمة التي اصطفاها الله من عرب الجزيرة لتحمل الرسالة من خلف رسوله ﷺ هي خير الأمم .. ولا تعارض بين هذا وبين ما ذكرناه مما كان في العرب (في مجملهم) من جاهلية وأخلاق مذمومة؛ فقد كان لكثير منهم من الفضائل والكمالات الأخلاقية ما لم يكن لشعب من شعوب الأرض؛ فقد كانوا أهل مروءة ونجدة وعزة وأنفة وحرية وصدق حديث، وكانوا أكثر الناس وفاءً بالعهد، وإباءً للضيم، وإكرامًا للضيف، وغيرة على الأعراض، وصبرًا على المكاره، وتضحية بالنفس والمال في سبيل المعتقد، وكانوا إذا استجار بالواحد منهم مستجير أجاره، وربما ضحى بنفسه وولده في سبيل إجارته، وتمتعوا بما لم يتمتع به غيرهم من صفاء النفس، وإرهاف الحس، والذكاء والفطنة.

لهذا - ولغيره - كانوا أهلًا لحمل الرسالة وتبليغها إلى الناس جميعًا، **قال أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:** وقد اختار الله العرب ليتلقوا دعوة الإسلام، ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم؛ لأن ألواح قلوبهم كانت صافية، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة يصعب محوها وإزالتها، شأن الروم والفرس وأهل الهند، الذين كانوا يتيهون بعلومهم وآدابهم الراقية، ومدنياتهم الزاهية، أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلَّا كتابات بسيطة، خطتها يد الجهل والبداوة، ومن السهل الميسور محوها وغسلها، ورسم نقوش جديدة مكانها.

وكانوا على الفطرة، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبوه واحتضنوه، واستماتوا في سبيله، وكانوا أصحاب صدق وأمانة، وجلادة وتقشف في

---

(1) انظر الفصل الأول من الباب الثاني من الكتاب.

(2) أخرجه البخاري (3557).

الحياة، وشجاعة وفروسية. وفي جزيرة العرب وفي مكة، كانت الكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ ليُعبد فيها الله وحده، ولتكون مصدر الدعوة للتوحيد إلى آخر الأبد[1]: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران].

وقال سليمان الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الذين آمنوا بمحمد ﷺ أولًا لم يكونوا من صيادي الشواطئ، ولا من الذين استعبدهم فرعون مصر، بل كان الذين آمنوا بمحمد أولًا رجالًا من أمة عريقة في الحرية ذات عقول ناضجة وفطنة، ولهم حماسة وحمية، لم تلن قناتهم لحكومة قاهرة، ولا ذللت أنفتهم دولة قوية منذ فجر التاريخ، وكانت لهم تجارة واسعة النطاق، تصدر فيها وترد سلعهم وأمتعتهم بين بلاد وبلاد، وكانت مملكة فارس وبلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى مضربهم وموارد تجارتهم، ولاحتكاكهم بالأمم المتمدنة ولقائهم الرجال من مختلف الأمم، تفتقت آراؤهم، واتسعت عقولهم، وازدادت تجاربهم؛ يدل على ذلك ما أثر عنهم من الأحكام، وما وصل إلينا في صفحات التاريخ من الأخبار، وكان من هؤلاء من قاد الجيوش، وانتصر بها، فعُدَّ من أعظم القادة الفاتحين، وكان منهم من ساس البلاد وحكم الناس، فأحسن الإحسان كله في سياسته وحكمه، حتى عُدَّ من أعدل الولاة وأحكم الحكام سياسةً وتدبيرًا. وهل يسوغ في العقل أن من أوتي مثل هذا العقل الراجح والمواهب العظيمة والرأي الحصيف، يخفى عليه شيء من أمر هذا الرسول ﷺ، وينخدع به؟! هؤلاء الرجال هم الذين نقلوا عنه ما شهدوه بأنفسهم وسمعوه بآذانهم، وكانوا يرون الاقتداء به سعادة لهم، والاهتداء بهديه شرفًا لهم في الدنيا، وذخرًا لهم في الآخرة، فاقتفوا آثاره، وسلكوا سبيله، واستنوا بسنته[2].

***

(1) أبو الحسن الندوي: سيرة خاتم النبيين ﷺ، ص 12-14.

(2) سليمان الندوي: الرسالة المحمدية، ص 155.

الفصل الثالث

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

شب رسول الله ﷺ محفوظًا من الله تعالى، بعيدًا عن أقذار الجاهلية وعاداتها؛ فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأشدهم حياء، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم من الفحش والبذاءة، حتى ما أسموه في قومه إلَّا (الأمين)، وكان واصلًا للرحم، حاملًا لما يثقل كواهل الناس، مكرمًا للضيف، عونًا على البر والتقوى، وكان يأكل من نتيجة عمله، ويقنع بالقوت[1]، ومن حفظ الله لنبيه ﷺ وعنايته به:

1- جعله ربه مباركًا منذ طفولته:

روي عن جُلهمة بن عرفطة، **قال:** قدمت مكة وهم في قحط، **فقالت قريش:** يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلب عنه سحابة قتماء، حوله أغيلمه، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام بأصبعه، وما في السماء قُزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي[2]. **ومعنى الواقعة:** أن الله تعالى ألهم أبا طالب أن يستسقي بمحمد ﷺ وهو طفل، فيأخذه إلى الكعبة، ويلصق ظهره بها، ويرفعه بين يديه، **ولسان حاله يقول:** بحق هذا الغلام المبارك اسقنا ربنا .. فسقاهم الله ﷻ، وفي هذا **قال أبو طالب:**

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى[3] عصمة للأرامل[4]

وسبق أن ذكرنا ما كان من بركته على حليمة السعدية وأهلها ، وهو مسترضع في بادية بني سعد بن بكر.

2- لم يسجد لصنم قط أو تمسح به:

عن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** كان صنم من نحاس، **يقال له:** (إساف) و(نائلة)، يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه (أي طافا بالكعبة)، فلما مررت مسحت

---

(1) أبو الحسن الندوي: سيرة خاتم النبيين ﷺ، ص 33.

(2) رواه البخاري (1008)؛ وابن ماجه (1272)، وذكره الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في مختصره.

(3) غياث اليتامى وملجؤهم.

(4) أي: يمنع الأرامل من الضياع، ويسد حاجتهم.

به، **فقال رسول الله** ﷺ: (لا تمسه). قال زيد: فطفنا، **فقلت في نفسي:** لأَمَسَّنه حتى أنظر ما يكون. فمسحته، **فقال رسول الله** ﷺ: (ألم تُنه؟)(1). وفي روايات أخرى **قال زيد:** فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب، ما استلم صنمًا قط، حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه.

وعن هشام بن عروة عن أبيه، **قال:** حدثني جارٌ لخديجة أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: «أي خديجة، والله لا أعبد اللات، والله لا أعبد العزى أبدًا»(2).

3- كان لا يأكل مما ذبح على النصب ومما لم يُذكر اسم الله عليه:

عن سالم بن عبد الله، أنه سمع ابن عمر يحدث عن رسول الله ﷺ: أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل (بلدح)، وذلك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي، فقدم إلى رسول الله ﷺ سفرة فيها لحم، فأبى أن يأكل منه، **وقال:**

«إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه»(3).

4- لم ينغمس في لهو الجاهلية:

فلم يشرب خمرًا قط، ولم يعرف الميسر ولا معاشرة القيان ولا عشق الحسان، ولا انغمس في لهو ولعب يُعير به بعد ذلك، حتى الأمور التي يتجاوز فيها في فترة الصبى، عصمه الله منها. **قال ابن إسحاق:** وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي - يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره، أنه قال: «لقد رأيتني في غلمان من قريش، ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره، وجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم وأدبر؛ إذ لكمني لاكم - ما أراه - لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك، قال: فأخذته وشددته عليَّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي، وإزاري عليَّ من بين أصحابي». وقد سبق ذكر ما حدث له أثناء نقله لحجارة بناء الكعبة مع عمه العباس.

---

(1) رواه الحاكم (4987)، والنسائي (8132)، **وقال الألباني** (في صحيح السيرة النبوية): إسناده حسن.

(2) رواه أحمد في مسنده (222/4) (ح: 18230)، ورواه الهيثمي في المجمع (225/8)، **وقال:** رجاله رجال الصحيح.

(3) البخاري (5499)، وأحمد 89/2 (ح: 5735)، **وقال الألباني** (في صحيح السيرة النبوية): إسناده صحيح على شرط الشيخين.

5- خالف (الحِمْس):

(الحمس) هم أهل الحرم (من قريش) ومن دخل معهم من العرب، **مثل:** كنانة وجديلة، رأوا أن لهم منزلة فوق منزلة بقية العرب، ولذلك ميزوا أنفسهم عنهم في الحج، بأن تركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها[1]. (**والحمس:** هو الشدة في الدين والصلابة)؛ وذلك لأنهم عظموا الحرم تعظيمًا زائدًا، بحيث التزموا ألا يخرجوا منه (أي من الحرم) ليلة عرفة، **وكانوا يقولون:** نحن أبناء الحرم، وقطان بيت الله، فكانوا لا يقفون بعرفات، وكانوا يمنعون الحجيج والعمار - ماداموا محرمين - أن يأكلوا إلَّا من طعام قريش، ولا يطوفوا إلا في ثياب قريش، فإن لم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحمس، طاف عريانًا، ولو كانت امرأة[2].

وقد خالف الرسول ﷺ قبل البعثة قومه (وهم من الحمس)؛ إذ كان يفيض مع الناس من عرفات حين كانت (الحمس) تفيض من مزدلفة.

روى محمد بن إسحاق عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه جبير، **قال:** «لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو على دين قومه[3]، وهو يقف على بعير له بـ (عرفات) من بين قومه، حتى يدفع (يفيض) معهم، توفيقًا من الله ﷻ له»[4].

ورواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن جبير بن مطعم، **قال:** أضللت بعيرًا لي بـ (عرفة) فذهبت أطلبه، فإذا النبي ﷺ واقف، **فقلت:** إن هذا (أي النبي ﷺ) من (الحمس)، وما شأنه هاهنا؟!![5].

وجاء الإسلام، فوضع الله تعالى أمر الحمس، وما كانت قد ابتدعته قريش، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة:199].

6- جمع الله له كل صفات الخير:

وكان النبي ﷺ - إلى ذلك كله - وصولًا للرحم، عطوفًا على الفقراء وذوي الحاجة، ويقري

(1) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 126.

(2) الألباني: صحيح السيرة النبوية، ص 23.

(3) **قال البيهقي:** معنى قوله: (على دين قومه): ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل.

(4) الألباني: صحيح السيرة النبوية، ص 16.

(5) المصدر السابق.

الضيف، ويعين الضعيف، ويمسح بيديه بؤس البائسين، ويفرج كرب المكروبين، وقد وصفته بهذا السيدة خديجة – وهي أعرف الناس به – في بدء النبوة، **فقالت:**

«ما كان الله ليخزيك أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»[1].

7- بغَّض الله إليه قول الشعر:

وكذلك بغض إليه قول الشعر، فلم يعرف عنه أنه قال شعرًا أو أنشأ قصيدة، أو حاول ذلك؛ لأن ذلك لا يتلاءم ومقام النبوة، فالشعر شيء، والنبوة شيء آخر، ولم يكن الشعراء بذوي الأخلاق والسير المرضية، فلا عجب أن نزهه الله سبحانه عن الشعر: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس:69]، ومع هذا فقد كان يتذوق ما في الشعر من جمال وحكمة وروعة، ويستنشده أصحابه أحيانًا[2]، ولا عجب؛ فهو **القائل:** «إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمًا»[3].

فائدة:

ولعل من حكمة الله ﷻ أيضًا من كل ما كان من رسول الله ﷺ قبل بعثته، وأنه لم يعرف أقذار الجاهلية وهفواتها، أن يشاهد ذلك كل من حوله، ويرونه رأي العين، ويتناقلونه بينهم، حتى إذا ما بعث النبي ﷺ لا يكونون في عجبة من أمره. وكان ما أراده الله ﷻ، فما أن بُعث النبي ﷺ إلَّا سارع كثير من المقربين إليه وغير المقربين بالإيمان به، والدخول في دعوته المباركة، ولم يبق إلَّا من ختم الله على قلبه، أو من أراد الله أن يؤخر إسلامه إلى حين آخر؛ ولذلك حتى الذين لم يؤمنوا به ﷺ، كانوا على يقين أنه على الحق، وأنه لا يكذب؛ وذلك لما علموه عنه من أخلاق كريمة، ومما حدث له من أحداث قبل نبوته، ومن تحديث الكهان والرهبان وأهل الكتاب به ﷺ، ولكن ما منعهم أن يؤمنوا به وأن يجحدوا بتلك العلامات إلَّا الكبر[4]، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾[النمل]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام].

---

(1) البخاري (3)؛ ومسلم (160)، **انظر:** أبو شهبة: السيرة النبوية، ص (239/1).
(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، (237/1).
(3) رواه البخاري (5767).
(4) محمد طه: الأغصان الندية، ص 45.

الفصل الرابع

إرهاصات النبوة

لما أتم رسول الله ﷺ أربعين سنة، وآن أوان البعثة، جعل الله لها إرهاصات، **منها:**

1- الرؤيا الصادقة:

عن عائشة رضي الله عنها: «إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، يتحنث[1] فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء»[2].

2- تسليم الحجر عليه:

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، **قال: قال رسول الله** ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن»[3].

3- كان يرى ضوءًا ويسمع صوتًا:

عن عمار بن أبي عمار، أن النبي ﷺ **قال لخديجة:** «إني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا، وإني أخشى أن يكون بي جن». **قالت:** «لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبد الله»، ثم أتت ورقة بن نوفل، فذكرت ذلك له، **فقال:** «إن يك صادقًا فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزره، وأنصره، وأؤمن به»[4].

---

(1) يتعبد.

(2) البخاري (6982)، ومسلم (160)، واللفظ لمسلم.

(3) صحيح مسلم (2277).

(4) رواه أحمد (2891) بإسناد حسن.

4- شق الصدر وخاتم النبوة:

روى أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن ملكين أتيا رسول الله ﷺ وهو ببعض بطحاء مكة، **فقال أحدهما للآخر:** زِنْه برجل، فوزنه، فرجح به محمد ﷺ، إلى أن وزنه بألف من أمته فرجحهم، **ثم قال له:** لو وزنته بأمته لرجحها. **ثم قال أحدهما للآخر:** شق بطنه، فشقه، ثم أخرج منه فعم (حظ) الشيطان، وعلق الدم، فطرحها، **فقال أحدهما للآخر:** اغسل بطنه غسل الإناء، ففعل، ثم دعا بالسَّكِينَة، فأدخلت قلبه، **ثم قال أحدهما للآخر:** خط بطنه، ففعل، وجعلا الخاتم بين كتفيه، ثم وليا عنه، وكأنما يعاين الأمر (أي أن رسول الله يرى كل ما حدث له) معاينة »[1].

وروى البيهقي من طريق الزهري، عن سعيد بن المسيب، أن النبي ﷺ خرج من عند خديجة، ثم عاد فأخبرها أنه رأى بطنه قد شق، ثم طهر وغسل، ثم أعيد كما كان، **فقالت:** «هذا والله خير، فأبشر»[2].

5- الخلوة:

حبب إلى رسول الله ﷺ الخلاء قبيل بعثته، فكان يذهب إلى غار حراء بين الفترة والأخرى، فيقيم فيه الليالي ذوات العدد (تارة عشرة، وتارة أكثر من ذلك إلى شهر)، متفكرًا ومتعبدًا، ومنصرفًا إلى خالقه بصفاء نفس وهدوء بال، بعيدًا عن شواغل الحياة وهمومها، وكان أول ما يبدأ به حال انصرافه من الغار، أن يدخل بيت الله الحرام، فيطوف سبعًا، ثم يرجع إلى بيته، فلا يكاد يمكث فيه قليلًا حتى تزوده خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لخلوة أخرى .. ومازال يخلو ويتعبد، حتى فجأه الحق، ونزل عليه الوحي وهو في إحدى خلواته.

* * *

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، (2/299)، ورواه ابن عساكر، والبزار، **انظر:** السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 146.

(2) رواه البيهقي في الدلائل مرسلًا عن سعيد بن المسيب، وعن عروة، والطريقان ضعيفان، ولكنهما شاهدان، يتقوى بهما حديث ابن عساكر والبزار السابق.

الفصل الخامس

بدء الوحي

فلما كمل له أربعون، أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده(1). وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل، يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلًا، وقد وافق 15 أغسطس سنة 610م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر، و12 يومًا، وذلك نحو 39 سنة شمسية وثلاثة أشهر وعشرين يومًا(2).

المبحث الأول: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ ﴾ [العلق]

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع(3) إلى أهله، ويتزود إلى ذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، **فقال:** اقرأ، **قال:** ما أنا بقارئ، **قال:** فأخذني فغطني(4) حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، **فقال:** اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، **فقال:** اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم **قال:** ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ ﴾ [العلق] .. فرجع بها رسول الله ﷺ، ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة، **فقال:** «زملوني زملوني»(5)، فزملوه حتى ذهب عنه الروع(6)، **فقال:** يا خديجة، ما لي؟ وأخبرها الخبر. **وقال:** «قد خشيت على نفسي»، **فقالت له:** كلا، أبشر؛

---

(1) ابن القيم: زاد المعاد، 76/1.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم.

(3) يرجع.

(4) عصرني.

(5) غطوني.

(6) الخوف.

فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل[1]، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[2]، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية .. كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل العبرانية - ما شاء الله أن يكتب - وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، **فقالت خديجة:** أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، **فقال ورقة:** ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، **فقال ورقة:** هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعًا[3] ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟!»، **فقال ورقة:** نعم؛ لم يأت رجل قط بما جئت به إلَّا عودي، وإن أدركني يومك، أنصرك نصرًا مؤزرًا .. ثم لم ينشب[4] ورقة أن توفي[5].

لقد ولد الإنسان من جديد ..

وتحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط، وكما لم يتحول من بعد أيضًا، وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق، وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية، لا يطمسها الزمان، ولا تطمسها الأحداث، وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم، لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة، ولم يجئ بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعًا، مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية.

ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض، وتبينت خطوطه ومعالمه .. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:42] .. لا غموض ولا إبهام .. إنما هو الضلال عن علم! والانحراف عن عمد، والالتواء عن قصد!!

إنه الحادث الفذ في تلك اللحظة الفريدة .. الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد، والذي كان فرقانًا في تاريخ البشر، لا في تاريخ أمة ولا جيل، والذي سجلته

(1) الضعيف.
(2) أحداث الزمان ونوازله.
(3) أي شابًّا.
(4) لم يلبث.
(5) رواه البخاري (3)، ومسلم (160).

جنبات الوجود كله وهي تتجاوب به، وسجله الضمير الإنساني، وبقي أن يتلفت هذا الضمير اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها، وأن يذكر دائمًا أنه ميلاد جديد للإنسانية، لم يشهده إلَّا مرة واحدة في الزمان(1).

تساؤلات:

لماذا رأى رسول الله ﷺ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بعيني رأسه لأول مرة، وقد كان بالإمكان أن يكون الوحي من وراء حجاب؟

لماذا قذف الله في قلبه عليه الصلاة والسلام الرعب منه، والحيرة في فهم حقيقته، وقد كان ظاهر محبة الله لرسوله ﷺ وحفظه له، يقتضي أن يلقي السكينة في قلبه، ويربط على فؤاده؟

لقد فوجئ محمد ﷺ وهو في غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو **يقول له:** ﴿اقْرَأْ﴾؛ حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمرًا ذاتيًّا داخليًّا، مرده إلى حديث النفس المجرد، وإنما هي استقبال وتلقٍّ لحقيقة خارجية، لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وضمّ الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات، **قائلًا في كل مرة:** ﴿اقْرَأْ﴾، يعتبر تأكيدًا لهذا التلقي الخارجي، ومبالغة في نفي ما قد يتصور، من أن الأمر لا يعدو كونه خيالًا داخليًّا فقط.

ولقد داخله الخوف والرعب مما سمع ورأى، حتى إنه قطع خلوته في الغار، وأسرع عائدًا إلى البيت يرجف فؤاده؛ لكي يتضح لكل مفكر عاقل أن رسول الله ﷺ لم يكن متشوفًا للرسالة التي سيُدعى إلى حملها وبثّها في العالم، وأن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أو يخطر في باله، وإنما طرأت طروءًا مثيرًا على حياته، وفوجئ بها دون أي توقع سابق. ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه - بطريقة الكشف التدريجي المستمر - عقيدة يؤمن بالدعوة إليها! ..

ثم إن شيئًا من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحي أو التأملات العلوية، لا يستدعي الخوف والرعب وامتقاع اللون.

وقد كان الله ﷻ قادرًا أن يربط على قلب رسوله ﷺ، ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلمه ليس إلَّا جبريل .. ملك من ملائكة الله، جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس، ولكن الحكمة

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

الإلهية اقتضت إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها، وبيان أن شيئًا من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يطبخ في ذهن الرسول ﷺ سابقًا، ولم يتصور الدعوة إليه سلفًا.

ثم إن فيما ألهم الله خديجة من الذهاب به ﷺ إلى ورقة بن نوفل، وعَرض الأمر عليه تأكيدًا من جانب آخر، بأن هذا الذي فوجئ به ﷺ إنما هو الوحي الإلهي، الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله، وإزالة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة، عن تفسير ما رآه وسمعه[1].

فترة الوحي وعودته:

ثم فتر الوحي مدة اختلف فيها العلماء، ولم يحدد ابن هشام في سيرته مدة لفترة الوحي، **والراجح** أن أقصاها أربعين يومًا، ثم عاد الوحي يشرق على الأرض من جديد.

وقد شاء الله أن يفتر الوحي بعد ابتدائه؛ حتى يكون تشرف الرسول ﷺ وارتقابه لمجيئه سببًا في ثباته واحتماله عندما يعود، ومع ذلك، فإن الطاقة البشرية ناءت أمام وطأته، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسول الله** ﷺ - وهو يتحدث عن فترة الوحي: «بينما أنا أمشي، إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت، **فقلت:** دثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2)﴾ [المدثر]، إلى قوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5)﴾ [المدثر]، فحمي الوحي وتتابع»[2].

وكانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة من سورة المدثر، إيذانًا للرسول ﷺ بأن الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه وسلامه، وأنه أمام عمل جديد، يستدعي اليقظة والتشمير، والإنذار والإعذار، فليحمل الرسالة وليوجه الناس، وليأنس بالوحي، وليقو على عنائه؛ فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته [3]. فقام رسول الله ﷺ بعد أمر ربه له، فظل قائمًا أكثر من عشرين عامًا، لم يسترح ولم يسكن، ولم يعش لنفسه ولا لأهله .. قام على دعوة ربه، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشر كلها، عبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح

---

(1) البوطي: فقه السيرة، ص 97-99، مختصرًا.
(2) الألباني: صحيح السيرة النبوية، ج1، ص 50.
(3) المباركفوري: الرحيق المختوم.

والجهاد في ميادين شتى .. عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عامًا، لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد، منذ أن سمع النداء العلوي الجليل(1).

المبحث الثاني: منع الجان والشياطين من استراق السمع

حين أُنزل القرآن على محمد ﷺ، منع الله ﷻ الجان ومردة الشياطين من استراق السمع؛ لئلا يختطف أحدهم منه ولو حرفًا واحدًا، فيلقيه على لسان وليه؛ فيلتبس الأمر، ويختلط الحق.

فكان من رحمة الله وفضله ولطفه بخلقه، أن حجبهم عن السماء، كما قال الله تعالى إخبارًا عنهم في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء].

وروى الحافظ أبو نعيم، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال:

كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي (أي: ما قدره الله من الغيب)، فإذا حفظوا الكلمة زادوا فيها تسعًا، فأما الكلمة فتكون حقًّا، وأما ما زادوا فتكون باطلًا.

فلما بُعث النبي ﷺ مُنعوا مقاعدهم، فذكروا لإبليس (أمر الشهب التي تُرمى عليهم) - ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك - **فقال لهم إبليس:** هذا لأمر قد حدث في الأرض.

فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائمًا يصلي بين جبلين، فأتوه فأخبروه، **فقال:** هذا الأمر الذي حدث في الأرض.

وقد انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه يومًا، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلتْ عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، **قالوا:** ما لكم؟ **قالوا:** حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. **فقالوا:** ما ذاك إلَّا من شيء

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 94.

حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟! فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها .. فمر النفر (من الجن) الذي أخذوا نحو (تهامة) – وهو أي: رسول الله ﷺ بـ (نخل) – عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سُمع القرآن استمعوا له، **فقالوا:** هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء.

فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن]، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: [الجن]، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن][1].

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس أيضًا رضي الله عنهما، قال:

إنه لم تكن قبيلة من الجن إلَّا ولهم مقاعد للسمع، فإذا نزل الوحي (ما قُدر الغيب)؛ سمعت الملائكة صوتًا كصوت الحديد ألقيتها على الصفا، قال: فإذا سمعته الملائكة خروا سجدًا، فلم يرفعوا رءوسهم حتى ينزل، فإذا نزل؛ **قال بعضهم لبعض:** ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ:23]؟ فإن كان مما يكون في السماء: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:23]، وإن كان مما يكون في الأرض من: أمر الغيب، أو موتٍ، أو شيء مما يكون في الأرض تكلموا به، فقالوا: يكون كذا وكذا، فتسمعه الشياطين، فينزلونه على أوليائهم.

فلما بُعث النبي ﷺ دُحروا بالنجوم، فكان أول من علم بها (أى الشهب) ثقيف، فكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه، فيذبح كل يوم شاة، وذو الإبل فينحر كل يوم بعيرًا، فأسرع الناس في أموالهم (ينتفعون بها قبل هلاكها)، **فقال بعضهم لبعض:** لا تفعلوا؛ فإن كانت النجوم التي يهتدون بها (افعلوا ما تفعلون)، وإلَّا فإنه لأمر حدث. فنظروا، فإذا النجوم التي يُهتدى بها كما هي لم يَزُل منها شيء، فكفوا (أي: امتنعوا عن إهلاك أموالهم).

وصرف الله الجن، فسمعوا القرآن: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف:29].

وانطلقت الشياطين إلى إبليس، فأخبروه، **فقال:** هذا حدثٌ حدث في الأرض، فأتوني من كل أرض بتربة، فأتوه بتربة تهامة، **فقال:** هاهنا الحدث[2].

---

(1) مسلم (449).

(2) مصنف ابن أبي شيبة (37697).

وثبت في الحديث، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:**

كان رسول الله ﷺ جالسًا في نفر من أصحابه (من الأنصار)، فرُمي (في الأرض) بنجم عظيم فاستنار، **قال:** «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟».

قال: كنا نقول: يولد عظيم، أو يموت عظيم **قال معمر: قلت للزهري:** أكان يرمى بها في الجاهلية؟ **قال:** نعم؛ ولكن غلظت حين بُعث النبي ﷺ - قال (رسول الله ﷺ):

«فإنه لا يرمى بها لموت أحد، ولا لحياته، ولكن ربنا - تبارك اسمه - إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا، ثم يستخبر (يسأل) أهل السماء الذي يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ [سبأ:23]، فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء (الدنيا)، ويخطف الجن السمع، فيرمون، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون»[1].

المبحث الثالث: صور الوحي وأقسامه

كانت للوحي مع رسول الله ﷺ صور ومراتب (أقسام)، عددها ابن القيم[2] رَحِمَهُ اللَّهُ، **فقال:** إن الله تعالى قد كمل لنبيه ﷺ من مراتب الوحي مراتب عديدة:

أحدها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحي الله إليه، كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مثل فلق الصبح ...»[3].

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما **قال النبي** ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ... الحديث»[4].

---

(1) مسلم (2229).

(2) زاد المعاد (1/78-80).

(3) البخاري، الفتح (26/204، حديث 6982)؛ ومسلم (1/139، حديث 160).

(4) أخرجه الألباني في حاشية فقه السيرة للغزالي، ص 96، **وقال عنه:** حديث صحيح.

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا[1].

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض[2].

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خُلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج، من فرض الصلاة، وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء]، وثبوتها لنبينا ﷺ وهو في حديث الإسراء والمعراج، الذي فيه قول الرسول ﷺ: «... ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»[3].

لا تحرك به لسانك لتعجل به:

كان رسول الله ﷺ - في ابتداء الوحي - شديد الحرص على أخذ ما يُوحي إليه عن الله ﷻ من جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكان يسابقه في التلاوة، فأمره الله تعالى أن ينصت حتى يفرغ من الوحي، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسر عليه تلاوته، وأن يبينه له، ويفسره ويوضحه، ويوقفه على المراد منه[4].

قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ [القيامة].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه].

---

(1) كما في حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، الذي قال له فيه الرسول ﷺ: (... إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

(2) البخاري، الفتح (31/13، حديث 3215)، ومسلم (1816/4، حديث 2333).

(3) مسلم (149/1، حديث 163).

(4) الألباني: صحيح السيرة النبوية، ص 56.

وفي (الصحيحين) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:**

كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة]، **قال:** جَمْعَهُ في صدرك، ثم تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة]: فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة]، **قال (ابن عباس):** فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه، كما وعده الله ﷻ .

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: إن أمر هذا الوحي، وحفظ هذا القرآن، وجمعه، وبيان مقاصده .. كل أولئك موكول إلى صاحبه، ودوره ﷺ هو التلقي والبلاغ، فليطمئن بالًا، وليتلق الوحي كاملًا، فيجده في صدره منقوشًا ثابتًا ... وهكذا كان.

❋ ❋ ❋

الفصل السادس

السابقون الأولون

بعد أن أنزل الله على رسوله ﷺ التكليف بالدعوة والبلاغ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر]، استجاب النبي ﷺ من فوره؛ فأخذ يدعو إلى الإسلام، وإلى عبادة الله وحده، ونبذ الأصنام، والإيمان بالدار الآخرة، ولكنه كان يدعو إلى ذلك سرًّا، فلم يكن ﷺ يظهر الدعوة في مجالس قريش وتجمعاتها، ولم يكن يدعو إلَّا من كانت بينه وبينه قرابة أو صداقة، أو من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، ويرى فيه الاستعداد لقبول الحق الذي جاء به، وهؤلاء لم يجدوا في أنفسهم ريبةً قط في صدقه وصدق ما جاء به، فكانوا هم السابقون إلى اتباعه ومؤازرته.

بيت النبوة:

كان طبيعيًّا أن يبدأ رسول الله ﷺ بأهل بيته، فآمنوا جميعًا، وكانوا في طليعة السابقين إلى الإسلام:

1- خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

كانت أول من آمن به على الإطلاق، وأول من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرسول الكريم ﷺ، وكانت أول من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت الرسول العظيم ﷺ، وكانت كذلك أول من تعلم الصلاة عن رسول الله ﷺ؛ فبيتها هو أول مكان تُلي فيه أول وحي نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم بعد غار حراء(1).

قال ابن إسحاق: وآمنت خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله ﷺ، وصدقت بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسول الله ﷺ .. لايسمع شيئًا يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلَّا فرج الله عنه بها، إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها.

2- علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وكان ربيبه، يعيش في كفالته، وبمثابة ابنه ﷺ، وهو أول من آمن من الصبيان، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين – على أرجح الأقوال – وصلى مع رسول الله ﷺ وخديجة مختفين بصلاتهم عن

---

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص 86.

أعين قريش. وقد روى ابن إسحاق، عن إياس بن عُفيف، عن أبيه عفيف، أنه **قال:** كنت امرأ تاجرًا، فقدمت في أيام الحج، وكان العباس بن عبد المطلب امرأ تاجرًا، فأتيته أبتاع منه، **قال:** فبينا نحن إذ خرج رجل من خباء، فقام يصلي تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة، فقامت تصلي، وخرج غلام، فقام يصلي معه، **فقلت:** يا عباس، ما هذا الدين؟! إن هذا الدين ما أدري ما هو؟ **فقال:** هذا محمد بن عبد الله، يزعم أن الله أرسله، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به. **قال عفيف:** فليتني كنت آمنت يومئذٍ، فكنت أكون رابعًا.

وروى ابن جرير عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بُعث النبي ﷺ يوم الاثنين، وصلى عليٌّ يوم الثلاثاء[1].

3- زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

حب النبي ﷺ ومتبناه، الذي آثر رسول الله ﷺ على والده وأهله، فكان يدعى: (زيد بن محمد)، وهو أول من آمن من الموالي[2].

4- أم أيمن بركة الحبشية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

5- بنات النبي ﷺ:

وكان من الطبيعي أن يسلمن؛ فهن أكثر الناس معرفةً بصدق أبيهن ﷺ، واستقامة مسلكه، وهن أيضًا قد اقتدين بأمهن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. روى ابن إسحاق عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قالت:**

«لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناته».

6- أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن آمن معه:

قال ابن إسحاق: ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة، وكان أبو بكر رجلًا مألفًا لقومه، محببًا سهلًا، وكان أنسب قرشي لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلًا تاجرًا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه، ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، **فأسلم بدعائه:** عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد

---

(1) الألباني: صحيح السيرة النبوية، ص 58.

(2) **المولى:** هو المملوك الذي أُعتق.

بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فكان هؤلاء النفر الثمانية[1] الذين سبقوا الناس بالإسلام، فصلوا، وصدقوا [2].

ثم توالت أفواج المؤمنين:

الفوج الثاني:

وما إن أسلم أولئك النفر الكرام حتى تتابع أشراف قريش يدخلون في الإسلام، فيؤمنون بالله ربًّا وإلهًا، لا إله غيرهُ، ولا ربَّ سواه، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وبالقرآن هدًى ونورًا، **فأسلم:**

* **أبو عبيدة عامر بن الجراح القرشي**، الملقب بأمين هذه الأمة، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو الذي انتزع من رسول الله ﷺ حلقتي الدرع يوم أحد، فسقطت بذلك ثناياه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

* **وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشي**، وأمه برّة بنت عبد المطلب، فهو ابن عمة رسول الله ﷺ، هاجر الهجرتين وشهد بدرًا، وتوفّي سنة ثلاث من الهجرة، وتزوج رسول الله ﷺ امرأته أم سلمة؛ إكرامًا له، واعترافًا بفضله في إسلامه، فأصبحت أم المؤمنين، وهذا من إكرام الله تعالى لها ولأبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأرضاهما.

* **والأرقم بن أبي الأرقم**، وهو عبد مناف بن أسد القرشي، أسلم عاشر عشرة، وكان النبي ﷺ قد استخفى في داره بالصفا، يدعو الناس إلى الإسلام سِرًّا، حتى اكتمل عدد المسلمين أربعين رجلًا، وكان آخرهم إسلامًا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويومئذ خرجوا من الدار، وصلّوا جهرة حول الكعبة.

* **وعثمان بن مظعون القرشي**، ويكنى بأبي السائب، وهو أخ للنبي ﷺ من الرضاع، وهو أول مهاجر توفّي بالمدينة النبوية، ومن فضائله وكمالاته الروحية، أنه امتنع من شرب الخمر في الجاهلية قبل الإسلام، وقال: لا أشرب شرابًا يُذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى منّي، ويحملني على أن أنكح كريمتي.

---

(1) يقصد هؤلاء الخمسة وعليًّا وزيدًا وأبا بكر.

(2) السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ص 267-269.

* **وعبيدة بن الحارث بن المطَّلب بن عبد مناف بن قصيّ القرشيّ**، وكان أسنَّ من النبّي ﷺ بعشر سنين، هاجر إلى المدينة مع أخويه الطفيل وحصين، أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم، وكانت له منزلة عند رسول الله ﷺ وقدرًا، يكنى بأبي الحارث، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

* **وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي**، ابن عم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصهره؛ إذ كانت تحته فاطمة بنت الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي كانت سبب إسلام أخيها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

* **وأسماء بنت أبي بكر**، كانت متزوجة بالزبير بن العوام حين أسلمت، فرضي الله عنهما وأرضاهما.

* **وخبّاب بن الأرت**، حليف بني زهرة التميمي [1].

الفوج الثالث:

ثم أسلم:

عبد الله بن مسعود بن أم عبد الهذلي. وعمير بن أبي وقاص، أخو سعد بن أبي وقاص. ومسعود بن القارئ بن ربيعة، من القارة، وهم قوم رماة لقبوا بالقارة لاجتماعهم.وسليط بن عمرو، وأخوه حاطب بن عمرو، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخنيس بن حذافة السهمي، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب، وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد: عبد بن جحش من بني أسد، حليفا بني أمية بن عبد شمس، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه خطاب بن الحارث، وامرأته فكيهة بنت يسار، وأخوهما معمر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنحام بن عبد الله بن أسيد. وعامر بن فُهيرة مولى أبي بكر، وفهيرة أمه، وكان عبدًا للطفيل بن الحارث بن سخبرة، فاشتراه الصديق وأعتقه، وخالد بن سعيد بن العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وامرأته أمينة بنت خلف، **ويقال:** همينة، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل، وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم بن يقظة، **وقال ابن هشام:** عَنْسي من مذحج. وصهيب بن سنان أحد النمر بن قاسط، حليف بني

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 95-96.

تَيْم بن مرة، **ويقال:** مولى عبد الله بن جدعان، فعلى أنه عربي، **يقال:** إنه أُسر وهو صغير، فنشأ ببلاد الروم، فصار ألكن[1]، فابتاعته منهم (قبيلة) كَلْب، ثم قدمت به مكة، فاشتراه عبد الله بن جدعان، **ويقال:** إنه رومي وقد جاء في الحديث: «**صهيب سابق الروم**».

ومن السابقين إلى الإسلام: أبو ذر الغفاري، وأخوه أنيس، وأمه، وقصة إسلامه مبسوطة في صحيح البخاري، وفي صحيح مسلم.

وهكذا نجد أنه دخل في الإسلام أرسال من الرجال والنساء، حتى فشا الإسلام بمكة، وتحدث به الناس في كل مكان[2]، وأخذت الدعاية له تنتشر وتعمل عملها في أصحاب الأفئدة الكبيرة، فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولى ويسرعون إلى اعتناق الدين الجديد، وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التي استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الخصبة[3]: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج].

* * *

(1) لا يستقيم لسانه بالعربية.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 288-289.

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص 98.

الفصل السابع

انتشار الدعوة رغم سريتها

اتسمت السنوات الثلاث الأولى من عمر الدعوة بالسرية والتكتم، وغلب عليها مسار دعوة الأفراد فرادى لا جماعات، وسرًّا لا جهرًا، ورغم ذلك انتشر الإسلام في كل قطاعات المجتمع المكي، وفي كل بطونه وطبقاته (الأشراف، والموالي، والعبيد)، وبين الرجال والنساء، والشباب والشيوخ، والأغنياء والفقراء، على حدٍّ سواء.

انتشار الإسلام في فروع قريش:

انضم إلى دعوة الإسلام أفراد من شتى فروع قريش؛ حيث لا تكاد تخلو عشيرة في مكة من شخص أو اثنين دخلا هذا الدين الجديد. وللأستاذ (منير الغضبان) إحصاء بديع في توزيع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذه المرحلة من عمر دعوة الإسلام على بطون قريش المشهورة، نستعرضها كما ذكرها في كتابه القيم (المنهج الحركي للسيرة النبوية)[1]:

أولا: بنو هاشم:

1- علي بن أبي طالب.

2- جعفر بن أبي طالب.

3- أم الفضل بنت الحارث.

4- عبيدة بن الحارث.

5- أسماء بنت عميس (زوج جعفر).

6- خديجة بنت خويلد.

ثانيًا: بنو أمية:

7- عثمان بن عفان.

8- خالد بن سعيد.

---

(1) المنهج الحركي، ص 24-27.

9- أمينة بنت خلف (زوج خالد).

10- حاطب بن عمرو.

11- عبد الله بن جحش.

12- أبو أحمد بن جحش.

13- امرأته فاطمة.

ثالثًا: بنو مخزوم:

14- أبو سلمة بن عبد الأسد.

15- عياش بن أبي ربيعة.

16- عمار بن ياسر (حليف).

17- أسماء زوجة عياش.

18- ياسر بن عامر (حليف).

19- سمية بنت الخياط (زوج ياسر).

20- الأرقم بن أبي الأرقم.

رابعًا: بنو تيم:

21- أبو بكر الصديق.

22- طلحة بن عبيد الله.

23- عامر بن فهيرة (مولى).

24- بلال بن رباح (مولى).

خامسًا: بنو عدي:

25- سعيد بن زيد.

26- فاطمة بنت الخطاب.

27- عامر بن أبي ربيعة (حليف).

28- نعيم بن عبد الله.

29- واقد بن عبد الله (حليف).

30- خالد بن البكير (حليف).

31- عامر بن البكير (حليف).

32- إياس بن البكير (حليف).

سادسًا: بنو زهرة:

33- سعد بن أبي وقاص.

34- عبد الرحمن بن عوف.

35- عمير بن أبي وقاص.

36- عبد الله بن مسعود (حليف).

37- المطلب بن أزهر.

38- خباب بن الأرت (حليف).

39- خنيس بن حذافة.

40- حفصة بنت عمر (زوجه).

سابعًا: بنو جمح:

41- حاطب بن الحارث.

42- امرأته فاطمة.

43- خطاب بن الحارث.

44- امرأته فكيهة.

45- السائب بن عثمان.

ثامنًا: بنو أسد:

46- الزبير بن العوام.

تاسعًا: بنو عامر:

47- أبو عبيدة بن الجراح.

48- سليط بن عمرو.

عاشرًا: قبائل متفرقة:

49- صهيب بن سنان (رومي).

50- مسعود بن ربيعة (من القارة).

51- معمر بن حبيب.

53- عمرو بن عبسة (سلمي).

54- عثمان بن مظعون.

55- قدامة بن مظعون.

56- عبد الله بن مظعون.

57- رملة (زوجه).

وهكذا نرى أن الستين الأوائل هم من كل قطاعات المجتمع المكي.

معرفة قريش بأمر محمد ﷺ وأتباعه:

ترامت أنباء الإسلام والمسلمين إلى قريش، فلم تعرها اهتمامًا، ولعلها حسبت محمدًا ﷺ وأصحابه من أولئك (الحنيفيين)، الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها، كما صنع أمية بن الصلت، وقس بن ساعدة، وعمرو بن نفيل، وأشباههم[1]. وقريش لا تهتم بمثل هؤلاء، طالما أنهم لا يتعرضون لعقائدهم وأصنامها، فقد كان رسول الله ﷺ يتحنث الليالي ذوات العدد قبل البعثة، ويجاور (يعتكف) في غار حراء، ومع ذلك لا تجد قريش غضاضة في ذلك، بل يمكن القول إن قريشًا كانت تهتم بالحنيفيين أكثر مما اهتمت بالمسلمين في المرحلة السرية؛ وذلك لأن الحنفاء كانوا يعلنون شكهم بأصنام قريش وأوثان العرب، بينما لم يعلن المسلمون موقفهم تجاهها.

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 155.

فلم يكن هناك إذًا ما يثير غضب قريش، طالما أن القوم مكتفون بأنفسهم، منكفئون على ذواتهم، فكل امرئ حر أن يعبد الله كما يشاء، طالما أن الدين عقيدة في القلب، وعبادة في المعبد، ولا يتدخل في شئون الحياة. ومن هنا نفهم سر المهادنة التي نراها أحيانًا بين الطغاة وبعض المتدينين من المسلمين، الذين يكتفون من الإسلام بالعقيدة في الضمير، والعبادة في المسجد؛ إذ هؤلاء لا يدخلون الإسلام في شئون الحياة، وبالتالي فلا تهابهم الطغاة [1].

* * *

(1) منير الغضبان: ص 28-30، مختصرًا.

الفصل الثامن

دار الأرقم (مدرسة الدعوة الأولى)

قال ابن إسحاق: (كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة؛ إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلًا من المشركين بِلَحْي بعير فشجه، فكان أول دم أهريق في الإسلام»[1].

بعد هذه المواجهة، اختار رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه مقرًّا للقائه بأصحابه؛ حفاظًا عليهم، وتجنبًا للصدام مع قريش؛ ومن ثم أصبحت هذه الدار المباركة مركزًا للقيادة، ومحضنًا للتربية، ومقرًّا للعبادة، ومدرسة للأولين من الدعاة.

لماذا كان الاختيار؟:

تمتعت دار الأرقم بمميزات لم تتوفر لغيرها من دور المسلمين، فهي:

1- كانت قرب الصفا، وهي منطقة تشتد فيها حركة الناس بصورة طبيعية؛ مما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع وتنفض في هذه الدار[2].

2- لم يكن الأرقم رضي الله عنه هاشميًّا ممن يُظن حمايتهم لرسول الله ﷺ بدافع العصبية القبلية.

3- لم يكن الأرقم رضي الله عنه من رموز الصحابة أو كبارهم، بل كان فتى لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ولن يخطر ببال قريش أن يترك محمد ﷺ دور هؤلاء ويختار دار هذا الفتى لتكون مركزًا لتجمع أصحابه.

ولذا فقد بقيت دار الأرقم مجهولة عن المشركين وأعينهم، فلم نعلم من حوادث السيرة ما يدل على مداهمتهم لها، أو حتى معرفتهم بها، إنما أقصى ما وصلوا إليه هو شكهم أن يكون محمد ﷺ يلتقي أصحابه عند الصفا.

---

(1) سيرة ابن هشام 236/1.

(2) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 195.

أهداف اللقاء في دار الأرقم:

1- في هذه الدار المباركة، كان رسول الله ﷺ يلتقي أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فيتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فكانت قلوب الصحابة وأرواحهم تتفاعل معه، فينهلون من قيمه وسلوكه، ويدركون أن القرآن وحده وتوجيهات نبيهم ﷺ، هما منهج الحياة، وطريق النجاة في الدنيا والآخرة.

2- كان اللقاء المستمر المنتظم، يمكن رسول الله ﷺ من الاستماع إلى أصحابه، والتباحث معهم، وتحسس آلامهم وآمالهم، وحثهم على الصبر والثبات، وتوجيههم فيما يفعلون في أمر الدعوة، وفي جميع أمورهم.

أثر دار الأرقم:

دار الأرقم هي أعظم مدرسة للتربية والإعداد عرفها التاريخ؛ فمنها خرج الرجال الذين حرروا البشرية من رق العبودية، وأخرجوها من الظلمات إلى النور، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وكانوا - في سلوكهم - صورةً حية للإسلام الذي تعلموه من نبيهم ﷺ، فكانوا جيلًا قرآنيًّا فريدًا، لم تعرف البشرية له مثيلًا في الفكر والاعتقاد، أو في السلوك والأخلاق، أو في المشاعر والضمير.

* * *

الفصل التاسع
السمات الثلاثة لهذه المرحلة

أولا: السرية:

وكان الداعي لها هو أن الدعوة لم تكتمل قدراتها على المواجهة بعد، فلما صار لها قاعدة صلبة مستعصية على الإفناء، وبعد السنوات الثلاث الأولى، كان الجهر بها، وكانت المواجهة. ومما يؤكد ذلك أن بعض المسلمين الأولين في غير مكة ممن لم يتمكنوا من تكوين هذه القاعدة الصلبة في قبائلهم في مدة السنوات الثلاث نفسها، بقوا على سريتهم أزمنة أطول حسب إمكاناتهم، حتى أن بعضهم ظل على سريته إلى أن ظهر أمر رسول الله ﷺ.

ثانيًا: التربية .. وعمادها القرآن والصلاة:

كانت آيات القرآن تتنزل على رسول الله ﷺ غضة طرية، فيسمعها أصحابه من فمه مباشرةً، فتُسكب في قلوبهم، وتتسرب في أرواحهم، وتجري في عروقهم مجرى الدم [1]. وكان الوحي يبين لهم جوانب شتى من التوحيد، ويرغبهم في تزكية النفوس، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويصف لهم الجنة والنار كأنها رأي العين، ويعظهم بمواعظ بليغة، تشرح الصدور وتغذي الأرواح، وتحدو بهم إلى جو آخر غير الذي كان فيه المجتمع البشري آنذاك [2].

وكانت الصلاة هي العبادة التي أمر الله بها هؤلاء السابقين الأولين، ولم تعرف لهم عبادات أخرى غيرها، **وقيل:** إنها كانت صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها. **قال ابن إسحاق:** (وحدثني بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر؛ ليريه كيف الطهور، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل ، ثم قام جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ لصلاته، ثم انصرف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجاء رسول الله ﷺ خديجة، فتوضأ لها؛ ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته[3].

---

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص 99.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم.

(3) ابن هشام: السيرة النبوية، 1/ 260-261، ورواه ابن إسحاق مقطوعًا، ووصله الحارث بن أسامة بسنده إلى الزهري، عن أسامة بن زيد، عن أبيه.

وكان من أثر هذه التربية:

أنه لم يرتد أحد عن دينه من هؤلاء عندما وقعت المحنة وابتدأت المواجهة؛ بل كان هؤلاء الذين عاشوا الخطوات الأولى للدعوة، هم القمة في الإسلام فيما بعد، من حيث مستويات إيمانهم، ومستويات سلوكهم، ومستويات جهادهم وتضحياتهم. ويكفي أن نعرف أن أعلى طبقة في الأمة المسلمة - وهي طبقة العشرة المبشرين بالجنة - كانت منهم، باستثناء عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .. هذه الطبقة هي التي كونت جيل القيادة للمجتمع الراشد، وكان اصطفاء الخليفة منها، وتوفي رسول الله ﷺ وهو راض عنها [1].

ثالثًا: الانسياب في المجتمع:

لم تمنع السرية التي انتهجتها الدعوة في سنواتها الثلاث الأولى الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من التحرك الدءوب بين الناس، ومن دعوة آحادهم دعوةً فرديةً، تقوم على الاصطفاء والانتقاء للعناصر التي تصلح أن تتكون منها الجماعة المؤمنة، ولم يُستثن من هذا الاصطفاء طبقة من الطبقات، أو شريحة عمرية، أو اقتصادية، ولم تُهمل المرأة .. بل إن ربع المجتمع المسلم يومئذ كان من النساء، اللواتي حملن الدعوة، وعشن معها هذه المرحلة بكل أبعادها ومتطلباتها.

ولم يتصادم الأولون من المسلمين مع مجتمعهم، ولم يتدخلوا بأي شأن من شئونه، بنقد أو مواجهة أو مخالفة ظاهرة؛ حفاظًا على سرية المرحلة.

* * *

(1) الغضبان: المنهج الحركي، ص 36.



الباب الخامس

الدعوة الجهرية

الفصل الأول: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

الفصل الثاني: **المشركون في مواجهة النور الجديد.**

الفصل الثالث: **الهجرة إلى الحبشة.**

الفصل الرابع: **إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الفصل الخامس: **الحصار في الشعب والمقاطعة العامة.**

الفصل السادس: **عام الحزن.**

الفصل السابع: **دعاء النبي** ﷺ **على قريش.**

الفصل الأول

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

قال ابن هشام: «ثم دخل الناس في الإسلام أرسالًا من النساء والرجال، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتُحدث به. فأمر الله رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن يبادر الناس بأمره، وأن يدعو إليه. وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به، إلى أن أمره الله بإظهار دينه، ثلاث سنين من مبعثه. ثم قال الله له: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر]، وقال له: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشعراء].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما نزلت الآية: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء]، صعد النبي ﷺ على الصفا، **فجعل ينادي:** «يا بني فهر، يا بني عدي - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج، يرسل رسولًا؛ لينظر ما هو .. فجاء أبو لهب وقريش، **فقال النبي** ﷺ: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ **قالوا:** ما جربنا عليك كذبًا. **قال:** فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. **فقال أبو لهب:** تبًّا لك سائر اليوم؛ ألهذا جمعتنا؟! فنزل قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ [المسد]»[1] .

كانت صيحات النبي الكريم ﷺ فوق جبل الصفا، بمثابة الإعلان الأول عن مرحلة تبدأ خطواتها الأولى من جبل الصفا بمكة، وغايتها في الأساس دعوة الناس جميعًا، وحمل الرسالة للعالمين: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان]، فلم تكن رسالته لقومه خاصة كما كان الرسل من قبل، إنما هي رسالة للبشرية جميعًا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ]، ولكن من المنطقي والبديهي أن تكون البداية من مكة، وفي أهلها من قريش؛ حيث عشيرته الأقربون.

ولم تعبأ قريش بدعوة رسول الله ﷺ لهم، واستمرت في طريقها، واستمر رسول الله ﷺ كذلك في طريقه، يدعو إلى ربه، ويتلطف في البلاغ، ويجدد مسعاه في هداية آله الأقربين، فجمع ذويه وأهل قرابته وعشيرته، **فقال:** «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة

---

(1) أخرجه البخاري (4971)؛ ومسلم (208).

ابن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها»[1].

وروى ابن الأثير، **قال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم:** لما أنزل الله على رسوله: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء] اشتد ذلك عليه، وضاق به ذرعًا، فجلس في بيته كالمريض، فأتته عماته يعدنه، **فقال:** ما اشتكيت شيئًا، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي. **فقلن له:** فادعهم، ولا تدع أبا لهب فيهم، فإنه غير مجيبك، فدعاهم فحضروا، ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلًا، فبادره أبو لهب، **وقال:** «هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك، فتكلم ودع الصُّباة! واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة! وأنا أحق من أخذك! فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهُم العرب، فما رأيت أحدًا جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به».

فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم دعاهم ثانية، **وقال:** «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله. والله الذي لا إله إلَّا هو، إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون وإنها للجنة أبدًا، أو النار أبدًا».

فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك!! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أُمِرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب: هذه والله السوأة!! خذوا على يديه قبل أن يأخذكم غيركم.

فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر]، قام رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونواديهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويقول لهم

---

(1) **سأبلها ببلالها:** أي سأصلها بصلتها، والحديث في صحيح مسلم (204).

ما قالته الرسل لأقوامهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:59]، وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم، فكان يصلي بفناء الكعبة نهارًا جهارًا، وعلى رءوس الأشهاد.

وقد نالت دعوته مزيدًا من القبول، ودخل الناس في دين الله واحدًا بعد واحد. وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم، تباغض وتباعد وعناد، واشمأزت قريش من كل ذلك، وساءهم ما كانوا يبصرون[1].

* * *

(1) المباركفوري، الرحيق المختوم.

الفصل الثاني
المشركون في مواجهة النور الجديد

كان رد فعل مشركي قريش على دعوة النبي ﷺ لم يقف عند حد الإدبار والإنكار، فلما عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، أعظموا ذلك وأجمعوا على عداوته، واتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف دعوته، والقضاء عليها:

أولا: منع الوافدين إلى مكة من الاستماع لدعوته ﷺ:

لم يمض على بداية هذه المرحلة الجهرية أشهر معدودة، حتى كان موسم الحج قد قرب، وعلمت قريش أن محمدًا ﷺ لن يجلس في بيته، وأنه حتمًا سيخرج للوفود القادمة إلى مكة يدعوها، وأن هذه الوفود ستسألهم عنه وعما جاء به، ولابد من كلمة يقولونها للعرب، فاجتمعوا يتداولون، وفيهم الوليد بن المغيرة، فسألوه الرأي – وقد كان فيهم مقدمًا – **قال:** بل أنتم فقولوا أسمع. **قالوا:** نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن؛ لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. **قالوا:** فنقول مجنون، **قال:** ما هو بمجنون؛ ولقد رأينا الجنون وعرفناه، وما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته. **قالوا:** فنقول شاعر، **قال:** ما هو بشاعر؛ لقد عرفنا الشعر كله؛ رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. **قالوا:** فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقْدِهم. **قالوا:** فما نقول؟ **قال:** والله، إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق[1] وإن فرعه لجناة[2]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلَّا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن **تقولوا:** ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته .. فتفرقوا عنه بذلك[3].

وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر].

---

(1) **عذق:** نخلة.

(2) **جناة:** ما يجنى من الثمر.

(3) سيرة ابن هشام 1/ 210-211.

وأخذت قريش برأي الوليد بن المغيرة، فجلسوا بالسبل لوفود الحجيج، يذكرون لهم أمر محمد ﷺ، ويحذرونهم منه!! وكان النصيب الأكبر لأبي لهب، الذي كان يسير من خلف رسول الله ﷺ، وكلما عرض نفسه على قوم، ودعاهم إلى الله، **قال**: لا تطيعوه؛ فإنه صابئ كاذب، ومع ذلك صدرت (رجعت) العرب من ذلك الموسم وهي تعلم بأمره ﷺ، ومعرفة ما جاء به.

ثانيًا: الحرب الكلامية:

عمد المشركون إلى مواجهة كلامية، لا تقوم على الحجة والبرهان؛ بل السخرية والاستهزاء والكذب والافتراء، فأكثروا من ذكر رسول الله ﷺ، وسلقوه بألسنة حداد، وأثاروا ضده الشبهات، ورموه بكل نقيصة، وحاولوا تحقير ما جاء به، وظنوا - بسفاهة عقولهم، وغلظة طباعهم، ودواعي الجحود في نفوسهم - أن ما يقولونه بأفواههم سيطفئ نور الله في قلبه، ويشكك المؤمنين في دينهم، ويوهن قواهم، ويضعف عزائمهم .. ولكن ما قريش؟ وما العرب؟ وما الدنيا كلها بإزاء رجال يحملون رسالة الحق إلى البشرية، ويدركون تبعات ذلك؟

(إن الدعوة التي بدأ بها محمد ﷺ من بطن مكة لم تكن لبناء وطن صغير، بل كانت إنشاء جديدًا لأجيال وأمم، تظل تتوارث الحق، وتندفع به في رحاب الأرض، إلى أن تنتهي من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء .. فماذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالة هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها؟!)[1].

وقد اتبع المشركون في حربهم الكلامية مع رسول الله ﷺ أساليب شتى، منها:

الأسلوب الأول: الاتهامات الباطلة:

1- **اتهموه بالكذب**: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ [الفرقان:4].

2- **اتهموه بالسحر**: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص]، ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفرقان].

3- **اتهموه بالجنون**: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر].

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 104.

4- اتهموه بالإتيان بأساطير الأولين: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ ﴾ [الفرقان].

5- قالوا إنه تعلم القرآن من الأعاجم: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾ [النحل].

قال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى مبيع.

6- قالوا إن ما جاء به أضغاث أحلام: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥ ﴾ [الأنبياء].

الأسلوب الثاني: السخرية والاستهزاء:

وقد قال الله تعالى عن ضحكهم وغمزهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ ﴾ [المطففين]، وقال عن استهزائهم: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦ ﴾ [الحجر]، أخبره عن حال أمثالهم مع الرسل من قبله: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٤١ ﴾ [الأنبياء]، **وروى البخاري أن أبا جهل قال مستهزئًا:** (اللَّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ [الأنفال].

وروى البخاري أيضًا: أن امرأة قالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة: (إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثًا (أي لم ينزل عليه الوحي)، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى][1].

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه[2]، وفيه نزل: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ

(1) البخاري (4950)؛ ومسلم (1797).

(2) **الهمز:** الذي يشتم الناس علانية، **واللمز:** الذي يعيب الناس سرًّا.

لُمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة]، واجتمع أشراف قريش يومًا في الحجر يتذاكرون أمر الرسول ﷺ وما جاء به، وبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ليطوف بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ثلاث مرات، **فقال لهم:** «يا معشر قريش، والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح»، وقد فزعوا من هذا الموقف(1).

وكان خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ قينًا بمكة، يعمل السيوف، وكان قد باع للعاص بن وائل السهمي سيوفًا عملها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، **فقال له:** يا خباب، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه، أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟ **قال خباب:** بلى. **قال:** فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب، حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله مني، ولا أعظم حقًّا في ذلك!!(2). فأنزل الله تعالى ردًّا عليه، وتبكيتًا وزجرًا له: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾ [مريم].

الأسلوب الثالث: إثارة الشبهات:

1- قالوا: إن مكانة النبوة أعظم من أن تُعطى لبشر: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان].

2- وقالوا: إن النبوة أعظم من أن تُعطى لهذا اليتيم المسكين: فكان الوليد بن المغيرة **يقول:** أيُنزَّل على محمد، وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها، ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين؟! فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف].

3- وقالوا: إنه يدعي البعث بعد الموت، وذلك رجع بعيد: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق]، ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ].

---

(1) رواه أحمد (7157)، وابن حبان (6567).

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، 1/ 333.

4- وقالوا: إنه شاعرٌ، صاغ القرآن كما يصوغ الشعراء قصائدهم: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يس:69]، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الطور].

5- وقالوا: إن له جنًّا أو شيطانًا يتنزل عليه بالقرآن: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء].

ثالثًا: جحود المشركين بالقرآن ومنعهم الاستماع إليه:

أدركت قريش - بحسها وفطرتها - أن محمدًا ﷺ نبي يوحى إليه من ربه، وأن القرآن الذي جاء به لا يمكن أن يكون من عند البشر، ولا من أقوال الكهان أو الشعراء .. ومع ذلك جحدوا به؛ عنادًا وبغيًا وحسدًا من عند أنفسهم.

روى إسحاق بن راهويه بسنده عن ابن عباس، أن الوليد بن المغيرة، جاء إلى رسول الله ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه **فقال**: يا عم! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا. **قال**: لم؟ **قال**: ليعطوكه؛ فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قِبَلَه.

قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا.

قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك منكر له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله؛ ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أفكر فيه.

فلما فكر **قال**: إن هذا إلَّا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾ [المدثر] .. الآيات.

وروى الإمام عبد بن حميد في «مسنده»، بسنده عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال**:

اجتمعت قريش يومًا، **فقالوا:** انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر؛ فليأت هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يرد عليه.

فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد!

فأتاه عتبة، **فقال:** يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، **فقال:** أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ.

ثم **قال:** إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك؛ فقد عبدوا الآلهة التي عِبتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم؛ حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك؛ فرقت جماعتنا، وشتّتّ أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا .. والله ما ننتظر إلى مثل صيحة الحبلى، أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى .. أيها الرجل! إن كان إنما بك الحاجة (الفقر)، جمعنا لك؛ حتى تكون أغنى قريش رجلًا واحدًا، وإن كان إنما بك الباءة؛ فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا.

فقال رسول الله ﷺ: «فرغت؟». **قال:** نعم. **فقال رسول الله ﷺ:**

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت]. إلى أن بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت].

فقال عتبة: حسبك، ما عندك غير هذا؟ **قال:** «لا».

فرجع إلى قريش، **فقالوا:** ما وراءك؟ **قال:** ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلَّا كلمته.

قالوا: فهل أجابك؟ **فقال:** نعم. ثم **قال:** لا والذي نصبها بيّنة؛ ما فهمت شيئًا مما قال؛ غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟!

قال: لا والله؛ ما فهمت شيئًا مما قال، غير ذكر الصاعقة.

وقد رواه البيهقي وغيره عن الحاكم بسنده، وزاد:

وإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك، فكنت رأسًا ما بقيت. وعنده أنه لما قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت]، أمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله، واحتبس عنهم.

فقال أبو جهل: والله يا معشر قريش! ما نرى عتبة إلَّا صبأ إلى محمد، وأعجبه كلامه، وما ذاك إلَّا من حاجة (ضائقة) أصابته، انطلقوا بنا إليه. **فقال أبو جهل:** والله يا عتبة! ما جئنا إلَّا أنك صبوت إلى محمد، وأعجبك أمره، فإن كان بك حاجة، جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد.

فغضب، وأقسم بالله لا يكلم محمدًا أبدًا، **وقال:** لقد علمتم أني من أكثر قريش مالًا، ولكني أتيته - وقص عليهم القصة - فأجابني بشيء، والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة، قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت]، فأمسكت بفيه، وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب.

وروى البيهقي بسنده عن المغيرة بن شعبة، قال:

إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة؛ إذ لقينا رسول الله ﷺ، **فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل:** «يا أبا الحكم! هلم إلى الله وإلى رسوله، أدعوك إلى الله».

فقال أبو جهل: يا محمد! هل أنت منتهٍ عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلَّا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك.

فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل (أبو جهل) عليَّ **فقال:** والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن يمنعني شيء؛ إن بني قصي **قالوا:** فينا الحجابة. **فقلنا:** نعم. ثم **قالوا:** فينا السقاية. **فقلنا:** نعم. ثم **قالوا:** فينا الندوة. **فقلنا:** نعم. ثم **قالوا:** فينا اللواء. **فقلنا:** نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكّت الركب **قالوا:** منا نبي! والله لا أفعل.

وروى ابن إسحاق في سيرته عن الزهري، **قال:** حُدّثت أن أبا جهل، وأبا سفيان، والأخنس بن شَرِيق، خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل منهم مجلسًا، فيستمع منه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، **وقال بعضهم لبعض:** لا تعودوا؛ فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا!!

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، **فقالوا:** لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا!!

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، **فقال:** أخبرني يا أبا حَنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ **فقال:** يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها، **فقال الأخنس:** أنا والذي حلفت به كذلك!!

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، **فقال:** يا أبا الحكم، فما رأيك فيما سمعت من محمد؟ **فقال:** ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطَوْا فأعطينا، حتى إذا تجاثَيْنا على الرُّكَب وكنا كفرسَيْ رهان، **قالوا:** منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ فوالله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه!!

وقد اتخذ المشركون بإزاء القرآن مواقف الصدود والإعراض والإلهاء والتشويش .. ومنعوا الناس من الاستماع إليه وتدبر آياته، **وكان من أساليبهم في ذلك:**

1- سب القرآن:

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء:110] ورسول الله ﷺ متوار بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء:110] **أي:** بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء:110] عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:110][1].

2- التهكم والسخرية من آيات القرآن:

لما ذكر الله ﷻ شجرة الزقوم في القرآن، **قال أبو جهل:** يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ **قالوا:** لا. **قال:** عجوة يثرب بالزبد، والله لو استمكنا منها لنتزقمنها تزقمًا - أي: لنبتلعنها ابتلاعًا[2] - فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان].

---

(1) البخاري (7526)، والطبراني في المعجم الكبير (11574).

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، (332/1).

3- التشويش:

كان المشركون يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن، فكانوا يطردون الناس، ويثيرون الشغب والضوضاء، ويتغنون ويلعبون، إذا رأوا النبي ﷺ يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلي ويتلو القرآن. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]، حتى إن النبي ﷺ لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم في مجامعهم ونواديهم إلَّا في أواخر السنة الخامسة من النبوة، وذلك أيضًا عن طريق المفاجأة، دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة [1].

4- الاحتجاج والمخاصمة في القرآن:

قال ابن إسحاق: وجلس رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء]، ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي حتى جلس.

فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفًا وما قعد[2]، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم!!

فقال عبد الله بن الزبعري: أما - والله - لو وجدته لخصمته (حاججته)، فسلوا محمدًا أكل من نعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرًا، والنصارى تعبد عيسى (فهل هؤلاء حصب جهنم؟).

فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعري، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ .. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء]؛ **أي:** عيسى ابن مريم، وعزيرًا، ومن عُبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى.

---

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم.

(2) **أي:** لم يقوَ على مواجهة حجج النبي ﷺ.

ونزل في إعجاب المشركين بقول ابن الزبعري: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف].

5- التواصي بعدم استماع القرآن:

كان المشركون يتواصون بعدم الاستماع للقرآن، فكان إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن تفرقوا عنه، وبعضهم يغطي نفسه بثوبه؛ كيلا يسمع، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود]. وأعلنوا رسول الله ﷺ أنهم لن يسمعوا منه القرآن بأي حال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت].

6- محاولة إلهاء الناس عن الاستماع إلى القرآن:

كان النضر بن الحارث - أحد شياطين قريش - قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته، خلفه النضر، **ويقول:** أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ثم **يقول:** بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟[1].

وفي رواية عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن النضر كان قد اشترى قينة، (مغنية)، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلَّا انطلق به إلى قينته، **فيقول:** أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:6].

7- الرهان على عدم وقوع ما أكد القرآن وقوعه:

أورد البيهقي قصة فارس والروم، ونزول قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم].

ثم روى عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال:

---

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم.

كان المسلمون يحبون أن يظهر (ينتصر) الروم على فارس؛ لأنهم أهل الكتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أهل أوثان، فذكر ذلك المسلمون لأبي بكر، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، **فقال:** «أما إنهم سيظهرون».

فذكر ذلك أبو بكر للمشركين، **فقالوا:** اجعل بيننا وبينك (رهانًا) إن ظهروا لك كذا وكذا، وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا. فجعل أجلًا خمس سنين، فلم يظهروا.

فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، **فقال:** «ألا جعلته - أراه قال: - دون العشر؟».

فظهرت الروم بعد ذلك.

فائدة: أول من جهر بالقرآن:

اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ، **فقالوا:** والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر به قط، فمن الرجل يسمعهم إياه؟ **فقال عبد الله بن مسعود:** أنا!! **قالوا:** إنا نخشاهم عليك؛ إنما نريد رجلًا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، **قال:** دعوني فإن الله سيمنعني.

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام، ثم قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ رافعًا بها صوته: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن].

ثم استقبلها يقرؤها، فتأملوه، فجعلوا **يقولون:** ماذا قال ابن أمِّ عبدٍ؟! ثم **قالوا:** إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد!، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها (من السورة) ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثَّروا في وجهه، **فقالوا له:** هذا الذي خشيناه عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا، **قالوا:** لا، حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون[1].

رابعًا: تهديد أبي طالب:

أبو طالب من رجالات مكة المعدودين .. كان معظمًا في أهله، معظمًا بين الناس، فما يجرأ أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته،وكان بقاؤه مع أهل مكة - محترمًا للأوثان - من أسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه، وبرغم بقائه على الشرك واستمساكه بدين الآباء، ظل حي العاطفة، ظاهر الحدب على ابن أخيه، وهو مدرك - كل الإدراك - ما سوف تجره هذه الدعوة من متاعب عليه

(1) **انظر:** أبو شهبة: السيرة النبوية، ص 314.

وعلى أسرته، بيد إن إعزازه لمحمد ﷺ وتأذيه من مواجهته بما يكره، حملاه على ضمان الحرية له؛ بل على التعهد بحمايته وهو يبلغ عن ربه[1].

ولما مضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، مشت قريش إلى أبي طالب، **فقالوا له**: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وأقسموا بأنه لن يصبروا على أفعاله حتى يكفه عنهم أو ينازلوه وإياه في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين[2]، فأرسل أبو طالب عقيلًا ابنه إلى النبي ﷺ، فلما حضر، **قال له عمه** - كما في رواية ابن إسحاق: (إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، **فقال**: أترون هذه الشمس؟ **قالوا**: نعم، **قال**: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة (أي: أني لا أقدر أن أترك هذا الأمر، كما لا تقدرون أنتم على إشعال شعلة من الشمس)، **فقال أبو طالب**: والله ما كذبنا ابن أخي، فارجعوا»[3].

خامسًا: محاولة قتل النبي ﷺ:

* أبو جهل يحاول قتل النبي ﷺ:

وقد حمل كِبْر هذا الإثم أبو جهل، فرعون هذه الأمة، فقد **قال**: يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبى إلَّا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسنَّ له غدًا بحجر، فإذا سجد في صلاته فدخت به رأسه. فليصنع بنو عبد مناف ما بدا لهم.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله يصلي بين الركنين: الأسود واليماني، وغدت قريش، فجلسوا في أنديتهم ينتظرون، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه متلصصًا، حتى إذا دنا منه رجع منبهتًا، منتقعًا لونه، مرعوبًا، قد يبست يداه على حجره من الخوف حتى قذف الحجر من يده، فقام إليه رجال من قريش، **فقالوا له**: ما بك يا أبا الحكم؟! **قال**: قمت إليه لأفعل ما صممت عليه البارحة، فلما دنوت منه عَرَض لي فحلٌ من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته، ولا قَصَرته، ولا أنيابه لِفَحْل قط،

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 103.

(2) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 166.

(3) رواه البخاري في (التاريخ)، والبيهقي عن الحاكم.

فهمَّ أن يأكلني. **قال ابن إسحاق:** فذُكر لي أن رسول الله ﷺ **قال:** «ذلك جبريل، ولو دنا منه لأخذه».

وفي مرة أخرى، قال: إنَّ لله عليَّ إن رأيت محمدًا ساجدًا لأطأنَّ عنقه، ولأعفرنَّ وجهه بالتراب، فأتى رسول الله ﷺ ليطأ رقبته، فما فجئهم منه إلَّا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، **فقيل له:** ما لك؟ **فقال:** إن بيني وبينه خندقًا من نار، وهولًا، وأجنحة، **فقال النبي** ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة»[1].

* النبي ﷺ لا يهاب المواجهة:

روى ابن إسحاق قال: قدم رجل من إراش[2] بإبل له إلى مكة، فابتاعها - أي اشتراها - منه أبو جهل، فمطله بأثمانها، فأقبل الإراشي (شاكيًا) حتى وقف على نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في ناحية من المسجد، **فقال:** يا معشر قريش، من رجل يعديني[3] على أبي الحكم بن هشام؟؛ فإني غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقي، **فقال أهل المجلس:** ترى هذا؟ - وأشاروا إلى رسول الله ﷺ؛ لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة - اذهب إليه، فهو يعديك (ينصرك) عليه، يريدون الاستهزاء به، فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فقام معه، فلما رأوه قام معه **قالوا لرجل ممن معهم:** اتبعه، فانظر ما يصنع.

فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه، فضرب عليه بابه، **فقال:** من هذا؟ **قال:** «محمد، فاخرج»، فخرج إليهم وما في وجهه قطرة دم، وقد انتقع لونه، **فقال:** «أعطِ هذا الرجل حقه» **قال:** لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل، فخرج إليه بحقه، فدفعه له، ثم انصرف رسول الله ﷺ، **وقال للإراشي:** «الحق لشأنك»، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس، **فقال:** جزاه الله خيرًا، فقد أخذت الذي لي!!

ولما جاء الرجل الذي أرسلوه ليرى ما يصنع أبو جهل، **قالوا له:** ويحك ماذا رأيت؟ **قال:** عجبًا من العجب! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه، **فقال له:** «أعطِ هذا الرجل حقه» فأعطاه!!

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية 1/ 295، والحديث في صحيح مسلم (2797).

(2) اسم قبيلة.

(3) ينصرني.

ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فلاموه، **وقالوا ساخرين منه:** فوالله ما رأينا مثل الذي فعلت**!!** **فقال:** ويحكم، ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعت صوتًا فملئت رعبًا**!** وإن فوق رأسه فَحْلًا من الإبل ما رأيت مثل هامته، ولا قَصَرته، ولا أنيابه لِفَحْلٍ قط**!!** فوالله لو أبيت لأكلني**!!**

ومرة أخرى: اجتمع أشرافهم في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، **فقالوا:**

ما رأينا مثل صبرنا على هذا الرجل قط؛ سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسب آلهتنا، وصرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفًا بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعُرف ذلك في وجهه، فمضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، ثم مرَّ بهم الثالثة، ففعلوا مثل ذلك، فأقبل عليهم قائلًا: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح»، فأخذت (أخافت) القوم كلمتُه، حتى ما منهم من رجل إلَّا وكأنما على رأسه طائر وقع، حتى إن أشدهم فيه وصَاة بإيذائه ليرفؤه(1) ويلاطفه، **ويقول له:** انصرف أبا القاسم راشدًا، فما كنت بجهول**!!**

وهكذا كان الواحد منهم يأتي إليه قاصدًا الشر، أو ينال منه بالسب، فإذا واجهه النبي ﷺ اضطرب، وتلعثم، وخارت قواه(2).

سادسًا: الاستعانة باليهود:

كان النضر بن الحارث شيطان قريش، وكان أخبثهم نفسًا، وأشدهم عداوةً لرسول الله ﷺ والمؤمنين؛ إذ هو **القائل:** أنا أحسن حديثًا من محمد ﷺ، وكان يقص أخبار ملوك فارس، ويقول: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:93]، وهو الذي قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]، ونزل فيه أيضًا قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾ [المعارج]. فلما أعيته وأعيت قريش الحيل في مواجهة ما جاء به محمد ﷺ من الحق، قام في قومه، **وقال:** يا معشر قريش إنه - والله - قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد، فقد كان فيكم محمد غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم،

---

(1) يهدئه.

(2) ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص 289.

وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، قلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه.. يا معشر قريش فانظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم[1].

فكلفته قريش أن يذهب إلى يهود المدينة، يسألهم عن أمر محمد ﷺ، وعن قوله الذي يقول، ودعوته التي يدعو إليها، وكان معه عقبة بن أبي معيط ..

روى ابن إسحاق عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال:

بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار المدينة، **فقالوا لهما:** سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، فإنهم أهل الكتاب، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المدينة، فسألاهم عنه، ووصفا لهم أمره، **فقالت لهم أحبار اليهود:** سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلَّا فهو رجل متقول: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب (يقصدون: أصحاب الكهف)، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، فما كان نبؤه؟ (يقصدون: ذا القرنين)، وسلوه عن الروح ما هو؟

فأقبلا حتى قدما مكة، فقالوا قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار يهود، أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فسألوه عما أخبرهم أحبار يهود، فجاءه جبريل بسورة الكهف فيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وجاءه بقوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء:85].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال**[2]: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، أتوه، **فقالوا له:** نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من فوقه، يزعم أنه خير منا؟ قال: بل أنتم خير منه!! فنزلت عليه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النساء].

---

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 106.

(2) أخرجه ابن جرير في التفسير بإسناد صحيح، رجاله رجال الصحيح، كذا قال الألباني في صحيح السيرة، **وقال ابن كثير في التفسير:** رواه البزار وإسناده صحيح.

سابعًا: سؤالهم الآيات للتعجيز:

قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيما اعترض به المشركون على رسول الله ﷺ، وما تعنتوا له في أسئلتهم إياه، أنواع من الآيات وخرق العادات على وجه العناد، لا على وجه طلب الهدى والرشاد، فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما طلبوا، ولا ما إليه رغبوا؛ لعلم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما أرادوا لاستمروا في طغيانهم يعمهون، ولظلوا في غيهم وضلالهم يترددون[1] قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام].

وكان مما سألت قريش رسول الله ﷺ من الآيات ما يلي:

1- أن يجعل لهم جبل الصفا ذهبًا:

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك. **قال:** (وتفعلوا؟)، **قالوا:** نعم. **قال:** فدعا، فأتاه جبريل، **فقال:** إن ربك يقرأ عليك السلام، **ويقول لك:** إن شئت أصبح الصفا لهم ذهبًا، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فُتحت لهم باب الرحمة والتوبة. **قال:** «بل باب التوبة والرحمة»[2].

2- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس:78]:

قال ابن إسحاق: مشى أُبي بن خلف بعظم بال، قد أرم، **فقال:** يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم؟ ثم فته بيده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ، **فقال:** «نعم، أنا أقول لك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك النار».

فأنزل الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس]. إلى آخر السورة ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) الألباني: صحيح السيرة، ص76.

(2) رواه أحمد (2200)؛ والحاكم (174)، وقال الألباني: إسناده جيد.

وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس].

3- **(لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا):**

قال ابن هشام: ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة وهم عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمية بن خلف، ومن اجتمع إليهم، **قال:** اجتمعوا عند غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم **قال بعضهم لبعض:** ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك، فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا وهو يظن أنه قد بدا لهم فيما كلموه بدءًا، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، **فقالوا:**

يا محمد إنا وقد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله لا نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك؛ لقد سببت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلَّا قد جئته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - وإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تطلب به الشرف فينا فنحن نسوِّدك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك، وإن كان الذي يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئيًا - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم - أو كما قال.

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشًا منا، فاسأل ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار

الشام والعراق، وليبعث من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب؛ فإنه كان شيخ صدق، فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولًا كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت إليكم، وإنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوّه علي فأصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا فخذ لنفسك: سل ربك أن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وأما لا فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغي؛ فإنك تقوم في الأسواق، تلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا - أو كما قال - فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفًا، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل.

قال: فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك بما تراجعنا به ويخبرك بما هو في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، إنه قد بلغنا إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا.

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله.

وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلًا.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة -وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب - **فقال له:** يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك عند الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك ومنزلتك من الله فلم تفعل، ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم من العذاب فلم تفعل - أو كما قال له - فوالله لا أؤمن بك أبدًا

حتى تتخذ سلمًا إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك معه أربعة من الملائكة، يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله، وانصرف إلى أهله حزينًا آسفًا لما فاته مما كان طمع به من قومه حين دعوه(1).

وقال سبحانه حكاية لمقالتهم(2):

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٩ ﴾ [الفرقان].

وقد ردَّ الله عليهم بأن أكل الطعام والمشي في الأسواق والسعي على الرزق، من سنن الأنبياء والرسل، فالنبي في هذا ليس ببدع، فقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ۝٢٠ ﴾ [الفرقان].

كما بيَّن لهم أن الله لم يرسل رسولًا للبشر إلَّا منهم، ولم تجر سنته بأن يرسل للبشر ملائكة، فقال عز شأنه:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ﴾ [الأنبياء].

﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ۝٩ ﴾ [الأنعام].

4- أراهم انشقاق القمر، فلم يؤمنوا:

سأل المشركون رسول الله ﷺ آية، فأراهم القمر شقين، **فقالوا:** سحرنا محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ ﴾ [القمر].

(1) مختصر السيرة، ص 101-102.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 318.

والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له في حالة انشقاقه متواترة، تتفق في إثبات وقوع الحادث، وتختلف في هيئته:

– عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** انشق القمر في عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، **فقال** ﷺ: «اشهدوا»(1).

– وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما(2).

– وعن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، **فقالوا:** سحرنا محمد، **فقالوا:** إن كان سحرنا، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم(3).

– وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ، منهم الوليد ابن المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، والنضر بن الحارث، ونظراؤهم، **فقالوا للنبي** ﷺ: إن كنت صادقًا، فشق لنا القمر فلقتين، فسأل ربه فانشق(4).

ونقل صاحب كتاب (إظهار الحق) عن المقالة الحادية عشر من (تاريخ فرشته): أن أهل (مليبار) من إقليم الهند رأوه أيضًا، «أي: حادث انشقاق القمر»(5).

وذكر الحافظ المزي عن ابن تيمية أن بعض المسافرين، ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناءً قديمًا، **مكتوبًا عليه:** «بني ليلة انشق القمر»(6).

ثامنًا: إيذاء الصحابة - رضوان الله عليهم:

قرر المشركون ألا يألوا جهدًا في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه، والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام.

---

(1) البخاري (3636)، ومسلم (2800).

(2) البخاري (3868).

(3) رواه أحمد (17022).

(4) رواه أبو نعيم في الدلائل.

(5) سعيد حوي: الرسول ﷺ، ص321.

(6) المصدر السابق.

ومنذ جهر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله، وعالن قومه بضلال ورثوه عن آبائهم، انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاة ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباحت في الحرم الآمن دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وجعلت مقامهم تحملًا للضيم، وتوقعًا للويل.

وصاحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخرية والتحقير، قصد بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرمي النبي ﷺ وصحابته بتهم هازلة، وشتائم سفيهة، وتألفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله، على نحو ما تفعل الصحافة عندما تنشر عن الخصوم نكاتًا لاذعة، وصورًا مضحكة؛ للحط من مكانتهم لدى الناس[1].

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد، فجلس عليها (أي على جلسته) المستضعفون من أصحابه: خباب، وعمار، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية، وصهيب، وأشباههم من المسلمين، هزئت به قريش، **وقال بعضهم لبعض:** هؤلاء أصحابه كما ترون؟ أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى ودين الحق؟! لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا. فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]، وكانوا إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ، يتغامزون بهم **ويقولون:** قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدًا على ملك كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون.

وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **المستهزئون:** الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب أبو زمعة، والحارث بن عطيل، والعاص بن وائل السهمي.

ومن مواقف ازدرائهم لأصحاب النبي ﷺ ما رواه خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** جاء الأقرع ابن حابسٍ التميمي وعيينة بن حصنٍ الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيبٍ وبلالٍ وعمارٍ وخبابٍ قاعدًا في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأواهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به، **وقالوا:**

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص106.

إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسًا، تعرف لنا به العرب فضْلَنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأَعْبُد! فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. **قال:** (نعم). **قالوا:** فاكتب لنا عليك كتابًا.

قال: فدعا بصحيفةٍ، ودعا عليًّا ليكتب - ونحن قعودٌ في ناحيةٍ - فنزل جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، **فقال:** ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام].

ثم ذكر الأقرع بن حابسٍ وعيينة بن حصن، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام].

ثم قال: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:54]. **قال (خباب):** فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وهو يقول: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:54].

وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف:28]، ولا تجالس الأشراف: ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف:28] - يعني: عيينة والأقرع ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف]، **قال (خباب):** فرطا أي هَلاكًا؛ **قال:** أمر عيينة والأقرع، ثم ضرب (الله بعد ذلك) لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا (أي في آيات سورة الكهف).

قال خبابٌ: فكنا نقعد مع النبي ﷺ، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم(1).

ترهيب من آمن:

قال ابن إسحاق: كان أبو جهل إذا سمع عن رجل قد أسلم وله شرف ومنعة، أنبه وأخزاه، **وقال له:** (تركت دين أبيك، وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنضعفن رأيك، ولنضعن شرفك)، وإن كان تاجرًا **قال له:** لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به(2).

---

(1) رواه البيهقي في الدلائل، وابن ماجه والسياق له، وأبو نعيم في الحلية.

(2) ابن هشام (395/1).

الإيذاء البدني والتعذيب:

ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لم تجد نفعًا في إحباط الدعوة الإسلامية، استشاروا فيما بينهم، فقرروا القيام بتعذيب المسلمين وفتنتهم عن دينهم، فأخذ كل رئيس يعذب من دان من قبيلته بالإسلام، وانقض كل سيد على من اختار من عبيده طريق الإيمان، وكان من الطبيعي أن يهرول الأذناب والأوباش خلف سادتهم وكبرائهم، ويتحركوا حسب مرضاتهم وأهوائهم، فجروا على المسلمين (ولاسيما الضعفاء منهم) ويلات تقشعر منها الجلود، وأخذوهم بنقمات تتفطر لسماعها القلوب (1).

روى ابن إسحاق، عن سعيد بن جبير، **قال:** قلت لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟

قال: نعم، والله إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى **يقولوا له:** اللات والعزى إلهك من دون الله؟ **فيقول:** نعم، حتى إن الجعل (دويبة من دواب الأرض) ليمر بهم، **فيقولون له:** أهذا إلهك من دون الله؟ **فيقول:** نعم؛ افتداء منهم مما يبلغون من جهده. وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل].

لقد تجرع الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ألوانًا من العذاب، حتى مات بعضهم، ولم يثنهم ذلك عن دين الله، وكان أحدهم إذا أصابه شيء من الضعف الإنساني، أتى إلى النبي ﷺ فيعظه ويذكره بأن البلاء من علامات صحة الطريق، فيرجع راضيًا مطمئنًا، صابرًا على البلاء. روي عن خباب بن الأرت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه **قال:** أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، **فقلت:** ألا تدعو الله لنا؟ فقعد، وهو محمر وجهه، **وقال:** «قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلَّا الله، والذئب على غنمه»، **وفي رواية:** «ولكنكم تستعجلون»(2).

---

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم.

(2) رواه البخاري (3612).

ولم يسلم من هذا الإيذاء والتعذيب أشراف المسلمين ولا الموالي ولا النساء.

ما تعرض له أشراف قريش المسلمون من التعذيب:

الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه لَمَّا اجتمع أصحاب النبي ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا، ألح أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسول الله ﷺ في الظهور، **فقال:** «يا أبا بكر إنا قليل»، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر، وعلى المسلمين، فضربوهم في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، وَوُطِئ أبو بكر، وضُرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويُحرِّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم (قوم أبي بكر) يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحَمَلتْ بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، **وقالوا:** والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار، **فقال:** ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسَّوا منه بألسنتهم وعذلوه، **وقالوا لأمه أم الخير:** انظري أن تطعميه شيئًا، أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه (أن يأكل أو يشرب)، وجعل **يقول:** ما فعل رسول الله ﷺ؟ **قالت:** والله ما لي علم بصاحبك، **فقال:** اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب (وكانت مسلمة)، فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل، **فقالت:** إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، **فقالت:** ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله (كي لا تعرف بإسلامها)، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، **قالت:** نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دَنفًا، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، **وقالت:** والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، إنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، **قال:** فما فعل رسول الله ﷺ؟ **قالت:** هذه أمك تسمع، **قال:** فلا شيء عليك منها. **قالت:** سالم صالح. **قال:** أين هو؟ **قالت:** في دار الأرقم، **قال:** فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، **فقال:** فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة، **فقال أبو بكر:** بأبي

وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلَّا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادع الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار، **قال:** فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الله، فأسلمت(1).

عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عندما أسلم عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية، فأوثقه رباطًا، وأقسم ألَّا يحله إلَّا إذا ترك الإسلام، وكان يلفه في حصر من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته، فلما رأى صلابته في دينه تركه.

الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وكذلك فعل عم الزبير بن العوام مع الزبير، فكان يعلقه في حصر، ويدخن عليه النار، **ويقول:** ارجع عن دينك، **فيقول الزبير:** لا أكفر أبدًا(2).

طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أخذه نوفل بن خويلد العدوي، وأخذ معه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وربطهما بقيد؛ ليمنعهما عن الإسلام وعن الصلاة، فلم يجيباه؛ ولذا سميا بالقرينين.

عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عذبه أمية بن خلف وقومه (بنو جمح)، حتى هاجر إلى الحبشة، وعاد منها ضمن من عاد في المرة الأولى، ودخل مكة في جوار الوليد بن المغيرة، فظل بذلك آمنًا مطمئنًا، فلما رأى ما يصيب غيره من أصحاب النبي ﷺ من البلاء، أنكر على نفسه ذلك، ورد على الوليد جواره. **روى ابن إسحاق:** فذهب إلى الوليد بن المغيرة، **وقال له:** يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك، **فقال:** لم يا ابن أخي؟ فلعلك أوذيت، أو انتهكت، **قال:** لا، ولكن أرضى بجوار الله تعالى، ولا أريد أن أستجير بغيره، **قال:** فانطلق إلى المسجد فاردد عليَّ جواري علانية، كما أجرتك علانية، فانطلقا إلى المسجد فرد عليه جواره أمام الناس، ثم انصرف عثمان إلى مجلس من مجالس قريش، فجلس معهم، وفيهم لبيد بن ربيعة، الشاعر ينشدهم، **فقال لبيد:** «ألا كل شيء ما

---

(1) ابن كثير: السيرة النبوية (1/439-441)، البداية والنهاية (3/30).

(2) الحاكم: المستدرك (3/360)، وأبو نعيم في الحلية (1/89).

خلا الله باطل»، **قال عثمان:** صدقت، واستمر لبيد في إنشاده **فقال:** «وكل نعيم لا محالة زائل»، **فقال عثمان:** كذبت، نعيم الجنة لا يزول، قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ **فقال رجل من القوم:** إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه، فاخضرت، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، **فقال:** أما والله يا ابن أخي إن عينك لغنية عما أصابها، ولقد كنت (معي) في ذمة (حماية) منيعة، **فقال عثمان:** والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، ثم عرض عليه الوليد الجوار مرة أخرى، فرفض.

خالد بن سعيد بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كان إسلام خالد قديمًا، لرؤيا رآها عند أول ظهور النبي ﷺ؛ إذ رأى كأنه وقف على شفير النار، وهناك من يدفعه فيها، والرسول ﷺ يلتزمه لئلا يقع، ففزع من نومه، معتقدًا أن هذه الرؤيا حق، فقصها على أبي بكر الصديق، **فقال له:** أُرِيدَ بك خير، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، فذهب إليه فأسلم، وأخفى إسلامه خوفًا من أبيه، لكن أباه علم لمَّا رأى كثرة تغيبه عنه، فبعث إخوته الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد في طلبه، فجيء به، فأنبه، وضربه بمقرعة، أو عصًا كانت في يده، حتى كسرها على رأسه، ثم حبسه بمكة، ومنع إخوته من الكلام معه، وحذرهم من عمله، ثم ضيق عليه الخناق فأجاعه، وقطع عنه الماء ثلاثة أيام، وهو صابر محتسب، **ثم قال له أبوه:** والله لأمنعنك القوت، **فقال خالد:** إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ، فكان يكرمه، ويكون معه، ثم رأى أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها من المسلمين في المرة الثانية(1).

سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

محنة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت مختلفة عن غيره من أصحاب النبي ﷺ .. كانت محنته في أمه؛ فقد كان بارًّا بها، فلما أسلم هددته أن تمتنع عن الطعام والشراب حتى تموت فيعير بها، **فقال لها:** يا أُمَّه، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي، فأكلت(2).

---

(1) **انظر:** سير أعلام النبلاء (1/260)، والصلابي: السيرة النبوية، (ص 160).

(2) **انظر** تفسير ابن كثير، الآية (15)، (3/446).

روى مسلم: أن أم سعد حلفت ألَّا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، **قالت:** زعمت أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، **قال:** مكثت ثلاثًا حتى غُشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله في القرآن الكريم هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت]، وأنزل فيها أيضًا: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:15].

مصعب بن عمير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ**:**

كان مصعب بن عمير فتى مكة شبابًا وجمالًا وتيهًا، وكانت أمه غنية كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون الثياب(1)، وكان رسول الله ﷺ كلما ذكره **قال:** «ما رأيت بمكة أحدًا أحسن لمة، ولا أرق حلةً، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير».

ولما علم مصعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بأمر رسول الله ﷺ، أسلم وصدق به، وكتم إسلامه؛ خوفًا من أمه وقومه، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي، فأخبر أمه وقومه، فأخذوه وحبسوه، فلم يزل محبوسًا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا، فرجع متغير الحال، قد حرج (يعني: غلظ)، فكفت أمه عنه(2).

وقد روى ابن إسحاق عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، **قال:** لقد رأيته (أي: مصعب بن عمير) جهد في الإسلام جهدًا شديدًا، حتى لقد رأيت جلده يتحشف (أي يتطاير) تحشُّف جلد الحية عنها، حتى إن كنا لنعرضه على عتبنا(3)، فنحمله؛ مما به من الجهد.

ما تعرض له المستضعفون والموالي والعبيد:

بلال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ**:**

كان مولاه أمية بن خَلَف الجمحي قاسيَ الكبد، غليظ القلب؛ لا ينبض قلبه بقطرة من الرحمة، فكان يخرجه إلى بطحاء مكة إذا حميت الشمس في الظهيرة، والرمضاء في هذا الوقت تكاد

(1) أبو الحسن الندوي: سيرة خاتم النبيين ﷺ، (ص60).

(2) المصدر السابق، (ص61)، بتصرف.

(3) **العتب:** الرحل الذي يوضع حول سنام البعير تحت الراكب.

تنضج اللحم الطري، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم **يقول له:** لا - والله - لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى.

ولكن بلالًا لا يعبأ بالآلام ولا بالبلاء، فلا ينفك **يردد ويقول:** «أحد .. أحد»، وكان **يقول:** «لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها»، وقد هانت نفس بلال عليه في الله، فتحمل ما تحمل بقلب مؤمن، ونفس راضية مطمئنة.

وهان هو على مواليه، فكانوا يجعلون في عنقه حبلًا، ويدفعون به إلى الصبيان، يلعبون به، حتى أثر الحبل في عنقه، فما صرفه ذلك عن دينه، ويسرف أمية بن خلف في التنكيل ببلال، وسومه سوء العذاب، حتى مر به الصِّديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **فقال لأمية:** ألا تتقي الله في هذا المسكين؟! حتى متى؟! **فقال له:** أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى، **فقال الصِّديق:** أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به، **قال:** قد قبلت، **فقال:** هو لك، فأعطاه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غلامه ذلك، وأخذ بلالًا فأعتقه(1).

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلَّا وقد واتاهم على ما أرادوا إِلَّا بلالًا؛ فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو **يقول:** أحد .. أحد» (2).

وروى البلاذري عن عمرو بن العاص، **قال:** «مررت ببلال وهو يعذب في الرمضاء، ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت، وهو **يقول:** أنا كافر باللات والعزى. وأمية مغتاظ عليه، فيزيده عذابًا، فيقبل عليه فيدغت في حلقه، فيغشى عليه، ثم يفيق».

وروي عن مجاهد، **قال:** «جعلوا في عنق بلال حبلًا، وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة - يعني جبليها - ففعلوا ذلك، وهو **يقول:** أحد .. أحد».

---

(1) **انظر:** السيرة النبوية لأبي شهبة: ج1، ص341-342، والسيرة النبوية لابن هشام (1/294).

(2) رواه أحمد بإسناد حسن (1/404)، (رقم: 3832).

وقال البلاذري: «وروي أن بلالًا، **قال:** أعطشوني يومًا وليلة، ثم أخرجوني فعذبوني في الرمضاء في يوم حار»[1].

خباب بن الأرت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة ... بن تميم التميمي، **ويقال:** الخزاعي .. سبي في الجاهلية، فبيع بمكة، وكان مولى لأم أنمار الخزاعية، وقيل غير ذلك، ثم حالف بني زهرة. كان يعمل قينًا - حدادًا - في صناعة الأسنة، وبخاصة السيوف، وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام.

وعندما أظهر إسلامه لاقى صنوفًا شتى من العذاب في المال والنفس، ضمن سائر المستضعفين. ومما روي في ذلك أنهم كانوا يأخذون بشعر رأسه، فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه بعنف، وأضجعوه مرات عديدة على صخور ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجرًا؛ حتى لا يستطيع أن يقوم، وأوقدوا له نارًا ووضعوه عليها، فما أطفأها إلَّا ودك ظهره، كما ذكر خباب نفسه، وذكر أيضًا أنهم كانوا يضجعونه على الرضف (ما يُشوى عليه اللحم)، ومع ذلك لم ينالوا منه ما أرادوا[2].

وعن أبي ليلى الكندي، **قال:** جاء خباب إلى عمر (في زمن خلافته)، **فقال (عمر):** ادن، فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلَّا عمار. فجعل خباب يريه آثارًا بظهره مما عذبه المشركون[3].

آل ياسر «رضوان الله عليهم»:

كان والد عمار: ياسر من بني عنس من قبائل اليمن .. قدم مكة وأخواه الحارث ومالك يطلبون أخًا لهم، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكة، وحالف أبا حذيفة ابن المغيرة المخزومي، فزوجه أبو حذيفة أمةً له، **يقال لها:** سُميَّة بنت خياط، فولدت له عمارًا، فأعتقه أبو حذيفة، الذي لم يلبث أن مات، وجاء الإسلام، فأسلم ياسر وسمية وعمار، وأخوه عبد الله ابن ياسر، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضبًا شديدًا، وصبّوا عليهم العذاب صبًّا، فكانوا يخرجونهم إِذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة، ويقلبونهم ظهرًا لبطن، فيمر عليهم

(1) أنساب الأشراف (1/185-186).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (1/144)، **وانظر:** السيرة النبوية لمهدي رزق الله، (ص 189).

(3) أخرجه ابن ماجه (153)، وابن سعد (3/165)، **قال الألباني:** صحيح السند. صحيح السيرة النبوية، (1/80).

الرسول ﷺ وهم يعذبون، **فيقول:** «صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة»، وجاء أبو جهل إلى سمية، **فقال لها:** ما آمنت بمحمد إلَّا لأنك عشقته لجماله، فأغلظت له القول، فطعنها بالحربة في ملمس العفة، فقتلها؛ فهي أول شهيدة في الإسلام، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وبذلك سطرت بهذا الموقف الشجاع أعلى وأغلى ما تقدمه امرأة في سبيل الله، لتبقى كل امرأة مسلمة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها، ويهفو قلبها إلى الاقتداء بها، فلا تبخل بشيء في سبيل الله، بعد أن جادت سمية بنت خياط بدمها في سبيل الله.

وقد جاء في حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** «أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذًا بيدي نتمشى بالبطحاء، حتى أتى على آل عمار بن ياسر، **فقال أبو عمار:** يا رسول الله، الدهر هكذا؟ **فقال له النبي** ﷺ: «اصبر»، ثم **قال:** «اللَّهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت»[1]، ثم لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

أما عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد عاش بعد أهله زمنًا يكابد من صنوف العذاب ألوانًا، فهو يُصنَّف في طائفة المستضعفين، الذين لا عشائر لهم بمكة تحميهم، وليست لهم منعة ولا قوة، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء بمكة، أنصاف النهار؛ ليرجعوا عن دينهم، وكان عمار يعذب حتى لا يدري ما يقول، ولما أخذه المشركون ليعذبوه لم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي ﷺ **قال:** «ما وراءك؟» **قال:** شر، والله ما تركني المشركون حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، **قال:** «كيف تجد قلبك»؟ **قال:** مطمئنًا بالإيمان، **قال:** «فإن عادوا فعُد»، ونزل الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمار، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ﴾ [النحل]، وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ[2].

أبو فكيهة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

اسمه أفلح، أو يسار، وهو من الأزد، وكان عبدًا لصفوان بن أمية، أسلم مع بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانوا يضعون في رجليه الحديد، ويخرجون به في الحر الشديد إلى رمضاء مكة، ثم يجردونه من ثيابه، ويضعون على ظهره صخرة؛ حتى لا يتحرك، ويظل كذلك إلى أن يفقد الوعي!! مر به أبو

(1) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح (الهيثمي في المجمع: 9/293).
(2) **انظر:** السيرة النبوية للصلابي، (ص 153-154).

بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يومًا وأمية بن خلف يعذبه ويخنقه خنقًا شديدًا، وكان معه أخوه أبي بن خلف، **يقول:** زده عذابًا حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره. ولم يزالوا يعذبونه حتى ظنوا أنه مات، ثم أفاق، فاشتراه أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأعتقه.

تعذيب النساء المؤمنات:

لم تسلم النساء المؤمنات من الإيذاء والتعذيب .. وقد أظهرن صبرًا وتجلدًا وبطولة -رضوان الله عليهن - **وكان منهن:** زنيرة الرومية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، أمة عمر بن الخطاب، أسلمت قبله، فكان يضربها حتى يفتر، ويشاركه في ضربها أبو جهل، فلا يزيدها ذلك إلَّا إصرارًا على الإسلام، ولما أسلمت أصيب بصرها، **فقالت قريش:** ما أذهب بصرها إلَّا اللات والعزَّى، **فقالت:** كذبوا - وبيت الله - ما تضر اللات والعزى، وما تنفعان، ولكن هذا أمر من السماء، وربي قادر على أن يرد عليّ بصري! فرد الله بصرها، **فقالت قريش:** هذا من سحر محمد.

وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون إلى هؤلاء وأتباعهم، لو كان ما أتى محمد خيرًا وحقًّا ما سبقونا إليه، أفتسبقنا زنِّيرة إلى رشد!!

ومنهن: أم عُنَيْس، أمة لبني زهرة، وكان الأسود بن عبد يغوث يعذبها، فما استطاع أن يفتنها عن دينها.

وحَمَامة، أم بلال بن رباح، كانت تعذب في الله، وجارية بني المؤمل، وهم من بني عدي بن كعب، وكانت قد أسلمت، فكان عمر بن الخطاب يعذبها ويضربها حتى إذا ملَّ **قال:** إني أعتذر إليك بأني لم أتركك إلَّا ملالة!! **فتقول:** كذلك فعل الله بك.

والنهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار [1].

تعذيب من أسلم من القبائل البعيدة عن مكة:

روى ابن سعد، أن أم شريك، غزية بنت جابر بن حكيم، عندما أسلمت هي وزوجها، وهاجر زوجها مع أبي هريرة وجماعة من قومها، جاءها أهل زوجها أبي العكر، فسألوها إن كانت على دينه، فأقرت بإسلامها، فأقسموا على تعذيبها. فعندما ارتحلوا من مكان إلى آخر، حملوها على شر ركابهم وأغلظه، ثم أطعموها خبزًا وعسلًا ومنعوا عنها الماء، وتركوها في الشمس حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها، وكرروا ذلك لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث،

(1) ابن هشام (ج1، ص317-320)؛ وأبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 344-345.

طلبوا منها ترك دينها، فلم تفعل، غير الإشارة بأصبعها إلى السماء بالتوحيد، ولا تعي ما يقولون؛ من شدة الإعياء والإغماء، وأكرمها الله بدلو من ماء شربت منه، فكان ذلك سببًا في إسلام أهل زوجها وهجرتهم إلى النبي ﷺ [1].

وعندما سمع أبو ذر الغفاري بخبر النبي ﷺ، جاء ودخل مكة، وأخذ يسأل عن الرسول ﷺ، فضربه أهل مكة حتى أغشي عليه، وكاد أن يموت، فخلصه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منهم [2].

أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإنقاذ المستضعفين:

حمل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على عاتقه مهمة إنقاذ المستضعفين من الموالي والعبيد، بشرائهم وعتقهم، فأعتق سبعة من الرجال والنساء، وهم:

1- عامر بن فهيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

2- أم عبيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

3- زنيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

4، 5- النهدية وابنتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

6- جارية بني مؤمل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

7- بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد جاء في السيرة النبوية لابن هشام: «ثم أعتق أبو بكر معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، بلال سابعهم: عامر بن فُهيرة شهد بدرًا وأحدًا، وقُتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأم عُبيس، وزِنِّيرة وأصيب بصرها حين أعتقها، **فقالت قريش:** ما أذهب بصرها إِلَّا اللات والعزى، **فقالت:** كذبوا - وبيت الله - ما تضر اللات والعزى، وما تنفعان، فَرَدَّ الله بصرها، وأعتق النَّهْدِية وبنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار، فمرَّ بهما (أبو بكر)، وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي **تقول:** والله لا أعتقكما أبدًا، **فقال أبو بكر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : حِلّ [3] يا أم فلان، **فقالت:**

(1) الطبقات (1/155-157).

(2) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 185.

(3) تحللي من يمينك.

حِلّ، أنت أفسدتها فأعتقها، **قال:** فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا، **قال:** قد أخذتها، وهما حرتان، أَرْجعا إِليها طحينها، **قالتا:** أَوَنَفْرُغ منه يا أبا بكر ثم نرده إِليها؟ **قال:** وذلك إِن شئتما»[1].

ومرَّ الصديق بجارية بني مؤمل، حي من بني عدي بن كعب، وكانت مسلمة، وعمر ابن الخطاب يعذبها، لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك، وهو يضربها، حتى إِذا ملَّ **قال:** إِني أعتذر إليك، إِني لم أتركك إِلَّا عن ملالة، **فتقول:** كذلك فعل الله بك، فابتاعها أبو بكر فأعتقها[2].

وقد قال أبو قحافة لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا بني، إِني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالًا جلدًا يمنعونك ويقومون دونك؟ **فقال أبو بكر:** يا أبت إِني إنما أريد ما أريد لله عَزَّ وَجَلَّ. فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في شأنه قرآنًا يتلى إلى يوم الدين، قال سبحانه:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل].

تاسعًا: إيذاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

نال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من البلاء ما لم ينل أحد، ولقي من سفهاء قريش ما لم يلقه أحد، ولا عجب في ذلك؛ فهو قدوة وأسوة في كل أمر، فكان لزامًا أن يرى أصحابه من حوله، ونرى نحن من بعدهم، صبره على البلاء والأذى والمحن في طريق الدعوة وحمل الرسالة، فإذا كان الإيذاء قد ناله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أكرم الخلق على الله وأحبهم إليه، فلم يعد هناك أحدٌ بمنأى عن الابتلاء والمحن، وتلك سنة الله في الدعوات: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت]، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت:10]. ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة].

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (393/1).

(2) سيرة ابن هشام، (319/1).

وقد ذكر رسول الله ﷺ أن أذى قريش قد ناله قبل أن ينال أحدًا من أصحابه، **فقال:** «لقد أُخفت في الله وما يُخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»(1).

وقد غضب المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أحد جلسائه بعد موت رسول الله ﷺ، حين تمنى أن يكون قد أدرك النبي ﷺ وأدرك صحبته؛ لأنه قد غاب عنه ما لقيه محمد ﷺ، وما لقيه أصحابه من البلاء والمحن وفتن الجاهلية!!

فعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه، قال(2):

جلسنا إلى المقداد بن الأسود يومًا، فمر به رجل، **فقال:** طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت.

فاستغضب (المقداد)، فجعلت أعجب! ما قال إلَّا خيرًا! ثم أقبل إليه، **فقال:**

ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرًا غيبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟! والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جنهم، لم يجيبوه ولم يصدقوه.

أولا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلَّا ربكم، مصدقين لما جاء به نبيكم ﷺ، قد كفيتم البلاء بغيركم؟!

والله لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها في نبيّ من الأنبياء، في فترة وجاهلية، ما يرون أن دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، حتى أن الرجل (المسلم) ليرى والده وولده أو أخاه كافرًا - وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان - يعلم أنه إن هلك (أحدٌ من أهله كافرًا) دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها للتي قال الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان].

(1) الترمذي (645/4)، وصححه الألباني.

(2) أخرجه أحمد (2/6-3)؛ وابن حبان (1684)، **قال الألباني** في (صحيح السيرة النبوية): سنده صحيح، ورجاله كلهم ثقات.

وقد تنوع ما لقيه رسول الله ﷺ من قريش؛ ليشمل كل أنواع الإيذاء، بدءًا بالسخرية والاستهزاء والإيذاء النفسي، وانتهاء بمحاولات قتله ﷺ ..

الإيذاء النفسي:

رغم علمهم بأنه ﷺ كان أعظمهم قدرًا وأشرفهم نسبًا، كانوا لا ينسبونه إلى أبيه عبد الله بن عبد المطلب، بل ينسبونه إلى أبيه من الرضاع (أبو كبشة)، زوج حليمة السعدية، فكانوا **يقولون:** هذا ابن أبي كبشة يُكلم من السماء.

وكان أحدهم يمر على رسول الله ﷺ، **فيقول له ساخرًا:** أما كُلمت اليوم من السماء؟!

نثر التراب على رأسه ﷺ:

روى ابن إسحاق: أن بعضهم عمد إلى قبضةٍ من تراب، فنثرها على رأسه ﷺ وهو يسير في بعض سكك مكة، وعاد إلى بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب، وهي تبكي، ورسول الله ﷺ **يقول لها:** «يا بنية، لا تبكي؛ فإن الله مانع أباك»[1].

ما فعله أبو لهب وبنوه وامرأته برسول الله ﷺ:

كان من الطبيعي أن يكون أبو لهب في مقدمة من مد يد الاعتداء إلى رسول الله ﷺ؛ فإنه كان أحد رءوس بني هاشم، فلم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون، وكان عدوًّا لدودًا للإسلام وأهله، وقد وقف موقف العداء من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول، واعتدى عليه قبل أن تفكر فيه قريش[2]، وقد أسلفنا ما فعل على الصفا وفي مجلس بني هاشم.

روى ربيعة بن عباد من بني بديل، **قال:** رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق (ذي المجاز)، وهو **يقول:** (يا أيها الناس: قولوا «لا إله إلَّا الله» تفلحوا)، والناس مجتمعون عليه، ووراؤه رجل وضيء الوجه أحول، ذو غديرتين (ضفيرتين)، **يقول:** إنه صابئ كاذب!! يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، **فقالوا:** هذا عمه أبو لهب[3].

وقد رُوي أنه كان لا يقتصر على التكذيب، بل كان يضربه بالحجر؛ حتى يدمي قدميه.

---

(1) سيرة ابن هشام (1/158).

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم.

(3) رواه الإمام أحمد، والبيهقي.

وكان ابناه عتبة وعتيبة قد تزوجا بنتا رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فأمرهما أبو لهب بتطليقهما، فطلقاهما.

وتسلط عتبة على رسول الله ﷺ بالأذى، وشق قميصه، وتفل في وجهه الشريف ﷺ، إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ، **وقال:** (اللّهم سلط عليه كلبًا من كلابك)، فاستجيب دعاؤه، فذبحه السبع وهو بالزرقاء بالشام[1].

أما أم جميل زوجة أبي لهب - واسمها أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان - فلم تكن أقل عداوة من زوجها لرسول الله ﷺ، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾ [المسد] **قال:** كانت تحمل الشوك، فتطرحه على طريق النبي ﷺ؛ ليعقره وأصحابه[2].

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (التحرير والتنوير): وكانت أم جميل هذه تحمل حطب العضاة والشوك، فتضعه في الليل في طريق النبي ﷺ الذي يسلك منه إلى بيته ليعقر قدميه، فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ [المسد]، جعل لامرأته وعيد مقتبس من فعلها، وهو حمل الحطب في الدنيا، فأُنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها، وذلك خزي لها ولزوجها؛ إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه، وجعلها سببًا لعذاب أعز الناس عليها. وقوله تعالى: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد] صفة ثانية، أو حال ثانية، وذلك إخبار بما تعامل به في الآخرة، **أي:** يجعل لها حبل في عنقها، تحمل فيه الحطب في جهنم؛ لإسعار النار على زوجها، جزاءً مماثلًا لعملها في الدنيا، الذي أغضب الله تعالى عليها[3].

وحاولت أم جميل أن تعتدي على رسول الله ﷺ بحجر، فحماه الله منها[4].

وعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **قالت:**

---

(1) رواه البيهقي في الدلائل (2/338).

(2) أخرجه ابن جرير، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر.

(3) التحرير والتنوير، ص 606.

(4) كما روى البيهقي في الدلائل (2/196).

لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد:1] ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر (حجر بحجم الكف)، وهي تقول:

مذمما[1] أبينا ودينه قلينا[2]

وأمره عصينا

والنبي ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما رآها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** يا رسول الله، قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك، **فقال رسول الله** ﷺ: «إنها لن تراني». وقرأ قرآنًا، فاعتصم به كما قال تعالى، وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء]، فوقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، **فقالت:** يا أبا بكر، إني أُخبرت أن صاحبك هجاني. **فقال:** لا، ورب هذا البيت ما هجاك. فولت وهي **تقول:** قد علمت قريش أني بنت سيدها[3].

إيذاء الجيران لرسول الله ﷺ:

قال ابن إسحاق: كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي، وكانوا جيرانه. ولم يُسلم منهم أحد إلَّا الحكم بن أبي العاص، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها برمته (وعاء الطعام) إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم **يقول:** «يا بني عبد مناف، أي جوار هذا؟» ثم يلقيه في الطريق.

التفل في وجهه الشريف ﷺ:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بـ (مكة) لا يؤذيه، وكان رجلًا حليمًا، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي معيط خليل (صاحب) غائب عنه بالشام، **فقالت قريش:** صبأ أبو معيط.

---

(1) عكس محمد، وتعني به - عليها لعائن الله-: رسول الله ﷺ.

(2) **قلى:** أبغض وهجر.

(3) أخرجه الحاكم (2/361)، **وقال:** (صحيح الإسناد)، ووافقه الذهبي، وابن حبان (2103)، وأبو نعيم (ص 61) من طريق أخرى، عن ابن عباس نحوه، وصححه ابن أبي حاتم أيضًا.

وقدم خليله من الشام ليلًا، **فقال لامرأته:** ما فعل محمد مما كان عليه؟ **فقالت:** أشد مما كان أمرًا. **فقال:** ما فعل خليلي أبو معيط؟ **فقالت:** صبأ.

فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه معيط فحياه، فلم يرد عليه التحية. **فقال:** ما لك لا ترد علي تحيتي؟ **فقال:** كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟!

قال: أوقد فعلتها قريش؟! **قال:** نعم.

قال: فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلت؟

قال: تأتيه في مجلسه، وتبزق في وجهه، وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم!

ففعل، فلم يزد النبي ﷺ أن مسح وجهه من البزاق، ثم التفت إليه، **فقال:** «إن وجدتك خارجًا من جبال (مكة) أضرب عنقك صبرًا».

فلما كان يوم بدر، وخرج أصحابه، أبى أن يخرج.

فقال له أصحابه: اخرج معنا.

قال: قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجًا من جبال (مكة) أن يضرب عنقي صبرًا.

فقالوا: لك جمل أحمر لا يُدرك، فلو كانت الهزيمة طرت عليه (هربًا).

فخرج معهم، فلما هزم الله المشركين، وحل به جمله في جدد من الأرض، فأخذه رسول الله ﷺ أسيرًا في سبعين من قريش، وقدم إليه أبو معيط، **فقال:** تقتلني من بين هؤلاء؟ **قال:** «نعم؛ بما بزقت في وجهي».

فأنزل الله في أبي معيط ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان:27] إلى قوله ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان] (1).

وضع سلا الجذور على ظهره الشريف ﷺ:

وسلا الجذور: هو الذي يخرج منه ولد الناقة، كالمشيمة لولد المرأة، ويكون به قذر ودماء.

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم، إذ **قال قائل منهم:** ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جَزُور آل فلان،

(1) أخرجه ابن مردويه، وأبو نعيم في (الدلائل)، **وقال الألباني في صحيح السيرة:** سنده صحيح.

فَيعْمد إلى فرثها ودمها وسَلاها، فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم[1]، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة - وهي جويرية[2] - فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجدًا حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، **قال:** «اللّٰهم عليك بقريش، اللّٰهم عليك بقريش، اللّٰهم عليك بقريش»، ثم سمَّى: «اللّٰهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعُمارة بن الوليد»، **قال ابن مسعود:** فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب[3] - قليب بدر - **ثم قال رسول الله** ﷺ: «وأُتبع أصحاب القليب لعنةً»[4].

محاولة منعه ﷺ من الصلاة عند الكعبة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: قال أبو جهل:** هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟

قالوا: نعم. **قال:** واللات والعزى، لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه بالتراب. فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ رقبته. **قال:** فما فجأهم منه إلَّا هو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه. **قال: فقيل له:** ما لك؟ **قال:** إن بيني وبينه خندقًا من نار، وهولًا وأجنحة، **قال: فقال رسول الله** ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»[5].

ضربه ﷺ ومحاولة قتله:

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** حضرتهم وقد اجتمعوا في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، **فقالوا:** ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ،

(1) ثبت بالروايات الصحيحة الأخرى أنه عقبة بن أبي معيط، وأن الذي حرضه هو أبو جهل.

(2) فتاة صغيرة.

(3) **القليب:** البئر المفتوحة.

(4) رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري برقم (520).

(5) رواه مسلم (2797)، والنسائي (11619)، وابن حبان (6571) والبزار (9775)، وأبو يعلى (6207).

فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها. فوقف، ثم **قال:** «أتسمعون يا معشر قريش؟!، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح»، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلَّا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه (يصالحه) بأحسن ما يجد، **ويقول:** انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولًا. فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه، وقام أبو بكر دونه، وهو يبكي **ويقول:** أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه. **قال ابن عمرو:** فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط[1].

وعن عروة بن الزبير، **قال:** سألت عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، **قال:** رأيت عقبة بن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ﷺ، **فقال:** «أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟»[2].

وجاء عقبة هذا في مرة والنبي ﷺ يصلي عند الكعبة، فوضع رجله على عنق رسول الله ﷺ حتى كادت عيناه تندران (أي تخرجان من شدة الضغط)!! [3].

مواساة:

جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى رسول الله ﷺ؛ ليطمئنه أن الله معه، وأنه رسول الله صدقًا وحقًّا، وأن الله قادر على أن يسخر الكون لنصرته لو أراد:

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء ذات يوم إلى النبي ﷺ وهو جالس حزينًا قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، **فقال له:** ما لك؟ **قال:** «فعل بي هؤلاء وفعلوا»، **فقال له جبريل:** أتحب أن أريك آية؟ **قال:** نعم، فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، **فقال:** ادع بتلك الشجرة، فدعاها، فجاءت حتى قامت بين يديه، **فقال:** مرها فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها. فقال رسول الله ﷺ: «حسبي»[4].

---

(1) صحيح ابن حبان (6567)، وأحمد (7157).

(2) رواه البخاري (3678).

(3) أبو شهبة: السيرة النبوية، (291/1).

(4) أخرجه أحمد (113/3)، وابن ماجه (4028) بسند صحيح.

مصير من آذى رسول الله ﷺ وأصحابه:

1- **أبو لهب:** وهو عبد العزى بن عبد المطلب، وهو عم النبي ﷺ، وكان من أشد الناس تكذيبًا لرسول الله ﷺ، وأكثرهم أذًى له، حتى إنه كان يطرح العذرة والنتن على باب النبي ﷺ؛ إذْ كان مجاورًا له، وكان النبي ﷺ إذا وجد ذلك **يقول:** «أي جِوَارٍ هذا يا بني عبد المطلب؟!». ومر حمزة مرة بأبي لهب وهو يطرح العذرة على باب النبي ﷺ، فأخذها وطرحها على رأس أبي لهب.

وأخذ الله - جل جلاله - أبا لهب بمكة؛ إذ أصابه بمرض خبيث، **يقال له:** مرض العَدَسَة، وكان ذلك يوم هزيمة المشركين ببدر، فما إن بلغه خبر هزيمة قومه حتى أصيب بمرض العدسة، فمات شر ميتة، حتى إنهم لم يقدروا على تغسيله، فصبوا عليه الماء من بعيد؛ من شدة الرائحة الكريهة التي تفوح من جسمه، الذي نضج وتهَرَّى(1) بصورة لم يُعرف لها نظير.

2- **الوليد بن المغيرة المخزومي:** وهو **القائل لقريش:** إن الناس يأتونكم في الحج، فيسألونكم عن محمد، فلا تختلف أقوالكم فيه، بأن يقول بعض هو شاعر، وآخر يقول هو كاهن و... و... ولكن قولوا كلمة واحدة، هو ساحر؛ لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته، وكان سبب هلاكه: أنه وطئ سهمًا، فخدشه، فتورمت رجله، ومات بذلك شرَّ ميتة.

3- **أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي:** وكان من أشد الناس عداوة للرسول ﷺ، واسمه عمرو، وكنيته أبو الحكم، وكناه المسلمون بأبي جهل؛ لخبثه وسوء أفعاله وقبيح صنائعه .. هلك ببدر .. قتله ابنا عفراء، واحتزّ رأسه عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ إذ كان يعيره بابن راعية الغنم، **وهو القائل:** لئن سب محمد آلهتنا سببنا إلهه، فأنزل الله تعالى من سورة الأنعام قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام].

4- **النضر بن الحارث:** وكان من أشدّ الناس تكذيبًا للنبي ﷺ، وأذًى له ولأصحابه، وكان يقرأ كتب الفرس، ويخالط اليهود والنصارى، ولما سمع ذكر النبي المنتظر وقرب مبعثه، **قال:** إن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم، مصداق قوله هذا في قوله تعالى من سورة فاطر؛ إذ قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر].

(1) انسلخ وتساقط.

وهو القائل: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ [المعارج]، وهو المعني بقول الله تعالى من سورة لقمان: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ [لقمان:6] ... الآية.

هلك هذا الطاغية ببدر؛ إذ أسره المقداد بن الأسود، وأمر الرسول ﷺ بضرب عنقه؛ لكثرة شرّه، فقتله عليّ رضي الله عنه.

5- عقبة بن أبي معيط الأموي: وكان من أشد الناس أذًى لرسول الله ﷺ، وعداوة له وللمسلمين، وهو الذي وضع سلا الجزور بين كتفي رسول الله ﷺ وهو يصلي عند البيت، ورجالات قريش يضحكون.

هلك هذا الطاغية الخبيث ببدر، وكان أُحيمرًا أزرق العينين، شبهه رسول الله ﷺ بعاقر ناقة صالح، قُدار بن سالف - عليهما معًا لعائن الله.

6- الأسود بن عبد يغوث: كان من المستهزئين، وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه: هؤلاء ملوك الأرض، الذين يرثون ملك كسرى!!، **وكان يقول للنبي** ﷺ مستهزئًا به: أما كُلِّمتَ اليوم من السماء يا محمد؟!

خرج عدو الله من أهله يومًا، فأصابه السموم، فاسود وجهه، وأصابته الأكلة (مرض)، فامتلأ جسمه قيحًا، فمات شر ميتة.

7- الحارث بن قيس السهمي: وكان أحد المستهزئين بالنبي ﷺ، الذين لا يبرحون يؤذونه طوال حياتهم، وكان - لجهله وشدة شغفه بالأوثان - يأخذ الحجر يعبده، فإذا رأى غيره أحسن منه تركه وعبد غيره؛ مما رآه أحسن في نظره. **وكان يقول:** قد غر محمد أصحابه، ووعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلَّا الدهر!! وفيه نزل قوله تعالى من سورة الجاثية: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية]، وهلك بالذبحة؛ إذ أكل حوتًا مملوحًا، فلم يزل يشرب حتى مات، وقد امتلأ رأسه قيحًا، فكانت ميتته شرُّ ميتة وأنكرها.

8 ، 9- أبي وأمية ابنا خلف: وكانا من أشد الناس أذيّة لرسول الله ﷺ، وعداوة له ولأصحابه، واستهزاء بدين الله؛ إذ جاء أُبي - عليه لعائن الله - إلى رسول الله ﷺ، وفي يده عظم، ففتته بيده، **وقال:** زعمت أن ربك يحيي هذا العظم!، وفيه نزلت آية يس: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس]. وهلك أمية يوم بدر، مرذولًا مخزيًّا شر ميتة، وهلك أخوه أبي؛ إذ ضربه الرسول ﷺ بحربة في ترقوته في أحد، فهلك بها.

10- أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة: وكان ممن يؤذي النبي ﷺ، ويعين أبا جهل على ذلك .. هلك ببدر على يد حمزة عم الحبيب ﷺ.

11- العاص بن وائل السهمي: والد عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان من المستهزئين، وهو القائل لما مات القاسم بن النبي ﷺ: إن محمدًا أبتر، لا يعيش له ولد ذكر، فأنزل الله تعالى فيه سورة الكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر] .. هلك بمكة؛ بسبب لدغة في رجله، انتفخت لها رجله، حتى صارت كعنق البعير، فمات بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بشهر وكذا يومًا.

12، 13- نُبَيْه ومُنبِّه ابنا الحجاج السهميان: وكانا من المستهزئين المؤذين لرسول الله ﷺ والمؤمنين، وكانا إذا لقيا رسول الله ﷺ **يقولان له:** أَمَا وَجَد (ربك) من يبعثه غيرك؟ إن هاهنا من هو أسنّ منك وأيسر .. هلك كل منهما ببدر، فقتل عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ منبهًا، والآخر لا يُدرى من قتله.

14- الأسود بن المطلب بن أسد: ويكنى أبا زمعة .. كان من المستهزئين إذا كان مع أصحابه، يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه، **ويقولون:** قد جاءكم ملوك الأرض، ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر، ويصفرون به ويصفقون؛ لهوًا وضحكًا وسخرية!! دعا عليه رسول الله ﷺ أن يعْمى ويثْكل ولده، فعمي وثكل ولده، ومات بمكة والناس يتجهزون لأحد، وهو يحرض الكفار على الخروج، مع ما هو عليه من المرض؛ من شدة بغضه لرسول الله ﷺ وأصحابه ودين الله، فهلك أعمى أثكل.

15- طعيمة بن عديّ بن نوفل: كان ممن يؤذون رسول الله ﷺ ويشتمونه ويكذبونه، وقتل ببدر.

16- مالك بن الطلاطلة بن عمرو بن غبشان: كان من المستهزئين، وكان سفيهًا، فدعا عليه النبي ﷺ، فمات بمكة بعدما امتلأ رأسه قيحًا.

قال ابن الأثير: هؤلاء أشد عداوة لرسول الله ﷺ، ومن عداهم من رؤساء قريش كانوا أقل عداوة من هؤلاء؛ كعتبة وشيبة ابني ربيعة، وغيرهما.

وهناك جماعة كانوا شديدي الأذى والعداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه، ولكنهم آمنوا وأسلموا وحسن إسلامهم؛ كأبي سفيان بن حرب، والحكم بن أبي العاص، وعبد الله بن أبي أميّة المخزومي، أخي أم سلمة لأبيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [1].

وقفة:

لماذا كان الإيذاء والنبي ﷺ وأصحابه على الحق؟ ولماذا لم يمنعهم الله وهم جنوده وفيهم رسوله ﷺ؟ وفيم هذا العذاب وهم وحدهم دون أهل الأرض جميعًا الذين يقرون لله بالوحدانية ويفردونه بالعبادة؟

الجواب: هي سنة الله تعالى، التي لا تتخلف في تمحيص عباده المؤمنين، قبل أن يكون لهم التمكين في الدنيا، والجنة في الآخرة .. وهي من مقتضيات حمل الأمانة بحقها، فلن يقوى على حمل الأمانة وأداء التكاليف إلَّا الأصلب عودًا والأجسر على المحن والابتلاءات، والأقدر على تحمل الآلام.

وقد ضرب الله للمسلمين المثل من إخوانهم قبلهم، من موكب الإيمان الضارب في جذور الزمان، من أولئك الذين صدقوا في إيمانهم، فلم يجذعوا عند الابتلاء، ولم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم، وأن يجسموا أخطاءهم، فيروها إسرافًا في أمرهم، وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار[2]: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران].

وما تعرض له النبي ﷺ وأصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الاضطهاد والابتلاء والتعذيب، تتجلى فيه حكم كثيرة، **منها:**

1- **ليميز الله الخبيث من الطيب:**

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «الناس ماداموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم البلاء صاروا إلى حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه».

---

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، (ص 114-119)، باختصار بسيط.

(2) سيد قطب: الظلال.

فالابتلاء هو التمحيص الحقيقي، والتجربة الواقعية التي تكشف مكنونات النفوس، وأن ما كان ينطق به اللسان هو تصديق لما في القلب من إيمان؛ (فلو ترك الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على ألسنتهم فقط، لاستوى الصادق والكاذب، ولكن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وصدق الله القائل في محكم كتابه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت]، والقائل: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران].

وإذا كانت هذه هي سنة الله في عباده، فلن تجد لسنة الله تبديلًا، حتى مع أنبيائه وأصفيائه.. من أجل ذلك أوذي رسول الله ﷺ، وأوذي من قبله جميع الأنبياء والرسل، ومن أجل ذلك أوذي أصحاب رسول الله ﷺ، حتى مات منهم من مات تحت العذاب، وعمي من عمي، رغم عظيم فضلهم، وجليل قدرهم عند الله ﷻ[1].

2- الابتلاء اصطفاء:

فأكمل الناس إيمانًا أشدهم ابتلاء .. قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[2].

والمؤمن كل أمره خير؛ فهو في نعمة من ربه وفضل في جميع أحواله .. قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحدٍ إلَّا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»[3].

والبلاء يرفع الدرجات، ويحط عن العبد الخطايا والذنوب .. **قال رسول الله** ﷺ: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا

---

(1) البوطي: فقه السيرة، (ص 120).
(2) أخرجه الإمام أحمد (1499)؛ والترمذي (2398).
(3) رواه مسلم (2999).

بالمقاريض»[1]، **وقال أيضًا:** «ما يصيب المسلم من هم، ولا حزن، ولا وصب، ولا نصب، ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلَّا كفر الله بها من خطاياه»[2].

والبلاء يفتح للعبد باب المناجاة، ولذة الدعاء والرجاء، وحسن الظن بالله، وغير ذلك من أعمال القلوب، والنفس تطهرها الشدائد، فتنفي عنها الخبيث، وتستجيش كامن قواها المذخورة، فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة، فيشتد عودها ويصلب ويصقل»[3].

والبلاء يُطلع العبد على حقيقة نفسه، فيعلم أنه ضعيف، لا حول له ولا قوة إلَّا بربه، فيتوكل عليه حق التوكل، ويلجأ إليه حق اللجوء، فيسقط عنه التيه والخيلاء، والعجب والغفلة، وغيرها من أمراض القلوب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء؛ لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه، أَهَّلَهُ لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته، وقربه»[4] .

3- الابتلاء قبل التمكين دائمًا:

الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطًا وثيقًا؛ فلقد جرت سنة الله تعالى ألَّا يُمكن لأمة إلَّا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلَّا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنة جارية على الأمة الإسلامية، لا تتخلف، فقد شاء الله تعالى أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم؛ ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك؛ ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين **سأله رجل:** أيهما أفضل للمرء، أن يمكن أو يبتلى؟ **فقال الشافعي:** لا يمكن حتى يبتلى، فإن الله تعالى ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة»[5] .

---

(1) رواه الترمذي (2402)، **وقال:** هذا حديث غريب ، لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه.

(2) رواه البخاري (5641).

(3) سيد قطب: في ظلال القرآن (6/389).

(4) زاد المعاد (4/195).

(5) الصلابي: السيرة النبوية، ص 128.

4- **ابتلاء الأولين أسوة للآخرين:**

إن في مواقف النبي ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وثباتهم على دينهم، القدوة والأسوة لأجيال الدعاة والمصلحين من بعدهم؛ حيث «إن أعداء الإسلام في كل مكان وزمان لم يكفوا ولن يكفوا عن استخدام جميع الوسائل والأساليب لإطفاء نور الإسلام، ومحاربة دعاته، وربما تتجدد الأساليب والوسائل، ولكنها لا تخرج في مضمونها عن تلك الأساليب التي مارسها كفار قريش ضد المسلمين الأولين بمكة»(1).

عاشرًا: المساومات:

باءت بالفشل كل مواجهات المشركين للنور الجديد، وأقض مضاجعهم ثبات محمد ﷺ والذين آمنوا معه، وعدم مبالاتهم بكل صنوف الإيذاء والتعذيب، التي لم تصرفهم عن دينهم، ولم تردهم عن الحق الذي شرفهم الله به، وزادهم فزعًا وحيرة تزايد عدد المسلمين يومًا بعد يوم، وتحطم كل الوسائل والأساليب أمام هذه العقيدة الواضحة والصريحة، في رفضها للوثنية، وما تزخر به من معرات ومخازٍ.

فرأت قريش أن تجرب أسلوبًا آخر، وهو أسلوب المفاوضات والمساومات؛ فلعل محمدًا ﷺ يضمر من وراء دعوته الوصول إلى الملك أو الزعامة أو الغنى، أو لعل مرضًا ألم به، فجعل هذه الخيالات تتراءى له، فقام رؤساء قريش وحكماؤها بسلسلة من المفاوضات مع رسول الله ﷺ، بعد أن صوروا في أنفسهم كل هذه الاحتمالات.

عتبة بن أبي ربيعة كبير المفاوضين:

كان عتبة بن أبي ربيعة من حكماء قريش، ومن أرجحهم عقلًا، وأكثرهم حلمًا وبصيرة، (وقد كان رأيه سببًا في إنهاء حرب الفجار كما ذكرنا)، وأقدرهم على المفاوضة وإدارة الحوار، فطلب من قريش أن يفوضوه في أن يقوم إلى محمد ﷺ، فيكلمه، ويعرض عليه أمورًا؛ لعله يقبلها .. فوافقوا على ذلك، بعد أن أعيتهم الحيل.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي، **قال:** حُدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدًا - **قال يومًا** - وهو في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورًا؛ لعله يقبل بعضها،

(1) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص193.

فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون، **فقالوا**: بلى، يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، **فقال**: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها؛ لعلك تقبل منها بعضها. **قال: فقال رسول** ﷺ: (قل يا أبا الوليد، أسمع).

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه، لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع (من الجن) على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، **قال**: (أقد فرغت يا أبا الوليد؟)، **قال**: نعم، **قال**: (فاسمع مني)، **قال**: أفعل، **فقال**: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا﴾ [فصلت]. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها، يقرؤها عليه. فلما سمع منه عتبة: ﴿فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾[فُصِّلَت:5] أنصت له: وألفى يديه خلف ظهره، معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم **قال**: (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك).

فقام عتبة إلى أصحابه، **فقال بعضهم لبعض**: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم **قالوا**: ما وراءك يا أبا الوليد؟ **قال**: ورائي أني سمعت قولًا، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وفي روايات أخرى: أن عتبة استمع حتى إذا بلغ الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت]، وضع يده على فم رسول الله ﷺ، وناشده بالرحم أن يكف؛ وذلك مخافة أن يقع النذير، ثم قام إلى القوم، فقال ما قال.

مفاوضة جماعية:

رأت قريش أن عتبة رجع من حيث جاء ولم يجبه محمد ﷺ إلى ما يريد؛ بل إن عتبة طالب قريشًا أن تترك محمدًا ﷺ وما هو فيه؛ فإما أن تصيبه العرب فيهلك، أو أن يظهر على العرب، فيكون ملكه ملكًا لقريش، وعزه عزًّا لها، فقرر سادات قريش أن يكون منهم وفدٌ يفاوض محمدًا ﷺ؛ فلعل تجمعهم عليه في المفاوضة ينجح فيما لم ينجح فيه عتبة، فاجتمعوا عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يدعونه، فجاء مسرعًا؛ يرجو خيرًا، فلما جلس إليهم قالوا له مثل ما قال عتبة، وعرضوا عليه المطالب نفسها التي عرضها عتبة؛ وكأنهم ظنوا أنه لم يثق بجدية هذا العرض حين عرض عتبة وحده، فإذا عرضوا هم أجمعون يثق ويقبل، ولكن **قال لهم رسول الله** ﷺ: (ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم).

فانتقلوا إلى نقطة أخرى، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يسير عنهم الجبال، ويبسط لهم البلاد، ويفجر فيها الأنهار، ويحيي لهم الموتى - ولاسيما قصي بن كلاب - فإن صدقوه يؤمنون به، فأجاب بما سبق من الجواب نفسه.

فانتقلوا إلى نقطة ثالثة، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعث له ملكًا يصدقه، ويراجعونه فيه، وأن يجعل له جنات وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة، فأجابهم بالجواب نفسه.

فانتقلوا إلى نقطة رابعة، وطلبوا منه العذاب: أن يسقط عليهم السماء كسفًا، كما يقول ويتوعد، **فقال:** (ذلك إلى الله إن شاء فعل). **فقالوا:** أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك ونطلب منك، حتى يعلمك ما تراجعنا به، وما هو صانع بنا إذا لم نقبل.

وأخيرًا هددوه أشد التهديد، و**قالوا:** أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا، فقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرف إلى أهله حزينًا أسفًا؛ لما فاته ما طمع من قومه [1].

محاولة الالتقاء على عقيدة مشتركة:

روى ابن إسحاق بسنده، قال: اعترض رسول الله ﷺ - وهو يطوف بالكعبة - الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص ابن وائل السهمي

---

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم، وقد ذكرنا الحديث من قبل في: سؤالهم الآيات للتعجيز.

- وكانوا ذوي أسنان في قومهم - **فقالوا**: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن قريشًا قالوا لرسول الله ﷺ: تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فأنزل الله: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر].

﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَـٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ [يونس:15]:

ولما حسم الله تعالى هذه المفاوضة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة، لم تيأس قريش كل اليأس، بل أبدوا مزيدًا من التنازل، بشرط أن يجري ﷺ بعض التعديل فيما جاء به فقالوا: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَـٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ [يونس:15]، فقطع الله هذا السبيل أيضًا بإنزال ما يرد به النبي ﷺ، فقال: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ [يونس:15]، ونبه على عظم وخطورة هذا العمل[1] بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾﴾ [يونس].

وقفة: هل كان من الحكمة أن يرضى رسول الله ﷺ بالملك والزعامة للتمكين لدين الله؟:

ألم يكن في ذلك وسيلة لفرض سلطان الإسلام؟ ألم يكن في ذلك رفع للإيذاء والتعذيب عن نفسه وعن أصحابه؟ ألم يكن من السياسة أن يجاريهم، ثم يتخذ الملك طريقًا للدعوة والبلاغ؟ أليس الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن؟

الإجابة: إن أمر العقيدة يجب ألا يتطرق إليه مساومة بأي حال، أو يخضع لتفاهمات من هذا الطرف أو ذاك. وليس من حق بشر - ولو كان نبيًّا أو رسولًا - أن يتفاوض على تصورات الدين وأحكامه ومبادئه، وعلى رأسها - بالطبع - العقيدة. ولا يلتقي الإسلام مع الشرك والوثنية، أو أي عقيدة باطلة في منتصف الطريق، ولا يختلط منهجه بمنهج آخر. إن التوحيد منهج، والشرك منهج آخر .. ولا يلتقيان .. التوحيد منهج يتجه بالإنسان - مع الوجود كله - إلى الله وحده لا

---

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم.

شريك له، ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان عقيدته وشريعته وقيمه وموازينه وآدابه وأخلاقه وتصوراته كلها، عن الحياة وعن الوجود .. هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله، وحده لا شريك له؛ ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس، غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية، وهي تسير[1].

إن المعنى الواضح الجلي المستفاد من موقف رسول الله ﷺ إزاء هذه المساومات، أنه ليس هناك أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق مع الجاهلية والضلال، والمناهج الباطلة، ولا تلاقي تحت لافتة الحكمة والسياسة بين العقائد والأفكار المنحرفة وبين الإسلام. قد يتعايش المسلمون مع غيرهم في أمان وسلم اجتماعي .. وقد يتحالفون مع غيرهم؛ من أجل تحقيق الحريات والعدالة الاجتماعية (كما ذكرنا تعقيبًا على حلف الفضول)؛ فكل ذلك مشروع، بل ومن جوهر الدين، أما التنازل عن أمر من أمور الاعتقاد، أو طمس معلم من معالم الدين، أو تعديل في منهج الإسلام بزيادة أو نقصان؛ بغية التعايش مع الآخرين، وأملًا في اجتذابهم يومًا ما!!، فهذا هو الانحراف الذي ليس بعده انحراف، والمفارقة الضالة لصراط الله المستقيم .. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:153].

* * *

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن (6/3991).

الفصل الثالث

الهجرة إلى الحبشة

المبحث الأول: الهجرة الأولى إلى الحبشة

كان الإيذاء والتعذيب قد اشتد بأصحاب النبي ﷺ في أواسط السنة الخامسة من البعثة (بعد سنتين من جهره بالدعوة)، وكان رسول الله ﷺ يومئذ في منعة من الله بعمه أبي طالب، ولكنه لم يكن ليقدر على أن يمنع عن أصحابه ما يصيبهم، فأوعز ﷺ إلى من قل نصيره منهم أن يهاجر إلى الحبشة.

روى ابن إسحاق من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **قالت:** لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، **فقال لهم رسول** ﷺ: «إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه»، فخرجنا إليها حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا[1].

المهاجرون إلى الحبشة:

اختلف كتاب السيرة في عدد الفوج الأول من المهاجرين إلى الحبشة، إلَّا أنهم لم يزيدوا جميعًا عن ستة عشر؛ ما بين رجل وامرأة، وكان أول من خرج عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد قال فيهما رسول الله ﷺ: «صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ»[2]، **وكان ممن هاجر من الأسر أيضًا:**

* أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وزوجه سهلة بنت سهيل بن عمرو، فولدت له بالحبشة محمد بن أبي حذيفة.

* أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وزوجه أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، وولدت له بها زينب.

---

(1) ابن هشام (1/413).

(2) رواه البيهقي في الدلائل (2/297).

❋ عامر بن ربيعة، حليف آل الخطاب، وزوجه ليلى بنت أبي حثمة.

وممن هاجر أيضًا:

❋ الزبير بن العوام.

❋ مصعب بن عمير.

❋ عبد الرحمن بن عوف.

❋ عثمان بن مظعون.

الرحلة:

روى ابن سعد: أنهم خرجوا متسللين سرًّا، حتى انتهوا إلى الشعبية (الميناء الذي كانت تركب منه قريش البحر)، منهم الراكب والماشي، ووفق الله تعالى للمسلمين - ساعة جاءوا - سفينتين للتجار، حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نُبئ رسول الله ﷺ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحدًا[1].

في أرض الحبشة:

وصل المسلمون إلى أرض الحبشة، فأقاموا بها شهري شعبان ورمضان من سنة خمس من البعثة، آمنين على دينهم، في جوار أصحمة النجاشي، ملكها العادل.

ثم ترامت إليهم الأخبار أن المشركين هادنوا رسول الله ﷺ، أو أنهم قد أسلموا، فترك ذلك أثرًا في قلوبهم، فقرروا العودة إلى مكة في شوال من السنة نفسها.

العودة إلى مكة:

عندما اقتربوا من مكة تبينت لهم الحقيقة، وعرفوا جلية الأمر، وعلموا أن المشركين أشد ما يكونون خصامًا لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، وأن أذاهم لم ينقطع يومًا، وأن البلاء مازال قائمًا، بل إن فتنة قريش للمسلمين أشد مما كانت .. فرجع منهم من رجع إلى الحبشة، ومن دخل منهم مكة دخلها مستخفيًا، أو في جوار رجل من قريش.

---

(1) الطبقات (204/1).

دخول مكة:

كان ممن دخل مكة في جوار: عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد دخل في جوار الوليد بن المغيرة (وقد ذكرنا قصته فيما سبق).

ودخل أبو سلمة بن عبد الأسد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جوار خاله أبي طالب، فسعى إليه جماعة من بني مخزوم، **فقالوا له:** يا أبا طالب لقد منعت ابن أخيك محمدًا، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟ **قال:** إنه استجار بي وهو ابن أختي، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي، فقام أبو لهب غاضبًا، **وقال:** يا معشر قريش، والله لقد كثرتم على الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه!! والله لتنتهن عنه، أو لنقومنَّ معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد!! **قالوا:** بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة – وكان لهم وليًّا مناصرًا على رسول الله ﷺ – فأبقَوا على ذلك، فلما سمع أبو طالب منه ذلك، طمع فيه، ورجا أن يقوم معه في شأن رسول ﷺ، وقال قصيدة يحرِّض فيها أبا لهب على نصرته ونصرة النبي ﷺ، **مطلعها:**

إنَّ امـــرءًا أبـــو عتيبـــة عمـــه ... لفـي روضـة مـا إن يـسام المظالمـا[1]

الغرانيق:

زعم البعض أنه وقعت هدنة حقًّا بين الإسلام والوثنية، أساسها أن محمدًا ﷺ تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها!!

وأن هذه الهدنة الواقعة هي التي أعادت المسلمين من الحبشة ..

وأنه ﷺ **قال:** تلك الغرانيق العلا .. وإن شفاعتهن لترتجى!!

وأنه وضع هذه الكلمات في سورة (النجم)، مقحمة وسط الآيات التي جاء فيها ذكر هذه الأصنام، فأصبحت هكذا: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ (تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [النجم][2] .

فسجد وسجد كفار مكة، فلما بلغ المسلمين في الحبشة هذه القصة المزعومة، ظنوا أن القوم قد أسلموا فرجعوا.

(1) السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ص371، وأبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 363.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 116.

وزعم البعض أن رسول الله ﷺ لم يقل هذه الكلمات، بل ألقاها الشيطان في آذان المشركين فسجدوا مع المسلمين.

وممن روى قصة الغرانيق: ابن سعد، والطبري والبيهقي. ولم يروها أحد من أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد، ولا غيرهم من أصحاب الكتب المعتمدة على التحرير؛ فهي باطلة من حيث السند والمتن(1).

والذي ثبت في الصحيح(2): أن الرسول ﷺ قرأ سورة النجم، في جماعة من المسلمين والمشركين، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب، فلما أخذ صوت الرسول ﷺ يهدر بها ويرعد بنذرها حتى وصل إلى قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم]، كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين، مع غيرهم من المسلمين، حتى إن الوليد بن المغيرة - وكان كبير السن - أخذ كفا من البطحاء، وسجد عليه.

فلما نكسوا على رءوسهم، وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم، ندموا على ما كان منهم، وأحبوا أن يعتذروا عنه، بأنهم ما سجدوا مع محمد ﷺ إلَّا لأن محمدًا ﷺ عطف على أصنامهم بكلمة تقدير (3).

المبحث الثاني: الهجرة الثانية إلى الحبشة

اشتد البلاء على العائدين من الحبشة (وعلى غيرهم من المسلمين)، ونكلت بهم قريش؛ لما بلغها من حسن جوار النجاشي، وما كان فيه المهاجرون من الأمن على أنفسهم ودينهم، ولم يكن من بد أن يشير النبي ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى.

وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها؛ فقد تيقظت لها قريش، وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، فخرج منهم في هذا الفوج ثلاثة وثمانون رجلًا وتسع عشرة امرأة، ويسر

---

(1) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 119.

(2) البخاري، الفتح (18/247-248، حديث 4862-4863).

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص 118.

الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة، ووجدوا عنده ما يبغون من أمان وطيب جوار وكرم وفادة. والظاهر أن هذا النجاشي كان رجلًا راشدًا، حسن المعرفة بالله، سليم الاعتقاد في عيسى عبد الله ورسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان هذا هو الدافع لحسن معاملته لأولئك اللاجئين إلى مملكته، فارين بدينهم من الفتن[1].

هجرة الأشعريين إلى الحبشة:

كان أبو موسى الأشعري (واسمه عبد الله بن قيس) قد قدم مكة، فحالف سعيد بن العاص بن أمية، ثم أسلم بمكة، ورجع إلى بلاده باليمن فأقام بها، ثم قدم مكة مع إخوته وبعض الأشعريين من قومه في نحو خمسين رجلًا في سفينة (مسلمين)، فألقتهم الريح إلى أرض النجاشي بالحبشة (على غير وجهتهم)، فوافقوا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، **فقال جعفر:** إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة، فأقاموا معهم[2].

روى أبو بريدة عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** خرجنا من اليمن في بضع وخمسين من قومي، ونحن ثلاثة إخوة: أنا، وأبو رهم، وأبو عامر، فأخرجتنا سفينتنا إلى النجاشي، وعنده جعفر وأصحابه (أي دفعتنا الريح إلى الحبشة بدلًا من مكة)، فأقبلنا حين افتتحت خيبر، فقال رسول الله ﷺ: «لكم الهجرة مرتين: هاجرتم إلى النجاشي، وهاجرتم إليَّ».

وعند البخاري ومسلم عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليم، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأقمنا معه حتى قدمنا، فوافينا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فقال النبي ﷺ: «لكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

كيف تولى النجاشي الحكم؟:

حكى الزهري عن عروة بن الزبير، أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حدثته عن النجاشي، أن أباه كان ملك قومه، وكان له أخ (أي عم للنجاشي)، له من صلبه اثنا عشر رجلًا، ولم يكن لأبي النجاشي ولد غير النجاشي، فأدارت الحبشة رأيها بينها، **فقالوا:** لو أنا قتلنا أبا النجاشي، وملكنا أخاه؛ فإن

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 118.

(2) محمود شيت خطاب: مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة للبحوث العامة والإفتاء، السعودية، العدد الثامن والعشرون.

له اثني عشر رجلًا من صلبه، فتوارثوا الملك؛ لبقيت الحبشة عليهم دهرًا طويلًا لا يكون بينهم اختلاف (في توراث الحكم).

فعدوا عليه فقتلوه، وملكوا أخاه.

فدخل النجاشي بعمه حتى غلب عليه، فلا يدير أمره غيره، وكان لبيبًا حازمًا من الرجال. فلما رأت الحبشة مكانه من عمه، **قالوا:** قد غلب هذا الغلام على أمر عمه، فما نأمن أن يملكه علينا، وقد عرف أنا قتلنا أباه، فلئن فعل لم يدع منا شريفًا إلَّا قتله، فكلموه فيه فليقتله، أو ليخرجنه من بلادنا.

فمشوا إلى عمه، **فقالوا:** قد رأينا مكان هذا الفتى منك، وقد عرفت أنا قتلنا أباه وجعلناك مكانه، وأنا لا نأمن أن يملك علينا فيقتلنا؛ فإما أن تقتله، وإما أن تخرجه من بلادنا.

قال: ويحكم! قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم؟! بل أخرجه من بلادكم.

فخرجوا به فوقفوه في السوق، وباعوه من تاجر من التجار، قذفه في سفينة بستمائة درهم، أو بسبعمائة، فانطلق به.

فلما كان العشي هاجت سحابة من سحائب الخريف، فخرج عمه (الملك) يتمطر تحتها، فأصابته صاعقة فقتلته.

ففزعوا إلى ولده (أي: أبناء الملك)؛ فإذا هم محمقون (جميعهم حمقى)، ليس في أحد منهم خير، فمرج على الحبشة أمرهم، **فقال بعضهم لبعض:** تعلمون والله أن ملككم الذي لا يصلح أمركم غيره للذي بعتم الغداة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة، فأدركوه قبل أن يذهب.

فخرجوا في طلبه، فأدركوه، فردوه، فعقدوا عليه تاجه، وأجلسوه على سريره، وملكوه.

فقال التاجر: ردوا عليّ مالي كما أخذتم مني غلامي (يقصد النجاشي). **فقالوا:** لا نعطيك، **فقال:** إذًا والله لأكلمنه.

فمشى إليه فكلمه، **فقال:** أيها الملك! إني ابتعت غلامًا، فقبض مني الذي باعوه ثمنه، ثم عدوا على غلامي فنزعوه من يدي، ولم يردوا عليَّ مالي.

فكان أول ما خبر به من صلابة حكمه وعدله، أن **قال:**

لتردن عليه ماله، أو لتجعلن يد غلامه (يعني نفسه) في يده، فليذهبن به حيث شاء.

فقالوا: بل نعطيه ماله، فأعطوه إياه.

ولذا كان النجاشي يقول لوفد قريش الذي جاءه بالهدايا ليرد إليهم المسلمين - كما سيأتي: «ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، ولا أطاع الناس فيَّ، فأطيع الناس فيه» [1].

اسم النجاشي:

(النجاشي): علم على من ملك الحبشة، كقولك (كسرى) لمن ملك الفرس، و(قيصر) لمن ملك الإمبراطورية البيزنطية، و(فرعون) لمن ملك مصر، و(خاقان) لمن ملك الترك.. **والنجاشي** الذي نزل بأرضه المهاجرون من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كان اسمه (أصحمة بن بحر)، **وقال يونس عن ابن إسحاق** (في نسخة صححها البيقهقي): اسمه (أصحم)، وهو بالعربية: (عطية). وقد روى البخاري عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ **قال يوم مات النجاشي:** «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة».

سعي قريش لإعادة المهاجرين:

قال ابن إسحاق: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **قالت:** لما ضاقت (مكة)، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفُتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه؛ **فقال لهم رسول الله ﷺ:**«إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده، فالحقو ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه»، فخرجنا إليها أرسالًا، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخش فيها ظلمًا.

فلما رأت قريش أنا قد أصبنا دارًا وأمنًا غاروا منا، فاجتمعوا على أن يبعثوا إلى النجاشي فينا؛ ليخرجنا من بلاده، وليردنا عليهم، فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقته، فلم يدعوا رجلًا إلَّا هيئوا له هدية على حدة، **وقالوا لهما:** ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا إليه هداياه، فإن استطعتم أن يردهم عليكم قبل أن يكلمهم فافعلوا.

---

(1) **انظر:** صحيح السيرة النبوية، الألباني، ص 92-94.

فقدما عليه، فلم يبق بطريق من بطارقته إلَّا قدموا إليه هديته، فكلموه، **فقالوا له:** إنما قدمنا على هذا الملك في سفهائنا؛ فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه، فأشيروا عليه بأن يفعل. **فقالوا:** نفعل.

ثم قدموا للنجاشي هداياه، وكان من أحب ما يهدون إليه من (مكة) الأدم. **وذكر موسى بن عقبة:** أنهم أهدوا إليه فرسًا وجبة ديباج.

فلما أدخلوا عليه هداياه **قالوا له:** أيها الملك، إن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجئوا إلى بلادك، وقد بعثنا إليك فيهم عشائرهم؛ آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فإنهم أعلى بهم عينا، فإنهم لن يدخلوا في دينك فتمنعهم لذلك.

فقالت بطارقته: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهعم كانوا هم أعلى بهم؛ فإنهم لم يدخلوا في دينك فيمنعهم أمَلُك، فغضب ثم **قال:** لا لعمر الله**!** لا أردهم عليهم حتى أدعوهم؛ فأكلمهم، وأنظر ما أمرهم؛ قوم لجئوا إلى بلادي، واختاروا جواري على جوار غيري، فإن كانوا كما يقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أدخل بينهم وبينهم، ولم أَنْعَم عينًا.

(**وذكر موسى بن عقبة:** أن أمراءه أشاروا عليه بأن يردهم إليهم، **فقال:** لا والله؛ حتى أسمع كلامهم، وأعلم على أي شيء هم عليه).

فلما دخلوا عليه سلموا ولم يسجدوا له، **فقال:** أيها الرهط**!** ألا تحدثوني ما لكم لا تحيوني كما يحييني من أتانا من قومكم؟**!** فأخبروني ماذا تقولون في عيسى؟ وما دينكم؟ أنصارى أنتم؟

قالوا: لا.

قال: أفيهود أنتم؟

قالوا: لا.

قال: فعلى دين قومكم؟

قالوا: لا.

قال: فما دينكم؟

قالوا: الإسلام.

قال: وما الإسلام.

قالوا: نعبد الله لا نشرك به شيئًا.

قال: من جاءكم بهذا؟

قالوا: جاءنا به رجل من أنفسنا، قد عرفنا وجهه ونسبه، بعثه الله إلينا كما بعث الرسل إلى من قبلنا، فأمرنا بالبر والصدقة، والوفاء، وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبد الأوثان، وأمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له، فصدقناه، وعرفنا كلام الله، وعلمنا أن الذي جاء به من عند الله، فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا، وعادوا النبي الصادق، وكذبوه، وأرادوا قتله، وأرادونا على عبادة الأوثان، ففررنا إليك بديننا ودمائنا من قومنا.

قال: والله إن هذا لمن المشكاة التي خرج منها أمر موسى.

قال جعفر: وأما التحية فإن رسول الله ﷺ أخبرنا أن تحية أهل الجنة (السلام)، وأمرنا بذلك، فحييناك بالذي يحيي بعضنا بعضًا.

وأما عيسى ابن مريم؛ فعبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وابن العذراء البتول.

فأخذ عودًا، **وقال:** والله ما زاد ابن مريم على هذا وزن هذا العود.

فقال عظماء الحبشة: والله لئن سمعت الحبشة (بقولك) لتخلعنك.

فقال: والله لا أقول في عيسى غير هذا أبدًا، وما أطاع الله الناس فيَّ حين رد علي ملكي؛ فأطيع الناس في دين الله؟! معاذ الله من ذلك!

وقد وردت روايات أخرى عن ابن إسحاق، تكمل ما دار بين النجاشي ووفد قريش وجعفر وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

قال ابن إسحاق:

فدعانا (أي: رسول الله ﷺ) إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – **قال:**

فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده لا شريك له، ولم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا، فعذبونا ليفتنونا عن ديننا، ويردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك!

قالت (أي أم سلمة): **فقال النجاشي:** هل معك شيء مما جاء به؟

فقرأ عليه صدرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم] فبكى - والله - النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم (حين سمعوا ما تلا عليهم).

ثم **قال:** إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى .. انطلقوا راشدين، لا والله لا أردهم عليكم، ولا أنعمكم عينًا.

فخرجنا من عنده، وكان أبقى الرجلين فينا عبد الله بن أبي ربيعة، **فقال عمرو بن العاص:** والله لآتينه غدًا بما أستأصل به خضراءهم، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد - عيسى ابن مريم - عبد!

فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا تفعل؛ فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحمًا ولهم حقًّا. **فقال:** والله لأفعلن.

فلما كان الغد دخل عليه، **فقال:** أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم فسلهم عنه.

فبعث - والله - إليهم ولم ينزل بنا مثلها!

فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟

فقالوا: نقول والله - الذي قال الله فيه، والذي أمرنا نبينا أن نقوله فيه.

فدخلوا عليه وعنده بطارقته، **فقال:** ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال له جعفر: نقول: هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فدلى النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عودًا بين إصبعيه، **فقال:** ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العويد.

فتناخرت بطارقته (غضبًا)، **فقال:** وإن تناخرتم والله.

اذهبوا فأنتم شيوم في الأرض (**الشيوم:** الآمنون في الأرض)، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم (ثلاثًا) .. ما أحب أن لي دبرًا وأني آذيت رجلًا منكم (**والدبر بلسانهم:** الذهب).

انقلاب على النجاشي:

قال ابن إسحاق – مستكملًا حديث أم سلمة: (**قالت:** فأقمنا مع خير جار في خير دار، فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه الملك، فوالله ما علمتنا حزنًا حزنًا قط هو أشد منه؛ فرقًا من أن يظهر ذلك الملك عليه، فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرفه، فجعلنا ندعوا الله ونستنصره للنجاشي، فخرج إليه سائرًا. **فقال أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم لبعض:** من يخرج فيحضر الوقعة حتى ينظر على من تكون؟

قال الزبير – وكان من أحدثهم سنًّا: أنا.

فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، فجعل يسبح عليها في النيل حتى خرج من شقه (شاطئه) الآخر إلى حيث التقى الناس، فحضر الوقعة. فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي عليه. فجاءنا الزبير، فجعل يليح لنا بردائه، **ويقول:** ألا فأبشروا؛ فقد أظهر الله النجاشي.

قالت: فوالله ما علمتنا أننا فرحنا بشيء قط فرحنا بظهور النجاشي.

إسلام النجاشي:

ثبت إسلام النجاشي من صلاة النبي ﷺ عليه صلاة الغائب لما علم بموته، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات [1]، وقد سبق حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ **قال حين مات النجاشي:** «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة»[2]. وروى

(1) البخاري، كتاب الجنائز، رقم (1333).

(2) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، حديث رقم (3811).

ابن إسحاق بسنده عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **قالت:** «لما مات النجاشي كان يُتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور»[1].

دروس من الهجرة إلى الحبشة:

الدرس الأول: الدين أم الوطن؟:

إن الدين والاستمساك به وإقامة دعائمه، أساسٌ ومصدرٌ لكل قوة، وهو السياج لحفظ كل حق من مال وأرض وحرية وكرامة، ومن أجل هذا كان واجب الدعاة إلى الإسلام والمجاهدين في سبيله أن يجندوا كل إمكاناتهم لحماية الدين ومبادئه، وأن يجعلوا من الوطن والأرض والمال والحياة وسائل لحفظ العقيدة وترسيخها، حتى إذا اقتضى الأمر بذل ذلك كله في سبيلها، وجب بذله.

ذلك أن الدين إذا فُقد أو غلب عليه، لم يغن من ورائه الوطن والمال والأرض؛ بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضًا من ورائه، أما إذا قوي شأنه وقامت في المجتمع دعائمه، ورسخت في الأفئدة عقيدته، فإن كل ما كان قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود .. يعود أقوى من ذي قبل؛ حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة[2].

الدرس الثاني: اللجوء السياسي إلى غير ديار المسلمين:

الهجرة إلى الحبشة هي عمدة الأدلة في جواز لجوء المسلمين إلى بلاد لا تدين بالإسلام؛ طلبًا للأمن، والحماية من ظلم الطواغيت، إذا تعذر عليهم أن يجدوا بلدًا من بلاد المسلمين يأمنون فيه على دينهم وأنفسهم.

والإسلام يقدر دوافع هذا الفعل، ويفتح له آفاق الحركة. قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾ [العنكبوت]، (أنتم عبادي، وهذه أرضي، وهي واسعة فسيحة تسعكم .. فما الذي يمسككم في مقامكم الضيق الذي تفتنون فيه عن دينكم، ولا تملكون أن تعبدوا الله مولاكم؟ غادروا هذا الضيق يا عبادي إلى أرضي الواسعة، ناجين بدينكم، أحرارًا في عبادتكم، ومادامت كلها أرض الله، فأحب بقعة منها إذًا هي التي تجدون فيها السعة لعبادة الله وحده دون سواه».

---

(1) رواه أبو داود (2523).

(2) البوطي: فقه السيرة، ص 140.

وقد **قال ابن حزم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المحلى»: «وأما من فر إلى أرض الحرب لظلم خافه ولم يحارب المسلمين، ولا أعانهم عليهم، ولم يجد في المسلمين من يجيره، فهذا لا شيء عليه؛ لأنه مضطر مكره، وقد ذكرنا أن الزهري «محمد بن مسلم بن شهاب» كان عازمًا على أنه إن مات هشام بن عبد الملك لحق بأرض الروم؛ لأن الوليد بن يزيد كان نذر دمه إن قدر عليه، وهو كان الخليفة بعد هشام، فمن كان هكذا فهو معذور»[1] .

والخروج عن الوطن فرارًا بالدين مشروع، وإن كان الوطن مكة - على فضلها - فإن الحبشة كانوا نصارى يعبدون المسيح، وقد خرج المسلمون من بيت الله الحرام، لما كان فعلهم ذلك احتياطًا على دينهم، ورجاء أن يخلى بينهم وبين عبادة ربهم، يذكرونه آمنين مطمئنين، وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر في بلد، وأوذي على الحق مؤمن، ورأى الباطل قاهرًا للحق، ورجا أن يكون في بلد آخر (أي بلد كان) خليٌّ بينه وبين دينه، ويظهر فيه عبادة ربه، فإن الخروج على هذا الوجه حق على المؤمن، وهذه هي الهجرة التي لا تنقطع إلى يوم القيامة [2].

وقد وضع الفقهاء شروطًا للهجرة إلى غير ديار المسلمين، منها:

1- أن يتأكد من وقوع الظلم عليه من طواغيت وطنه.

2- أن يتعذر أن يجد بلدًا آخر من بلاد المسلمين يأمن فيها على دينه ونفسه.

3- أن يحسن اختيار البلد التي يهاجر إليها؛ فقد اختار رسول الله ﷺ الحبشة لهجرة أصحابه؛ لعدل حاكمها، ولعلمه أنه لا يظلم بجواره أحد؛ الأمر الذي ساعد على اختيار دار آمنة لأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يسلمهم النجاشي لوفد قريش لما طلب ذلك.

4- ألا يعين الكفار على المسلمين بأي أسلوب من أساليب الإعانة، كأن يفشي لهم أسرار المسلمين، أو أن يقاتل معهم ضد المسلمين.

الدرس الثالث: النجاشي حجة على النصارى:

كان أخطر ما واجه به عمرو بن العاص المسلمين بين يدي النجاشي، هو أنهم لا يشهدون لعيسى بالألوهية، ولا بأنه ثالث ثلاثة، ولا حتى بأنه ابن الله!! وفي هذا هدم لعقيدة المسيحية من أصولها؛ خاصةً وقد كان كلام جعفر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ واضحًا، لا لبس فيه ولا غموض: (أما عيسى ابن مريم، فعبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وابن العذراء البتول).

---

(1) المحلى (12/125).

(2) الصلابي: السيرة النبوية، ص202.

وجاء تعليق النجاشي على ما سمعه منه صادمًا لوفد قريش والبطارقة من حوله؛ حيث **قال:** «إن هذا والذي جاء به عيسى ابن مريم ليخرج من مشكاة واحدة»، وهذا يؤكد أن النجاشي كان يعلم (والبطارقة أيضًا) أن الأنبياء كلهم إنما جاءوا بعقيدة التوحيد، وأن تبديل أهل الكتاب لهذه العقيدة إنما كان بغيًا من عند أنفسهم.

الدرس الرابع: جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرجعية في فن الحوار:

حديث جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحواره الطويل مع النجاشي، يجب أن يكون مرجعًا لكل داعٍ إلى الله، ولكل سياسي أو إعلامي مسلم في آداب الحوار وكيفيته .. وسيجد فيه هؤلاء من الأساليب والوسائل ما يعينهم على إيصال فكرتهم في حوارهم مع الباحثين عن الحق والجاحدين به، ومع المنصفين وغير المنصفين، ومع من لهم آراء مسبقة لن يبدلوها، ومن كانت الحكمة ضالتهم سواء بسواء.

وبإطلاله سريعة على حوار جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النجاشي، نجد أن منهج جعفر في الحوار تميز بما يلي:

(أ) إبراز نقاء الحق، وبيان محاسنه، ووضوح معالمه، فلا ينكره إلَّا كل جاحد أثيم، وإظهار توافقه مع كل ما هو مكنون في الفطرة من مكارم؛ مما يصنع مساحة مشتركة، يتفق عليها المتحاورون جميعًا.

(ب) إيضاح مدى الجرم الذي وقع فيه أهل الباطل، بإصرارهم على رفض الحق الذي يحمل هذه المساحة المشتركة المتفق عليها بين الجميع.

(ح) تجنب الانفعال، والالتزام باللين من القول، والثناء على أهل الفضل، ولو كانوا من المخالفين.

(د) حسن اللغة والفصاحة والذكاء، ومخاطبة العقل والقلب معًا، وفق مسار الحوار ومقتضياته.

(هـ) الوضوح، وعدم إخفاء معلم من معالم الحق إيثارًا للسلامة، وعدم الانحراف عن الثوابت، بتعديل أو زيادة أو نقصان. وقد قال رسول الله ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس»[1].

---

(1) رواه الترمذي (2414)، وصححه الألباني.

الفصل الرابع

إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

كان إسلام حمزة وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أشد أوقات الاضطهاد والتعذيب للمسلمين في مكة، وأراد الله ﷻ أن يكونا قوةً تحمي الإسلام، وتذود عن عرينه أمام طغيان الكفر وتبجحه؛ فكل منهما لا يعرف الحلول الوسطى، ولا يناسبه إلَّا المواجهة والمجابهة، وهو ما كان المسلمون في مسيس الحاجة إليه؛ لإنهاء مرحلة من الاستضعاف، وابتداء مرحلة جديدة من جهرية الدعوة والعبادة، أكثر وضوحًا، يصلي فيها المسلمون عند الكعبة، ويدعون إلى الله علانية، ويجلسون حلقًا حول البيت، ويطوفون به، وينتصفون ممن غلظ عليهم، ويردون عليه بعض ما أتى به. لقد كان إسلام حمزة وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فخرًا وعزًّا للإسلام، خطى بالدعوة من مرحلة الخوف والاضطهاد والتعذيب، إلى مرحلة العلنية وإظهار العبادات والشعائر، وإلى زيادة المفاصلة مع الوثنية والكفر.

المبحث الأول: إسلام حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال ابن إسحاق: مر أبو جهل برسول الله ﷺ فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك .. ثم انصرف عنه عائدًا إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحًا قوسه، راجعًا من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلَّا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتًى في قريش وأشده شكيمة، فلما مر بالمولاة - وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته - **قالت:** يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفًا من أبي الحكم بن هشام، وجده هاهنا جالسًا فآذاه وشتمه وسبه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد!! فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى لم يقف لأحد، معدًّا لأبي جهلٍ إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها، فشجه شجة منكرة، ثم **قال:** أتشتمه؟ فأنا على دينه؛ أقول ما يقول، فردَّ عليَّ ذلك إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، **فقال أبو جهل:** دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه

سبًّا (أي: أنا دينه ﷺ) قبيحًا[1]. **وزاد غير ابن إسحاق في إسلام حمزة أنه قال:** لما حملني الغضب، وقلت أنا على قوله (أي: أنا على دينه)، أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي، وبت من الشك في أمر عظيم، لا أكتحل بنوم، ثم أتيت الكعبة فتضرعت إلى الله أن يشرح صدري، ويذهب عني الريب، فما استتممت دعائي حتى زال عني الباطل، وامتلأ قلبي يقينًا – أو كما قال – فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمري، فدعا لي بأن ثبتني الله[2].

تعقيب:

كان إسلام حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عصبية لابن أخيه محمد ﷺ، ثم شرح الله صدره للإسلام، فثبت عليه واستمسك بعروته الوثقى، وعلمت قريش يومها أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون فيه. (إن طغيان الكفر وتبجحه وتحديه للإسلام، قد يُخرج من صفوف هذا الكفر القوة التي تحمي الإسلام، وتذود عن عرينه؛ بدافع العصبية أو غيرها، والجاهلية العاتية يوم تتصور أن ما تنزل من الضربات في صفوف المسلمين سينهيهم، هي في الحقيقة تحفر قبرها بيديها؛ لأن جذوة الحق الخامدة في النفوس لابد أن تتقد وتتهيج لنصرة هؤلاء الصادقين المستضعفين .. وهذا ما وقع في حادث إسلام حمزة)[3].

المبحث الثاني: إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كان عمر في جاهليته من ألد خصوم الإسلام، وقد لقي منه المسلمون صنوفًا من الإيذاء والتعذيب، ولم يسلم منه حتى أقرب الناس إليه. **قال زوج أخته سعيد بن زيد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم» [4].

وكان رسول الله ﷺ يرى في إسلامه عزًّا للإسلام، ومنعة وقوة للمستضعفين من المسلمين، فكان يدعو الله أن يشرح صدره للإسلام كما روى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ كان **يقول:** «اللّٰهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب»[5]، فكان عمر أحب الرجلين إلى الله، وكان إسلامه استجابة لدعاء نبيه ﷺ.

---

(1) ، (2) محمد بن عبد الوهاب: مختصر السيرة النبوية، ص 88-89.

(3) منير الغضبان، المنهج الحركي، ص 78.

(4) رواه أحمد في فضائل الصحابة (1/218).

(5) رواه أحمد (5800)، والترمذي (3681)، وصححه الألباني.

تدرج نزول الهداية في قلبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

رغم ما كان عليه عمر في جاهليته من عداء للإسلام وإيذاء للمسلمين، ورغم ما عرف عنه من غلظة لا تبشر بهداية، إلَّا أن نوازع الفطرة السليمة في قلبه كانت تصطرع مع غشاوات الجاهلية، وكان أول ما وقع في قلبه من الإسلام، هو سماعه لسورة الحاقة من النبي ﷺ، وهو قائم يصلي عند الكعبة، كما حكى هو عن نفسه، **فقال:**

خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن، **فقلت:** هو شاعر كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة]، **فقلت:** كاهن علم ما في نفسي، فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة] ... إلى آخر السورة. **قال عمر:** فوقع الإسلام في قلبي كل موقع(1).

وفي روايات أخرى: أنه جاء ذات يوم يريد جلساءه، فلم يجد أحدًا، **فقال:** لو أني ذهبت إلى فلان الخمار لعلي أجد عنده خمرًا فأشرب، فلم يجده.

ثم **قال:** لو أني جئت الكعبة فطفت بالبيت سبعًا، فذهب يطوف، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، **فقال:** لو أني استمعت إلى محمد الليلة حتى أسمع ما يقول، فاستخفى وراء ستر الكعبة، ومازال يتحرك من وراء الكسوة حتى صار قريبًا من النبي ﷺ قبل قبلته، ما يواريه إلَّا ثياب الكعبة، قال: فلما سمعت القرآن رقَّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائمًا في مكاني هذا حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف(2).

وقد روى ابن إسحاق: أن ليلى – أم عبد الله – زوجة عامر بن ربيعة، **قالت:**

والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا؛ إذ أقبل عمر، فوقف وهو على شركه، **فقالت:** وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا.

قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟

قلت: نعم؛ والله لنخرجن في أرض من أرض الله – إذ آذيتمونا وقهرتمونا – حتى يجعل الله لنا مخرجًا.

---

(1) رواه أحمد في مسنده (108).

(2) السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ص 341.

قالت: فقال: صحبكم الله. ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه – فيما أرى – خروجنا.

قالت: فجاء عامر بحاجتنا تلك، **فقلت له:** يا أبا عبيد الله، لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا.

قال: أطمعتِ في إسلامه؟ **قالت: قلت:** نعم.

قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب!

قالت: يأسًا منه؛ لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام.

إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أما عن إسلام عمر، فأخرج أبو نعيم في الدلائل وابن عساكر، عن ابن عباس، **قال: قلت لعمر:** لأي شيء سميت الفاروق؟ **قال:** أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام، فخرجت فإذا فلان المخزومي، **فقلت له:** أرغبت عن دين آبائك واتبعت دين محمد؟ **قال:** إن فعلت فقد فعله من هو أعظم عليك حقًّا مني. **قلت:** من ذلك؟ **قال:** أختك وختنك (زوج أختك). فانطلقت (إلى دارهما) فوجدت همهمة، فدخلت **فقلت:** ما هذا؟ فما زال الكلام بيننا حتى أخذت برأس أختي فضربته وأدميته. فقامت إلي، فأخذت برأسي، **فقالت:** وقد كان ذلك على رغم أنفك. فاستحييت حين رأيت الدماء، فجلست **فقلت:** أروني هذا الكتاب. قالت: إنه لا يمسه إلَّا المطهرون. فقمت فاغتسلت، فأخرجوا لي صحيفة فيها: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)، **فقلت:** أسماء طيبة طاهرة: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه]، إلى قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه]، فتعظمت في صدري، **فقلت:** ما أحسن هذا الكلام وأجمله!! .. فأسلمت. **فقلت:** أين رسول الله؟ **قالت:** فإنه في دار الأرقم. فأتيته فضربت الباب، فاستجمع القوم، **وقال لهم حمزة:** ما لكم؟ **قالوا:** عمر. **قال:** وعمر؟! افتحوا له الباب، فإنه إن أقبل قبلناه، وإن أدبر قتلناه. فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فخرج فتشهد عمر، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد، **قلت:** يا رسول الله، ألسنا على الحق؟ **قال:** بلى. قلت: ففيم الاختفاء؟ فخرجنا في صفين: أنا في أحدهما، وحمزة في الآخر، حتى دخلنا المسجد، فنظرت قريش إليَّ وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة شديدة، فسماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ[1].

---

(1) محمد بن عبد الوهاب: مختصر السيرة النبوية، ص 89-91.

وفي رواية أنس عند أبي يعلى والحاكم والبيهقي، قال: خرج عمر متقلدًا السيف، فلقيه رجل من بني زهرة، **فقال:** أين تعمد يا عمر؟ **قال:** أريد أن أقتل محمدًا، **قال:** وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدًا؟ قال: ما أراك إلَّا قد صبوت. **قال:** أفلا أدلك على العجب؟! إن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك. فمشى عمر، فأتاهما وعندهما خباب، فلما سمع (خباب) عمرًا توارى في البيت ... حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه]، **فقال عمر:** دلوني على محمد. فلما سمع خباب قول عمر خرج، **فقال:** أبشر يا عمر؛ فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ ليلة الخميس: «اللّهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام» .. فانطلق عمر حتى أتى الدار، وعلى بابها حمزة وطلحة وناس، **فقال حمزة:** هذا عمر إن يرد الله به خيرًا يسلم، وإن يكن غير ذلك كان قتله علينا هينًا [1].

المواجهة: نور الهداية:

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر، **قال:** لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، **قلت:** أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إليَّ، **وقال:** أهلًا أهلًا وسهلًا، ما جاء بك؟ **قال:** جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ﷺ، وصدقت بما جاء به، **قال:** فضرب الباب في وجهي، **وقال:** قبحك الله، وقبح ما جئت به.

وذكر ابن هشام: أنه لما أسلم عمر أتى إلى جميل بن معمر الجمحي - وكان أنقل قريش لحديثه - فأخبره أنه أسلم، فنادى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبأ. **فقال عمر** - وهو خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت، فثاروا إليه فمازال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، وطلح - أي أعيا - عمر، فقعد، وقاموا على رأسه، وهو **يقول:** افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا[2].

زحف المشركين إلى بيته؛ لقتله:

روى البخاري عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** بينما هو - أي عمر - في الدار خائفًا؛ إذ جاءه العاص بن وائل السهمي (أبو عمرو بن العاص) وعليه حلة حبرة، وقميص مكفوف بحرير، وهو من بني سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية، **فقال له:** ما لك؟ **قال:** زعم قومك أنهم

---

(1) المصدر السابق.

(2) ابن هشام، (299/1).

سيقتلوني أن أسلمت، **قال:** لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص، فلقي الناس قد سال بهم الوادي، **فقال:** أين تريدون؟ **فقالوا:** هذا ابن الخطاب الذي قد صبأ، **قال:** لا سبيل إليه (أي: هو في جواري)، فكر الناس[1]، وفي لفظٍ - والله لكأنما كانوا ثوبًا كشط عنه.

عز الإسلام بالفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

بإسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عز الإسلام والمسلمون، فأعلنوا دينهم، وأظهروا عبادتهم، وصلوا عند الكعبة وطافوا، وجلسوا حلقًا لا يقربهم أحد.

روى مجاهد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** سألت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأي شيء سميت الفاروق؟ **قال:** أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام، ثم قص عليه قصة إسلامه - **وقال في آخره: قلت** (أي حين أسلمت): يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ **قال:** «بلى؛ والذي نفسي بيده، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم»، **قال: قلت:** ففيم الاختفاء؟! والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحن، حتى دخلنا المسجد، **قال:** فنظرت إليَّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الفاروق) يومئذ. وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا أنه **قال:** «لما أسلم عمر، قال المشركون: قد انتصف القوم منا»[2].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب»[3].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أيضًا:** «إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه»[4].

وروي عن صهيب الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي منه»[5].

---

(1) صحيح البخاري (545/1)، باب إسلام عمر.

(2) رواه أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (248/1).

(3) صحيح البخاري، باب إسلام عمر (3863).

(4) ابن هشام (422/1).

(5) ابن سعد (269/3).

الفصل الخامس

الحصار في الشعب والمقاطعة العامة

استمر رسول الله ﷺ في دعوته، وكثر أصحابه يومًا بعد يوم، وأخذ الإسلام ينتشر في القبائل، ورأت قريش ما قدره الله تعالى للمهاجرين إلى أرض الحبشة، وكيف أن النجاشي منعهم، وحماهم وأمنهم، وأن وفدهم الذي أرسلوه إليه عاد خائبًا، وأن المسلمين في مكة قد صاروا في عزة ومنعة بإسلام حمزة بن المطلب وعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، كما رأت أن كل محاولات إثناء رسول الله ﷺ عما جاء به باءت بالفشل، فهالها الأمر، وعزمت على قتل محمد ﷺ، فأجمع بنو عبد المطلب أمرهم على أن يُدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، وأن يحموه، فدخلوا الشعب جميعًا؛ مسلمهم وكافرهم، ولم يشذ عن ذلك إلا أبو لهب؛ فقد انحاز إلى كفار قريش، وظاهرهم.

روى أبو نعيم عن عروة بن الزبير، **قال:** لما أقبل عمرو بن العاص من الحبشة من عند النجاشي إلى مكة، اشتد المشركون على المسلمين كأشد ما كانوا، حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، وعمد المشركون من قريش، فأجمعوا مكرهم وأمرهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، فلما رأى ذلك أبو طالب جمع بني عبد المطلب، فأجمع لهم أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك كافرهم ومسلمهم، منهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا»(1).

المقاطعة العامة:

بعدما رأى مشركو مكة ما اجتمع عليه بنو هاشم وبنو المطلب من حماية رسول الله ﷺ والدفاع عنه، أجمعوا أمرهم، وائتمروا بينهم على مقاطعتهم وحصارهم حتى يسلموه، واتفقوا على كتابة صحيفة (وثيقة) بذلك، **تضمنت ما يلي:**

1- أن لا يزوجوا أحدًا من نسائهم لبني هاشم وبني المطلب، وأن لا يتزوجوا منهم.

2- أن لا يبتاعوا منهم شيئًا، ولا يبيعوهم شيئًا مهما كان نوعه.

3- أن لا يجتمعوا معهم على أمرٍ من الأمور.

---

(1) أبو نعيم: دلائل النبوة (205).

4- أن يكونوا يدًا واحدةً على محمد ﷺ وأتباعه[1].

قال عروة بن الزبير: «... اجتمع المشركون من قريش، فأجمعوا أمرهم على أن لا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بمكرهم صحيفة وعهودًا ومواثيق أن لا يقبلوا من بني هاشم أبدًا صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة ولا هوادة، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل»[2].

كاتب صحيفة المقاطعة:

كُتبت الصحيفة بخط (منصور بن عكرمة)، كما روى ابن إسحاق، **وقال ابن سعد:** بخط «بغيض بن عامر»، **وقال ابن هشام:** بخط «النضر بن الحارث»، فدعا رسول الله ﷺ على كاتبها، فشلت يده[3]. وقد وقع عليها أربعون رجلًا من وجوه قريش، وختموها بخواتيمهم.

مكان كتابة الصحيفة وتعليقها:

كان اجتماع قريش وكتابتهم للصحيفة في خيف بني كنانة [4] من وادي المحصب، فقد روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ حين أراد حنينًا (بعد فتح مكة) **قال:** «منزلنا غدًا إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا الكفر»[5]، **وفي رواية أخرى:** عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ﷺ **قال حين أراد قدوم مكة** (فاتحًا): «منزلنا غدًا إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر»[6]، **قال ابن حجر:** إنه لا تعارض بين الروايتين؛ لأنه يحمل على أنه قال ذلك حين أراد دخول مكة في غزوة الفتح، وفي ذلك القدوم غزا حنينًا[7].

أما الصحيفة فقد علقوها بجوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من النبوة.

---

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص315.

(2) أبو نعيم: دلائل النبوة (205).

(3) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 359.

(4) **الخيف:** ما انحدر من الجبل وكان مرتفعًا عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف في منى.

(5) البخاري (3882).

(6) البخاري (1589).

(7) الفتح (39/15).

أهداف المقاطعة والحصار:

استهدفت قريش من الحصار أمرًا من ثلاثة:

* الأمر الأول: أن يقوم بنو هاشم بتسليم النبي ﷺ.

* الأمر الثاني: أن يتراجع النبي ﷺ عن دعوته.

* الأمر الثالث: القضاء على من بالشعب جميعًا، فيموتون جوعًا وعطشًا تحت وطأة الحصار.

المحاصرون في الشعب:

كان من دخل شعب (وادي) أبي طالب في هذا الحصار الجائر:

1- رسول الله ﷺ.

2- غالب المسلمين، ومن لم يدخل الشعب اشتد عليه المشركون وأوثقوه[1].

3- بنو هاشم وبنو المطلب، ما عدا أبي لهب، الذي ناصر قريشًا على ابن أخيه، وأبدى شماتته به وبأصحابه، حتى أنه لقي هند بنت عتبة، **فقال لها:** يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعزى؟ **فقالت هند:** نعم جُزيت خيرًا يا أبا عتبة.

وقيل: إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أيضًا لم يدخل الشعب معهم، ولكنه قول نادر، والأكثر على الاقتصار على أبي لهب.

تأمين النبي ﷺ في الشعب:

لما صار قتل رسول ﷺ هدفًا لدى المشركين، كان شاغل أبي طالب الأول هو تأمينه ﷺ. **قال موسى بن عتبة عن ابن شهاب:** وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم، أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم[2]، وكان يأمر أخويه حمزة والعباس أن يرابطا عند مدخل الشعب، ويأمر عبيدة والطفيل والحصين أبناء المطلب بالمرابطة من خلف الشعب، أما هو فكان يحمل سلاحه ليلًا مع جماعة من بني هاشم والمطلب، ويطوفون حول الشعب، ثم ينامون في النهار.

---

(1) محمد بن عبد الوهاب: مختصر السيرة، ص 93.

(2) المصدر السابق.

ثلاثة أعوام من المعاناة والجهد:

لبث المحاصرون في شعبهم ثلاث سنين، عاشوا خلالها المعاناة والجهد والألم، فقد قطعت قريش عنهم الطعام بالكلية؛ حتى الطعام الذي كان يقدم مكة من خارجها ويذهب بنو هاشم لشرائه، كان القرشيون يزيدون عليهم في السعر، فلا يستطيعون شراءه. **قال السهيلي:** كانت الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة، يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئًا من الطعام قوتًا لعياله، فيقوم أبو لهب، **فيقول:** يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد؛ حتى لا يدركوا معكم شيئًا، وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافًا حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يده شيء يطعمهم به. ويغدو التجار على أبي لهب، فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المؤمنون جوعًا وعريًا .

فاشتد الخطب على المحاصرين، وألجأهم الجوع إلى التقوت بنباتات الأرض وأوراق الشجر، واضطروا إلى أكل ما لا يُستساغ. **وقد روى يونس عن سعد بن أبي وقاص، قال:** خرجت ذات ليلة لأبول، فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها، ورضضتها بالماء، فقويت بها ثلاثًا. **وقال السهيلي:** «وفي الصحيح: أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط (ورق العضاة، وكان علفًا للإبل) وورق السمر؛ حتى إن أحدهم ليصنع كما تصنع الشاة. وكان فيه سعد بن أبي وقاص، روى أنه **قال:** لقد جعت حتى أني وطئت ذات ليلة على شيء رطب، فوضعته في فمي، وما أدري ما هو إلى الآن»[1].

الواصلون لمن في الشعب:

كان لا يصل إلى من في الشعب شيءٌ إلَّا سرًّا مستخفيًا ممن أراد صلتهم من قريش، وكان ممن يصلهم حكيم بن حزام ابن أخي السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهشام بن عمرو العامري، وكان أوصلهم لبني هاشم، وذلك أنه ابن أخي نَضْلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه؛ ولذلك كان هشام لبني هاشم واصلًا، وكان ذا شرف في قومه، فكان يأتي بالبعير وبنو هاشم وبنو المطَّلب في الشعب ليلًا، قد أوقره طعامًا (أى: قد أثقله طعاما)، حتى إذا بلغ فم الشعب، خلع خطامه (الزمام الذي يقاد به) من رأسه، ثم يضرب على جنبيه (أي البعير)، ثم يأتي به قد أوقر (أُثقل) برًّا (دقيقًا)، فيفعل به مثل ذلك (حتى يدخل البعير الشعب ولا يدخل هو معه).

---

(1) الروض الأنف (2/127-128).

وفي ذات يوم كان حكيم بن حزام معه غلام يحمل قمحًا يريد به عمته السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي عند رسول الله ﷺ ومعه في الشعب، فقابله أبو جهل فتعلَّق به، **وقال له:** أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟! فوالله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فاتفق مجيء أبي البختري بن هشام بن الحارث بن أسد، **فقال لأبي جهل:** ما لك وله؟!

فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم!! **فقال له أبو البختري:** طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟! خلِّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من الآخر، فأخذ أبو البختري لِحْي[1] بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطئًا شديدًا، وحمزة ابن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فيشمتوا بهم[2].

الدعوة لا يوقفها حصار:

وفي أيام الشعب، كان المسلمون يلقون غيرهم في موسم الحج، ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة، وعرضها على كل وفد؛ فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات؛ بل يزيد جذورها عمقًا، وفروعها امتدادًا، وقد كسب الإسلام أنصارًا كثرًا في هذه المرحلة، وكسب - إلى جانب ذلك - أن المشركين قد بدأوا ينقسمون على أنفسهم، ويتساءلون عن صواب ما فعلوا، وشرع فريق منهم يعمل على إبطال هذه المقاطعة، ونقض الصحيفة التي تضمنتها[3].

إبطال المقاطعة ونقض الصحيفة:

قيض الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناسًا من أشراف قريش، كان أولهم (هشام ابن عمرو)، فقد حاك في صدره أن يأكل ويشرب وهؤلاء المحاصرون لا يأكلون ولا يشربون، وأن ينام أطفاله شبعى وينام أطفال هؤلاء عطشى وجوعى، فعمد إلى أن يجد لنفسه معينًا على نقض الصحيفة الجائرة، واهتدى إلى أن يستعين بزهير بن أبي أمية المخزومي، فهو من بني مخزوم، ولا يقوى غيره على معارضة أبي جهل زعيم بني مخزوم، وكان زهير شديد الحب للنبي ﷺ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، ثم من بعده اختار رجلًا صاحب أخلاق ونجدة، وهو المطعم بن عدي من بني نوفل، ثم ذهب يبحث عن رابع حتى وجده في شخص أبي البختري بن هشام، وبحث عن خامس، فذهب إلى زمعة بن الأسود من بني أسد، فوافقه زمعة.

(1) **اللحي:** عظم الفك.

(2) **انظر:** السيرة النبوية لأبي شهبة، ص360.

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص126.

فاجتمع الخمسة ليلًا بخطم الحجون (مكان بأعلى مكة)، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها.

وقد ذكر ابن هشام في سيرته، وابن كثير في البداية والنهاية موقفهم مفصلًا، وكان مما جاء في أمرهم وفي أمر نقض الصحيفة: فقد مشى (أي هشام بن عمرو) إلى زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، **فقال له:** يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟! لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا، **قال:** ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟! إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، **فقال له:** قد وجدت رجلًا، **قال:** من هو؟ **قال:** أنا، **فقال له زهير:** ابغنا ثالثًا.

فذهب إلى المُطْعِم بن عدي، **فقال له:** يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيهم؟! أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنَّهم إليهم منكم سراعًا، **قال:** ويحك، فماذا أصنع؟! إنما أنا رجل واحد، **قال:** قد وجدت لك ثانيًا، **قال:** من؟ **قال:** أنا، **قال:** ابغنا ثالثًا، **قال:** قد فعلت، **قال:** من؟ **قال:** زهير بن أبي أمية، **فقال:** ابغنا رابعًا، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال له: ويحك وهل نجد أحدًا يعين على ذلك، **قال:** نعم، زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، **فقال:** ابغنا خامسًا.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطَّلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابته وحقَّهم، **فقال له:** وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد، **قال:** نعم، ثم سمَّى له القوم.

فاتَّعدوا خطم الحَجون[1] ليلًا بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، **وقال زهير:** أنا أبدؤكم، فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلّة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس، **فقال:** أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

---

(1) **الحجون:** موضع بأعلى مكة، **وخطم:** مقدمة.

فقال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد: كذبت، والله لا تشق، **فقال زمعة بن الأسود:** أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت!! **فقال أبو البختري:** صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نُقِرّ به، **فقال المطعم بن عدي:** صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك، **فقال أبو جهل:** هذا أمر قُضي بليل (تُشوور فيه في غير هذا المكان)، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرَضَة قد أكلتها إلَّا: «باسمك اللّهم»، **وذكر ابن هشام أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب:** «يا عم، إن الله قد سلَّط الأرَضَة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسمًا هو لله إلَّا أثبتته فيها، ونفت (محت) منها الظلم، «القطيعة والبهتان»، **فقال:** أربُّك أخبرك بهذا! **قال:** «نعم» **قال:** فوالله ما يدخل أحد، ثم خرج إلى قريش، **فقال:** يا معشر قريش، إن ابن أخي قد أخبرني بكذا وكذا، فهلمَّ صحيفتكم، فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عنها، وإن كان كاذبًا دفعت إليكم ابن أخي، **فقال القوم:** قد رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شرًّا، ونسوا ما تعاقدوا عليه، فعند ذلك صنع هذا النفر من قريش ما صنعوا[1].

* * *

(1) السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ص 314-380؛ والبداية والنهاية، ج3، ص 96-97.

دروس من الحصار

الدرس الأول: الشعب مدرسة الصبر والتربية:

لحكمة كان يعلمها الله - ﷻ - شاء أن يدوم الحصار ثلاث سنوات، ولو شاء سبحانه لحدث الاجتماع من الرجال الخمسة أو من غيرهم بعد شهر واحد أو شهرين من بداية الحصار، لكن لا؛ فقد كان هذا التأخير مقصودًا .. لقد خرج المؤمنون من هذا الحصار أشد شكيمة، وأعمق إيمانًا، وأقوى تمسكًا بدينهم وعقيدتهم .. لقد وقع الابتلاء والامتحان، ونجح المؤمنون فيه، فإنه لابد أن يثبت الصادقون صدقهم بالتعرض للبلاء والثبات على الحق، ومن هنا كان الحصار، ومن قبله كانت الهجرة إلى الحبشة، ومن قبله كان الإيذاء والتعذيب، وكل هذه مراحل تربوية غاية في الأهمية؛ حيث صنعت جيلًا من الصحابة، يستطيع أن يواجه الأهوال دون أن تلين له قناة، أو تخور له عزيمة، أو يهتز له قلب أو عقل أو جارحة[1].

وقد أفاد الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من ذلك أيضًا عفة ونقاءً وإخلاصًا، لا يعرف لها في التاريخ نظير، فلما تعثرت تيجان الملوك بأقدامهم، واستسلمت الأقطار المكتظة بالخير لجيوشهم، كانت دوافع العقيدة وأهدافها التي تشغل بالهم قبل الفتح وبعده، فلم يكترثوا لذهب أو فضة، إنما عناهم - أولًا وآخرًا - إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

الدرس الثاني: قوة الداعية في سلوكه:

إن مشركي بني هاشم وبني المطلب، تضامنوا مع رسول الله ﷺ، وحموه لشخصه لا للرسالة التي يحملها .. فقد استطاع أن يصل إلى أعماقهم بخلقه وسلوكه وصبره، فتأثروا به وأكبروه وأحبوه، وتفاعلوا معه، وساندوه، وإن خالفوه في العقيدة والمنهج. إننا أمام ظاهرة فريدة .. أن تقوم قوة مشركة بقواعدها بحماية قيادة إسلامية، وتتحمل مسئولية هذه الحماية، ولو كانت ستؤدي إلى فتح معركة وحرب مع الفريق الآخر، وما يمكن أن يحدث هذا الموقف لولا المركز الرفيع الذي يتمتع به رسول الله ﷺ في قبيلته. لقد كانت الحماية لشخصه ولحرية دعوته، حتى ولو كانت الدعوة ضد معتقدات حماته. ولو لم يكن رسول الله ﷺ على أعلى مستوى من التقدير والاحترام والتعظيم، لما غامر البطنان الكبيران بنو هاشم وبنو المطلب في خوض حرب

(1) د. راغب السرجاني: المقاطعة والحصار الاقتصادي في شعب أبي طالب، سيرة الرسول ﷺ.
(2) الغزالي: فقه السيرة، ص126.

من أجله. وقد علل أبو طالب حمايته وعشيرته للنبي ﷺ، بأنه يحمل كل صفات الخير وكمال الأخلاق، **فقال في لاميته (التي ذكرناها):**

وما ترك قوم لا أبا لك سيدًا ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل[1]

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل[2]

الدرس الثالث: هل باستطاعة الدعوة أن تنال الحماية من غيرها دون تنازلات:

ونلاحظ هنا أن الدعوة الإسلامية قد نالت هذه الحماية دون أن تقدم أي تنازل عن عقيدتها، بل تمت الحماية لمحمد ﷺ وهو يدعو إلى الإسلام، ويسفه أحلام قريش، ويحارب عقيدتها[3].

نأخذ من ذلك أن الدعوة بإمكانها الاستفادة من القوانين والأعراف في المجتمعات المسلمة وغير المسلمة، دون أن تقدم تنازلات تمس العقيدة أو المنهج، فإذا وجدت قيمًا مثل احترام حقوق الإنسان أو الحرية الفكرية أو الديمقراطية الحقيقية، فعليها أن تتحرك مستثمرةً هذه القيم والمبادئ التي تتيح لها سرعة الانطلاق وحرية البلاغ، على أن تكون يقظة - كل اليقظة - فلا تقدم أي تنازل عن عقيدة، أو تراجع عن فكرة، أو تثني على منهج منحرف.

الدرس الرابع: على الدعاة أن يضعوا في الحسبان دائمًا احتمالات الحصار والمقاطعة:

إن أعداء الله في كل زمان ومكان يلجئون إلى استخدام سلاح محاربة الدعاة في أرزاقهم؛ ليستكينوا، ويرجعوا عما يدعون إليه. وهو أسلوب يتفق عليه المشركون والمنافقون. ولو كان المسلمون الأوائل موظفين أو مستخدمين في دولة تخالفهم فيما يدعون إليه، للجأت تلك الدولة إلى فصلهم من أعمالهم، كوسيلة من وسائل الحرب التي تتخذها ضدهم، ولكن الوسيلة المتاحة في ذلك الوقت في هذا الميدان كانت المقاطعة بتلك الكيفية .. وعلى الدعاة أن يعوا هذه الحقيقة بأبعادها المختلفة[4].

---

(1) **الذرب المواكل:** هو الذي يتكل على غيره.

(2) منير الغضبان: المنهج الحركي، ص111-115 مختصرًا.

(3) المصدر السابق، ص111.

(4) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص221.

وعلى كل تجمع يسعى لنهضة أمته ولتطبيق شرع الله فيها، أن يضع في حسبانه احتمالات الحصار والمقاطعة من أهل الباطل؛ فالكفر ملة واحدة، فعلى قادة النهضة تهيئة أنفسهم وأتباعهم لمثل هذه الظروف، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت، وأن يفكروا في مقاومة الحصار بالبدائل المناسبة؛ كي تتمكن الأمة من الصمود في وجه أي نوع من أنواع الحصار [1].

الدرس الخامس: على الدعاة أن يسعوا دائمًا إلى توطيد علاقتهم بأهل القيم:

لا يخلو زمان ولا مكان من أصحاب القيم وأهل المروءة، وعلى الدعاة أن يبحثوا عنهم فيمن حولهم؛ فلن يعدموا أن يجدوا في مجتمعاتهم مثل أولئك الخمسة، الذين دفعتهم المروءة أن يرفعوا الظلم عن المحاصرين في الشعب. ولن يخلو مجتمع من أُناس يرفضون الظلم والبغي وإهدار الحقوق والحريات والفساد والاستبداد، ويملكون من القوة والمكانة والحيلة ما يرفعون به الحيف والظلم عن الدعاة، كما فعل هؤلاء الخمسة.

* * *

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص181، بتصرف.

الفصل السادس

عام الحزن

لم يمض على انتهاء أزمة الحصار في شعب أبي طالب في العام العاشر من البعثة شهور طويلة، حتى كان مصاب رسول الله ﷺ في عمه أبي طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها، ففقد رسول الله ﷺ العم الكافل المانع، والزوجة المؤنسة الوفية، وكان بين فقدهما أيام يسيرة، فتراكمت عليه الأحزان، وكابد الشدائد، وازداد أذى قريش له ﷺ ولأصحابه.

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة؛ فكانت له وزير صدق على الابتلاء يسكن إليها، وبهلك عمه أبي طالب، وكان عضدًا وحرزًا في أمره، ومنعة وناصرًا على قومه.

المبحث الأول: موت أبي طالب

مات أبو طالب سنة عشر من المبعث، بعد الخروج من الشعب بزمن يسير، **وقيل:** توفي في رمضان قبل خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام، وقبل الهجرة بثلاث سنين، **وقيل:** كان بين وفاته ووفاة خديجة شهر وخمسة أيام[1].

وقد حزن رسول الله ﷺ على موته حزنًا شديدًا؛ فقد كان نبيلًا في كفالته صغيرًا، وفي الدفاع عنه حين نُبئ، وحين صدع بأمر ربه وأنذر عشيرته، وكان جاهه وسلطانه مسخرًا للذود عنه، ومنع الشرور أن تناله، وكان حصنًا تحتمي به الدعوة من السفهاء والمجرمين.

المشركون والمحاولة الأخيرة مع أبي طالب:

لما اشتكى أبو طالب، وثقل به مرضه، ورأت قريش أنه في مرض موته، أرادت منه أن يضع نهاية لما بينها وبين ابن أخيه محمد ﷺ قبل أن يموت، فشكلت وفدًا فيه عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي جهل وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب وآخرون، **فقالوا:** يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخُذْ له منا، وخُذْ لنا منه؛ ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه.

---

(1) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص222.

فبعث إليه أبو طالب، فجاءه **فقال:** يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك، **فقال رسول الله** ﷺ: «نعم كلمة تعطونيها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم»، **فقال أبو جهل:** نعم - وأبيك - وعشر كلمات، **قال:** «تقولون: لا إله إلَّا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه»، فصفَّقوا بأيديهم، ثم **قالوا:** أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! إن هذا لعجب!!

ثم **قال بعضهم لبعض:** إنه - والله - ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضُوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا، **فقال أبو طالب لرسول الله** ﷺ: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططًا!![1]، فأنزل الله قوله: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ ﴾ [ص].

رسول الله ﷺ والمحاولة الأخيرة مع أبي طالب:

كان رسول الله ﷺ حريصًا - كل الحرص - على هداية عمه، وعلى أن ينطق بكلمة الإيمان قبل موته؛ ليحاج له بها عند ربه، ولكن العصبية لملة الأشياخ من أجداده بداخله، وشياطين قريش من حوله، حالت بينه وبين ذلك.

فقد روى البخاري ومسلم عن ابن المسيب، أن الرسول ﷺ دخل على أبي طالب عندما حضرته الوفاة، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، **فقال له النبي** ﷺ: «يا عم قل: لا إله إلَّا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، **فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية:** «يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟!»، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلَّا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنْهَ عنك»، فأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة:113]، الآيتين، ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ [القصص:56].

---

(1) **انظر:** السيرة النبوية لأبي شهبة، ج1، ص 391، والبداية والنهاية 3/ 151.

وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ، **فقال:** «يا عماه، قل: لا إله إلَّا الله، أشهد لك بها يوم القيامة».

فقال: لولا أن تعيرني قريش يقولون ما حمله عليه إلا فزع الموت، لأقررت بها عينك، ولا أقولها إلا لأقر بها عينك. فأنزل الله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: 56].

هل تنفعه شفاعة النبي ﷺ؟:

روى البخاري بسنده عن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه **قال للنبي** ﷺ: ما أغنيت عن عمك؟ فوالله كان يحوطك، ويغضب لك، **قال:** «هو في ضحضاح[1] من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار».

وفي الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري، أنه ﷺ قال - وذكر عنده عمه أبو طالب: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، فيغلي منه دماغه».

وروى مسلم: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ **قال:** «أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، منتعل بنعلين من نار، يغلي منهما دماغه».

قال ابن كثير: ولولا ما نهانا الله عنه من الاستغفار للمشركين لاستغفرنا لأبي طالب، وترحمنا عليه[2].

ما فعلته قريش بعد موت أبي طالب:

لما مات أبو طالب، أوقعت قريش برسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع في إيقاعه في حياة أبي طالب، وناله من الاضطهاد والإيذاء والمصاعب ما لم ينله من قبله، وكان ﷺ يقول: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»، وابتدأت مرحلة عصيبة في حياة النبي ﷺ، يقف فيها هو والذين آمنوا معه بلا ناصر ولا معين إلا الله عز وجل. ومع ذلك فقد مضوا في دعوتهم، لا يلوون على شيء، ولا يصدهم إيذاء مهما بلغ.

---

(1) **الضحضاح من الماء:** ما يبلغ الكعبين، وقد استعير للقليل من النار.
(2) البداية والنهاية 156/3.

المبحث الثاني: موت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

في غمار الحزن الشديد على موت أبي طالب، دخل رسول الله ﷺ في حزن آخر جديد، وهو فقد خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، الزوجة المخلصة الوفية، التي عاشرته خمسًا وعشرين سنة، كانت له فيها نعم الزوجة، ونعم العون والسند - بعد الله - على ما واجهه من صعاب في دعوته .. فآمنت به حين كفر الناس، وصدقته حين كذبه الناس، وأشركته في مالها حين حرمه الناس، ورزقه الله منها الولد.

وكان ﷺ إذا ناله من قريش أذًى عاد إليها، فوجد فيها السكن والطمأنينة والحنان، تسري عنه بقلبها وحديثها المستطاب، وتزيل عنه آثار الأذى بيديها .. فهي المؤنسة ساعة الوحشة، والمطمئنة ساعة القلق، ووزيرة الصدق على الإسلام.

وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من نعم الله الجليلة على رسوله ﷺ، يجدها دائمًا إلى جواره، تؤازره وتناصره، وتشاركه جهاده، وتعينه على إبلاغ رسالته، واجتياز الأزمات والمحن، فكانت نسمة سلامة وبر، رطبت جبينه المتصبب من آثار الوحي، وبقيت ربع قرن معه، تحترم قبل الرسالة تأمله وعزلته وشمائله، وتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار، ومتاعب الدعوة، وماتت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ورسول الله ﷺ في الخمسين من عمره، وهي تجاوز الخامسة والستين، وقد أخلص لذكرها طول حياته [1].

فضائل خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومكانتها:

أولا: هي خير نساء زمانها: عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد» [2].

ثانيًا: لم يكمل من النساء إلَّا ثلاث، هي منهن: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلَّا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد [3] على سائر الطعام [4].

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص128، وهو في صحيح مسلم (2430).

(2) رواه البخاري (3432) ومسلم (2430).

(3) **الثريد:** الغث باللحم، وكان أطيب الطعام عند العرب.

(4) رواه البخاري (3411)؛ ومسلم (2431).

ثالثًا: جاءها السلام من ربها ومن جبريل: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ، **فقال:** يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب[1]، لا صخب فيه ولا نصب»[2]. وفي رواية عند الطبراني أنها **قالت** لما بلغها النبي ﷺ عن جبريل سلام ربها: «هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام»، **وفي رواية النسائي بزيادة:** «وعليك يا رسول الله السلام، ورحمة الله وبركاته».

رابعًا: مكانتها عند رسول الله ﷺ: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما غرت على نساء النبي ﷺ إلَّا على خديجة، وإني لم أدركها، **قالت:** وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة، فيقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة. **قالت:** فأغضبته يومًا، **فقلت:** خديجة! **فقال رسول الله ﷺ:** إني قد رزقت حبها»[3].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أيضًا **قالت:** كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يومًا من الأيام، فأخذتني الغيرة، **فقلت:** هل كانت إلَّا عجوزًا قد أبدلك الله خيرًا منها؟ فغضب ثم **قال:** «لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها، آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء». **قالت عائشة:** فقلت في نفسي: لا أذكرها بعدها بسبة أبدًا[4].

وجاءته ذات يوم امرأة عجوز من صويحباتها، فأحسن لقاءها، وصار يسأل عن أحوالها، وما صارت إليه، **فقالت عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما خرجت: تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟! **فقال:** «إنها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان» [5].

ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج قبلها، ولم يتزوج عليها في حياتها، إلى أن قضت نحبها، وكان يتذكر أيامها وحديثها، وترتاح نفسه لمن يُذَكِّره بها، وكانت هالة بنت خويلد أختها تستأذن عليه، فيهش لها، وتشرق أسارير وجهه؛ لأن صوتها يذكره بصوت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

---

(1) **القصب:** اللؤلؤ المجوف.

(2) رواه البخاري (3820)، ومسلم (2432).

(3) رواه مسلم (2435).

(4) رواه أحمد (25504)، والطبراني في المعجم الكبير (21)، وروى نحوه البخاري.

(5) رواه الحاكم (40)، وروى نحوه البخاري (6004).

المبحث الثالث: زواجه ﷺ بسودة بنت زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

في شوال من السنة العاشرة من البعثة، تزوج النبي ﷺ سودة بنت زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

من هي سودة بنت زمعة؟:

هي سودة بنت زمعة بن قيس العامرية القرشية، كانت قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ تحت ابن عمها السكران بن عمرو، أخي سهيل بن عمرو، أسلمت سودة وزوجها السكران، وهاجرا إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ضمن ثمانية نفر من بني عامر، ثم مات زوجها بأرض الحبشة، أو بعد الرجوع إلى مكة، ولها منه خمسة (أو ستة) صبية، فأمست وحيدة بين أهل زوجها المشركين، لا عائل لها ولا معين، وأبوها شيخ كبير، مازال على كفره وضلاله، ولم يزل أخوها عبد الله على دين آبائه.

زواجها من الرسول ﷺ:

فيما أورده ابن كثير، أن السيدة خولة بن حكيم، زوج عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، جاءت إلى رسول الله ﷺ بعد موت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **فقالت:** يا رسول الله، ألا تتزوج؟

فقال: ومن؟

قالت: إن شئت بكرًا، وإن شئت ثيبًا.

فقال: ومن البكر، ومن الثيب؟

قالت: أما البكر فابنة أحب خلق الله إليك، عائشة، وأما الثيب فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك.

قال: فاذكريها عليَّ.

فانطلقت السيدة خولة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى السيدة سودة، **فقالت:** ما أدخل الله عليك من الخير والبركة!!

قالت: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك إليه.

قالت: وددت .. ادخلي إلى أبي فاذكري ذلك له.

وكان شيخًا كبيرًا قد أدركه السن، قد تخلف عن الحج، فدخلت عليه، فحيته بتحية الجاهلية.

فقال: من هذه؟

قالت: خولة بنت حكيم.

قال: فما شأنك؟

قالت: أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة.

فقال: كفء كريم، ما تقول صاحبتك؟

قالت: تحب ذلك.

قال: ادعيها إليَّ. فدعتها.

قال: أي بنية، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أتحبين أن أزوجك به؟

قالت: نعم.

قال: ادعيه لي.

فجاء رسول الله ﷺ، فزوجها إياه، فجاء أخوها من الحج (ولم يكن أسلم بعد)، فجاء (غاضبًا) يحثي على رأسه التراب، **فقال بعد أن أسلم:** لعمرك إني لسفيه يوم أحثي في رأسي التراب أن تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة (1).

لماذا تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة؟:

كانت السيدة سودة بنت زمعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قد بلغت من العمر الخامسة والخمسين حين تزوجها رسول الله ﷺ، بينما كان هو ﷺ في الخمسين من عمره، ولم تكن ذات جمال ولا حسب، ولا مطمع فيها للرجال، وكانت أيضًا مصبية (أي لها صِبْيَان؛ فقد كان لها خمسة صبية أو ستة). وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ خطب امرأة من قومه **يقال لها:** سودة، وكانت مصبية. فقال لها رسول الله ﷺ: «ما يمنعك مني؟».

(1) ابن كثير: السيرة النبوية، ج2، ص142-143.

قالت: والله يا نبي الله، ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البرية إليَّ، ولكني أُكرمك أن يضعوا هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية (خافت أن يزعج صبيانها النبي ﷺ وأن يكونوا عبئًا عليه إذا تزوجها).

قال: «فهل منعك مني شيء غير ذلك؟».

قالت: لا والله.

قال لها رسول الله ﷺ: «يرحمك الله، إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغر، وأرعاه على بعل بذات يد» (أي تجمع بين رعاية أولادها ورعاية زوجها)[1].

ومن ذلك كله نوقن أن رسول الله ﷺ إنما تزوجها رفقًا بحالها، وشفقة عليها، وحفظًا لإسلامها، وجبرًا لخاطرها بعد وفاة زوجها.

حياتها مع رسول الله ﷺ:

تعد السيدة سودة بنت زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ بعد خديجة، وانفردت به نحوًا من ثلاث سنين، حتى دخل بعائشة، وقد قاربت هي على الستين من عمرها، فلما كبرت وأسنت، وهبت يومها لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بين زوجاته بيومها ويوم سودة.

وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صوامة قوامة، وكانت تحب الصدقة، وكانت ذات عبادة وورع وزهادة.

وفاتها:

توفيت السيدة سودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في آخر زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **ويقال:** إنها توفيت بالمدينة المنورة في شوال سنة أربعة وخمسون، وفي خلافة معاوية.

* * *

(1) رواه أحمد في المسند (2971).

الفصل السابع

دعاء النبي ﷺ على قريش

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه **قال:** إن قريشًا لما استعصت على رسول الله ﷺ، وأبطئوا عن الإسلام، **قال:** «اللّهم! أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف»[1].

قال: فأصابتهم سنة[2] حتى حصّت كل شيء، حتى أكلوا الجيف، وحتى أن أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، ثم دعا (أي رسول الله ﷺ)، فكشف الله عنهم، ثم قرأ عبد الله هذه الآية: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الدخان].

قال: فعادوا فكفروا، فأخرّوا إلى يوم بدر.

وفي رواية أخرى، قال رضي الله عنه: لما رأى رسول الله ﷺ من الناس إدبارًا قال: «اللّهم سبع كسبع يوسف»[3]، فأخذتهم سنة (قحط)؛ حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام، فجاءه أبو سفيان وناس من أهل (مكة)، فقالوا: يا محمد، إنك تزعم أنك بُعثت رحمة، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم. فدعا رسول الله ﷺ، فسقوا الغيث، فأطبقت عليهم سبعًا (تمطر)، فشكا الناس كثرة المطر، **فقال:** «اللّهم حوالينا ولا علينا»، فانحدرت السحابة عن رأسه فسُقي الناس حولهم (أي: حول مكة).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، يستغيث من الجوع؛ لأنهم لم يجدوا شيئًا حتى أكلوا العهن، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المؤمنون].

قال: فدعا رسول الله ﷺ حتى فرج الله عنهم[4].

* * *

(1) البخاري (4774).

(2) جدب وقحط.

(3) البخاري (1007)؛ ومسلم (2798).

(4) الألباني: صحيح السيرة النبوية.



الباب السادس

البحث عن آفاق أرحب للدعوة

الفصل الأول: **الخروج إلى الطائف.**

الفصل الثاني: **الإسراء والمعراج.**

الفصل الثالث: **العرض على القبائل؛ طلبًا للحماية لتبليغ الدعوة.**

الفصل الرابع: **معرفة أهل يثرب بالإسلام.**

الفصل الخامس: **زواج رسول الله ﷺ بعائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الفصل السادس: **بيعة العقبة الأولى.**

الفصل السابع: **بيعة العقبة الثانية.**

الفصل الأول

الخروج إلى الطائف

المبحث الأول: الطائف وثقيف

الموقع: تقع الطائف على السفوح الشرقية لجبال السروات، في حضن جبل (غزوان)، على ارتفاع 1700م فوق سطح البحر، ويزداد الارتفاع كلما اتجهنا نحو الغرب والجنوب، وهي تقع جنوب شرقي مكة، على بعد 68 كم تقريبًا.

سبب التسمية: كانت الطائف قبل أن تسودها ثقيف تسمى (وج)؛ نسبة إلى وج بن عبد الحي، أحد العمالقة الذين سكنوها، ثم سكنها بعد العمالقة (عدوان)، ثم غلبهم عليها ثقيف، فلما اشتدت عمارة (وج) ورخاؤها، طمع فيها من حولها من العرب، وغزوها، فاستغاثت ثقيف بقبيلة بني عامر، فلم يغيثوهم، فأجمعوا على بناء حائط، يكون حصنًا لهم ولأرضهم، سموه (الطائف)؛ لإطافته بهم، وقد جاء بنو عامر كما تعودوا ليأخذوا نصيبهم من إنتاج الأرض، فامتنعت ثقيف عن إعطائهم شيء، وجرت بين الطرفين معارك، كانت الغلبة فيها لثقيف، وقد **قال أبو طالب عم الرسول** ﷺ مادحًا قومه في حماية الكعبة، كما حمى هذا الحائط ثقيفًا:

حمينا بيتنا من كل شرٍّ ... كما احتمت بطائفها ثقيف

أتاهم معشرٌ كي يسلبوهم ... فحالت دون ذلكم السيوف

التاريخ: تعد الطائف من أقدم بلاد الحجاز، واعتبرها المؤرخون ثاني موقع استيطاني بعد مكة.

ثقيف: يرجع نسب هذه القبيلة إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان؛ فهي قبيلة عدنانية كقريش، وتزامن ظهورها مع قبيلة قريش في مكة، وكانت تتقاسم مع قريش قبل الإسلام سلطان الحجاز وأحداثه الجسام، وقد كان كثير من أغنياء مكة يملكون الأملاك في الطائف، ويقضون فيها فصل الصيف، وأصبح هناك ارتباط كبير بين القريتين والقبيلتين؛ لما لهما من مكانه في نفوس العرب، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف].

هوازن: وهم أبناء عمومة ثقيف، جاوروهم في الطائف، وشاركوهم في حرب الفجار قبل الإسلام، وفي معركة حنين ضد النبي ﷺ، وكان منهم بنو سعد بن بكر بن هوازن، وهي القبيلة التي استُرضع فيها النبي ﷺ.

مجتمع الطائف: كانت الطائف في الجاهلية مجتمعًا حضريًّا؛ فقد امتهنوا الزراعة، وعُرفوا بالصناعة، وبالأخص صناعة الجلود والدباغة والحدادة، بالإضافة إلى التجارة، التي كانوا يصلون بها إلى بلاد فارس وبلاد الروم، وكانت الطائف – لتوسط موقعها بين اليمن ومكة – ممرًّا لتجارة قريش إلى اليمن في الشتاء، وبرع أهل الطائف في الفنون العسكرية، وسنرى كيف دافعوا عنها يوم حاصرها رسول الله ﷺ، وكيف تحصنوا بسورها، ورموا المسلمين بالسهام والنار، وما كان لديهم من دبابات ومنجنيق.

المبحث الثاني: الرسول ﷺ في الطائف

خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف؛ بحثًا عن آفاق أرحب لدعوته، بعدما ضاقت عليه مكة بسفهائها ومجرميها، الذين صدوا عن سبيل الله، وأسرفوا في إيذائه وإيذاء أصحابه، ووقفوا عقبة كأداء في طريق دعوته، فخرج ﷺ ماشيًا على قدميه إلى الطائف، في شوال في السنة العاشرة من البعثة، ومعه مولاه زيد بن حارثة؛ طلبًا للنصرة والمنعة من قومها، وطمعًا في أن يهديهم الله لنوره، ويشرح صدورهم للإسلام، وكان كلما مر في طريقه على قومٍ في قبيلة، دعاهم إلى دين الله الحق، ولكن لم يجبه أحد.

فلما انتهى إلى الطائف، أقام بها عشرة أيام، يدعو ثقيفًا إلى دين الله، ويعرض عليهم ما جاء به، ويطلب منهم السند والعون، فلم يجد آذنًا مصغية، بل ردوه ردًّا عنيفًا منكرًا، وسخروا منه واستهزأوا به ﷺ، **وكان ممن قابلهم ثلاثة من أشرافهم:** عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير، وكانوا سادة ثقيف وأشرافها، فجلس إليهم، وكلمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، **فقال أحدهم: هو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة** إن كان الله أرسلك!! **وقال الآخر:** أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك!! **وقال الثالث:** والله لا أكلمك أبدًا؛ لئن كنت رسول الله – كما تقول – لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك!! فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يائس من خير ثقيف، **وقال لهم:** «إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني»؛ كراهة أن يبلغ قريش مجيئه لهم، فيزدادوا إيذاء له ولأصحابه، فلم يفعلوا، بل أغروا به عبيدهم وسفاءهم يسبونه ويصيحون به، ويرمونه بالحجارة؛ حتى أدموا عقبيه، وتلطخت نعلاه، وسال دمه الذكي على أرض الطائف، وزيد بن حارثة يدرأ عنه ويدفع، حتى أصيب في وجهه بشجاج[1].

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 132، وأبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 401.

وقد روى موسى بن عقبة، أن سفهاء الطائف قعدوا للرسول ﷺ صفين على طريقه، فلما مر بين صفيهم، جعلوا لا يرفع رجليه، ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدوها، حتى أدموا رجليه، وكان ذلك من أشد ما لقي الرسول ﷺ في جهاده[1].

بستان عتبة وشيبة ابني ربيعة:

ألجأ السفهاء والصبيان والعبيد رسول الله ﷺ إلى حائط (بستان) لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ثم رجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، وجلس ﷺ في ظل شجرة عنب، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من ثقيف، فلما أطمأن ﷺ تحت ظل جدار البستان، **فاض قلبه ولسانه بهذا الدعاء:** «اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس .. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟! إلى بعيد يتجهمني؟! أم إلى عدو ملكته أمري؟! إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك»[2].

ثم إن ابني ربيعة تحركت فيهما عاطفة الرحم، فأمرا غلامًا نصرانيًّا لهما يدعى (عداسًا)، فأرسل إليه قطفًا من عنب في طبق، فلما وضع عداس العنب بين يدي رسول الله ﷺ، وقال له: كل، مد الرسول ﷺ يده **قائلًا:** «بسم الله»، ثم أكل، **فقال عداس متعجبًا:** والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. **فقال له الرسول** ﷺ: «ومن أي البلاد أنت؟ وما دينك؟»، **قال:** نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى (قرية بالموصل)، **فقال الرسول** ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟»، **فقال عداس:** وما يدريك ما يونس بن متى؟! **فقال رسول الله** ﷺ: «ذلك أخي، كان نبيًّا وأنا نبي» .. فأكب عداس على رسول الله ﷺ، يقبل رأسه ويديه وقدميه[3]، وحاول ابنا ربيعة أن يصداه عن النبي ﷺ، **قائلين له:** لا يصرفنك عن دينك؛ فإن دينك خير من دينه [4].

***

(1) نقلها عنه البيهقي في الدلائل (2/412).

(2) رواه ابن هشام (1/421).

(3) ابن هشام: السيرة، (1/42).

(4) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 227.

المبحث الثالث: العودة إلى مكة

عند قرن الثعالب:

وعندما لاقى النبي ﷺ ما لاقى من أهل الطائف عاد إلى مكة مهمومًا محزونًا، فلما بلغ قرن الثعالب (قرن المنازل)، بعث الله إليه جبريل، ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق على قومه الأخشبين .. فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها **سألت رسول الله** ﷺ : «هل أتى عليك يوم، كان أشد عليك من يوم أحد؟». **قال:** «لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلَّا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا بجبريل، فناداني، **فقال:** «إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك .. وقد بعث الله إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم»، فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم **قال:** «يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»[1]، **فقال النبي** ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا» [2].

عند (نخلة):

وعندما قرب رسول الله ﷺ من مكة أقام بوادي نخلة أيامًا، ومعه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ووادي نخلة على مسيرة ليلة من مكة، وهو أحد واديين، **يقال لأحدهما:** نخلة الشامية، **وللآخر:** نخلة اليمانية. وخلال إقامته، بعث الله إليه نفرًا من الجن، استمعوا إلى القرآن، فآمنوا به. **قال ابن إسحاق:** «ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة، حتى إذا كان بنخلة، قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته، ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا. وقد قص الله خبرهم عليه ﷺ، فقال ﷻ:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ

---

(1) **الأخشبين:** جبلا مكة؛ أبو قبيس وقيقعان.

(2) رواه البخاري (3231)؛ ومسلم (1795).

عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف].

هذه الدعوة التي رفضها المشركون بالطائف، تنتقل إلى عالم آخر، هو عالم الجن، فتلقوا دعوة النبي ﷺ، ومضوا بها إلى قومهم، كما مضى بها أبو ذر الغفاري إلى قومه، والطفيل ابن عمرو إلى قومه، وضماد الأزدي إلى قومه، فأصبح في عالم الجن دعاة يبلغون دعوة الله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف].

وأصبح اسم محمد ﷺ تهفو إليه قلوب الجن، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط، وأصبح من الجن حواريون، حملوا راية التوحيد، ووطنوا أنفسهم دعاة إلى الله، ونزل في حقهم قرآن يتلى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾[الجن].

كان هذا الفتح الرباني في مجال الدعوة، ورسول الله ﷺ ببطن نخلة، عاجز عن دخول مكة، فهل يستطيع عتاة مكة وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجن، وينزلوا بهم ألوان التعذيب؟![1].

المبحث الرابع: دخول مكة

أراد رسول الله ﷺ أن يدخل مكة وأخبار ثقيف قد سبقته إلى قريش، **فقال له زيد بن حارثة:** كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ **فقال رسول الله ﷺ**: «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه»، فبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن

(1) **انظر**: التربية القيادية (1/443)؛ والصلابي: السيرة النبوية، ص 222-223.

الأريقط إلى الأخنس بن شريق أن يجيره، **فقال:** أنا حليف قريش، والحليف لا يجير على صميمها، فبعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره، **فقال:** إن بني عامر لا تجير على بني كعب بن لؤي، فبعثه إلى المطعم بن عدي ليجيره، **فقال:** نعم، قل له فليأت، فذهب إليه رسول الله ﷺ، فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج هو وبنوه ستة أو سبعة، متقلدي السيوف جميعًا، فدخلوا المسجد، **وقال لرسول الله** ﷺ: طُفْ، واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف، فأقبل أبو سفيان بن حرب إلى المطعم، **فقال:** أمجير (لمحمد) أم تابع (مؤمن)؟ **قال:** بل مجير، **قال:** إذًا لا نخفر ذمتك[1]، فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه، وقد حفظ النبي ﷺ للمطعم بن عدي هذه اليد؛ ولذلك لما جاءه ابنه جبير ليكلمه في أسارى بدر، **قال له:** «لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»[2].

ولما مات المطعم بعد هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رثاه حسان بن ثابت بقصيدة؛ مجازاة له على ما صنعه مع رسول الله، **وفيها:**

أجـرت رسـول الله مـنهم فأصـبحوا	عبيـدك مـا لبـى مُهـلٌ [3] وأحرمـا
فلـو سـئلت عنـه معـد بأسرهـا	وقحطـان أو بـاقي بقيـة جرهمـا
لقـالوا هـو المـوفي بخفـرة [4] جـاره	وذمتـه يومًـا إذا مـا تـذمما [5]

* * *

(1) لا نغدر بجوارك وعهدك.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 405.

(3) **أهلَّ المحرم:** رفع صوته بالتلبية.

(4) **خفرة:** العهد.

(5) طلب الذمة والعهد والجوار، **انظر:** ابن هشام (2/23-24).

الفصل الثاني

الإسراء والمعراج

مضت سنوات الدعوة برسول الله ﷺ، مليئة بالإعراض والإيذاء، وتوجت بالحزن والهم؛ بفقده ﷺ لعمه، الذي كان ينافح عنه، ويدفع عنه أذى قريش، ورفيقة دربه خديجة رضي الله عنها، التي كانت له سكنًا وطمأنينة، ولما خرج إلى الطائف يعرض دعوته على ثقيف، ردوه أقبح رد، وآذوه ونالوا منه، فانصرف مهمومًا محزونًا، خائفًا على دعوته أن لا يجد لها ناصرًا ولا مكانًا تنطلق منه.

في هذه الأجواء كانت رحلة الإسراء والمعراج .. رحلة مباركة طيبة، تبدأ من بقعة من أقدس بقاع الأرض، وتنتهي بأعلى طبقات السماء، تُفتَّح له فيها أبواب السماء، بعد أن أُغلقت أمامه أبواب الأرض، ويرحب به أهل السماء بعد أن رفضه كثيرٌ من أهل الأرض .. رحلة تحمل له كل سمات التشريف وعلو القدر، ويرى فيها من آيات ربه الكبرى، ويوقن - كل اليقين - أن ربه قادر على نصرة دينه، ولكن حكمته سبحانه اقتضت أن يمحص عباده المؤمنين: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:4].

رحلة عمل، يحمل فيها التكاليف إلى الناس، ويطلع فيها على مصائر السعداء والأشقياء في الجنة والنار، ومن قبل ذلك يصلي بالأنبياء، فيعلم أنه إمامهم أجمعين، فيفوق صبره صبرهم، وعزمه عزمهم.

متى كانت رحلة الإسراء والمعراج؟:

اختُلف في ضبط تاريخ هذه الرحلة المباركة؛ **فقيل:** إنها كانت في السنة العاشرة من سني البعثة النبوية، وحددها البعض في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب من هذه السنة، **وقال ابن سعد في طبقاته الكبرى:** إنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهرًا[1]. **وذكر موسى بن عقبة عن الزهري وعروة بن الزبير:** أنها كانت قبل خروج النبي ﷺ إلى المدينة بسنة[2]. **والراجح:** أن رحلة الإسراء والمعراج كانت متأخرة في الفترة المكية للدعوة.

(1) البوطي: فقه السيرة، ص 160.

(2) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 233.

مقدمات الرحلة:

بعد صلاة العشاء من تلك الليلة المباركة التي أُسري فيها برسول الله ﷺ، نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فشق صدره ﷺ، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغه في صدره، ثم أطبقه، ثم أخذ بيده فعرُج به. فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسري به، **قال:** «بينما أنا في الحطيم (مكان بين الركن والمقام) – وربما قال: في الحجر (الراوي لم يتأكد) – مضطجعًا؛ إذ أتاني آت، فقدَّ (أي قطع) – قال – أي قتادة – وسمعته يقول: فشق – ما بين هذه إلى هذه – **فقلت للجارود** (الجارود بن أبي سبرة صاحب أنس بن مالك وأحد الرواة عنه): ما يعني به؟ **قال:** من ثغرة نحره إلى ثنته (أي من تحت السرة إلى ما بين الترقوتين) – فاستخرج قلبي، ثم أُتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا وحكمة، فغسل قلبي، ثم حُشي ثم أعيد ...»(1)، **قال ابن حجر:** وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء؛ ليتأهب للمناجاة(2).

أولا: رحلة الإسراء:

تعددت روايات رحلة الإسراء والمعراج في كتب السنة، فليس هناك حديث واحد يجمع ما ورد من أحداث خلال هذه الرحلة المباركة، وإنما أشار كل حديث إلى جانب منها، وقد أورد البخاري عنها عشرين رواية عن ستة من الصحابة، وعند مسلم نحوًا من ثماني عشرة رواية، عن سبعة من الصحابة، وعد الإمام القسطلاني في المواهب اللدنية ستة وعشرين صحابيًّا وصحابية، رووا حديث الإسراء والمعراج، فهو إذن حديث متواتر(3). والإسراء: هو الرحلة الأرضية التي تمت لرسول الله ﷺ – بقدرة الله ﷻ – من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في جزء من الليل، ثم رجوعه من ليلته، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ **قال:** «أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، **قال:** فركبته، فسار بي، حتى أتى بيت المقدس،

---

(1) صحيح البخاري، باب المعراج، ج5، ص 66؛ وصحيح مسلم بشرح النووي، ج2، ص 223-225.
(2) فتح الباري (216/1).
(3) سعيد حوى: الرسول ﷺ، ص 330.

فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة. **قال:** ثم عرج بي ...»[(1)]، **وفي رواية أخرى:** أنه ﷺ بُعث له آدم، فمن دونه من الأنبياء - عليهم السلام - فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة[(2)].

وقد أم رسول الله ﷺ الأنبياء حقيقة بأرواحهم وأجسادهم، وهو المشهور من كلام أهل العلم، وقد استدل به ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (الروح)، على عدم أكل الأرض لأجساد الأنبياء. **قال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وبيت المقدس مصدق الأنبياء من لدن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولهذا جُمعوا له هناك، فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقال الشيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (جمع الله المرسلين السابقين - من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها - ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة؛ فإن النبوات يصدق بعضها بعضًا، ويمهد السابق منها للاحق، وقد أخذ الله الميثاق على الأنبياء بذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]، وفي السنة الصحيحة أن الرسول ﷺ صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين في المسجد الأقصى، فكانت هذه الإمامة إقرارًا مبيناً بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، أُخذت تمامًا على يد محمد ﷺ، بعد أن وطَّأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين)[(3)].

ومر رسول الله ﷺ على قبر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رحلة الإسراء، فرآه يصلي في قبره، كما روى أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ **قال:** «مررت ليلة أسري بي على موسى، فرأيته قائمًا يصلي في قبره»[(4)]، وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أيضًا، أن رسول الله ﷺ **قال:** «أتيت - وفي رواية: مررت - على موسى ليلة أسرى بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره»[(5)].

---

(1) رواه البخاري (3437)؛ ومسلم (168).

(2) رواه البيهقي في الدلائل (2/388).

(3) فقه السيرة، ص 131.

(4) أخرجه مسلم (2315)، وأحمد (3/120).

(5) أخرجه مسلم (164)، وأحمد (3/148، 248).

أما ما ورد في بعض الكتب في بيان ما رآه النبي في مسراه من مكة إلى بيت المقدس، وصلاته ركعتين بطور سيناء، وبيت لحم، والمدينة، وغير ذلك من الروايات، فلأهل الحديث فيها مقال.

ثانيًا: رحلة المعراج:

المعراج: هو إصعاده ﷺ من بيت المقدس إلى السماوات السبع، وما فوق السبع؛ حيث فرضت الصلوات الخمس، ثم رجوعه إلى بيت المقدس في جزء من الليل[1].

ومن أوثق الروايات وأصحها في رحلة المعراج، حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وقد ذكرنا بدايته)، أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، **قال:** «بينما أنا في الحَطيم - وربما **قال:** في الحجر - مضطجعًا؛ إذ أتاني آتٍ، فقدّ[2] - قال - أي قتادة: وسمعته (أي: الراوي) يقول: فشق - ما بين هذه إلى هذه - **فقلت للجارود**[3]: ما يعني به؟ **قال:** من ثغرة نحره إلى ثنته[4] - فاستخرج قلبي، ثم أُتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانًا وحكمة، فغسل قلبي، ثم حُشي، ثم أعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض - **فقال له الجارود:** هو البراق يا أبا حمزة (كنية أنس)؟ **قال أنس:** نعم - يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحُملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح، **فقيل:** من هذا؟ **قال:** جبريل، **قيل:** ومن معك؟ **قال:** محمد، **قيل:** وقد أُرسل إليه؟ **قال:** نعم، **قال:** مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح.

فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه الصلاة والسلام، **فقال:** هذا أبوك آدم، فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فرد السلام، ثم **قال:** مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح، **قيل:** من هذا؟ **قال:** جبريل، **قيل:** ومن معك؟ **قال:** محمد، **قيل:** وقد أرسل إليه؟ **قال:** نعم، **قيل:** مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - وهما ابنا الخالة، **قال:** هذا يحيى وعيسى فسلِّم عليهما، فسلَّمت، فردا، ثم **قالا:** مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 408.

(2) **فقد:** فقطع.

(3) لعله: **الجارود بن أبي سبرة البصري**، أحد الرواة عن أنس.

(4) **الثغرة:** المكان المنخفض بين الترقوتين، **والثنة:** ما تحت السرة.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح، **قيل:** من هذا؟ **قال:** جبريل، **قيل:** ومن معك؟ **قال:** محمد، **قيل:** وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، **قيل:** مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يوسف، **قال:** هذا أخوك يوسف فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فرد، ثم **قال:** مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الرابعة، فاستفتح، **قيل:** من هذا؟ **قال:** جبريل، **قيل:** ومن معك؟ **قال:** محمد، **قيل:** وقد أرسل إليه؟ **قال:** نعم، **قيل:** مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا إدريس، **قال:** هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فرد، ثم **قال:** مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح، **قيل:** من هذا؟ **قال:** جبريل، **قيل:** ومن معك؟ **قال:** محمد، **قيل:** وقد أرسل إليه؟ **قال:** نعم، **قيل:** مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فرد، ثم **قال:** مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، **قيل:** من هذا؟ **قال:** جبريل، **قيل:** ومن معك؟ **قال:** محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ **قال:** نعم، **قال:** مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلَّم عليه، فسلَّمت عليه، فردَّ، ثم **قال:** مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، **قيل له:** ما يبكيك؟ **قال:** أبكي؛ لأن غلامًا[1] بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلون من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، **قيل:** من هذا؟ **قال:** جبريل، **قيل:** ومن معك؟ **قال:** محمد، **قيل:** وقد بعث إليه؟ **قال:** نعم، **قال:** مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، **قال:** هذا أبوك فسلِّم عليه، **قال:** فسلَّمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم رُفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر[2]، وإذا ورقها كآذان الفيلة، **قال:** هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، **فقلت:** ما هذان يا جبريل؟ **قال:** أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات[3].

(1) لم يرد التقليل من شأن النبي ﷺ، وإنما أراد صغر سنه، إذا قسنا عمره بأعمار الأنبياء من قبله.

(2) **القلال:** جمع قلة، وهي الجرة، **والنبق:** الثمر، أي أن ثمرها مثل القلال، **وهجر:** بلد بقرب المدينة.

(3) وقد فهم النبي ﷺ من تمثيلها له أن دينه سيبلغ هذين النهرين وما وراءهما، وهذا ما كان.

ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أُتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، **فقال:** هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

ثم فُرضت عليّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت، فمررت على موسى، **فقال:** بم أمرت؟ **قال:** أمرت بخمسين صلاة كل يوم، **قال:** إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك؛ فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت، فأُمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، **فقال:** بم أُمرت؟ **قال:** بخمس صلوات كل يوم، **قال:** إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك؛ فاسأله التخفيف لأمتك، **قال:** سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأُسَلِّم، فلما جاوزت **ناداني منادٍ:** أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي[1].

وقد صحت روايات أخرى عن عدد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، تكمل جوانب هذه الرحلة، **نذكر منها:**

ما جاء في وصف موسى وعيسى وإبراهيم - عليهم السلام:

* عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال النبي** ﷺ: «حين أسري بي لقيت موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنعته النبي ﷺ، فإذا رجلٌ - حسبته قال: - مضطرب رجلُ الشعر[2]، كأنه من رجال شنوءة. **قال:** ولقيت عيسى، فنعته النبي ﷺ، فإذا ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس (يعني: حمامًا)».

قال: «ورأيت إبراهيم - صلوات الله عليه - وأنا أشبه ولده به ...»[3].

* وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسول الله** ﷺ: «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضَرْبٌ[4] جَعْدٌ[5]، كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم

---

(1) رواه البخاري (3887)؛ ومسلم (164)، واللفظ للبخاري.

(2) **مضطرب رجل الشعر:** يعني أن شعره متموج، يجمع بين الاسترسال والجعودة.

(3) أخرجه البخاري (3437)، ومسلم (168)، وأحمد (7904).

(4) خفيف اللحم، ممشوق القد.

(5) أي مجعد الشعر.

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قائم يصلي، أقرب الناس به شبهًا عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم (يعني نفسه)، فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت من الصلاة، **قال قائل:** يا محمد، هذا مالك صاحب النار، فسلم عليه، فالتفت إليه، فبدأني بالسلام»[1].

* وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا، قال: أسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته ... وروى ما قاله رسول الله ﷺ، إلى أن **قال:** «... ورأيت عيسى شابًّا أبيض، جعد الشعر، حديد البصر، مُبَطَّن الخَلْقِ (أي ضامر البطن)، ورأيت موسى أسحم آدم[2]، كثير الشعر، **وفي رواية:** حسن الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم، فلا أنظر إلى أرب (أي عضو أو جزء) من آرابه إلّا نظرت إليه مني، كأنه صاحبكم. **فقال جبريل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: سلم على مالك. فسلمت عليه[3].

* وعن قتادة، عن أبي العالية، قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ - يعني ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا- عن النبي ﷺ، **قال:** «رأيت ليلة أسري بي موسى رجلًا آدم طوالًا جعدًا، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلًا مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكًا خازن النار، والدجال»[4].

ما كان من آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ **قال:** «... فلما فُتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد، على يمينه أسودَةٌ (جمع سواد)، وعلى يساره أسودةٌ، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل يساره بكى، **فقال:** مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح. **قلت لجبريل:** من هذا؟ **قال:** هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ[5] بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى»[6].

---

(1) أخرجه مسلم (218).

(2) **آدم:** أسمر، **أسحم:** أسود.

(3) أخرجه أحمد (3616)، وأبو يعلى (2720)، **وقال الألباني:** حسن.

(4) رواه البخاري (3239).

(5) **نسم:** جمعة نسمة، **والنَسَمُ:** الخلق.

(6) رواه مسلم (163).

رؤيته ﷺ لأقوام يُعذبون:

* في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** فنظر ﷺ في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف. **فقال:** (من هؤلاء يا جبريل؟) **قال:** هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس. ورأى رجلًا أحمر أزرق جعدًا شعثًا إذا رأيته، **قال:** (من هذا يا جبريل؟)، **قال:** هذا عاقر الناقة (أي من عقر ناقة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ)»[1].

* وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسول الله** ﷺ: «لما عرج بي ربي ﷻ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، **فقلت:** من هؤلاء يا جبريل؟ **قال:** هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم» [2].

* وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، **قال: قال رسول الله** ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي، رجالًا تُقَرض شفاههم بمقاريض من نار. **فقلت:** يا جبريل من هؤلاء؟ **قال:** هؤلاء خطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟!»[3].

ورأى ﷺ أيضًا أكلة أموال اليتامى ظلمًا، لهم مشافر كمشافر الإبل، يقذفون في أفواههم قطعًا من نار كالأفهار، فتخرج من أدبارهم.

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لا يقدرون لأجلها أن يتحولوا عن أماكنهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم.

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون الطيب السمين!!

ورأى النساء اللاتي يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم، رآهن معلقات بثديهن[4].

---

(1) سبق ذكر تخريجه.

(2) رواه أحمد (2361)، وصححه الألباني (الصحيحة 533).

(3) رواه أحمد في المسند (13625)، والبغوي في (شرح السنة) (4159)، **وقال:** (حديث حسن)، **وقال الألباني:** (وهو كما قال أو أعلى؛ فإن له طرقًا أخرى بعضها جيد).

(4) المباكفوري: الرحيق المختوم.

رؤيته ﷺ الدجال:

* عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** ورأى ﷺ الدجال في صورته، وعيسى وموسى وإبراهيم – صلوات الله عليهم. فسئل النبي ﷺ عن الدجال؟ **فقال:** فيلمانيًّا (أي ضخمًا عظيمًا)، أقمر هجانًا (أبيض)، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة[1].

* وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، قال: «لقيت – ليلة أسرى بي – إبراهيم وموسى وعيسى.

قال: فتذاكروا أمر الساعة، فردُّوا أمرهم (في علمها) إلى إبراهيم، **فقال:** لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى عيسى، **فقال:** أما وجْبَتها (قيامها) فلا يعلمها أحد إلَّا الله.

ذلك، وفيما عهد إليّ ربي ﷻ: أن الدجال خارج. **قال:** ومعي قضيبان، فإذا رآني ذابَ كما يذوب الرصاص. **قال:** فيهلكه الله؛ حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم! إن تحتي كافرًا فاقتله.

قال: فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم. **قال:** فعند ذلك يخرج ﴿**يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾**﴾ [الأنبياء]، فيطئون بلادهم، لا يأتون على شيء إلَّا أهلكوه، ولا يمرُّون على ماء إلَّا شربوه، ثم يرجع الناس إليّ (أي: إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ) فيشكونهم، فأدعو الله عليهم، فيهلكهم الله ويميتهم، حتى تجوى[2] من نَتْن ريحهم.

قال: فيُنزل الله ﷻ المطر، فتُجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ثم تُنسف الجبال، وتُمَدُّ الأرض مَدَّ الأديم.

قال: ففيما عهد إليّ ربي ﷻ: أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المُتِمِّ التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلًا أو نهارًا؟!»[3].

---

(1) أخرجه أحمد (3616)، والطبراني في المعجم الكبير (11843)، والمعجم الأوسط (1648)، وقال الألباني: إسناده حسن.

(2) **تجوى:** تنتن.

(3) أخرجه أحمد (315/1)، وابن ماجه (4081)، والحاكم، **وقال:** صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

ماشطة ابنة فرعون:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال: قال رسول الله** ﷺ: «لما كانت الليلة التي أسري بي فيها، أتت عليَّ رائحة طيبة، **فقلت:** يا جبريل! ما هذه الرائحة الطيبة؟ **فقال:** هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها.

قال: قلت: ما شأنها؟

قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم؛ إذ سقطت المدرى من يدها، فقالت: بسم الله. **فقالت لها ابنة فرعون:** أبي؟ **قالت:** لا، ولكن ربي ورب أبيك: الله. **قالت:** أُخبره بذلك؟ **قالت:** نعم. فأخبرته، فدعاها، **فقال:** يا فلانة! وإن لك ربًّا غيري؟! **قالت:** نعم، ربي وربك الله.

فأمر ببقرةٍ من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها.

قالت له: إن لي إليك حاجة. **قال:** وما حاجتك؟ **قالت:** أُحِبُّ أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا.

قال: ذلك لك؛ لما لك علينا من الحق.

قال: فأمر بأولادها، فأُلقوا بين يديها واحدًا واحدًا، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها يرضع، وكأنها تقاعست من أجله، **قال** (أي: الرضيع): يا أُمَّهْ! اقتحمي؛ فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت»[1].

الجنة - الكوثر - سدرة المنتهى:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ، قال: «ثم أُدخلت الجنة، فإذا فيها حبائل اللؤلو، وإذا ترابها المسك»[2].

* وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، **قال:** لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء، **قال:** «أتيت على نهر حافتاه

---

(1) أخرجه أحمد (1/310)، وابن حبان (31، 36)، والطبراني (12219)، وقال السيوطي في «الخصائص» (1/399): سنده صحيح، **وقال ابن كثير:** إسناده لا بأس به، وضعفه الألباني (الضعيفة 880).

(2) أخرجه مسلم (163).

قباب اللؤلؤ المجوف، **فقلت:** ما هذا يا جبريل؟ **قال:** هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ﷻ. قال: فضربت بيدي فيه، فإذا طينه المسك الأذفر[1]، وإذا رضراضه[2] اللؤلؤ»[3].

* وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** لما أُسري برسول الله ﷺ، انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة[4]، إليها ينتهي ما يُعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها فيقبض منها. قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم]، قال: فراش من ذهب. قال فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المقحمات (أي الذنوب العظام والكبائر)[5].

هل رأى محمد ﷺ ربه؟:

قال عبد الله بن شقيق: قلت لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو رأيتُ رسول الله لسألته! **قال:** وما كنت تسأله؟ **قال: كنت أسأله:** هل رأى ربه ﷻ؟ **قال:** فإني قد سألته **فقال:** «قد رأيته نورًا، أنى أراه؟!»[6]، **وفي رواية:** «رأيت نورًا». فالنبي ﷺ إذًا لم ير ربه، إنما رأى نورًا، أما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم]، **قال ابن كثير:** (ثم دنا فتدلى) إنما هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما ثبت في (الصحيحين)، عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في (صحيح مسلم) عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا.

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم]، والشديد القوى ذو المرة (أي القوة) هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ،

---

(1) **الأذفر:** شديد الرائحة.

(2) **الرضراض:** الحصى الصغير في مجرى الماء.

(3) رواه أحمد (13629).

(4) في حديث أنس: سدرة المنتهى في السماء السابعة، **والجمع بين الحديثين:** أن أصلها في السماء السادسة وأغصانها وفروعها في السماء السابعة.

(5) أخرجه مسلم (173)، وأحمد (3739).

(6) أخرجه مسلم (292)، وأحمد (5/147، 175).

وهو الذي علَّم صاحبكم ما بلَّغه إليكم .. استوى وهو بالأفق الأعلى حيث رآه محمد ﷺ، وكان ذلك في مبدأ الوحي، حين رآه على صورته التي خلقه الله عليها، يسد الأفق بخلقه الهائل، ثم دنا منه، فتدلى نازلًا مقتربًا إليه، فكان أقرب ما يكون منه، على بعد ما بين القوسين أو أدنى (وهو تعبير عن منتهى القرب)، فأوحى إلى عبد الله (محمد ﷺ) ما أوحى. فهي رؤية عن قرب بعد الترائي عن بعد، وهو وحي وتعليم ومشاهده وتيقن، وهي حال لا يتأتى معها كذب في الرؤية، ولا تحتمل مماراة أو مجادلة ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم].

المبحث الثاني: العودة وموقف أهل مكة

روى الترمذي عن شداد بن أوس، أن النبي ﷺ **قال:** «ثم انصرف بي، فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيرًا لهم (يبحثون عنه)، قد جمعه فلان، فسلمت عليهم، **فقال بعضهم:** هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة»[1].

وقد بينت روايات كثيرة أن طريق العودة كان من السماوات العلا إلى بيت المقدس[2]، ثم عاد رسول الله ﷺ إلى مكة .. عاد وقد ذهب عنه كل كرب وغم وحزن وهم .. عاد أوفر ما يكون ثقةً وطمأنينة؛ إذ رأى بأم عينه ما تلقاه وحيًا من ربه[3]، فكان من نعماء الله عليه أن هيأ له هذه الرحلة السماوية؛ لتمس فؤاده ببرد الراحة، وليشعر أنه بعين الله، مذ قام يوحده ويعبده، ويعلم البشر توحيده وعبادته[4]. وإنما بقي لديه هَمّ الإخبار بما شاهد، وبم تقابل قريش النبأ، وهو متيقن من تكذيبهم له.

وقد تباينت المواقف إزاء هذا النبأ العظيم، فمن الناس من ازداد عنادًا وكفرًا، واعتقد أنه قد وجد مغمزًا للطعن في صدقه ﷺ، ومنهم من ازداد يقينًا وإيمانًا، ومنهم من فُتن ونكص على عقبية مرتدًّا مشركًا.

---

(1) أخرجه البيهقي في الدلائل (2/355-351)، من رواية الترمذي، **وقال:** إسناده صحيح.

(2) **انظر:** السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 236.

(3) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 131.

(4) الغزالي: فقه السيره، ص 138.

موقف المشركين:

لقد طاروا يجمع بعضهم بعضًا؛ ليسمع هذه الأعجوبة، فيزداد إنكارًا لرسالة محمد ﷺ وريبة في أمره، وتحداه بعضهم أن يصف بيت المقدس، إن كان رآه هذه الليلة حقًّا[1]. واستنكر البعض الآخر أن يذهب إلى الشام ثم يعود في ليلة واحدة، وهم يذهبون ويعودون في شهرين، فقدم لهم رسول ﷺ دليلًا وجوابًا عن كل ما سألوه، وهذه بعض الأمثلة.

* عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال: قال رسول الله** ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة فظِعْت بأمري (وقعت في أمر فظيع)، وعرفت أن الناس مكذبيَّ، فقعدت معتزلًا حزينًا، **قال:** فمر عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، **فقال له كالمستهزئ:** هل كان من شيء؟، **فقال رسول الله** ﷺ «نعم». **قال:** ما هو؟ **قال:** «إنه أُسري بي الليلة»، **قال:** إلى أين؟ **قال:** «إلى بيت المقدس»، **قال:** أصبحت بين ظهرانينا؟ **قال:** «نعم». قال: فلم ير (أبو جهل) أن يكذبه؛ مخافة أن يجحده الحديث (أي: ينكر ما قال) إذا دعا قومه إليه، **قال:** أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ **فقال رسول الله** ﷺ: «نعم». **فقال:** هيا يا معشر بني كعب بن لؤي، حتى **قال:** فانتفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما. **قال:** حدث قومك بما حدثتني. **فقال رسول الله** ﷺ: «إني أُسري بي الليلة»، **قالوا:** إلى أين؟ **قال:** «إلى بيت المقدس». **قالوا:** ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ **قال:** «نعم». **قال:** فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبًا، **قالوا:** وهل تستطيع أن تنعت (تصف) لنا المسجد؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، **فقال رسول** ﷺ: فذهبت أنعت، فمازلت أنعت حتى التبس عليَّ بعض النعت – قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر، حتى وضع دون دار عقال أو عقيل (أي: أراه الله المسجد الأقصى)، فنعته (فوصفته) وأنا أنظر إليه. **قال:** وكان مع هذا نعت لم أحفظه. **قال: فقال القوم:** أما النعت فوالله لقد أصاب[2].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال: قال رسول الله** ﷺ: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر، فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[3].

---

(1) المصدر السابق.

(2) أخرجه أحمد (2864)، وابن أبي شيبة (37727)، والبزار (5305).

(3) أخرجه البخاري (3886)؛ ومسلم (170).

* عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال: قال رسول الله** ﷺ: «لقد رأيتني من الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربًا ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به»(1).

وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلَّا نفورًا، وأبى الظالمون إلَّا كفورًا.

* وحدث أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ليلة أسري برسول الله ﷺ، فكان فيما **قال:** «ثم أصبح بمكة يخبرهم العجائب: إني رأيت البارحة بيت المقدس، وعُرج بي إلى السماء، ثم رأيت كذا وكذا .. **فقال أبو جهل:** ألا تعجبون مما يقول محمد؟! **قال:** فأخبرهم بعير قريش، **قال:** لما كانت في مصعدي رأيتها في مكان كذا وكذا، وإنها نفرت، فلما رجعت رأيتها عند العقبة، وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا، ومتاعه كذا، **فقال رجل:** أنا أعلم الناس ببيت المقدس، كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ فُرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس، فنظر إليه، **فقال:** بناؤه كذا، وهيئته كذا، وقربه من الجبل كذا، **فقال:** صدقت»(2).

ما كان من الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مشى رجال من المشركين إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قالوا له:** إن صاحبك يزعم أنه أُسري به إلى بيت المقدس، **فقال الصديق:** إن كان قال هذا فقد صدق. فلقب بالصديق من يومئذ. فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** فلما سمع المشركون قوله، أتوا أبا بكر، **فقالوا:** يا أبا بكر، هل لك في صاحبك يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر، ثم رجع مسيرة شهر، ثم رجع في ليلة، **فقال أبو بكر:** إن كان قاله فقد صدق، وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا، لنصدقه على خبر السماء. **فقال المشركون لرسول الله** ﷺ: ما علامة ما تقول؟ **قال:** «مررت بعير لقريش، وهي في مكان كذا وكذا، فنفرت الإبل واستدارت، وفيها بعير عليه غرارتان: غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فصُرع فانكسر». فلما قدمت العير سألوهم، فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله ﷺ، ومن ذلك سُمي أبو بكر: الصديق(3). و**الغرارة:** وعاء من الخيش ونحوه، يوضع فيه القمح.

---

(1) أخرجه مسلم (172).

(2) أخرجه البخاري (126)؛ ومسلم (91)، وأحمد (82).

(3) ابن كثير (11/5).

* وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** جاء ناس من قريش إلى أبي بكر، **فقالوا:** هل لك في صاحبك يزعم أنه أتى بيت المقدس، ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة؟ **قال أبو بكر:** أوقال ذلك؟ **قالوا:** نعم. **قال:** لقد صدق[1].

* وعن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال: قال رسول الله** ﷺ: «فأتاني أبو بكر، **فقال:** يا رسول الله، أين كنت الليلة؛ فقد التمستك في مظانك، **فقلت:** علمت أني أتيت بيت المقدس الليلة؟ **فقال:** يا رسول الله إنه مسيرة شهر، فصفه لي. قال: ففُتح لي صراط كأني أنظر إليه، لا يسألني عن شيء إلَّا أنبأته عنه. **قال أبو بكر:** أشهد أنك رسول الله، **فقال المشركون:** انظروا إلى ابن أبي كبشة، يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة، **فقال:** إن من آية ما أقول لكم، أنني مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيرًا لهم، فجمعه فلان، وأن مسيرهم ينزلون بكذا ثم كذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم (أسمر)، عليه مسح أسود، وغرارتان سوداوان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينتظرون حتى كان قريبًا من نصف النهار، أقبلت العير، يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ»[2].

وليس في هذا النص والنص الأول تناقض؛ فالنص الأول يتحدث عن جمل عليه غرارة بيضاء وأخرى سوداء، انكسرت رجله، أما هذا فيتحدث عن الجمل الأول في مقدمة القافلة، وعليه غرارتان سوداوان[3].

فتنة البعض:

على قدر رسوخ اليقين في قلوب المؤمنين بسماع ما كان من إسراء النبي ﷺ إلى بيت المقدس، ومعراجه إلى ما فوق السماوات العلى، إلَّا إنه كان للبعض فتنة .. فارتد ناس ممن كانوا آمنوا برسول الله ﷺ وصدقوه وصلوا معه، واستنكروا أن يذهب إلى الشام ثم يعود في ليلة واحدة، وهم يذهبون ويعودون في مدة شهرين.

---

(1) رواه البيهقي في الدلائل (2/390).

(2) أخرجه ابن أبي عبد البر (132)، والبيهقي (2/355) وصححه.

(3) سعيد حوى: الرسول ﷺ، ص 321.

فمن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** «أسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته، فحدثهم بمسيره إلى بيت المقدس وبعيرهم، **فقال ناس:** نحن نصدق محمدًا بما يقول؟! فارتدوا كفارًا، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل»(1).

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: (أما الخوارق التي وقعت للرسول ﷺ، وأولها خارقة الإسراء والمعراج، فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة فحسب، إنما جعلت أيضًا فتنة للناس وابتلاء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء:60]، ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء، كما ثبت بعضهم، وازداد يقينًا؛ ومن ثم كانت الرؤيا (الرؤيا بمعنى المشاهدة الحقيقية اليقينية) التي أراها الله لعبده ليلة أُسري به فتنة للناس وابتلاء لإيمانهم(2).

المبحث الثالث: هل كان الإسراء بالروح والجسد، أم كان بالروح فقط؟

اختلف العلماء من قديم، أكان الإسراء والمعراج بالروح وحده، أم بالروح والجسد معًا؟ **والمتفق عليه لدى جمهور العلماء:** أن الإسراء والمعراج تم بالروح والجسد معًا.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة، بجسد النبي ﷺ وروحه، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك؛ إذ ليس في العقل ما يستحيله حتى يحتاج إلى تأويل)(3).

وقد ذهب قليل من العلماء إلى أن الإسراء والمعراج كانا بالروح فقط، بل ذهب بعضهم إلى أبعد من هذا، **فقالوا:** إنهما كانا في المنام، وتشبسوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء:60]، **وقالوا:** إن المراد بها أن ما رآه ﷺ ليلة الإسراء

---

(1) رواه أحمد في المسند (4546)، **وقال الألباني:** إسناده حسن، وقال ابن كثير في تفسيره (15/3): رواه النسائي وإسناده صحيح.

(2) في ظلال القرآن.

(3) الفتح (15/ 44/ ك المبعث/ ب، حديث الإسراء).

والمعراج ما هو إلَّا رؤيا منامية .. في حين أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال في تفسير هذه الآية:** (هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة شجرة الزقوم) [(1)].

ولو كان الإسراء قد تم بالروح فقط، أو برؤيا رآها رسول الله ﷺ في منامه لما بادر كفار قريش إلى تكذيب الرسول ﷺ والتعجب مما قال، ولما ارتد بعض ضعفاء الإيمان؛ فسبحات الروح والرؤيا المنامية ما كانت لتحرك ساكنًا لديهم؛ إذ كثير من الناس يرى في منامه أنه يصعد في السماء أو يطير في الهواء أو يذهب إلى أقصى الأرض.

وما أحدثه القوم يومذاك يدل على أنهم فهموا من إخبار النبي ﷺ لهم بمسراه إلى بيت المقدس ومعراجه إلى السماء، أنهما كانا في اليقظة لا في المنام.

ثم كونه منامًا يخالف صريح الآيات الكريمة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء]، فابتداء الآية بالتسبيح إنما يكون في الأمور العظام، التي يلفت الله ﷻ النظر إليها، كما أن قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ يدل على مجموع الروح والجسد؛ فهي لا تطلق في لغة العرب إلَّا على الروح والجسد معًا، كما أن الإسراء لو كان مجرد رؤيا منامية لرسول الله ﷺ، لما استحق أن يختص بسورة من القرآن تسمى باسمه. **قال القاضي عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ: والحق الذي عليه أكثر الناس، ومعظم السلف، وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، أنه أُسري بجسده ﷺ، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلَّا بدليل، ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل.

المبحث الرابع: لماذا كان المعراج من بيت المقدس ولم يكن من المسجد الحرام؟

إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم؛ فقد ظلت النبوات دهورًا طوالًا وهي وقف على بني إسرائيل، وظل بيت المقدس مهبط الوحي، ومشرق أنواره على الأرض.

فلما أهدر اليهود كرامة الوحي، وأسقطوا أحكام السماء، حلت بهم لعنة الله، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد؛ ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالًا بالقيادة الروحية في العالم، من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية إسرائيل، إلى ذرية إسماعيل.

---

(1) رواه البخاري (3888)، والترمذي (3134)، وأحمد (1941).

وقد كان غضب اليهود مشتعلًا لهذا التحول؛ مما دعاهم إلى المسارعة بإنكاره ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة:90].

لكن إرادة الله مضت، وحملت الأمة الجديدة رسالتها، وورث النبي العربي ﷺ تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وقام يكافح لنشرها، وجمع الناس عليها، فكان من وصل الحاضر بالماضي، وإدماج الكل في حقيقة واحدة، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام، وأن ينتقل إليه الرسول ﷺ في إسرائه .. فيكون هذا الانتقال احترامًا للإيمان الذي درج – قديمًا – في رحابه[1].

وإن في الاقتران الزمني بين إسرائه عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماوات السبع، لدلالة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. وفيه دلالة على مدى ما ينبغي على المسلمين في كل عصر ووقت، من الحفاظ على هذه الأرض المقدسة، وحمايتها من مطامع الدخلاء وأعداء الدين، وكأن الحكمة الإلهية تهيب بمسلمي هذا العصر أن لا يهنوا ولا يجبنوا ولا يتخاذلوا أمام عدوان اليهود على هذه الأرض المقدسة، وأن يطهروها من رجسهم، ويعيدوها إلى أصحابها المؤمنين. ومن يدري؟ فلعل واقع هذا الإسراء العظيم هو الذي جعل صلاح الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستبسل ذلك الاستبسال العظيم، ويفرغ كل جهده في سبيل صد الهجمات الصليبية عن هذه البقعة المقدسة حتى ردهم على أعقابهم خائبين [2].

المبحث الخامس: منحة الله لعباده في رحلة الإسراء والمعراج

كانت الصلاة هي العبادة الأولى التي أمر الله بها السابقين الأولين من المسلمين، ولم تعرف لهم عبادات غيرها، وكانت صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي المعراج شرعت الصلوات الخمس .. وكان في هذا – **كما قال ابن كثير:** (اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها)[3].

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 137.

(2) البوطي: فقه السيرة، ص 167.

(3) تفسير ابن كثير (3/23).

ولقد أراد الله تعالى أن يكرم هذه الأمة بأن فرض عليها الصلاة في معراج رسولها ﷺ، فلم يفرضها في الأرض بواسطة جبريل كسائر العبادات، إنما فرضها بدون واسطة ليلة المعراج فوق سبع سماوات، وخفف عنها؛ ففرض عليهم خمسين صلاة، ثم جعلها خمس صلوات في اليوم والليلة، مع كونها خمسين في الميزان.

وقد أوجب الله على عباده الصلاة على كل حال، ولم يعذر بها مريضًا ولا مسافرًا ولا خائفًا؛ بل جعل لهم التخفيف في عددها وفي شروطها وفي أفعالها، واشترط لها أكمل الأحوال من الطهارة والزينة، واستقبال القبلة، مما لم يشترط في غيرها من العبادات، واستعمل فيها جميع أعضاء الإنسان: من القلب واللسان والجوارح، وليس ذلك لغيرها. ونهى أن يُنشغل فيها بغيرها، وجعلها أفضل الأعمال بعد الشهادتين؛ فهي تغسل الخطايا، وتكفر السيئات، ونور لصاحبها في الدنيا والآخرة، ويرفع الله بها الدرجات، ويغفر بها الذنوب فيما بينها وبين الصلاة التي تليها، وتصلي الملائكة على صاحبها مادام في مصلاه، وانتظارها رباط في سبيل الله، وأجر من خرج إليها كأجر الحاج المحرم، وهو في صلاة حتى يرجع؛ فهي عماد الدين الذي لا يقوم إلا به، وأول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة؛ فصلاح عمله وفساده بصلاح صلاته وفسادها، وهي آخر ما يُفقد من الدين، فإذا انتقضت عروة الصلاة انتقض الدين، وهي آخر وصية أوصى بها النبي ﷺ أمته[1].

* * *

(1) د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني: منزلة الصلاة في الإسلام، باختصار وتصرف كبير.

الفصل الثالث

العرض على القبائل؛ طلبًا للحماية لتبليغ الدعوة

مضى رسول الله ﷺ على نهجه القديم، ينذر بالوحي كل من يلقى، ويخوض بدعوته المجامع، ويغشى المواسم، ويتبع الحجيج في منازلهم، ويغبر قدميه إلى أسواق (عكاظ) و(مجنة) و(ذي المجاز)؛ داعيًا الناس إلى نبذ الأوثان، والاستماع إلى هدي القرآن[1].

ولكن في موسم الحج من السنة العاشرة من البعثة، اختلفت الصيغة عن ذي قبل، **فكان يقول وهو يدور على الناس:** «من يئويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟»[2]، أي أنه ﷺ كان يبحث عن وطن يحتضن دعوته، ويكون منطلقًا لها؛ حتى يبلغ رسالة الله للناس جميعًا.

وكان مما يقوله أيضًا للقبائل ورؤسائها وذوي الشأن فيها: «هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي؟»[3]، **ويقول:** «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدونه، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به»[4].

إنها دعوة صريحة بطلب الحماية من القبائل؛ لتبليغ دعوة الله ﷻ، ويفهم من هذه الدعوة أنه ليس من الضروري أن تسلم القبيلة، إنما المطلوب أن تؤمن الحماية اللازمة له؛ لتبليغ دعوة الله ﷻ كما أن الذين هيأوا له الحماية من قبل (في مكة) لم يكونوا مؤمنين جميعًا؛ بل كان أبو طالب على رأسهم ولم يدخل في الدين الجديد[5]. **قال موسى بن عقبة:** (فكان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم، لا يسألهم مع ذلك إلَّا أن يئووه ويمنعوه، **ويقول:** «لا أُكره أحدًا منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره، لم أُكرهه، إنما أريد أن تحرزوني فيما يراد لي من القتل، حتى أبلغ رسالة ربي، وحتى يقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء»[6].

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 146.

(2) رواه أحمد في المسند (14830)، وصححه الألباني (الصحيحة: 64).

(3) أخرجه أبو داود في سننه (ك/5، السنة/ ح4134)، والدارمي (3397)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(4) رواه أحمد في المسند (3/492)، رقم (16271).

(5) الغضبان: المنهج الحركي، ص 141.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص 171.

قال الزهري: «وكان ممن يسمى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وعرض نفسه عليهم: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب حفصة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعُذرة، والحضارمة .. فلم يستجب منهم أحد».

وهذه القبائل التي سماها الزهري لم يكن عرض الإسلام عليها في سنة واحدة، ولا في موسم واحد، بل كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة، ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة، ولكن الأكثر في السنة العاشرة(1).

ولم يجد رسول الله ﷺ في هذه القبائل قلبًا مفتوحًا، ولا صدرًا مشروحًا، بل كان الراحلون والمقيمون يتواصون بالبعد عنه، ويشيرون إليه بالأصابع، وكان الرجل يجيء من الآفاق البعيدة، **فيزوده قومه بهذه الوصية:** احذر غلام قريش؛ لا يفتنك(2).

أبو بكر الصديق رضي الله عنه والمهمة المناسبة:

صاحب أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ في دعوته للقبائل، ولم تكن هذه الصحبة لمكانته عند رسول الله ﷺ، أو لحكمته وحلمه فحسب، بل كان أيضًا عالمًا بأنساب العرب وتاريخهم، وبما فيهم من خير وشر، وقد رُوي أن النبي ﷺ **قال:** «إن أبا بكر أعلمُ قريش بأنسابها» (3)، وكان رضي الله عنه قبل أن يتحدث رسول الله ﷺ إلى قوم يسألهم (أي أبو بكر): كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ .. فيقع الاختيار على أكثرهم قوة ومنعة، وأفضلهم خلقًا وقيمًا، فيتحدث رسول الله ﷺ إليهم، ويعرض عليهم دعوته.

ونسوق حوارًا طريفًا بين أبي بكر رضي الله عنه ومجلس لبني ربيعة، يدل على مدى علمه بأنساب العرب، وقدرته على تمحيص ما يسمع، وكشف ما عند العرب من مبالغة في ذكر أنسابهم، ويدل أيضًا في ردهم عليه على ما كانوا عليه من ذكاء فطري، وقدرة على السجال والملاسنة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، **قال:** حدثني علي بن أبي طالب رضي الله عنه **قال:** لما أمر الله رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس

---

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 147.

(3) صحيح مسلم (رقم 2490)، والطبراني في الكبير (رقم 3582).

من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسلم، وكان أبو بكر مقدمًا في كل خير، وكان رجلًا نسابة.

فقال: ممن القوم؟

قالوا: من ربيعة.

قال: وأي ربيعة أنتم؟ أمن هامها (أشرافها) أم لهازمها (أوساطها وعامتها)؟

قالوا: بل من هامها العظمى (أعظم أشرافها).

قال أبو بكر: فمن أي هاماتها العظمى أنتم؟

فقالوا: ذهل الأكبر.

قال لهم أبو بكر: منكم عوف الذي كان **يقال له:** لا حر بوادي عوف؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم بسطام بن قيس: أبو اللواء ومنتهى الأحياء؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم الحوفزان بن شريك قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم جساس بن مرة بن ذهل، حامي الذمار ومانع الجار؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم المزدلف، صاحب العمامة الفردة؟

قالوا: لا.

قال: فأنتم أخوال الملوك من كندة؟

قالوا: لا.

قال: فأنتم أصهار الملوك من لخم؟

قالوا: لا.

قال لهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلستم بذهل الأكبر؛ بل أنتم من ذهل الأصغر (أي: لستم من أشراف ربيعة؛ بل من عوامها).

قال (أي علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): فوثب إليه منهم غلام يدعى دغفل بن حنظلة الذهلي، فأخذ بزمام ناقة أبي بكر وهو **يقول:** إن على من سألنا أن نسأله .. إنك سألتنا فأخبرناك، ولم نكتمك شيئًا، ونحن نريد أن نسألك: فمن أنت؟

قال: رجل من قريش.

فقال الغلام: بخ بخ .. أهل السؤدد والرئاسة، قادمة العرب وهاديها .. فمن أنت من قريش؟ فقال له: رجل من بني تيم بن مرة.

فقال له الغلام: أمكنت والله الرامي من سواء الثغرة. (أي: سهلت مهمتي في التقليل من مكانتك في قريش) أفمنكم قصي بن كلاب؟ الذي قتل بمكة المتغلبين عليها وأجلى بقيتهم، وجمع قومه من كل أوب حتى أوطنهم مكة، ثم استولى على الدار، وأنزل قريشًا منازلها، فسمته العرب بذلك (مجمعًا)، وفيه **يقول الشاعر:**

أليس أبوكم كان يدعى مجمعًا ... به جمع الله القبائل من فهر

فقال أبو بكر: لا.

قال: فمنكم عبد مناف الذي انتهت إليه الوصايا وأبو الغطاريف السادة؟

فقال أبو بكر: لا.

قال: فمنكم عمرو بن عبد مناف هاشم، الذي هشم الثريد لقومه ولأهل مكة ففيه **يقول الشاعر:**

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مسنون عجاف

سنوا إليه الرحلتين كليهما ... عند الشتاء ورحلة الأصياف

كانت قريش بيضة فتفلقت ... فالمخُ خالصةٌ لعبد مناف

الرايشين وليس يعرف رايشٌ ... والقائلين هلمَّ للأضياف

والضاربين الكبش يبرق بيضة ... والمانعين البيض بالأسياف

لله درك لـــو نزلـــت بـــدارهم منعـــوك مـــن أزل[1] ومـــن إقـــراف[2]

فقال أبو بكر: لا.

قال: فمنكم عبد المطلب شيبة الحمد، وصاحب عير مكة، ومطعم طير السماء والوحوش والسباع في الفلا، الذي كأن وجهه قمر يتلألأ في الليلة الظلماء؟

قال: لا.

قال: أفمن أهل الإفاضة أنت؟

قال: لا.

قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟

قال: لا.

قال: أفمن أهل الندوة أنت؟

قال: لا.

قال: أفمن أهل السقاية أنت؟

قال: لا.

قال: أفمن أهل الرفادة أنت؟

قال: لا.

قال: فمن المفيضين أنت؟

قال: لا.

ثم جذب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زمام ناقته من يده، **فقال له الغلام:**

صـــادف در الـــسيل درٌ يدفعـــه يهـــضه حينًـــا وحينًـــا يرفعـــه

(1) **أزل:** الضيق والجدب.

(2) **إقراف:** الذكر بالسوء، أو التعرض لتهمة.

ثم قال: أما والله يا أخا قريش لو ثبت لخبرتك أنك من زمعات (الزوائد الناتئة) قريش، ولست من الذوائب (الأشراف).

قال: فأقبل إلينا رسول الله ﷺ يبتسم.

قال عليّ: فقلت له: يا أبا بكر، لقد وقعت من الأعرابي على باقعة (داهية).

قال: أجل .. إنه ليس من طامةٍ إلَّا فوقها طامة، والبلاء موكل بالقول [1].

أما ما كان من أمر النبي ﷺ مع القبائل، وكيف عرض عليهم الإسلام، وكيف كانت ردودهم، فقد روى بعضها ابن إسحاق، **فقال:** (حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين، أنه (أي النبي ﷺ) أتى بني كلب في منازلهم إلى بطن فيهم **يقال لهم:** بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، حتى إنه **ليقول:** «يا بني عبد الله: إن الله قد أحسن اسم أبيكم»، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

وحدثني بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يك أحد من العرب أقبح ردًّا عليه منهم [2].

ونتوقف مع مفاوضات ذات دلالات لرسول الله ﷺ مع قبيلتي بني عامر بن صعصعة وبني شيبان بشيء من التفصيل؛ لأهمية ذلك.

المبحث الأول: بنو عامر بن صعصعة وطلب الملك من بعد رسول الله ﷺ

قال ابن إسحاق: «... وأنه أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم - يقال له: بيحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم **قال له:** أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

---

(1) رواه ابن حبان (10).

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص 171.

قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.

فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك! فأبوا عليه[1].

درس مستفاد:

تعثرت المفاوضات مع بني عامر بن صعصعة لسبب واحد، هو أن رسول الله ﷺ لم يعدهم بأن يكون لهم الحكم من بعده؛ مما جعلهم يرفضون إيواءه ونصره كما **قال زعيمهم بيحرة ابن فراس:** أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟!، لا حاجة لنا بأمرك .. وبذلك خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا واضح المعالم: أنه مهما كانت حالة الضعف لدى الدعوة الإسلامية، فلا يحق لها أن تفاوض على إقرار غير المسلمين على باطلهم، والاعتراف لهم بحق الحكم بغير شريعة الله؛ فالأمر ليس ملكًا يورث إنما هو شريعة تسود.

ولابد من التفريق بين الأمر الواقع، وبين إقرار المسلمين به وموافقتهم عليه، وليست القضية هي حكم أشخاص بذواتهم وأعيانهم في الإسلام، إنما هي حكم من ينفذون شريعة الله، وعندما يدخل الناس في دين الله، ويحقق الله تعالى موعوده بالنصر، فلا يحق لفئة مشركة أن تتسلط على الحكم والسلطة، بحكم أنها كانت تناصر هذه الدعوة وتساندها[2].

لطيفة:

لما رجع بنو عامر بن صعصعة إلى ديارهم، أخبروا شيخًا كبيرًا من رجالاتهم بالخبر، فوضع يده على رأسه، **وقال:** يا بني عامر، هل من تلاف؟ (أي هل من وسيلة لتلافي الخطأ)، والذي نفسي بيده ما تقولها إسماعيلي قط، وإنها لحق، وأين كان رأيكم عنه؟[3] (أي أنه لم يحدث أن ادعى أحد أبناء إسماعيل النبوة، وأنه قد غاب عقلكم ورأيكم، ففاتكم الخير).

***

(1) السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص 66.
(2) الغضبان: المنهج الحركي، ص 144.
(3) البداية والنهاية، ج3، ص 140.

المبحث الثاني: بنو شيبان والحماية المنقوصة

وكان اللقاء الثاني مع بني شيبان: «... وزاد قاسم بن ثابت تكملة للحديث، **قال:** ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم. **قال علي:** وكان أبو بكر في كل خبر مقدمًا. **فقال:** ممن القوم؟ **فقالوا:** من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ **وقال:** «بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر في قومهم».

وفيهم مغروق بن عامر وهانئ بن قبيصة ومثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، ومغروق قد غلبهم جمالًا ولسانًا، وكان له غديرتان[1] تسقطان على تريبته[2]، فكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر، **فقال أبو بكر:** كيف العدد فيكم؟ **قال مغروق:** إنا لنزيد عن الألف، ولن تُغلب الألف عن قلة.

قال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ **فقال مغروق:** علينا الجد والجهد، ولكل قوم حد.

قال أبو بكر: وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ **فقال مغروق:** إنا لأشد ما نكون غضبًا لحين نلقى (عدونا)، وإنا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر (نفضل) الجياد عن الأولاد والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا أخرى، لعلك أخو قريش (يقصد أبا بكر)؟

فقال أبو بكر: أوبلغكم أنه رسول الله؟ فهاهو ذا.

فقال مغروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، فإلام تدعو يا أخا قريش؟

فتقدم رسول الله ﷺ، **فقال:** «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وإلى أن تئووني وتنصروني؛ فإن قريشًا قد تظاهرت على أمر الله، وكذَّبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد».

فقال مغروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش.

فقال رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام:151].

---

(1) **غديرتان:** ذؤابتان (ضفيرتان) من الشعر تسقطان على الصدر.

(2) **تريبة:** العظمة من الصدر.

فقال مغروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل :90].

فقال مغروق: دعوت يا أخا قريش - والله - إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذَّبوك وظاهروا عليك. وكأنه أراد أن يشرك في الكلام هانئ بن قبيصة، **فقال:** وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى أنَّ تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا، ليس له أول ولا آخر، لوهن في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدًا ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر.

وكأنه أحب أن يشرك في الكلام مثنى بن حارثة، **فقال:** وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا، **فقال المثنى:** قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا إياك في مجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، وإنا إنما نزلنا بين صريان[1] اليمامة والسماوة.

فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا الصريان؟».

فقال: أنهار كسرى ومياه العرب؛ فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور وعذره مقبول، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، لا نحدث حدثًا ولا نئوي محدثًا، وإني لأرى أن هذا الأمر مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نئويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، فإن دين الله لن ينصره إلَّا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلَّا قليلًا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم ويفرشكم نساءهم أتسبحون الله وتقدسونه؟!».

فقال النعمان بن شريك: اللَّهم لك ذا.

---

(1) **صريان:** فاصلان، **وصرى الماء:** طال مكثه.

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ ﴾ [الأحزاب].

ثم نهض النبي ﷺ، فأخذ بيدي أبي بكر، **فقال:** «يا أبا بكر، يا أبا حسن، أية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها، بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم». **قال:** ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج، فما نهضنا حتى بايعوا النبي ﷺ وكانوا صُدُقًا صُبُرًا[1].

الدرس المستفاد:

كان جواب رسول الله ﷺ على المثنى بن حارثة الشيباني، حين عرض على النبي ﷺ الحماية الجزئية، **فقال:** «فإن أحببت أن نئويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا»، كان جوابه ﷺ واضحًا - كل الوضوح: «ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، فإن دين الله لن ينصره إلَّا من حاطه من جميع جوانبه».

فانتهت المفاوضات على ذلك، ولم ينعقد بينه ﷺ وبين بني شيبان تحالف، فقد كانت النصرة التي يطلبها رسول الله ﷺ لدعوته، تقتضي أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات تتناقض مع الدعوة ولا يستطيعون التحرر منها؛ وذلك لأن احتضانهم للدعوة وهم على هذا الحال يعرضها لخطر الاجتزاء؛ إرضاء للدول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، وحمل الدين لا يصح أن يكون مشروطًا أو جزئيًّا.

رفض رسول الله ﷺ عرض بني شيبان بأن يدفعوا عنه وعن أصحابه ظلم ظالميهم من قريش والعرب الذين ألهبوا ظهورهم، وعذبوا المستضعفين منهم، وقتلوا الضعفاء، وهَجَّروا الموحدين إلى الحبشة، وكان من المتصور أن يقبل ﷺ حمايتهم ولو إلى حين؛ فأمر الفرس لا يشغله في الوقت الراهن، وعدوه هو ذلك الوثني القابع في مكة.

ولكن رسول الله ﷺ يعلم أن الإسلام لا يقوم على أنصاف الحلول؛ فهو نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، ولابد لمن يحمله أن ينصره، ولن ينصره إلَّا من حاطه من جميع جوانبه، فكانت كلماته ﷺ مع بني شيبان عمدة في مبدأ شمولية الإسلام لكل مجالات الحياة، وأنه كلٌّ لا يتجزأ.

---

(1) مختصر السيرة، لابن محمد بن عبد الوهاب، ص 134.

ولعل ما كان من بني شيبان بعد ذلك بأعوام - حين قدر الله لهم الهداية - خير دليل على صحة هذا المبدأ في حمل دين الله ونصرته، فبعد أن شرح الله صدورهم للإسلام، بعد سنوات من لقائهم هذا برسول الله ﷺ، كانوا من أجرأ المسلمين على قتال الفرس، بعد أن كانوا في جاهليتهم يرهبونهم، ولا يصل لمخيلتهم محاربتهم، وكان المثنى بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - صاحب حربهم وبطلهم المغوار - أحد قادة الفتوح في بلاد الفرس في خلافة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* * *

الفصل الرابع
معرفة أهل يثرب بالإسلام

حُرم مشركو مكة الخير كله، منذ جحدوا الرسالة، وقعدوا بكل صراطٍ يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجًا، ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الإسلام، فإن الحق لابد أن يعلو، وأن يثوب إليه المضللون والمخدوعون، على شرط أن يظل أهله أوفياء له؛ حراصًا عليه، صابرين محتسبين.

وقد قيض الله للإسلام من استنقذه من البيئة التي صادرته، فأنس بعد وحشة، واستوطن بعد غربة، وشق طريقه في الحياة، وبدأ هذا التحول على أيدي الوفود القادمة من (يثرب) إلى مكة في موسم الحج(1).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان وفد الأنصار يقدم مكة عامًا بعد عام، حتى بايعوا رسول الله ﷺ بيعة بعد بيعة، ثم بعد ذلك تحول إليهم رسول الله ﷺ إلى المدينة(2).

وقال جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يَتَّبعُ الناس في منازلهم، بعكاظ ومجنة، وفي المواسم بمنى، **يقول:** (من يئويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة؟»؛ حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو مصر - كذا قال - فيأتيه قومه **فيقولون:** احذر غلام قريش؛ لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا، فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من الأنصار إلَّا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام(3).

وهذه ومضات من بدء معرفة بعض أهل يثرب بالإسلام:

* سويد بن الصامت (الكامل):

سويد بن الصامت أوسي من أهل المدينة، أمه ليلى بنت عمرو النجارية، أخت سلمى بنت عمرو أم عبد المطلب بن هاشم، فهو ابن خالة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ، وكان شاعرًا لبيبًا، يسميه قومه (الكامل)؛ لِجَلَدِه وشِعْرِه وشَرَفِه ونَسَبِه.

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 150.

(2) البداية والنهاية، ج3، ص 179.

(3) رواه أحمد في المسند (3/ 322، 332).

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن أشياخ من قومه، **قالوا:** قدم سويد بن الصامت أخو بني عمرو بن عوف مكة حاجًّا - أو معتمرًا - وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل؛ لِجَلَدِه وشِعْرِه وشَرَفِه ونَسَبِه، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله والإسلام، **فقال له سويد:** فلعل الذي معك مثل الذي معي.

فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟».

قال: مجلة لقمان (يعني: حكمة لقمان).

فقال رسول الله ﷺ: «اعرضها علي»، فعرضها عليه.

فقال: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله علي، هو هدى ونور»، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام.

فلم يبعد منه، **وقال:** إن هذا القول حسن.

ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج. (وكان بينهم وبين الأوس حروب - سيأتي ذكرها).

فإن كان رجال من قومه **ليقولون:** إنا لنراه قتل وهو مسلم، وكان قتله قبل بعاث.

* إسلام إياس بن معاذ:

كان إياس بن معاذ غلامًا حدثًا من يثرب، قدم في وفد من الأوس مكة؛ يلتمسون الحلف من قريش على قتال قومهم من الخزرج قبيل حرب بعاث، التي كانت بين الأوس والخزرج، وذلك في أوائل سنه 11 من البعثة.

قال ابن إسحاق: لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم، فجلس إليهم، **فقال لهم:** (هل لكم في خير مما جئتم له؟».

قالوا: وما ذلك؟

قال: «أنا رسول الله إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليَّ الكتاب».

ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

قال: فقال إياس بن معاذ – وكان غلامًا حدثًا: يا قوم هذا والله خير مما جئتم له.

فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، **وقال:** دعنا منك؛ فلعمري لقد جئنا لغير هذا.

قال: فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج.

قال: ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضرني من قومه أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلمًا؛ حيث إنه كان قد استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

* بدء إسلام الأنصار:

في السنة الحادية عشرة من البعثة، أراد الله ﷻ إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، فهيأ له وفدًا من الخزرج، خرجوا من يثرب للحج، فلقيهم رسول الله ﷺ عند العقبة، فدعاهم إلى الله تعالى، وعرض عليهم الإسلام كما كان يصنع في كل موسم، فأجابوا دعوته وصدقوا به .. وكان مما مهد أفئدتهم للإسلام، أنهم كان إذا وقع بينهم وبين اليهود عداوة، **قال لهم اليهود:** «إن نبيًّا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عادٍ وإرم». وكان هذا الوفد المبارك ستة نفر، كلهم من الخزرج، **هم:**

1- أبو أمامة أسعد بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (من بني النجار) .. **قال أبو نعيم:** وقد قيل: إنه أول من أسلم من الأنصار[1].

2- عوف بن الحارث بن رفاعة، وهو ابن عفراء (من بني النجار).

3- رافع بن مالك بن العجلان (من بني زريق).

4- قطبة بن عامر بن حديدة (من بني سَلِمة).

5- عقبة بن عامر بن نابي (من بني حرام بن كعب).

---

(1) **وأول من أسلم من الأوس:** أبو الهثيم بن التيهان.

6- جابر بن عبد الله بن رئاب (من بني عبيد بن غنم، وهو غير جابر بن عبد الله بن عمرو ابن حرام الأنصاري، الصحابي بن الصحابي).

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطًا من الخزرج، أراد الله بهم خيرًا.

لما لقيهم رسول الله ﷺ **قال لهم:** من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، **قال:** أمن موالي يهود؟ **قالوا:** نعم. **قال:** أفلا تجلسون أكلمكم؟ **قالوا:** بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام، أن يهودًا كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل أصنام وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء (من عداوة) **قالوا لهم:** إن نبيًّا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه، نتبعه، فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، فلما كلَّم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، **قال بعضهم لبعض:** تعلمون والله إنه للنبي الذي توعَّدكم يهود، فلا يسبقنكم إليه! فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، **وقالوا:** إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزُّ منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ، راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدَّقوا، وهم فيما ذكر لي ستة من الخزرج.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم، ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلَّا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

وقفة:

بدأ الجهد يثمر واستغلظ زرع الدعوة، وأخذ يستوي على سوقه؛ ليعطي النتيجة والثمار[1]، فهذا أول موكب من مواكب الخير، لم يكتف بالإيمان، وإنما أخذ العهد على نفسه أن يدعو إليه قومه، وقد وفى كل منهم لدينه ورسوله ﷺ؛ فإنهم حين رجعوا نشطوا في الدعوة إلى الله، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم وذويهم، فلم تبق دار من دور المدينة إلَّا وفيها ذكر لمحمد

(1) البوطي: فقه السيرة، ص 173.

ﷺ، وهكذا، عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة، فقد كان لقاء هؤلاء مع الرسول ﷺ على غير موعد، لكنه لقاء هيأه الله ليكون نبع الخير المتجدد الموصول، ونقطة التحول الحاسم في التاريخ، وساعة الخلاص والحسم في مصير العالم، ونقل الحياة من الظلمات إلى النور.

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يعرض على وفد الخزرج ما كان يعرضه على القبائل[1] من طلب الحماية والنصرة؛ بل توجه اهتمامه ﷺ إلى انطلاق جديد لدين الله، يحسن أن يكون مركزًا ممتازًا، يغير مواقع الدعوة كاملةً.

ولعل هذه السنة التي مرت على الدعوة في عامها الحادي عشر كانت أكثر بركة من الأعوام العشرة السابقة، ولعل انتشار الإسلام في هذه الأرض، كان أكثر من انتشاره في مكة خلال الأعوام العشرة السابقة [2].

* * *

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص 238.

(2) الغضبان: المنهج الحركي، ص 154.

الفصل الخامس

زواج رسول الله ﷺ بعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

في شوال من السنة الحادية عشرة من البعثة، تزوج رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي بنت ست سنين، ثم بنى بها بعد هجرته ﷺ بالمدينة، في شوال أيضًا في السنة الأولى من الهجرة، وهي بنت تسع سنين؛ لذا كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تستحب أن تتزوج النساء في شوال، وكانت **تقول:** (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني)[1].

المبحث الأول: كيف تزوج رسول الله ﷺ بعائشة؟

كان زواج النبي ﷺ من عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أمرًا توقيفيًّا من عند الله ﷻ؛ فقد أوريها في منامه زوجة له أكثر من مرة، وقد حكت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذه الرؤيا، **وقالت: قال لي رسول الله ﷺ**: «أريتك في المنام فيجيء بك الملك في سرقة[2] من حرير، **فقال لي:** هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب، فإذا هي أنت، **فقلت:** إن يكن هذا من عند الله يمضه»[3]، **وفي رواية:** «أريتك في المنام ثلاث ليال».

وعند الترمذي: أن جبريل جاءه بصورتها في خرقة من حرير خضراء، **فقال:** «هذه زوجتك في الدنيا والآخرة». ولأن رؤيا الأنبياء حق، ومن عند ﷻ، فقد أتت خولة بنت حكيم، امرأة عثمان بن مظعون إلى النبي ﷺ بعد وفاة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تعرض عليه كلًّا من عائشة وسودة، فوافق النبي ﷺ، وطلب منها أن تخطبها له، ثم بنى بسودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ولم يبن بعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، إلَّا بعد الهجرة إلى المدينة، بعدما صارت تطيق الزواج.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب التزويج والتزوج في شوال، واستحباب الدخول فيه (1423).

(2) **سَرَقَة:** قطعة من حرير، أو أجود أنواع الحرير.

(3) رواه البخاري، في باب تزويج عائشة (3895)؛ ومسلم، في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة (2438).

روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، **قالت:** لما هلكت خديجة، جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، **فقالت:** يا رسول الله، ألا تتزوج؟

قال: «من؟».

قالت: إن شئت بكرًا، وإن شئت ثيبًا.

قال: «فمن البكر؟».

قالت: أحب خلق الله إليك، عائشة ابنة أبي بكر.

قال: «ومن الثيب؟».

قالت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك.

قال: «فاذهبي فاذكريهما علي».

فدخلت بيت أبي بكر، **فقالت:** يا أم رومان (زوجة أبي بكر)، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟

قالت: وما ذاك؟.

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قالت: انظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر، **فقلت:** يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

قال: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قال: وهل تصلح له؛ إنما هي ابنة أخيه (ظن أن ما بينهما من أخوة يجعلها لا تصلح له)، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له.

قال: «ارجعي إليه **فقولي له:** أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي».

فرجعت فذكرت ذلك له.

قال: انتظري وخرج.

قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه (أي خطبها لابنه)، ووالله ما وعد أبو بكر وعدًا قط فأخلفه، فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي، وعنده امرأته أم الصبي، **فقالت:** يا ابن أبي قحافة، لعلك مصبي صباحبنا، تدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج إليك (أي: نخشى على ابننا أن تدخله دينك إن تزوج ابنتك).

فقال أبو بكر للمطعم بن عدي: أقول هذه تقول؟ (أتقول قول زوجتك من إنهاء الخطبة؟)

قال: إنها تقول ذلك.

فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عدته التي وعده، فرجع، **فقال لخولة:** ادعي لي رسول الله ﷺ، فدعته فزوجها إياه، وعائشة يومئذٍ بنت ست سنين.

المبحث الثاني: شبهة .. ورد

ظن بعض من يأكل الحقد على الإسلام أفئدتهم أنهم واجدون في زواج رسول الله ﷺ من عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما يشوهون به مسلكه ﷺ، وتخيلوا - بفكرهم المريض - أن بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس في صورة الشيخ الكبير الذي ينتهك حرمة الطفولة، فينكح طفلة دون العاشرة تلعب مع الصبية، دونما مراعاة لسن أو مشاعر أو لنضج عقلي وجسماني. ومعلوم أن خصوم الإسلام - على اختلاف مشاربهم - يتخذون من القدح في رسول الله ﷺ والإساءة إليه السلاح الأعظم للطعن في الإسلام، ويسير من خلفهم من يخاصمون دينهم على السماع والتقليد، ولا يعنيهم أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم لوقفة متأملة مدققة فيما يُلقى على مسامعهم من غيٍّ وضلال.

جاء هؤلاء بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام يهدرون فروق العصر والبيئة والأعراف الاجتماعية، وأعملوا القياس بزيغ وهوى وسوء نية، في زواج تم في مكة قبل الهجرة بزواج يتم اليوم .. ونحن نرد على شبهات هؤلاء من جوانب متعددة - إضافة لما ذكرناه من أنه كان زواجًا توقيفيًّا من عند الله برؤيا أريها رسول الله ﷺ أكثر من مرة.

أولاً: السن:

1- زواج النبي ﷺ بعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي في تلك السن كان أمرًا مألوفًا في ذاك المجتمع، ومن الخطأ البين أن نفصل بين الحدث وبيئته التي وقع فيها، فأعمار البنات كانت تعرف في تلك

البيئة وفي ذلك الزمان بعلامات غير علامات التقويم، فتعرف بأطوار النمو البدني، كما يعرف الزارع نضوج الثمرة في حقله، وآية هذا النضج هي التي قرأتها خولة بنت حكيم في عائشة كما قرأتها البيئة كلها، وبوحي من هذه البيئة ذكرتها خولة للرسول ﷺ في معرض الزواج.

2- لم تدهش قريش حين أُعلن نبأ زواج محمد ﷺ من عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ بل استقبلته كما تستقبل أي أمر طبيعي، ولو أن في هذا الزواج أي منقصة أو مذمة، لأقامت قريش الدنيا ولم تقعدها، وحينئذ سوف تلوك الألسنة محمدًا قائلة: أليس هذا محمد الذي جاء يدعونا إلى العفاف والطهر؟ أليس كذا؟ .. ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، وكان زواجًا عاديًّا مألوفًا لديهم أجمعين.

3- لم يكن رسول الله ﷺ أول الخاطبين لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ فقد كانت قبل ذلك مخطوبة لجبير بن المطعم بن عدي، فلا غرو إذًا أن يخطبها النبي ﷺ.

4- لم تكن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أول صبية تتزوج - في تلك البيئة - من رجلٍ بينها وبينه هذا الفارق من السن، ولم تكن كذلك آخرهن .. لقد تزوج عبد المطلب من هالة بنت عم آمنة في اليوم الذي تزوج فيه عبد الله [أصغر أبنائه] من صبية في سن هالة، وهي آمنة بنت وهب. وتزوج عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بنت عليّ - كرم الله وجهه - وهو في سن جدها، كما أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عرض حفصة على أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبينهما من فارق السن مثل الذي بين الرسول ﷺ وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (1).

ثانيًا: النضج الجسماني:

تزوج رسول الله ﷺ عائشة في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة بعد زواجه بسودة بنت زمعة بسنة، قبل الهجرة بسنتين وخمسة أشهر، تزوجها وهي بنت ست سنين، وبنى بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة، وهي بنت تسع سنين(2)، فلماذا انتظر ﷺ ثلاث سنوات كاملة ليدخل بها؟ .. انتظر حتى تطيق عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الزواج.

ويجب الانتباه إلى أن نضج الفتاة في المناطق الحارة يكون في سن مبكرة جدًّا، فيكون عادة في سن الثامنة .. وتتأخر الفتاة في المناطق الباردة عن ذلك كثيرًا.

---

(1) رد افتراءات المنصرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، ص 86-87.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم.

ثالثًا: النضج العقلي:

التاريخ والسيرة يثبتان أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تفوق كل أترابها، ومن يقف على سيرة هذه السيدة العظيمة يدرك مدى ما كانت عليه من الذكاء والفطنة وغزارة العلم رغم صغر السن، وسيعلم حكمة اختيار الله عَزَّوَجَلَّ لها لتكون زوجًا لرسوله ﷺ؛ فقد عاشت بعده زمنًا طويلًا (ما يقرب من 48 سنة)، تنشر العلم، وتعلم الحديث، وتورث الدين، وكانت أفقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق، وفضلها على النساء - كما قال رسول الله ﷺ - كفضل الثريد على سائر الطعام، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا أُشكل عليهم أمر سألوا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فيجدون عندها فيه علمًا.

قال الزهري: (لو جمع لي علم عائشة، وعلم جميع أمهات المؤمنين، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل).

* * *

الفصل السادس

بيعة العقبة الأولى

ذكرنا أن ستةً من الخزرج من أهل يثرب أسلموا في موسم حج السنة الحادية عشرة من النبوة، فلما قدموا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى قومهم في المدينة، ذكروا رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلَّا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلًا، فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ، **منهم خمسة من الستة الذين أسلموا من قبل، وهم:**

1- أسعد بن زرارة.

2- عوف بن عفراء.

3- رافع بن مالك.

4- قطبة بن عامر السلمي.

5- عقبة بن عامر بن نابي.

ولم يحضر هذه البيعة جابر بن عبد الله بن رئاب.

والسبعة الباقون منهم خمسة من الخزرج، هم:

1- معاذ بن الحارث بن رفاعة، وهو ابن عفراء، وأخو عوف المذكور.

2- ذكوان بن عبد قيس الزرقي، وقد سكن مكة مع رسول الله ﷺ، ثم هاجر لما هاجر المسلمون، فهو - كما قال ابن هشام - مهاجري أنصاري، وقتل يوم أحد.

3- عبادة بن الصامت بن قيس.

4- أبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة.

5- العباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان.

واثنان من الأوس هما:

1- أبو الهيثم مالك بن التيهان، من بني عبد الأشهل.

2- عويم بن ساعدة.

هؤلاء الاثنا عشر شهدوا الموسم عامئذ، واجتمعوا برسول الله ﷺ، فلقوه بالعقبة، فبايعوه عندها بيعة النساء، وهي العقبة الأولى[1] .

المبحث الأول: البيعة

روى ابن إسحاق، عن عبادة – وهو ابن الصامت – **قال:** كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلًا، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف .. فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر[2].

وبنود هذه البيعة هي البنود نفسها التي بايع عليها النساء فيما بعد – بعد صلح الحديبية – ولذلك سميت ببيعة النساء. **قال ابن كثير:** وقوله: (على بيعة النساء) يعني: وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية، وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحاب ليلة العقبة[3].

وقيل: كانت هذه البيعة أيضًا على نفس ما بايع عليه رسول الله ﷺ النساء ثاني يوم الفتح في مكة على جبل الصفا، **ففي رواية الطبراني لحديث عبادة بن الصامت:** «بايعنا رسول الله ﷺ على ما بايع عليه النساء يوم فتح مكة».

وقيل: عُرفت بيعة العقبة الأولى ببيعة النساء؛ لأنه لم يفرض فيها حرب ولا جهاد، كما **قال عبادة بن الصامت:** «فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب» [4].

قال الأستاذ منير الغضبان: «سميت البيعة بيعة النساء؛ لأنها لم تشتمل على فكرة الحرب، والحرب لا تكون إلَّا بعد البناء الفكري والعقيدي للإنسان، وبعد أن يصاغ على ضوء الإسلام

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص 184.

(2) مسند الإمام أحمد (23196).

(3) البداية والنهاية، ج3، ص 184.

(4) ابن هشام (2/86).

وقيمه يمكن أن يدعى المسلم إلى الجهاد، وإنها لثغرة كبيرة أن يندفع المرء إلى الجهاد ولما تتم صياغته الإسلامية. إن المفاهيم ستختلط في ذهنه بين اندفاعه للجهاد في سبيل الله، وبين الحماس لنفسه أو لأهله أو لأرضه، ومن أجل هذا كانت البيعة الأولى خالية من الحديث عن الحرب، وكانت تجربة حية للدعوة قبل المعركة»[1].

قيم البيعة:

عقد رسول الله ﷺ مع الاثني عشر رجلًا من الأنصار بيعة لم يعقدها مع الستة نفر الذين أسلموا في العام الذي سبق .. وهذا من باب التدرج في التكاليف، الذي كان نهجًا للدعوة والتشريع في حياته ﷺ كلها؛ فقد كانت السنة بين اللقائين فارقة في نفوسهم .. ترسخ فيها الإيمان في القلب، وصدق اللسان ذلك بالدعوة إلى الدين الحق، حتى لم يبق دارٌ من دورهم إلَّا وفيه ذكر الإسلام ورسول الإسلام، فجاءوا إليه ﷺ وهم أكثر عددًا، وأصفى نفسًا، وأرسخ عقيدةً؛ بل إنهم استطاعوا أن يتجاوزا ما بينهم وبين الأوس من دماء وحروب، وتحقق لهم ما تمنوا، من حين التقوا برسول الله ﷺ في عامهم المنصرم: (إن بين قومنا من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسندعوهم إلى أمرك، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك)، فحضروا ومعهم اثنان من الأوس، وهذا يعني أن يثرب كلها بأوسها وخزرجها، صارت مهيأة للدخول في الإسلام.

حددت هذه البيعة - قليلة الكلمات - لهذا الجمع المبارك من الأنصار رضي الله عنهم حدود مسئوليتهم أمام خالقهم، وجَلَّت أمام أعينهم مبادئ المجتمع المسلم ونُظمه، وقواعد بناء الأمة الصالحة التي ستقيم الدولة الإسلامية الأولى بعد أن يهاجر إليهم رسول الله ﷺ، **وكان مما حددته هذه البيعة بكلماتها الجامعة:**

أولًا: قضية الإسلام المحورية هي العقيدة الصحيحة، وعبادة الله وحده دون إشراك، والتلقي منه وحده دون غيره، وتقديمه على كل شيء، **فكان أول ما قامت عليه البيعة:** «... على أن لا نشرك بالله شيئًا».

ثانيًا: لا قيام للإسلام إلَّا بطاعة الله ورسوله، فقد أخذ عليهم رسول الله ﷺ ألا يعصوه في معروف؛ لأنه ﷺ هو المبلغ عن ربه، وأوامره إما أن تكون قرآنًا وإما أن تكون سنة، وكلا

---

(1) المنهج الحركي، ص 107.

الأمرين ملزم، فحيثما وجد التصديق برسالة محمد ﷺ وجد الإيمان بحاكمية الله تعالى، وضرورة اتباع شريعته ودستوره، ومن أعجب العجب ما يعمد إليه بعض الذين لا يريدون المجاهرة بنبذ الإسلام وطرحه؛ حيث يحاولون أن يسلكوا مع خالق هذا الكون ومالكه مسلكًا أشبه ما يكون بمسلك الصلح والمفاوضات.

وسبيل المفاوضة عندهم، أن يقسموا الأمر بينهم وبين الله؛ فلله المساجد والعبادة، يحكم على الناس فيها بكل ما يريد، ولهم النظم والتشريعات، يغيرون منها ويبدلون كما يريدون.

ولو أن المتألهين والبغاة الذين أرسلت إليهم الرسل، فكذبوا برسالاتهم، تنبهوا لهذا الحل الطريف إزاء دعوتهم إلى الإسلام، لما توانوا عن الدخول فيه وإظهار الطواعية له، مادام أنه لا يكلفهم التنازل عن حاكميتهم، ولا ترك شيء من قوانينهم وتنظيماتهم، ولما بخلوا في مقابل ذلك بكلمة يرددونها، أو طقوس يتركون السبيل إليها، ولكنهم علموا أن هذا الدين يكلفهم - أول ما يكلفهم - الدخول في نظام وحكم جديدين، التشريع والحكم فيه إلى الله وحده، فمن أجل ذلك شاقوا الله ورسوله ﷺ، وعز عليهم أن يعلنوا إسلامهم لدعوة الله ﷻ[1].

ثالثًا: الأخلاق هي الركن الركين للمجتمع المسلم .. ولا مجال للتهاون في خُلق؛ فإن ضاعت الأخلاق ضاع كل شيء، ضاعت السياسة وضاع الاقتصاد، وضاع الحكم، وضاع القضاء، وضاعت المعاملات، وضاعت البلاد، وضاع العباد [2]؛ ولذا **كان من أركان هذه البيعة:** «ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا».

رابعًا: الطاعة لا تكون إلَّا في معروف، وبديهي أن الرسول ﷺ لن يأمر إلَّا بمعروف، **وكان من الممكن أن يقول:** ولا تعصوني - فقط - ويسكت، ولكنه في هذا المقام يضع أسس بناء الأمة الإسلامية، فهذا العهد وهذه البيعة ليست خاصة بزمانهم فقط، إنما هي إعداد للأمة في كل أزمانها إلى يوم القيامة، والقائد الذي يقوم في مقام رسول الله ﷺ بعد موت رسول الله ﷺ لابد أن يطاع، ولكن لا يطاع إلَّا في معروف، والمعروف هو ما جاء من الله ﷻ ومن رسوله ﷺ .. وهي قاعدة أصيلة في بناء الأمة الإسلامية [3].

---

(1) البوطي: فقه السيرة، ص 177، بتصرف بسيط.

(2) د. راغب السرجاني: بيعة العقبة الأولى.

(3) المصدر السابق.

خامسًا: «فإن وفيتم فلكم الجنة» .. الجنة فقط هي الثمن، ولو وضع المسلم أي شيء إلى جوار الجنة ما أفلح، لا في بناء الأمة الإسلامية ولا في الآخرة .. الجنة فقط .. أما كل الأثمان الأخرى - من مال ورئاسة وأمن وراحة - فقد تأتي وقد لا تأتي، فليست هي القضية، وليست هي منتهى أحلام المؤمنين .. فقط الجنة.

فمع كل التكاليف التي فرضت على الأنصار، لم يكن هناك أي وعد بأي شيء إلَّا الجنة. وهنا يتضح الفارق الهائل بين مجموعة الأنصار التي بايعت هنا، وبين قبائل بني شيبان وقبائل بني عامر، وغيرهما من القبائل، التي اشترطت شروطًا معينة للإيمان برسول الله ﷺ [1].

المبحث الثاني: مصعب بن عمير .. سفير فوق العادة

لما أراد الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الانصراف بعد أن عقدوا البيعة مع رسول الله ﷺ، بعث معهم مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين. **قال ابن إسحاق:** «فلما انصرف عنه القوم، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب ابن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة، كان يصلي بهم؛ وذلك أن الأوس والخزرج كرهوا أن يؤم بعضهم بعضًا»[2].

اختار رسول الله ﷺ «مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» لهذه المهمة؛ لعلمه بحكمته وحلمه، وهدوء طبعه، وحسن خلقه، ولحفظه لما قد كان نزل من القرآن.

فراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو أهل المدينة إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، ويبلغهم أحكام الله، ولقد كان الرجل يدخل عليه وفي يده حربة يريد أن يقتله بها، فما هو إلَّا أن يتلو عليه شيئًا من كتاب الله، ويذكر له بعض أحكام الإسلام، حتى يلقي حربته، ويتخذ مجلسه مع من حوله، مسلمًا موحدًا، يتعلم القرآن وأحكام الإسلام، حتى انتشر الإسلام في دور المدينة كلها، ولم يكن بينهم حديث إلَّا عن الإسلام[3].

---

(1) المصدر السابق.
(2) السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص 12-13.
(3) البوطي: فقه السيرة، ص 178.

وأسلم خلق كثير على يده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **وكان ممن أسلم من أشراف يثرب:** أسيد بن الحضير، وسعد بن معاذ، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل؛ الرجال والنساء، إلَّا الأصيرم (عمرو ابن ثابت بن وقش)؛ فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد وأسلم حينئذ، وقاتل فقتل، فأُخبر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه في الجنة.

ونجح «مصعب» - أيما نجاح - في نشر الإسلام، وجمع الناس عليه، واستطاع أن يتخطى الصعاب، التي توجد - دائمًا - في طريق كل نازح غريب، يحاول أن ينقل الناس من موروثات ألفوها، إلى نظام جديد يشمل الحاضر والمستقبل، ويعم الإيمان والعمل، والخلق والسلوك.

ولا تحسبنَّ «مصعبًا» كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دَّسهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على الشرق، فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض؛ **ليقول له:** هذه القارورة تقدمها لك العذراء! وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح!!

وربما فتح مدرسة، ظاهرها الثقافة المجردة، أو ملجأ ظاهره البر الخالص، ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون، ومال بهم حيث يريد!!

هذا ضرب من التلصص الروحي، يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين، والذين يمثلون هذه المساخر يجدون الجرأة على عملهم من الدول التي تبعث بهم، فإذا رأيت إصرارهم ومغامراتهم، فلا تنس القوى التي تساند ظهورهم في البر والبحر والجو.

أما مصعب فكان من ورائه نبيٌّ مضطهد، ورسالة معتبرة ضد القانون السائد، وما كان يملك من وسائل الإغراء ما يطمع طلاب الدنيا ونهازي الفرص .. كل ما لديه ثروة من الكياسة والفطنة، قبسها من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإخلاص لله، جعله يضحي بمال أسرته وجاهها في سبيل عقيدته .. ثم هذا القرآن الذي يتأنق في تلاوته، ويتخير من روائعه ما يغزو به الألباب، فإذا الأفئدة تَرق له، وتتفتح للدين الجديد[1].

* إسلام أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

كان إسلام أسيد بن الحضير، وسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من أروع نجاحات مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبمساعدةٍ من أسعد بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي نزل مصعب بداره في يثرب.

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 155-156.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقيب، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير، يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطًا (أي: بستانًا) من حوائط بني ظفر، على بئر يقال له: بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، يومئذٍ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه.

فلما سمعا به، **قال سعد لأسيد:** لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارينا؛ فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدمًا.

قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، **قال لمصعب:** هذا سيد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه.

قال مصعب: إن يجلس أكلمه.

قال: فوقف عليهما متشتمًا، **فقال:** ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

قال ابن إسحاق: فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع؛ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُف عنك ما تكره؟

قال: أنصفت، **قال:** ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، **فقالا:** والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم **قال:** هذا ما أجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلًا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي **قال له سعد:** ما فعلت؟

قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما **فقالا:** نفعل ما أحببت، وقد حُدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه؛ وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك (اختلق له هذه القصة؛ حتى يأتي إلى مصعب فيسمع منه)، **قال:** فقام سعد بن معاذ مغضبًا مبادرًا؛ تخوفًا للذي ذكر له من بني حارثة، وأخذ الحربة في يده، **ثم قال:** والله ما أراك أغنيت شيئًا!!

ثم خرج إليهما سعد، فلما رآهما مطمئنين، عرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم **قال لأسعد بن زرارة:** والله يا أبا أمامة، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟!

قال: وقد **قال أسعد لمصعب:** جاءك والله سيد مَنْ ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان.

قال: فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع فإن رضيت أمرًا رغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟

قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة، وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، (**وذكر موسى بن عقبة:** أنه قرأ عليه أول الزخرف)[1].

قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم **قال لهما:** كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟

قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين.

قال: فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائدًا إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن الحضير، فلما رآه قومه مقبلًا، **قالوا:** نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم، **قال:** يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة[1]، **قال:** فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام، حتى تؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، **قال:** فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.

---

(1) البداية والنهاية، ج3، ص 187.

* شباب رباهم مصعب:

نسوق هذه القصة الطريفة؛ لدلالتها على الروح التي سرت في شباب يثرب بعد أن لامس الإيمان شغاف قلوبهم، واستمعوا لآيات القرآن تتلى من فم مصعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتعلموا منه أحكام الإسلام وتشريعاته:

كان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة وأشرافهم، وكان قد اتخذ صنمًا من خشب في داره، **يقال له:** مناة، كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذه إلهًا يعظمه ويظهره.

فلما أسلم فتيان بني سلمة: ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه، فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر[2] الناس منكسًا على رأسه، فإذا أصبح عمرو **قال:** ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطيبه وطهره، **ثم قال:** أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزيته.

فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه، ففعلوا مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطيبه ويطهره، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يومًا، فغسله وطهره وطيبه.

ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم **قال له** (أي: الصنم): إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع (أي: فاحم نفسك) .. هذا السيف معك**!**

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذر الناس، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى إذا وجده في تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه (أي: راجع نفسه)، وكلمه من أسلم من قومه، فأسلم برحمة الله، وحسن إسلامه.

فقال حين أسلم، وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من أمره، ويشكر الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة، **ويقول:**

والله لو كنت إلهًا لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر في قرن

---

(1) مشورة وعقلًا ونفاذ رأي.

(2) جمع عذرة، وهي الغائط.

أفٍّ لملقـــــاك إلهًا مـــــستدن | الآن فتَّـــشناك عـــن ســـوء الغـــبن
الحمــــدُ لله العـــليّ ذي المــــنن | الواهـــب الـــرزاق ديَّـــان الـــدِّين
هـــو الـــذي أنقـــذني مـــن قبـــل أن | أكـــونَ في ظلمـــة قـــبرٍ مـــرتهَن[1]

المبحث الثالث: أسعد بن زرارة أول من صلى الجمعة بيثرب

كان أبو أمامة أسعد بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الأول في قومه في أمور عدة:

* هو أول من أسلم من الأنصار.

* وهو أول من أسلم من الخزرج.

* وهو أول من استقبل مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيته.

* وهو أول من صلى بالناس الجمعة قبل مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، **قال:** «كنت قائد أبي كعب بن مالك حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلَّى[2] على أبي أمامة أسعد بن زرارة، **قال:** فمكث حينًا على ذلك لا يسمع الأذان للجمعة إلَّا صلَّى عليه واستغفر له، قال: **فقلت في نفسي:** والله إن هذا بي لَعجزٌ أن لا أسأله: ما له إذا سمع الأذان للجمعة صلَّى على أبي أمامة أسعد بن زرارة؟

قال: فخرجت به في يوم جمعة كما كنت أخرج، فلما سمع الأذان للجمعة صلَّى عليه، واستغفر له، **فقلت له:** يا أبت ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صلَّيت على أبي أمامة؟ **فقال:** أي بني، كان أول من جمع بنا بالمدينة في هَزْم النبيت من حَرَّة بني بياضة، **يقال له:** نقيع الخضمات، **قلت:** وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلًا»[3].

***

(1) البداية والنهاية 3/202.
(2) أي: دعا له.
(3) ورواه ابن خزيمة في صحيحه (1724).

المبحث الرابع: أبو قيس بن الأسلت الشاعر

لم تبق دار من دور الأنصار إلَّا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنهم كان منهم أبو قيس بن الأسلت، وكان شاعرًا، قائدًا لهم، يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام، حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

قال ابن إسحاق: (كان أبو قيس بن الأسلت يحب قريشًا، وكان لهم صهرًا، وكانت تحته أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي، وكان يقيم عندهم السنين بامرأته، فلما انتشر أمر رسول الله ﷺ في العرب، ووقع ذكره بالمدينة، وتحدثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف، قال أبو القيس بن الأسلت أخو بنو واقف قصيدة يعظم فيها الحرمة، وينهى قريشًا فيها عن الحرب (مع محمد ﷺ)، ويذكر فضلهم وأحلامهم، ويذكرهم بلاء الله عندهم، ودفعه عنهم الفيل وكيده، ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ.

وقال ابن إسحاق: كان أبو قيس شيخًا كبيرًا، وكان قوالًا بالحق، معظمًا لله في جاهليته، يقول في ذلك أشعارًا حسانًا، **وهو الذي يقول:**

يقول أبو قيس وأصبح عاديًا ... ألا ما استطعتم من وصاتي فافعلوا
فأوصيكم بالله والبر والتقى ... وأعراضكم والبرِّ بالله أول
وإن قومُكم سادوا فلا تحسدنهم ... وإن كنتم أهل الرئاسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهي بقومكم ... فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا

وقال أبو قيس أيضًا:

سبحوا الله شرقَ كل صباح ... طلعت شمسُه وكلِّ هلال
عالم السر والبيان جميعًا ... ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستزيد وتأوي ... في وكور من آمنات الجبال
وله الوحشُ بالفلاةِ تراها ... في حقافٍ[1] وفي ظلال الرمال[2]

---

(1) **الحقف:** أصل الرمل، وأصل الجبل.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 3/191.

ثم إن أبا قيس بن الأسلت مع علمه وفهمه لم ينتفع بذلك حين قدم مصعب بن عمير المدينة، فأسلم من أهلها بشر كثير، ولم يبق دار من دور المدينة إلَّا وفيها مسلم ومسلمات غير دار بني واقف قبيلة أبي قيس، ثبطهم عن الإسلام .. أما هو فقد ثبطه عن الإسلام عبد الله بن أبيّ بن سلول، فظل حائرًا فيما وقع من الأمر الذي قد سمعه من بعثة رسول الله ﷺ، فتوقف في أمره، مع علمه ومعرفته، حتى هداه الله إلى الإسلام عام الخندق، سنة خمس من الهجرة، فأسلم وأسلم قومه، وحسن إسلامهم.

* * *

الفصل السابع
بيعة العقبة الثانية

قبل حلول موسم الحج من السنة الثالثة عشرة للبعثة، عاد مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكة، يحمل بشريات التوفيق، ويخبر رسول الله ﷺ بما كان من أهل يثرب من قبول لدعوة الله، وأن جموعًا منهم دخلت في دين الله .. تعلموا الإسلام، وتفقهوا في الدين، وقرأوا القرآن، وأن دور المدينة كلها لم يعد بين أهلها حديث إلَّا عن الإسلام ..

أما الأنصار في المدينة فقد اجتمع جماعةٌ منهم، واستنكروا على أنفسهم أن يتركوا رسول الله ﷺ يناله ما يناله من الإيذاء والتضييق في مكة، وقالوا: (حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟!)، فقرروا أن يأتوا النبي ﷺ في الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة، ويدرسوا معه أمر هجرته إليهم، فحضر منهم بضع وسبعون رجلًا وامرأتان، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين (وكان قوامهم حوالي ثلاثمائة)، وكان زعيمهم جميعًا البراء بن معرور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الأول: التهيئة للقاء البيعة

أولا: التعارف بين البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورسول الله ﷺ:

روى ابن إسحاق، عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه **قال:** خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا[1]، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا، فلما وجهنا لسفرنا، وخرجنا من المدينة، **قال البراء:** يا هؤلاء، إني قد رأيت رأيًا، والله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا؟

قلنا: وما ذاك؟

قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية مني بظهر - يعني: الكعبة - وأن أصلي إليها.

قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلي إلَّا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه.

فقال: إني لمصلٍّ إليها، قال: **فقلنا له:** لكنا لا نفعل.

(1) **أي:** تعلمنا الفقه والصلاة من مصعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام، وصلى هو إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة.

قال: وقد كنا قد عبنا عليه ما صنع، وأبى إلَّا الإقامة على ذلك.

فلما قدمنا مكة، **قال لي:** يا ابن أخي، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ؛ حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه قد وقع في نفسي منه شيء؛ لما رأيت من خلافكم إياي فيه.

قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ - وكنا لا نعرفه، ولم نره قبل ذلك - فلقينا رجلًا من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله ﷺ **قال:** هل تعرفانه؟

فقلنا: لا.

فقال: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟

قال: قلنا: نعم! وقد كنا نعرف العباس؛ كان لا يزال يقدم علينا تاجرًا، **قال:** فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس.

قال: فدخلنا المسجد، وإذا العباس جالس، ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، **فقال رسول الله ﷺ للعباس:** «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟».

قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، **قال** (أي: كعب بن مالك): فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: «الشاعر؟» (أي أن رسول الله ﷺ كان يعرف أنه شاعر يثرب فسره ذلك).

قال: نعم.

فقال له البراء بن معرور: يا نبي الله، إني خرجت في سفري هذا، قد هداني الله تعالى للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية (يقصد الكعبة) مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى؟

قال: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها».

قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، فصلى معنا إلى الشام، **قال:** وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما **قالوا:** نحن أعلم به منهم.

ثانيًا: إسلام عبد الله بن عمرو بن حرام:

قال كعب بن مالك: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ فيها ومعنا عبد الله بن

عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من سادتنا، أخذناه وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، **فكلمناه وقلنا له:** يا أبا جابر إنك سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا.

ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيبًا[1].

ثالثًا: تحديد موعد اللقاء ومكانه:

تحدد موعد اللقاء بين رسول الله ﷺ والأنصار رضي الله عنهم في ثاني أيام التشريق بعد ثلث الليل عند الشعب بمنى، بعيدًا عن أعين وحاجة الحجيج، وضُربَت السرية على هذا الموعد، فلم يعرفه من مسلمي مكة سوى من سيصحب رسول الله ﷺ، **وهما:** أبو بكر، وعليّ رضي الله عنهما، أما ما عداهم فلم يكن يعلم عن الأمر شيئًا، وعلمه أيضًا العباس عم رسول الله ﷺ، وكان يومئذ على دين قومه، إلَّا أنه علم باللقاء (وحضره)؛ لأنه:

1- مُجَرب مؤتمن.

2- كان حريصًا على أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له من كل ما يعده به الأنصار، ويعطونه من أنفسهم.

3- كان تاجرًا يقدم يثرب، ويعرف أهلها ويعرفونه.

واختيار الليلة الأخيرة من ليالي الحج، وهي ليلة الثالث عشر من ذي الحجة؛ حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي، إنما كان لتضييق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع، وهذا ما حدث [2].

المبحث الثاني: لقاء البيعة

لما فرغ الأنصار رضي الله عنهم من الحج، وكانت الليلة التي واعدوا فيها رسول الله ﷺ، خرجوا من رحالهم لميعاد رسول ﷺ.

---

(1) البداية والنهاية (3/193).

(2) الصلابي: السيرة النبوية، ص 247.

روى ابن إسحاق: عن معبد، عن عبد الله، عن أبيه كعب بن مالك، **قال:** فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا[1] مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا، ومعنا امرأتان.

تأمين اللقاء:

قال المقريزي: وجاءهم رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس وهو على دين قومه، وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما، فأوقف العباس عليًّا على فم الشعب عينًا له، وأوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عينًا له.

أجواء اللقاء:

من المهم لنا أن نعيش أجواء اللقاء وسريته، وكيف تم وسط هذا الجمع الحاشد من مشركي العرب، وقد ترامت خيامهم بمنى، وأحاطوا بوفد الأنصار إحاطة السوار بالمعصم، وأن نتخيل كيف تم اتصالهم رضي الله عنهم برسول الله ﷺ؛ لتحديد موعد اللقاء ومكانه، وكيف تم اللقاء نفسه دون انتباه أحد، وخروجهم لموعدهم مستخفين متسللين في خفة الطيور، وهم ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان، ضمن وفد من المشركين من قومهم، قوامه حوالي ثلاثمائة (وهذا يعني صعوبة الحركة والتنقل والاتصال، فما من مسلم إلَّا وحواليه عدد من المشركين يراقب تنقلاته وتحركاته)[2]، وقد أُمروا رضي الله عنهم أن لا يرفعوا صوتًا، وأن لا يُطيلوا في مقالٍ؛ حذرًا من وجود عين ترصد أو أذن تسمع.

روى البيهقي أنه ﷺ **قال لهم:** «ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة؛ فإن عليكم من المشركين عينًا، وإن يعلموا بكم يفضحوكم»[3].

اللقاء:

قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا، مستخفين، حتى اجتمعنا في

---

(1) **القطا:** نوع من اليمام، يؤثر الحياة في الصحراء، ويطير جماعات.
(2) منير الغضبان: المنهج الحركي، ص 163.
(3) البداية والنهاية 3/199.

الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي.

قال: فاجتمعنا في الشعب؛ ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلَّا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، **فقال:** يا معشر الخزرج - وكانت العرب تسمي هذا الحي من الأنصار: الخزرج؛ خزرجها وأوسها - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه، ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلَّا الانحياز إليكم، واللحوق بكم؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه؛ فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده. **فقلنا له:** قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت(1).

فتكلم رسول الله ﷺ، فكانت البيعة، وكان الحديث الفارق في تاريخ الإسلام، وقد ثبت في صحيح البخاري ومسلم، أن كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن غزوة تبوك، **قال:** ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر (أي: هي أحب إليَّ من بدر)، وإن كانت بدر أكثر في الناس مكانة منها.

المبحث الثالث: البيعة

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: «... قلنا يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال:

1- على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

2- وعلى النفقة في العسر واليسر.

3- وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

4- وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم.

---

(1) تهذيب السيرة، ص 103-105.

5- وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

وفي رواية كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوافية عند ابن إسحاق: قال كعب: فقلنا له (أي العباس): قد سمعنا ما قلت: فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، **قال:** «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

قائد الأنصار لا يتردد:

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، **وقال:** نعم! فوالذي بعثك بالحق نبيًّا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله؛ فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر.

صراحةٌ ووضوح:

قال: فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان، **فقال:** يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، **ثم قال:** «بل الدم الدم، والهدم والهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»(1).

التنبيه لخطورة المسئولية:

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا للبيعة، **قال العباس بن عبادة بن نضلة:** هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ **قالوا:** نعم، **قال:** إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلًا أسلمتوه، فمن الآن؛ فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوه؛ فهو والله خير الدنيا والآخرة. **قالوا:** فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ **قال:** «الجنة». **قالوا:** ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص 85.

وفي رواية جابر، قال: فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو أصغر السبعين، **فقال:** رويدًا يا أهل يثرب إنا لم نضرب أكباد الإبل إلَّا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب جميعًا، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة، فهو أعذر لكم عند الله، **فقالوا:** يا أسعد أمط عنا يدك؛ فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها.

النساء يبايعن:

كانت البيعة بالنسبة للرجال ببسط رسول الله ﷺ يده، **وقالوا له:** ابسط يدك، فبسط يده، فبايعوه، وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة، فكانت قولًا، فما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط.

المبحث الرابع: قائمة الشرف

قال ابن كثير: وجملتهم (أي من شهد البيعة الثانية)، على ما قال ابن إسحاق ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان:

فمن الأوس أحد عشر رجلًا: أسيد بن حضير أحد النقباء، لم يشهد بدرًا، وأبو الهيثم بن التيهان (بدري)، وسلمة بن سلامة بن وقش (بدري)، وظهير بن رافع، وأبو بردة بن دينار (بدري)، ونهير بن الهيثم بن نابي بن مجدعة بن حارثة، وسعد بن خيثمة، أحد النقباء (بدري)، وقتل بها شهيدًا، ورفاعة بن عبد المنذر بن زنبر، نقيب (بدري)، وعبد الله بن جبير ابن النعمان بن أمية بن البرك (بدري)، وقتل يوم أحد شهيدًا أميرًا على الرماة، ومعن بن عدي بن الجد بن عجلان بن الحارث بن ضبيعة البلوي، حليف للأوس، شهد بدرًا وما بعدها، وقتل باليمامة شهيدًا، وعويم بن ساعدة، شهد بدرًا وما بعدها.

ومن الخزرج اثنان وستون رجلًا: أبو أيوب خالد بن زيد، شهد بدرًا وما بعدها، ومات بأرض الروم زمن معاوية شهيدًا، ومعاذ بن الحارث وأخواه عوف ومعوذ - وهم بنو عفراء - (بدريون)، وعمارة بن حزم، شهد بدرًا وما بعدها وقتل باليمامة، وأسعد بن زرارة أبو أمامة، أحد النقباء، مات قبل بدر، وسهل بن عتيك (بدري)، وأوس بن ثابت ابن المنذر (بدري)، وأبو طلحة زيد بن سهل (بدري)، وقيس بن أبي صعصعة عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول بن

عمرو بن غنم بن مازن، كان أميرًا على الساقة يوم بدر، وعمرو بن غزية، وسعد بن الربيع، أحد النقباء، شهد بدرًا وقتل يوم أحد، وخارجة بن زيد، شهد بدرًا وقتل يوم أحد، وعبد الله بن رواحة، أحد النقباء، شهد بدرًا وأحد والخندق، وقتل يوم مؤتة أميرًا، وبشير بن سعد (بدري)، وعبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، الذي أُري النداء للصلاة وهو (بدري)، وخلاد بن سويد، (بدري أُحدي خندقي)، وقُتل يوم بني قريظة شهيدًا، طرحت عليه رحى فشدخته، **فيقال:** إن رسول الله ﷺ قال: إن له لأجر شهيدين، وأبو مسعود عقبة بن عمرو البدري، **قال ابن إسحاق:** وهو أحدث من شهد العقبة سنًّا ولم يشهد بدرًا، وزياد بن لبيد (بدري)، وفروة بن عمرو بن وذفة، وخالد بن قيس بن مالك (بدري)، ورافع بن مالك، أحد النقباء، وذكوان بن عبد قيس بن خلدة بن مخلد بن عامر بن رزيق، وهو الذي **يقال له:** مهاجري أنصاري؛ لأنه أقام عند رسول الله ﷺ بمكة حتى هاجر منها، وهو (بدري) قتل يوم أحد، وعباد ابن قيس بن عامر بن خالد بن عامر بن رزيق (بدري)، وأخوه الحارث بن قيس بن عامر، بدري أيضًا، والبراء بن معرور، أحد النقباء، وأول من بايع، وتزعم بنو سلمة، وقد مات قبل مقدم النبي ﷺ المدينة، وأوصى له بثلث ماله، فردَّه رسول الله ﷺ على ورثته، وابنه بشر بن البراء، وقد شهد بدرًا وأحدًا والخندق، ومات بخيبر شهيدًا؛ من أكله مع رسول الله ﷺ من تلك الشاة المسمومة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسنان بن صيفي بن صخر (بدري)، والطفيل بن النعمان بن خنساء (بدري)، قتل يوم الخندق، ومعقل بن المنذر بن سرح (بدري)، وأخوه يزيد بن المنذر (بدري)، ومسعود بن زيد بن سبيع، والضحاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة (بدري)، ويزيد بن خذام بن سبيع، وجبار بن صخر بن أمية بن خنساء بن سنان بن عبيد (بدري)، والطفيل بن مالك بن خنساء (بدري)، وكعب بن مالك، وسليم بن عامر بن حديدة، (بدري)، وقطبة بن عامر بن حديدة (بدري)، وأخوه أبو المنذر يزيد، (بدري) أيضًا، وأبو اليسر كعب بن عمرو (بدري)، وصيفي بن سواد بن عباد، وثعلبة بن غنمة بن عدي بن نابي، (بدري) واستشهد بالخندق، وأخوه عمرو بن غنمة بن عدي، وعبس بن عامر بن عدي (بدري)، وخالد بن عمرو بن عدي بن نابي، وعبد الله بن أنيس، حليف لهم من قضاعة، وعبد الله بن عمرو بن حرام، أحد النقباء (بدري)، واستشهد يوم أحد، وابنه جابر بن عبد الله، ومعاذ بن عمرو بن الجموح (بدري)، وثابت بن الجذع (بدري)، وقتل شهيدًا بالطائف، وعمير بن الحارث بن ثعلبة (بدري)، وخديج بن سلامة، حليف لهم من بلي، ومعاذ بن جبل، شهد بدرًا وما بعدها، ومات بطاعون عمواس في خلافة عمر بن الخطاب، وعبادة بن الصامت، أحد النقباء، شهد بدرًا وما بعدها، والعباس بن عبادة بن

نضلة، وقد أقام بمكة حتى هاجر منها، فكان **يقال له:** مهاجري أنصاري أيضًا، وقتل يوم أحد شهيدًا، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزمة بن أصرم، حليف لهم من بني غصينة من بلي، وعمرو بن الحارث بن كندة، ورفاعة بن عمرو بن زيد (بدري)، وعقبة بن وهب بن كلدة، حليف لهم (بدري)، وكان ممن خرج إلى مكة، فأقام بها حتى هاجر منها؛ فهو ممن يقال له: مهاجري أنصاري أيضًا، وسعد بن عبادة بن دليم، أحد النقباء، والمنذر بن عمرو، نقيب (بدري أُحدي)، وقتل يوم بئر معونة أميرًا، وهو الذي **يقال له:** أعتق ليموت.

وأما المرأتان: فأم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار المازنية النجارية، **قال ابن إسحاق:** وقد كانت شهدت الحرب في أُحد مع رسول الله ﷺ، وشهدت معها أختها وزوجها زيد بن عاصم بن كعب، وابناها خبيب وعبد الله، وابنها خبيب هذا هو الذي قتله مسيلمة الكذاب، فكانت أم عمارة ممن خرج إلى اليمامة مع المسلمين حين قتل مسيلمة، ورجعت وبها اثني عشر جرحًا؛ ما بين طعنة وضربة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والأخرى: أم منيع أسماء ابنة عمرو بن عدي بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [1].

المبحث الخامس: النقباء الاثنا عشر

روى الإمام أحمد والبيهقي، بإسناد جيد، عن فعل الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: فقاموا إليه رجلًا رجلًا، يأخذ منهم، ويعطيهم بذلك الجنة، ثم كثر اللغط. **فقال العباس:** على رسلكم، فإن علينا عيونًا. **ثم قال رسول الله** ﷺ: «أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا (أي مسئولًا عن قومه) كُفلاء على قومهم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي»[2].

فأخرجوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منهم اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، هم:

1- أسعد بن زرارة: نقيبًا لبني النجار.

2- البراء بن معرور: نقيبًا لبني سلمة.

3- عبد الله بن عمرو بن حرام: نقيبًا أيضًا لبني سلمة (لكثرتهم).

---

(1) البداية والنهاية 3/203-206.

(2) محمد بن عبد الوهاب: مختصر السيرة، ص 121.

4- سعد بن عبادة: نقيبًا لبني ساعدة.

5- المنذر بن عمرو: نقيبًا أيضًا لبني ساعدة.

6- رافع بن مالك بن عجلان: نقيبًا لبني زريق.

7- عبد الله بن رواحة: نقيبًا لبني الحارث بن الخزرج.

8- سعد بن الربيع: نقيبًا أيضًا لبني الحارث بن الخزرج.

9- عبادة بن الصامت: نقيبًا للقواقل.

10- أسيد بن حضير: نقيبًا للأوس.

11- أبو الهيثم بن التيهان: نقيبًا أيضًا للأوس (**وقيل:** بل رفاعة بن عبد المنذر).

12- سعد بن خيثمة: نقيبًا لبني عوف.

وقد صاغ شاعر الأنصار كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسماء النقباء الاثني عشر، **فقال:**

أبلغ أُبيًّا أنه قال رأيَه ... وحان غداة الشعب[1] والحين واقع

أبى الله ما منتك نفسك إنه ... بمرصاد أمر الناس راءٍ وسامع

وأبلِغ أبا سفيان أن قد بدا لنا ... بأحمد نورٌ من هدى الله ساطع

فلا ترغبن في حشد أمرٍ تريده ... وألِّبْ وجمِّع كل ما أنت جامع

ودونك فاعلم أن نقض عهودنا ... أباه عليك الرهطُ حين تبايعوا

أباه البراءُ وابن عمرٍ كلاهما ... وأسعد يأباه عليك ورافع

وسعد أباه الساعدي ومنذر ... لأنفك إن حاولت ذلك جادع

وما ابن ربيع إن تناولت عهده ... بمسلّمه لا يطمعن ثَمَّ طامع

وأيضًا فلا يعطيكه ابن رواحة ... وإخفارُه من دونه السمُّ ناقع

وفاء به، والقوقلي بن صامت ... بمندوحة عما تحاول يافع

(1) **أي:** الشعب الذي تمت فيه البيعة.

أبـــو هيـــثم أيـــضًا وفيٌّ بمثلهـــا وفـاء بـما أعطـى مـن العهـد خـانع

ومـا ابـن حـضير إن أردت بمطْمِـعٍ فهـل أنـت عـن أُحموقـةِ الغـي نـازع

وسـعد أخـو عمـرو بـن عـوف فإنـه ضروح لمـا حاولـت مـن الأمـر مـانع

قال ابن هشام: فذكر فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولم يذكر رفاعة.

قال ابن كثير: وذكر سعد بن معاذ وليس من النقباء بالكلية في هذه الليلة [1].

المبحث السادس: قريش تكتشف المعاهدة

حسب مشركو مكة أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه، وأنهم قد أرهقوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم، فناموا نومة المجرم الذي اغترف الإثم وأمن القصاص، ولم يخطر لهم ببال أنه في ليلة الثالث عشر من ذي الحجة من السنة الثالثة عشرة للنبوة قد تحالف جند الحق أن يقصموا ظهر الوثنية، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء[2].

أين كان طواغيت الأرض من هذه البيعة الفريدة في تاريخ الأرض؟ أين كان مشركو المدينة والبيعة تتم على رءوسهم؟ وأين كانت قريش والبيعة تريد أن تحطم طاغوتها وكبرياءها، وهي تحاد الله وتكذب رسوله ﷺ؟ وأين كان الحجيج المشرك كله؟[3] أين كان هؤلاء جميعًا وقد تمت البيعة وتعين النقباء؟ .. كانوا في غفلتهم ساهين، وفي سباتهم يغطون، وعين الله تكلأ هذه العصبة المؤمنة!

الشيطان يكتشف اللقاء:

كان القوم على وشك مغادرة مكان اللقاء، فإذا بالشيطان يكتشف هذا اللقاء، فصرخ بأنفذ صوت سُمع؛ ليتمكن زعماء المشركين من إدراك المسلمين قبل أن ينفضوا.

روى ابن إسحاق عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: «... فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ

---

(1) البداية والنهاية، ج3، ص 197.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 161، بتصرف.

(3) الغضبان، المنهج الحركي، ص 176.

الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب (منازل منى)، هل لكم من مذمم (أي المذموم، يقصد الإساءة إلى النبي ﷺ) والصباة (جمع صابئ، أطلق على من أسلم معه قد اجتمعوا على حربكم؟

قال: فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب العقبة (اسم شيطان يسكن العقبة)، هذا ابن أزيب، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك»، **ثم قال رسول** ﷺ: «ارفضوا إلى رحالكم»[1].

الصدق في البيعة:

قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقال العباس بن نضلة: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا؟

فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [2].

وضع المبايعون أيديهم على مقابض السيوف؛ ليستلوها من أغمادها أمام هذا النداء (من الشيطان)، فكان الاستعداد للتو لتنفيذ بنود البيعة، بل أكثر من البنود؛ لأن يحموه ﷺ وهو في مكة. **ويأتي الجواب النبوي العظيم:** لم نؤمر بذلك .. فكم الفرق بين معركة آنية يسقط بها هؤلاء السبعون شهداء استجابة لواقعة طارئة، وبين المسئولية عن كل قطرة دم تسقط دون تخطيط وتسفح دون هدف!! فالمعركة لم تحن بعد[3].

فزع قريش:

لما قرع هذا الخبر آذان قريش، وقعت فيهم ضجة، وساورتهم القلاقل والأحزان؛ لأنهم كانوا على معرفة تامة بعواقب مثل هذه البيعة ونتائجها، فما أن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى أهل يثرب؛ ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة [4].

قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا فيها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش، حتى جاءونا في منازلنا، **فقالوا:** يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد

---

(1) ابن هشام (2/101-102).

(2) المصدر السابق.

(3) الغضبان: المنهج الحركي، ص 177، بتصرف.

(4) المباركفوي: الرحيق المختوم، ص 170.

جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا، من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

قال: فانبعث مَنْ هناك من مشركي قومنا، يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمناه، **قال:** وصدقوا (فهم) لم يعلموا (بالبيعة)، **قال:** وبعضنا ينظر إلى بعض.

قال: ثم قام القوم (من قريش) وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان له جديدان، **قال:** يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من سادتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟

قال: فسمعها الحارث، فخلعهما من رجليه، ثم رمى بهما إليَّ (أي: هدية).

قال: والله لتنتعلنهما، **قال: يقول أبو جابر:** مه أحفظت والله الفتى (أي: لأحرجته) فاردد إليه نعليه.

قال: قلت: والله لا أردهما، فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأسلبنه[1] (أي سيأتي اليوم الذي أقاتله فأسلبه سلاحه).

قال ابن إسحاق: ثم إنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول، فقالوا مثل ما ذكر كعب، **فقال لهم:** إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفرقوا عليَّ هذا، وما علمته كان، **قال:** فانصرفوا عنه.

تأكد قريش:

قال ابن إسحاق: «ونفر الناس من منى (أي انصرف الحجيج ومنهم وفد الأنصار)، فتنطس (دقق) القوم الخبر، فوجدوه قد كان، فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بإذاخر، والمنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم (لم يستطيعوا الإمساك به)، وأما سعد بن عبادة، فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته (مجتمع شعر ناحيته) - وكان ذا شعر كثير.

قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليَّ نفر من قريش، فيهم رجل وضيء أبيض، شعشاع، حلو من الرجال، **فقلت في نفسي:** إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا.

---

(1) البداية والنهاية 201/3.

فلما دنا مني رفع يده، فلكمني لكمة شديدة، **فقلت في نفسي:** لا والله ما عندهم بعد هذا من خير، فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني؛ إذ أوى لي رجل ممن معهم (وهو أبو البختري بن هشام) ..

قال: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟

قال: قلت: بلى والله لقد كنت أُجير لجبير بن مطعم تُجَّارَه، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس.

فقال: ويحك فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما.

قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، **فقال لهما:** إن رجلًا من الخزرج الآن ليُضرب بالأبطح، ليهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوار.

قالا: ومن هو؟

قال: سعد بن عبادة.

قالا: صدق والله، إن كان ليُجير لنا تُجَّارَنا، ويمنعهم أن يظلموا ببلده.

قال: فجاءا فخلصا سعدًا من أيديهم، فانطلق.

وكان الذي لكم سعدًا :سهيل بن عمرو.

قال ابن هشام: وكان الذي أوى له: أبو البختري بن هشام.

المبحث السابع: الفرق بين البيعتين

هذه البيعة الثانية تتفق - في جوهرها - مع بيعة العقبة الأولى؛ فكل منهما إعلان عن الدخول في الإسلام أمام رسول الله ﷺ، وأخذ للمواثيق والعهود على السمع والطاعة والإخلاص لدين الله، والانصياع لأوامر رسوله ﷺ.

إلَّا أننا نلحظ فارقين مهمين جديرين بالملاحظة والدرس، بين كل من بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية:

* **الفارق الأول:** أن عدد المبايعين من أهل المدينة في المرة الأولى كان اثني عشر، أما عددهم في البيعة الثانية فقد كان بضعة وسبعين، بينهم امرأتان.

فقد عاد أولئك الاثنا عشر في السنة الأولى - ومعهم مصعب بن عمير - لا لينطوي كلٌّ على نفسه وينعزل في بيته؛ بل ليبشر بالإسلام كل من كان حوله من رجال ونساء، يتلو عليهم قرآنه، ويبين لهم أحكامه ونظامه، فمن أجل ذلك انتشر الإسلام تلك السنة في المدينة انتشارًا عظيمًا، حتى لم يبق دار إلَّا دخلها الإسلام، وأصبح حديث أهلها في عامة الأوقات عن الإسلام وخصائصه وأحكامه، وتلك هي وظيفة المسلم في كل عهد وفي كل مكان.

❋ **الفارق الثاني:** أن البنود المنصوص عليها في البيعة الأولى خالية عن الإشارة إلى الجهاد بالقوة، ولكنها في البيعة الثانية تضمنت الإشارة؛ بل التصريح بضرورة الجهاد والدفاع عن رسول الله ﷺ، والدعوة إلى دينه بكل وسيلة.

وسبب هذا الفارق أن أرباب البيعة الأولى انصرفوا وهم على موعد مع رسول الله ﷺ في المكان ذاته في الموسم التالي؛ ليعودوا إليه بعدد أوفر من المسلمين، ويجددوا العهد والمبايعة، فلم يكن ثمة ما يستوجب مبايعته على القتال، مادام أن الإذن به لم يأت بعد، ومادام أن هؤلاء المبايعين سيلتقون بعد عام مرة أخرى برسول الله ﷺ.

لقد كانت **البيعة الأولى** إذن بيعة مؤقتة، بالنسبة لاقتصارها على تلك البنود فقط، وهي البنود التي بايع عليها النساء فيما بعد.

أما **البيعة الثانية**، فقد كانت الأساس الذي هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بناء عليه؛ ولذا فقد كانت شاملة للمبادئ التي ستتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة بالقوة، وهو حكم وإن لم يكن قد أذن الله بشرعيته في مكة، ولكن الله عز وجل قد ألهم رسوله ﷺ أن ذلك سيشرع في المستقبل القريب [1].

❋ ❋ ❋

(1) البوطي: فقه السيرة، ص 183-184.



الباب السابع

السابقون بالهجرة إلى المدينة

الباب السابع

السابقون بالهجرة إلى المدينة

كانت بيعة العقبة الثانية بمثابة وثيقة إعلان دولة الإسلام الأولى في المدينة، في أكبر كسب حصلت عليه الدعوة منذ بدايتها .. وصار لمسلمي مكة إخوان مؤمنون بيثرب، بينهم ولاء ونصرة، وعهد على إقامة مجتمع جديد، في بلدٍ قادر على حمل تكاليف الحق ورفعة شأنه، وحماية الدين وإعزازه، فنفروا خفافًا وثقالًا، وأرسالًا وفرادى، مستعلنين ومستخفين، بل وهاجر إليها من هاجر إلى الحبشة من قبل.

الإذن بالهجرة:

قال ابن إسحاق: «... أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، **وقال:** «إن الله - ﷻ- قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون فيها .. فخرجوا أرسالًا، وأقام رسول الله ﷺ بمكة، ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة»[1]. وكان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أنه هاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فظن أنها اليمامة (بلد بنجد) أو هجر (بلد بالبحرين)، ثم تبين له أنها المدينة. فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال: قال رسول الله** ﷺ: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي (ظني) إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب»[2]. وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها **قالت:** «قال النبي ﷺ للمسلمين بمكة: إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان - [3]، فهاجر من هاجر قِبَل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة»[4].

وقد صادف هذا الإذن بالهجرة إلى المدينة رضًا في نفوس الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فخرجوا إليها فرادى وجماعات؛ منهم من خرج مستعلنًا كالفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن صحبه، وأبي سلمة بن

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام، ص 111.

(2) رواه البخاري (3622)، ومسلم (2272).

(3) **اللابة، والحرة:** أرض ذات حجارة سود نخرة، والمدينة بين حرتين.

(4) رواه البخاري (2297)؛ وابن حبان (6277)؛ والبيهقي (17810).

عبد الأسد المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومنهم من خرج مستخفيًا، وهم الضعفاء والموالي كصهيب الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [1].

وكانت فتنة المسلمين من أصحاب النبي ﷺ في ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم، لا تقل عن فتنة الإيذاء والتعذيب في مكة. ولقد كانوا أوفياء لدينهم، مخلصين لربهم، أمام الفتنة الأولى والثانية .. قابلوا المحن والشدائد بصبر وثبات وعزم عنيد، حتى إذا أشار لهم الرسول بالهجرة إلى المدينة، توجهوا إليها، وقد تركوا من ورائهم الوطن، وما لهم فيه من مال ومتاع. وهذا هو المثل الصحيح للمسلم، الذي أخلص الدين لله، لا يبالي بالوطن ولا بالمال، في سبيل أن يسلم له دينه [2].

وليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة.

إنها إكراه رجل آمن في سربه، ممتد الجذور في مكانه، على إهدار مصالحه، والتضحية بأمواله والنجاة بشخصه فحسب، وإشعاره - وهو يصفي مركزه - بأنه مستباح منهوب، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها. وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه، **لقيل:** مغامر طياش، فكيف وهو ينطلق في طوال البلاد وعرضها، يحمل أهله وولده؟! وكيف هو بذلك رضي الضمير، وضاء الوجه؟!

إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش! وإيمان بمن؟ بالله الذي له ما في السماوات والأرض، وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو الحكيم الخبير.

هذه الصعاب لا يطيقها إلَّا مؤمن، أما الهيَّاب الخوَّار القلق، فما يستطيع شيئًا من ذلك .. إنه من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:66].

أما الرجال الذين التفوا بمحمد ﷺ في مكة، وقبسوا منه أنوار الهدى، وتواصوا بالحق والصبر، فإنهم نفروا خفافًا ساعة قيل لهم: هاجروا إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمنون مستقبله [3].

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 458، بتصرف.

(2) البوطي: فقه السيرة، ص 190، مختصرًا.

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص 165.

أبو سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول المهاجرين[1]:

كان **أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أول من هاجر إلى المدينة، وأبو سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو ابن عمة رسول الله ﷺ برة بنت عبد المطلب، وهو أيضًا أخوه من الرضاع، أرضعتهما ثويبة جارية أبي لهب، وكان قد هاجر وزوجته (أم سلمة) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى الحبشة ثم عادا إلى مكة، فآذاه أهلها، فعزم على الرجوع إلى الحبشة، ثم بلغه أن بالمدينة لهم إخوانًا، فعزم إليها قبل بيعة العقبة الثانية بسنة.

وروى ابن إسحاق، عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **قالت:** لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رَحَّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة (أهل زوجته أم سلمة)، قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه، **قالت:** وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، **وقالوا:** والله لا نترك ابننا (سلمة) عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، **قالت:** ففُرِق بيني وبين ابني وبين زوجي. **قالت:** فكنت أخرج كل غداة، فأجلس في الأبطح[2]، فما أزال أبكي حتى أمسي - سنة أو قريبًا منها - حتى مرَّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمني، **فقال لبني المغيرة:** ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها!!

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: فردَّ بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني، **قالت:** فارتحلت ببعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، **قالت:** وما معي أحد من خلق الله حتى إذا كنت بالتنعيم (على مشارف مكة)، لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار (وهو يومئذ مشرك)، **فقال:** إلى أين يا ابنة أبي أمية؟

---

(1) ذكر البخاري أن أول من هاجر إلى المدينة: مصعب بن عمير، وعبد الله بن أم مكتوم. وذكر ابن إسحاق وابن سعد: أن أول من هاجر هو أبو سلمة، وجزم بذلك موسى بن عقبة.

(2) **الأبطح:** الأرض المنبسطة فسيحة الأرجاء.

قلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أوما معك أحد؟

قلت: ما معي أحد إلَّا الله وبني هذا.

فقال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلًا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجر، ثم تنحى عنه إلى شجرة، فاضطجع تحتها.

فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري، فقدمه، فرَحَّله، ثم استأخر عني، **وقال:** اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى، فأخذ بخطامه (زمامه)، فقادني حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، **قال:** زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بقباء نازلًا - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة، **فكانت تقول:** ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.

قال ابن كثير: وأسلم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري هذا بعد الحديبية، وهاجر هو وخالد بن الوليد معًا، وقتل يوم أحد أبوه وإخوته: الحارث وكلاب ومسافع، وعمه عثمان بن أبي طلحة، ودفع إليه رسول الله ﷺ يوم الفتح وإلى ابن عمه شيبة والد بني شيبة مفاتيح الكعبة، أقرها عليهم في الإسلام كما كانت في الجاهلية[1]، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:58].

أول المهاجرات:

كانت ليلى بنت حثمة بن حذيفة العدوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي أول من قدم المدينة من النساء، قدمت مع زوجها عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. **قال ابن عبد البر:** «إنها أول ظعينة[2] قدمت المدينة». وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا واحدة من النسوة الأربع اللاتي هاجرن إلى أرض الحبشة الهجرة الأولى، ومعها زوجها عامر حليف آل الخطاب، وقبيل الانطلاق إلى الحبشة، كان لها الموقف

---

(1) البداية والنهاية 3-208.

(2) **الظعينة:** المرأة تركب البعير.

المشهور مع عمر بن الخطاب، **حين سألها:** «إنه الانطلاق يا أم عبد الله؟» **فأجابته:** «نعم، والله لنخرجن في أرض الله .. آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجًا، **فقال عمر:** (صحبكم الله)، فأخبرت زوجها عامر بما رأت من رقة عمر، **فقال:** (ترجين أن يسلم؟ والله لا يُسلم حتى يسلم حمار الخطاب).

وهي أيضًا صاحبة الموقف المشهور مع رسول الله ﷺ بعد هجرته ﷺ؛ حيث كان يأتي زوجها عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في داره، وذات يوم وهو ﷺ في دارهم، **قالت ليلى بنت أبي حثمة لابنها عبد الله:** هاك تعالَ، أعطيك شيئًا. **فقال لها رسول الله** ﷺ: «ماذا أردت أن تعطيه؟»، **فقالت:** (تمرًا)، **فقال:** «أما أنك لو لم تعطه شيئًا كتبت عليك كذبة»[1].

دار بني جحش تغلق أبوابها وتهاجر:

ثم هاجر عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ابن عمة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد المطلب،

ومعه أخوه أبو أحمد عبد بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشاعر الضرير، وزوجه الفارعة بنت أبي سفيان بن حرب، ومعهما محمد بن عبد الله بن جحش.

وكذلك هاجر نساؤهم: زينب بنت جحش، وحمنة بنت جحش (زوج مصعب بن عمير)، وأم حبيب بنت جحش (زوجة عبد الرحمن بن عوف) .. فغُلِّقت دار بني جحش بهجرتهم.

قال ابن إسحاق: فغلقت دار بني جحش هجرة، فمرَّ بها عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يبابا ليس بها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء، **وقال:**

وكـــل دار وإن طالـــت ســـلامتها   يومًـا ســتدركها النكبــاء والحــوب[2]

ثم قال عتبة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها.

فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من فل بن فل، **ثم قال:** - يعني للعباس - هذا من عمل ابن أخيك هذا؛ فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا[3].

---

(1) ذكره ابن حجر في الإصابة.

(2) **الحوب:** الوحشة، **وقال ابن هشام:** وهذا البيت لأبي داود الأيادي في قصيدة له.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص 209.

وقد عدا أبو سفيان بن حرب على دار بني جحش متملكها، **وقيل:** باعها من عمرو بن علقمة العامري، فذكر ذلك عبد الله بن جحش - لما بلغه - لرسول الله ﷺ، فقال له: «ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارًا في الجنة خيرًا منها؟» **قال:** بلى، قال: «فذلك، لك»، فلما فتحت مكة كلم أبو أحمد (عبد بن جحش) رسول الله ﷺ في دارهم (كي يردها إليهم)، فأبطأ عليه الرسول، **فقال الناس:** يا أبا أحمد إنه يكره أن ترجعوا في شيء أصيب منكم في الله، فأمسك أبو أحمد عن الكلام في ذلك[1].

وكان أبو أحمد رجلًا ضرير البصر، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعرًا، **فسجل هجرة بني جحش إلى يثرب في هذه الأبيات:**

ولما رأتني أم أحمد غاديًا	بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول: فإما كنت لابد فاعلا	فيمم بنا البلدان ولننأ يثرب
فقلت لها ما يثرب بمظنة	وما يشأ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول ومن يقم	إلى الله يومًا وجهه لا يخيب
فكم قد تركنا من حميم مناصح	وناصحة تبكي بدمع وتندب
ترى أن وترًا نائيًا عن بلادنا	ونحن نرى أن الرغائب نطلب
دعوت بني غنم لحقن دمائهم	وللحق لما لاح للناس ملحب
أجابوا بحمد الله لما دعاهم	إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا
وكنا وأصحابًا لنا فارقوا الهدى	أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
كفوجين إما منهما فموفق	على الحق مهدي وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبة وأزلهم	عن الحق إبليس فخابوا وخيبوا
ورعنا إلى قول النبي محمد	فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
نمتُّ بأرحام إليهم قريبة	ولا قرب بالأرحام إذ لا تقرب

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 463.

فـأي ابـن أخـت بعـدنا يـأمننكم وأيـة صـهر بعـد صـهري يرقـب
سـتعلم يومًـا أيُّنـا إذ تزايلـوا وزيـل أمـر النـاس للحـق أصـوب[1]

دار أخرى مهاجرة:

قال ابن إسحاق: (وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام، قد أوعبوا إلى المدينة هجرة؛ رجالهم ونساؤهم، وهم: عكاشة بن محصن، وشجاع وعقبة ابنا وهب، وأربد بن حميرة، ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن رقيش، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وثقيف بن عمرو، وربيعة بن أكثم، والزبير بن عبيدة، وتمام بن عبيدة، وسخبرة بن عبيدة.

ومن نسائهم: جذامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم).

عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المهاجر المختلف:

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلَّا مختفيًا إلَّا عمر بن الخطاب؛ فإنه لما همَّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وأخرج أسهمًا من كنانته، وجعلها في يديه واختصر عنزته (عصاته جعلها مضمومة إلى خاصرته)، ومضى قِبَل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، **فقال لهم:** شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلَّا هذه المعاطس (أي لا يلصق بالتراب إلَّا هذه الأنوف)، من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه أحد إلَّا قوم من المستضعفين علَّمهم ما أرشدهم إليه، ثم مضى لوجهه، وقد صحبه في هجرته بعض أهله وقومه، كما صحبه بعض المستضعفين؛ ليحتموا به[2].

وقد ذكر ابن إسحاق ثلاثة عشر صحابيًّا كانوا في ركب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهم:

أخوه زيد بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة، وعمرو وعبد الله ابنا سراقة بن المعتمر العدوي، وخنيس بن حذافة السهمي زوج ابنته حفصة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ابن عمه وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب، وواقد بن عبد الله التميمي حليف لهم، وخولي ابن أبي

---

(1) البداية والنهاية 3/209-210.

(2) رواه ابن عساكر.

خولي، ومالك بن أبي خولي حليفان لهم، وبنو البكير الأربعة: إياس، وعاقل، وعامر، وخالد. إلَّا أنه كان في ركب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحو عشرين راكبًا، **وقد قال الحافظ ابن حجر في الفتح:** «فلعل الباقين كانوا من أتباعهم».

عياش بن أبي ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصاحب المفتتن:

كان عياش بن أبي ربيعة المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السابقين الأولين، وممن هاجر إلى الحبشة، وهو ابن عم أبي جهل بن هشام والحارث بن هشام وأخوهما لأمهما (أسماء بنت مخربة)، وكان قد تواعد هو وعمر بن الخطاب وهشام بن العاص بن وائل على مكان يبعد عن مكة عشرة أميال؛ لينطلقوا مهاجرين مع ركب عمر الذي تجهز للهجرة، واتفقوا فيما بينهم على أن من يتخلف عن موعده يكون قد حُبس، فلا ينتظره أحد.

قال ابن إسحاق: فحدثني نافع عن عبد الله بن عمر عن أبيه، **قال:** اتعدنا لما أردت الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص، التناضب من إضاة بني غفار فوق سرف (مكان بمكة)، **وقلنا:** أينا لم يصبح عندها فقد حُبس، فليمض صاحباه (إلى المدينة)، قال: فأصبحت أنا وعياش عند التناضب وحُبس هشام وفُتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام في طلب عياش - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدما المدينة **فكلماه وقالا له:** إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرقَّ لها.

فقلت له: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت.

قال: فقال: أبرّ قسم أمي ولي هنالك مال فآخذه.

قال: قلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالًا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما.

قال: فأبى عليّ إلَّا أن يخرج معهما، فلما أبى إلَّا ذلك **قلت:** أما إذا فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه؛ فإنها نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من أمر القوم ريب فانج عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، **قال له أبو جهل:** يا ابن أخي والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟[1].

---

(1) **أي:** تجعلني خلفك عليها لركوبها.

قال: بلى.

فأناخ وأناخ ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه (غدرًا) فأوثقاه رباطًا، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

قال عمر: فكنا نقول: لا يقبل الله ممن افتتن توبة.

وكان الذين افتُتنوا يقولون ذلك لأنفسهم حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر].

قال عمر: وكتبتها (أي: هذه الآيات) وبعثت بها إلى هشام بن العاص (صاحبه الذي تخلف عن الهجرة).

قال هشام: فلما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى، أصعد بها وأصوب ولا أفهمها حتى **قلت:** اللّٰهم فهمنيها، فألقى الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا، **ويقال:** فينا.

قال (أي: هشام بن العاص): فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

وذكر ابن هشام: أن الذي قدم بهشام بن العاص، وعياش بن أبي ربيعة إلى المدينة، الوليد بن الوليد بن المغيرة سرقهما من مكة، وقدم فيها يحملهما على بعيره، وهو ماش معها، فعثر فدميت أصبعه، **فقال:**

هل أنت إلَّا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

صهيب رضي الله عنه والبيع الرابح:

قال ابن هشام: وذُكر لي عن أبي عثمان النهدي، أنه **قال:** بلغني أن صُهيبًا حين أراد الهجرة، **قال له كفار قريش:** أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟

قالوا: نعم!

قال: فإني قد جعلت لكم مالي.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، **فقال:** «ربح صهيب، ربح صهيب».

وقد روى البيهقي، عن سعيد بن المسيب، عن صهيب، **قال: قال رسول الله** ﷺ: «أريت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرتين، فإما أن تكون هجر أو تكون يثرب».

قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر، وكنت قد هممت معه بالخروج، فصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد.

فقالوا: قد شغله الله عنكم (بمرض) ببطنه - ولم أكن شاكيًا - فناموا.

فخرجت ولحقني منهم ناس بعدما سرت بريدًا (حوالي اثني عشر ميلًا)؛ ليردوني، **فقلت لهم:** إن أعطيتكم أواقي من ذهب وتخلوا سبيلي وتوفون لي، ففعلوا فتبعتهم إلى مكة، **فقلت:** احفروا تحت أسكفة الباب؛ فإن بها أواقي، واذهبوا إلى فلانة، فخذوا الحلتين.

وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ بقباء، قبل أن يتحول منها (إلى المدينة)، فلما رآني **قال:** «يا أبا يحيى ربح البيع .. ثلاثًا».

فقلت: يا رسول الله ﷺ، ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلَّا جبرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ والهجرة:

روى الحاكم، أن رسول الله ﷺ **قال لجبريل:** «من يهاجر معي؟ **قال:** أبو بكر الصديق»؛ ولذا، لما أراد الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يهاجر، استبقاه النبي ﷺ؛ ليكون صاحبًا له في هجرته عندما يأذن الله له بذلك، وظل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يستعد لهذه الصحبة، فاشترى راحلتين، وأخذ يعلفهما لمدة أربعة أشهر.

ولم تكن هذه هي الانطلاقة الأولى للصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للهجرة بدينه في سبيل الله؛ فقد كانت له محاولة من قبل للهجرة إلى الحبشة مع من هاجر من مسلمي مكة، ولكنها أيضًا لم تتم، ولعل الله استبقاه واصطفاه لصحبة نبيه ﷺ.

روى البخاري في صحيحه، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، **قالت:** «لم أعقل أبويَّ إلَّا وهما يدينان الدين - أي الإسلام - ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما

ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجرًا نحو الحبشة، حتى بلغ بَرْكَ الغِمَاد[1]، لقيه ابن الدُغُنَّة وهو سيد القارة[2]، **فقال:** أين تريد يا أبا بكر؟ **فقال أبو بكر:** أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربي. **قال ابن الدغنة:** فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج، ولا يُخرج؛ إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع فاعبد ربك ببلدك.

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة في أشراف قريش، **فقال لهم:** إن أبا بكر لا يخرج مثله، ولا يُخرج؛ أتخرجون رجلًا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟! فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، **وقالوا له:** مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصلِّ فيها، وليقرأ ما يشاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا!!

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجدًا بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقذَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكَّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن.

وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدُّغُنَّة، فقدم عليهم، **فقالوا:** إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجدًا بفناء داره، وأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه؛ فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلَّا أن يعلن بذلك، فسَلْه أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك[3]، ولسنا مقرِّين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، **فقال:** قد علمت الذي عاقدت عليه؛ فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليَّ ذمتي؛ فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفرت في رجل عقدت له، **فقال أبو بكر:** فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله ﷻ[4].

---

(1) موضع على بعد خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن.

(2) قبيلة كبيرة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، كانت تشتهر بالرمي.

(3) **أي:** ننقض عهدك.

(4) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (3905).

استقبال المهاجرين:

فتحت بيوت الأنصار أبوابها وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين، واستعدت لاحتضانهم رجالًا ونساءً؛ إذ أصبح المسكن الواحد يضم المهاجري والأنصاري، والمهاجرة والأنصارية، يتقاسمون المال والمكان، والطعام[1].

قال ابن إسحاق: ونزل حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو مرثد كناز بن الحصين، وابنه مرثد الغنويان حليفا حمزة، وأنسة وأبو كبشة موليا رسول الله ﷺ، على كلثوم بن الهدم، أخي بني عمرو بن عوف بقباء.

وقيل: على سعد بن خيثمة.

وقيل: بل نزل حمزة على أسعد بن زرارة، والله أعلم.

قال: ونزل عبيدة بن الحارث وأخواه الطفيل وحصين ومسطح بن أثاثة وسويبط بن سعد بن حريملة أخو بني عبد الدار وطليب بن عمير أخو بني عبد بن قصي، وخباب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة أخي بني العجلان بقباء، ونزل عبد الرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع.

قال ابن إسحاق: ولما قدم عمر بن الخطاب المدينة هو ومن لحق به من أهله وقومه وأخوه زيد بن الخطاب، وعمرو وعبد الله ابنا سراقة بن المعتمر وخنيس بن حذاقة السهمي - زوج ابنته حفصة - وابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وواقد بن عبد الله التميمي حليف لهم، وخولي بن أبي خولي، ومالك بن أبي خولي حليفان لهم من بني عجل، وبنو البكير إياس وخالد وعاقل وعامر وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث، فنزلوا على رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر في بني عمرو بن عوف.

قال ابن إسحاق: ثم تتابع المهاجرون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: فنزل طلحة بن عبيد الله، وصهيب ابن سنان على خُبيب بن إساف أخي بني الحارث بن الخزرج بالسنح، ونزل الزبير بن العوام، وأبو سبرة بن أبي رهم على منذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح بالعصبة، دار بني جحجبي، ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ، ونزل أبو حذيفة بن عتبة وسالم مولاه على سلمة.

---

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص 260.

قال ابن إسحاق: ونزل عتبة بن غزوان على عباد بن بشر بن وقش في بني عبد الأشهل، ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر، أخي حسان بن ثابت في دار بني النجار.

قال ابن إسحاق: ونزل العزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة؛ وذلك أنه كان عزبًا، والله أعلم في أي ذلك كان [1].

من بقي بمكة من المسلمين؟:

لم يبق بمكة بعد هجرة من كان بها من المسلمين إلَّا من حبسه المشركون، فلم يستطع الخروج إلى يثرب، أو من فتنوه، فأعادوه إليهم قبل أن يتمكن من الهجرة.

أما رسول الله ﷺ، فقد أبقى معه عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لحاجته إليه، وأبقى أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ليصحبه في هجرته عندما يأذن الله لهما.

قال ابن إسحاق: وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة إلَّا من حبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر ابن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، **فيقول له:** «لا تعجل؛ لعل الله يجعل لك صاحبًا»، فيطمع أبو بكر أن يكون.

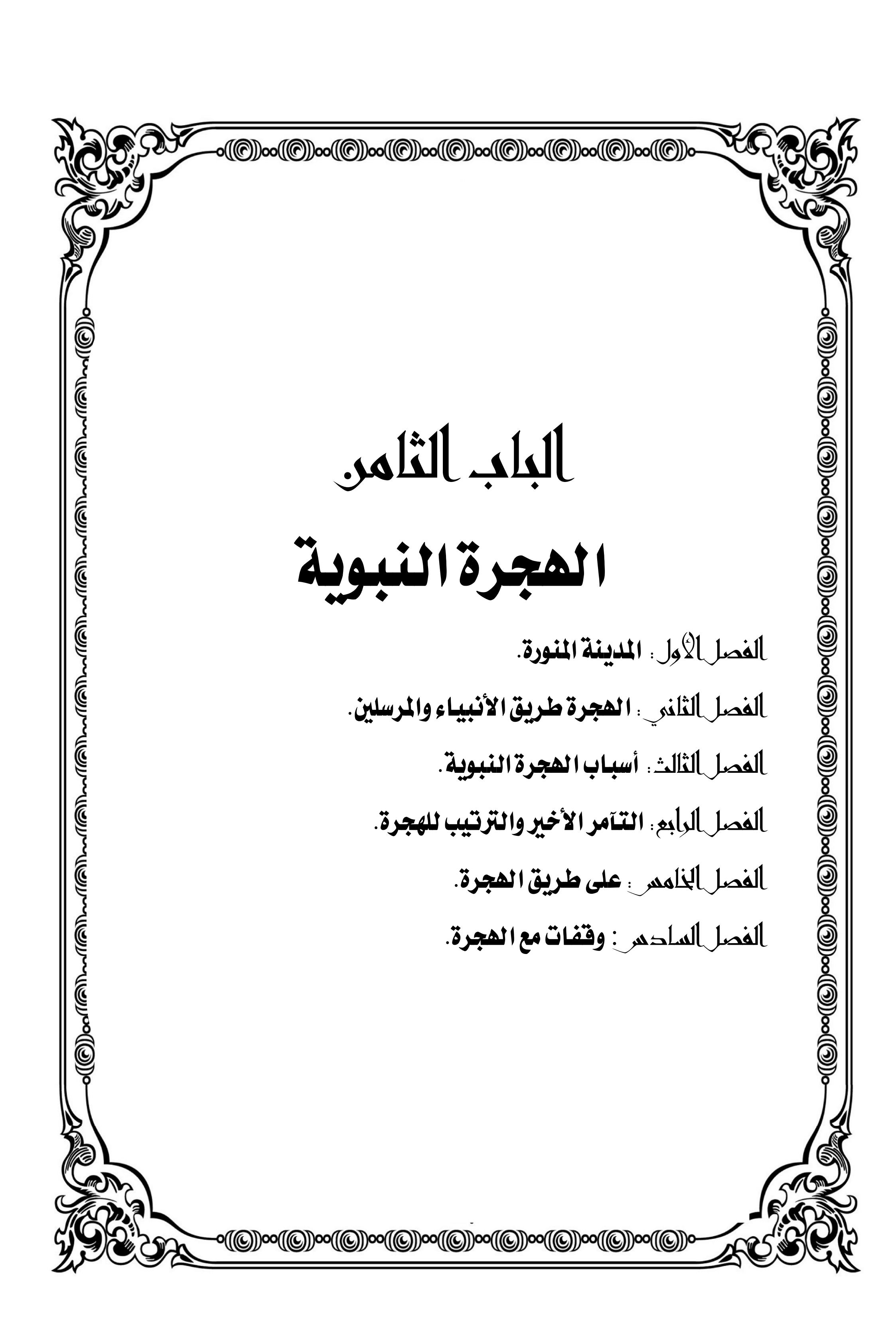
فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة، وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم منعة، فحزروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، وقد أرشد الله ﷻ رسوله ﷺ وألهمه أن يدعو بهذا الدعاء، حتى يجعل له فرجًا ومخرجًا: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء].

روى البيهقي عن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ أرشده الله وألهمه أن يدعو بهذا الدعاء؛ ليجعل له مما هو فيه فرجًا قريبًا ومخرجًا عاجلًا، فأذن له تعالى في الهجرة إلى المدينة النبوية؛ حيث الأنصار والأحباب، فصارت له دارًا وقرارًا، وأهلها له أنصارًا. وقال قتادة: ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾: المدينة، ﴿ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾: الهجرة من مكة، ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾: كتاب الله وفرائضه وحدوده [2].

---

(1) البداية والنهاية 3/213.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية 3/216.



الباب الثامن

الهجرة النبوية

الفصل الأول: **المدينة المنورة.**

الفصل الثاني: **الهجرة طريق الأنبياء والمرسلين.**

الفصل الثالث: **أسباب الهجرة النبوية.**

الفصل الرابع: **التآمر الأخير والترتيب للهجرة.**

الفصل الخامس: **على طريق الهجرة.**

الفصل السادس: **وقفات مع الهجرة.**

الفصل الأول

المدينة المنورة

المبحث الأول: موقعها وأسماؤها

أولا: الموقع والجغرافيا:

تبعد المدينة المنورة حوالي 460 كم من مكة المكرمة، في الاتجاه الشمالي الشرقي، وعلى بعد 150 كم شرق البحر الأحمر.

وتضم المدينة المنورة الكثير من الجبال، من أبرزها:

1- **جبل أحد:** ويقع على بعد 5 كيلو مترات من المدينة، ويمتد كسلسلة جبلية من الشرق إلى الغرب.

2- **جبل الرماة:** وهو جبل صغير، يقع بجوار جبل أحد، واشتهر بهذا الاسم لما كان من موقف الرماة في غزوة أحد.

3- **جبل الراية:** ويقال إنه سمي بهذا الاسم لأن النبي كان يعطي عنده الراية لمن يقود سرية من السرايا.

4- **جبال الجماوات:** وهي ثلاثة جبال غير كبيرة، تقع في الجهة القريبة من المدينة المنورة، على امتداد قسم من وادي العقيق.

5- **جبل عير:** وهو جبل أسود مستقيم القمة تقريبًا، يقع جنوب المدينة، وشرق وادي العقيق، ويبعد عن المدينة 8 كيلو مترات تقريبًا.

6- **جبل سلع:** ويقع بالقرب من المسجد النبوي، ويبلغ طوله 1 كيلو متر، وارتفاعه 80 مترًا، وعرضه نصف كيلو متر.

وتضم المدينة أيضًا الكثير من الأودية، أبرزها:

1- **وادي العقيق:** وهو أشهر أودية المدينة، ويسير إلى مشارف المدينة حتى يصل إلى جبل عير، ثم يسير غربي جبل عير، ويمر بذي الحليفة، وينعطف بعد ذلك في اتجاه الشرق حتى يلتقي بوادي بطحان قرب منطقة القبلتين، ثم يسير باتجاه الشمال حتى يلتقي بوادي قناة.

2- **وادي بطحان:** وهو أحد أبرز أودية المدينة، وروي أن النبي ﷺ توضأ منه يوم غزوة الأحزاب.

3- **وادي الروحاء:** يقع بين مكة والمدينة، وفيه بئر معروفة باسم (بئر الروحاء)، وكان النبي ﷺ ينزل بها عند رجوعه من بعض غزواته.

أما مناخ المدينة المنورة فمناخ جاف؛ إذ يسود بها المناخ الصحراوي، والذي يتميز بالجفاف، وقلة سقوط الأمطار في الصيف، أما في فصل الشتاء فيكون ممطرًا.

ثانيًا: معالم ترتبط بالسيرة العطرة:

1- **المسجد النبوي:** ويقع في قلب المدينة المنورة، في المكان الذي بركت فيه ناقة النبي ﷺ عندما جاء إلى المدينة مهاجرًا.

2- **مسجد قباء:** وهو مسجد بُني بعد الهجرة النبوية، ويقع جنوب المدينة المنورة، ويبعد عن المسجد النبوي حوالي 5 كيلو مترات، وقد شارك النبي ﷺ في بنائه وهو في طريقه إلى المدينة أثناء هجرته، وأكمل المسلمون بناءه بعد ذلك.

3- **مسجد القبلتين:** ويقع فوق هضبة مرتفعة بالقرب من وادي العقيق، ويبعد عن المسجد النبوي حوالي خمسة أميال في الاتجاه الشمالي الغربي، وسمي بذلك الاسم لأن الصحابة رضي الله عنهم صلوا فيه إلى قبلتين في صلاة واحدة؛ وذلك أن القبلة كانت إلى بيت المقدس، إلى أن نزلت آية تحويلها إلى المسجد الحرام، فأرسل النبي ﷺ من يبلغ المسلمين في أطراف المدينة، فجاءهم الخبر وهم يُصلون فتحولوا إلى المسجد الحرام.

4- **البقيع:** وهو مقبرة أهل المدينة في عهد النبي ﷺ وبعده، وتقع في مواجهة القسم الجنوبي الشرقي من مسجده ﷺ، وتضم رفات آلاف الصحابة رضي الله عنهم، ورفات أمهات المؤمنين، عدا السيدة خديجة بنت خويلد وميمونة بنت الحارث.

5- **مقبرة شهداء أحد:** وتقع عند سفح جبل أحد، وبجوار جبل الرماة، على بعد حوالي 5 كيلو مترات من المدينة المنورة، وتضم رفات حوالي سبعين من الصحابة ممن استشهدوا يوم أحد.

ثالثًا: أسماء المدينة:

للمدينة أسماء كثيرة، تدل على مكانتها العالية، وقد تتبع المؤرخون هذه الأسماء فأوصلها بعضهم إلى مائة اسم، غير أن الأسماء التي وردت في الآثار الصحيحة، وخاصة القرآن والسنة

دون ذلك بكثير، وأما بقية الأسماء فيبدو أنها اشتقت من بعض صفاتها، ومن الأحداث الجليلة التي مرت بها، ومن مكانتها العالية[1].

أما الأسماء التي وردت في الآثار الصحيحة فهي:

1- يثرب: وهو اسمها القديم في الجاهلية، وذكرت به في القرآن الكريم على لسان بعض المنافقين: ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ** ﴾ [الأحزاب:13].

وكلمة يثرب في اللغة: مشتقة من «التثريب»، ومعناه: اللوم الشديد، أو الإفساد والتخليط[2]. ولعل ذلك ما جعل رسول الله ﷺ يغير هذا الاسم، ويوجه المسلمين إلى عدم استخدامه، ووردت في ذلك أحاديث عدة، منها حديث في مسند الإمام أحمد: «من قال للمدينة يثرب، فليستغفر الله»[3]؛ بل إنه ﷺ لم يسمها بهذا الاسم إلا عند الحديث عن خرابها (في آخر الزمان).

2- المدينة: وهو الاسم الذي سميت به بعد الهجرة .. وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم عدة مرات، قال تعالى: ﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** ﴾ [التوبة:101]. وقال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ** ﴾ [التوبة:120]، وقال تعالى: ﴿ **يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ** ﴾ [المنافقون:8].

وقد ورد اسمها في الحديث الشريف عدة مرات، منها ما رواه البخاري من حديث السيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «اللّٰهم حبب إلينا المدينة كحبنا لمكة، أو أشد حبًّا»[4].

3- طابة: فعن سهل بن سعد عن أبي حميد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** أقبلنا مع النبي ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة، فقال: «هذه طابة»[5].

---

(1) عبد الكريم بن عبد القادر الأحمدي: مدينة المصطفى ﷺ.

(2) لسان العرب، مادة (ثرب).

(3) مسند الإمام أحمد (4/285).

(4) صحيح البخاري (1889).

(5) رواه البخاري (1872)؛ ومسلم (1392)، واللفظ للبخاري.

4- طيبة: عن فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبي ﷺ ذكر المدينة، **فقال:** «هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة»[1].

وأما الأسماء الأخرى للمدينة، فقد استمدها العلماء والمؤرخون من بعض الآثار، ومن صفاتها وبعض الأحداث التي مرت بها، ومنها:

1- المنورة: أطلق هذا الاسم (المدينة المنورة) على المدينة جماعة من العلماء، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتاوى، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب، والإمام السيوطي، وابن عابدين، وغيرهم، ولا نعلم متى حدثت هذه التسمية ولا من أحدثها.

2- دار الهجرة: وجاء هذا الاسم من قول رسول الله ﷺ للمسلمين في مكة قبل الهجرة: «أُريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين»، يعني: المدينة.

3- مأرز الإيمان: وسميت بذلك لقول النبي ﷺ: «إن الإيمان ليأرز (يرجع) إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»[2].

4- الدار: لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الحشر:9].

5- الحبيبة: لحب رسول الله ﷺ لها، وبحبه لها هي حبيبة إلى المسلمين جميعًا.

6- المحفوظة: لأن الله حفظها من الطاعون والدجال، كما ورد في أحاديث رسول الله ﷺ.

7- حرم رسول الله ﷺ: لقوله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة»[3].

8- الحرم: لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف»[4].

---

(1) رواه مسلم (2942).

(2) رواه البخاري (1876)؛ ومسلم (147).

(3) رواه البخاري (2129)؛ ومسلم (1360).

(4) رواه البخاري (6755)؛ ومسلم (1371).

9- قبة الإسلام، ودار الإسلام، وأرض الهجرة، ومبوأ الحلال والحرام: لقوله ﷺ: «المدينة قبة الإسلام، ودار الإيمان، وأرض الهجرة، ومبوأ الحلال والحرام»[1].

10- أكالة القرى: لقوله ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى»[2]، أي: أمرت بالهجرة إليها، وجاء تفسير هذا الحديث على وجهين؛ **الأول:** إن فتوح البلدان قد بدأ منها، **والآخر:** أن قوت المدينة يأتيها من القرى المفتوحة[3].

11- البارة، والبَرّة: لبرها بأهلها وبالناس جميعًا، فهي منبع البركة والخير.

12- البَحِيرَة: لقول سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة عبد الله بن أبي بن سلول:

«ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه، فيعصبونه بالعصابة»[4].

13- الجبارة: لأنها تجبر الكسير، وتجبر على الإذعان لمطالعة بركاتها، وشهود آياتها.

14- الفتح: لأن جميع الأمصار فتحت فيها.

15- الخَيّرة: من كثرة الخير فيها، **وفي الحديث:** «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»[5].

16- سيدة البلدان: فهي أفضل البلدان بعد مكة المكرمة .. جاء في (حلية الأولياء) لأبي نعيم، أن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما أراد أن يدخل المدينة المنورة **نادى:** «يا طيبة، يا سيدة البلدان».

17- العذراء: سميت بذلك لأنها لم توطأ من عدو قاهر، إلى أن تسلمها رسول الله ﷺ.

18- الفاضحة: لكونها تنفي الخبث، فلا يبطن أحد فيها عقيدته فاسدة، أو يضمر أمرًا إلّا وافتُضح به.

---

(1) رواه الطبراني (5618).

(2) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، حديث رقم (1871)، ص حيح مسلم، كتاب الحج، حديث رقم (1382).

(3) عباس طاشكندي: أسماء المدينة المنورة.

(4) رواه البخاري (4566).

(5) صحيح مسلم (1363).

19- المباركة: لأن الله تعالى بارك فيها بدعائه ﷺ حين **قال:** «اللّهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة»[1].

20- المجبورة: لأن الله جبرها بسكن نبيه ﷺ، وجعلها مثواه الطاهر.

21- المحروسة: فقد جاء في الحديث: «المدينة مشتبكة بالملائكة، على كل نقب منها ملكان يحرسها»[2].

22- المحفوفة: لقوله ﷺ: «المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة، على كل نقب منها ملك، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون» [3].

23- المختارة: لأن الله تعالى اختارها لهجرة رسوله ﷺ، كما اختارها مضجعًا لجسده الكريم بعد وفاته.

24- الناجية: لما ورد بشأن نجاتها من الشرور، وابتدارها الخيرات قبل سائر القرى.

25- الموفية: لأنها توفي حق الواردين إليها، وتحسن نزل القاصدين.

المبحث الثاني: تاريخ المدينة

يرجع تاريخ تأسيس يثرب إلى حوالي 1600 سنة قبل الهجرة النبوية[4]، وكان أول من سكنها العمالقة، ثم تغلبت عليهم بعض القبائل اليهودية التي وصلت إلى يثرب خلال القرن الثاني الميلادي، خلال الحروب الرومانية اليهودية في فلسطين، التي كان من نتيجتها نزوح عدة قبائل يهودية إلى الأقاليم المجاورة، فنزحت قبائل بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير إلى يثرب، وأقاموا بها حتى نزح إليهم من بلاد اليمن قبائل الأوس والخزرج عندما تهدم سد مأرب.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، حديث رقم (1885)، وصحيح مسلم، كتاب الحج، حديث رقم (1369).

(2) رواه الحاكم في مستدركه (8724).

(3) رواه أحمد في المسند، ج2، 2127، ح(10408).

(4) بداية تأسيس المدينة، مركز بحوث ودراسات المدينة.

الأوس والخزرج:

يتفق المؤرخون على أن الأوس والخزرج قبيلتان قحطانيتان، جاءتا من مملكة سبأ باليمن إلى يثرب، إثر خراب سد مأرب، وسمح لهم اليهود بالنزول قريبًا منهم بين الحرة الشرقية وقباء، واستأثر اليهود بالمواقع الجيدة بيثرب، وكانت الأموال والنخل في أيديهم، فمكث الأوس والخزرج معهم أمدًا في ضنك وشدة، واضطروا إلى أن يخضعوا لسلطانهم، ثم ثار مالك بن العجلان الخزرجي على استبداد اليهود بهم، وقتل ملكهم، ثم استعان بأحد أمراء غسان من أقربائه عليهم، فأعانه وبطش بهم، ومكن للأوس والخزرج بيثرب، وملكهم الآطام والنخل، ولما كثر عدد الأوس والخزرج وقويت شوكتهم، اضطر اليهود إلى الخضوع لسلطانهم، وعقدوا معهم حلفًا؛ ليأمنوا على أموالهم ونخلهم. وقد حالف بنو قريظة والنضير قبائل الأوس، وحالف آخرون الخزرج.

العداوة بين الأوس والخزرج:

ثم ما لبث الأوس والخزرج أن وقع الخلاف بينهما، ونشبت بينهما حروب متصلة، لم تتوقف إلَّا بمجيء النبي ﷺ إلى المدينة، على أن ما بين الحيين من وشائج الرحم جعل هذه الحروب لا تتسم دائمًا بالضراوة والعنف، وقد التزم الحيان طائفة من الأعراف، من شأنها عدم الإسراف في القتل، ومنها أن الرجل لا يُقتل إذا كان في بيته أو نخله.

وبدأت المعارك بين الأوس والخزرج بحرب «سمير»، وانتهت بحرب «بعاث» قبل الهجرة بخمس سنوات، وما بين هاتين الحربين - على مدار مائة وعشرين سنة - نشبت أكثر من عشرة حروب، كان لليهود دور في إثارتها وإذكائها، وبذا ندرك فضل الله ﷻ عليهم؛ إذ هداهم للإسلام، وألف بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخوانًا، وجعل أرضهم أرض هجرة رسوله ﷺ، فحقق الله به ما تمنوه يوم التقوه بمكة قبل الهجرة، حين **قالوا له:** إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك .. **وأهم تلك الحروب:**

- حرب سمير.
- حرب حاطب.
- وقعة جحجبا.
- موقعة السرارة.

- موقعة الحصين بن الأسلت.
- موقعة فارع.
- يوم الربيع.
- موقعة الفجار الأولى والثانية.
- موقعة معبس ومضرس.
- يوم بُعاث.

وسنعرض لأهم تلك الحروب وأكثرها ضراوة:

حرب سمير:

وكانت أول فتنة وقعت بين الأوس والخزرج، وذلك أن رجلًا حليفًا لمالك بن العجلان سيد الخزرج، **يقال له:** (كعب)، فاخر الأوس بشيء، فغضب منهم رجل **يقال له:** (سمير)، وشتمه، ثم رصده حتى خلا به فقتله، فغضب مالك بن عجلان الخزرجي، وطلب الرجل من عشيرته ليقتص منه، فأنكروا معرفته، وعرضوا عليه الدية فقبلها، فأرسلوا إليه نصف دية؛ لأن الرجل (القتيل) حليف لا نسيب، فأبى إلَّا دية كاملة، فامتنعوا، ولجَّ الأمر حتى أفضى إلى المحاربة، فاقتتلوا مرتين، كانت النصرة في الثانية منهم للأوس، فلما افترقوا أرسلت الأوس إلى مالك، أن حكم بيننا المنذر بن حرام النجاري الخزرجي (جد حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فأجابهم إلى ذلك، فاحتمل المنذر هو وقومه نصف الدية، وأدى الأوس إلى مالك النصف الآخر، وحقنت دماء القوم، إلَّا أن البغضاء كانت قد تمكنت من قلوبهم(1).

حرب حاطب:

هو حاطب بن قيس من بني أمية بن مالك بن عوف الأوس، وكان رجلًا شريفًا سيدًا، فأتاه رجل من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، فنزل عليه ضيفًا، ثم إنه غدا يومًا إلى سوق قينقاع، فرآه يزيد بن الحارث، المعروف بابن فُسْحُم (اسم أمه)، وهو من بني الحارث بن الخزرج، **فقال يزيد لرجل يهودي:** لك ردائي إن كسعت هذا الثعلبي (أي ضربته في دبره). فأخذ رداءه وكسعه كسعةً سمعها من بالسوق. **فنادى الثعلبي:** يا لحاطب، كُسع ضيفك وفُضح!! وأُخبر حاطب

(1) محمد رشيد رضا: سيدنا محمد ﷺ.

بذلك، فجاء إليه، فسأله من كسعه، فأشار إلى اليهودي، فضربه حاطب بالسيف، ففلق هامته، فأُخبر ابن فُسْحُم الخبر، **وقيل له:** قُتِل اليهودي، قتله حاطب. فأسرع خلف حاطب، فأدركه وقد دخل بيوت أهله (فلم يدركه)، فلقي رجلًا من بني معاوية (من الأوس) فقتله، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج، وكان الظفر فيها للخزرج، وهذا اليوم من أشهر أيامهم، وبينه وبين حرب سمير نحو مائة سنة، وكان بعده عدة وقائع، كلها من تداعياته، منها يوم الربيع، ويوم البقيع والفجار الأول والثاني، ويوم بعاث، وهو آخر الأيام بينهم[1].

يوم بُعاث:

يوم بعاث هي آخر معركة من معارك الأوس والخزرج بيثرب قبل هجرة الرسول ﷺ. **وبُعاث** (بضم الباء)، وقعت قبل الهجرة بخمس سنوات، وتُعد أشهر وأدمى معركة بين اليثربيين وآخرها؛ إذ أخذت بهم الأحقاد والضغون إلى أن أخذوا يستعدون لها ويعدون قبل شهرين – **وقيل:** 40 يومًا – من وقعتها. حالف الخزرج أشجع وجهينة، وحالف الأوس مزينة وقبائل يهود بني قريظة وبني النضير، وغيرهم. وسميت المعركة ببعاث؛ نسبة للمنطقة التي تصادم بها الحشدان، وقامت عليها الحرب.

كانت بدايات واقعة بعاث، أن الخزرج أرسلت برسالة يعمها التهديد والتخويف إلى يهود بني قريظة وبني النضير (حلفاء الأوس)، وطلبوا منهم أن يخلوا بينهم وبين الأوس، فردوا عليهم بأن الأوس قد طلبوا نصرتهم لكنهم لن يفعلوا، فطلب الخزرج من اليهود رهائن تكون معهم؛ ليأمنوا حربهم، فأرسل اليهود إليهم أربعين غلامًا من غلمانهم. ولكن عمرو بن النعمان البياض (وهو من زعماء الخزرج)، رأى أن يغدر باليهود، فيساومهم على أرضهم وديارهم، وإلَّا قتل الرهائن من الغلمان. فعزم اليهود على الجلاء والخروج، إلَّا أن كعب ابن أسد القرظي (وهو سيد من ساداتهم)، **قال لهم:** (يا قوم امنعوا دياركم، وخلوه يقتل الرهن؛ والله ما هي إلَّا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن)، فما كان من القوم إلَّا أن وافقوه رأيه، وراسلوا عَمرًا بأنهم رفضوا تسليم منازلهم، فقام عمرو وبعض من أطاعه من الخزرج فقتلوا الرهن. ولم يرض هذه الفعلة عبد الله بن أبي بن سلول، **فقال:** (هذا عقوق ومأثم وبغي، فلست مُعينًا عليه، ولا أحد من قومي).

---

(1) المصدر السابق.

ثم أرسل بنو النضير وبنو قريظة إلى الأوس (حلفائهم) بالقتال معهم ونصرتهم على الخزرج، كما حالفتهم بنو ثعلبة وبنو زعوراء، وأجمعوا أمرهم على القتال. فقام عمرو بن النعمان وعمرو بن الجموح إلى عبد الله بن أبي بن سلول، وكلموه بالقتال (معهم)، لكنه خالفهم ووبخهم (لما فعلوه من الغدر باليهود)، فأغلظ له عمرو بن النعمان القول، **فقال ابن سلول:** والله لا حضرتكم أبدًا، ولا أحد أطاعني، ولكأني أنظر إليك غدًا قتيلًا، تحملك أربعة في عباءة، وتخلف هو ورجال من الخزرج، على رأسهم عمرو بن الجموح عن القتال. فما كان من الخزرج إلَّا تولية عمرو ابن النعمان قائدًا لهم في حربهم، وبدأوا بتجميع الحلفاء من جهينة وأشجع.

احتشد الطرفان في بُعاث، وما لبثا حتى التقيا، ودارت رحى الحرب، فانكسر الأوسيون عندما اشتد وطيس القتال، وانهزموا، ولاذوا بالفرار، إلَّا أن قائدهم حضيرًا قام بطعن قدمه بالرمح **وصاح:** (واعقراه كعقر الجمل، والله لا أعود حتى أُقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا)، فلما سمعوا صوته عطفوا عليه عطفة رجل واحد، واستعرت الحرب من جديد، واشتد سعيرها، فقلب الأوسيون الحال رأسًا على عقب، وقُتل عمرو بن النعمان رئيس الخزرج بسهم لا يعرف له رام، وحُمل ملفوفًا بعباءة يحمله أربعة، فلما رآه عبد الله بن أبي، **قال:** (ذق وبال البغي)، وانهزم الخزرج هزيمة نكراء، والأوس من خلفهم بالسلاح، لا تأخذهم بهم رحمة، **فصاح أحد الأوسيون:** (يا معشر الأوس، أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم؛ فجوارهم خير من جوار الثعالب)[1]، فتوقفوا عن قتلهم وسلبهم، ولكن اليهود لم يتوقفوا. ومات حضير قائد الأوس يومئذ.

وثنية الأوس والخزرج:

كان الأوس والخزرج - كغيرهم من عرب الجزيرة - وثنيين مشركين، وكانوا يحفظون في بيوتهم أصنامًا يتقربون إليها، ومن آلهتهم التي كانوا يحجون إليها على مسافة من يثرب (مناة)، وكان من أعظم آلهتهم، يذبحون عندها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة، ثم يقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رءوسهم، فإذا عادوا من حجهم حلقوا رءوسهم عند (مناة)، كما كانوا يعظمون العزى.

---

(1) **انظر:** الكامل في التاريخ.

المبحث الثالث: فضائل المدينة

ورد عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في فضائل المدينة المنورة، وبيان مكانتها ومنزلتها، وفضل السكن فيها؛ بل والحرص على الموت بها، ودعا لها رسول الله ﷺ بالبركة، وحرمها كتحريم مكة، وحذر من إحداث أي حدث أو جرم فيها، أو إيذاء أهلها، أو التعرض لأحد منهم بسوء. كما وردت أحاديث عن فضل الأنصار، الذين سكنوا المدينة، وبايعوا وآووا ونصروا رسول الله ﷺ [(1)].

وقد قسم العلماء الأحاديث الدالة على فضائل المدينة إلى قسمين:

* قسم اتفق العلماء على استمرار ما دلت عليه، ولم يخصصوها بزمن دون زمن، **مثل:** الأحاديث الواردة في تحريم المدينة، وحماية المدينة من الدجال والطاعون، وفضل الصلاة بالمسجد النبوي ومسجد قباء.

* وقسم آخر من الأحاديث، اختلفوا في استمرار ما دلت عليه، **مثل:** الأحاديث الواردة في كون المدينة تنفي الخبث، وإبدال من يخرج منها بخير منه، وأروز الإيمان إليها؛ حيث خصصها بعض العلماء بزمن النبي ﷺ، وعممها البعض الآخر على سائر الأزمنة [(2)].

وسنعرض - في إيجاز - لجانب من فضائل المدينة المنورة الكثيرة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام:

1- **حب النبي ﷺ للمدينة:**

- عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **قالت:** قال رسول الله ﷺ «اللّهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد»[(3)].

- وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر، فنظر إلى جُدُرَات المدينة أوضع راحلته (أي حملها على سرعة السير)، وإن كان على دابةٍ حركها - من حُبها»[(4)].

---

(1) الشيخ علي بن مختار بن محفوظ: من فضائل المدينة.

(2) د. صالح بن حامد الرفاعي: الأحاديث الصحيحة في فضائل المدينة، ص 29 مختصرًا.

(3) رواه البخاري (1889)؛ وأحمد (24926).

(4) رواه البخاري (3/23، رقم: 1886)، وابن حبان (2710)، والإمام أحمد (12814)، وأبو يعلى (3883).

- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **قالت:** لما قبض رسول الله ﷺ اختلفوا في دفنه، **فقال أبو بكر:** سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا ما نسيته، قال: «ما قبض اللهُ نبيًّا إلا في الموضع الذي يحب أن يُدفن فيه» .. ادفنوه في موضع فراشه[1].

- وذكر سالم بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصة موت النبي ﷺ، وفيها قول الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا صاحب رسول الله، أيدفن رسول الله ﷺ؟، **قال:** نعم، **قالوا:** أين؟ **قال:** في المكان الذي قبض الله فيه روحه؛ فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيب .. فعلموا أنه قد صدق»[2].

2- حث رسول الله ﷺ على سكن المدينة:

- عن سفيان بن أبي زهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ **يقول:** «تُفتح اليمن، فيأتي قومٌ يبُسون (يسرعون في ترك المدينة)، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح الشام فيأتي قومٌ يَبُسُّون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح العراقُ، فيأتي قومٌ يَبُسُّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون»[3].

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ **قال:** «يأتي على الناس زمانٌ يدعو الرجل ابن عمه وقريبه: هلم إلى الرخاء، هلم إلى الرخاء، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده، لا يخرج منهم أحدٌ رغبةً عنها إلَّا أخلف اللهُ فيها خيرًا منه، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث، لا تقوم الساعةُ حتى تنفي المدينة شرارها، كما ينفي الكيرُ خبيث الحديد»[4]. **وفي رواية:** «إن رجالًا يستنفرون عشائرهم، يقولون: الخير الخير، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يصبرُ على لأْوَائِها وشدتها أحدٌ إلَّا كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم

---

(1) رواه الترمذي (1018)، **وقال الألباني:** حديث ثابت؛ بما له من الطرق والشواهد (أحكام الجنائز، ص 137).

(2) رواه الترمذي (الشمائل) (396)، والطبراني (6367).

(3) رواه البخاري (1875)، ومسلم (1388)، والإمام مالك (3309/663)، والنسائي في (الكبرى) (4249)، والطبراني (6407).

(4) رواه مسلم (واللفظ له)، رقم: 1381، وابن حبان (3734)، والطبراني في (الأوسط) (2783).

القيامة، والذي نفسي بيده إنها لتنفي أهلها كما ينفي الكيرُ خبث الحديد، والذي نفسي محمد بِيده لا يخرج منها أحدٌ راغبًا عنها إلَّا أبدلها الله ﷻ خيرًا منه»[1].

– وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «لا يخرج رجلٌ من المدينة رغبةً عنها إلا أبدلها اللهُ خيرًا منه، وليسمعن ناس برخْصٍ من أسعارٍ ورزق فيتبعونه، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون» [2].

3- دعاء النبي ﷺ للمدينة بالبركة:

– عن عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، **قال:** «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها، مثل ما دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لمكة»[3].

– وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله ﷺ: «اللّٰهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللّٰهم بارك لنا في صاعنا وفي مدنا، وصححها لنا، وانقل حُمَّاها إلى الجحفة»[4].

– وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «اللّٰهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة»[5].

– وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه **قال:** كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ، **قال:** «اللّٰهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، اللّٰهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه، قال: ثم يدعو أصغر وليد يراه، فيعطيه ذلك الثمر»[6].

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده (2/2022)، ح(9801).

(2) رواه الحاكم (8494).

(3) البخاري (2129)؛ والبيهقي (10067).

(4) البخاري (1889)؛ وأحمد (6881).

(5) رواه البخاري (1885)، ومسلم (1369)، والإمام أحمد (12647)، وأبو يعلى (292).

(6) رواه مسلم (رقم: 1373)، والنسائي في (عمل اليوم والليلة) (10061)، وابن حبان (3747).

- وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ، أنه **قال:** «اللّٰهم بارك لنا في مدينتنا، اللّٰهم بارك لنا في صاعنا، اللّٰهم بارك لنا في مدنا، اللّٰهم بارك لنا في صاعنا، اللّٰهم بارك لنا في مدنا، اللّٰهم بارك لنا في مدينتنا، اللّٰهم اجعل مع البركة بركتين»[1].

4- تحريم المدينة:

- عن سهل بن حُنيف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، **قال:** «أهوى (أي أشار) رسول الله ﷺ بيده إلى المدينة، فقال: «إنها حرمٌ آمن»[2].

- وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي حرم، وَحَرَمي المدينة»[3].

- وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن النبي ﷺ **قال:** «اللّٰهم إن إبراهيم حرم مكة فـجعلها حرمًا، وإني حرمت المدينة حرامًا ما بين مأزميها (أي جبليها)، أن لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا تخبط فيها شجرة (أي يضربها ليسقط ورقها) إلّا لعلف[4].

- وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن النبي ﷺ لما أشرف على المدينة، **قال:** «اللّٰهم إني أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم به إبراهيم مكة، اللّٰهم بارك لهم في مدهم وصاعهم» [5].

- وعن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «المدينة حرام، ما بين عير (جبل جنوب المدينة) إلى ثور (جبل شمال المدينة)، فمن أحدث فيها حدثًا، أو آوى محدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلًا» [6].

---

(1) رواه مسلم (1374).

(2) رواه مسلم (رقم: 1375)، وابن أبي شيبة (33098)، والبيهقي (10077).

(3) رواه أحمد في المسند (2/704)، ح(2968)، وابن جرير الطبري، وأبو نعيم، وابن عساكر، وذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد)، **وقال:** (رواه أحمد وإسناده حسن)، **وقال الشيخ أحمد شاكر:** إسناده صحيح.

(4) رواه مسلم في صحيحه برقم (1374).

(5) رواه البخاري (5425)؛ ومسلم (1365).

(6) رواه البخاري (6755)؛ ومسلم (1370).

– وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ **قال:** «المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، ولا يُحْدَثُ فيها حَدَث، من أحدث حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» [1]، والحدث: الأمر المنكر، والظلم.

– وعنه ﷺ أنه **قال:** «إني حرمت ما بين لابتي المدينة أن يقطع عِضَاها (شجر شوك)، أو يقتل صيدها»[2].

– وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه كان **يقول:** لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع (أي تأكل ما تشاء) ما ذعرتها (أي ما نفرتها)، قال رسول الله ﷺ: «ما بين لابتيها[3] حرام»[4].

5 - حماية المدينة من الدجال:

– عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، **قال:** «ليس من بلدٍ إلَّا سيطؤه الدجال، إلَّا مكة والمدينة، ليس له من نقابها (مداخلها) نقب إلَّا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترتجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق»[5].

– وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** حدثنا رسول الله ﷺ يومًا حديثًا طويلًا عن الدجال، فكان فيما حدثنا به أن **قال:** «يأتي الدجال، وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس (أو: من خيار الناس)، **فيقول:** أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكون في الأمر؟، **فيقولون:** لا، فيقتله ثم يحييه، **فيقول:** والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يُسلط عليه»[6].

---

(1) رواه البخاري (1867).

(2) شرح معاني الآثار (6307).

(3) **اللابتان:** هما الحرتان. **واللابة:** هي الأرض التي ألبست الحجارة السوداء، وقال ابن نافع: **اللابتان: إحداهما:** التي ينزل فيها الحاج إذا رجع مكة، وهي بغربي المدينة، **والأخرى:** ما يليها من شرقي المدينة.

(4) رواه البخاري (1852)، ومسلم (3286)، وأحمد (7197)، والترمذي (4090)، وابن حبان (3701)، والبيهقي (9988).

(5) رواه البخاري (1860)، واللفظ له، وابن حبان (6689)، والنسائي (4238)، (في الكبرى).

(6) رواه البخاري (7132).

- وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ **قال:** «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان»[1].

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ **قال:** «يأتي المسيح (أي: الدجال) من قِبَل المشرق، همته المدينة، حتى ينزل دبر أحد، ثم تصرف الملائكة وجهه قِبَل الشام، وهنالك يهلك»[2].

- وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في خفقةٍ من الدين (أي: اضطراب في الدين)، وإدبار من العلم، وله أربعون ليلة يسيحها في الأرض، اليوم منها كالسنة، واليوم منها كالشهر، واليوم منها كالجمعة، ثم سائر أيامه كأيامكم هذه» ... الحديث.

وفيه: «يرد كل ماء ومنهل، إلَّا المدينة ومكة، حرمهما الله عليه، وقامت الملائكة بأبوابها، ومعه جبال من خبز ... »[3].

- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قالت:** دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، **فقال لي:** (ما يبكيك؟، قلت: يا رسول الله، ذكرت الدجال فبكيت، **فقال رسول الله** ﷺ: «إن يخرج الدجال وأنا حي كفيتكموه، وإن يخرج الدجال بعدي فإن ربكم عز وجل ليس بأعور، إنه يخرج في يهودية أُصبهان، حتى يأتي المدينة، فينزل ناحيتها، ولها يومئذ سبعة أبواب، على كل نقب منها ملكان، فيخرج إليه شرار أهلها، حتى يأتي الشام، مدينة بفلسطين بباب لد، فينزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقتله، ثم يمكث عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الأرض أربعين سنة، إمامًا عدلًا، وحكمًا مقسطًا»[4].

6- حماية المدينة من الطاعون:

- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال» [5].

---

(1) رواه البخاري (1858)، وابن أبي شيبة (28160)، وأحمد (20054)، وابن حبان (3681)، والحاكم (8674).

(2) رواه مسلم (3305)، وأحمد (9155)، والترمذي (2243).

(3) رواه أحمد (14660)، والهيثمي (12525).

(4) رواه ابن أبي شيبة (33263).

(5) رواه البخاري (1859)؛ ومسلم (3304)؛ وأحمد (8324)؛ ومالك (1626)؛ والنسائي في الكبرى (4237) .

- وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، **قال:** «المدينة يأتيها الدجال، فيجد الملائكة يحرسونها، فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله»[1].

7- **المدينة موطن الإيمان:**

- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليأرز وينضم إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» [2].

- وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ **قال:** «إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها»[3].

8- **فضل المسجد النبوي:**

- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ **قال:** «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلَّا المسجد الحرام»[4].

- وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ **قال:** «صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلَّا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه»[5].

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ **قال:** «لا تشد الرحال إلَّا إلى ثلاثة مساجد؛ المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[6].

- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** إن امرأة اشتكت شكوى، **فقالت:** إن شفاني الله لأخرجن فلأصلين في بيت المقدس، فبرأت، ثم تجهزت تريد الخروج، فجاءت ميمونة زوج النبي ﷺ

(1) رواه البخاري (7134)؛ وأحمد (11990)؛ وابن حبان (6690)؛ وابن أبي شيبة (33273).
(2) رواه البخاري (1855)؛ ومسلم (330)؛ وأحمد (7805)، والترمذي (2698)؛ وابن حبان (3677).
(3) رواه مسلم (329).
(4) رواه البخاري (1172)؛ ومسلم (3328)؛ وأحمد (1617)؛ ومالك (462)؛ وابن حبان (1999).
(5) رواه ابن ماجه في سننه (رقم: 1452)؛ وأحمد في مسنده (رقم: 14405)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (رقم: 1155).
(6) رواه البخاري (1171)؛ ومسلم (3215)؛ وأحمد (7171)؛ والترمذي (324).

تسلم عليها، فأخبرتها ذلك، **فقالت:** اجلسي فكلي ما صنعت، وصلي في مسجد الرسول ﷺ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ **يقول:** «صلاةٌ فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلَّا مسجد الكعبة»(1).

- عن مسلم بن أسلم بن بجرة أخي الحارث بن الخزرج - وكان شيخًا كبيرًا قد حدث نفسه - **قال:** إن كان ليدخل المدينة فيقضي حاجته بالسوق، ثم يرجع إلى أهله، فإذا وضع رداءه، ذكر أنه لم يصل في مسجد رسول الله ﷺ، **فيقول:** والله ما صليت في مسجد رسول الله ﷺ، فإنه قد قال لنا: «من هبط منكم إلى هذه القرية، فلا يرجعن إلى أهله حتى يركع ركعتين في هذا المسجد ثم يرجع إلى أهله» (2).

9- فضل الروضة:

- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، **قال:** «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»(3).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»، **ذكروا في معناه قولين: أحدهما:** أن ذلك الموضع بعينه ينقل إلى الجنة. **والثاني:** أن العبادة فيه تؤدي إلى الجنة. وقوله ﷺ: «ومنبري على حوضي» **قال أكثر العلماء:** منبره بعينه الذي كان في الدنيا هو الذي يكون على حوضه يوم القيامة، وهذا هو الأظهر، وقيل معناه: أن قصد المؤمنين منبره، والحضور عنده - لملازمة الأعمال الصالحة - يورد صاحبه الحوض، ويقتضي شربة منه، والله أعلم»(4).

10- فضل منبره ﷺ:

- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ **قال:** «منبري هذا على ترعة من ترع الجنة»(5).

---

(1) رواه مسلم (رقم: 3337)؛ وأحمد (26420).

(2) رواه الطبراني (1055)، وقال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات).

(3) رواه البخاري (1177)؛ ومسلم (3324)؛ وأحمد (7202)؛ وابن حبان (3770).

(4) شرح النووي على صحيح مسلم 9/161، مختصرًا.

(5) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (10330)، وأحمد (22494).

- وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ، قال: «إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة»(1).

- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ **قال:** «لا يحلف عند هذا المنبر عبد ولا أمة على يمين آثمة، ولو على سواك رطب، إلا وجب له النار»(2).

11- فضل الصلاة في مسجد قباء:

- عن أسيد بن ظُهير الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، **قال:** «صلاة في مسجد قباء كعمرة»(3).

- وعن سهل بن حنيف، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «من خرج حتى يأتي هذا المسجد - يعني مسجد قباء - فيصلي فيه، كان كعدل عمرة»(4).

12- تمر المدينة:

- عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** قال رسول الله ﷺ: «من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة، لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر»(5).

- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله ﷺ **قال:** «إن في عجوة العالية (مكان في الجهة الجنوبية من المدينة) شفاء - أو إنها ترياق (ما يستعمل لدفع السم) - أول البكرة (على الريق)»(6).

---

(1) أخرجه النسائي في الكبرى (778)، وابن أبي شيبة (27469)، والبيهقي (10331)، والطبراني في الكبير (3296).

(2) رواه أحمد (10486)، وابن ماجه (2392).

(3) رواه البيهقي في الكبرى (10336)، وابن ماجه (1457)، والبخاري في تاريخه، والطبراني (570)، والحاكم (1828)، وصححه الألباني.

(4) رواه أحمد (15674)، والبخاري في (تاريخه)، والنسائي في الصغرى (697)، والطبراني (5558)، والحاكم (4327)، وصححه الألباني.

(5) رواه البخاري (5425) (واللفظ له)، ومسلم (5295)، وابن أبي شيبة (19221)، وأحمد (1584)، وأبو داود (3876).

(6) رواه مسلم (5297) (واللفظ له)، وابن أبي شيبة (19224)، وأحمد (24342)، والنسائي في الكبرى (6659).

- **وقال** ﷺ: «من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها (حرتي المدينة) حين يصبح، لم يضره سم حتى يمسي»[1].

13- فضل الموت في المدينة:

- عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ **قال:** «من استطاع أن يموت بالمدينة فليفعل؛ فإني أشفع لمن مات بها» [2].

- عن صُميتة - امرأة من بني ليث بن بكر، كانت في حجر النبي ﷺ - **قالت:** سمعت رسول الله ﷺ **يقول:** «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت؛ فإنه من مات بالمدينة كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة»[3].

* * *

(1) صحيح مسلم (5294)، وأحمد (1454)، والبيهقي في الكبرى (19980).

(2) رواه أحمد (5429)، والترمذي (4086)، وصححه الألباني.

(3) البيهقي (4182) في (شعب الإيمان)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، ج5، ص 267، 268.

الفصل الثاني

الهجرة طريق الأنبياء والمرسلين

على اختلاف الزمان والمكان، كان الرسل الكرام في موكب الإيمان يواجهون البشرية متجمعةً في جاهليتها؛ حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها، وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان، فتبرز الوحدة في دعوة الرسل، والوحدة فيما قوبلت به من الأقوام الذين أرسلوا إليهم .. يدعونهم للاعتقاد بألوهية الله وحده، وربوبيته للبشر بلا شريك من عباده، مستدلين بالحقائق الناطقة التي تدركها الفطرة، وتدل عليها آيات الله المبثوثة في ظاهر الكون، المتجلية في صفحاته، وبما أجراه الله على أيديهم (صلوات الله وسلامه عليهم) من معجزات .. فيقابلونهم بالشك والإعراض والكفر بكل ما جاءوا به: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم]، ولجمود عقولهم وغياب حجتهم، لا يجدون لأنفسهم من سبيل يواجهون به رسلهم سوى الطغيان والاضطهاد، فيعتصم الرسل - صلوات الله عليهم - بربهم، ويتوكلون عليه صابرين على الكيد والمكر، متحملين الظلم والإيذاء: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [إبراهيم].

وهنا يسفر الطغيان عن وجهه، فلا يجادل ولا يناقش ولا يفكر ولا يتعقل؛ لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة، فيسفر بالقوة المادية الغليظة التي لا يملك غيرها المتجبرون: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم: 13].

هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام - الذي جاء به الرسل - والجاهلية .. إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها، ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها، وهي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها؛ فالإسلام لابد أن يبدو في صورة تجمع مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية؛ لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم، ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم، وأن

يندمجوا في تجمعهم الجاهلي، وأن يذوبوا في مجتمعهم، فلا يبقى لهم كيان مستقل، وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله، وما يرفضه الرسل ويأبونه[1].

ولقد أُخبر النبي ﷺ - مع بدء نزول الوحي - بأن الهجرة قدر الله لأنبيائه، حين ذهبت به خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى ورقة بن نوفل، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، **فقال له ورقة:** هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، ليتني فيها جذعا (أي: شابًّا أستطيع نصرتك) إذ يخرجك قومك. **فقال رسول الله** ﷺ: أومخرجي هم؟ **قال:** نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلَّا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.

يقول ابن حجر: واستبعد النبي ﷺ أن يخرجوه؛ لأنه لم يكن فيه ﷺ سبب يقتضي الإخراج؛ لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق، الذي وصفته به خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنك لتصل الرحم، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»، فذكر ورقة أن العلة في ذلك مجيئه لهم بالانتقال عن مألوفهم، وأنهم لا يجيبونه إلى ذلك، وأنه يلزمه لذلك منابذتهم ومعاندتهم، فتنشأ العداوة من ثم[2].

المبحث الأول: نماذج من هجرة الأنبياء والمرسلين

حدثنا القرآن الكريم عن كثيرٍ من الأنبياء والمرسلين الذين هاجروا من بيئة الكفر والطغيان؛ بحثًا عن أرض جديدة تحتضن دعوتهم، وتكون منطلقًا لتبليغ رسالة ربهم، بعدما عميت أبصار أقوامهم عن رؤية الحق، وصُمت آذانهم عن سماعه، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فكانوا كالأنعام بل أضل .. **يقول الإمام الرازي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فبقاؤه فيهم (أي النبي) مفسدة؛ لأنه إن دام على إرشاده، كان ذلك منه اشتغالًا بما لا يُنتفع به مع علمه، فيكون كمن يقول للحجر: صدِّقْ، وهو عبث، أو يسكت، والسكوت دليل الرضا، **فيقال:** إنه صار منا، ورضي بأفعالنا».

وكان الأنبياء والمرسلون - صلوات الله وسلامه عليهم - يُواجهون دائمًا من قومهم بالتهديد بالإخراج من قراهم وأوطانهم:

---

(1) سيد قطب: الظلال، بتصرف واختصار.

(2) فتح الباري 26/1، بتصرف.

- فهذا شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خيروه بين الطرد أو العودة إلى ملتهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: 88].

- وهذا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هدده أبوه بالرجم أو بالطرد: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم].

- وهذا لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ إما أن ينتهي عن دعوة الناس للحق أو يخرج: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [الشعراء]، ولما لم ينته قرروا إخراجه: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل].

- وكان هذا المكر نفسه الذي مكرته قريش مع رسول الله ﷺ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال].

هجرة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

لبث نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، يبلغهم عن ربه، ويدعوهم إلى التوحيد، ويُحذرهم عذاب اليوم العظيم، وهم يجادلونه ويسبونه، ويسخرون منه، ويجعلون أصابعهم في آذانهم، ويستغشون ثيابهم، حتى قالوا له: ﴿ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود].

فيئس منهم، ودعا عليهم، وأوحى الله إليه: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود:36]، وأمره أن يصنع الفلك ويركبها هو ومن معه؛ فرارًا من الظالمين، وما يحيق بالظالمين[1]، وكانت هذه هي أول هجرة لنبي ذكرها الله ﷻ في القرآن الكريم.

هجرة هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

عادٌ قوم هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هم خلفاء قوم نوح، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف:69]، وكانوا يسكنون الأحقاف (بين عمان وحضرموت)، ذكر ابن تيمية أنهم كانوا ثلاث عشرة قبيلة، وكانت ديارهم أخصب الديار وأكثرها نعيمًا، وكانوا أعظم

---

(1) محمد المدني: الهجرة وهي الفطرة والشريعة.

أهل زمانهم في قوة الأجسام والطول، فكانوا عمالقةً أقوياء شديدي البأس، قال تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف:69]، فغرتهم قوتهم، واستكبروا في الأرض بغير الحق، وتمردوا على خالقهم، فكفروا به، وعبدوا الأصنام، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت]. فبعث الله إليهم أخاهم هودًا، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار، فقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء]، لكنهم رفضوا نصحه ووعظه، وكذبوا بعذاب الله الذي حذرهم منه، وقالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء]، وازدادوا تجبرًا وكبرًا وعنادًا، فأشهدهم على نفسه، أنه بريء من شركهم، وتحداهم أن يكيدوا له، وقال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود]، وهو يستند في هذا إلى قوة الله وقدرته ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:56]. فأهلكهم الله بكفرهم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء]، أرسل عليهم سحابًا استقبل أوديتهم، فلما رأوه ظنوا أنه يحمل لهم مطرًا، ففرحوا واستبشروا به، ولم يدر بخلدهم أن فيه دمارهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف]، وكانت الريح تدخل من أفواههم فتخرج من أدبارهم، مخرجة ما بداخل أجسادهم، فأصبحوا صرعى كأعجاز نخلٍ خاوية.

وعلى الجانب الآخر نجى الله هودًا والذين آمنوا معه، ولم يذكر القرآن كيف نجاهم ربهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود].

وقد ذكرت بعض الآثار أن هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ سكن بلاد حضرموت بعد هلاك عاد، إلى أن مات ودفن فيها، وذكر آخرون أنه بدمشق .. والله أعلم.

هجرة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أسكن الله تعالى قبيلة ثمود أرضًا بين الحجاز وتبوك، وأسبغ عليهم من نعمه الكثيرة، ولكنهم لم يكونوا أحسن حالًا من أسلافهم، ولم يتعظوا بما حل بهم، بل أشركوا بربهم وافتتنوا بالنعيم وسعة العيش الذي كانوا فيه، فبعث الله فيهم نبيه صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وحذرهم أن يفسدوا في الأرض كما أفسدت عاد: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف].

فتمادوا في كفرهم وتعنتهم، وطالبوه أن يأتيهم بآية تبين صدق قوله، **وقالوا له:** أخرج لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة بعينها - ناقة، ومعها ولدها، وذكروا له أوصافًا، **وقالوا:** إن فعلت ذلك صدقناك. فأخذ عليهم عهودهم ومواثيقهم على ذلك، وقام وصلى، ثم دعا ربه أن يجيبه إلى ما طلب قومه، فاستجاب الله دعوته، فأخرج لهم ناقةً ومعها ولدها من الصخرة، وفيها الصفات التي طلبوها، فلما رأى القوم هذا الدليل القاطع، والبرهان الساطع على صدق نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، آمن قسم منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وعنادهم وضلالهم، وقد حذر صالح قومه أن يمسوا الناقة بسوء: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود]، وأمرهم أن يتركوها تشرب يومًا، ويشربون يومًا: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء].

واتخذت ثمود كلام نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لعبًا وهزوًا، فعقروا الناقة، مخالفين أمر ربهم، فأخبرهم نبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن عقاب ربهم سيأتيهم بعد ثلاثة أيام: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود].

فلما جاء موعدهم، نجى الله صالحًا والذين آمنوا معه برحمته، وأنقذهم من خزي ذلك اليوم، بينما أخذت الذين ظلموا الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود].

روى الإمام أحمد والحاكم بإسناد حسن، أن النبي ﷺ لما مر بالحِجر، **قال:** «لا تسألوا الآيات (المعجزات)؛ فقد سألها قوم صالح، فكانت (أي الناقة) ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة، أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم، إلَّا رجلًا واحدًا، كان في حرم الله (أي مكة)، **فقالوا:** من هو يا رسول الله؟، **قال:** «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» (1).

ويقال: إن صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ انتقل إلى الشام، فنزل فلسطين، ثم انتقل إلى مكة، فأقام بها يعبد الله حتى مات. **قال ابن جرير:** ومن أهل العلم من يزعم أن صالحًا توفي بمكة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وأنه أقام في قومه عشرين سنة.

هجرة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

ذكرنا - في باب سابق - قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه في (حران) من أرض الكنعانين، وكيف أنهم كانوا يعبدون الكواكب والأصنام، فلما بعثه الله إليهم، ودعاهم إلى التوحيد ونبذ الشرك، وأقام عليهم الحجة والبرهان، كذبوه وآذوه، ولم يؤمن له إلَّا زوجته (سارة)، وابن أخيه (لوط)، فهاجروا إلى أرض الشام، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء]، ثم أرسل الله ﷻ لوطًا إلى أهل (سدوم) بالشام، أما إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه فارتحلا إلى مصر، فكانت قصة ملكها مع (سارة)، وأنه وهبها (هاجر)، فرجعوا جميعًا من مصر إلى بلاد الشام، فأقاموا بها نحو عشرين سنة، وكان يتوق إلى الولد، فألهم الله سارة، **فقالت لإبراهيم:** إن الرب قد حرمني الولد، فادخل على أمتي هذه؛ لعل الله يرزقك منها ولدًا. فلما دخل بها حملت منه، ثم وضعت إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فضاقت سارة بهاجر، واشتدت بها الغيرة، فصارت تؤذيها وتلاحقها، فأمر الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يذهب بهاجر وابنها إلى وادٍ بجبال فاران (مكة)، فأخذهما إلى هناك، وتوجه إلى ربه داعيًا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم]، ثم تركها إبراهيم، وعاد إلى زوجته سارة.

---

(1) رواه أحمد (13867).

هجرة لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

أرسل الله ﷻ نبيه لوطًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى أهل (سدوم) بالشام، بأرض غور زُغَر، وكانت بلدةً كبيرة، لها قرى مضافة إليها، وأهلها من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية .. يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر؛ بل وابتدعوا فاحشةً لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، وهي إتيان الرجال شهوةً من دون النساء، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده، ونهاهم عن فعل الفواحش والمحرمات والمنكرات، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف]، فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به، ولم يتركوا ما نهوا عنه؛ بل هموا بإخراجه من بين ظهرانيهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ [الأعراف]، ثم قالوا له: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت]، فدعا ربه أن ينصره على القوم المفسدين، فاستجاب الله لدعوته، وبعث رسله، فمروا على الخليل، وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤﴾ [الذاريات].

ثم أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم، في صور شبان حسان، فتضيفوا لوطًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وذلك عند غروب الشمس، فحسبهم بشرًا من الناس، فضاق بهم ذرعًا؛ لعلمه بما سيكون من قومه معهم، قال تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود]، وجعل يُعرِّض لهم في الكلام؛ لعلهم ينصرفون عن هذه القرية، وينزلون في غيرها، فلم يفلح ذلك معهم، فجاء بهم إلى بيته، ولم يعلم بهم أحدٌ إلَّا أهل البيت .. فخرجت امرأته، فأخبرت قومها، فجاءوا يهرعون إليه، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾ [هود:78]، يرشدهم إلى إتيان نسائهم؛ فهن بناته شرعًا؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ [الأحزاب:6]، وقال لهم لوط: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ

رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [هود]، ولكنهم كانوا سفهاء فجرة، فقالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾ [هود] أي: لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا من غير النساء!! فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود]؛ وَدَّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن لو كان له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم، ثم جعل يمانعهم الدخول، ويدافعهم، والباب مغلق، وهم يريدون فتحه وولوجه، فلما ضاق الأمر، وعسر الحال، قالت الملائكة: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود:81]، وذكرت الآثار أن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقةً بطرف جناحه، فطمست أعينهم؛ حتى **قيل:** إنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا عين، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القمر]، ثم تقدمت الملائكة إلى لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، آمرينه بأن يسري هو وأهله من آخر الليل، ولا يلتفت منهم أحد عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه، وأمروه أن يكون سيره في آخرهم، وألا يصحب امرأته؛ لأنه سيصيبها ما أصاب قومها، وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء العتاة الملعونين: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود]، فلما خرج لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأهله - وهم ابنتاه - وخلصوا من بلادهم، وطلعت الشمس، جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يصد .. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود] .. اقتلع مدنهم جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بطرف جناحه، وكن سبع مدن، بمن فيهن من الأمم والحيوانات والأراضي والأماكن، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، ثم أمطر الله عليهم حجارة من سجيل، يتبع بعضها بعضًا كالمطر، قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود:82]، وكانت هذه الحجارة (مسومة)، أي معلمة، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه، كما قال تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات].

ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، فهلكت.

ويقال: إنها خرجت خلف زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها، **وقالت:** واقوماه، فخالفت بذلك أمر ربها، فسقط عليها حجر، فدفعها

وألحقها بقومها؛ إذ كانت على دينهم، وكانت عينًا لهم، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم]، أي خانتاهما في الدين، فلم يتبعاهما فيه(1).

وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة، لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي، فصارت عبرة وآية على قدرة الله وانتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه، وعصى مولاه.

هجرة شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

كان أهل مدين قومًا من العرب، يسكنون بلاد الحجاز مما يلي الشام، قريبًا من خليج العقبة، في مدينة قريبة من بحيرة قوم لوط، تسمى (مدين)، قال تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود]، وكانوا على دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكنهم لم يطل بهم العهد حتى غيروا دينهم، وكفروا بالله وعبدوا غيره؛ فقد كانوا يعبدون (الأيكة)، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة (أشجار ملتفة على بعضها)، وكانوا أصحاب تجارة واسعة؛ لكونهم على الطرق التجارية الكبرى بين اليمن والشام وبين العراق ومصر، وكانوا ينقصون المكيال والميزان، ويأكلون المال الحرام، ويقطعون الطريق، ويتعرضون للقوافل، ويعيثون في الأرض فسادًا!!

فبعث الله فيهم رجلًا منهم، هو شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، وأمرهم بالعدل والميزان بالقسط، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يأكلوا أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود]، وحذرهم من صد الناس عن الإيمان بالله، وإيذاء المؤمنين: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:86].

(1) وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة، فإن الله لا يقدر على نبي قط أن تبغي امرأته، كما قال ابن عباس وغيره.

فواجهوه بالسخرية والاستهزاء والتكبر، وقالوا متهكمين: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود]، فانتقل شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الترهيب، فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود]، ورغم كل هذه الأساليب التي اتخذها نبي الله شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في دعوتهم، إلَّا أنهم استمروا في جهلهم وحمقهم، وهددوه بأنهم لولا عشيرته لرموه بالحجارة وقتلوه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود].

وتمادوا في غيهم وضلالهم، واستمروا على عنادهم، وطالبوه أن يريهم ما توعدهم به من العذاب الأليم: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء].

عند ذلك استفتح شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على قومه، واستنصر ربه عليهم، ودعا ربه هو والذين آمنوا معه قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف]، فأنزل الله على قومه عذابه الشديد، بل وجمع عليهم أنواعًا من العذاب، وأشكالًا من البليات؛ ذلك أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفع مع هذا الحر الشديد ماء ولا ظل، فهربوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردًا ولذة، فنادى بعضهم بعضًا، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا إذا بها ترميهم بشرر وشهب، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء]، ثم زلزلت بهم الأرض، ورجفت، وجاءتهم صيحة قوية من ملك أزهقت أرواحهم، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود].

ولقد عاش شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد هلاك قومه في الأردن، ثم مات ودفن فيها، وقبره هناك في وادٍ يسمى بوادي شعيب، **ويقال:** إنه مات بمكة ومن معه من المؤمنين، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم، والله أعلم.

هجرة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

موسى بن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كليم الرحمن، وأحد أولي العزم من الرسل، عظم الله ذكره في كتابه، فجاءت قصته مبسوطة في القرآن منذ أن ولد، وما سنتوقف عنده هنا هو هجرة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أرض مدين قبل بعثته، ثم هجرته ببني إسرائيل بعد البعثة.

أولا: هجرته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أرض مدين:

دخل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذات يوم المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجد فيها رجلًا من بني إسرائيل يقتتل ورجل من المصريين (الأقباط)(1)، فاستغاثه الإسرائيلي على عدوه القبطي، فوكزه موسى فقضى عليه، ولم يكن ينتظر أن تؤدي هذه الضربة إلى الموت، ولذلك ندم على هذا العمل الذي انساق إليه، فاستغفر ربه، وندم على فعلته، وعزاها إلى الشيطان وغوايته، قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [القصص].

وأصبح موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المدينة خائفًا يترقب أن ينكشف أمره، فإذا الذي استنصره بالأمس فنصره، يستصرخه اليوم أيضًا، فعاتبه موسى، ووصفه بأنه غوي مبين، ثم لما أراد أن يبطش بهذا القبطي الجديد، ظن الإسرائيلي أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقصد البطش به لا بالقبطي، فقال لموسى: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟! إن تريد إلا أن تكون جبارًا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين!!

وبذلك كُشف موسى وفُضح أمره، فعلم الملأ من قوم فرعون (وهم رجال حاشيته والمقربون إليه) أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو من قتل القبطي، فقرروا قتله!!

فانتدبت يد القدرة واحدًا من هؤلاء الملأ (الأرجح أنه مؤمن آل فرعون الذي جاء ذكره في سورة «غافر»)؛ ليسعى إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ليبلغه قبل أن يصل إليه رجال فرعون: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(1) يطلق اسم قبطي على كل مصري من قبل دخول المسيحية مصر، **فالقبطي يعني**: المصري.

[القصص]، فخرج موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من المدينة خائفًا يترقب، وقصد أرض مدين جنوبي الشام، وسار مسافات شاسعة بلا زاد ولا استعداد، فلما انتهى به السفر إلى ماء مدين وهو مُجهد مكدود؛ إذا به يجد على الماء الرعاة يوردون أنعامهم لتشرب، ووجد امرأتين في حيرة من أمرهما، تجمعان أغنامهما ولا تسقيان، فأخذه العطف عليهما، **وسألهما:** ما خطبكما؛ ولماذا لا تسقيان؟ **قالتا:** لا نسقي حتى ينتهي الرعاء من السقي؛ لأننا امرأتان وأبونا شيخ كبير، لا يقوى على هذه المهمة، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص].

فتولى عنهما هذه المهمة، فسقى لهما، ثم انصرف إلى ناحية الظل يناجي ربه: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص].

ولما رجعت المرأتان إلى أبيهما قصا عليه قصة هذا النبيل الذي سقى لهما، فبعث إحداهما لتدعوه إليه، فأجاب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الدعوة، ولما انتهى إلى الشيخ، طلب منه أن يخبره بأمره، فقص موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عليه قصته فأمنه الشيخ، **وقال:** لا تخف نجوت من القوم الظالمين، فنصحته إحدى ابنتيه أن يستأجره.

فقال الشيخ: ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القصص]، فوافق موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتم العقد بينهما .. واطمأن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مقامه بمدين، وأمن من فرعون وكيده، إلى أن انقضى الأجل بينه وبين صهره.

ثم سار موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأهله عائدًا إلى مصر، وشاهد من جانب الطور نارًا، وقد كان بحاجة إليها، **فقال لأهله:** امكثوا؛ إني آنست نارًا لعلي آتيكم منها بخبر، أو جذوة من النار؛ لعلكم تصطلون.

فلما أتاها؛ إذا بربه يكلمه بما سجلته آيات القرآن في قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ

﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه].

ثم عاد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى مصر، حاملًا رسالة ربه، وكان من أمره بها ما كان.

ثانيًا: هجرته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببني إسرائيل:

لما عاد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى مصر، توجه هو وأخوه هارون إلى فرعون، **فقالا له:** إنا رسولا ربك، قد جئناك ببينة منه، فأرسل معنا بني إسرائيل، وارفع عنهم العذاب الذي تنزله بهم، وعرضا عليه الرسالة، وأقاما عليه الحجة، وتحدوه بالآيات، فجمع فرعون السحرة؛ ليواجه بهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في يوم شهده الناس جميعًا، فألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وإذا بها تبدوا لأعين الناس كأنها تسعى كالحيات، فألقى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عصاه، فإذا هي تلقف ما صنعوا، فآمن السحرة، **وقالوا:** آمنا برب موسى وهارون.

وقد أصر فرعون وقومه على الكفر، وازداد اضطهادهم وتعذيبهم لبني إسرائيل، فأصابهم الله بالجدب ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. وكانوا كلما وقع عليهم العذاب، قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزخرف].

وأمام هذه الآيات المتتاليات، لم يجد فرعون إلَّا أن يقتل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فخرج موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببني إسرائيل، قاصدًا فلسطين، فسار بهم متجهًا إلى سيناء، فلاحقه فرعون وجنوده، حتى وجدوا أنفسهم والبحر من أمامهم وفرعون وجنوده من خلفهم، فارتاع بنو إسرائيل، وكادوا أن يكذبوا ما وعدهم به موسى من الخلاص: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء]، فأوحى الله إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن اضرب بعصاك البحر، وإذا به ينفلق كل فرق كالطود (الجبل) العظيم، ويظهر بينهما طريق يبس؛

ليعبر من خلاله بنو إسرائيل، قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء]، فحاول فرعون وجنوده أن يتبعوهم من هذا الطريق، فإذا بجانبي البحر يلتقيان، فيغرق هو وجنوده ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف].

ثم توالت الأحداث على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولا مجال هنا لبسطها.

هجرة عاقب الله عليها نبي:

أرسل الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أهل نينوى من أرض الموصل بالعراق، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الصافات]، وكانت نينوى مدينة كبيرة، تقع على نهر دجلة أو قريبةً منه، تجاه مدينة الموصل من أرض آشور (في القسم الشمالي من العراق)، وكان عدد أهل هذه المدينة مائة ألف أو يزيدون، والذي يظهر أن رسالته كانت بعد سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقبل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، خلال القرن الثامن قبل ميلاد المسيح.

وكان أهل نينوى يعبدون صنمًا لهم اسمه (عشتار)، فدعاهم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى عبادة الله وحده، ونصحهم، وأرشدهم إلى الخير، وصبر عليهم، وسلك كل السبل في دعوتهم، حتى ضاق صدرًا بتكذيبهم، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغضبًا آبقًا (هاربًا)، دون أن يأذن له ربه بهجرة أو رحيل، وقاده الغضب إلى شاطئ البحر؛ حيث ركب سفينة مشحونة، وفي وسط اللجة ناوأتها الرياح والأمواج، وكان هذا إيذانًا – عند القوم – بأن من بين الركاب راكبًا مغضوبًا عليه من ربه، وأنه لابد أن يلقى في الماء؛ لتنجو السفينة من الغرق، فاقترعوا على من يلقونه من السفينة، فخرج سهم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان معروفًا عندهم بالصلاح، فأعادوا الاقتراع مرة ثانية وثالثة، ولكن سهمه خرج بشكل أكيد، فألقوه في البحر، وألقى هو نفسه، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[الصافات] فالتقمه الحوت؛ عقابًا له من ربه، فلما أحس بالضيق في بطنه، سبح الله واستغفره، فسمع الله دعاءه، واستجاب له، وأمر الحوت أن يلفظه، فخرج من بطنه عاريًا سقيمًا على الشاطئ، فأنبت الله عليه شجرة قرع، تظلله بورقها العريض، وكان هذا من تدبير الله ولطفه، قال تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات]. فلما استكمل عافيته، رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضبًا، وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه، فآمنوا، واستغفروا،

وطلبوا العفو من الله، فسمع لهم، ولم ينزل بهم عذاب المكذبين، وكانوا مائة ألف، يزيدون ولا ينقصون، وقد آمنوا أجمعين، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات].

وفي قصة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لفتات ولمسات يجب أن نقف أمامها:

* إن يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يصبر على تكاليف الرسالة، فضاق صدرًا بقومه، وألقى عبء الدعوة، وذهب مغاضبًا ضيق الصدر، حرج النفس، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين، ولولا أن تاب إلى ربه، واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه، لما فرج الله عنه هذا الضيق .. وأصحاب الدعوات لابد أن يحتملوا تكاليفها، وأن يصبروا على التكذيب بها، والإيذاء من أجلها، وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقًّا، ولكنه بعض تكاليف الرسالة، فلابد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا، ولابد أن يثابروا ويثبتوا .. ولابد أن يكرروا الدعوة، ويبدءوا فيها ويعيدوا.

* إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب، ومن عتو وجحود .. فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة، وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف .. ولو صبروا هذه المرة، وحاولوا ولم يقنطوا؛ لتفتحت لهم أرصاد القلوب.

* إن طريق الدعوات ليس هينًا لينًا، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة؛ فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات، والنظم والأوضاع، يجثم على القلوب، ولابد من إزالة هذا الركام.

* إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب؛ لأن الناس لا يستجيبون لدعوته، فيهجر الناس .. إنه عمل مريح، قد يفثأ الغضب، ويهدئ الأعصاب .. ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين؟

* إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية! .. فليضق صدره، ولكن ليكظم ويمض، وخير له أن يصبر، فلا يضيق صدره بما يقولون.

* إن الداعية أداة في يد القدرة، والله أرعى لدعوته وأحفظ .. فليؤد هو واجبه في كل ظرف، وفي كل جو، والبقية على الله .. والهدى هدى الله (1).

المبحث الثاني: هجرة محمد ﷺ ليست كهجرة الأنبياء من قبله

قال الشيخ يوسف القرضاوي:

لقد هاجر رسل الله عامةً، أو عدد كبير منهم، ولكن لم تكن هجرتهم مثل هجرة محمد ﷺ .. هاجر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فخرج من بلد إلى بلد، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت]، وفي آية أخرى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات]، إلى أن استقر به المقام في فلسطين، في المدينة التي دفن فيها، وسميت باسمه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مدينة الخليل إبراهيم.

وهاجر موسى قبل بعثته بعد أن قتل ذلك القبطي خطأ واستغفر ربه، ثم قال له من قال: ﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص]، وذهب إلى مدين، وتزوج، وعاش فيها عشر سنوات مع ذلك الشيخ الكبير بعد أن تزوج ابنته، ولم تكن له في هذه المدة مهمة تذكر .. كان شابًّا صالحًا، وزوجًا طيبًا، وصهرًا كريمًا .. عاش مع هذا الرجل عشر سنوات، ولكن لم يقم فيها بدور.

لم تكن هجرة محمد ﷺ لمجرد الفرار من الفتنة، أو الهروب من الإيذاء والتضييق .. لا، لقد كانت هجرته ﷺ سعيًا حثيثًا لإقامة مجتمع جديد .. مجتمع إسلامي بمعنى الكلمة .. كانت سعيًا لإقامة مجتمع وبناء أمة، وإنشاء دولة جديدة، تقوم على الربانية والإنسانية والأخلاقية والعالمية.

كان هذا هو هدف محمد ﷺ من هذه الهجرة، واستطاع - بالفعل - أن يقيم هذه الدولة، وأن يؤسس هذا المجتمع، وينشئ هذه الأمة الجديدة .. خير أمة أخرجت للناس.

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، سورة الأنبياء، الآية 88، مختصرًا.

الفصل الثالث

أسباب الهجرة النبوية

كان للهجرة النبوية أسباب، وكان لها أهداف، ومن قبل ذلك ومن بعده، كانت الهجرة مشيئة الله وقدره؛ فهو الذي أمر بها رسوله ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في رؤيا النبي ﷺ التي ذكرناها من قبل: «قد أريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين (وهما الحرتان) ...».

ومن المهم لنا أن نقف أمام أسباب هذه الهجرة المباركة، التي كانت بمثابة الخطوة الفارقة في تاريخ دعوة الإسلام؛ بل وفي حياة البشرية كلها:

أولا: لم تعد مكة صالحة لأن تكون مركزًا للدعوة:

لم تعد مكة - بوقوفها في سبيل الإسلام والمسلمين - صالحة لأن تكون مركزًا لانتشار دعوة الإسلام؛ فقد ضاقت بسفهائها ومجرميها، وصد أهلها عن سبيل الله، ومنعهم الوفود القادمة للحج والتجارة من سماع الحق، ومعرفة حقيقة النور الذي جاء به محمد ﷺ، فكان لابد من الانتقال إلى مركز جديد، يقبل هذه الدعوة، ويكون منطلقًا لحمل الدين إلى ربوع الأرض، وإلى الناس جميعًا.

ثانيًا: شدة الإيذاء والاضطهاد:

ذكرنا - فيما تقدم - ما تعرض له رسول الله ﷺ وأصحابه من المضايقات والإيذاء، فكانت الهجرة إلى المدينة للخلاص من هذا الاضطهاد، بالإقامة في مجتمع آمن، وقد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في سبب هجرة أبيها الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المدينة: «استأذن النبيَّ ﷺ أبو بكر في الخروج حين اشتد عليه الأذى» [1].

ثالثًا: قبول أهل المدينة للإسلام:

بعد بيعة العقبة الأولى والثانية، ومعاهدة وفود الأنصار للنبي ﷺ على الولاء والنصرة، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم، وما كان من انتشار الإسلام بين الأوس والخزرج - أصبحت المدينة مهيأةً لاستقبال الإسلام والدفاع عنه، وأضحى للمسلمين بها

---

(1) رواه البخاري (4004).

إخوان صادقون، أبدلهم الله بهم أهلًا بأهل ودورًا بدور، وتكفلوا لهم بالعيش الكريم والمنعة والأمن، في إطار من الأخوة الرائعة، والحب في الله.

رابعًا: تأسيس وطن للإسلام:

أدرك النبي ﷺ أن تحقيق رسالته لا يتأتى إلَّا من خلال كيان اجتماعي، ونظام سياسي، يحميه نظام عسكري في موطن آمن، أو بالأحرى من خلال دولة، تكفل لهذه الدعوة حق الانتشار والذيوع، وتحمي أتباعها وتؤمنهم[1].

ونجاح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة، هو أخطر كسب يحصل عليه منذ بدأت الدعوة له، فلم تكن الهجرة تخلصًا فقط من الفتنة والاستهزاء؛ بل كانت تعاونًا عامًّا على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن، وأصبح فرضًا على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة بعد الهجرة إليها، نكوصًا عن تكاليف الحق، وعن نصرة الله ورسوله؛ فالحياة بها دين؛ لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها[2].

* * *

(1) د. عماد الدين خليل: خطوات في الهجرة المباركة، ص 19.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 163.

الفصل الرابع

التآمر الأخير والترتيب للهجرة

المبحث الأول: المؤامرة الأخيرة

قال ابن إسحاق: وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة إلَّا من حُبس أو فتن، إلَّا علي بن أبي طالب وأبو بكر ابن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، **فيقول له:** «لا تعجل؛ لعل الله يجعل لك صاحبًا»، فيطمع أبو بكر أن يكون.

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم منعة، فحزروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب، التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلَّا فيها - يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** لما اجتمعوا لذلك، واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى «يوم الزحمة»، فاعترضهم إبليس - لعنه الله - في صورة شيخ جليل عليه بتلة[1]، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفًا على بابها، **قالوا:** من الشيخ؟ **قال:** شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم؛ ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا.

قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان، وطعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم بن عدي، والحارث بن عامر بن نوفل، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، وأبو جهل ابن هشام، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف، ومن كان منهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش.

---

(1) **البتلة من النخل:** الفسيلة التي انفردت عن أمها، **والبتلة أيضًا:** عبارة عن أوراق نباتية متجاورة.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا، **قال:** فتشاوروا، ثم **قال قائل منهم** – قيل إنه أبو البختري بن هشام: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيرًا والنابغة، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي؛ والله لئن حبستموه كما تقولون، ليخرجن أمره من وراء هذا الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي.

فتشاوروا، ثم **قال قائل منهم:** نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي؛ ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد .. أديروا فيه رأيًا غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتًى شابًّا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك، تفرق دمه في القبائل جميعها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل[1]، فعقلناه لهم.

قال: يقول الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي ولا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

---

(1) **العقل:** الدية.

فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ، **فقال له:** لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.

قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه، يرصدونه، حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، **قال لعلي بن أبي طالب:** «نم على فراشي، وتسج ببردي[1] هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه؛ فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي، قال: لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل قال - وهم على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: فخرج رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم»، وأخذ الله على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾، إلى قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩﴾ [يس].

ولم يبق منهم رجل إلَّا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، **فقال:** ما تنتظرون هٰهنا؟

قالوا: محمدًا.

فقال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلًا إلَّا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته! أفما ترون ما بكم؟!

قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًّا على الفراش، متسجيًا ببُرد رسول الله ﷺ، **فيقولون:** والله إن هذا لمحمد نائمًا، عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا.

---

(1) **البردة:** كساء مخطط يلتحف به.

قال ابن إسحاق: فكان مما أنزل الله في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]، وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الطور] .. **قال ابن إسحاق:** «فأذن الله لنبيه ﷺ عند ذلك بالهجرة» [1].

المبحث الثاني: الترتيب للهجرة

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** «بُعث النبي ﷺ لأربعين سنة، فمكث فيها (أي: مكة) ثلاث عشرة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة» [2].

وقد كانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته ﷺ، وذلك في يوم الاثنين كما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أنه **قال:** «ولد نبيكم يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ونبئ يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين» [3].

من بيت الصديق كانت البداية:

خرج رسول الله ﷺ من بيته ليلًا بعدما أفلت من المشركين، ولكنه لم يذهب إلى بيت الصديق إلَّا في ظهيرة اليوم التالي[4]؛ إذ إن هذه الساعة بالنسبة للناس ساعة القيلولة، وقلما يوجد إنسان في مكة خارج بيته؛ خاصة إذا عرفنا أن الخروج كان في أوائل (سبتمبر) في آخر شهر من أشهر الصيف - كما حققه المباركفوري - فهذا الخروج هو أضمن ما يكون للسرية، وأضمن أن يخفى عن العيون[5].

وكان الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يترقب وصوله في أية ساعة، بعد أن اتفقا على الصحبة في الهجرة وأعد للسفر عدته[6]. **قال ابن إسحاق:** وكان أبو بكر حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فقال

---

(1) انظر: البداية والنهاية 3/218.

(2) رواه البخاري (3815).

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، 3/ 218.

(4) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 476.

(5) الغضبان: المنهج الحركي، ص 189.

(6) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 477.

له: «لا تعجل؛ لعل الله أن يجعل لك صاحبًا»، وقد طمع بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه، فابتاع راحلتين حبسهما في داره، يعلفهما؛ إعدادًا لذلك. **قال الواقدي:** اشتراهما بثمانمائة درهم(1).

عائشة رضي الله عنها تروي:

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين، أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار؛ إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه رسول الله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها، **قالت:** فلما رآه أبو بكر **قال:** ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلَّا لأمر حدث!

قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند رسول الله ﷺ أحد إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، **فقال رسول الله** ﷺ: «أخرج عني من عندك».

قال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي؟

قال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة».

قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله ﷺ؟

قال: «الصحبة».

قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح؛ حتى رأيت أبا بكر يومئذٍ يبكي، **ثم قال:** يا نبي الله، إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط، رجلًا من بني الدئل بن بكر، وكانت أمه من بني سهم بن عمرو، وكان مشركًا يدلهما على الطريق، ودفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

قال ابن إسحاق: ولم يعلم - فيما بلغني - بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلَّا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر، أما علي، فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس.

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 3/ 218.

وكان رسول الله ﷺ وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلَّا وضعه عنده؛ لما يعلم من صدقه وأمانته(1).

وفي رواية لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **زادت:** قال أبو بكر: فخذ أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين.

فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

قالت: فجهزناهما أحسن الجهاز، فصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فلذلك سميت ذات النطاقين (2).

الخروج من الخوخة:

خرج رسول الله ﷺ مع صاحبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خوخة في ظهر بيت أبي بكر، **قال ابن إسحاق:** فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته(3).

والخوخة في اللغة: كوة في البيت؛ لإدخال الضوء، أو هي باب صغير وسط باب كبير، نُصب حاجزًا بين دارين، أو هي مُخترق ما بين كل دارين.

وأيًّا كان معنى الكلمة، فإنها تفيد أن رسول الله ﷺ خرج مع صاحبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من مخرج سري بظهر البيت، بعيدًا عن أعين قريش، التي قد ترقب بيت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ بحثًا عن رسول الله ﷺ.

دعاء النبي ﷺ:

روى أبو نعيم، عن محمد بن إسحاق، **قال:**

بلغني أن رسول الله ﷺ لما خرج من مكة مهاجرًا إلى الله يريد المدينة، **قال:** «الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئًا، اللَّهم أعني على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام،

---

(1) البداية والنهاية 3/218-219.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية 3/225.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية 3/ 219.

اللّهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذللني، وعلى صالح خلقي فقومني، وإليك رب فحببني، وإلى الناس فلا تكلني، رب المستضعفين وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تحل عليَّ غضبك، وتنزل بي سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك، لك العقبى عندي خير ما استطعت، لا حول ولا قوة إلّا بك» (1).

ولما خرج رسول الله ﷺ مع صاحبه، وفي طريقهما إلى غار ثور، وقبل أن تختفي مكة عن الأنظار، توجه ﷺ إلى البيت، وقال: «والله إنك لأحب أرض الله إليّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت» (2).

* * *

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص 177.

(2) رواه البزار في مسنده (4690).

الفصل الخامس

على طريق الهجرة

المبحث الأول: إلى الغار

لما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشًا ستجدّ في الطلب، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيس المتجه شمالًا؛ فقد سلك الطريق الذي يضاده تمامًا، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن .. سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال، حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور، وهو جبل شامخ، وعر الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله ﷺ، **وقيل:** بل كان يمشي في الطريق على أطراف قدميه؛ كي يخفي أثره، فحفيت قدماه[1].

أبو بكر .. نعم الصاحب ونعم الرفيق:

وفي الطريق إلى الغار رأى رسول الله ﷺ من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عجبًا، رآه مرة يسير أمامه ومرة يسير خلفه، ومرة عن يمينه ومرة عن شماله، فسأله رسول الله ﷺ عن هذا، **فقال:** يا رسول الله أذكر الطَّلَب (الطالب الملاحق الذي يأتي من الخلف ليدركهم) فأمشي خلفك، وأذكر الرَّصَد (المترصد لهم في الطريق) فأكون أمامك، ومرة عن يمينك ومرة عن شمالك، لا آمن عليك[2].

فقال له النبي ﷺ: (يا أبا بكر، لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني؟. **قال:** نعم، والذي بعثك بالحق.

قال ابن إسحاق: ثم عمدا إلى غار بثور – جبل بأسفل مكة – فدخلاه، وأمر أبو بكر الصديق ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر.

وأمر عامر بن فهيرة مولاه، أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار.

---

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 183.

(2) روى هذه القصة ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص 180.

فكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم، يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى، فيخبرهما الخبر.

وكان عامر بن فهيرة يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما (أي رسول الله وصاحبه) غنم أبي بكر، فاحتلبا وذبحا.

فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم؛ يعفي عليه (أي يزيل أثره).

أسماء، وأبو جهل، وأبو قحافة:

قال ابن إسحاق: وكانت أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما. **قالت أسماء:** ولما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل ابن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، **فقالوا:** أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟

قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي.

قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي[1]، ثم انصرفوا.

قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، أن أباه حدثه عن جدته أسماء. **قالت:** لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم - أو ستة آلاف درهم - فانطلق بها معه.

قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة - وقد ذهب بصره، **فقال:** والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه.

قالت: قلت: كلا يا أبة؛ إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا.

قالت: وأخذت أحجارًا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده، **فقلت:** يا أبة ضع يدك على هذا المال.

---

(1) **القرط:** هو الحلق.

قالت: فوضع يده عليه، **فقال:** لا بأس، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم .. ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك(1).

في الغار: الله ثالثهما:

وعندما انتهيا إلى الغار، **قال أبو بكر لرسول الله** ﷺ: «مكانك يا رسول الله؛ حتى أستبرئ لك الغار (أي أتأكد من سلامته)»، فدخل فاستبرأه، ثم تذكر أنه لم يستبرئ الحجر الذي فيه، **فقال:** «مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ، فدخل فاستبرأ، ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل الرسول ﷺ إلى الغار»(2).

أما المشركون فقد انطلقوا بعد أن علموا بخروج النبي ﷺ، ينتشرون في طريق المدينة، ويفتشون عنه في كل المظانِّ، حتى وصلوا إلى غار ثور، وسمع الرسول وصاحبه أقدام المشركين تخفق من حولهم، فأخذ الروع أبا بكرٍ، وهمس يحدث النبي ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. **فأجابه** ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»(3)، وفي هذا نزل قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة:40]، فأعمى الله أبصار المشركين، ولم يخطر ببال واحدٍ منهم أن يتساءل عما يكون بداخله (4).

وذلك من حماية الله له ولصاحبه، وقد روى أحمد أن قريشًا اقتفوا أثرهما، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، **فقالوا:** لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه(5).

---

(1) البداية والنهاية 3/219-220.

(2) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (4318)، **وقال:** (هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، لولا إرسال فيه)، ورواه البيهقي في (دلائل النبوة)، ج2، ص 476.

(3) رواه البخاري (4545)؛ ومسلم (6122)؛ وأحمد (12)، والترمذي (3200).

(4) البوطي: فقه السيرة، ص 196.

(5) **قال ابن كثير:** وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت. **انظر:** البداية والنهاية، 3/222.

وروى الطبراني أن رجلًا من المشركين، جاء إلى فم الغار، وجلس يتبول، مستقبلًا رسول الله ﷺ بعورته، **فقال أبو بكر:** (يا رسول الله، إنه يرانا)، فقال: «كلا، إن ملائكة تسترنا بأجنحتها، لو كان يرانا ما فعل هذا».

فبالرغم من كل الجهد البشري في التمويه والإخفاء والسرية، فلقد وصلت قريش إلى مكان اختفاء رسول الله ﷺ، والظاهر أنهم كانوا يبحثون في كل جبال مكة، لكن الذي نود **قوله:** إنه حين ينتهي الجهد البشري المطلوب، وحين تستنفد الطاقة البشرية، فالله تعالى أرحم بنبيه ﷺ وصاحبه من أن يجعلهما ظفرًا لعدوهما(1).

ثلاثة أيام في الغار:

أقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام ومعه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن الخروج إلى أي مكان في الأيام الأولى يجعلهما عرضة للوقوع في قبضة قريش، كما أن المدة الزمنية هذه كانت مرتبطة - ارتباطًا وثيقًا - بالمعلومات المقدمة من عبد الله بن أبي بكر عن خفة الطلب عليهما، كما أن الاستقرار أكثر من ثلاثة أيام قد يلفت النظر من الآخرين حين يتكرر المرور عليهما من أسماء وعبد الله كل يوم(2).

الخروج من الغار:

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: «واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلًا من بني الدئل، هاديًا خريتًا - **والخريت:** الماهر بالهداية - وهو على دين كفار قريش، يسمى عبد الله بن أريقط، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق الساحل(3).

المبحث الثاني: إلى المدينة

مسار الركب المبارك:

قدر رسول الله ﷺ أن المشركين لن يألوا جهدًا في تتبعه، فالتزم في سيره جانب المحاذرة، وأعانته والركب معه مهارة الدليل الذي استأجره على سلوك دروب لم تعتدها القوافل، ثم أطلق

(1) الغضبان، المنهج الحركي، ص 191.

(2) المصدر السابق.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، 3/226.

الزمام للرواحل، فمضت تصل الليل بالنهار[1].

فلم يكتف رسول الله ﷺ بالإقامة ثلاث ليالٍ في الغار، بل سار بهم الدليل بعيدًا عن الأنظار باتجاه اليمن، ثم انحرف إلى طريق المدينة، واختار الطرق الفرعية غير المأهولة، وغير المألوفة للناس؛ إمعانًا في السرية والبعد عن الأنظار [2].

ومع أخذه ﷺ بكل الأسباب التي في مقدور البشر، ظل لسانه ﷺ رطبًا بالدعاء، بينما كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكثر الالتفات؛ حرصًا منه على سلامة الرسول ﷺ[3].

صخرة تظل الركب:

روى البخاري، عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق، لا يمر فيه أحد، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل، لم تأت عليها الشمس، فنزلنا عنده، وسويت للنبي ﷺ مكانًا بيدي، ينام عليه، وبسطت عليه فروة، **وقلت:** نم يا رسول الله، وأنا أنفض لك ما حولك، فنام، وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل الذي أردنا (أي: يريد الظل)، **فقلت له:** لمن أنت يا غلام؟ **فقال:** لرجل من أهل المدينة أو مكة. **قلت:** أفي غنمك لبن؟ **قال:** نعم. **قلت:** أفتحلب؟ **قال:** نعم. فأخذ شاة، **فقلت:** انفض الضرع من التراب والشعر والقذي. فحلب في كعب كثبة من لبن، ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ يرتوي منها، يشرب ويتوضأ، فأتيت النبي ﷺ، فكرهت أن أوقظه، فوافقته حين استيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله، **فقلت:** اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيت، ثم **قال:** ألم يأن الرحيل، **قلت:** بلى، **قال:** فارتحلنا [4].

هاد يهديني الطريق:

وكان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيخًا (أي أدركه الشيب)، معروفًا للناس؛ لأنه كان كثير التردد على الطريق الذي يمر بالمدينة في أسفار تجارته، وكان النبي ﷺ شابًّا (أي لم يلحقه

---

(1) الغزالي، فقه السيرة، ص 175.

(2) الغضبان، المنهج الحركي، ص 194.

(3) **انظر:** البخاري/ الفتح (15/95/ حديث 3906).

(4) صحيح البخاري (3537).

الشيب) لا يُعرف، فيلقى الرجل أبا بكر وهو يعرفه، **فيقول:** يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ **فيقول:** هذا رجلٌ يهديني السبيل، فيحسب السامع أنه يعني الطريق المحسوس، وإنما يعني الصِدِّيق طريق الخير والهداية.

أم معبد:

ومر رسول الله ﷺ وركبه المبارك في مسيره بخيمتي أم معبد الخزاعية، وقد روى البيهقي وابن خزيمة والحاكم والطبراني وغيرهم، عن أخي أم معبد (حُبيش) صاحب رسول الله ﷺ، **قال:** لما خرج رسول الله ﷺ، ومعه أبو بكر، وعامر بن فهيرة، وابن أريقط يدلهم على الطريق، مرُّوا «بقديد» على أم معبد: عاتكة بنت خالد بن خليد الخزاعية، وكانت برزة[1] جلدة[2]، تحتبي بفناء القبة[3]، ثم تسقي وتطعم من يمر بها، وكان القوم مُرْملين[4] مُسْنتين[5]، **فسألوها:** هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها، فلم يجدوا عندها شيئًا،

وقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى[6].

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة[7] خلَّفها الجهد[8] عن الغنم، فسألها رسول الله ﷺ: «هل بها من لبن؟»، فقالت: هي أجهد من ذلك، فقال: «أتأذنين لي أن أحلبها؟ فقالت: نعم، بأبي أنت وأمي إن رأيت حَلَبًا فأحلبها. فدعا بالشاة فاعتقلها[9]، ومسح ضرعها – وفي رواية: وظهرها – وسمَّى الله – وفي رواية: ودعا لها في شائها –فتفاجَّت[10]، ودرَّت، ودعا بإناء يربض الرهط[11]، فحلب فيه ثجًا[12]، وسقى القوم حتى رووا، وسقى أم معبد حتى رويت، ثم شرب آخرهم، وقال: «ساقي القوم آخرهم شربًا»، ثم حلب فيه مرة أخرى، فشربوا

---

(1) مسنة.

(2) قوية.

(3) **القبة:** الخيمة.

(4) نفدت أزوادهم.

(5) أصابتهم سنة، أي جدب.

(6) **القرى:** إكرام الضيف، **أي:** ما منعناه عنكم.

(7) جانب الخيمة.

(8) المشقة والهزال.

(9) وضع رجلها بين ساقه وفخذه.

(10) فتحت ما بين رجليها كما هو شأن الغنم إذا حلبت.

(11) **أي:** يشبع الجماعة.

(12) **أي:** حلبًا كثيرًا.

عَلَلًا بعد نَهَل[1]، ثم حلب فيه آخرًا، وغادره عندها -**وفي رواية أنه قال لها أن:** «ارفعي هذا لأبي معبد إذا جاءك» - ثم ركبوا، وذهبوا.

فقلما لبث أن جاء أبو معبد زوجها يسوق أعنزًا عجافًا، يتساوكن هزلًا[2] لا نَقي بهن[3]، فلما رأى اللبن أبو معبد عجب، **وقال:** ما هذا يا أم معبد؟ أنَّى لك هذا؟! والشاء عازب[4] حيال[5] ولا حلوب بالبيت!

فقالت: لا - والله - إلَّا أنه مرَّ بنا رجل مبارك، فمن حاله كذا وكذا. **فقال:** صِفيه يا أم معبد، **فقالت:** رأيت رجلًا ظاهر الوضاءة مبلغ الوجه[6]، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة[7]، ولم تَزْرِ به صعلة[8]، وسيم قسيم، في عينيه دعج[9]، وفي أشفاره وطف[10]، وفي صوته صحل[11]، أحور[12]، أكحل[13]، أزج[14]، أقرن[15]، شديد سواد الشعر، في عنقه سطح[16]، وفي لحيته كثاثة[17]، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن[18]، حلو المنطق، فصل[19]، لا نَزْر[20]، ولا هذر[21]، أجهر الناس[22]، وأجمله من

(1) **النهل:** الشربة الأولى، **والعلل:** الشربة الثانية.
(2) يتمايلن في مشيتهن من الهزال.
(3) **النقي:** مخ العظام، **أي:** مخهن قليل.
(4) **العازب:** بعيدة المرعى.
(5) **الحيال:** التي ليس بها حمل.
(6) مشرق الوجه.
(7) **ثجلة:** كبر البطن.
(8) صغر الرأس.
(9) شدة سواد العينين.
(10) **أشفاره:** رموش عينيه، **وطف:** طول وغزارة.
(11) ليس في صوته غلظ.
(12) **الحور:** شدة بياض العينين، وشدة سواد سوادهما.
(13) **الكحل:** سواد في أجفان العينين خِلْقَة.
(14) دقيق الحاجبين في طول.
(15) مقرون الحاجبين.
(16) ارتفاع وطول.
(17) غزارة.
(18) **أي:** كلام متناسق متصل، يشبه في تناسقه الدر، وفي تواليه الخرزات إذا تتابعت.
(19) **أي:** كلام بيِّن يفصل الحق من الباطل.
(20) قليل الكلام.
(21) كثير الكلام.
(22) أرفعهم صوتًا.

بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، رَبْعة لا تشنؤه[1] من طول، ولا تقتحمه[2] عين من قِصَر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفُّون به[3]، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا لأمره محفود محشود [4]، لا عابس، ولا مفنَّد[5].

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لاتَّبعته، ولأجهدنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلًا [6].

وقد روي أنها كثرت غنمها ونمت حتى جلبت منها جَلَبًا إلى المدينة، فمر أبو بكر، فرآه ابنها فعرفه، **فقال:** يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه، فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أوما تدرين من هو؟ **قالت:** لا، قال: هو نبي الله، فأدخلها عليه، فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها - **وفي رواية:** فانطلقت معي وأهدت لرسول الله ﷺ شيئًا من أقط ومتاع الأعراب، فكساها وأعطاها، **قال:** ولا أعلمه إلَّا **قال:** وأسلمت.

وذكر صاحب «الوفاء» أنها هاجرت هي وزوجها، وأسلما، **وفي شرح السنة للبغوي:** هاجرت هي وزوجها، وأسلم أخوها حبيش، واستشهد يوم الفتح [7].

سراقة بن مالك:

كانت قريش قد جعلت لمن يأتي بمحمد ﷺ حيًّا أو ميتًا وصاحبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ما قيمته دية كل واحد منهما (مائة ناقة)؛ مما حمل سراقة بن مالك على متابعة النبي ﷺ.

وإليك القصة كما رواها سراقة:

قال ابن شهاب: فأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي، وهو ابن أخي سراقة، أن أباه أخبره، أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم، **يقول:** جاءنا رسل كفار قريش، يجعلون في رسول الله ﷺ

---

(1) لا يبغض لفرط طوله.

(2) لا تتجاوزه إلى غيره؛ ازدراء له وإعراضًا.

(3) يحيطون به.

(4) **محفود:** مخدوم، **محشود:** عنده حشد، وهم الجماعة.

(5) مقطب الوجه، **والمفنِّد:** الذي يكثر من اللوم.

(6) البداية والنهاية، ج3، ص 192-193.

(7) **انظر:** السيرة النبوية لأبي شهبة، ج1، ص 489-490.

وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج؛ إذ أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس.

فقال: يا سراقة إني رأيت آنفًا أسودة بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، **فقلت له:** إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت بيتي، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، وهي من وراء أكمة (تل)، فتحبسها عليَّ، وأخذت رمحي، فخرجت من ظهر البيت، فخططت بزجة الأرض، وخفضت عالية، حتى أتيت فرسي فركبتها، فدفعتها، ففرت بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت (وقعت) عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام[1]، فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟

فخرج الذي أكره (ألا أتبعهم)، فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، فجعل فرسي يقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي حتى بلغت الركبتين (أي: غاصت في الرمل)، فخررت عنها فأهويت، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة؛ إذ لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت الأزلام فخرج الذي أكره (أي: عدم تتبع النبي ﷺ).

فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ.

فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم (أي: رسول الله ﷺ ومن معه) أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع.

فلم يرزآني ولم يسألاني إلَّا أن **قالا:** اخف عنا.

فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب لي رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

---

(1) سبق شرحها في الباب الثاني من الكتاب، وكان سراقة إذا استقسم بالأزلام خرج له ما يدعوه إلى ترك النبي ﷺ، وعدم تتبعه، فيخالف ذلك.

وقد روى محمد بن إسحاق عن الزهري، عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم عن أبيه، عن عمه سراقة، فذكر هذه القصة، إلَّا أنه ذكر أنه استقسم بالأزلام أول ما خرج من منزله، فخرج السهم الذي يكره «لا يضره»، وذكر أنه عثر به فرسه أربع مرات، وكل ذلك يستقسم بالأزلام، ويخرج الذي يكره «لا يضره»، حتى ناداهم بالأمان.

وسأل أن يكتب له كتابًا يكون أمارة ما بينه وبين رسول الله ﷺ، **قال:** فكتب لي كتابًا في عظم - أو رقعة أو خرقة - وذكر أنه جاء به إلى رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة، مرجعه من حصار الطائف، **فقال له:** «يوم وفاء وبر، أدنه»، فدنوت منه وأسلمت.

ولما رجع سراقة جعل لا يلقى أحدًا من الطلب (من يتتبعون رسول الله ﷺ)، إلَّا ردَّه، **وقال:** كفيتم هذا الوجه (أي: بحثت فلم أجده في هذه الجهة)، فلما ظهر أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة، جعل سراقة يقص على الناس ما رأى وما شاهد من أمر النبي ﷺ، وما كان من قضية جواده، واشتهر هذا عنه.

فخاف رؤساء قريش معرته، وخشوا أن يكون ذلك سببًا لإسلام كثير منهم، وكان سراقة أمير بني مدلج ورئيسهم، **فكتب أبو جهل - لعنة الله - إليهم:**

بني مدلج إني أخاف سفيهكم ... سراقة مستغو لنصر محمد

عليكم به ألَّا يفرق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عز وسؤدد

قال: فقال سراقة بن مالك - يجيب أبا جهل في قوله هذا:

أبا حكم والله لو كنت شاهدًا ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه

عجيب ولم تشكك بأن محمدًا ... رسول وبرهان فمن ذا يقاومه

عليك فكف القوم عنه فإنني ... أخال لنا يومًا ستبدو معالمه

بأمر تودَّ النصر فيه فإنهم ... وإن جميع الناس طرا مسالمه[1]

الدعوة على طريق الهجرة:

إن كانت أسفار الصحراء توهي العمالقة الآمنين، فكيف بركب مهدر الدم، مستباح الحق، يصبح ويمسي وسط وهاد ونجاد لا تنتهي حتى تبدأ، مع قلةٍ في الزاد والري، وتحت أشعةٍ

---

(1) البداية والنهاية 228/3، وذكر هذا الشعر: الأموي في (مغازيه)، بسنده عن أبي إسحاق، وقد رواه أبو نعيم بسنده، من طريق زياد عن ابن إسحاق، وزاد في شعر أبي جهل أبياتًا تتضمن كفرًا بليغًا.

للشمس بيضاء تنعكس على الرمال، فتكاد تخطف الأبصار؟!، ورسول الله ﷺ يومئذ قد بلغ الثالثة والخمسين، خرج لرعاية رسالته، التي تشبثت بأرض يثرب جذورها، بعدما تبرمت مكة بها وبصاحبها، وبمن حوله!![1].

خرج وهو أرسخ أهل الأرض يقينًا في ربه، وأحرصهم على هداية خلقه؛ فهو الرحمة المهداة، والنعمة المسداة ، والسراج المنير، وهو أفضل الداعين إلى الله على بصيرةٍ عبر تاريخ البشر؛ لذا فقد كانت الدعوة إلى الله دائمًا هدفه، فرغم أن الظروف على الطريق إلى المدينة لم تكن ظروفًا مؤهلة للدعوة، إلَّا أن الهدف السامي دائمًا ما يتجاوز الظروف الصعبة، والداعي الأعظم ﷺ كان دائمًا على أهبة الاستعداد لتبليغ الرسالة:

(أ) إسلام لصين:

عندما وصلوا (العرج) احتاجوا للاستفسار عن الطريق، فدلهم أحد القاطنين على الطريق وبين لهم أن الطريق القريب عليه لصان من قبيلة أسلم، **يقال لهما:** (المهانان)، ولم يبال رسول الله ﷺ بهما، وعندما لقيهما عرض عليهما الإسلام، فأسلما[2]، ثم سألهما عن أسمائهما، **فقالا:** نحن المهانان، **فقال:** (بل أنتما المكرمان) وأمرهما أن يقدما عليه المدينة[3].

وفي إسلام هذين اللصين دليل على سرعة إقبال النفوس على اتباع الحق إذا وجد من يمثله بصدق وإخلاص، وتجردت نفس السامع من الهوى المنحرف، وفي اهتمام رسول الله ﷺ بتغيير اسمي هذين اللصين من المهانين إلى المكرمين، دليل على اهتمامه ﷺ بسمعة المسلمين، ومراعاته مشاعرهم؛ إكرامًا لهم، ورفعًا لشأنهم[4].

(ب) إسلام راعي الغنم:

روى البيهقي عن قيس بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفين، مروا بعبد يرعى غنمًا، فاستسقياه اللبن، **فقال:** ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 176 بتصرف.

(2) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 282.

(3) أخرج القصة عبد الله بن الإمام أحمد، في زوائده على المسند (74/4).

(4) الصلابي: السيرة النبوية، ص 287.

عناقًا حملت أول الشتاء، وقد أخدجت وما بقي لها من لبن، فقال: «ادع بها»، فدعا بها، فاعتقلها النبي ﷺ، ومسح ضرعها ودعا، حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن، فحلب فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم جلس فشرب.

فقال الراعي: بالله من أنت؟! فوالله ما رأيت مثلك قط!

قال: «أوتراك تكتم علي حتى أخبرك؟».

قال: نعم!

قال: «فإني محمد رسول الله».

فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ؟

قال: «إنهم ليقولون ذلك؟».

قال: فإني أشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك.

قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، فإذا بلغك أني قد ظهرت فائتنا»[1].

(ج) إسلام بريدة بن الحصيب الأسلمي وقومه :

ولقي ركب الهجرة عند (الغميم) بريدة بن الحصيب الأسلمي - زعيم قومه حينذاك - وكان قد خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر؛ أملًا في الفوز بالجائزة المعلنة من قريش، وعندما التقى برسول الله ﷺ وحدثه الرسول ﷺ في أمر الإسلام، أسلم، وأسلم معه زهاء ثمانين بيتًا معه (**وقيل:** سبعين)[2]، وبات بريدة مع الرسول ﷺ، وفي الصباح **قال بريدة:** «يا رسول الله، لا تدخل المدينة إلَّا ومعك لواء، فحل عمامته، ثم شدها في رمح، ثم مشى بين يديه حتى دخل المدينة[3].

---

(1) **أي:** امكث في قومك؛ حتى إذا علمت باستقرار الأمر لي وانتصاري وظهور أمري فائتنا؛ كي لا يلحقك الأذى إن أسلمت الآن.

(2) رواه الحاكم في مستدركه (4323)؛ والبيهقي في دلائل النبوة، ج2، ص 497.

(3) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 284.

وقد حَسُن إسلام بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة، وأصبح من الدعاة إلى الإسلام، وفتح الله لقومه (أسلم) على يديه أبواب الهداية[1]، قال ﷺ: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما أني لم أقلها، ولكن قالها الله عز وجل»[2].

وكان لانضمام قافلة جديدة إلى موكب الإيمان من قبيلة أسلم، الأثر الكبير في تقوية دعوة الإسلام؛ فلم تعد المدينة وحدها صاحبة اللواء الإسلامي المرفوع؛ إذ انضم إليها حليف قوي بهذا التجمع الكبير والجمهرة الضخمة[3].

تفاؤل النبي ﷺ:

كان رسول الله ﷺ يتفاءل دائمًا، ولا يتطير أبدًا، وقد روى أبو نعيم، عن إياس بن مالك بن أوس الأسلمي، عن أبيه، **قال:** لما هاجر رسول الله ﷺ وأبو بكر، مروا بإبل لنا بالجحفة، فقال رسول الله ﷺ: «لمن هذه الإبل؟».

فقال: لرجل من أسلم.

فالتفت إلى أبي بكر، **فقال:** «سلمت إن شاء الله»، فقال: «ما اسمك؟»

قال: مسعود.

فالتفت إلى أبي بكر، **فقال:** (سعدت إن شاء الله).

قال: فأتاه أبي، فحمله على جمل يقال له: ابن الرداء[4].

وقد حمل أوس بن حجر الأسلمي (كما ذكر ابن إسحاق) رسول الله ﷺ على جمله (الرداء) هذه إلى المدينة، وبعث معه غلامه مسعودًا؛ دليلًا، حتى قدم به ﷺ وبصاحبه قباء على بني عمرو بن عوف، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، يوم الاثنين، حين اشتد الضحاء، وكادت الشمس تعتدل[5].

---

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص 281.

(2) رواه البخاري (3437)؛ ومسلم (6385)؛ وأحمد (4697)، واللفظ لمسلم.

(3) الغضبان: المنهج الحركي، ص 199.

(4) البداية والنهاية (3/ 233).

(5) المصدر السابق.

لقاء مع أحبة:

ومما وقع في الطريق إلى المدينة، أنه ﷺ لقي الزبير بن العوام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في ركب من المسلمين، كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسى الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ثيابًا بيضاء[1]، وكذا روى أصحاب السير أن طلحة بن عبيد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لقيهما أيضًا وهو عائد من الشام، وكساهما بعض الثياب[2].

المبحث الثالث: الوصول إلى المدينة

ذكرنا من قبل حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وفيه أن رسول الله ﷺ خرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، قال ابن كثير: (والظاهر أن بين خروجه من مكة ودخوله المدينة خمسة عشر يومًا؛ لأنه أقام بغار ثور ثلاثة أيام، ثم سلك طريق الساحل، وهي أبعد من الطريق الجادة[3].

وذكر أيضًا أنه ﷺ قدم قباء مع صاحبه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وركبهما المبارك لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، يوم الاثنين، حين اشتد الضحاء، وكادت الشمس تعتدل[4].

أما المباركفوري فقد حدد وصوله ﷺ إلى قباء: (في يوم الاثنين 8 ربيع الأول سنة 14 من النبوة، وهي السنة الأولى من الهجرة، الموافق 23 سبتمبر سنة 622م)[5].

استقبال الأنصار للحبيب ﷺ:

سمع الأنصار بخروج رسول الله ﷺ من مكة، وهم يتنظرونه أكثر من انتظار الصائمين لهلال العيد، وكانوا يخرجون كل يوم إذا صلوا الصبح إلى ظاهرة المدينة؛ يتنظرون رسول الله ﷺ، فما يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال (أي: حتى تشتد الشمس ويختفي الظل)، فيدخلون بيوتهم، وكان الزمن زمن صيف وحر. وقدم رسول الله ﷺ حين دخل الناس البيوت[6]، فلما

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة ج3، ص 1420.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 495، **وانظر:** فتح الباري، ج1، ص 193.

(3) البداية والنهاية (3/ 233).

(4) المصدر السابق.

(5) الرحيق المختوم، ص 190.

(6) أبو الحسن الندوي: سيرة خاتم النبيين ﷺ، ص 119-120.

أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم (تل من تلالهم) لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه، فلم يملك أن **قال بأعلى صوته:** يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون.

وقد روى ذلك ابن إسحاق عن رجال من أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: لما بلغنا مخرج النبي ﷺ من مكة، وتوكفنا قدومه، كنا نخرج إذا صلينا الصبح، إلى ظاهرة حرتنا؛ ننتظر النبي ﷺ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلًّا دخلنا - وذلك في أيام حارة - حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ، جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذ لم يبق ظل دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا، **فصرخ بأعلى صوته:** يا بني قيلة! هذا جدكم قد جاء، فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة، ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظله بردائه، فعرفناه عند ذلك(1).

وروى الإمام أحمد، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إني لأسعى في الغلمان **يقولون:** جاء محمد (يتوهمون ذلك من شدة الترقب)، فأسعى ولا أرى شيئًا، ثم **يقولون:** جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئًا، **قال:** حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، فكَمِنا في بعض خراب المدينة، ثم بعثنا رجلًا من أهل البادية يؤذن (يستطلع ويُخبر) بهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار (خارج المدينة)، حتى انتهوا إليهما، **فقالت الأنصار:** انطلقا آمنين مطاعين .. فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة، حتى أن العواتق (النساء) لفوق البيوت يتراءينه، **يقلن:** أيهم هو؟ فما رأينا منظرًا شبيهًا به.

قال أنس: فلقد رأيته يوم دخل علينا (مهاجرًا) ويوم قبض .. فلم أر يومين شبيهًا بهما.

وفي الصحيحين، عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث الهجرة، **قال:** «... وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت، **والغلمان والخدم يقولون:** الله أكبر، جاء رسول الله، الله أكبر، جاء محمد، الله أكبر، جاء محمد، الله أكبر، جاء رسول الله».

---

(1) البداية والنهاية (3/240).

وقد ثار الأنصار إلى السلاح؛ ليتلقوا رسول الله ﷺ، وأحدقوا به مطيفين حوله(1)، **وجعل النساء والصبيان يقلن:**

طلـــــع البـــــدر علينـــــا مـــــن ثنيـــــات الـــــوداع

وجـــــب الـــــشكر علينـــــا مـــــا دعـــــا لله داع (2)

ويا عجبًا لنقائض الحياة، واختلاف الناس! إن الذي شهرت مكة سلاحها لتقتله، ولم ترجع عنه إلَّا مقهورة، استقبلته المدينة وهي جزلانة طروب، وتنافس رجالها يعرضون عليه المنعة والعدة والعدد(3).

رسول الله ﷺ في قباء:

كانت المدينة كلها قد زحفت لاستقبال رسول الله ﷺ، وكان يومًا مشهودًا، لم تشهد المدينة مثله في تاريخها(4)، وقد عدل رسول الله ﷺ حتى نزل في بني عمرو بن عوف بقباء، على كلثوم بن الهدم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فأقام عنده أربع عشرة ليلة، وكان إذا خرج من منزله جلس للناس - كما قال ابن إسحاق - في بيت سعد بن خيثمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ وذلك أنه كان عزبًا لا أهل له، **وكان يقال لبيته:** بيت العزاب.

ونزل أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على خبيب بن إساف، أحد بني الحارث بن الخزرج بالسنح.

أما علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقد نزل مع رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهدم، وذلك بعد أن أقام بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده، ثم لحق به بقباء، بعد وصوله بليلتين أو ثلاث.

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ لما قدم قباء، أن أسس مسجد قباء؛ كي يكون للمسلمين مكانًا يصلون فيه، ويجمعهم على البر والتقوى، وهو أول مسجد بُني في الإسلام

---

(1) محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ، ص 132.

(2) رواه البيهقي، **انظر:** البداية والنهاية (3/ 241).

(3) الغزالي: فقه السنة، ص 180.

(4) المباركفوري: الرحيق المختوم.

لكافة المسلمين(1)، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

فكان مسجد قباء أول مسجد أسس على التقوى، وكان رواده أول ركب مؤمن خالص الإيمان، يعلنون التوحيد، ويرفعون راية لا إله إلَّا الله، دون خوف من سلطة قاهرة تفرض عليهم غير شعائر الإيمان. لقد كانت الصلاة في مسجد قباء نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بين عهد المحنة والخوف والمعاناة، وبين عهد التميز والمفاصلة، والعبادة الخالصة لله وحده، دون أثر للشرك والمشركين (2).

أول جمعة لرسول الله ﷺ في الإسلام:

وبعد ذلك ركب رسول الله ﷺ بأمر الله، وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ردفه، وأرسل إلى بني النجار (أخواله) فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في بطن الوادي، وكانوا مائة رجل(3)، وكانت أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ في الإسلام؛ لأنه لم يكن يتمكن هو وأصحابه بمكة من الاجتماع حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة؛ وما ذاك إلَّا لشدة مخالفة المشركين له، وأذيتهم إياه (4).

روى ابن جرير، عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي، أنه بلغه عن خطبة النبي ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل.

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط، وضل ضلالًا بعيدًا، وأوصيكم بتقوى الله؛ فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 1 - 4.

(2) الغضبان: المنهج الحركي، ص 201.

(3) رواه ابن سعد (2/236-237)، بإسناد متصل، ورجاله ثقات.

(4) البداية والنهاية (3/259).

بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى.

وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكرًا في عاجل أمره وذخرًا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد.

والذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك؛ فإنه يقول تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق]،واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية؛ فإنه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق]، ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا.

وإن تقوى الله توقي مقته، وتوقي عقوبته، وتوقي سخطه.

وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضي الرب، وترفع الدرجة، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله؛ ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، ولا قوة إلَّا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت؛ فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس؛ ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم»[1].

دخول المدينة:

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة - ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ - وكان يومًا تاريخيًّا أغر؛ فقد كانت البيوت والسكك ترتج بأصوات التحميد والتقديس، **وكانت بنات الأنصار تتغنى بهذه الأبيات فرحًا وسرورًا:**

أشرق البـــــدر علينــــا ... مـــن ثنيـــات الـــوداع

وجـــب الـــشكر علينـــا ... مـــا دعـــا لله داع

---

(1) المصدر السابق (3/259).

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

والأنصار إن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة، إلَّا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه .. فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلَّا أخذوا خطام راحلته، وهم **يقولون:** هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، **فكان يقول لهم:** خلوا سبيلها؛ فإنها مأمورة، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلًا، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار - أخواله ﷺ. وكان من توفيق الله لها؛ فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك، فجعل الناس (من بني النجار) يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ **يقول:** «المرء مع رحله»، وجاء أسعد بن زرارة، فأخذ بزمام راحلته، وكانت عنده[1].

وفي رواية أنس عند البخاري، **قال نبي الله** ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري، وهذا بابي. **قال:** «فانطلق فهيئ لنا مقيلًا»، **قال:** قوما على بركة الله[2].

وذكر موسى بن عقبة: أن رسول الله ﷺ مرَّ في طريقه بعبد الله بن أُبيّ بن سلول وهو في بيت، فوقف رسول الله ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل - وهو يومئذٍ سيد الخزرج - **فقال عبد الله:** انظر الذين دعوك فانزل عليهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار، فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه: لقد منَّ الله علينا بك يا رسول الله، وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملكه علينا [3].

يا حبذا محمد من جار:

روى البيهقي والحاكم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما دخلنا جاء الأنصار برجالها ونسائها، **فقالوا:** إلينا يا رسول الله.

---

(1) المباكفوري: الرحيق المختوم، ص 172-173.

(2) صحيح البخاري (1/556).

(3) البداية والنهاية (3/243).

فقال: «دعوا الناقة؛ فإنها مأمورة».

فبركت على باب أبي أيوب، فخرجت جوار من بني النجار يضربن بالدفوف، وهن **يقلن:**

نحـــنُ جَـــوَارِ مـــن بنـــي النجـــار   يـــا حبـــذا محمـــدٌ مـــن جـــار

فخرج إليهم رسول الله ﷺ، **فقال:** «أتحبونني؟».

فقالوا: أي، والله يا رسول الله.

فقال: «وأنا والله أحبكم، والله أحبكم، وأنا والله أحبكم» [1].

أبو أيوب الأنصاري .. الحب الصادق والأدب الجم:

روى أبو بكر بن أبي شيبة، وابن إسحاق، والإمام أحمد بن حنبل من طرق متعددة، بألفاظ متقاربة، أن أبا أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال** وهو يحدث عن أيام رسول الله ﷺ عنده: «لما نزل رسول الله ﷺ في بيتي، نزل في أسفل البيت، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في الأعلى، وننزل نحن نكون في السفل. **فقال:** يا أبا أيوب، إنه لأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في أسفل البيت. **قال:** فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، ولقد انكسرت جرّة لنا فيها ماء يومًا، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء؛ تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه، فنزلت إليه وأنا مشفق، فلم أزل أستعطفه حتى انتقل إلى العلو.

قال: وكنا نعد له العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا ردّ علينا فضله، تيممت أنا وأم أيوب موضع يده، فأكلنا منه؛ نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه، وقد جعلنا له فيه بصلًا وثومًا، فردَّه رسول الله ﷺ، ولم أر ليده فيه أثرًا، فجئته فزعًا، **فقلت:** يا رسول الله بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك، ولم أر فيه موضع يدك، وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك، أتيمم أنا وأم أيوب موضع يدك؛ نبتغي بذلك البركة. **فقال:** إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة (يعني: الثوم أو البصل)، وأنا رجل أناجي (أي: يأتيني جبريل)، فأما أنتم فكلوه. **قال:** فأكلناه، ثم لم نضع في طعامه شيئًا من الثوم أو البصل بعد[2].

---

(1) المصدر السابق (3/244).

(2) الإصابة لابن حجر (1/405)، وابن هشام (1/419)، ترتيب مسند الإمام أحمد (20/292)، وفقه السيرة للبوطي، ص (199-200).

وروى الواقدي، عن زيد بن ثابت، أنه قال: أول هدية أهديت إلى رسول الله ﷺ حين نزل دار أبي أيوب أنا جئت بها، قصعة فيها خبز مثرود بلبن وسمن، **فقلت:** أرسلت بهذه القصعة أمي، **فقال:** بارك الله فيك، ودعا أصحابه فأكلوا، ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة بها ثريد وعراق لحم، وما كانت من ليلة إلَّا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاث والأربعة يحملون الطعام يتناوبون(1).

إسلام عبد الله بن سلام:

كان عبد الله بن سلام بن الحارث حبرًا من أحبار يهود بني قينقاع، **قال عنه النووي:** وهو من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ﷺ أجمعين، وكان اسمه في الجاهلية حصينًا، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله.

وقد أسلم عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، ذلك أنه لما سمع بقدوم النبي ﷺ إلى المدينة، وعرف أن الناس قد تجمعوا لاستقباله، انطلق معهم وهو يحمل التمر الذي كان يقطفه في أرضه، فلما نظر إليه عرف أن وجهه ليس بوجه كذاب.

وقد حكى عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصة لقائه برسول الله ﷺ، **فقال:** «لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل (أسرع) الناس قِبَلهُ، **وقيل:** قد قدم رسول الله ﷺ، قد قدم رسول الله ﷺ، قد قدم رسول الله ﷺ، ثلاثًا، فجئت في الناس لأنظر، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كاذب، فكان أول شيء سمعته تكلم به، أن **قال:** «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»، فدنوت منه، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فالتفت النبي ﷺ **وقال:** «ما اسمك؟»، **فقلت:** الحصين بن سلام، فقال «بل عبد الله بن سلام»، **قلت:** نعم عبد الله بن سلام، والذي بعثك بالحق، ما أحبُّ أن لي اسمًا آخر بعد اليوم»(2).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبي ﷺ - وهو في أرض له - فأتى النبي ﷺ، **فقال:** إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلَّا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟

---

(1) البداية والنهاية (3/247).

(2) رواه الترمذي (2534).

قال: «أخبرني بهن جبريل آنفًا»، **قال:** جبريل؟ قال: «نعم»، **قال:** عدو اليهود من الملائكة.

قال: «أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق، تسوقهم إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد».

قال: أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنك رسول الله.

قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت (أي: شديدي الكذب والبهتان)، فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي.

فجاءت اليهود، **فقال:** «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟».

قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا.

قال: «أرأيتم إن أسلم؟».

قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فخرج عبد الله، **فقال:** أشهد أن لا إله إلَا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

قالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه.

قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله [1].

استقدام الأسرتين الكريمتين:

روى الواقدي عن زيد بن ثابت، **قال:** وبعث رسول الله ﷺ - وهو نازل في دار أبي أيوب - مولاه زيد بن حارثة، وأبا رافع، ومعهما بعيران وخمسمائة درهم؛ ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم - ابنتي رسول الله ﷺ - وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد (أي: من مكة)، وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان، وزينب عند زوجها بمكة أبي العاص بن الربيع، وجاءت معهم أم أيمن، امرأة زيد بن حارثة، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، وفيهم عائشة أم المؤمنين، ولم يدخل بها رسول الله ﷺ بعدُ.

---

(1) رواه البخاري (3851).

ثم دخل رسول الله ﷺ بعائشة في شوال بعد ثمانية أشهر - كما سيأتي - وقدمت معهم أسماء بنت أبي بكر، امرأة الزبير بن العوام، وهي حامل متم بعبد الله بن الزبير - كما سيأتي بيانه في موضعه من آخر هذه السنة [1].

* * *

(1) البداية والنهاية (3/247).

الفصل السادس
وقفات مع الهجرة

كانت الهجرة النبوية المباركة بدءًا للتغير في حركة التاريخ، فأسست دولة العقيدة، وأقامت المجتمع الرباني القائم بالحق والعدل، فاجتمع تحت لوائه كل من آمن بالله تعالى آنذاك؛ ليعبد ربه دون خوف من عدوٍّ يتربص به، أو كافرٍ يكمن له .. مجتمع يختلف في كل شيء عن المجتمعات التي عاصرته، ويمتاز بدرجة - بل درجات - عن كل المجتمعات التي جاءت من بعده.

ولم تكن الهجرة قرارًا مرتجلًا، جاء كرد فعل غريزي على مؤامرة المشركين لقتل الحبيب ﷺ، ولم تكن طلبًا للراحة، ولا هربًا من العدو؛ بل كانت بأمر من الله تعالى، في وقت كانت البشرية فيه أشد ما تكون فيه حاجةً لهدى الإسلام ونوره، وأحوج ما تكون فيه لدعوته وقيمه السمحاء، فكانت فتحًا مبينًا، ورفعةً وتمكينًا، وظهورًا للدين الحنيف.

ولابد لنا من وقفات مع الهجرة، نستجلي فيها بعض المعاني والمعالم الرفيعة لهذا الحدث الجلل:

الوقفة الأولى: الهجرة فارقة بين عهدين:

كان الهدف من الهجرة، هو الانتقال بالرسالة من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الدولة، فكان انتقالًا هائلًا من مرحلة كان هدفها تربية الفرد المسلم، إلى مرحلةٍ هدفها تكوين المجتمع وإقامة الدولة، وانتقالًا بالرسالة من كونها مجرد عبادة وعقيدة إلى نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا: دولة ووطن، وحكومة وأمة، وخلق وقوة، ورحمة وعدالة، وعلم وقضاء، وجهاد ودعوة، وجيش وفكرة، مع كونه عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواءً بسواء.

وكان الهدف من الهجرة أيضًا، الانتقال بتجمع المؤمنين من الانحدار إلى الانتصار، ومن الانحصار إلى الانتشار، ومن الحركة محدودة الآثار إلى الحركة عالية الأهداف: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف].

الوقفة الثانية: فضل المهاجرين:

لم تكن الهجرة سفرًا قاصدًا بين مكانين للتنعم والاسترواح، ولا مشيًا في مناكب الأرض طلبًا للرزق، أو فرارًا من شر محذور إلى خير منظور، إنما كانت الهجرة للمهاجرين تركًا للوطن والمال والعشيرة؛ نهوضًا بحقوق الدين الذي اعتنقوه وثبتوا على صراطه رغم الإيذاء والفتن، فلما طالبهم دينهم بالهجرة هاجروا، واستجابوا لنداء الله ورسوله ﷺ، غير خائفين ولا جزعين، وقد ترفعت عن المآرب هممهم، وأخلصوا لله طواياهم، وذهلوا عن متاع الدنيا، فلم يخرجوا من ديارهم لأنهم كانوا طرفًا في صراع على عرض من أعراضها التي تشتجر فيها الأطماع، وتتعارض فيها المصالح، إنما كانت العقيدة وحدها هي التي من أجلها يخرجون: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج:40].

وكانوا في ذلك من الصادقين: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ [الحشر]، وما كان لهم من رجاء من وراء ذلك كله إلَّا رحمة ربهم ومغفرته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة]، فنالوا الفضل وأصابوا أعظم الدرجات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [التوبة]، ووعدهم ربهم - وهو الذي لا يخلف الميعاد - برضوان منه ونعيم مقيم: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾ [التوبة].

الوقفة الثالثة: المتخلفون عن الهجرة:

إن الذين ظلوا قاعدين في دار الكفر لا يهاجرون، تمسك بهم أموالهم ومصالحهم، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق، وهم قادرون لو أرادوا واعتزموا التضحية أن يهاجروا، توعدهم ربهم سوء المصير والعذاب الأليم[1]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ [النساء].

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

ثم يستثني من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر، والتعرض للفتنة في الدين، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشيوخ الضعاف والنساء والأطفال، فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته؛ بسبب عذرهم البين وعجزهم عن الفرار: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [النساء].

لقد كان هذا النص يواجه حالة واقعة في الجزيرة العربية، في مكة وغيرها، بعد هجرة رسول الله ﷺ وقيام الدولة المسلمة؛ فقد كان هناك مسلمون لم يهاجروا، حبستهم أموالهم ومصالحهم؛ حيث لم يكن المشركون يدعون مهاجرًا يحمل معه شيئًا من ماله، أو حبسهم إشفاقهم وخوفهم من مشاق الهجرة، حيث لم يكن المشركون يدعون مسلمًا يهاجر حتى يمنعوه ويرصدوا له في الطريق .. وجماعة حبسهم عجزهم الحقيقي من الشيوخ والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة للهرب، ولا يجدون سبيلًا للهجرة.

وقد اشتد أذى المشركين لهؤلاء الباقين من أفراد المسلمين، وفتن بعضهم عن دينهم فعلًا، واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر تقية، ومشاركة المشركين عبادتهم .. وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها متى استطاعوا، فأما بعد قيام الدولة، ووجود دار الإسلام، فإن الخضوع للفتنة، أو الالتجاء للتقية وفي الوسع الهجرة والجهر بالإسلام، والحياة في دار الإسلام، أمر غير مقبول.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** «كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب (قُتل) بعضهم، فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ [النساء:97] .. الآية، قال: فكُتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، لا عذر لهم، **قال:** فخرجوا فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة (أي نطقوا بالكفر)، فنزلت فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت]، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [النحل][1].

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص 297.

الوقفة الرابعة: فضل الأنصار:

تكشف لنا الصورة التي استقبلت بها المدينة المنورة رسول الله ﷺ عن مدى المحبة الشديدة التي كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالًا ونساءً وأطفالًا، ولقد بادلهم رسول الله ﷺ المحبة ذاتها، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صبي لها، فكلمها رسول الله ﷺ، **فقال:** «والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إليَّ» مرتين[1].

ولذا، فلا يبغض الأنصار مؤمن، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ **قال:** «لا يبغض الأنصار رجلٌ يؤمن بالله ورسوله» [2]، بل بغضهم آية من آيات النفاق، كما روى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ **قال:** «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[3]، وكما روى أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ **قال:** «حب الأنصار إيمان، وبغضهم نفاق» [4].

ومن أحب الأنصار أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله، كما روى يزيد بن جارية الأنصاري، أنه كان جالسًا في نفرٍ من الأنصار، فخرج عليهم معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسألهم عن حديثهم، **فقالوا:** كنا في حديث من حديث الأنصار، **فقال معاوية:** ألا أزيدكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب الأنصار، أحبه الله عز وجل، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله ﷻ»[5].

وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** سمعت النبي ﷺ يقول: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلَّا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله» [6].

---

(1) رواه البخاري (3699).

(2) رواه أحمد (11062)؛ ومسلم (200) بلفظ «يؤمن بالله واليوم الآخر».

(3) رواه البخاري (17)؛ ومسلم (197).

(4) رواه أحمد (11425).

(5) رواه أحمد (16552).

(6) رواه البخاري (3696)، واللفظ له؛ ومسلم (199).

وعن عبد الله بن زيد، أن رسول الله ﷺ لما فتح حنينًا، قسم الغنائم، فأعطى المؤلفة قلوبهم، فبلغه أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس، فقام رسول الله ﷺ فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم **قال:** «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ ومتفرقين فجمعكم الله بي؟»، **ويقولون:** الله ورسوله أَمَنّ. **فقال:** «ألا تجيبوني؟»، **فقالوا:** الله ورسوله أَمَنّ. **فقال:** «أما إنكم لو شئتم أن تقولوا كذا وكذان وكان من أمر كذا وكذا» لأشياء عددها، **فقال:** «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، الأنصار شعار (ما ولي جسد الإنسان من ثياب)، والناس دثار (الثوب الذي يكون فوق الشعار)، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، وإنكم ستلقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» (1).

وخلاصة القول: أن الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قد تفردوا بصفات لولا أنها وقعت بالفعل لحسبها الناس رؤًى مجنحة ومُثلًا عليا، قد صاغها خيال محلق، فقد تبوأوا الإيمان وكأنه دارهم ونزلهم ووطنهم، الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، ويثوبون إليه ويطمئنون له، ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثًا جماعيًّا كحادث استقبالهم للمهاجرين بهذ الحب الكريم والبذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء (2). قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر].

الوقفة الخامسة: القرآن والهجرة:

أشار الشيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ملمح مهم في تنزل آيات القرآن الكريم تعليقًا على الهجرة وأحداثها، ذلك أننا ألفنا أن يتنزل القرآن تعليقًا على ما يكون من أحداث، فيوجه المسلمين التوجيه الذي يفتقرون إليه، فإن كان نصرًا بين أسبابه، وكسر الغرور الذي قد يصاحب المنتصرين، وإن كانت هزيمة بين أسبابها، ومسح التراب الذي عفر جباه المنهزمين.

---

(1) رواه مسلم (2399)، واللفظ له؛ والبخاري (4227).

(2) سيد قطب: في ظلال القرآن.

لقد نزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر، ونزلت سورة الأحزاب في أعقاب الخندق، ونزل النصف الأخير من سورة آل عمران في أعقاب أحد .. فهل نزلت في أعقاب الهجرة سورة، لاسيما بعد نجاح رحلتها كما حدث في أعقاب الغزوات؟

لم يقع هذا، ولكن وقع ما هو أخطر وأهم .. كأن الله سبحانه وتعالى حكم بأن قصة الهجرة أكبر من أن تعلق عليها سورة واحدة، وأن تمر مناسبتها بهذا التعقيب وينتهي الأمر، فحكم - جل شأنه - بأن تكون ذكرى الهجرة قصة تؤخذ العبرة منها على امتداد الأيام، وتذكر في أمور كثيرة، وفي مناسبات مختلفة؛ لذا فإنها لم تذكر في سورة واحدة مثل المعارك؛ لأن هذه المعارك استغرقت أيامًا قليلة، أما الهجرة فشأن آخر .. لقد ظلت أفواج المهاجرين متصلة سنين عددًا، وتَطَلَّب التعليق عليها مواضع عدة؛ ومن ثم ذكرت الهجرة في سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنفال، والتوبة، والنحل، والحج، والممتحنة، والتغابن، والحشر .. وكان التعليق في كل سورة إبرازًا لمعنى مقصود.

الوقفة السادسة: لماذا هاجر النبي ﷺ سرًّا؟:

قد يخطر في بال المسلم أن يقارن بين هجرة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهجرة النبي ﷺ، **ويتساءل:** لماذا هاجر عمر علانية متحديًا المشركين دون أي خوف ووجل، على حين هاجر رسول الله ﷺ مستخفيًا محتاطًا لنفسه؟ أيكون عمر بن الخطاب أشد جرأة من النبي عليه الصلاة والسلام؟!

والجواب: أن عمر بن الخطاب، أو أي مسلم آخر غير رسول الله ﷺ، يعدّ تصرفه تصرفًا شخصيًّا، لا حجة تشريعية فيه، فله أن يتخير من الطرق والوسائل والأساليب ما يحلو له، وما يتفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى ..

أما رسول الله ﷺ، فهو مشرّع، أي أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعًا لنا؛ ولذلك كانت سنته التي هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريره .. فلو أنه فعل كما فعل عمر، لحسب الناس أن هذا هو الواجب! .. وأنه لا يجوز أخذ الحيطة والحذر، والتخفي عند الخوف، مع أن الله ﷻ أقام شريعته في هذه الدنيا على مقتضى الأسباب ومسبباتها، وإن كان الواقع الذي لاشك فيه، أن ذلك بتسبيب الله تعالى وإرادته.

لأجل ذلك، استعمل الرسول ﷺ كل الأساليب والوسائل المادية التي يهتدي إليها العقل البشري في مثل هذا العمل، حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل إلَّا اعتدّ بها واستعملها، فترك علي بن أبي طالب ينام في فراشه، ويتغطى ببرده، واستعان بأحد المشركين - بعد أن أمنه - ليدله على الطرق الفرعية التي قد لا تخطر في بال الأعداء، وأقام في الغار ثلاثة أيام متخفيًا، إلى آخر ما عبّأه من الاحتياطات المادية التي قد يفكر بها العقل؛

ليوضح بذلك أن الإيمان بالله ﷻ لا ينافي استعمال الأسباب المادية التي أراد الله ﷻ - بعظيم حكمته - أن يجعلها أسبابًا.

وليس قيامه بذلك بسبب خوف في نفسه، أو شك في إمكان وقوعه في قبضة المشركين قبل وصوله المدينة. والدليل على ذلك أنه ﷺ، بعدما استنفد الأسباب المادية كلها، وتحلق المشركون حول الغار الذي يختبئ فيه رسول الله ﷺ وصاحبه، بحيث لو نظر أحدهم عند قدمه لأبصر الرسول ﷺ، استبد الخوف بقلب أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، على حين كان يطمئنه ﷺ **قائلًا:** «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»، ولقد كان من مقتضى اعتماده على كل تلك الاحتياطات أن يشعر بشيء من الخوف والجزع في تلك الحال.

لقد كان كل ما فعله من تلك الاحتياطات - إذن - وظيفة تشريعية قام بها، فلما انتهى من أدائها، عاد قلبه مرتبطًا بالله ﷻ، معتمدًا على حمايته وتوفيقه؛ ليعلم المسلمون أن الاعتماد في كل أمر لا ينبغي أن يكون إلَّا على الله ﷻ، ولكن لا ينافي ذلك احترام الأسباب التي جعلها الله في هذا الكون أسبابًا [1].

الوقفة السابعة: إجماع الصحابة على التأريخ بالهجرة:

أجمع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على أهمية الهجرة كحدثٍ فارقٍ في تاريخ الإسلام، بل وفي تاريخ البشرية جمعاء، فقرروا أن يؤرخوا بها بعد أن استعرضوا الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام؛ من ميلاد النبي ﷺ ونزول الوحي، ووفاته ﷺ .. بل واستعرضوا تاريخ الأمم الأخرى، فما وجدوا كالهجرة حدثًا يؤرخ به؛ ففيه كان ظهور الإسلام وإعزاز المسلمين وقيام دولتهم.

وكان العمل بالتأريخ الهجري في السنة السادسة عشر (وقيل السابعة عشر) في خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(1) فقه السيرة للبوطي، ص 201-202.

أخرج البخاري عن سهل بن سعد، **قال:** ما عدوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته، ما عدوا إلَا من مقدمه المدينة(1).

وأخرج أبو نعيم في (تاريخه): «أن أبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ، فجمع عمر الناس، **فقال بعضهم:** أرخ بالمبعث، **وبعضهم قال:** أرخ بالهجرة، **فقال عمر:** الهجرة فرقت بين الحق والباطل، فأرخوا بها، وذلك سنة سبع عشرة، فلما اتفقوا **قال بعضهم:** ابدءوا برمضان، **فقال عمر:** بل بالمحرم؛ فإنه منصرف الناس من حجهم، فاتفقوا عليه». وعن سعيد بن المسيب، **قال:** جمع عمر الناس، فسألهم عن أول يوم يكتب التاريخ، **فقال علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من يوم هاجر رسول الله ﷺ، وترك أرض الشرك، ففعله عمر(2).

وروى ابن أبي خيثمة، من طريق ابن سيرين، **قال:** قدم رجل من اليمن، **فقال:** رأيت باليمن شيئًا يسمونه التاريخ، من عام كذا وشهر كذا، **فقال عمر:** هذا حسن، فأرخوا، فلما أجمع على ذلك، **قال قوم:** أرخوا للمولد، **وقال قائل:** للمبعث، **وقال قائل:** من حين خرج مهاجرًا، **وقال قائل:** من حين توفي، **فقال عمر:** أرخوا من خروجه من مكة إلى المدينة، ثم قال: بأي شهر نبدأ؟ **فقال قوم:** من رجب، **وقال قائل:** من رمضان، **فقال عثمان:** أرخوا من المحرم؛ فإنه شهر حرام، وهو أول السنة، ومنصرف الناس من الحج، **قال:** وكان ذلك سنة سبع عشرة، **وقيل:** سنة ست عشرة في ربيع الأول.

وروى أحمد، والبخاري في الأدب، من طريق ميمون بن مهران، **قال:** رفع لعمر صك محله شعبان، **فقال:** أي شعبان؟، الماضي أو الذي نحن فيه، أو الآتي؟ ضعوا للناس شيئًا يعرفون فيه حلول ديونهم، **فيقال:** إنهم أراد بعضهم أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم، كلما هلك ملك أرخوا من تاريخ ولاية الذي بعده، فكرهوا ذلك.

ومنهم من **قال:** أرخوا بتاريخ الروم من زمان الإسكندر، فكرهوا ذلك، **وقال قائلون:** أرخوا من مولد رسول الله ﷺ، وقال آخرون من مبعثه ﷺ، وأشار علي بن أبي طالب وآخرون أن يؤرخ من هجرته من مكة إلى المدينة؛ لظهوره لكل أحد؛ فإنه أظهر من المولد والمبعث،

---

(1) **انظر:** الفتح (314/7).

(2) رواه الحاكم في المستدرك (15/3)، ح(4335).

فاستحسن ذلك عمر والصحابة، فأمر عمر أن يؤرخ من هجرة الرسول ﷺ، وأرخوا من أول تلك السنة من محرمها.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد أبدى بعضهم للبداءة بالهجرة مناسبة، **فقال:** كانت القضايا التي اتفقت له، ويمكن أن يؤرخ بها أربعة: مولده ﷺ ومبعثه وهجرته ووفاته، فرجح عندهم جعلها الهجرة؛ لأن المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع في تعيين السنة، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه؛ لما تُوقع بذكره من الأسف (الحزن) عليه، فانحصر في الهجرة، وإنما أخروه من ربيع الأول إلى المحرم؛ لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم؛ إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجة وهي مقدمة الهجرة، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم، فناسب أن يُجعل مبتدأ، وهو أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم.

الوقفة الثامنة: هل انقطعت الهجرة الآن؟:

لما كانت الهجرة مَنْقَبةٌ، يسمو بها الأولون، فقد صارت أمنية يتمناها الآخِرون، الذين فاتهم أن يكونوا من السابقين بالمهاجرة، أو الفائزين بالمناصرة.

وحصر هؤلاء الهجرة في مفهومها التاريخي، وهو انتقال النبي ﷺ وأصحابه الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فرارًا بدينهم من مكة إلى المدينة .. ولكن رسول الله ﷺ أخبرنا أن الخير الذي انقطع بانقطاع الهجرة، يمكن تحصيله بالجهاد والنية الصالحة، فقد صح عنه ﷺ في غير ما حديث، أن الهجرة قد انقطعت بفتح مكة، وبقي الجهاد (بكل صوره) ونيته، فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ **قال يوم فتح مكة:** «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[1]، **وقد قالت عائشة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حين سألها عُبيد بن عمير الليثي عن الهجرة: «إنما كانت الهجرة قبل فتح مكة، والنبي ﷺ بالمدينة، أما اليوم فلا هجرة، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ؛ مخافة أن يُفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربه حيث يشاء، ولكن جهاد ونية»[2].

قال بعض أهل العلم: كانت الهجرة فرضًا في الإسلام على من أسلم، وكان قادرًا عليها؛ ليسلم من أذى الكفار، ويأمن على دينه، وليعاون إخوانه المسلمين ويُكثرهم، ثم ليجاهد مع

(1) أخرجه البخاري (2724)، ومسلم (4787).

(2) رواه البخاري في المغازي (4312).

النبي ﷺ، ويتعلم منه شرائع الإسلام وأحكامه، وقد قطع الله تعالى الموالاة والنصرة بين من هاجر ومن لم يهاجر، فقال عز شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال:72]. ومازال الأمر كذلك حتى فُتحت مكة، فنسخ فرض الهجرة، وبقي فرض الجهاد والنية[1].

وقد قال ﷺ: «إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد»[2].

وتوسع العلماء في الهجرة الباقية، فذكروا أنها هي هجر السوء وتركه في أي موضع كان، واستدلوا بحديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ **قال:** «العبادة في الهرج (أي وقت الفتن والقتل) كهجرةٍ إليّ»[3]، وبحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند البخاري ومسلم، أن النبي ﷺ **قال:** «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، **وقالوا:** لأن الهجر هو بغض الشيء وتركه، ومنه سمي بالمهاجر من أبغض بلده لكونها بلاد كفر، وانتقل منها إلى بلاد الإسلام، فيكون من هجر ما نهى الله عنه لبغضه له مهاجرًا، وكذلك أيضًا من هجر ما نهى الله عنه، مع وجود الدوافع في نفسه، والميل إلى فعله، يصدق عليه أنه مهاجر؛ لأنه يكف نفسه ويمسكها، ويهجر المحرمات؛ لعلمه أن في فعلها إثمًا، فيكون بذلك له أجر المهاجر.

واستدلوا أيضًا بما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، أنه **قال:** «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»[4]، **وبقوله** ﷺ في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[5].

وقالوا: الهجرة تطلق على معنيين: الأول: هجرة المكان، والثاني: هجرة الحال.

---

(1) الشيخ طه محمد الساكت: لا هجرة بعد الفتح.

(2) أخرجه أحمد (4787) من حديث جنادة بن أبي أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في السلسلة الصحيحة (1674).

(3) أخرجه مسلم (7349)، والترمذي (2232).

(4) رواه أحمد (7066)، والنسائي (4979)، **وقال الألباني:** حسن صحيح.

(5) من حديث فضالة بن عبيد، أخرجه أحمد (23575)؛ وابن حبان (4770)؛ وابن ماجه (4020).

فالهجرة المكانية:

هي الانتقال من دار الكفر التي يغلب الكفر على أهلها وعلى أحكامها وعلى حكامها، ولا يستطيع المسلم فيها أن يقيم شعائر دينه، ولا يأمن فيها على دينه ونفسه وعرضه، فينتقل من هذا المكان ومن هذه الدار إلى دار أخرى، انتفت فيها هذه المثالب، ويستطيع أن يقيم فيها آمنًا على دينه ونفسه وعرضه، وهذا النوع من الهجرة هو ما حصل من النبي ﷺ ومن المسلمين عندما انتقلوا من مكة المكرمة إلى المدينة النبوية، وهو لا ينقطع إلى يوم القيامة، وهو ما عناه النبي ﷺ في حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه ﷺ **قال:** «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»(1).

ففي العهود والأوقات والأماكن التي يضعف فيها أهل الإسلام والإيمان، وتضعف شوكة أهل الصلاح، ويقوى عليهم أهل الشر والفساد، فعلى المسلم أن يبحث عن مكان وبيئة أصلح من هذه، فيهاجر إليها، ويترك هذا المكان الذي تسلط فيه أهل الضلال وقويت شوكتهم.

أما هجرة الحال:

فهي أن يهجر المسلم السيئات والمعاصي، وأن ينتقل من حال المعصية، والبعد عن الله، ومخالفة أمره، والتجرؤ على حرماته، إلى حال آخر، وهو حال الإقلاع عن المعاصي والذنوب، وحال القرب من الله، والوقوف عند حدوده (2) وفي حديث فديك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه **قال:** يا رسول الله، إنهم يزعمون أنه من لم يهاجر هلك، **فقال** ﷺ: «يا فديك، أقم الصلاة، وآت الزكاة، واهجر السوء، واسكن من أرض قومك حيث شئت، تكن مهاجرًا»(3).

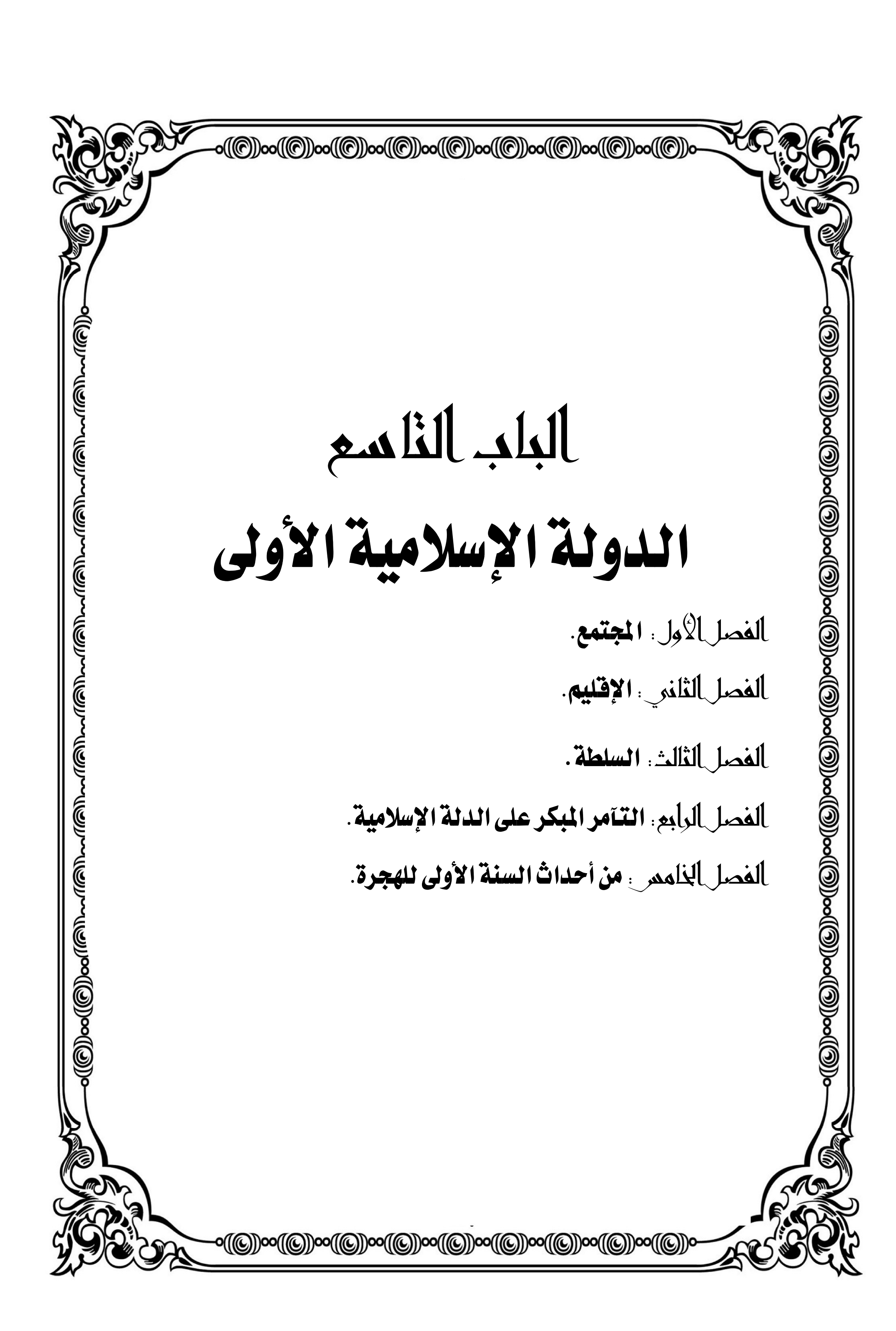
***

---

(1) أخرجه أحمد (16586)، والدارمي (2/151) وأبو داود (2480).

(2) الشيخ عبد الرزاق عفيفي، شرح حديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ...».

(3) رواه ابن حبان (2480)، والبيهقي (18137).



الباب التاسع

الدولة الإسلامية الأولى

الفصل الأول: **المجتمع.**

الفصل الثاني: **الإقليم.**

الفصل الثالث: **السلطة.**

الفصل الرابع: **التآمر المبكر على الدلة الإسلامية.**

الفصل الخامس: **من أحداث السنة الأولى للهجرة.**

الباب التاسع

الدولة الإسلامية الأولى

اختلف فقهاء النظم السياسية المعاصرون في تعريف الدولة اختلافًا بينًا؛ ويرجع ذلك إلى اختلاف المعايير التي يستندون إليها في وصف تجمع ما بصفة الدولة:

- فمنهم من عرفها بأنها مجموعة من الأفراد، مستقرة على إقليم معين، ولها من التنظيم ما يجعل للجماعة في مواجهة الأفراد سلطة عليا آمرة وقاهرة[1].

- ومنهم من اعتبر أن أي مجتمع يوجد فيه حكام ومحكومين فهو دولة، سواء أكان هذا المجتمع بدائيًّا أم متطورًا[2].

- ومنهم من حدد الدولة بالشخص المعنوي، الذي يمثل قانون أمة تقطن أرضًا معينة، ولكنهم رغم اختلافهم هذا، اتفقوا جميعًا على أن للدولة أركانًا ثلاثة، لابد من توافرها حتى تنشأ الدولة من الناحية الواقعية:

1- جماعة بشرية (شعب).

2- إقليم تقيم عليه هذه الجماعة البشرية (وعلى ذلك فالقبائل الرحل التي لا تستقر بصفة دائمة في مكان لا تعتبر دولة).

3- سلطة سياسية حاكمة، يخضع لها جميع أفراد الجماعة البشرية في الإقليم، وتكون مهمتها الإشراف على الإقليم، وإدارة شئون الجماعة.

وسنجد أن هذه الأركان الثلاثة قد توافرت للدولة الإسلامية الأولى في المدينة، ولكن بتميز لم تعرف البشرية له مثيلًا.

* * *

---

(1) كارياري ملبيرج.

(2) ديجي.

الفصل الأول

المجتمع

كان المجتمع الإسلامي الأول فريدًا في كل شيء؛ فريدًا في عقيدته، وفي إفراده لربه بالعبادة والخضوع: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام].

فريدًا في أخلاقه .. فلا يتمرغ في أوحال الدنس والفواحش، بل ويمتنع عن كل ما يؤدي إليها؛ من نظرة حرام، أو اختلاط ماجن، أو خلوة غير مشروعة.

فريدًا في عاداته وتقاليده .. فريدًا في ترابطه وحب أفراده بعضهم لبعض: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:103]، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[الأنفال] ..

فريدًا في التعاون والتراحم ومساعدة المحتاج والمسكين، والأرملة واليتيم، وتنفيس الكرب عن المكروبين .. «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»(1).

مجتمع يشذ عنه من لم يرحم الصغير ويحترم الكبير: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يوقر كبيرنا»(2).

مجتمع روحه الإسلام؛ فهو الذي أحياه من موات، وجمعه من شتات، وهداه من ضلالة، وعلمه من جهالة، وأخرجه من الظلمات إلى النور، وجعل منه أمة، هي خير أمةٍ أخرجت للناس .. **وقد قام هذا المجتمع على أسس ثلاث:**

الأساس الأول: توثيق الصلة بالله.

---

(1) رواه البخاري (2399)؛ ومسلم (6530).

(2) رواه أحمد (6714)، والترمذي (1923) واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الجامع (5444).

الأساس الثاني: توثيق صلة المسلمين بعضهم ببعض (المؤاخاة).

الاساس الثالث: عقد اجتماعي عادل بين كل الطوائف.

الأساس الأول: توثيق الصلة بالله:

شاء الله ﷻ أن تكون المدينة المنورة هي المهد الأول الذي مكن فيه لدينه ولنبيه ﷺ. فكان لزامًا أن يكون المسجد أول ثمار هذا التمكين، وفاتحة عهد الدولة المسلمة، فلقد ألزمه ربُه، وألزم المؤمنين بإقام الصلاة متى مكن لهم: ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾** ﴾ [الحج]، فجاء بناء المسجد تعبيرًا عن هذا الالتزام، وإعلانًا عن عزم الوفاء به.

وكان المسجد الذي وجه الرسول ﷺ همته إلى بنائه - قبل أي عمل آخر بالمدينة - رمزًا لما يكترث له الإسلام أعظم اكتراث، ويتشبث به أشد تشبث، وهو وصل العباد بربهم وصلًا يتجدد مع الزمن، ويتكرر آناء الليل والنهار، فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد، وتجهل اليوم الآخر، وتخلط المعروف بالمنكر. والحضارة التي جاء بها الإسلام تُذكِّر أبدًا بالله، وبلقائه، وتمسك بالمعروف وتبغض في المنكر، وتقف على حدود الله [1].

وكان المسجد محضنًا لتربية المجتمع الأول تربيةً توثق صلته بربه؛ لأن الذي لا يعرف لله حقه لا يعرف للخلق حقوقهم.

بناء المسجد:

بركت ناقة الرسول ﷺ في موضع كان لغلامين يتيمين من الأنصار، وكان أسعد بن زرارة قد اتخذه مصلّى قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، فكان يصلّي بأصحابه فيه، فأمر رسول الله ﷺ أن يبنى ذلك الموضع مسجدًا، ودعا الغلامين - وكانا في كفالة أسعد بن زرارة رضي الله عنه - فسام (أي ناقشهم في الثمن) رسول الله ﷺ فيه، **فقالا:** بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ، حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير[2]. وذكر الواقدي أن أبا بكر رضي الله عنه **دفعها** لهما عن رسول الله ﷺ.

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 190.

(2) رواه البخاري (4/ 258)، وليس فيه أن الرسول ﷺ ابتاعه بعشرة دنانير، إنما جاء ذلك عند موسى بن عقبة.

وكان فيه شجر غرقد ونخل وقبور قديمة لبعض المشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنُبشت، وبالنخيل والشجر فقُطعت، وصفّت في قبلة المسجد، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه، ثم بنوه باللبن، وكان رسول الله ﷺ يباشر البناء مع أصحابه، وينقل معهم الحجارة بنفسه، وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل عُمُدَه الجذوع، وسقَفَه بالجريد. **وقيل له:** «ألا نسقفه؟».

فقال: «عريش كعريش موسى؛ خشيبات وثمام - نبت ضعيف قصير - الشأن أعجل من ذلك»[1] .. أما أرضه، فقد بقيت مفروشة بالرمال والحصباء.

وروى البخاري في صحيحه، عن أنس بن مالك، أنه ﷺ كان يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، **قال:** «ثم إنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ من بني النجار فجاءوا، **فقال:** يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا، **فقالوا:** لا والله، لا نطلب ثمنه إلَّا إلى الله، **فقال أنس:** فكان فيه ما أقول لكم: كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، ثم بالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، **قال:** فصفوا النخل قبلة المسجد، قال: وجعلوا عضادتيه حجارة، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم، وهو ي**قول:** اللّٰهم لا خير إلَّا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة»[2].

وكان ﷺ يقول:

هـــذا الحـــمال لا حمـــال خيـــبر   هـــذا أبـــر ربنـــا وأطهـــر

وجعلوا يرتجزون، **ويقول أحدهم في رجزه:**

ولـــئن قعـــدنا والرســـول يعمـــل   لـــذاك منـــا العمـــل المـــضلل[3]

عمار بن ياسر .. تقتله الفئة الباغية:

وروى عبد الرزاق، عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، **قالت:** لما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يبنون

---

(1) طبقات ابن سعد (2/ 5).

(2) رواه البخاري (4011)، ومسلم (1125)، انظر: البوطي: فقه السيرة، ص 211-213.

(3) محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول ﷺ، ص 136.

المسجد، جعل أصحاب النبي ﷺ يحمل كل واحد لبنة لبنة، وعمار يحمل لبنتين؛ لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ، فمسح ظهره، **وقال:** «ابن سمية، للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لَبن، وتقتلك الفئة الباغية»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قال:** كنا نحمل في بناء المسجد لبنة لبنة، وعمار يحمل لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ فجعل ينفض التراب عنه، **ويقول:** «ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»، **قال: يقول عمار:** أعوذ بالله من الفتن[2].

وهذا الحديث من (دلائل النبوة)؛ حيث أخبر - صلوات الله وسلامه عليه - عن عمار أنه تقتله الفئة الباغية، وقد قتله أهل الشام في وقعة صفين، وعمار مع علي وأهل العراق.

المنبر:

ولم يكن في مسجد النبي ﷺ - أول ما بني - منبر يخطب الناس عليه، بل كان النبي ﷺ يخطب الناس وهو مستند إلى جذع عند مصلاه في الحائط القبلي، فلما اتخذ له عَلَيْهِ السَّلَامُ المنبر - كما سيأتي بيانه في موضعه - وعدل إليه ليخطب عليه، خار ذلك الجذع وحن حنين النوق العشار؛ لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ عنده، فرجع إليه النبي ﷺ، فاحتضنه، حتى سكن كما يسكن المولود الذي يسكت، وما أحسن ما **قال الحسن البصري**، بعدما روى هذا الحديث، عن أنس بن مالك: (يا معشر المسلمين: الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه، أوليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشتاقوا إليه؟!)[3].

أبواب المسجد:

أما أبواب المسجد فكانت ثلاثة:

- باب في مؤخرته من الجهة الجنوبية.

- وباب من الجهة الشرقية، كان يدخل منه النبي ﷺ، بإزاء باب بيت عائشة.

- وباب من الجهة الغربية.

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية (3/264)، **قال ابن كثير:** وهذا إسناد على شرط (الصحيحين).

(2) رواه البخاري (442)، وابن حبان (6965)، والحاكم (2694).

(3) ابن كثير: البداية والنهاية (3/264- 266).

النبي ﷺ يقدم للعمل من يجيد:

كان رسول الله ﷺ يقدم في العمل من يجيد جانبًا منه، ففي حديث طلق بن علي اليمامي الحنفي أن الرسول ﷺ كان يقول للعاملين في بناء المسجد من الصحابة: «قربوا اليمامي من الطين؛ فإنه أحسنكم له لمسًا، وأشدكم له سبكًا».

وفي رواية: «فأخذت المسحاة، فخلطت الطين، فكأنه أعجبه، فقال: «دعوا الحنفي والطين؛ فإنه أضبطكم للطين»[1].

وفي رواية البيهقي: «قربوا اليمامي من الطين؛ فإنه من أحسنكم له بناء»[2].

وكان طلق بن علي اليمامي من حضرموت، ووفد إلى المدينة، فوظف رسول الله ﷺ خبرته في خلط الطين، وفي قوة العمل، وهو درس للمسلمين في الاستفادة من الكفاءات، والتعامل الصحيح معها[3].

مدة البناء:

استغرق بناء المسجد اثني عشر يومًا، كما روى البيهقي في (الدلائل)، عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[4].

بناء الحجرات لرسول الله ﷺ:

وبني لرسول الله ﷺ حول مسجده الشريف حُجر؛ لتكون مساكن له ولأهله، وكانت مساكن قصيرة البناء، قريبة الفناء، **قال الحسن البصري** - وكان غلامًا مع أمه خيرة، مولاة أم سلمة: لقد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي.

وقال السهيلي (في الروض): كانت مساكنه ﷺ مبنية من جريد عليه طين، بعضها من حجارة مرضومة (مرصوصة)، وسقوفها كلها من جريد.

---

(1) **انظر:** الصلابي: السيرة النبوية، ص 300.

(2) ذكر هاتين الروايتين ابن حجر في الفتح (3/ 112)، **وقال:** رواه أحمد.

(3) **انظر:** السيرة النبوية، مهدي رزق الله، ص 249.

(4) المصدر السابق.

وقد حُكي عن الحسن البصري، **قال:** وكانت حُجُره من شعر مربوطة بخشب من عرعر (خشب السرو)[1]، ولم يكن لأبوابها حلق (جمع حلقة)، فكانت تقرع باليد.

وبعد اكتمالها، انتقل إليها رسول الله ﷺ، من بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .. فكان لسودة بنت زمعة رضي الله عنها بيت، وآخر لعائشة رضي الله عنها، وهما أول بيتين بنيا، ثم تتابع بناء حُجُر نسائه الأخريات كلما تزوج بواحدة منهن[2].

وهكذا كانت بيوت النبي ﷺ في غاية البساطة، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية، التي كان يتخذها علية القوم، وكانوا – من تفاخرهم بها – يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أبي بن سلول اسمه مزاحمًا، وكما كان حصن حسان بن ثابت رضي الله عنه اسمه فارعًا[3].

الأذان:

قال ابن إسحاق: وقد كان رسول الله ﷺ – حين قدمها (أي المدينة) – إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجعل بوقًا كبوق يهود الذي يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس (كناقوس النصارى) فنحُت ليضرب به المسلمون للصلاة، فبينا هم على ذلك، رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة، أخو بني الحارث بن الخزرج، النداء (أي في رؤيا)، فأتى رسول الله ﷺ، **فقال:** يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف (مرَّ بي رجل)، عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوسًا في يده، **فقلت:** يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟

فقال: وما تصنع به؟

قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة.

قال: ألا أدلك على خير من ذلك؟

قلت: وما هو؟

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية (3/ 268).

(2) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 295.

(3) الصلابي: السيرة النبوية، ص 301.

قال: تقول: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلَّا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة حي على الصلاة، حي على الفلاح حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلَّا الله».

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ، **قال:** «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها؛ فإنه أندى صوتًا منك».

فلما أذن بها بلال سمعه عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه، وهو **يقول:** يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى.

فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد على ذلك» (1).

وعند أبي داود، أنه علَّمه الإقامة، **قال:** ثم تقول إذا أقمت الصلاة:

قال الزهري: وزاد بلال في نداء صلاة الغداة (الفجر): «الصلاة خير من النوم» مرتين، فأقرها رسول الله ﷺ.

وكان من يؤذن بالمدينة على عهد رسول الله ﷺ بلال بن رباح، وعبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان الأذان في البداءة من مكان مرتفع، ثم استحدثت المنارة (المئذنة).

مكانة المسجد في المجتمع الأول:

كان المسجد هو حجر الزاوية في حياة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .. يجدون فيه أنفسهم، وقد اصطفوا خلف رسول الله ﷺ قدمًا بقدم، ومنكبًا بمنكب، يتوجهون إلى خالقهم وكلهم توبة وإنابة؛ استمطارًا للرحمة والبركات، وطلبًا لرفع الآلام والأحزان، واستنزالًا للنصر والتمكين.

ولم تكن الأعذار تُقبل في التخلف عن الصلاة فيه، إلَّا في ظروف ضيقة ومحدودة للغاية، فما قيمة الحياة كلها إذا خلت من السعي المشكور، والعمل المبرور؟!، وما تغني الدنيا بأيامها المعدودة، وأعوامها المحدودة إذا لم يُقَدم المرء بين يديه أو يخلف من ورائه من الصالحات ما يشفع له عند مولاه؟!.. ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾ [النور].

---

(1) رواه أحمد (16166)، وأبو داود (499)، والترمذي (189)، وابن ماجه (736)، وابن خزيمة (366)، وصححه الترمذي وابن ماجه وغيرهما.

وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد، هي لب الإسلام .. فكان المسجد ملتقى المسلمين، من غاب سألوا عنه، فإن علموه مريضًا عادوه، وإن كان في ضيق أو حاجة واسوه، وقضوا حاجته .. فيه أقام فقراء المهاجرين، فُحمل إليهم الطعام والكساء، وفيه كان المأوى لعابري السبيل، وفيه كانت مداواة المرضى، وكان مكانًا للأفراح وتربية الأبناء والترفيه في غير إسفاف .. يجتمعون فيه لأمور دينهم ودنياهم، وتدور حياتهم في مجملها من حوله. **قال ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «... فإن النبي ﷺ أسس مسجده المبارك على التقوى؛ ففيه الصلاة والذكر والقراءة، وتعليم العلم والخطب، وفيه عقد الألوية، وتأمير الأمراء، وتعريف العرفاء، فيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم»[1].

وكانت سياسة الأمة كلها تدار من المسجد، فتستقبل فيه الوفود، وتعقد المعاهدات وتُأخذ من داخله قرارات الحرب، وتسير منه الجيوش، وتُعقد الألوية، ويُبرم فيه كل أمر ذي بال في السلم والحرب .. (فقد كان المسجد على عهده ﷺ عرين أسود، ورياض جهاد، ومقر قيادة أركان الجند، ومجلس شوراهم؛ ذلك أن بيت الله أحق البيوت أن يُنطلق منها ويُرجع إليها، ويُتجمع فيها»[2].

الأساس الثاني: توثيق صلة المسلمين بعضهم ببعض (المؤاخاة):

أولا: المؤاخاة بين المسلمين بمكة قبل الهجرة:

مما ينبغي أن يُعلم أنه كانت هناك مؤاخاة قبل هذه المؤاخاة، حدثت بين المسلمين بمكة، وهي تعتبر أول مؤاخاة في الإسلام، كان الغرض منها تقوية الأواصر والروابط بين المسلمين، وارتفاق الضعيف بالشريف، والفقير بالغني، ومن ليس من قريش بمن هو منهم؛ فالحكمة منها ظاهرة، والغرض منها شريف.

قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري شرح صحيح البخاري): (قال ابن عبد البر: كانت المؤاخاة مرتين: مرة بين المسلمين وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار ...) وهي التي كانت بالمدينة، وعني بذكرها كتَّاب السير والمؤرخون.

(1) مجموع الفتاوى، دار الكتب العلمية (35/ 95).

(2) عبد السلام ياسين: المنهاج النبوي، ص 44.

ثم **قال:** «وقعت المؤاخاة الأولى كما أخرجها الحاكم من طريق جُميع بن عمير عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** (وآخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان) .. وذكر جماعة **قال:** (فقال علي: يا رسول الله، إنك آخيت بين أصحابك فمن أخي؟ **قال:** أنا أخوك).

وقد ذكر الحافظ في الإصابة – في ترجمة سيدنا بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي ﷺ آخى بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح»، **والمراد من ذلك** المؤاخاة الأولى التي بمكة، وإلَّا فالمعروف الثابت أن النبي ﷺ آخى بين بلال وبين أبي رُويحة الخثعمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [1].

لقد انخلع كل من **قال:** «أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله في مكة من الولاء لأسرته، والولاء لعشيرته، والولاء لقبيلته، والولاء لقيادته الجاهلية، الممثلة في قريش، وأعطى ولاءه وزمامه لمحمد رسول الله ﷺ، وللتجمع الصغير الناشئ الذي قام بقيادته .. في حين وقف المجتمع الجاهلي يدفع عن وجوده الذاتي خطر هذا التجمع الجديد، الخارج عليه، يحاول سحق هذا التجمع الوليد في نشأته[2].

(آخى رسول الله ﷺ بين أعضاء هذا التجمع الوليد، أي أنه حوّل هؤلاء الأفراد الآتين من المجتمع الجاهلي أفرادًا، إلى مجتمع متكافل، تقوم رابطة العقيدة فيه مقام رابطة الدم والنسب، ويقوم الولاء لقيادته الجديدة مقام الولاء للقيادة الجاهلية، ويقوم الولاء فيه للمجتمع الجديد مقام كل ولاء سابق)[3].

ثانيًا: المؤاخاة بين المسلمين في المدينة:

التف بمحمد ﷺ فريق من الربانيين الأتقياء، كانوا له تلاميذ مخلصين، فإذا ثقلت نفوسهم عن خير دفع بها إلى الأمام، وإذا علقت بمسالكهم شهوة نقاها، فرد عليها سناءها، فزكت بصحبته نفوسهم، وشفت طبائعهم، **قال عبد الله بن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كان مستنًّا فليستن بمن مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة .. أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة؛ أبرها قلوبًا وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 52.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 52.

(3) سيد قطب: في ظلال القرآن.

فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ...»[1].

وقد أقام رسول الله ﷺ للمسلمين مجتمعهم في المدينة على الإخاء الكامل، الذي تذوب به عصبيات الجاهلية، وتسقط به فوارق النسب واللون والوطن، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلَّا الإسلام. وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير في هذا الإخاء، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال[2] ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر]، فكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين، حتى يئول الأمر إلى الاقتراع، وكانوا يحكمونهم في بيوتهم وأثاثهم وأموالهم وأرضهم وكراعهم (الخيل والبغال والحمير)، ويؤثرونهم على أنفسهم [3]، وقد روى البخاري، أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ جائعًا، فلم يجد له رسول الله ﷺ شيئًا عند زوجاته، فطلب من أصحابه استضافته، فاستضافه أنصاري لم يكن عنده إلَّا عشاء أهله وصبيانه، فأنام صبيانه، وقدم طعام أهله إلى ضيفه، وجلس معه، فأطفأت المرأة السراج، وجعلا يريانه كأنهما يأكلان، ولكنهما باتا جائعين، وفيهما نزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:9][4].

وقد بلغ الإيثار بالأنصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، أن يقول أحدهم لأخيه المهاجر: انظر شطر مالي فخذه وإلى إحدى امرأتيَّ فأطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. روى البخاري في صحيحه، أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، **فقال لعبد الرحمن:** إني أكثر الأنصار مالًا، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبها إليك فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلَّا ومعه فضل من أقط (لبن محمض) وسمن، وكان الأنصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُم قد **قالوا لرسول الله** ﷺ: «إن شئت فخذ منا منازلنا»، فقال لهم خيرًا، وابتنى لأصحابه في أرض وهبتها لهم الأنصار، وفي أرض ليست ملكًا لأحد.

---

(1) الغزالي، فقه السيرة، ص 200-201 مختصرًا.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم.

(3) أبو الحسن الندوي، سيرة خاتم النبيين ﷺ، ص 125.

(4) الفتح (14/ 271-272/ حديث: 3191).

وقالوا (أي الأنصار) أيضًا لرسول الله ﷺ: (اقسم بيننا وبينهم النخل)، قال: «لا، يكفونكم المئونة (ما يُدخر منه) ويشركونكم الثمر»، **قالوا:** سمعنا وأطعنا[1].

والسبب الذي أدى إلى تقوية هذه الأخوة بين المهاجرين والأنصار، هو أن أهل هذا المجتمع ممن التقوا على دين الله وحده، نشأهم دينهم الذي اعتنقوه على أن يقولوا ويفعلوا، وعلمهم الإيمان والعمل جميعًا، فهم أبعد ما يكونون عن الشعارات التي لا تتجاوز أطراف الألسنة. وكانوا على النحو الذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾[النور]، وذلك الذي درج عليه المسلمون، كفل البقاء والاستمرار لهذه الأخوة، التي شد الله بها أزر دينه ورسوله ﷺ، حتى آتت ثمارها في كل أطوار الدعوة طوال حياته ﷺ، وامتد أثرها بعد وفاته ﷺ؛ لذلك فإن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت نوعًا من السبق الذي اتبعه رسول الله ﷺ في تأصيل المودة، وتمكينها في مشاعر المهاجرين والأنصار، الذين سهروا جميعًا على رعاية هذه المودة وذلك الإخاء؛ بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده[2].

ميثاق المؤاخاة:

على الرغم من هذا الإيثار، أراد الشارع الكريم أن يوجد تشريعًا يعالج للمهاجرين أوضاعهم، ويشعرهم بأنهم ليسوا عالةً على إخوانهم الأنصار، فكان أن شرع ميثاق المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. وقد اختلف العلماء في وقت هذه المؤاخاة، **فقيل:** بعد الهجرة بخمسة أشهر، **وقيل:** بتسعة أشهر، **وقيل:** وهو يبني المسجد، **وقيل:** قبل بنائه، **والذي نرجحه** أن ذلك كان بعد الهجرة بقليل؛ فإن الحال كانت تدعو إلى الإسراع بهذا الإخاء؛ جمعًا للشمل، وتوثيقًا للعرى، وقطعًا لدسائس الأعداء، ولاسيما اليهود[3].

وقد آخى الشارع الكريم بين المهاجرين والأنصار مؤاخاة تقوم مقام رابطة الدم والنسب بكل مقتضياتها، بما في ذلك الإرث والديات والتعويضات التي تقوم بها رابطة الدم في الأسرة والعشيرة .. وكان حكم الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي

---

(1) البخاري، الفتح (14/ 264، حديث 3182).

(2) **انظر:** فصول في السيرة النبوية، د.عبد المنعم السيد، ص 200؛ والسيرة النبوية، للصلابي، ص 314.

(3) أبو شهبة: السيرة، ج2، ص 4.

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [الأنفال:72]؛ أولياء في النصرة، وأولياء في الإرث، وأولياء في الديات والتعويضات، وسائر ما يترتب على رابطة الدم والنسب من التزامات وعلاقات[1].

وبذلك أصبح المهاجرون والأنصار أمة واحدة من دون الناس، أما كتلة المهاجرين فكلها تجمُّع واحد، ليس على أساس الانتماء القبلي؛ وذلك لقلتهم. أما كتلة الأنصار فموزعة على تجمعات قبائلها وعشائرها، ولقد تحددت مسئولية كل فريق على حدة أمام الله تعالى، وأمام رسوله ﷺ وأمام إخوانه المؤمنين. ثم كانت المؤاخاة بين أفراد المهاجرين والأنصار، على حد التعبير النبوي: «تآخوا في الله أخوين أخوين»؛ وذلك ليتم التكافل المباشر بينهما [2].

التآخي بين أفراد المهاجرين والأنصار:

قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلًا؛ نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام.

وقال ابن سعد: آخى بين مائة وخمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار .. وليس معنى هذا أنه لم يكن التآخي إلَّا بين هذا العدد، وإنما كان هذا أول ما آخى، وصار يجددها بحسب من يأتي إلى المدينة مهاجرًا، ومن دخل في الإسلام بعد ذلك[3].

وممن سُمي ممن آخى رسول الله ﷺ بينهم من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من المهاجرين والأنصار:

المهاجر: أبو بكر الصديق مع **الأنصاري:** خارجة بن زيد.

المهاجر: عمر بن الخطاب مع **الأنصاري:** عتبان بن مالك.

المهاجر: عثمان بن عفان مع **الأنصاري:** أوس بن ثابت.

المهاجر: أبو عبيدة بن الجراح مع **الأنصاري:** سعد بن معاذ.

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

(2) الغضبان، المنهج الحركي، ص 214.

(3) أبو شهبة: السيرة النبوية.

المهاجر: عبد الرحمن بن عوف مع **الأنصاري:** سعد بن الربيع.

المهاجر: طلحة بن عبيد الله مع **الأنصاري:** كعب بن مالك.

المهاجر: سلمان الفارسي مع الأنصاري: أبو الدرداء.

المهاجر: بلال بن رباح مع **الأنصاري:** أبو رويحة.

المهاجر: مصعب بن عمير مع **الأنصاري:** أبو أيوب الأنصاري.

المهاجر: أبو حذيفة بن عتبة مع **الأنصاري:** عباد بن بشر.

المهاجر: الزبير بن العوام مع **الأنصاري:** سلمة بن سلامة بن وقش.

المهاجر: سعيد بن زيد مع **الأنصاري:** أبي بن كعب.

المهاجر: عمار بن ياسر مع **الأنصاري:** حذيفة بن اليمان.

المهاجر: حاطب بن أبي بلتعة مع **الأنصاري:** عويم بن ساعدة.

إبطال التوارث بالمؤاخاة:

لقد كانت لفترة البناء الأولى للوجود الإسلامي أحكامها الخاصة، وتكاليفها الخاصة، فلما أن استقر الوجود الإسلامي بيوم الفرقان في بدر، عدلت أحكام تلك الفترة الاستثنائية اللازمة لعملية البناء الأولى، المواجهة لتكاليفها الاستثنائية. وكان من هذه التعديلات عودة التوارث والتكافل في الديات وغيرها إلى القرابة، قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال].

فلا بأس بعد استقرار الوجود الفعلي للإسلام من أولوية ذوي القربى في داخل الإطار العام؛ حيث إن هذا يلبي جانبًا فطريًّا في النفس الإنسانية، ولا ضرر من تلبية المشاعر الفطرية في النفس الإنسانية، مادام أن ليس هناك ما يعارض هذه المشاعر من تكاليف الوجود الإسلامي .. إن الإسلام لا يحطم المشاعر الفطرية، ولكنه يضبطها؛ لتستقيم مع الحاجات العليا للوجود الإسلامي، فمتى انقضت هذه الحاجات، عاد يلبيها في إطاره العام، ومن ثم تكون لبعض الفترات

الاستثنائية تكاليفها الخاصة، التي ليست واردة في الأحكام النهائية للإسلام، التي تحكم المجتمع الإسلامي المستقر الآمن في حياته العادية .. وكذلك ينبغي أن نفقه تكاليف مرحلة البناء الأولى، وطبيعة الإسلام العامة وأحكامه الأخرى[1].

فلما عز الإسلام، وذهبت وحشة المهاجرين، وانخرطوا في الحياة، وعرفوا وسائل اكتساب الرزق، أبطل الله التوارث بالمؤاخاة، وأبقى أخوة المؤمنين[2].

روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **قال:** «كان المهاجرون – حين قدموا المدينة – يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه؛ للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ [النساء:33] نسخت، **ثم قال:** ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، أي: من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث».

الأساس الثالث: عقد اجتماعي عادل بين كل طوائف المدينة:

بعد أن أسس رسول الله ﷺ قواعد المجتمع المسلم – بتوثيق الصلة بالله، وبالمؤاخاة بين المسلمين – أراد أن ينظم العلاقات مع باقي طوائف المدينة من اليهود والمشركين، ولم يتجه فكره إلى سياسة الإقصاء أو المصادرة والخصام، بل قَبِل وجود الفريقين (اليهود والوثنية)، وعرض عليهما أن يعاهدهما معاهدة الند للند، على قاعدة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[الكافرون]، ومن خلال عقد اجتماعي، لم تعرف له البشرية من قبل مثيلًا، وتتضح فيه الالتزامات، وتتحدد الحقوق والواجبات، ويجعل المدينة دولة وفاقية بامتياز، يتعايش أهلها في وئام وسلام، ويكونون كتلة واحدة على من عاداهم.

وقد كتب رسول الله ﷺ كتابًا بهذا الشأن، عرف في المصادر القديمة باسم (الكتاب) و(الصحيفة)، وأسماه الكتاب المحدثون (الدستور) أو (الوثيقة)، ولأهمية هذه الوثيقة اعتمد عليها الباحثون المعاصرون، وجعلوها أساسًا في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ونظم الدولة الإسلامية، وعلاقتها مع الدول والملل الأخرى، والنظام السياسي في الإسلام[3].

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

(2) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 304.

(3) المصدر السابق.

الدستور:

قال محمد بن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي الأمي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب (أي: المهاجرون والأنصار)، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

1- أنهم أمة واحدة من دون الناس.

2- المهاجرون من قريش على ربعتهم (حالهم) يتعاقلون بينهم (يدفع بعضهم الدية عن بعض)، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين (والعاني هو الأسير).

3- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين».

ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار:

4- «وبنو الحارث على ربعتهم - حسب المقطع الثالث (أي: على حسب البند الثالث من هذا الكتاب الدستوري).

5- وبنو ساعدة على ربعتهم - حسب المقطع الثالث.

6- وبنو جشم على ربعتهم - حسب المقطع الثالث.

7- وبنو النجار على ربعتهم - حسب المقطع الثالث.

8- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم - حسب المقطع الثالث.

9- وبنو النبيت على ربعتهم - حسب المقطع الثالث.

10- وبنو أوس على ربعتهم - حسب المقطع الثالث.

إلى أن قال ﷺ:

11- وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا (مثقلًا بالدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل (دية).

12- ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

13- وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم.

14- ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن.

15- وأن ذمة الله واحدة: يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

16- وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا تناصر عليهم.

17- وأن سِلْمَ المؤمنين واحدة: لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلَّا على سواء وعدل بينهم (أي: لا يسالم المؤمن من يقاتل المؤمنين إلا إذا اتفق المؤمنون جميعًا على سلمهم).

18- وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا.

19- وأن المؤمنين يُبيء بعضهم بعضًا بما نال دماءهم في سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

20- وأنه لا يُجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

21- وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بينة فإنه قود به (أي: يُقتل قصاصًا)، إلَّا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه جميعًا، ولا يحل لهم إلَّا قيام عليه.

22- وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثًا (وهو الظالم الآثم)، ولا يئويه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

23- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد ﷺ.

24- وأن اليهود (في تجمعاتهم الصغيرة المرتبطة بقبائل الأوس والخزرج، مثل يهود بني عوف وبني النجار وغيرهم) يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

25- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم، إلَّا من ظلم وأثم؛ فإنه لا يوتغ إلَّا نفسه وأهل بيته.

26- وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، فيسري على طوائف اليهود المذكورين في المقاطع من (26) إلى (35).

27- وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

28- وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

29- وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

30- وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

31- وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلَّا من ظلم وأثم؛ فإنه لا يوتغ إلَّا نفسه وأهل بيته.

32- وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

33- وأن لبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم.

34- وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

35- وأن بطانة يهود كأنفسهم.

36- وأنه لا يخرج منهم أحد إلَّا بإذن محمد، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته، إلَّا من ظلم، وأن الله على أبر هذا.

37- وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

38- وأن اليهود (في قبائلهم الكبيرة، مثل بني قينقاع والنضير وقريظة) ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

39- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

40- وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

41- وأنه لا تجار حرمة إلَّا بإذن أهلها.

42- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

43- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

44- وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

45- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلَّا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

46- وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلَّا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

47- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلَّا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

كذا أورده ابن إسحاق بنحوه»[1].

نظرات في الدستور:

نظم دستور المدينة في دولة الإسلام الأولى العلاقات بين أبناء المجتمع - على اختلاف دياناتهم وأصولهم وأجناسهم - بما يحفظ حقوق الجميع، ويحقق العدل التام بينهم، ويرسخ مبدأ (المواطنة) بمعناه الحقيقي .. فكل سكان المدينة - على اختلاف طوائفهم - مواطنون، وهم أمةٌ مع المؤمنين ماداموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، واختلاف الدين لا يُنقص من الحقوق شيئًا.

وأعلت الصحيفة من شأن الحريات - بكل ألوانها (حرية الاعتقاد، حرية العبادة، حرية التملك ...)، ومن شأن العدالة والمساواة واحترام حقوق الإنسان .. فالكل أمام الشرع والقضاء والأحكام سواء، دونما تفريق بسبب الأصل أو الجنس أو الثروة والجاه.

وقد ترسخ ذلك كله من خلال مواد متكاملة مترابطة شاملة، على غير مثال سابق عرفه العرب، بل والبشرية كلها، وقبل أن يصل إلى ذلك الغرب المعاصر (وبشكل منقوص معيب) بقرون طويلة.

وإن كان للدستور الإسلامي الأول هذه المبادئ المجتمعية السامية، فقد كان له أيضًا معالم أساسية، **نوجزها فيما يلي:**

---

(1) البداية والنهاية 3/ 273-276.

أولا: تحديد مفهوم الأمة:

تضمن دستور المدينة مبادئ عامة، درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها، وفي طليعة هذه المبادئ، تحديد مفهوم الأمة، فالأمة في دستور المدينة تضم المسلمين جميعًا مهاجريهم وأنصارهم، ومن تبعهم ممن لحق بهم وجاهد معهم، فهم أمة واحدة من دون الناس، وهذا شيء جديد - كل الجدة - في تاريخ الحياة السياسية في جزيرة العرب؛ إذ نقل الرسول ﷺ قومه من شعار القبلية والتبعية لها، إلى شعار الأمة التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد، فلقد قالت الصحيفة عنهم إنهم: (أمة واحدة). وقد جاء به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء].

وبهذا الاسم الذي أطلق على جماعة من المسلمين والمؤمنين، ومن تبعهم من أهل يثرب، اندمج المسلمون - على اختلاف قبائلهم - في هذه الجماعة التي ترتبط بينها برابطة الإسلام، فهم يتكافلون فيما بينهم، وهم ينصرون المظلوم على الظالم، وهم يرعون حقوق القرابة والمحبة والجوار، ويرتبطون برابطة العقيدة وليس الدم، فيتحد شعورهم، وتتحد أفكارهم، وتتحد قبلتهم ووجهتهم، وولاؤهم لله وليس للقبيلة، واحتكامهم للشرع وليس للعرف، وهم يتمايزون بذلك كله عن بقية الناس: (من دون الناس)؛ فهذه الروابط تقتصر على المسلمين، ولا تشمل غيرهم من اليهود والحلفاء[1].

ثانيًا: الأخوة:

وهي صلة هذه الأمة التي أعلنها الدستور ببعضها بعضًا، فقد أقامها رسول الله ﷺ على الإخاء الكامل، الذي لا يرى الفرد لنفسه فيه كيانًا إلَّا بإخوانه، فيتحرك بروح جماعتهم ومصلحتها وآمالها، وتسقط بينه وبين إخوانه فوارق النسب واللون والوطن. وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا، لا لفظًا فارغًا، وعملًا يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص 328.

والإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة، فحيث يشيع الجهل والنقص والجبن والبخل والجشع، لا يمكن أن يصح إخاء، أو تترعرع محبة، ولولا أن أصحاب رسول الله ﷺ قد اجتمعوا على مبادئ رضية، وشمائل نقية، ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله. فسُموّ الغاية التي التقوا عليها، وجلال الأسوة التي قادتهم إليها، نميا فيهم خلال الفضل والشرف، ولم يدعا مكانًا لخلة رديئة[1].

ثالثًا: العلاقة مع المشركين:

وضع الدستور الإسلامي الأول في مواده مادةً تحكم علاقة الأفراد الباقين على شركهم في المدينة مع المجتمع المسلم: «وأنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلًا، فإنه قود به (أي يُقتل قصاصًا)، إلَّا أن يرضى ولي المقتول...»، وبذلك حفظ لهم حقوقهم، وحدد واجباتهم، وحصر العداء في قريش فقط، فيجب التناصر ضدها، ويُمتنع التحالف معها.

رابعًا: العلاقة مع اليهود:

تناول دستور المدينة العلاقة بين المسلمين وبين اليهود؛ حيث عالجت النصوص نوعين من التجمعات اليهودية:

النوع الأول: وهي التجمعات اليهودية الصغيرة المرتبطة بتجمع القبيلة الكبير (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين)، فنفقات الحرب التي تقع على القبيلة توزع على أفرادها مسلمين ومشركين ويهود.

النوع الثاني: ويعالج وضع التجمعات اليهودية الكبيرة، وهو أقرب ما يكون لأن يمثل الحلف السياسي، فاليهود هنا تجمعات كبيرة ضخمة، لهم سلطانهم الخاص وأراضيهم وقلاعهم وبيوتهم. وبالرغم من أن البنود قصيرة جدًّا وهي تخصهم بالذات، لكنها ذات أهمية خاصة (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) فهو النص السابق نفسه من حيث النفقة للتجمعات الصغيرة، (وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم)؛ إذ رأينا من قبل أن التجمعات اليهودية الصغيرة تشارك بمقدار ما يلحقها في كيان قبيلتها العام. أما هنا فالتجمعات اليهودية الضخمة تشارك في النفقات بما يوازي ويناسب نفقات المسلمين جميعًا من قريش ويثرب، فعلى

(1) الغزالي: فقة السيرة، ص 192-193 مختصرًا.

اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم (وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة)، ومع أنه لم يكن بين قريش واليهود أدنى ثارات قديمة أو دماء أو خلاف، لكن قريشًا حين تهدد المسلمين فهي بهذا تهدد يثرب كلها، ومن أجل هذا عليهم أن يلبوا طلب قيادة المدينة حين تطلب منهم ذلك، وكان بالإمكان أن يمضي هذا الأمر طيلة العهد النبوي بعد أن أخذ شرعية وجوده من التعاقد مع رسول الله ﷺ .. لكن اليهود - وطبيعتهم الأساسية في نقض المواثيق - طغت عليهم، فتم عقابهم على ضوء نقضهم لهذه المواثيق [1].

* * *

(1) منير الغضبان: المنهج الحركي، ص 281-282.

الفصل الثاني

الإقليم

الإقليم هو الركن الثاني من أركان الدولة، وقد جاء في دستور المدينة: (وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ...)، وقد أرسل النبي ﷺ أصحابه ليحددوا حرم المدينة بين لابيتها شرقًا وغربًا، وبين جبل ثور شمالًا وجبل عير جنوبًا.

ثم اتسع الإقليم بعد ذلك؛ ليشمل جزيرة العرب كلها في حياة رسول الله ﷺ، ثم البلاد التي فتحها أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من بعده؛ حيث صارت المدينة عاصمة للدولة، ومن حولها أمصارٌ تدين لسلطتها بالولاء.

ورغم المحدودية الجغرافية الواضحة لإقليم الدولة المسلمة الأولى بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، إلا أن هذا (الإقليم) كان بمثابة مركز النور في الأرض، الذي انطلقت منه قوافل الدعاة والفاتحين؛ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

تغيير اسم الإقليم:

سبق أن ذكرنا أن كلمة (يثرب) في اللغة مشتقة من (التثريب)، ومعناه اللوم الشديد، أو الإفساد والتخليط، فلما هاجر رسول الله ﷺ إليها وأقام الدولة، غير هذا الاسم، ووجه المسلمين إلى عدم استخدامه، ووردت في ذلك أحاديث عدة، منها حديث في مسند الإمام أحمد: «من قال للمدينة يثرب، فليستغفر الله»[1].

فسماها ﷺ «المدينة»، فهو القائل: «اللّهم حبب إلينا المدينة كحبنا لمكة أو أشد حبًّا»[2]. وسماها بأسماء أخرى تُعلي من مكانتها في نفوس ساكنيها والوافدين إليها، بل وفي نفوس المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. فهي «طابة»، **قال** ﷺ حين أقبل من تبوك: «هذه طابة»[3]،

---

(1) مسند أحمد (4/285) ورواه أبو يعلى (1688).

(2) صحيح البخاري (1868)، ومسند أحمد (23895).

(3) صحيح مسلم (3325).

وكان حين يذكرها في حديثه **يقول:** «هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة»[1]، **ويقول:** «إن الله تعالى سمى المدينة: طابة»[2] **ويقول:** «إنها طيبة (يعني المدينة) ، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة»[3].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تغيير اسم «يثرب»، وكراهه تسميتها بذلك: (لأن «يثرب» إما من «التثريب» الذي هو التوبيخ والملامة .. أو من «الثرب»، وهو الفساد، وكلاهما مستقبح .. وكان ﷺ يحب الاسم الحسن، ويكره القبيح)[4].

تحبيب المهاجرين في الإقليم:

كانت المدينة مشهورة بالحمى، حتى **قال مشركو مكة** عن مسلمي المدينة في عمرة القضاء: (إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب». فأمرهم النبي ﷺ (في طوافهم) أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين؛ ليروا المشركين قوتهم، وأن الحمى لم تنهكهم كما يزعم الكفار[5].

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانت موبوءة بالحمى، فلم تمض أيام حتى مرض بها أبو بكر وبلال، فاستوخم الصحابة جو المهجر الذي آواهم، وأخذت تستيقظ لديهم غرائز الحنين إلى الوطن المفقود، فكان النبي ﷺ يحثهم على احتمال الشدائد، ويطالبهم بالصبر والتضحية لنصرة دينهم، ويجمع قلوبهم على مهجرهم الجديد؛ حتى تطيب به، وتنفر من مغادرته[6].

روى ابن إسحاق، عن عروة بن الزبير، أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **قالت:** لما قدم رسول ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ.

---

(1) صحيح مسلم (7336).

(2) صحيح مسلم (3311).

(3) صحيح مسلم (3310).

(4) الفتح (8/ 216، ك: فضائل المدينة، ب: فضل المدينة وإنها تنفي الناس).

(5) د. مهدي رزق الله؛ السيرة النبوية، ص 321.

(6) الغزالي، فقه السيرة، ص 183-184، بتصرف.

قالت: فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم، وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلَّا الله من شدة الوعك، فدنوت من أبي بكر، **فقلت له:** كيف تجدك يا أبة؟

فقال:

كل امرئ مصبح في أهله　　　والموت أدنى من شراك نعله

قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول، **قالت:** ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة، **فقلت له:** كيف تجدك يا عامر؟

قال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه　　　إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه　　　كالثور يحمي جلدة بروقه

قال: فقلت: والله ما يدري ما يقول.

قالت: وكان بلال إذا أدركته الحمى اضطجع بفناء البيت، ثم رفع عقيرته، فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة　　　بفخ وحولي إذخر وجليل

وهل أرِدنَّ يومًا مياه مجنة　　　وهل يبدون لي شامة وطفيل

يذكر أماكن مكة ويحن إليها.

قالت عائشة: فذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم، **وقلت:** إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى.

فقال ﷺ: «اللّهم حبب إلينا المدينة، كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباءها إلى مهيعة»، **ومهيعة:** هي الجحفة [(1)].

وروى البيهقي عن هشام بن عروة، **قال:**

وكان وباؤها (أي المدينة) معروفًا في الجاهلية، وكان إذا كان الوادي وبيئًا، فأشرف عليها الإنسان قيل له أن ينهق نهيق الحمار، فإذا فعل ذلك لم يضره وباء ذلك الوادي.

---

(1) البداية والنهاية (3/ 270)، **وقال ابن كثير:** وكذا رواه النسائي (7520)، ورواه الإمام أحمد (23967).

وقد **قال الشاعر** (معترضًا على ذلك) حين أشرف على المدينة:

لعمري لئن عبرت من خيفة الردى نهيق الحمار إنني لجزوع[1]

وروى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هو وأصحابه أصابتهم حمى المدينة، حتى جهدوا مرضًا، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ، حتى كانوا وما يصلون إلَّا وهم قعود.

قال: فخرج رسول الله ﷺ وهم يصلون كذلك، فقال لهم: «اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم (أي في الأجر)»، فتجشم المسلمون القيام - على ما بهم من الضعف والسقم - التماس الفضل[2].

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، فرفع الوباء عن المدينة، فجعلها من أطيب البلاد، وصححها، وبارك فيها، ونقل حماها فجعلها (بالجحفة)، ولم تكن حينئذ من بلاد الإسلام .

قال هشام بن عروة: فكان المولود يولد بالجحفة، فلا يبلغ الحُلُم حتى تصرعه الحمى[3].

و(الجحفة): هي البلدة التي كان يستهل منها أهل الشام ومصر للحج، وقد زالت الآن، وصار الإحرام من (رابغ)، وهي قرية قريبة منها على الطريق بين مكة والمدينة.

وقد حث رسول الله ﷺ - كما ذكرنا في باب سابق - على سكنى المدينة في أحاديث عدة، منها ما رواه جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ **قال:** «... لا يخرج رجلٌ من المدينة رغبةً عنها، إلَّا أبدلها الله خيرًا منه، وليسمعن ناس برخص من أسعارٍ ورزق فيتبعونه، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون»[4]، بل ورغب ﷺ في الموت في المدينة، **فقال:** «من استطاع أن يموت بالمدينة فليفعل؛ فإني أشفع لمن مات بها»[5].

* * *

(1) المصدر السابق.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية (3/272).

(3) رواه أحمد في مسنده (25841).

(4) رواه البيهقي في (الدلائل) ج6، ص 331، والحاكم (8450).

(5) رواه أحمد (5429)، والنسائي (1960)، وابن حبان (3691)، والبزار (5842)، وصححه الألباني.

الفصل الثالث

السلطة

كانت السلطة الحاكمة في الدولة الإسلامية الأولى هي أعظم سلطة عرفتها البشرية .. سلطة على رأسها أفضل الخلق، وسيد ولد آدم أجمعين، والمثل الكامل، الرءوف الرحيم، وصاحب الخلق العظيم، النعمة المهداة والسراج المنير ﷺ.

قال ابن أبي هالة - وهو يصفه ﷺ: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلَّا عما يعنيه، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد منهم بشْرَه .. يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس .. ويُحَسِّن الحسن ويصونه، ويُقَبِّح القبيح ويوهنه .. معتدل الأمر غير مختلف .. لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملُّوا.

لكل حال - عنده - عتاد (حساب واستعداد) .. لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره .. الذين يلونه من الناس خيارهم .. وأفضلهم عنده، أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة، أحسنهم مؤاساة ومؤازرة.

ثم قال يصف مجلسه: كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلَّا على ذكر، ولا يوطن الأماكن - لا يميز لنفسه مكانًا - إذا انتهى إلى القوم، جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه؛ حتى لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه (قام معه) لحاجة، صابره (صبر معه) حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلَّا بها، أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق متقاربين، يتفاضلون عنده بالتقوى، مجلسه مجلس حلم وحياء، وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم - لا تخشى فلتاته - يتعاطفون بالتقوى .. يوقرون الكبير ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب.

وقال يصف سيرته: كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مدَّاح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يقنط منه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، **وترك الناس من ثلاث:** لا يذم أحدًا، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلَّا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم، أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ .. حديثهم

حديث أولهم .. يضحك مما يضحكون منه .. ويعجب مما يعجبون منه. ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، **ويقول:** إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الثناء إلَّا من مكافئ ... [(1)].

ورسول الله ﷺ الذي حكم الدولة الإسلامية الأولى بهذه الصفات - التي ذكرها هند بن أبي هالة (وما ذكره هو غيض من فيض) - مَثلٌ كامل يقتدي به كل حاكم راشد، وينهل مما تركه من أسس وأركان ومقومات للسياسة والحكم والقيادة.

مرجعية السلطة في الحكم والسياسة:

جعلت الصحيفة التي وضعها رسول الله ﷺ دستورًا للدولة الإسلامية الأولى الفصل في كل الأمور بالمدينة، يعود إلى الله ورسوله ﷺ؛ فقد نصت على مرجع فض الخلاف: **«وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ»**.

وقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على تنفيذ أوامر الله، من خلال دولته الجديدة؛ لأن تحقيق الحاكمية لله على الأمة هو محض العبودية لله تعالى؛ لأنه بذلك يتحقق التوحيد، ويقوم الدين، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء].

فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب، فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزاله، وكما أن العبادة لا تكون إلَّا عن وحي منزل، فكذلك لا ينبغي أن يحكم إلَّا بشرع منزل، أو بما له أصل في شرع منزل[(2)].

وقد اتضحت هوية الدولة ومرجعية الحكم فيها في مواضع متعددة من دستور المدينة:

1- **«بسم الله الرحمن الرحيم»**، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة دون الناس.

2- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

---

(1) أخرجه الترمذي في (الشمائل) (1/ 38).

(2) الصلابي: السيرة النبوية، ص 329 – 330، مختصرًا.

3- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

مسئولية الأمة:

1- الأمة مخاطبة شرعًا بتنفيذ أحكام الله وإقامة شرعه؛ فخطاب الله التكليفي في قرآنه الكريم يدور بين أمرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

2 - وجعل الله ﷻ مسئولية الأمة من مقتضيات عقد الموالاة بين أفراده المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:71]، فمن ألزم صفات المسئولية هذه ومن أوجبها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، ونبذ الإثم والعدوان، والاهتمام بالشأن العام، قال ﷺ: **«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»**.

3 - ومن مقتضيات مسئولية الأمة التضامن العام بين أفرادها، والحفاظ الدائم على وحدتها وارتباطها: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]، فالأمة المؤمنة تقف صفًّا واحدًا، فلا تدخل بينها عوامل الفرقة، فحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولابد عنصر غريب عن طبيعتها وعن عقيدتها، هو الذي يدخل الفرقة، وما يمكن أن يجمع القلوب إلَّا أخوة في الله، تصغر إلى جانبها الأحقاد والثارات القبلية، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية، ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال(1).

4 - ومن أوجب مسئوليات الأمة، مسئولية النصيحة؛ لأن الإسلام، جعلها الدين كما في حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سمع رسول الله ﷺ **يقول:** «الدين النصيحة، **قلنا:** لمن يا رسول الله؟ **قال:** لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»، ودافع النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم هو إرادة الخير للأمة كلها، فتجتمع دائمًا على الحق والهدى والبصيرة، وتنجو من الحرج والمشقة والفتن وفساد الأمر.

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

الشورى:

رسخ رسول الله ﷺ - بما نزل عليه من الآيات، ثم بقوله وفعله وتقريره - (الشورى)، كدعامة من أهم دعامات الحكم والسلطة في الإسلام، فجعل من حق الأمة أن يؤخذ رأيها في أمورها المهمة، وفي المواقف الفاصلة في حياتها:

* قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:159]، وهذا نص قاطع، لا يدع للأمة المسلمة شكًّا في أن الشورى مبدأ أساس، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه .. أما شكل الشورى، والوسيلة التي تتحقق بها، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير، وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها. وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى (لا مظهرها)، فهي من الإسلام)[1].

* وقال تعالى يصف المؤمنين القائمين بأمره: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى] ، فجعل أمرهم كله شورى؛ ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة، فيكون أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين .. إنه طابع الجماعة المسلمة في كل حالاتها، والدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية، والجماعة تتضمن الدولة، وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي؛ فالشورى طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للأمة المختارة لقيادة البشرية، وهي من ألزم صفات القيادة[2].

* وسنرى في الفترة المدنية (حيث مرحلة الدولة)، كيف ألزم رسول الله ﷺ بالشورى وعمل بها، ونفذها أدق تنفيذ، كما في بدر حين نزل على رأي الحباب بين المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي أحد إذ كان من رأيه ﷺ البقاء للقتال في المدينة مع رأي القلة من الشيوخ، لكن رأي الأكثرية من الشباب كان القتال خارج المدينة، فنزل عند رأيهم وهو كاره.

* * *

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

(2) سيد قطب: في ظلال القرآن.

الفصل الرابع

التآمر المبكر على الدولة الإسلامية

رسخ في أذهان قراء السيرة النبوية العطرة أن رسول الله ﷺ هو الذي بدأ قريشًا بالقتال حين راح يرصد قوافلها ويهاجمها؛ لأنها سلبت المسلمين أموالهم وأخرجتهم من أرضهم وديارهم، بينما أوردت كتب السنة ما غاب عن كثير من كتاب السيرة، من أن قريشًا هي التي بدأت بالتآمر على رسول الله ﷺ وعلى من هاجر معه، بل وعلى الدولة المسلمة كلها، وقد ذكر دستور المدينة في مواده ما يؤكد استعداد النبي ﷺ وكل أطراف الصحيفة للدفاع عن المدينة، وصد اعتداء قريش وقتما يحدث؛ مما يدل على أن الجميع كان على يقين من أن اعتداء من قريش قد اقترب، وأنها لن تدع المسلمين يستقرون في أرض، ولن تترك لهم أمانًا في مجتمع أو منعة في مكان؛ لأنها تعرف أن في ذلك فناءها وفناء وثنيتها، ولو بعد حين.

وقد أدرك المسلمون في المدينة أن صراعهم لم ينته مع مشركي مكة بعد أن أفلت المهاجرون من أيديهم؛ فقريش لن تتورع أن تتجاوز حدود مكة، وتغتال من تستطيع اغتياله منهم، وقد ورد عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلَّا بالسلاح، ولا يصبحون إلَّا فيه[1].

وأرسل كفار قريش إلى المسلمين بالمدينة **يقولون لهم:** (لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم)[2].

ولذا فقد كان رسول الله ﷺ لا يبيت إلَّا ساهرًا، أو في حرس من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **قالت:** سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة، فقال: **«ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة»، قالت:** فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: **«من هذا؟»، قال:** سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول ﷺ: **«ما جاء بك؟» فقال:** وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه. فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام[3].

(1) ذكره المباركفوري في الرحيق المختوم، ص 217.

(2) رواه أبو داود في السنن، باب خبر بني النضير.

(3) رواه مسلم (6184)، والترمذي (3912)، والنسائي في الكبرى (8774).

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي، بل كان ذلك أمرًا مستمرًّا؛ فقد روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أيضًا، أنها **قالت:** كان رسول الله ﷺ يُحرس ليلًا حتى نزل: ﴿**وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [المائدة:61]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: «**يا أيها الناس، انصرفوا عني؛ فقد عصمني الله ﷻ**»[1].

تآمر قريش ومشركي المدينة:

لاحظنا في دستور المدينة أنه لم يعط التجمع الوثني بصفته كتلة في المجتمع حق الوجود، إنما سمح بوجوده بصفته أفرادًا لا يجبرون على دخول الإسلام، وكان رأس هذا التجمع عبد الله بن أبي، الذي أقسم الأيمان المغلظة لقريش في موسم الحج (بعد أن بايع الأنصار بيعة العقبة الثانية) أن قومه لم يعاهدوا محمدًا ولم يعاقدوه، ولا يمكن أن يتم هذا دون علمه وأمره، فعندما بلغه أن الخبر صحيح امتلأ قلبه حقدًا على رسول الله ﷺ، ومما زاد الحقد في قلبه اشتعالًا، هو أن الخزرج والأوس بعد أن هدأت بينهم الثارات، اجتمعوا على أن يعقدوا الملك لعبد الله ابن أبي، وكانوا ينسجون له الخرز ليتوجوه، فأحس عبد الله بن أبي أن عدوه الأول والأكبر هو محمد رسول الله ﷺ.

وتذكر كتب السيرة موقفًا له في هذه المرحلة قبل دخوله الإسلام، يوم مر عليه رسول الله ﷺ مع ركب من قومه فنزل ﷺ عن حماره وسلم عليه، ثم جلس فتلا القرآن، ودعا إلى الله، وذكَّر بالله .. حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته **قال** (عبد الله بن أبيّ): يا هذا إنه لا أُحسن من حديثك هذا إن كان حقًّا، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغشه به، ولا تأته في مجلسه بما يكره، **فقال عبد الله بن رواحة** في رجال كانوا عنده من المسلمين: بل فاغشنا وائتنا في مجالسنا ودورنا، فهو والله مما نحب، ومما أكرمنا الله به وهدانا له.

وفي رواية: أنه قال له (أي للنبي ﷺ): أبعد عنا نتن حمارك.

فشخصية عبد الله بن أبي إذن هي المؤهلة للمواجهة والحرب في المدينة[2].

---

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 217.

(2) المنهج الحركي، ص 219- 220.

ولذا فقد وجدت قريش ضالتها في ابن سلول هذا، فكتبت إليه كتابًا - بصفته زعيمًا للمدينة؛ ليكيد للمسلمين ويتوعدونه ويهددونه إن لم يفعل، ويقولون له ولأصحابه **المشركين بكلمات قاطعة:** «إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم»[1]، فامتثل ابن أبي لأمر قريش، فجمع مشركي المدينة لمحاربة رسول الله ﷺ. وعندما علم رسول الله ﷺ بأمرهم، خرج إليهم، **وقال لهم:** «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم!!»، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا[2].

فاستطاع ﷺ بحكمته أن يطفئ نارًا للحرب، أرادت قريش أن توقدها في المدينة .. وفعل ذلك بكلمات بسيطة معبرة عميقة، تقذف بالكيد في صدور أصحابه.

قريش تصد عن المسجد الحرام:

حاولت قريش أن تصد الأنصار عن المسجد الحرام، وقد ظهر هذا جليًّا في قصة سعد ابن معاذ وأبي جهل، **وخلاصتها عند البخاري**[3]: أن سعد بن معاذ جاء مكة معتمرًا، وطلب من مضيفه أمية بن خلف أن ينظر له ساعة خلوة ليطوف بالبيت آمنًا، فأخذه أمية ليطوف في منتصف النهار حين غفلة الناس، ومع ذلك لقيه أبو جهل، وسأل عنه أمية، فأخبره به، **فقال له:** (تطوف بالكعبة آمنًا وقد أويتم محمدًا وأصحابه؟!)، وتشاجرا، **ومما قاله سعد له:** (والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام) .. وهدده بأن رسول الله ﷺ سيقتله، وقد قتله الله ببدر[4].

* * *

(1) رواه أبو داود في سننه (3/ 404-401، ك. الخراج، ب. خبر النضير، حديث 3006).

(2) المصدر نفسه.

(3) البخاري، الفتح (14/ 126، حديث 3632).

(4) انظر: السيرة النبوية، د. مهدي رزق الله، ص 324.

الفصل الخامس

من أحداث السنة الأولى للهجرة

شهدت السنة الأولى من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة أحداثًا ووقائع مهمة غير التي تقدم ذكرها، نورد بعضًا منها فيما يلي:

1- وفاة أسعد بن زارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال ابن اسحاق: وتوفي في تلك الأشهر (أي بعد الهجرة مباشرة) أبو أمامة أسعد بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والمسجد يبنى (أي مسجد الرسول ﷺ)، أخذته الذبحة.

- وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول من مات بعد مقدم النبي ﷺ إلى المدينة، وبعد **موته قال المنافقون واليهود:** لو كان نبيًّا (أي رسول الله ﷺ) لم يمت صاحبه.

روى ابن اسحاق عن يحيى بن عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، **قال: قال رسول الله** ﷺ: «بئس الميت أبو أمامة ليهود ومنافقي العرب، يقولون: لو كان نبيًّا لم يمت صاحبه، ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئًا».

ولم يكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الأول بين الأنصار في الموت فقط، بل كان الأول - كما ذكرنا في باب سابق - **في أمور عدة:**

- فقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول من بايع رسول الله ﷺ من الأنصار.
- وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول من أسلم من الخزرج.
- وهو أصغر نقيب من نقباء الأنصار، ويلقب: (نقيب بن النجار).
- وهو أول من استقبل مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيته.
- وهو أول من صلى بالناس الجمعة قبل مقدم النبي ﷺ إلى المدينة.
- وهو أول من صلى في مربد سهل وسهيل ابني رافع قبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة، أي قبل أن يتخذ رسول الله ﷺ هذا المكان مسجدًا. **وقد روى الذهبي عن أم خارجة، قالت:** أخبرتني النوار أم زيد بن ثابت، أنها رأت أسعد بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قبل مقدم النبي ﷺ، يصلي

بالناس الصلوات الخمس، ويجمع بهم في مسجد بناه، **قالت:** فأنظر إلى رسول الله ﷺ لما قدم صلى في ذلك المسجد وبناه، فهو مسجده اليوم(1).

- وهو أول ميت صلى عليه رسول الله ﷺ في المدينة بعد الهجرة، وقد مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شابًّا، **وقيل:** إنه أوصى قبل موته ببناته إلى رسوله الله ﷺ، وكن ثلاثًا، فكن في عيال رسول الله ﷺ، يدرن معه في بيوت نسائه، وهن: فريعة، وكبشة، وحبيبة. فقُدم عليه ﷺ (يومًا) حلي فيه ذهب ولؤلؤ، فحلاهن منه(2). **وذكر ابن إسحاق:** أن بني النجار سألوا رسول الله ﷺ أن يقيم لهم نقيبًا بعد أبي أمامة أسعد بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: **«أنتم أخوالي، وأنا بما فيكم، وأنا نقيبكم»**، وكره أن يخص بها بعضهم دون بعض (بعد أسعد بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، فكان من فضل بني النجار الذي يعتدون به على قومهم، أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم.

2- وفاة كلثوم بن الهدم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كلثوم بن الهدم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أوسيًّا من بني عمرو بن عوف، ويعرف بصاحب رحل رسول الله ﷺ، وكان رجلًا شريفًا مسنًّا، أسلم قبل نزول رسول الله ﷺ المدينة، وهو الذي نزل عليه النبي ﷺ في حين قدومه في هجرته من مكة إلى المدينة، ثم خرج ﷺ إلى أبي أيوب الأنصاري، فنزل عليه حتى بنى مساكنه وانتقل إليها. ولم يلبث كلثوم بن الهدم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة إلَّا يسيرًا حتى مات، ولم يدرك شيئًا من مشاهده ﷺ(3).

3- موت المهاجر إلى ربه جندب بن ضمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كان جندب بن ضمرة (**ويقال إن اسمه:** ضمرة بن جندب) أحد مسلمي مكة المكرمة الذين لم يغادورها مع المهاجرين إلى المدينة المنورة، وعندما نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء] ضاق صدر جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالبقاء في مكة، وكان شيخًا كبيرًا، **فقال لأهله:** والله مالي من عذر، إني لدليل في الطريق (أعرفه

---

(1) سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 302.

(2) المصدر السابق.

(3) **انظر:** الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر.

جيدًا) وإني لموسر (غنيٌّ)، فاحملوني على سرير إلى رسول الله ﷺ، ما أنا ببائت ليلتي هذه بمكة .. فلم يبت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليلته بمكة، ولكنه أيضًا لم يبت أية ليلة بالمدينة؛ فقد كان الموت ينتظره في الطريق قريبًا من مكة، في موقع **يقال له حتى اليوم:** (التنعيم).

وكان جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يحتضر يصفق بيمينه على شماله، **ويقول:** اللّٰهم هذه لك، وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعك عليه رسولك. فأدركه الموت في الطريق، فلما بلغ خبر موته الصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ **قالوا:** لو بلغ (وصل) إلينا لتم أجره. **وقال المشركون في مكة:** ويح جندب، لا هو بلغ الذي يريد، ولا هو أقام في أهله فمات بينهم فجهزوه ودفنوه**!!**

فجاء بنوه إلى رسول الله ﷺ، وأخبروه بأمره، فأنزل الله سبحانه: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء].

4- ميلاد عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والنعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

كان عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أول مولود ولد للمهاجرين في المدينة، وذلك في شوال من السنة الأولى للهجرة.

وقد روى البخاري، عن أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها حملت بعبد الله بن الزبير، **قالت:** فخرجت وأنا متم (أي في نهاية الحمل)، فأتيت المدينة، فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ، فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له وبرَّك عليه.

ولما ولدت أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عبد الله، كبر المسلمون تكبيرة عظيمة؛ فرحًا بمولده؛ لأنه كان قد بلغهم عن اليهود أنهم سحروهم حتى لا يولد لهم بعد هجرتهم ولد، فكذب الله اليهود فيما زعموا[1].

وكان النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة، وزعم البعض أنه ولد قبل عبد الله بن الزبير، وهذا غير صحيح.

---

(1) البداية والنهاية (3/282).

5- بناؤه ﷺ بعائشة رضي الله عنها:

بنى رسول الله ﷺ بعائشة رضي الله عنها في شوال من هذه السنة. وقد روى الإمام أحمد عنها أنها **قالت:** تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني؟!

وعلى هذا يكون دخوله بها ﷺ بعد الهجرة بسبعة أشهر، وكانت - يومئذ - فتاة حديثة السن، تلهو مع صويحباتها، وتلعب بالأرجوحة والعرائس، كما هو شأن الفتيات الصغار[1]، وقد روت رضي الله عنها ذلك، فقالت: أتتني أمي أم رومان، وإني لفي أرجوحة، ومعي صواحب لي، فصرخت بي، فأتيتها لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج، حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئًا من ماء، فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، **فقلن:** على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلَّا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه، وأنا يؤمئذ بنت تسع سنين[2].

وقد كانت رضي الله عنها بلغت مبلغ النساء من حيث صلاحها للزواج وتوابعه في هذه السن؛ ولذلك **قالت** رضي الله عنها: إذا بلغت الجارية تسع سنين فهي امرأة[3].

وكثيرًا ما كان رسول الله ﷺ يدخل على عائشة رضي الله عنها وهي مع صويحباتها، فيرفق بها، ويفسح لها من صدره، **وقد قالت** رضي الله عنها: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن منه، فيسربهن إلي، فيلعبن معي[4].

6- موت اثنين من صناديد الكفر:

في هذه السنة، مات اثنان من صناديد الكفر من قريش، من المكاشفين لرسول الله ﷺ ولأصحابه (رضوان الله عليهم) بالعداوة والأذى، وهم:

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 61.

(2) رواه البخاري (3807)، ومسلم (3432).

(3) رواه الترمذي في سننه.

(4) رواه البخاري (6130).

1- **العاص بن وائل السهمي، سيد بني سهم في قريش:**

وهو والد الصحابيين عمرو بن العاص، وهشام بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو الذي وصفه القرآن الكريم، بأنه (الأبتر)، أي الأقل والأذل والمنقطع دابره، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ[1] هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر]؛ وذلك أنه رأى النبي ﷺ يخرج من باب المسجد الحرام وهو يدخل، فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدثا وأناس من قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاص، **قالوا له:** (من الذي كنت تحادثه؟)، **قال:** (ذلك الأبتر)، يعني بذلك النبي ﷺ؛ يعيره بانقطاع عقبه بعد موت ابنه القاسم. **قال ابن اسحاق:** كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه؛ فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر].

وقد دعا عليه رسول الله ﷺ **قائلًا: «اللّهم سلط عليه شوكة من أشواك الأرض».**

فأصيب في قدمه بشوكة، فتورمت، حتى جافت، وأخذت تموت، وأخذ الضرر يسرى في جسده، فذهب ابنه عمرو إلى الطائف ليأتي له بطبيب، لكنه هلك قبل وصوله، وذلك بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بشهر وأيام.

2- **الوليد بن المغيرة المخزومي:**

وهو والد خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان من أغنى قريش وأكثرهم مالًا وتجارة، حتى **يقال:** إن قافلة تجارته كانت تقدر بمائة بعير، وأنها لم تكن تدخل من باب واحد، بل من جميع أبواب مكة حتى تصل الجمال في وقت واحد، وكانت قريش تسميه (الوحيد)؛ لأن قبائلها كانت تكسو الكعبة عامًا، وهو وحده عامًا.

والوليد بن المغيرة كان واحدًا من زعماء قريش ممن كذبوا النبي ﷺ ولم يؤمنوا بما جاء به، واستكبروا عن اتباع الحق، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة، وهو الذي وصف رسول الله ﷺ بأنه ساحر، يأخذ سحره ويؤثره عن غيره، فنزلت فيه الآيات من سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ

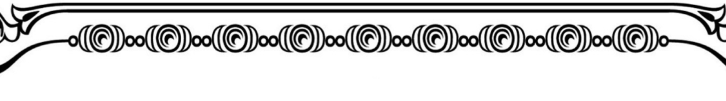
(1) **شانئك:** عدوك ومبغضك.

﴿٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ٢٤ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾[المدثر].

وقد رماه رجل من خزاعة بسهم، فأصاب عضلة ساقه، فعظمت (تورمت) حتى صارت مثل القربة العظيمة، وامتلأت قيحًا ودمًا، فبينا هو ذات ليلة نائم وعنده ابنته إذ انفجرت رجله، **فقالت ابنته:** أي أبتاه، قد انشقت القربة!!، **فقال:** ليست القربة، ولكنها رجل أبيك، ومات الوليد بن المغيرة بعد الهجرة بثلاثة أشهر عن خمس وتسعين سنة، ودفن في الحجون بمكة. **وقد روى الشعبي قال:** لما حضر الوليد بن المغيرة (أي احتضر)، فقال له أبو جهل: يا عم، ما يجزعك؟ قال: والله ما بي جزع من الموت، ولكني أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة (يقصد رسول الله ﷺ)، فقال أبو سفيان: يا عم، لا تخف؛ فأنا ضامن أن لا يظهر(1).

* * *

(1) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.



الباب العاشر

الإذن بالقتال

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾

الفصل الأول: **تدرج التشريع في القتال.**

الفصل الثاني: **النبي ﷺ يحض أصحابه على تعلم فنون القتال .**

الفصل الثالث: **السرايا والبعوث في السنة الأولى من الهجرة.**

الفصل الرابع: **الغزوات والسرايا في السنة الثانية من الهجرة.**

الفصل الخامس: **من أحداث السنة الثانية من الهجرة قبل غزوة بدر الكبرى.**

الباب العاشر

الإذن بالقتال

لم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلًا، تجاهد قوى الطغيان والشر والباطل، اعتمادًا على قوة الإيمان في النفوس، وتغلغل الحق في الفطر، وعمق الخير في القلوب؛ فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب، وتفتن النفوس، وتزيغ الفطر.

وللصبر حد وللاحتمال أمد، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه، والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم؛ ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة، إلا ريثما يستعدون للمقاومة، ويتهيأون للدفاع، ويتمكنون من وسائل الجهاد، فأذن لهم بعد الهجرة في قتال المشركين؛ ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل دين الله، ووعدهم النصر والتمكين، على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم التي بينها لهم[1].

روى ابن جرير الطبري بسنده، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: (لما أُخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم .. إنا لله وإليه راجعون، ليُهْلَكن. فأنزل الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39]، قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال)[2].

وفي رواية عند أحمد أن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (وهي أول آية في القتال) .. لقد شُرع الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأن المسلمين بمكة كانوا أقل من معشر المشركين، ولذا لم يأمرهم الله بالقتال حتى بعد أن بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من مكة، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه ما بين الحبشة والمدينة[3]، فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره وبعباده المؤمنين، وألف بين قلوبهم، فمنعته كتيبة الإسلام، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة،

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

(2) تفسير الطبري (17/ 123).

(3) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 325.

وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا لهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39]، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك[1]. قال الزهري: أول آية نزلت في القتال - كما أخبرني عروة عن عائشة: «أذن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا»[2].

* * *

(1) محمد طه: الأغصان الندية شرح الخلاصة البهية، ص155.

(2) أخرجه النسائي، وإسناده صحيح، كما قال ابن حجر في الفتح (15/ 142).

الفصل الأول

تدرج التشريع في القتال

القتال هو أعلى مراتب الجهاد في سبيل الله؛ فالجهاد في الإسلام مدلوله أوسع من القتال .. قال الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الجهاد أقسام: بالنفس، والمال، والدعاء والتوجيه والإرشاد، والإعانة على الخير من أي طريق، وأعظم الجهاد: الجهاد بالنفس، ثم الجهاد بالمال والجهاد بالرأي والتوجيه، والدعوة كذلك من الجهاد، فالجهاد بالنفس أعلاها)[1].

وقد لخص الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سياق الجهاد في الإسلام في (زاد المعاد)، في الفصل الذي عقده باسم: (فصل: في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حيث بُعث إلى حين لقي الله ﷻ)[2]، فقال:

1- أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى، أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره - إذ ذاك - بتبليغ.

2- ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، فنبأه بقوله: (اقرأ)، وأرسله بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.

3- ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين.

4- ثم أنذر قومه.

5- ثم أنذر من حولهم من العرب.

6- ثم أنذر العرب قاطبة.

7- ثم أنذر العالمين، فأقام بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

8- ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال.

9- ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله.

---

(1) فتاوى الشيخ ابن باز (1/ 334، 335).

(2) زاد المعاد (3/ 159).

10- ثم أمره بقتال المشركين؛ حتى يكون الدين كله لله(1).

وعلى هذا، كان تشريع الجهاد على مراحل؛ كل مرحلة مكافئة لمقتضياتها وحاجتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها:

1- مرحله الصبر دون قتال والعفو والصفح، والجهاد بالدعوة والقرآن والحجة، وكانت بمكة، قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[النحل: 127].

- وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: 60].

- وقال: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾[الحجر: 85].

2- مرحلة الإذن بالقتال للمسلمين بعد الهجرة من غير إيجاب (أي من غير أن يفرض عليهم)، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: 39].

3- مرحلة وجوب قتال من بدأ المسلمين بقتال، قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: 190].

4- مرحلة وجوب قتال الكفار كافة؛ ليكون الدين كله لله، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة].

لماذا شرع القتال؟:

من هذا التلخيص لمراحل تشريع القتال في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في منهجية الجهاد في الشرع الحنيف، جديرة بالوقوف أمامها، والإشارة إليها، ولو بإشارات مجملة:

أولا: الإسلام لا يستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد:

بل يواجههم بالدعوة والبيان، ويخاطبهم بقاعدة واحدة، ويطلب فيهم الانتهاء إلى هدف واحد، هو إخلاص العبودية لله، وإسلام الوجهة إليه وحده؛ فذلك هو الأصل الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه. قال تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ

---

(1) زاد المعاد (3/ 159).

بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: 256].

قال ابن عباس: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف، يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلًا مسلمًا، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرهما؛ فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟، فأنزل الله فيه ذلك(1).

وعندما توشح المشرك سيفه، وقام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، وقال له: من يمنعك مني؟، قال: الله، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، وقال: من يمنعك؟، قال: كن خير آخذ، قال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟، قال: أعاهدك على أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى رسول الله ﷺ سبيله، فجاء إلى قومه، فقال: جئتكم من عند خير الناس(2). فلم يستغلها رسول الله ﷺ فرصة لإجباره على الإسلام.

وقد نصت آيات القرآن الكريم على أن من اختار الإيمان فباختياره، ومن اختار الكفر فباختياره، قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 99]، وقال ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف: 29].

كان ثمامة بن أثال الحنفي ملكًا نصرانيًّا يحكم اليمامة، أسره محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في طريق عود سريته من بني القرطاء في أرض نجد، في المحرم من العام السادس للهجرة، والصحابة لا يعرفونه، فأتوا به إلى رسول الله ﷺ فعرفه وأكرمه، وأبقاه عنده ثلاثة أيام، وكان في كل يوم يعرض عليه الإسلام عرضًا كريمًا فيأبى ويقول: إن تسأل مالًا تعطه، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، فما كان من النبي ﷺ إلا أن أطلق سراحه، فخرج حتى أتى حائطًا (بستانًا) من حيطان المدينة فاغتسل فيه وتطهر وطهر ثيابه، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فقال: يا محمد، لقد كنت وما وجه أبغض إليّ من وجهك، ولا دين أبغض إليّ من دينك، ولا بلد أبغض إليّ من بلدك، ثم لقد أصبحت وما وجه أحب إليّ من وجهك، ولا دين أحب إليّ من دينك، ولا بلد أحب إليّ من بلدك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا رسول الله إني كنت خرجت معتمرًا، فأسرني أصحابك في عمرتي،

(1) رواه الطبري في تفسيره، ج3، ص 10.

(2) انظر: (دلائل النبوة) للبيهقي، رقم (1272).

فسيرني في عمرتي، فسيره رسول الله ﷺ في عمرته، حتى إذا كان ببطن مكة لبى، فكان أول من دخل مكة يلبي، وكان بنو حنيفة بعد ذلك يفخرون بما فعل، ويقولون:

ومنا الذي لبى بمكة معلنًا ... برغم أبي سفيان في الأشهر الحرم

فلما سمعت قريش صوت التلبية، هبت غاضبة مذعورة، واستلت سيوفها من أغمادها، فلما أقبلوا عليه، رفع صوته بالتلبية، فهمَّ فتى من فتيانهم أن يرديه بسهم، فأخذوا على يديه، وقالوا: ويحك، أتعلم من هذا؟ إنه ثمامة بن أثال، ملك اليمامة، وإنكم تحتاجون إلى اليمامة لطعامكم، فخلوه، ثم أقبلوا على ثمامة، وقالوا: ما بك يا ثمامة؟، أصبوت وتركت دينك ودين آبائك؟، قال: ما صبوت، ولكني اتبعت خير دين، اتبعت دين محمد، ولا والله لا تصل إليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. ثم خرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا، فكتبت قريش إلى رسول الله ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع، فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحمل (أي قوافل الطعام)[1].

ونرى في قصة ثمامة بن أثال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ لم يكرهه على الإسلام، بل تركه واختياره، وأنه ﷺ لم يدع ثمامة حتى يُلجِئ مشركي مكة إلى الإيمان بمنعه الطعام عنهم. فما كان الإيمان ليقام على الإكراه والقهر، إنما يقام على الطواعية والاختيار ويقين الاعتقاد، فمن اختار الإيمان فباختياره، ومن اختار الكفر فباختياره، فلا إكراه ...

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن قضية العقيدة قضية اقتناع بعد البيان والإدراك، وليست قضية إكراه وغصب وإجبار، ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته .. يخاطب العقل المفكر، والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المنفعل، كما يخاطب الفطرة المستكنة .. يخاطب الكيان البشري كله، والإدراك البشري بكل جوانبه. فلقد جاء الإسلام ليعلن في أول ما يعلن هذا المبدأ العظيم الكبير: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾... وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.

(1) انظر السيرة النبوية، لابن هشام، ج 2، ص 639.

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان التي يثبت له بها وصف إنسان، فالذي يسلب إنسانًا حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداء .. والإسلام – وهو أرقى تصور للوجود وللحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء – هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين)(1).

ثانيًا: لابد للحق من قوة تحميه:

الإسلام هو الدين الحق، ارتضاه الله ﷻ للبشرية جمعاء، وأمر رسوله تبليغه للناس كافة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة: 61].

وفرض على المسلمين أن يحملوه للناس جميعًا: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، وبين لهم أنه اجتباهم واختارهم واصطفاهم ليكونوا سواس خلقه، وخلفاءه في أرضه، ومهد لهم الدين، وأحكم التشريع، وسهل الأحكام، وجعلها صالحة لكل زمان ومكان؛ كي يتقبلها البشر كافة: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 18].

وكان لابد للحق الذي تحمله الأمة للناس من قوة تحميه، وتسير مع خطاه، جنبًا إلى جنب؛ فالقوة أضمن طريق لإحقاق الحق، ومنح أتباعه القدرة على الإعلان عنه، والضعف مدرجة إلى الهوان، مزلقة إلى الفتنة، فكان الجهاد فريضة الله على المسلمين .. ألزمهم إياها، وندبهم إليها، ولم يعذر في ذلك أحد منهم فيه قوة واستطاعة: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:41]. ونادى القرآن الكريم في وضوح وجلاء: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[الأنفال: 60].

فلابد من إلقاء الرهبة في قلوب أعداء الله الظاهرين والمستترين؛ فهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام، ولو لم تمتد بالفعل إليهم؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله.

---

(1) في ظلال القرآن، مختصرًا.

ولابد للحق من قوة تستنقذ المؤمنين المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين يعانون المحنة في عقيدتهم، والفتنة في دينهم في ديار الكفر، وهم غير قادرين على الهجرة والفرار بدينهم وعقيدتهم، ويتطلعون إلى الخلاص، ويدعون الله أن يجعل لهم مخرجًا، وأن يجعل لهم وليًّا ونصيرًا:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 15].

وهكذا يقف المسلمون في كل بلد، وفي أي وطن، على أرض صلبة، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد، مقتنعي الوجدان أن لهم - بعد الله - من إخوانهم أولياء ناصرين، فلا يخشون أذى من قومهم، ولا فتنة في دينهم.

والقوة تلقي في قلوب أعداء الحق الرعب. فعند البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» .. فالرعب من الجنود الإلهية التي يسلطها الله على أعدائه المحاربين لدينه ولعباده المؤمنين، حتى ولو كانوا في قوة ومنعة، وقد قص القرآن الكريم نبأ بني النضير، حين أتاهم الله من داخل أنفسهم، لا من داخل حصونهم، فقذف في قلوبهم الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم، فسقطت بفعلهم هم، ثم زادوا فخربوها بأيديهم وأيدي المؤمنين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: 2].

ثالثًا: قتال من بدأ المسلمين بقتال (جهاد الدفع):

إذا بدأ عدوٌّ المسلمين بقتال، أو نزل بساحتهم وديارهم، وجب الجهاد على جميع المسلمين، وتعين على كل امرئ فيهم أن ينفر بنفسه وبما يملك؛ ليرد العدوان، ويذود عن الدين والحرمات والأوطان؛ طاعة لله، وابتغاءً لمرضاته، وجهادًا في سبيله.

ويستوي الجميع في التكليف .. فيتعين على كل أحد أن يجاهد: الشباب والشيوخ، والأغنياء والفقراء، (والعبد) بإذن سيده وبدون إذنه، والولد بدون إذن أبويه، والغريم بغير إذن غريمه، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مُكَثِّر، فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم، كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حيث ما لزم أهل تلك البلدةه، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم، وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم، وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم، لزمه أيضًا الخروج إليهم؛ فالمسلمون كلهم يد على من سواهم، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتل بها، سقط الفرض عن الآخرين، ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضًا الخروج إليهم، حتى يظهر دين الله، وتحمى البيضة، وتحفظ الحوزة، ويخزى العدو، ولا خلاف بين العلماء في هذا[1].

ولا اعتبار في هذا النوع من الجهاد لعدد المسلمين وعدد أعدائهم، ولا لأي حسابات أخرى؛ فإن المشركين كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين، وكان الجهاد واجبًا عليهم؛ لأنه حينئذ جهاد ضرورة ودفع، لا اختيار فيه[2]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل (الظالم) عن الحرمة والدين، فواجب إجماعًا، فالعدو والصائل الذي يفسد الدين والدنيا، لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرط).

رابعًا: القتال لتبليغ رسالة الله إلى الناس كافة (جهاد الطلب):

جاءت عقيدة الإسلام لتكون قاعدة للحياة البشرية في الأرض، ولتكون منهجًا عامًّا للبشرية جميعها، ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية في طريق الله وفق هذا المنهج .. قيادتها إلى الخير الذي لا خير غيره، وتمتيعها بالنعمة التي لا تعدلها نعمة، والتي تفقد البشرية كل نجاح وكل فلاح حين تحرم منها.

ومن ثم كان من حق البشرية أن تُبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي الشامل، وألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال، ثم كان من حق البشرية كذلك أن يُترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحرارًا في اعتناق هذا الدين، لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة، فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضي في طريقها. وكان عليه أن يعطي من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان، وما يضمن للجماعة المسلمة المضي في طريق التبليغ بلا عدوان.

(1) القرطبي 8/151.

(2) ابن القيم، الفروسية، ص 187.

والذين قالوا: إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع، ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلًا، بتخليه عن منهجه، وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعًا، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد، لا يقهرهم على اعتناق عقيدته، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة .. الذين يقولون هذا يخلطون خلطًا شديدًا، ويلبسون منهج هذا الدين لبسًا مضلًّا، وهم مهزومون روحيًّا وعقليًّا تحت ضغط الواقع اليائس الذي يحيونه[1].
قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال].

فالجهاد في الإسلام أمر آخر، لا علاقة له بحروب الناس، ولا تكييفها ولا بواعثها؛ فبواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته، ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله، وأرسل من أجلها رسوله بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين، وجعلها خاتم الرسالات. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: 158]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سبأ: 28]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: 101].

لقد كان مجيء الإسلام إعلانًا عامًّا عن تحرير الإنسان في الأرض من كل سلطان غير سلطان الله، بإعلان ألوهية الله وحده، وربوبيته للعالمين، وحاكميته وسيادة منهجة، فيرد الأمر كله إليه وفق ما بينه لعباده من أحكام.

ولم يكن هذا الإعلان خاصًّا بالعرب، أو بالإنسان العربي .. إن موضوعه هو (الإنسان) .. ومجاله هو الأرض .. كل الأرض. إن الله سبحانه ليس ربًّا للعرب وحدهم، ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم .. إن الله هو (رب العالمين) .. وهذا الدين يريد أن يرد (العالمين) إلى ربهم، وأن ينتزعهم من العبودية لغيره.

ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في الأرض؛ لإزالة الواقع المخالف لذلك الإعلان العام.. بالبيان وبالحركة .. وأن يوجه الضربات للقوى التي تعبد الناس لغير الله، والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى البيان، واعتناق العقيدة بحرية لا يتعرض لها سلطان.

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

ولقد بين الله للمؤمنين فيما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال، أن الشأن الدائم الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا، أن يدفع الناس بعضهم بعضًا؛ لدفع الفساد عن الأرض: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة:251]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: 40] .. وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة .. الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق والباطل في هذه الأرض، وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين، وتحرير الإنسان من العبودية للعباد، رماه المغتصبون لسلطان الله في الأرض، ولم يسالموه قط، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم؛ ليخرج الناس من سلطانهم، ويدفع عن (الإنسان) في الأرض ذلك السلطان الغاصب .. حال دائمة لا يكف معها الانطلاق الجهادي التحريري؛ حتى يكون الدين كله لله[1].

تعقيب:

في حدود هذه المبادئ العامة كان الجهاد في الإسلام، وكان لهذه الأهداف العليا وحدها، غير متلبسة بأي هدف آخر، ولا بأي إشارة أخرى.

إنه الجهاد للعقيدة؛ لحمايتها من الحصار .. وحمايتها من الفتنة .. وحماية منهجها وشريعتها في الحياة .. وإقرار رايتها في الأرض، بحيث يَرْهَبها من يهم بالاعتداء عليها قبل الاعتداء، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها، لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه.

وهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام، ويقره ويثيب عليه، ويعتبر الذين يقتلون فيه شهداء، والذين يحتملون أعباءه أولياء[2].

* * *

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، مختصرًا.

(2) المصدر السابق.

الفصل الثاني

النبي ﷺ يحض أصحابه على تعلم فنون القتال

بعد نزول الإذن بالقتال، حض رسول الله ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على التدريب على فنون القتال والحرب، خاصة الرماية، كما حثهم على العناية بأجسادهم، وعلى ركوب الخيل، وإتقان الفروسية؛ فذلك كله يفل شوكة الكفر، ويكسر أذاه: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ [النساء:84]، وهو بذلك يمتثل لأمر ربه جل شأنه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ [الأنفال: 60].

عن عتبة بن عامر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: **«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي»**(1)، وعن تميم اللخمي، قال: قلت لعقبة بن عامر رضي الله عنه: تختلف بين هذين الغرضين (أي يتردد بين مكانين ليتدرب على الرمي) وأنت شيخ كبير يشق عليك؟ قال عقبة: لولا كلام سمعته من رسول الله لم أعانه. قلت: وما ذاك؟ قال سمعته يقول: **«من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى»**(2).

وروي عقبة بن عامر رضي الله عنه أيضًا، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله عز وجل ليُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة:**

1- صانعه يحتسب في عمله الخير.

2- الرامي به.

3- ومُنْبِلُه الممد به (أي: الذي يناوله السهم ليرمي به)، فارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا.

كل لهو باطل .. ليس من اللهو محمودًا إلا ثلاثة:

1- تأديب الرجل فرسه.

---

(1) أخرجه مسلم (4902)، وأبو داود (2515)، والترمذي (3184)، وأحمد (17102).

(2) أخرجه مسلم (4905).

2- وملاعبته أهله.

3- ورميه بقوسه؛ فإنهن من الحق، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه، فإنها نعمة تركها أو كفرها»[1].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: **«الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»**[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامه»**[3].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ، قال: **«الخيل معقود في نواصيها الخير والنبل إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، فامسحوا بنواصيها وادعوا لها بالبركة ...»** [4].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: **«الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان. فأما فرس الرحمن: فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله ... وذكر ما شاء الله، وأما فرس الشيطان: فالذي يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان: فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي تستر من فقر»**[5].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الخيل لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر. فأما الذي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها (أي أطال الحبل الذي يربطها) في مرج أو روضة، فما أصابت (أي: فما أكلت) في طيلها ذلك من المرج أو الروضة، كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر.**

---

(1) أخرجه أبو داود (2514)، والنسائي في الصغرى (3582)، والحاكم (2506)، وأحمد (17008).

(2) رواه البخاري (2784)، ومسلم (2245).

(3) رواه البخاري (2788)، وأحمد (8802).

(4) رواه أحمد (14498).

(5) رواه أحمد (3756).

ورجل ربطها تغنيًا وتعففًا، ولم ينسَ حق الله في رقابها (أي في زكاتها) ولا ظهورها (أي ركوب من يحتاجها)، فهي له ستر، ورجل ربطها فخرًا ورياءً فهي على ذلك وزر»[1].

وقد حض النبي ﷺ على تعلم القتال في البحر. فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها، والمائد فيه (الذي يصيبه الدوار والقيء) كالمتشحط (المتخبط) في دمه»**[2].

* * *

(1) البخاري في المناقب (2331).

(2) رواه البيهقي في الكبرى (8676)، وصححه الألباني.

الفصل الثالث

السرايا والبعوث في السنة الأولى من الهجرة

عملًا بإذن الله عز وجل للمؤمنين بالقتال، أخد رسول الله ﷺ يبعث بالسرايا والبعوث لتعقب عير (قوافل) قريش إلى الشام، والتي كانت تمر بالمدينة في طريقها.

وقد رأى رسول الله ﷺ أن يقطع عليهم طريقهم، ويصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة؛ ليكون في ذلك عقاب لهم على إخراجهم للمسلمين من ديارهم، وما أخذوه من أموالهم، وإضعاف لقوتهم، فيكون ذلك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال الذي لابد أن يكون، فما كانت قريش لتدع النبي ﷺ يبلغ الإسلام لمن أمره الله بتبليغه إليهم من الناس كافة[1].

- **الفرق بين السرية والغزوة:**

يُطلق كُتاب السير على كل مجموعة من المسلمين خرج بها النبي ﷺ ليلقى عدوه (غزوة)، سواء حدث فيها قتال أو لم يحدث، وسواء أكان عددها كبيرًا أو صغيرًا، ويُطلق على كل مجموعة من المسلمين يرسلها النبي ﷺ لاعتراض عدو كلمة: (سرية) أو (بعث)، وقد يحدث فيها قتال وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوه أو غيره، وغالبًا ما يكون عدد الذين يخرجون في السرايا قليلًا؛ لأن مهمتهم محددة في مناوشة العدو وإخافته وإرباكه، وقد قاد رسول الله ﷺ سبعًا وعشرين غزوة، وأرسل ما يقدر بثمان وثلاثين سرية وبعثًا[2].

قادة السرايا المهاجرين:

كان قادة السرايا جميعها من المهاجرين، وكان لهذا معنى خاص في هذه الحرب. فأصل العهد مع الأنصار هو حماية رسول الله ﷺ وصحبه في المدينة، وهذه السرايا تعرض للقوافل خارج المدينة، هذا من جهة .. ومن جهة ثانية: فلابد أن تعرف قريش أن هؤلاء المهاجرين الفارين من اضطهادها في مكة ليسوا موطن ضعف وهوان، بل هم قوة مرهوبة ذات شوكة، عليها أن تحسب ألف حساب لها قبل أن تفكر في مواجهتهم[3].

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج، ص 61.

(2) في ظلال السيرة، لأبي فارس؛ والصلابي: السيرة النبوية، ص 366.

(3) الغضبان: المنهج الحركي، ص 232.

لماذا كانت السرايا؟:

أولًا: كي تذوق قريش وبال أمرها؛ لموقفها المشين من الدعوة، وأن تتجرع مرارة هذا الموقف، فتعلم أن مصالحها وتجارتها صارت في مهب الريح بعد أن سيطر المسلمون على شريان حياتها، من خلال قوافلها إلى الشام، حيث أصبحت رحلة الصيف عندها وخيمة العواقب(1).

ثانيًا: إشعار مشركي المدينة ويهودها ومنافقيها وأَعْرُب البادية الضاربين حولها، بأن المسلمين أقوياء .. فالمتربصون بالإسلام لن يصدهم عن النيل منه إلا الخوف وحده(2)، وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60].

ثالثًا: لما أرادت قريش أن تُري المسلمين أن لها يدًا في داخل المدينة، أراد المسلمون أن يروا قريشًا أن المسلمين ليسوا بذلك الهوان الذي تتصوره قريش، وأنهم قادرون على كسر شوكتها، وحصارها سياسيًّا واقتصاديًّا، ورد حقوقهم المسلوبة(3).

رابعًا: كانت هذه السرايا والبعوث بمثابة تدريبات عسكرية تعبوية، ومناورات حية لجند الإسلام؛ فقد كان رسول الله ﷺ يعدهم لتثبيت دعائم الدولة، والاستعداد للفتوحات المرتقبة، والتي ما فتئ ﷺ يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى، في أوقات الحرب والسلم، والخوف والأمن(4).

خامسًا: كسب بعض القبائل، وتحجيم دور الأعراب، وتحييدها في الصراع الدائر بين مكة والمدينة، وذلك بعقد المعاهدات مع القبائل التي مر عليها المسلمون في طريقهم؛ لأن الأصل أن هذه القبائل تميل إلى قريش وتتعاون معها. وبعد أن اتفقت مع رسول الله ﷺ وعقدت

---

(1) المصدر السابق.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 228.

(3) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 326.

(4) الصلابي: السيرة النبوية، ص 314.

معه معاهدات، أصبحت تشكل خطرًا على تجارة قريش، وصار المسلمون هم السادة في المنطقة[1].

أول لواء يُعقد في الإسلام:

في رمضان من السنة الأولى للهجرة، أرسل رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثلاثين مقاتلًا من المهاجرين (ولم يبعث أحدًا من الأنصار)؛ ليعترض عيرًا لقريش من الشام، فيها أبو جهل وثلاثمائة من المشركين، وعقد له لواء أبيض، حمله أبو مرثد الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان أول لواء يعقد في الإسلام. فسار حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه حتى وصلوا ساحل البحر، فالتقوا بالمشركين فاصطفوا للقتال، فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعًا للفريقين جميعًا، فانصرفوا ولم يكن بينهم قتال.

أول سهم يرمى في الإسلام:

في شوال من السنة الأولى للهجرة، بعث رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ستين رجلًا من المهاجرين ليس فيهم أنصاري، وأمره بالمسير إلى بطن رابغ؛ ليعترض عيرًا لقريش. **قال ابن إسحاق:** وبعث رسول الله ﷺ في مقامه ذلك بالمدينة عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي في ستين - أو ثمانين - راكبًا من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة، فلقي بها جمعًا عظيمًا من قريش، فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي به في سبيل الله في الإسلام، ثم انصرف القوم عن القوم، وللمسلمين حامية.

وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهراني، حليف بني زهرة، وعتبة بن غزوان بن جابر المازني، حليف بني نوفل بن عبد مناف، وكانا مسلمين ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار (أي ليصلا معهم إلى المسلمين فيلحقا بهم).

قال ابن إسحاق: وكان على المشركين يومئذ عكرمة بن أبي جهل[2].

---

(1) المصدر السابق.

(2) وقيل: بل أبو سفيان بن حرب.

سرية سعد بن أبي وقاص:

في آخر شوال من تلك السنة (وقيل: في ذي القعدة)، بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الخرار من أرض الحجاز؛ يعترضون عيرًا لقريش، وعهد إليه ألا يجاوز الخرار، وكانوا عشرين، فخرجوا على أقدامهم يسيرون بالليل، ويكمنون بالنهار، حتى بلغوا الخرار، فوجدوا العير قد مرت بالأمس[1]، فعادوا دون أن يلقوا أحدًا.

* * *

(1) محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول، ص 145.

الفصل الرابع

الغزوات والسرايا في السنة الثانية من الهجرة

أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ:

في صفر على رأس أحد عشر شهرًا من الهجرة، غزا رسول الله ﷺ غزوة (الأبواء)، وكانت أول غزوة غزاها بنفسه.

خرج ﷺ في المهاجرين خاصة، يعترض عيرًا لقريش، واستخلف على المدينة سعد ابن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان يحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان لونه أبيض، فسار حتى بلغ الأبواء من ديار بني ضمرة، فوجد العير قد فاتتهم، فلم يلق حربًا، وكانت فرصة لموادعة بني ضمرة من كنانة، على ألا يكثروا عليه، ولا يعينوا عليه أحدًا، وكتب في ذلك كتابًا لزعيمهم مخشي بن عمرو الضمري، جاء فيه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم، إلا أن يحاربوا في دين الله ما بَلَّ بحر صوفه (كناية عن التأبيد والاستمرار)، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصرة أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله، وذمة رسوله، ولهم النصر على من بر منهم واتقى[1].

وكان قرب بني ضمرة وحلفائهم من المدينة التى كانت سوقهم ومصدر رزقهم، قد وضعهم في موقف لا يسمح لهم بأي مسلك غير موادعة الدولة الإسلامية الناشئة، وهو حلف عدم اعتداء وفق المصطلح الحديث[2]. وكانت هذه أول معاهدة عقدها رسول الله ﷺ مع غير يهود المدينة، وقد أقام رسول الله ﷺ بالأبواء بقية صفر، وعاد في ربيع الأول، فغيبته هذه الغزوة عن المدينة خمس عشرة ليلة.

---

(1) الوثائق السياسية: محمد حميد الله، ص 220؛ والصلابي: السيرة النبوية، ص 361.

(2) خالد سليمان الفهداوي: الفقه السياسي، ص 119؛ والصلابي: السيرة النبوية، ص 361.

غزوة بواط:

في ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر شهرًا من الهجرة، خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، يعترض عيرًا لقريش، على رأسها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسار حتى بلغ بواط، وهي من جبال جهينة من ناحية رضوى، ولكن أمية بن خلف كان قد بلغه خبر خروج النبي ﷺ، فأسرع بالعير ونجا بها، فرجع رسول الله ﷺ حين لم يعثر على القافلة، ولم يلق حربًا.

غزوة بدر الأولى:

وتسمى في كتب السيرة بأسماء عدة، فتسمى بدر الصغرى، وتسمى بغزوة سفوان، وتسمى بغزوة طلب كرز بن جابر الفهري؛ ذلك أن كرز بن جابر الفهري كان قد أغار على سرح (مرعى) المدينة في ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهرًا من الهجرة، ليأخذ من أغنام المدينة ما تصل إليه يده، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه في سبعين من أصحابه، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحمل لواءه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى بلغ واديًا يقال له (سفوان)، عن ناحية بدر، ولكن كرزًا كان قد هرب، فلم يدركه ﷺ، فرجع من دون حرب.

غزوة العشيرة:

في جمادى الأولى أو الثانية في السنة الثانية من الهجرة، علم رسول الله ﷺ بخروج قريش إلى الشام بأعظم عير لها، جمعوا فيها أموالهم، حتى لم يبق بمكة قرشي له مال إلا بعث به في تلك العير، وكان على رأسها أبو سفيان بن حرب في بضعة وعشرين رجلًا، فخرج إليها رسول الله ﷺ في خمسين ومائة - ويقال في مائتين - من أصحابه، بعد أن استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ولم يزل سائرًا يسعى بالليل ويتخفى بالنهار، حتى بلغ العشيرة (مكان ببطن ينبع)، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين عودتها من الشام في غزوة بدر الكبرى.

وفي عودته إلى المدينة، حالف رسول الله ﷺ بني مدلج وحلفاءهم بمثل ما حالف بني ضمرة، وبهذا كسب أيضًا ود قبيلة أخرى من القبائل الواقعة على طريق التجارة بين مكة

والشام، وهذا - ولا شك - فيه تقوية للمسلمين، وإضعاف لقريش؛ فقد قطع عليهم الرسول ﷺ بهذه الأحلاف أن يستجيروا بقبيلة من هذه القبائل، ويحتموا بها[1].

سرية عبد الله بن جحش والقتال في الأشهر الحرم:

وكانت سببًا لغزوة بدر الكبرى بعد ذلك ..

قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفله (أي: بعد رجوعه) من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد.

وكتب له كتابًا، وأمره أن لا ينظر فيه (أي لا يقرأ ما فيه من تعليمات) حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا.

فلما سار بهم يومين فتح الكتاب، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة (مكان بين مكة والطائف)، فترصد بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم، فلما نظر في الكتاب، قال: سمعًا وطاعة وأخبر أصحابه بما في الكتاب، وقال: قد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف منهم أحد.

وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن، فوق الفرع يقال له: بحران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يتعقبانه، فتخلفا في طلبه (بحثًا عنه)، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة، (اسم بلدة) فمرت عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة.

وتشاور الصحابة فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب (وهو من الأشهر الحرم).

فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 118.

فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان وأفلت منهم نوفل بن عبد الله بن المغيري، وأقبل عبد الله ابن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ.

وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ فيما غنمنا الخمس، فعزله، وقسم الباقي بين أصحابه، وذلك قبل أن ينزل الخمس (أي قبل أن ينزل حكم تقسيم الغنائم).

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أُسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان، وقالت يهود: تفائل (المقصود: تتشاءم) بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب (أي: توقعوا حربًا ضروسًا بين محمد ﷺ وقريش)، فجعل الله ذلك عليهم لا لهم.

فلما أكثر الناس في ذلك، أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ [البقرة: 217].

أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه، وأنتم أهله، وذلك أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم، والفتنة أكبر من القتل، أي: قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه، حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مقيمون (مستمرون) على أخبث من ذلك، غير تائبين، ولا نازعين، ولهذا قال الله تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ [البقرة: 217].

قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت قريش في فداء عثمان والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: «لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا» - يعني: سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم. وقد ظن ﷺ أنهما وقعا في الأسر، فقدم سعد وعتبة (بعد أن وجدوا بعيرهما)، فأفداهما رسول الله ﷺ.

فأما الحكم بن كيسان، فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قُتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأما عثمان بن عبد الله، فلحق بمكة، فمات بها كافرًا.

قال ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر، فقالوا يا رسول الله: أنطمع أن تكون لنا غزاة نعطى فيها أجر المجاهدين؟

فأنزل الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة: 218].

فوصفهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

فكان عمرو بن الحضرمي أول قتيل مشرك قُتل بين المسلمين والمشركين.

وقال عبد الملك بن هشام: هو أول قتيل قتله المسلمون، وهذه أول غنيمة غنمها المسلمون، وعثمان والحكم بن كيسان أول من أسره المسلمون[1].

تعقيب:

قال الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها؛ فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله! فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟!

ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر قتل نبيهم وسلب أموالهم؟

(1) البداية والنهاية 3/ 306.

لكن بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عندما تكون في مصلحته، فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بها ينتقضها هدم القوانين والدساتير جميعًا.

فالقانون المرعي عنده – في الحقيقة – هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب.

وقد أوضح الله – ﷻ- أن المشركين لن يحجزهم شهر حرام أو بلد حرام عن المضي في خطتهم الأصيلة، وهي سحق المسلمين؛ حتى لا تقوم لدينهم قائمة، فقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: 217].

ثم حذر المسلمين من الهزيمة أمام هذه القوى الباغية، والتفريط في الإيمان الذي شرفهم الله به، وربط سعادتهم في الدنيا والآخرة بالبقاء عليه، فقال: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ [البقرة].

وزكى القرآن عمل «عبد الله» وصحبه؛ فقد نفذوا أوامر الرسول بأمانة وشجاعة، وتوغلوا في أرض العدو مسافات شاسعة، متعرضين للقتل في سبيل الله، متطوعين لذلك من غير مكره أو محرج.

فكيف يجزون على هذا بالتقريع والتخويف؟! قال الله فيهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة] .

والقرآن في فِعَال هذه السرية، لم يدع مجالًا للهوادة مع المشركين المعتدين؛ مما كان له أثره البعيد لدى المسلمين وخصومهم.

فبعد أن كان أغلب المكتتبين في السرايا السابقة من المهاجرين، أخذت البعوث الخارجة تتألف من المهاجرين والأنصار معًا.

وزاد الشعور بأن الجهاد المرتقب قد يطول مداه، وتكثر تبعاته، ولكنه جهاد مستحب، مقرون بالخير العاجل والآجل.

وأدركت مكة أنها مؤاخذة بما جد أو يجد من سيئاتها، وأن تجارتها مع الشام أمست تحت رحمة المسلمين.

وهكذا اتسعت الهوة، وزادت بين الفريقين الجفوة.

وكأن هذه الأحاديث الشداد هي المقدمة لما أعده القدر بعد شهر واحد من وقوعها، عندما جمع رجالات مكة، وخيرة أهل المدينة، على موعد غير منظور في «بدر»[1].

* * *

(1) فقه السيرة، ص 231- 233.

الفصل الخامس

من أحداث السنة الثانية من الهجرة قبل غزوة بدر الكبرى

شهدت السنة الثانية من الهجرة أحداثًا ووقائع أخرى غير الإذن بالقتال وما تبعه من غزوات وسرايا، نورد بعضها فيما يلي:

1- أمر النبي ﷺ بصيام يوم عاشوراء:

- عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: (قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم، فصامه، فقال: أنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه).

وفي رواية: (فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه).

وفي رواية أخرى: (فنحن نصومه تعظيمًا له)[1].

- وعن الربيع بنت معوذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: (أرسل رسول الله ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة: «**من كان أصبح صائمًا فليتم صومه، ومن كان مفطرًا فليتم بقية يومه**»، فكنا بعد ذلك نصومه، وتصومه صبياننا الصغار، ونذهب إلى المسجد، فنجعل لهم اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم أعطيناه إياه، حتى يكون الإفطار)[2].

- وعن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ أمر رجلًا من أسلم: «**أن أذن في الناس: من كان أكل فليصم بقية يومه، ومن لم يكن أكل فليصم؛ فإن اليوم عاشوراء**»[3].

- وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (كان يوم عاشوراء يومًا تعظمه اليهود، وتتخذه عيدًا، فقال رسول الله ﷺ: «**صوموه أنتم**». وفي رواية لمسلم: (كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء، يتخذونه عيدًا، ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشاراتهم، فقال رسول الله ﷺ: **فصوموه أنتم**)[4].

---

(1) أخرجه البخاري (3855)، ومسلم (2609)، وأبو داود (2445)، والنسائي (2832).

(2) رواه مسلم (2622)، وأحمد (8652)، وابن حبان (3573)، والبيهقي (8090).

(3) أخرجه البخاري (1983)، ومسلم (2621).

(4) أخرجه البخاري (1981)، ومسلم (2614).

وقد ظل صيام يوم عاشوراء فرضًا على المسلمين، إلى أن فرض الله عز وجل عليهم صوم رمضان، فصار صيامه نافلة، من شاء صامه، ومن شاء أفطر:

- فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (كان عاشوراء يصام قبل رمضان، فلما نزل رمضان كان من شاء صام، ومن شاء أفطر)[1].

- وعن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هذا يوم عاشوراء، ولم يكتب الله عليكم صيامه، وأنا صائم، فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر»[2].

- وعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (كان رسول الله ﷺ يأمر بصيام يوم عاشوراء ويحثنا عليه، ويتعاهدنا عنده، فلما فُرض رمضان، لم يأمرنا ولم ينهنا، ولم يتعاهدنا عنده)[3].

2- تحويل القبلة:

كان رسول الله ﷺ يحب أن يصرف قبلته نحو الكعبة .. قبلة إبراهيم، وكان يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه[4]. فلما هاجر إلى المدينة لم يمكنه أن يجمع بينهما، فصلى إلى بيت المقدس أول مقدمه المدينة، واستدبر الكعبة ستة عشر شهرًا (أو سبعة عشر شهرًا)، وكان يكثر الدعاء والتضرع والابتهال إلى الله ﷻ، ويرفع يديه وطرفه إلى السماء سائلًا وراجيًا ربه أن يصرفه إلى الكعبة. وكان قد قال لجبريل ذلك. فقال: إنما أنا عبد. فادع ربك واسأله، فجعل يقلب وجهه في السماء ، يرجو ذلك[5]، حتى حقق الله أمنيته، واستجاب دعاءه، فوجهه إلى المسجد الحرام: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة: 144].

---

(1) رواه البخاري (4688)، وأحمد (25708).

(2) أخرجه البخاري (1979) ، ومسلم (2606)، والنسائي (2853)، والبيهقي (8428).

(3) أخرجه مسلم (2605)، وأحمد (20528)، وابن خزيمة (2380)، والبيهقي (8425).

(4) كما رواه أحمد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(5) محمد بن عبد الوهاب: مختصر السيرة النبوية، ص 140.

فلما نزل الأمر بتحويل القبلة، خطب رسول الله ﷺ المسلمين، وأعلمهم بذلك - كما رواه النسائي - وأن ذلك كان وقت الظهر(1). وقد روى البخاري عن البراء رضي الله عنه، أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا - أو سبعة عشر شهرًا - وكان يعجبه أن تكون قبلته إلى البيت، وأن أول صلاة صلاها إلى الكعبة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَلَ مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت (أي: وهم راكعون). وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحَوَّلَ رجال قتلوا لم ندر ما نقول (أي: هل قبلت صلاتهم؟) فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 144].

وكان في ذلك حكمة عظيمة، ومحنة للناس؛ مسلمهم وكافرهم:

- فأما المسلمون فقالوا: **(آمنا به، كلٌّ من عند ربنا)**، وهم الذين هدى الله، ولم تكن بكبيرة عليهم.

- وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا.

- وأما اليهود فقالوا: (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟!).

- وأما المنافقون فقالوا: إن كانت القبلة الأولى حقًّا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان على باطل(2).

وكان تحويل القبلة أول نسخ وقع في الإسلام، ولذا فقد أكد الله سبحانه الأمر في ثلاثة مواضع في القرآن متقاربة(3)، فقال سبحانه أولًا: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: 144].

وقال ثانيًا: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 149].

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 3/ 310.

(2) عبد الله بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول، ص 141.

(3) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 105.

وقال ثالثًا: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[البقرة: 150].

وقد كان تحويل القبلة إلى الكعبة في منتصف شهر رجب، وذهب البعض إلى أنه كان في النصف من شعبان، بعد أن صلى رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس بالمدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا[1].

الحكمة من تحويل القبلة:

لقد كان تحويل القبلة أولًا عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية، أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 143]، فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم، ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم - فقد نزعهم نزعًا من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه فترة إلى المسجد الأقصى؛ ليخلص نفوسهم من كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعًا مجردًا من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه، اعتزازًا بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ، أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد.

حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ، صدر الأمر الإلهي الكريم، بالاتجاه إلى المسجد الحرام، ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه، هي حقيقة الإسلام، حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصًا لله[2].

---

(1) البخاري، الفتح (11/ 23، حديث، 448)؛ ومسلم (1/ 314، حديث 525).

(2) سيد قطب: في ظلال القرآن.

3- بناء الصُفَّة التابعة للمسجد النبوي:

لما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بأمر الله تعالى، وذلك بعد ستة عشر شهرًا من هجرته ﷺ إلى المدينة، بقي حائط القبلة الأول في مؤخرة المسجد النبوي، فأمر النبي ﷺ به فظلل أو سقف، وأطلق عليه اسم (الصفة) أو (الظلة)، ولم يكن له ما يستر جوانبه.

قال القاضي عياض: الصفة ظلة في مؤخر مسجد الرسول ﷺ، كان يأوي إليها المساكين، وإليها ينسب أهل الصفة.

وقال ابن تيمية: الصفة كانت في مؤخرة مسجد النبي ﷺ في شمال المسجد بالمدينة. وقال ابن حجر: الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي، مظلل، أُعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل[1].

4- تشريع فريضة صيام رمضان:

نزلت آيات القرآن تترى؛ لتؤكد تميز المسلمين في العبادة، كما تميزوا في التصور والاعتقاد ومنهج الحياة .. فكما تميزوا في وجهة الصلاة، ميزهم ربهم في صيامهم، ففرض عليهم في شعبان من السنة الثانية للهجرة صيام رمضان، فصار رمضان هو الفريضة بعد أن كان عاشوراء هو الفريضة، وخُيِّر الناس بعد ذلك في صيام عاشوراء، فمن شاء صام ومن شاء أفطر.

وقد أوجب الله ﷻ صيام رمضان بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185] .. فإن كان أصل الصيام قائمًا بين المؤمنين من قبل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 184]، فإن رمضان منذ ذلك الوقت في السنة الثانية من الهجرة قد صار هو شهر صوم هذه الأمة.

وفي مبدأ الإسلام كان الصائم إذا أفطر يأكل ويشرب ويباشر امرأته إلى أن ينام أو يصلي العشاء، فمتى نام أو صلى العشاء، حرم عليه الطعام والشراب والمباشرة، فشق ذلك على

---

(1) الصلابي، السيرة النبوية، ص 302.

المسلمين، ووقع بعضهم في الحرج بسبب هذا، فخفف الله عن الأمة، ورحمها، وأباح لهم هذه الثلاثة إلى طلوع الفجر[1].

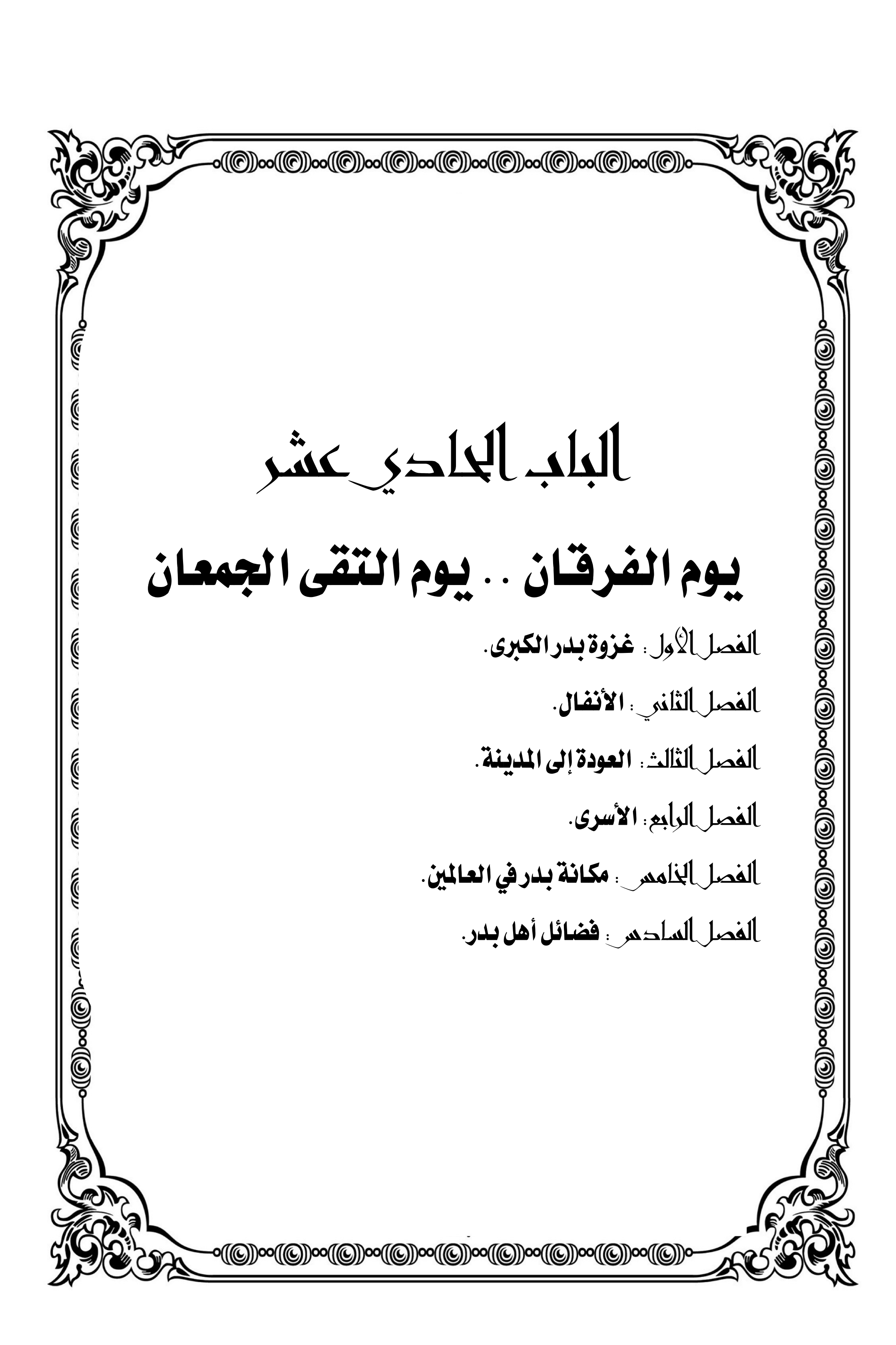
روى الإمام أحمد في مسنده، عن معاذ بن جبل، من حديث طويل، في أحوال الصلاة والزكاة، قال: وكانوا يأكلون، ويشربون، ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلًا من الأنصار يقال له صِرْمة - يعني ابن قيس - كان يعمل صائمًا حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح، فرآه رسول الله ﷺ قد جهد كثيرًا، فقال: «**ما لي أراك قد جهدت جهدًا شديدًا**»، فأخبره. وكان عمر قد أصاب من النساء بعدما نام، فأتى رسول الله ﷺ وهو يبكي ندمًا، فذكر له ذلك، فأنزل الله سبحانه: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾، إلى قوله: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾[2][3].

* * *

(1) تفسير ابن كثير والبغوي، ج1، ص 418.

(2) رواه الطبراني، ج 20، ص 134، والحاكم في مستدركه (3135)، وغيرهما.

(3) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 108- 109.



الباب الحادي عشر

يوم الفرقان .. يوم التقى الجمعان

الفصل الأول: **غزوة بدر الكبرى.**

الفصل الثاني: **الأنفال.**

الفصل الثالث: **العودة إلى المدينة.**

الفصل الرابع: **الأسرى.**

الفصل الخامس: **مكانة بدر في العالمين.**

الفصل السادس: **فضائل أهل بدر.**

الفصل الأول

غزوة بدر الكبرى

غزوة بدر الكبرى بوقائعها وأحداثها، هي أهم وقعة في تاريخ الإسلام، وقد سماها الله عز وجل (يوم الفرقان)؛ فقد كانت فرقانًا بين الحق والباطل، وفرقانًا بين الوحدانية والشرك .. وكانت فرقانًا بين عهد الاستضعاف في تاريخ الأمة المسلمة وعهد القوة والردع والمبادأة .. فرقانًا تم بتدبير في الملكوت الأعلى؛ لتكون بدر معركة وقتالًا لا قافلة وغنيمة؛ ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابرَ الكافرين، وليستقر في خَلَدَ المؤمنين إلى قيام الساعة أن النصر من عند الله وحده، فما هم إلا ستار للقدرة، تحقق بهم ما تشاء من القصد والحكمة، فإذا اتقوا وخافوا فليتقوا وليخافوا الله، الذي يملك النصر والهزيمة، والذي يملك القوة والسلطان، والذي يملك العون والمدد، وما عليهم إلا اتخاذ الوسائل والأسباب، وبذل الجهد، والوفاء بالتكاليف.

المبحث الأول: قدرية اللقاء

- قافلة أبي سفيان:

سبق في ذكر غزوة العشيرة، أن عيرًا لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام، فلما قرب رجوعها من الشام إلى مكة، بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ليقوما باكتشاف خبرها[1]، فوصلا إلى الحوراء على البحر الأحمر، وهي محطة من محطات القوافل التي تسير بين الحجاز والشام، ولابد للعير أن تمر بها، وقد تمكن الرجلان من أن يستميلا قبيلة جهينة، وأقاما يتسقطان الأخبار، حتى تأكدا من مبارحتها الشام، فعادا إلى الرسول ﷺ يبلغانه الخبر، ويقال إن الرسول ﷺ لم ينتظر قدوم الرسولين من مهمتهما، وقرر الخروج إلى طريق الشام؛ خشية أن تفوته العير في إيابها، كما فاتته في ذهابها.

- أبو سفيان يدنو من الحجاز:

لما اقترب أبو سفيان بالقافلة من الحجاز، أخذ يتحسس الأخبار، ويسأل كل من يلقى من الركبان؛ خوفًا من محمد ﷺ وأصحابه أن يعترضوا طريقه، فأصاب خبرًا من الركبان أن محمدًا

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 190.

ﷺ قد استنفر أصحابه له ولعيره، فقوي بذلك خوف أبي سفيان، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، وبعثه إلى مكة؛ ليستنفر قريشًا فيخرجوا لحماية عيرهم[1].

- **رؤيا عاتكة:**

قال ابن إسحاق: وقد رأت بنت عبد المطلب (أي: عاتكة) قبل قدوم ضمضم إلى مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب، فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكتم عليَّ ما أحدثك، قال لها: وما رأيت؟

قالت: رأيت راكبًا على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه.

ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مَثُل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث.

ثم مَثُل به بعيره على رأس جبل أبي قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت (تهشمت)، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة.

قال العباس: والله إن هذه لرؤيا، فاكتميها لا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة - وكان له صديقًا - فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لابنه عتبة، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش في أنديتها.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود، يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل، قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، قال أبو جهل: يا بني عبد المطلب، متى حُدِّثت فيكم هذه النبية (أي: متى جاءها الوحي)؟

قال: قلت: وما ذلك؟

قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة.

---

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 211.

قال: قلت: وما رأت؟

قال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم! قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه كذا وكذا ..

فسنتربص بكم هذه الثلاث (التي حددها مما رأته عاتكة في الرؤيا) فإن يك حقًّا ما تقول فسيكون، وإن تمض ثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

قال العباس: فوالله ما كان مني إليه كبير شيء (أي: أتصد له)، إلا أنني جحدت ذلك، وأنكرت أن تكون رأت شيئًا.

قال: ثم تفرقنا، فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم (أي بسب رسول الله ﷺ)، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غِيرَة لشيء مما سمعت؟!

قال: قلت: قد – والله – فعلت ما كان مني إليه من كبير (يعترف بتقصيره في الرد عليه)، وايم الله لأتعرضن له، فإذا عاد لأكفيكنه.

قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب، أرى أني قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه.

قال: فدخلت المسجد فرأيته، فوالله إني لأمشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلًا خفيفًا حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر، قال: إذ خرج نحو باب المسجد يشتد (مسرعًا)، فقلت في نفسي: ما له – لعنه الله – أكل هذا فَرَقٌ (خوف) مني أن أشاتمه؟!

وإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفًا على بعيره، وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه.

قال: فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر[1].

---

(1) ورواه الحاكم في المستدرك (3/ 19 – 20).

- **وصول ضمضم الغفاري إلى مكة:**

وصل ضمضم الغفاري إلى مكة، وقد جدع أذني بعيره وأنفه، وحول رحله، وشق قميصه من قُبل ومن دُبر، ووقف على بعيره وهو يصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة (العير التي تحمل التجارة)، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث[1].

وما لبث أبو جهل حين سمعه أن صاح بالناس من عند الكعبة يستنفرهم، ولم تكن قريش في حاجة إلى من يستنفرها؛ فقد كان لكل منهم في هذه العير نصيب[2].

- **قريش تخرج بطرًا ورئاءً وصدًّا عن سبيل الله:**

فتجهز الناس سراعًا، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟! (التي غنمها عبد الله بن جحش في سريته التي ذكرناها آنفًا) والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلًا. وأوعبت قريش[3]، فلم يتخلف من أشرافها إلا أبو لهب بن عبد المطلب؛ فقد بعث مكانه العباس ابن هشام بن المغيرة، استأجره بأربعة آلاف درهم كانت عليه قد أفلس بها، وكاد أمية بن خلف يتخلف، وكان شيخًا جليلًا جسيمًا ثقيلًا؛ ذلك أنه سمع من صديقه سعد بن معاذ - وقد ذهب إلى مكة معتمرًا بعد الهجرة - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال سعد: لا أدري. فلما حصل الاستنفار تذكر هذا وداخله رعب شديد.

ولكن الله إذا أراد شيئًا هيأ له الأسباب، فلم يلبث أبو جهل - وقد علم بخبر تخلفه - أن جاءه ومعه عقبة بن أبي معيط، ومع عقبة مجمرة فيها بخور، ومع أبي جهل مكحلة ومِرْود، فوضع عقبة المجمرة بين يديه، وقال له: يا أبا علي استجمر فإنما أنت مثل النساء، وقال أبو جهل: اكتحل أبا علي فإنما أنت امرأة، فلم يجد بدًّا وقد استثارا حميته بهذا الكلام الجارح لرجولته، إلا أن قال لهم: ابتاعوا لي أجود بعير بمكة، وخرج معهم، وفي نيته أن يرجع بعد قليل متسللًا، ولكن

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 221).

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 126.

(3) أي خرجت جميعها إلى الغزو.

منيته ساقته إلى حتفه رغم أنفه، وهكذا لم يتخلف بمكة قادر على القتال، غير بني عدي، فلم يخرج منهم أحد[1].

وكان قوام الجيش المكي نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة درع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبو جهل بن هشام[2]. وخرج مع الجيش القيان والمغنيات، يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين.

- **[وإني جار لكم]:**

فلما أجمعت قريش المسير ذكرت ما كان بينها وبين بني بكر من حرب، فخافت أن تُضرب من خلف، وكادوا أن يرجعوا عما أرادوا، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك المدلجي، سيد بني كنانة، قال لهم: (أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه)[3]، فطمأنهم، فانطلقوا سراعًا.

- **خروج النبي ﷺ وأصحابه:**

ندب رسول الله ﷺ أصحابه إلى الخروج، فخف لدعوته أقوام، وتثاقل عنها آخرون؛ لظنهم أن رسول الله ﷺ لم يرد حربًا، وقوي عندهم هذا الظن أن الرسول ﷺ قال: «من كان ظهره حاضرًا (ما يُركب عليه) فليركب معنا»[4]، فلم يستنفر النبي ﷺ كل الناس، ولم يأذن لمن أراد أن يأتي بظهره من علو المدينة، ولم يعاتب أحدًا تخلف، وكان عدد من خرج معه ما بين الـ 313 والـ 337 رجلًا، منهم ما بين الـ 82 والـ 86 من المهاجرين، و61 من الأوس و170 من الخزرج[5]، معهم فرسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي، وسبعون بعيرًا، يعتقب (يتناوب الركوب) الرجلان والثلاثة على البعير الواحد.

---

(1) أبو شهبة: ج2، ص 126.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 192.

(3) ابن هشام (2/ 301).

(4) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 123.

(5) د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 331.

وكان الذين صحبوا رسول الله ﷺ، يحسبون أن مضيهم في هذا الوجه لن يعدوا ما ألفوا في السرايا الماضية، ولم يدر بخلد واحد منهم أنه مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام، ولو علموا لاتخذوا أهبتهم كاملة، ولما سمح لمسلم أن يبقى في المدينة لحظة(1). قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني تخلفت من غزوة بدر، ولم يعاتب الله أحدًا تخلف عنها؛ إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد(2).

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة بن عبد المنذر، واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وكان هذا اللواء أبيض، وقسم جيشه إلى كتيبتين:

1- كتيبة المهاجرين: وأعطى رايتها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويقال لها: العقاب.

2- كتيبة الأنصار: وأعطى رايتها سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .. وكانت الرايتان سوداوين(3)، وجعل رسول الله ﷺ على الساقة قيس بن أبي صعصعة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم سار الجيش إلى بدر.

والمسير إلى بدر ليس سفرًا قاصدًا أو نزهة لطيفة، فالمسافة بين المدينة وبدر تربو على 160 كيلو مترًا، ولم يكن مع الرسول ﷺ وصحبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كما ذكرنا - غير سبعين بعيرًا يعتقبونها(4).

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعير (أي يتعاقبون)، وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ، قال: فكانت عقبه رسول الله ﷺ (دوره في النزول من البعي)، فقالا له: نحن نمشي (ليظل راكبًا)، فقال: «**ما أنتما بأقوى مني على المشي، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**»(5).

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 233.

(2) رواه البخاري (3865)؛ ومسلم (6965).

(3) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 191.

(4) الغزالي: فقه السيرة، ص 234.

(5) المسند (رقم 3901، 5، 239)، قال الألباني: سنده حسن.

فكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب وأبو لبابة على بعير، ولما ردَّ أبا لبابة، كان ثالثهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرًا، وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة (والثلاثة موالي رسول الله ﷺ) يتعاقبون بعيرًا[1].

وقد خرج رسول الله ﷺ في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، ومضى على الطريق الرئيس المؤدي إلى مكة ، حتى بلغ بئر الروحاء، فلما ارتحل منها، ترك طريق مكة إلى اليسار، وانحرف ذات اليمين على النازية يريد بدرًا، فسلك في ناحية منه حتى جزع واديًا يقال له: رحقان بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم مر على المضيق، ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء، ومن هناك بعث بسبس بن عمرو الجني وعدي بن أبي الزغباء الجهني رضي الله عنهما إلى بدر؛ يتحسسان له أخبار العير[2].

- **إرجاع صغار السن ومن لم يسلم:**

حين وصل رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى (بيوت السقيا خارج المدينة)، عسكر فيها، واستعرض من خرج معه، فرد من ليس له قدرة على القتال، وكان ممن رد: البراء بن عازب وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما[3]، ففي صحيح البخاري عن البراء، قال: (استُصْغِرْتُ أنا وابن عمر يوم بدر)[4].

وعند (حرة الوبرة) أدركه رجل من المشركين، قد كان يُذكر منه جرأة ونجدة، وأراد أن يحارب معه، فقال له رسول الله ﷺ: **«ارجع؛ فلن أستعين بمشرك»**، ثم عرض له مرة ثانية بالشجرة، ومرة ثالثة بالبيداء، والرسول ﷺ يقول له ما قاله أول مرة، فأقر بالإسلام، فقبله رسول الله ﷺ[5].

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 124.
(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 190.
(3) أبو شهبة، ج2، ص 124.
(4) صحيح البخاري، كتاب المغازى، باب (عدة أصحاب بدر)، ح(3870).
(5) انظر السيرة النبوية، مهدى رزق الله، ص 342، وصحيح مسلم (3/ 1449 – 1450).

- هذه والله علاف يثرب:

لما وصل بسبس بن عمرو وعدي بن الزغباء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى بدر - بأمر من رسول الله ﷺ - ليتحسسا أخبار العير، نزلا على قريب من ماء، نزلا يسقيان الماء في شن لهما، وعلى الماء مجدي بن عمرو الجهني (وكان مسالمًا للمسلمين وقريش جميعًا)، فسمع بسبس وعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جاريتين تقول إحداهما لصاحبتها: إنما تأتي العير غدًا أو بعده، فأعمل لهم، ثم أقضيك الدين الذي لك.فسمع عدي وصاحبه ذلك، فأتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه بما سمعا من خبر ورود العير غدًا أو بعد غد[1]. أما أبو سفيان فكان يسير بالعير على الطريق الرئيس حذرًا متيقظًا، فلما اقترب من بدر، تقدم عيره حتى لقي مجدي بن عمرو الجهني، فسأله: هل أحسست أحدًا؟ قال: ما رأيت أحدًا أنكره، إلا أني رأيت راكبين قد أناخا إلى التل، ثم استقيا في شن لهما ثم انطلقا، فأتى أبو سفيان مناخهما (المكان الذي أناخا فيه بعيرهما)، وأخذ من أبعار (غائط) بعيريهما، ففتته، فإذا فيه النوى، فعرف أنه من علاف المدينة، فقال: هذه والله علاف يثرب، فرجع إلى العير سريعًا فحولها عن طريقها، نحو الساحل غربًا، تاركًا الطريق الرئيس الذي يمر ببدر، ونجا بالعير.

- أبو جهل والمصير المقدر:

ورأى أبو سفيان أنه أحرز القافلة، فأرسل إلى قريش (وكانوا بالجحفة)، يقول: (إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم .. وقد نجاها الله، فارجعوا)، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم ثلاثًا، ننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان (المغنيات)، وتسمع بنا العرب، وبسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا[2].

وقال الأخنس بن شريق الثقفي، وكان حليفًا لبني زهرة، وكان فيهم مطاعًا: (يا بني زهرة، قد نجى الله أموالكم، فارجعوا) فاتبعوا مشورته ورجعوا، فلم يشهد بدرًا زهري، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل، وكذلك لم يشهدها أحد من بني عدي.

ورجع طالب بن أبي طالب (وكان في صفوف المشركين)؛ لأن قريشًا اتهمته وبني هاشم بأن هواهم مع محمد ﷺ، وقالوا: والله لقد عرفنا يا بني هاشم، وإن خرجتم معنا، أن هواكم مع

---

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 217.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 235.

محمد، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع. ومضت جموع قريش في خيلها وخيلائها حتى وصلت وادي بدر، فنزلوا عدوته القصوى عن المدينة في أرض سهلة لينة [1].

وذكر الأموي: أن أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل، نحر لهم عشرًا (من الإبل)، ثم نحر لهم أمية بن خلف بعسفان تسعًا، ونحر لهم سهيل بن عمرو بقديد عشرًا، ومالوا من قديد إلى مياه نحو البحر، فظلوا فيها، وأقاموا بها يومًا، فنحر لهم شيبة ابن ربيعة تسعًا.

- **(وهذا أيضًا نبي من بني المطلب):**

وعندما نزلت قريش الجحفة رأى جهيم بن الصلت بن المطلب رؤيًا ... فرأى رجلًا أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان وفلان، فعدد رجالًا ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لبَّة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح (لطخ) من دمه، فلما بلغ أبا جهل هذه الرؤيا، قال: وهذا أيضًا نبي من بني المطلب، سيعلم غدًا من المقتول إن نحن التقينا[2].

- **(والله لكأنك تعنينا يا رسول الله):**

بلغ رسول الله ﷺ - وهو لا يزال في الطريق بوادي ذفران خبر العير والنفير، وتأكد له نجاة القافلة، وإصرار قريش على القتال.

ونظر رسول الله ﷺ حوله، فوجد أولئك المؤمنين بين مهاجر باع في سبيل الله نفسه وماله، وأنصاري ربط مصيره وحاضره بهذا الدين الذي افتداه وآوى أصحابه .. فأحب أن يشعر القوم بحقيقة الموقف، حتى يبصروا على ضوئه ما يفعلون.

فاستشار ﷺ الناس، فقام أبو بكر، فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال:

يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك .. والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون، ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 128.

(2) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 230).

فقال له الرسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له.

ثم قال: أشيروا علي أيها الناس- وإنما يريد الأنصار - وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة.

فلما قال ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك .. فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك .. فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر فخضته، لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا .. إنا لصُبرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء .. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

وفي رواية: لعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض، فصل حبال من شئت واقطع حبال من شئت، وعادِ من شئت وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول «سعد»، ونشطه، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم[1].

وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون:

ولكن هذا الذي قاله أبو بكر وعمر، والذي قاله المقداد، والذي قاله سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يكن هو مقالة جميع الذين خرجوا من المدينة مع رسول الله ﷺ؛ فلقد كره بعضهم القتال، وعارض فيه؛ لأنهم لم يستعدوا لقتال، إنما خرجوا لملاقاة الفئة الضعيفة التي تحرس العير، فلما علموا أن قريشًا قد نفرت بخيلها ورجلها، وشجعانها وفرسانها، كرهوا لقاءها كراهية شديدة، هي هذه الكراهية التي يرسم التعبير القرآني صورتها بطريقة القرآن الفريدة:

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 236 – 239، مختصرًا، وابن هشام (2/ 63 – 64).

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال].

روى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره، بإسناده عن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: (إني أخبرت عن عير أبي سفيان بأنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَل هذه العير؛ لعل الله أن يغنمناها؟)، فقلنا: نعم. فخرج وخرجنا، فلما سرنا يومًا أو يومين، قال لنا: ما ترون في قتال القوم؟ إنهم قد أُخبروا بخروجكم. فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكنا أردنا العير. ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك. فقال المقداد بن عمرو: إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون». فتمنينا - معشر الأنصار - لو قلنا كما قال المقداد بن عمرو أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم.

قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾[الأنفال][1].

استطلاع:

ثم ارتحل رسول الله ﷺ، فسلك على ثنايا يقال لها الأصافر، ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدبَّة، وترك الحنَّان بيمين - وهو كثيب عظيم كالجبل - ثم نزل قريبًا من بدر[2].

وهناك ركب رسول الله ﷺ وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصحابه نزول، يستكشفان أخبار قريش، فلقيا شيخًا يقال له (سفيان الضمري)، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه من أخبارهم.

فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله: «إذا أخبرتنا أخبرناك». فقال: أوذاك بذاك؟ قال: «نعم»، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به جمع رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

(2) المباكفوري: الرحيق المختوم، ص 194.

كذا وكذا، للمكان الذي به قريش، فلما فرغ قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله: «نحن من ماء»[1]!! ثم انصرفا عنه، فقال الشيخ: ما من ماء؟ أمن ماء العراق[2]؟ (اسم بلد بالعراق).

ثم رجع رسول الله وصاحبه إلى أصحابه، فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء ببدر، يتسقطون له الأخبار، ويتجسسون على قريش، فأصابوا راوية[3] لقريش، فيها غلامان لهما: غلام لبني الحجاج وغلام لبني العاص بن سعيد، فأتوا بهما ورسول الله ﷺ يصلي، فقالا: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء فكره القوم خبرهما (أي: كرهوا ما قالا)، ورجوا أن يكونا (الغلامان) لأبي سفيان (أي مع العير فلا يكون قتال)، فضربوهما، فلما أوجعوهما قالا: نحن لأبي سفيان (كذبًا)، فتركوهما، فلما فرغ رسول الله من صلاته، قال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا - والله - إنهما لقريش»، ثم قال لهما: «أخبراني عن قريش»، فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما: «كم القوم؟»، قالا: كثير، قال: «ما عدتهم؟»، قالا: لا ندري، قال الرسول: «كم ينحرون كل يوم؟»، قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة والألف». فقال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» فذكرا: عتبة بن ربيعة، وشيبة، وأبا جهل وأمية بن خلف، وسهيل بن عمرو في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلًا: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها!!»[4].

وأشار ﷺ إلى مكان مصارع جماعة من زعماء قريش، فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.

وجعل رسول الله ﷺ شعار المهاجرين: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله، وسمى خيله: خيل الله.

---

(1) وهذا من التوريات البديعة، وهو يحتمل معنيين؛ أحدهما: المكان المعروف بهذا الاسم، والثاني: هو الماء الذي خلق منه كل شيء حي، وهو مراد النبي.

(2) يعني أمن المكان الذي بالعراق أم من غيره.

(3) الراوية: الإبل يستقى عليها الماء.

(4) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 131 – 132.

وقال ابن هشام: وكان شعار الصحابة جميعًا يوم بدر: أحد أحد[1].

- ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال:11]:

ثم سار رسول الله ﷺ حتى نزل وأصحابه بالعدوة الدنيا (وهي جانب الوادي من بدر القريب من المدينة (والعدوة القصوى هي في جانب الوادي البعيد عن المدينة)، بعيدًا عن الماء وقريش قريبة منه، وفي أرض سبخة لا تثبت عليها الأقدام، فعطش المسلمون وأصاب بعضهم جنابة بالاحتلام، فلم يجدوا ماءً يغتسلون به، ووسوس الشيطان لبعضهم: كيف تقاتلون غدًا وأنتم جنب؟، وكيف تقاتلون ولا ماء عندكم؟، فأنزل الله تعالى عليهم مطرًا، فسقوا واغتسلوا وتوضئوا وملئوا السقاية، ووطأ به الأرض، وصلب به الرمل من تحت أقدامهم، فسهل لهم السير، وكان نقمة على المشركين؛ فقد وحلت الأرض تحت أقدامهم، حتى لم يعودوا قادرين على الارتحال.

وقد روى ابن جرير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نزل النبي ﷺ - يعني حين سار إلى بدر - والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة (أي كثيرة مجتمعة) فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم، تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم[2].

وصدق الله ﷻ حيث قال: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١﴾[الأنفال].

ليلة المعركة:

بات رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع شجرة. وبات المسلمون ليلهم هادئي الأنفاس منيري الآفاق، غمرت الثقة قلوبهم، وأخذوا من الراحة قسطهم، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحًا[3].

---

(1) البداية والنهاية 3/ 336.

(2) تفسير الطبري (9/ 195).

(3) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 196.

روى الإمام أحمد عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ما كان فينا فارس يوم بدر إلا المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة، يصلي ويبكي حتى أصبح.

(وكانت هذه الليلة ليلة الجمعة، السابعة عشرة من رمضان، في السنة الثانية من الهجرة).

(قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا):

أما قريش فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر، وبعثوا عمير بن وهب يقدر لهم عدد أصحاب محمد ﷺ.

قال ابن إسحاق: وحدثني أبو إسحاق بن يسار، وغيره من أهل العلم، عن أشياخ من الأنصار، قالوا: لما اطمأن القوم (أي قريش) بعثوا عمير بن وهب الجمحي، فقالوا: حزر (أي قدر) لنا القوم أصحاب محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم.

فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلًا، أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد.

قال: فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئًا، فرجع إليهم، فقال: ما رأيت شيئًا، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم، حتى يَقْتُل رجلًا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم يا معشر قريش[1].

(صاحب الجمل الأحمر: إن يطيعوه يرشدوا):

فلما سمعت قريش ما قاله عمير بن وهب، دب الخلاف بينهم، وأخذ عتبة بن ربيعة يثني قومه عن القتال، محذرًا من مغبته، وقد كان شيخًا حكيمًا ذا رأي، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما نزل المسلمون وأقبل المشركون، نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة بن ربيعة وهو على جمل أحمر، فقال: (إن يكن عند أحد من القوم خير، فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا)[2].

(1) البداية والنهاية (3/ 269).

(2) رواه البزار، وأحمد في المسند (2/ 193، شاكر).

قال ابن إسحاق: فلما سمع حكيم بن حزام ذلك (أي كلام عمير بن وهب)، مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟

قال: وما ذاك يا حكيم؟

قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي (الذي قتلته سرية عبد الله ابن جحش، فأصرت قريش على القتال بحجة الثأر له، فتتحمل أنت ديته لقومه).

قال: قد فعلت.

أنت عليَّ بذلك، إنما هو حليفي فعليّ عقله (ديته) وما أصيب ماله.

فائت ابن الحنظلية - يعني: أبا جهل - فإني لا أخشى أن يسجر (يفسد) أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة خطيبًا، فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل (منكم) ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه؛ (لأنه) قتل ابن عمه - أو ابن خاله - أو رجلًا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعًا فهو يهنئها.

فقلت له: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا.

فقال: انتفخ - والله - سحره (يعني: انتفخت رئته من الخوف) حين رأى محمدًا وأصحابه، فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قاله، ولكنه رأى محمدًا وأصحابه أكلة جزور (أي هزيمتهم سهلة)، وفيهم ابنه (يعني أبا حذيفة بن عتبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان مع المسلمين) فقد تخوفكم عليه (أن تقتلوه)، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي.

فقال: هذا حليفك (عتبة) يريد أن يرجع الناس، وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد خفرتك (أي عهدك معه) ومقتل أخيك. (وكان قد قتل - كما ذكرنا - في سرية عبد الله ابن جحش).

فقام عامر بن الحضرمي، فاكتشف ثم صرخ: واعمراه واعمراه.

قال: فحميت الحرب وحقب أمر الناس (أي: اشتد)، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة.

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل: «انتفخ والله سحره».

قال: سيعلم مصفر استه (يشبهه بالرجل الذي يتأنث)، من انتفخ سحره أنا أم هو.

الحباب بن المنذر.. والرأي والحرب والمكيدة:

سار رسول الله ﷺ بالجيش مسرعًا؛ ليسبق المشركين إلى ماء بدر؛ ليحول بينهم وبين الماء، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر.

فلما نزل ﷺ هذا المنزل، قام الحباب بن المنذر الخزرجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان صاحب رأي ودربة في الحروب، وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلًا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل؛ فامض بالناس حتى نأتي أدنى (أقرب) ماء من القوم، فننزله، ثم نُغَوِّرَ (نردم) ما وراءه من القُلُب (الآبار)، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول ﷺ: «لقد أشرت بالرأي»(1).

وفعل ما أشار به الحباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال المقريزي في (إمتاع الأسماع): (... واستشار ﷺ أصحابه في المنزل، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: انطلق بنا إلى أدنى بئر إلى القوم؛ فإني عالم بها وبقُلُبها، بها قليب (أي بئر قديمة لا يعلم من حفرها)، قد عرفت عذوبة مائه، وماء كثير لا ينزح، ثم نبني عليها حوضًا، ونقذف فيه الآنية، فنشرب ونقاتل، ونغور ما سواها من القلب. فقال: يا حباب أشرت بالرأي).

فنهض المسلمون حتى أقرب ماء من المشركين، فنزلوا عليه، ثم صنعوا الحياض، وخربوا ما عداها من الآبار.

وما فعله الحباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما كان من نزول رسول الله ﷺ عند رأيه حجة على الأمة كلها.. فكل فرد فيها مطالب بأن يدلي برأيه، متى ظن فيه المصلحة والنفع العام، ولو لم يطلب منه ذلك.

---

(1) ابن هشام (2/ 312 – 313).

وعلى ولي الأمر أن يقبل هذا الرأي متى ثبت عنده فائدته، بل وعليه أن يرجع في كل أمر من الأمور إلى أصحاب الرأي وأهل الاختصاص، فلا يعمل برأيه المجرد، بل بآراء كل من لهم خبرة ودربة في ذلك الأمر.

العريش:

لما نزل رسول الله ﷺ على الماء، أشار سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسول الله ﷺ أن يبنوا له عريشًا (ما يشبه الخيمة)، يكون فيه قادرًا على التوجيه والإشارة بما يراه، ولا يصاب فينفرط عقد الجيش، وإذا لم يكتب الله لهم النصر لحق بأهل المدينة، وأعاد بهم الكرة على قريش.

روى ابن إسحاق، أن سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك (أي نترك عندك ركائب)، ثم نلقى عدونا؛ فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبًّا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير، ثم بُني لرسول الله ﷺ عريش كان فيه[1].

وكان معه فيه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واقفًا على باب العريش، متقلدًا بالسيف، ومعه رجال من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ؛ خوفًا عليه من أن يدهمه العدو من المشركين، ولم يمض رسول الله ﷺ كل الوقت داخل العريش، بل كان يخرج هو وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ليشاركا في القتال - كما سنرى.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾:

وكان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه - ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان - المشركين قليلًا عددهم؛ كي يجرءوا عليهم ولا يهابوهم. قال سبحانه:

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنفال].

(1) ابن هشام (2/ 313).

وكذلك شاء الله أن يقلل المشركين في أعين المسلمين، ويقلل المسلمين في أعين المشركين؛ كي يتجرأ الجيشان، وتقع الواقعة، فيكون النصر والعزة للمسلمين، والهزيمة والذلة للمشركين، والله سبحانه إذا أراد شيئًا مما يجري بين الخلق، يسر له الأسباب، ووفر له الدواعي، قال عز شأنه:

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال].

وروي عن ابن مسعود، قال: لقد قُللوا في أعيننا يوم بدر، حتى إني لأقول للرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة!!

وكان ذلك عندما تراءى الفريقان، فلما التحم الجيشان، وأمد الله المسلمين بالملائكة، تعينهم وتثبت قلوبهم، وتلقي الرعب في قلوب أعدائهم، وتكثر عددهم، رآهم المشركون مثليهم، وعلى هذا ينزل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران][1].

(إن كنا نقاتل الله فما لأحد بالله من طاقة):

بعث خفاف بن إيماء بن رخصة الغفاري ابنًا له بجزائر (جمع جزور وهي الجمال) أهداها لقريش، وقال: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا، فأرسلوا إليه مع ابنه أن قد وصَلْتَ رحمك، وقضيت الذي عليك، فلعمري إن كنا نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم (أي: نحن قادرون على هزيمتهم)، وإن كنا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمد، فما لأحد بالله طاقة [2].

لذا كان نصر الله لرسوله ﷺ يوم بدر سبيلًا لجلاء الحق للعيون والقلوب، وإزالة اللبس في العقول والنفوس .. فلم يعد لديهم بعد هزيمتهم من شك - وقد قالوا ما قالوا - في أنهم إنما كانوا يحاربون الله الذي نصر محمدًا ﷺ وخذلهم.

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 135، 136.

(2) البداية والنهاية 3/ 328.

المبحث الثاني: يوم التقى الجمعان

صباح يوم الجمعة - 17 من رمضان - من السنة الثانية للهجرة

(اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك):

في صباح الجمعة 17 من رمضان، صف النبي ﷺ جنوده للقتال، وكان بينهم يسدي النصائح، ويذكر بالله والدار الآخرة.

قال ابن إسحاق: وقد ارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ تصَوَّب من العقنقل - وهو الكثيب الذي جاءوا منه إلى الوادي – قال: «اللّٰهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك، وتكذب رسولك، اللّٰهم فنصرك الذي وعدتني، اللّٰهم أحنهم الغداة».

وأخذت جموع المشركين تنحدر نحو جيش المسلمين، والمسلمون ثابتون في مكانهم، وكان أول أمر عن رسول الله ﷺ: «إذا أكثبوكم (أي إذا قربوا منكم)، فعليكم بالنبل، ولا تسلو السيوف، حتى يغشوكم»[1]. وقد بلغ النبي ﷺ الغاية في السياسة الحربية بهذه الخطة الحكيمة؛ إذ إن معسكر المسلمين يكاد يكون خلوًا من الخيل التي لابد من وجودها في الهجوم، هذا إلى قلة عددهم وكثرة عدد عدوهم، فكان لابد من اتباع خطة الدفاع بدل الهجوم[2].

أما المشركون، فقد استفتح أبو جهل في ذلك اليوم، فقال: اللّٰهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة، اللّٰهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم[3]، وفي ذلك أنزل الله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٩ ﴾ [الأنفال].

قال ابن إسحاق: فلما نزلوا أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ، فيهم حكيم بن حزام.

---

(1) صحيح البخاري (2833).

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 140.

(3) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 199.

فقال رسول الله ﷺ: «دعهم»، فما شرب من رجل يومئذ إلا قُتل (أي في القتال بعد ذلك)، إلا ما كان من حكيم بن حزام؛ فإنه لم يُقتل، ثم أسلم بعد ذلك، فحسن إسلامه، فكان إذا اجتهد في يمينه، قال: لا، والذي نجاني يوم بدر.

أول شهيدين من المسلمين:

وكان أول قتيل من المسلمين في المعركة، مهجع مولى عمر بن الخطاب، رمي بسهم فقتله.

قال ابن إسحاق: فكان أول من قتل، ثم رُمي بعده حارثة بن سراقة أحد بني عدي بن النجار، وهو يشرب من الحوض بسهم، فأصاب نحره فمات.

وثبت في (الصحيحين) عن أنس، أن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر، وكان في النظارة (الحراسة)، أصابه سهم غرب (طائش) فقتله، فجاءت أمه، فقالت يا رسول الله: أخبرني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإلا فليرين الله ما أصنع - يعني: من النياح - وكانت لم تحرم بعد (أي: النياحة). فقال لها رسول الله ﷺ: «ويحك أهبلت، إنها جنان ثمان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[1].

أول قتيل من المشركين:

قال ابن إسحاق: وخرج من بين المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلًا شرسًا سيئ الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه.

فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه (قطعها) بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه؛ يريد أن تبر يمينه، واتبعه حمزة، فضربه حتى قتله في الحوض[2]. فكان أول قتيل من المشركين في بدر.

سواد بن غزية:

وكان رسول الله ﷺ يعدل الصفوف، ويقوم بتسويتها بضبط شديد وحزم، ولا يفارقه في ذلك الحب والرحمة. وقد روى الإمام أحمد، عن أبي أيوب، قال: صفنا رسول الله ﷺ يوم بدر، فبدرت منا بادرة (تقدمت جماعة) أمام الصف، فنظر إليهم النبي ﷺ، فقال: «معي معي».

---

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 221، صحيح البخاري (6/ 20- 21).

(2) ابن هشام (2/ 322).

وروى ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية حليف بني عدي ابن النجار، وهو مستنتل من الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: «استو يا سواد».

فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني (دعني أقتص)، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، فقال: (استقد).

قال: فاعتنقه، فقبل بطنه.

فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟!»

قال: يا رسول الله، حضر ما ترى (أي من الجهاد وتوقع الشهادة)، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

(لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة):

وأخذ رسول الله ﷺ يحرض أصحابه رضي الله عنهم على القتال، ويملأ قلوبهم بالإرادة والصبر على القتال، ويحثهم على الإقدام على عدوهم، مقبلين غير مدبرين، فنادى فيهم: (والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيُقتل صابرًا محتسبًا، مقبلًا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة، ومن قتل قتيلًا فله سلبه (ما عليه من سلاح)[1].

وروى مسلم في صحيحه، أنه عندما دنا المشركون، قال النبي ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات»، وعندما سمع ذلك عمير بن الحمام الأنصاري، قال: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟!، قال: (نعم)، قال: بخ بخ (كلمة إعجاب)، فقال رسول الله ﷺ: (ما يحملك على قولك بخ بخ؟)، قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: (فإنك من أهلها)، فأخرج تمرات من قرنه (جعبته)، فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، فإنها طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[2].

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، أن عوف بن الحارث - وهو ابن عفراء - قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟

(1) وروى الترمذي (1565)، وابن حبان (4749).

(2) صحيح مسلم (3/ 1509- 1511/ حديث رقم 1901).

قال: «غمسه يده في العدو حاسرًا» (أي لا درع له).

فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه، فقاتل حتى قتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

(من لقي أحدا من هؤلاء فلا يقتله):

وطلب رسول الله ﷺ من أصحابه (رضوان الله عليهم) - قبل بدء القتال - ألا يقتلوا نفرًا خرجوا مع المشركين مكرهين، أو كانت لهم مواقف في حماية رسول الله ﷺ (في مكة)، أو في رد الظلم عنه ﷺ وعن أصحابه، وسمى منهم العباس بن عبد المطلب، وأبا البختري بن هشام (الذي كان ممن سعى لنقض صحيفة المقاطعة)، فقال لأصحابه: «إني قد عرفت رجالًا من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا مكرهين، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهًا».

وقد كان من خلق رسول الله ﷺ أن يرد الجميل بخير منه، وبنو هاشم منعوه من قريش ثلاثة عشر عامًا، ودخلوا معه الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنين، والعباس له مواقف لا تنكر معه ﷺ، وأبو البختري موقفه من نقض الصحيفة يجب ألا ينسى.

ولكن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، عندما سمع ذلك قال: أنقتل آباءنا وإخواننا ونترك العباس، والله لئن لقيته لأحمله بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر: (يا أبا حفص) - قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص: «أيُضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟!».

فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف (يقصد أبا حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)؛ فوالله لقد نافق.

ولكن رسول الله ﷺ أبى، وغفر ذلك له. فكان أبو حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول:

ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(1) ابن هشام (2/ 322- 323).

المبارزة:

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزة .. قال الأموي: فحمي عند ذلك عتبة ابن ربيعة، وأراد أن يظهر شجاعته، فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فلما توسطوا بين الصفين، دعوا إلى البراز، فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة، هم: عوف ومعاذ ابنا الحارث (وأمهما عفراء) والثالث عبد الله بن رواحة - فيما قيل.

فقالوا: من أنتم؟ قالوا رهط من الأنصار. فقالوا: ما لنا بكم من حاجة.

وفي رواية فقالوا: أكفاء كرام، ولكن أخرجوا إلينا من بني عمنا، ونادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال النبي ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي».

وعند الأموي، أن النفر من الأنصار لما خرجوا، كره ذلك رسول الله ﷺ؛ لأنه أول موقف واجه فيه رسول الله ﷺ أعداءه، فأحب أن يكون أولئك من عشيرته، فأمرهم بالرجوع، وأمر أولئك الثلاثة بالخروج.

قال ابن إسحاق: فلما دنوا فيهم، قالوا: من أنتم؟ (فقد كانوا ملبسين لا يُعرفون من السلاح).

فقال عبيدة: عبيدة. وقال حمزة: حمزة. وقال علي: علي. قالوا: نعم (أكفاء كرام).

فبارز عبيدة (وكان أسن القوم) عتبة، وبارز علي الوليد بن عتبة.

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة، فذففا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه[1].

وفي هؤلاء الستة نزل قول الله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [الحج][2].

---

(1) ابن هشام (2/ 319).

(2) البخاري، الفتح (15/ 162 - 164، حديث 3966 - 3969).

ولما جاءوا بعبيدة بن الحارث بن المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله ﷺ، أضجعوه إلى جانب موقف رسول الله ﷺ، فوضع رسول الله ﷺ خده على قدمه الشريفة، وقال عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، لو رآني أبو طالب لعلم أني أحق بقوله:

ونسلمه حتى نصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل[1]

ثم مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال رسول الله ﷺ: (أشهد أنك شهيد)[2].

ثم تواجهت الفئتان وتقابل الفريقان، وحضر الخصمان بين يدي الرحمن، واستغاث بربه سيد الأنبياء، وضج الصحابة بصنوف الدعاء إلى رب الأرض والسماء، سامع الدعاء وكاشف البلاء[3].

(شاهت الوجوه):

قال ابن إسحاق: ثم تزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض ... وتقدم النبي ﷺ، فأخذ حفنة من الحصباء (الحجارة الصغيرة)، فاستقبل المشركين بها، وقال: (شاهت الوجوه)، ثم نفحهم (رماهم) بها، وأمر أصحابه وقال: (شدوا)، فأوصل الله الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق منهم أحد إلا ناله منها ما شغله عن حاله، وفي هذا قال الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:17].

والتحم الجيشان، واشتد القتال، وحمي الوطيس، وتعانقت السيوف، وأظهر المسلمون بطولات فائقة، وكان شعارهم يومئذ (أحد أحد)[4].

ورجع رسول الله ﷺ إلى العريش ومعه صاحبه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واتجه إلى ربه مناشدًا إياه ما وعده، ومستنزلًا النصر والمدد منه سبحانه.

وكان من دعائه ﷺ - كما جاء في رواية مسلم: «اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم آت ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». وتقول الرواية:

(1) يقصد رسول الله ﷺ.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية 3/ 334.

(3) ابن كثير، المصدر السابق 256/3.

(4) أبو شهبة: السيرة النبوية، ص 142.

«فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك؛ فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾[الأنفال]، فأمده الله بالملائكة»[1].

ومما رواه البخاري[2] من دعائه في ذلك اليوم: «اللّٰهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللّٰهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم»، وتقول الرواية: «فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع، فخرج (أي رسول الله ﷺ) وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر].

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم بدر قاتلت شيئًا من قتال، ثم جئت مسرعًا لأنظر إلى رسول الله ﷺ ما فعل. قال: فجئت فإذا هو ساجد يقول: (يا حي يا قيوم، يا حي يا قيوم)، لا يزيد عليها، فرجعت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضًا، فذهبت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك أيضًا، حتى فتح الله على يده [3].

النبي ﷺ في المعركة:

قال الأموي في (مغازيه): قاتل رسول الله ﷺ بنفسه قتالًا شديدًا، وكذلك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ..

فقد شارك رسول الله ﷺ في القتال، ولم يكن كل الوقت في العريش؛ بل كان يخرج إلى القتال، فيكون أقرب المسلمين إلى العدو، وأشدهم بأسًا عليه. وقد روى الإمام أحمد بسنده عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا».

وروى البخاري، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «اللّٰهم أنشدك عهدك ووعدك، اللّٰهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا».

---

(1) صحيح مسلم (3/ 1384، حديث 1763).

(2) الفتح (18/ 253، حديث 4815)؛ (18/ 254، حديث 4811).

(3) البداية والنهاية 3/256.

فأخذ أبو بكر بيده، وقال: حسبك يا رسول الله؛ ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع (مقاتلًا يقتحم الصفوف)، وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القمر].

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة: قال: لما نزلت: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر].

قال عمر: أي جمع يهزم وأي جمع يغلب؟! (فقد كانت هذه الآية مكية).

قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القمر]، فعرفت تأويلها يومئذ.

أبو بكر أشجع الناس:

كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ملازمًا لرسول الله ﷺ أينما كان، فإن كان في العريش كان معه، وإن كان خارجه كان معه، يذب بسيفه عنه ﷺ.

وقد روى البزار في (مسنده)، من حديث محمد بن عقيل، عن علي، أنه خطبهم (في زمن خلافته). فقال: يا أيها الناس من أشجع الناس؟

فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين.

فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا، فقلنا من يكون مع رسول الله ﷺ؛ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين، فوالله ما دنا إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه؛ فهذا أشجع الناس.

وقال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ، وأخذته قريش (في مكة قبل الهجرة)، فهذا يحاده، وهذا يتلتله، ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهًا واحدًا، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب ويجاهد، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟!

ثم رفع عليٌّ بردة كانت عليه، فبكى حتى أخضلت لحيته.

ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم هو؟

فسكت القوم، فقال علي: فوالله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه[1].

قال ابن كثير: فهذه خصوصية للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث هو مع رسول الله ﷺ في العريش كما كان معه في الغار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه[2].

سيف من حطب:

قال ابن إسحاق: وقاتل عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي، حليف بني عبد شمس، يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ، فأعطاه جذلًا من حطب، فقال: «قاتل بهذا يا عكاشة».

فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه، فعاد سيفًا في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى: (العون). ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ، حتى قتله طليحة الأسدي أيام الردة[3].

الملائكة تقاتل:

قال ابن إسحاق: «... خفق (نام) النبي ﷺ خفقة وهو في العريش، ثم انتبه، فقال: (أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع (التراب))».

لقد أمد الله رسوله ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالملائكة، يقاتلون معهم ويثبتونهم؛ فالمعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته، وتدبيره وقدره، وتسير بجنده وتوجيهه، وما كان الله ليترك المؤمنين يومئذ وحدهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال]. لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما في طوقهم، فلا يستبقوا منه بقية، وأن يمضوا في طاعة أمر الله، واثقين بنصر الله .. كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويجيء دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم[4].

---

(1) البداية والنهاية 3/ 332.

(2) المصدر السابق.

(3) ابن هشام (2/ 336)، ورواه البيهقي في الدلائل (2/ 98- 99).

(4) سيد قطب، في ظلال القرآن، مختصرًا.

وفي صحيح مسلم، أن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو حطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فجاء الأنصاري فحدث ذاك رسول الله ﷺ.

فقال: «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة». فقتلوا يومئذ (أي المسلمين) سبعين، وأسروا سبعين[1].

ويروي أحمد في مسنده، أن رجلًا من الأنصار قصير القامة، جاء بالعباس أسيرًا، فقال العباس: (يا رسول الله، إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح، من أحسن الناس وجهًا، على فرس أبلق، ما أراه في القوم). فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله. فقال: اسكت؛ فقد أيدك الله تعالى بملك كريم)[2]، وروى البيهقي عن أبي أمامة بن سهل، عن أبيه، قال: يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

وقال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري[3]. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: **«هذا جبريل آخذ برأس فرسه، وعليه أداة الحرب»**[4].

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾:

لما رأى إبليس ما يفعل الملائكة بالمشركين، فر ونكص على عقبيه، وتنكر لهم، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال].

وقد روى الطبراني بسنده عن رفاعة بن رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر، أشفق أن يُخلص إليه، فتشبث به الحارث بن هشام (القرشي)، وهو يظن أنه

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (3/ 1384- 1385، حديث 1763).

(2) المسند (2/ 194/ شاكر)، وحسنه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي، ص 243.

(3) صحيح السيرة النبوية، ص 241).

(4) رواه البخاري (3908).

سراقة بن مالك (وهي الصورة التي كان يظهر فيها إبليس)، فوكز في صدر الحارث، ثم خرج هاربًا، حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه، فقال: اللّٰهم إني أسألك نظرتك إياي، وخاف أن يخلص القتل إليه.

وأقبل أبو جهل، فقال: يا معشر الناس لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك؛ فإنه كان على ميعاد من محمد (أي: على ترتيب معه)، ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد؛ فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم بالجبال، فلا ألفين رجلًا منكم قتل رجلًا، ولكن خذوهم أخذًا؛ حتى تعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم، ورغبتهم عن اللات والعزى.

ثم قال أبو جهل متمثلًا:

ما تنقم الحرب الشموس مني ... بازل عامين حديث سني

لمثل هذا ولدتني أمي.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[1]:

في يوم بدر التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهم المبادئ، ففصلت بينهم السيوف. وتقطعت الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد .. ولقد قتل أبو عبيدة أباه، وهمَّ الصديق بقتل ولده عبد الرحمن، وقتل مصعب أخاه عبيد ابن عمير، وقتل عمر وحمزة وعبيدة أقرباءهم وعشيرتهم، متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة. وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله[2]. وأنزل الله ﷻ فيهم وفي أمثالهم: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 284.

(2) سيد قطب: في ظلال القرآن.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾: نزلت في أبي عبيدة، قتل أباه يوم بدر، ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾: في الصديق، همَّ - يومئذ - بقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾: في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: في عمر قتل قريبًا له يومئذ أيضًا، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، فالله أعلم)[1].

وهكذا .. لا نسب ولا صهر، ولا أهل ولا قرابة، ولا وطن ولا جنسية، ولا عصبية ولا قومية .. إنما هي العقيدة، والعقيدة وحدها، فمن وقف تحت راية الحق، فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله .. تختلف ألوانهم، وتختلف أوطانهم، وتختلف عشائرهم، وتختلف أسرهم، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة. ومن استحوذ عليه الشيطان، فوقف تحت راية الباطل، فلن تربطه بأحد منهم رابطة، لا من أرض، ولا من جنس، ولا من وطن ولا من لون، ولا من عشيرة، ولا من نسب ولا من صهر .. لقد أنبتت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج، فأنبتت هذه الوشائج جميعًا[2].

عين قتادة بن النعمان:

روى البيهقي في (الدلائل)، بسنده عن قتادة بن النعمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنه أصيب عينه يوم بدر، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا رسول الله ﷺ، فقال: (لا)، فدعاه، فغمز حدقته براحته (أي براحة يده ﷺ)، فكان لا يدري أي عينيه أصيب. وفي رواية: فكانت أحسن عينيه[3].

ومثل ذلك ما رواه البيهقي أيضًا عن رفاعة بن رافع بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم بدر، تجمع الناس على أمية بن خلف، فأقبلت إليه، فنظرت إلى قطعة من درعه قد انقطعت من تحت إبطه، قال: فطعنته بالسيف فيها طعنة، ورُميت بسهم يوم بدر، ففقئت عيني، فبصق فيها رسول الله ﷺ، ودعا لي، فما أذاني منها شيء.

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ج 4، ص 329.

(2) سيد قطب: في ظلال القرآن، بتصرف.

(3) في متن الخبر اختلاف: ففي رواية ابن إسحاق، أن ذلك يوم بدر، وفي رواية البيهقي في أنها يوم أحد، قال ابن عبد البر: وقيل يوم الخندق.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]:

اشتد بأس المسلمين على عدوهم، وعلا هتافهم (أحد، أحد)، وقاتلوا أشد قتال، وقاموا بهجوم كاسح، وجعلوا يقلبون الصفوف، ويقطعون الأعناق، ويضربون من المشركين كل بنان.

فأخذت صفوف المشركين تتصدع، وأخذت جموعهم في الفرار، وركب المسلمون ظهورهم، يقتلون فريقًا ويأسرون فريقًا. ودارت كئوس الردى على صناديد الكفر من قريش، يتجرعونها صاغرين، وهم الذين استكبروا، وأنكروا دين الله، وكذبوا رسوله، وشردوا عبادة المؤمنين، وبدلوا نعمة الله التي بوأهم إياها، بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه، وهيأ لهم أسباب السيادة في الدنيا، والنجاة في الآخرة، فبدلوا ذلك بالكفر به: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم]. وقد أنزل هؤلاء أتباعهم دار الهلاك، حين أخرجوهم إلى بدر، فقتلوا وصار مصيرهم دار البوار، وهي جهنم يدخلونها، ويقاسون حرها، فقبُح المستقر مستقرهم.

مصرع أبي جهل:

ثبت في (الصحيحين)، عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال:

إني لواقف يوم بدر في الصف، فنظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما، فقال: يا عم، أتعرف أبا جهل؟

فقلت: نعم، وما حاجتك إليه؟!

قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا.

فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر، فقال لي أيضًا مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه.

فابتدراه بسيفهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟»، قال كل منهما: أنا قتلته. قال: (هل مسحتما سيفيكما؟)، قالا: لا.

قال: فنظر النبي ﷺ في السيفين، فقال: «كلاهما قتله».

وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء.

وقد ترك معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء أبا جهل وبه رمق، فأجهز عليه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ابن إسحاق:

فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله ﷺ أن يُلتمس في القتلى، وقد قال لهم رسول الله ﷺ - فيما بلغني: «انظروا - إن خفي عليكم في القتلى - إلى أثر جرح في ركبته؛ فإني ازدحمت أنا وهو يومًا على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان، وكنت أشف منه بيسير، فدفعته، فوقع على ركبته، فجحش في أحدهما جحشًا لم يزل أثره به».

قال ابن مسعود: فوجدته بآخر رمق، فعرفته .. فوضعت رجلي على عنقه.

قال: وقد كان ضبث بي مرة بمكة، فآذاني ولكزني، ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟

قال: وبماذا أخزاني؟!

قال (أي: أبو جهل): أعمد من رجل قتلتموه !! أخبرني لمن الدائرة اليوم؟

قال: قلت لله ورسوله.

قال ابن إسحاق: وزعم رجال من بني مخزوم أن ابن مسعود كان يقول: لقد قال لي: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعي الغنم، قال: ثم احتززت رأسه، ثم جئت به رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله.

فقال: (آللَّه الذي لا إله غيره؟)

وكانت يمين رسول الله ﷺ، فقلت: نعم، والله الذي لا إله غيره، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ، فحمد الله[1].

مصرع أمية بن خلف:

روى ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان أمية بن خلف لي صديقًا بمكة، وكان اسمي عبد عمرو، فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن، فكان يلقاني ونحن بمكة، فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماكه أبوك؟

---

(1) البداية والنهاية 3/351 - 352.

قال: فأقول: نعم!

قال: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئًا أدعوك به، وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه.

قال: فقلت له: يا أبا علي اجعل ما شئت.

قال: فأنت عبد الإله.

قال: قلت: نعم!

قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجيبه فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه عليّ وهو آخذ بيده، قال: ومعي أدراع لي قد استلبتها (غنمتها)، فأنا أحملها، فلما رآني.

قال: يا عبد عمرو، فلم أجبه.

فقال: يا عبد الإله.

فقلت: نعم.

قال: هل لك فيَّ (أي في أسري)؛ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك (أي: في قيمة الفداء)؟

قال: قلت نعم ها الله.

قال: فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه.

وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟

قال: ثم خرجت أمشي بهما.

قال: قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه آخذًا بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟

قال: قلت: حمزة.

قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي - وكان هو الذي يعذب بلالًا بمكة على ترك الإسلام - فلما رآه، قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال أسيري، قال: لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال أسيري، قال: لا نجوت إن نجا.

ثم: صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله!رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة، فأنا أذب عنه (أدفع)، قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط.

قال: قلت: انج بنفسك ولا نجاء بك، فوالله ما أغني عنك شيئًا.

قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما.

قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالًا؛ فجعني بأدراعي وبأسيري.

وفي رواية عند (البخاري) في صحيحه عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه عن جده عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (... فخرج (أي بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه؛ لأشغلهم، فقتلوه، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان (أمية) رجلًا ثقيلًا، فلما أدركونا، قلت له: ابرُك فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، فكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك في ظهر قدمه[1].

مصرع أبي البختري بن هشام:

قال ابن إسحاق: وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة .. كان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة، فلقيه المجذر بن ذياد البلوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حليف الأنصار.

فقال له: إن رسول الله ﷺ نهانا عن قتلك، ومع أبي البختري زميل له، خرج معه من مكة، وهو جنادة بن مليحة، وهو من بني ليث.

قال (أبو البختري): وزميلي؟

فقال له المجذر: لا والله ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك.

---

(1) البداية والنهاية 3/ 349- 350.

قال: لا والله، إذًا لأموتن أنا وهو جميعًا، لا يتحدث عني نساء قريش بمكة أني تركت زميلي حرصًا على الحياة.

وقال أبو البختري وهو ينازل المجذر:

لـــن يـــترك ابـــن حـــرة زميلـــه   حتـــى يمـــوت أو يـــرى ســـبيله

قال: فاقتتلا، فقتله المجذر بن زياد، وقال في ذلك:

بَـــشِّرْ بيُـــتْم مَـــن: أبـــوه البخـــتري   أو بَـــشِّر بمثلهـــا مِنِّـــي بَنِـــيَّ

أنـــا الـــذي يقـــال أصـــلي مـــن بـــلى   أطعـــن بالـــصعدة حتـــى تنثنـــي

ثم أتى المجذر رسول الله ﷺ فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يُستأسر (أي: يقبل الأسر)، فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته، فقتلته[1].

مصرع عبيدة بن سعيد بن العاص:

روى البخاري، عن هشام بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: قال الزبير: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص، وهو مدجج لا يرى منه إلى عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بعنزة، فطعنته في عينه فمات. (والعنزة عصا مثل العكازة، قصيرة تشبه الرمح، لها حديدة في أسفلها).

قال هشام: فأُخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رجلي عليه، ثم تمطيت، فكان الجهد أن نزعتها (أي: العنزة)، وقد انثنى طرفاها. قال عروة: فسأله إياها رسول الله ﷺ، فأعطاه إياها، فلما قُبض رسول الله ﷺ، أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاه إياها، فلما قبض أبو بكر، سألها إياه عمر بن الخطاب، فأعطاه إياها، فلما قبض عمر، أخذها، ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها، فلما قُتل عثمان وقعت عند آل علي، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتى قُتل[2].

هذا الخبر يصور لنا دقة الزبير بن العوام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في إصابة الهدف؛ حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرجل، مع ضيق ذلك المكان، وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع،

(1) البداية والنهاية 3/ 248- 349.

(2) الصلابي، ص 420.

فلقد كانت إصابة ذلك الرجل بعيدة جدًّا؛ لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي، لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق؛ مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته ومهارته في إصابة الهدف(1).

النصر المبين:

انتهت معركة بدر بنصر مبين للمسلمين، وهزيمة ساحقة للمشركين ..

وكان قتلى المشركين سبعين رجلًا، وأسر منهم سبعون، جلهم من القادة والصناديد، ومن أفلتوا من القتل والأسر سارعوا إلى الهرب، وتبعثروا في الوديان والشعاب، واتجهوا صوب مكة مذعورين، لا يدرون كيف يدخلونها خجلًا(2).

واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلًا (ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار)، استأثرت بهم رحمة الله، فذهبوا إلى عليين، أحياء عند ربهم يرزقون: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران].

نصر الله عباده المؤمنين نصرًا عزيزًا مؤزرًا .. والمؤمنون لا ناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم، فلا هم أسباب النصر، ولا هم صانعوه؛ فالنصر من عند الله، هو الذي يملك النصر والهزيمة، والقوة والسلطان .. الأمر كله إليه، والنصر منه، ومتعلق بقدره ومشئيته الطليقة، وإرادته الفاعلة .. والأسباب والوسائل إنما هي أدوات، تحركها المشيئة وتحقق بها ما تريده.

قال ابن إسحاق: قال حسان بن ثابت:

وخبر بالذي لا عيب فيه ... بصدق غير إخبار الكذوب

بما صنع المليك غداة بدر ... لنا في المشركين من النصيب

غداة كأن جمعهم حراء ... بدت أركانه جنح الغروب

---

(1) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (4/ 163).

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 207.

فلاقيناهم منا بجمع كأسد الغاب مردان[1] وشيب

أمام محمد قد وازروه على الأعداء في لفح الحروب

بأيديهم صوارم مرهفات وكل مجرّب خاطي الكعوب

بنو الأوس الغطارف وآزرتها بنو النجار في الدين الصليب

فغادرنا أبا جهل صريعًا وعتبة قد تركنا بالجبوب

وشيبة قد تركنا في رجال ذوي حسب إذا نسبوا حسيب

يناديهم رسول الله لما قذفناهم كباكب في القليب

وقال حسان أيضًا:

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

والاهم بغرور ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غرّار

وقال: إني لكم جار فأوردهم شر الموارد فيه الخزي والعار

ثم التقينا فولوا عن سراتهم من منجدين ومنهم فرقة غاروا

وقد ذكر صاحب العقد وغيره، أن أفخر بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت:

وببئر بدر إذ يَكُفُّ مَطِيَّهم جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

وقال كعب بن مالك:

عجبت لأمر الله والله قادر على ما أراد ليس لله قاهر

قضى يوم بدر أن نلاقي معشرًا بغوا وسبيل البغي بالناس جائر

وقد حشدوا واستنفروا من يليهم من الناس حتى جمعهم متكاثر

---

(1) **مردان:** جمع أمرد، وهو الشاب الذي طر شاربه ولم تنبت لحيته.

وفـينـا رسـول الله والأوس حـولــه ... لــه مـعـقـلٌ مـنـهـم عـزيـز ونـاصـر

وجمــع بنــي النجــار تحــت لوائــه ... يمـــشون في المـــاذي والنقـــع ثـــائر

فلـــما لقينــــاهم وكــــل مجاهـــد ... لأصـحـابه مستبسـل النفـس صابر

شـــــهدنا بــــأن الله لا رب غــــيره ... وأن رســـــول الله بــــالحق ظــــاهر

فكــب أبــو جهــل صريعًــا لوجهــه ... وعتبــة قــد غادرتــه وهــو عــاثر

وشــيبة والتيمــي غــادرت في الــوغى ... ومــا مــنهم إلا بــذي العــرش كــافر

فأمـــسوا وقـــود النـــار في مـــستقرها ... وكـــل كفـــور في جهـــنم صـــائر[1]

المبحث الثالث: ثلاثة أيام في بدر بعد المعركة

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2] قال: «إنه ﷺ كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ...»[3]. **ولعل الحكمة في ذلك:**

1 - تصفية الموقف، بالقضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة، التي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارين هربًا إلى الجبال.

2 - دفن من استشهد من جند الله، مما لا تكاد لا تخلو منهم معركة، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة، ولم يرد ما يشير إلى الصلاة عليهم، ولم يدفن أحد منهم خارج بدر[4].

3 - جمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ؛ حتى تؤدى كاملة إلى مستحقيها، وقد أسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبد الله بن كعب الأنصاري أحد بني مازن[5].

---

(1) البداية والنهاية 3/ 405.

(2) الصلابي، ص 414.

(3) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص 250).

(4) انظر: موسوعة نضرة النعيم (1/ 291).

(5) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (3/ 453).

4 - إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر المؤزر، الذي لم يكن داني القطوف، سهل المنال، ويتذاكر أفراده وجماعاته ما كان من أحداث ومفاجآت في الموقعة؛ مما كان له أثر فعال في استجلاب النصر، وما كان من فلان في شجاعته وفدائيته، وجرأته على اقتحام المضائق وتفريج الأزمات، وما تكشفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفر، والتدبير المحكم الذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا، وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعلية في تنفيذها؛ ليكون من كل ذلك ضياء، يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

5 - مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرف عليهم، وعلى مكانتهم في حشودهم، وعلى من بقي منهم مصروعًا بجراحه لم يدركه الموت؛ للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه؛ اتقاء شره في المستقبل.

دفن شهداء المسلمين:

دفن المسلمون شهداءهم، وكانوا أربعة عشر شهيدًا - كما ذكرنا: ستة من المهاجرين، هم:

1- عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

2 - عمير بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخو سعد.

3 - ذو الشمالين بن عبد عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

4 - عاقل بن البكير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

5 - مهجع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مولى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

6 - صفوان بن بيضاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وثمانية من الأنصار، هم:

1- سعد بن خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

2 - مبشر بن عبد المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

3 - يزيد بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

4 - عمير بن الحمام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

5 - رافع بن المعلى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

6 - حارثة بن سراقة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

7- 8 - عوف ومعوذ ابنا الحارث (ابنا عفراء) رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم):

ثم أمر رسول الله ﷺ بقتلى المشركين، فنقلوا من مصارعهم التي كانوا بها إلى قليب[1] ببدر، وقد كان من سنته ﷺ في مغازيه إذا مر بجيفة إنسان أمر بها فدفنت، لا يسأل عن صاحبها مؤمنًا أم كافرًا[2].

روى ابن إسحاق، عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب (البئر)، طرحوا فيه، إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه (تركوه مكانه)، فأقروه، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة.

وقال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس؛ هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟!، فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا**»[3].

وروى البخاري عن أبي طلحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال.

فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى وتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفى الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم:

---

(1) **القليب**: البئر لم تبن جوانبها فانهارت.

(2) رواه الدارقطني في سننه، انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية، ج2، ص 150.

(3) انظر البداية والنهاية 3/ 351.

«يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان، يسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟!».

فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها؟

فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»[1].

وعندما ألقوا في القليب، وفيهم عتبة بن ربيعة، نظر رسول الله ﷺ إلى وجه ابنه أبي حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فإذا هو كئيب قد تغير لونه، فقال له النبي ﷺ: «لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» فقال: (لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلًا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك). فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا[2].

وقد ذكر ابن إسحاق فيمن قُتل يوم بدر مع المشركين ممن كان مسلمًا (في مكة)، ولكنه خرج معهم تقية منهم، لأنه كان فيهم مضطهدًا قد فتنوه عن إسلامه، جماعة، منهم: الحارث بن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج[3].

قال: وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء].

تبشير المسلمين في المدينة:

أرسل رسول الله ﷺ إلى المسلمين في المدينة من يبشرهم بأن الله قد نصر إخوانهم ببدر، وهزم قريشًا بخيلها ورجلها وفرسانها، فأرسل عبد الله بن رواحة لأهل العالية (ظاهر المدينة وفيها قباء)، وزيد بن حارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأهل المدينة، فدخلا وهما يرفعان عقيرتهما؛ إعلامًا بالنصر

(1) الفتح (15/ 167- 168، حديث 3916).

(2) ابن هشام (2/ 342).

(3) ابن كثير: البداية والنهاية 3/ 361.

للمسلمين، والقتل والهزيمة للمشركين، وكان زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راكبًا (القصواء) ناقة رسول الله ﷺ، فتلقاهم الرجال والصبيان والولائد، وطافوا بالمدينة، يهللون ويكبرون الله على هذا النصر المبين[1].

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة، بإشاعة الدعايات الكاذبة، حتى إنهم أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راكبًا (القصواء) قال: لقد قُتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فَلًّا (هاربًا)[2].

قال أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن زيد بن حارثة قد قدم، فجئت وهو واقف بالمصلى قد غشيه الناس وهو يقول: قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأبو جهل، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج. فقلت يا أبت أحق هذا؟ قال: نعم، والله يا بني[3].

وقد روى الواقدي هذا كله مفصلًا، فقال:

وقَدَّمَ رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة من الأُثَيل، فجاءا يوم الأحد حين اشتد الضحى، وفارق عبد الله بن رواحة زيد بن حارثة من العقيق (أي اتجه كل منهم إلى جهة في المدينة)، فجعل عبد الله بن رواحة ينادي على راحلته: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم .. قُتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وقتل زمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو.

قال عاصم بن عدي: فقمت إليه فنحوته، فقلت: أحقًّا يا ابن رواحة؟

فقال: أي والله، وغدًا يقدم رسول الله ﷺ بالأسرى مقرنين.

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارًا دارًا، والصبيان معه يقولون: قتل أبو جهل الفاسق، حتى إذا انتهى إلى دار بني أمية، قدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله ﷺ (القصواء) يبشر أهل المدينة.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 150.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 208.

(3) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 221.

فلما جاء المصلى صاح على راحلته: قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وقتل أمية ابن خلف، وأبو جهل، وأبو البختري، وزمعة بن الأسود، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير، فجعل بعض الناس لا يصدقون زيدًا، ويقولون: ما جاء زيد بن حارثة إلا فَلًّا (هاربًا)، حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا.

وقدم زيد حين سوى المسلمون التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ بالبقيع، وقال رجل من المنافقين لأسامة: قُتل صاحبكم ومن معه؟

وقال آخر لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرقًا لا يجتمعون فيه أبدًا، وقد قتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ماذا يقول من الرعب، وجاء فَلًّا، فقال أبو لبابة: يُكذِّب الله قولك.

وقالت اليهود: ما جاء زيد إلا فَلًّا.

قال أسامة: فجئت حتى خلوت بأبي، فقلت: أحق ما تقول؟

فقال: أي والله حق ما أقول يا بني، فقويت نفسي، ورجعت إلى ذلك المنافق، فقلت: أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين، لنقدمنك إلى رسول الله إذا قدم فليضربن عنقك.

فقال: إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه.

وصول نبأ الهزيمة إلى مكة:

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا له: ما وراءك؟

قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه، وأبو البختري بن هشام.

فلما جعل يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أمية: والله لن يُعقل هذا، فسلوه عني، فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟

قال: هو ذاك جالس في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

قال موسى بن عقبة: ولما وصل الخبر إلى أهل مكة وتحققوه، قطعت النساء شعورهن، وعقرت خيول كثيرة ورواحل.

وروى ابن إسحاق عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، قال: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه.

وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة - وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلف منهم رجل إلا بعث مكانه رجلًا - فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش، كبته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزًّا.

قال: وكنت رجلًا ضعيفًا، وكنت أعمل الأقداح أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي وعندي أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر، حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم.

قال: فقال أبو لهب: هلم إليَّ فعندك - لعمري - الخبر قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟

قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس لقينا رجالًا بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئًا، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة.

قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب وجهي ضربة شديدة، قال: وثاورته (قاومته) فاحتملني وضرب بي الأرض، ثم برك علي يضربني - وكنت رجلًا ضعيفًا - فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة، فأخذته فضربته به ضربة، فبلغت في رأسه شجة منكرة .

وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام موليا ذليلا، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة، فقتلته، وناحت قريش على قتلاهم (كما ذكر ابن إسحاق)، ثم قالوا: لا تفعلوا، يبلغ محمدا وأصحابه، فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم؛ حتى تستأنسوا بهم؛ لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء (أي: لا تعجلوا في فداء أسراكم؛ حتى لا يغالي عليكم محمد في الفداء).

قال ابن إسحاق: وكان الأسود بن المطلب قد أصيب (أي: قتل له) ثلاثة من ولده زمعة وعقيل والحارث، وكان يحب أن يبكي على بنيه، قال: فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له - وكان قد ذهب بصره: انظر هل أُحل النحب (أي: هل أحلت قريش النحيب)، هل بكت قريش على قتلاها؛ لعلي أبكي على أبي حكيمة - يعني: ولده زمعة - فإن جوفي قد احترق؟

قال: فلما رجع إليه الغلام قال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته.

فقال الأسود:

أتبكـــــي أن أضـــــل لهــــا بعــــير ... ويمنعهـــا مــــن النـــوم الـــسهود

فـــلا تبكـــي عـــلى بكـــر ولكـــن ... عـــلى بـــدر تقـــاصرت الجـــدود

عـــلى بـــدر سراة بنـــي هـــصيص ... ومخـــزوم ورهـــط أبي الوليـــد

وبكـــى إن بكيـــت أبـــا عقيـــل ... وبكـــى حارثـــا أســـد الأســـود

وبكـــيهم ولا تـــسمي جميعًـــا ... ومـــا لأبي حكيمـــة مـــن نديـــد

ألا قـــد ســـاد بعـــدهم رجـــال ... ولـــولا يـــوم بـــدر لم يـــسودوا[1]

* * *

(1) انظر: البداية والنهاية 3/ 376 - 378.

الفصل الثاني

الأنفال

اختلف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في المغانم من المشركين لمن تكون. وكانوا ثلاثة أصناف حين ولى المشركون:

- فرقة أحدقت برسول الله ﷺ تحرسه؛ خوفًا من أن يرجع أحد من المشركين إليه.

- وفرقة ساقت وراء المشركين، يقتلون فيهم ويأسرون، وفرقة جمعت المغانم من متفرقات الأماكن، فادعى كل فريق من هؤلاء أنه أحق بالمغنم من الآخرين؛ لما صنع من الأمر المهم(1).

عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع النبي ﷺ، فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس، فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ؛ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب.

وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا؛ نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم.

وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال]، فقسمها رسول الله بين المسلمين(2).

- تربية القرآن للجماعة المسلمة:

نزلت سورة الأنفال لتحسم الاختلاف بين أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر، وهم صفوة الله من خلقه، وخير البشر بعد الأنبياء .. نزلت الآيات لتعالج نفوسهم، وتحمل لهم عتابًا بلغ من الشدة ما جعلهم يخافون على إيمانهم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 3 / 368.

(2) رواه أحمد (22383).

ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال].

إنهم أئمة الهدى، فإن اضطرب مسلكهم، وفسد ذات بينهم، وهيجهم ما يهيج الناس، فسيكون غيرهم إلى مزالق الفوضى أسرع.

روى ابن إسحاق، عن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: (فينا - أصحاب بدر - نزلت (أي سورة الأنفال) حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه عن بواء - أي بالتساوي).

قال سيد قطب رَحِمَهُٱللَّهُ: لقد اختلفوا على الغنائم القليلة في الوقعة التي جعلها الله فرقانًا في مجرى التاريخ البشري إلى يوم القيامة. ولقد أراد الله سبحانه أن يعلمهم، وأن يعلم البشر كلهم من بعدهم أمورًا عظامًا:

- أراد أن يعلمهم - ابتداءً - أن أمر هذه الوقعة أكبر كثيرًا من أمر الغنائم التي يختلفون عليها.

- وأراد أن يعلمهم أن هذا الأمر العظيم إنما تم بتدبير الله وقدره، في كل خطوة وفي كل حركة؛ ليقضي من ورائه أمرًا يريده، فلم يكن لهم في هذا النصر وما وراءه من عظائم الأمر يد، ولا تدبير، وسواء غنائمه الصغيرة وآثاره الكبيرة، فكلها من فعل الله وتدبيره، إنما أبلاهم فيه بلاء حسنًا من فضله.

- وأراد أن يريهم مدى الفرق بين ما أرادوه هم لأنفسهم من الظفر بالعير، وما أراده الله لهم وللبشرية كلها من ورائهم من إفلات العير، ولقاء النفير؛ ليروا على مد البصر مدى ما بين إرادتهم بأنفسهم وإرادة الله بهم من فرق كبير[1].

وبعد أن أصبحت الغنائم لله ولرسوله، بيّن المولى ﷻ كيف توزع هذه الغنائم؟ قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾ [الأنفال].

(1) في ظلال القرآن، ص 784- 785.

وهذا بعدما طهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علام الغيوب في الطاعة، وتمثلت الآيات؛ فتحققت بمعنى العبودية الخالصة لله، وهذا الحكم صريح في أن أربعة أخماس ما غنموه مقسوم بينهم، والخمس لله ولرسوله، وهذا الخمس نفسه مردود فيهم أيضًا، وموزع على الجهات المذكورة - كما ثبت بالسنة.

إن التوجيه التربوي في إرجاء إنزال السؤال عن الغنائم، يشير إلى أن الأحكام الشرعية ينبغي أن يهيأ لها الجو النفسي الروحي المناسب؛ لتحتل مكانها اللائق في العقل والضمير، فتثبت وتتمكن، وتؤتي أطيب النتائج، فلما انصرفت قلوبهم عن الغنائم، وتفرغوا للخالق وأخلصوا، أسبغ عليهم من فضله بأكثر مما كانوا يودون .. فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلًا من أصحابه، فلما انتهى إليها، قال: «اللّهم إنهم حفاة فاحملهم، اللّهم إنهم عراة فاكسهم، اللّهم إنهم جياع فأشبعهم»، ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا، وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسوا وشبعوا(1).

ومن عدل النبي ﷺ في تقسيم الغنائم إعطاؤه من هذه الغنيمة من تخلف بأمر رسول الله، لمهام أوكلها إليهم، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة وبأجرهم، فكانوا كمن حضرها.

فقد أعفى النبي ﷺ بعض الصحابة؛ لأن ظروفهم الأسرية تتطلب منهم القيام عليها ورعايتها، فأعفى عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الخروج؛ لأن زوجته رقية كانت مريضة، وبحاجة إلى من يرعى شئونها. روى البخاري في صحيحه، أن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبر عن سبب تغيب عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة بدر، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأما تغيبه عن بدر: فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه ...»(2).

وأمر ﷺ أبا أمامة بالبقاء عند أمه؛ حيث كانت مريضة، وهي بحاجة إليه، فعن أبي أمامة بن ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ أخبرهم بالخروج إلى بدر، وأجمع الخروج معه، فقال خاله أبو بردة بن نيار: أقم على أمك يا ابن أختي. فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك، فذكرا ذلك للنبي ﷺ، فأمر أبا أمامة بالمقام على أمه، وخرج بأبي بردة، فقدم النبي ﷺ وقد توفيت، فصلى عليها(3).

---

(1) سنن أبي داود (5/ 525)، وحسنه الألباني، صحيح أبي داود، ورقمه (2747).

(2) البخاري، كتاب الفضائل، باب (مناقب عثمان)، رقم (3699).

(3) انظر: الطبراني في الكبير ورجاله ثقات، انظر: مجمع الزوائد (3/ 31).

ومن الصحابة الذين كانت لهم مهمات خاصة أو أصيبوا أثناء الطريق فردهم الرسول ﷺ:

1- أبو لبابة: استخلفه على المدينة.

2- عاصم بن عدي: أرسله ﷺ لأهل العالية في المدينة.

3- الحارث بن حاطب: أرسله ﷺ إلى بني عمرو بن عوف.

4- الحارث بن الصمة: وقع أثناء الطريق فكسر، فرُدَّ.

5- خوَّات بن جبير: أصابه في الطريق حجر في ساقه، فرده من الصفراء.

وكذلك أعطى رسول الله ﷺ لورثة الشهداء وذويهم نصيبهم من الغنائم[1].

* * *

(1) السيرة الصلابي، ص 425- 427، مختصرًا.

الفصل الثالث

العودة إلى المدينة

قفل رسول الله ﷺ من بدر عائدًا إلى المدينة، وقد أقام بها ثلاثة أيام كما تقدم. وكان رحيله ﷺ منها ليلة الاثنين، وقد سبقته البشرى بالنصر إلى المدينة وما جاورها. وكان مع رسول الله ﷺ الأسارى من المشركين، واحتمل معه الغنائم، وجعل عليها عبد الله بن كعب النجاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سار ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء، نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية، فقسم هناك الغنائم بالسوية على المسلمين، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه ومن معه من المسلمين.

قال الواقدي: ولقي رسول الله ﷺ إلى الروحاء رءوس الناس؛ يهنئونه بما فتح الله عليه .. فقال له أسيد بن الحضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى العدو، ولكن ظننت أنها عير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت. فقال له رسول الله ﷺ: «صدقت»[1].

وقال سلمة بن سلامة بن وقش للمهنئين: ما الذي تهنئوننا به؟! .. والله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعلقة، فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «أي ابن أخي أولئك الملأ» .. قال ابن هشام: يعني الأشراف والرؤساء[2].

قال ابن إسحاق: وقد تلقى رسول الله ﷺ بهذا الموضع أبوا هند، مولى فروة بن عمرو البياضي (حَجَّامَه ﷺ) ومعه زق خمر مملوء حيسا - وهو التمر والسويق بالسمن - هدية لرسول الله ﷺ، فقبله منه، ووصى به الأنصار.

- قتل مجرمي الحرب من الأسرى في الطريق:

وبينما كان النبي ﷺ والمسلمون في طريقهم إلى المدينة، أمر بقتل أسيرين؛ أحدهما: النضر بن الحارث، والثاني عقبة بن أبي معيط، وكانا من شر عباد الله وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 3 / 371.

(2) المصدر السابق.

وإيذاءً للنبي والمسلمين، ولم يأمر النبي ﷺ بقتل أحد من الأسرى غيرهما[1]، وكان قتلهما واجبًا؛ نظرًا إلى سوابقهما، فلم يكونا من الأسارى فحسب، بل كانا من مجرمي الحرب بالاصطلاح الحديث[2]، وبقاؤهما يعد مصدرًا للخطر الكبير على الإسلام، ولو أطلق سراحهما لما تورعا عن سلوك أي طريق فيه كيد للإسلام وأهله، فقتلهما ضرورة تقتضيها المصلحة العامة[3].

فلما بلغ النبي ﷺ في مرجعه (الصفراء) عُرض عليه الأسرى، فنظر إلى النضر بن الحارث، وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر نظرة رأى فيها الموت، فلما رأى ذلك، قال لمصعب بن عمير (وكان أقرب من هناك رحمًا): كلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلي إن لم تفعل. فقال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا، وكنت تعذب أصحابه. فقال النضر: لو أسرتك قريش ما قتلتك أبدًا وأنا حي. قال مصعب: والله إني لأراك صادقًا، ثم إني لست مثلك؛ فقد قطع الإسلام العهود.

وكان النضر أسير المقداد بن الأسود، وكان يطمع أن ينال في فدائه مالًا كثيرًا، فلما هموا بقتله، صاح: النضر أسيري، فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب: (اضرب عنقه، اللَّهم أغن المقداد من فضلك)[4].

لقد كان النضر بن الحارث من شياطين الإنس، قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس - وقد تقدم ذكر ذلك - فكان إذا جلس رسول الله ﷺ (مجلسًا فذكَّر) فذكر فيه بالله، خلفه النضر في مجلسه إذا قام، فحدث الناس عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني[5]؟

إن هذا الرجل المتعالي على الله والمتألي عليه، والذي يزعم أنه سينزل أحسن مما أنزل الله، والذي يزعم أنه أحسن حديثًا من محمد ﷺ، لابد أن يُثأر لله ولرسوله منه، ومن أجل هذا أمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه[6].

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 154.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 208.

(3) الصلابي: السيرة النبوية، ص 429.

(4) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 155.

(5) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 439، 440) مختصرًا.

(6) الصلابي: السيرة النبوية، ص 429.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى عرق الظبية، أمر بقتل عقبة بن أبي معيط. قال ابن إسحاق: (... فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: «النار»).

وكان الذي قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، أخو بني عمرو بن عوف، ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت، قال: يا معشر قريش، علام أُقتل من بين من هٰهنا؟

قال: على عداوتك الله ورسوله .. وكان عقبة قد حاول قتل النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة.

قال الشعبي: لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة، قال: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟

قال: «نعم! أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقي، وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران (ستخرجان) .. وجاء مرة أخرى بسلا شاة (الكيس الذي يكون فيه الجنين في بطن أمه)، فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة، فغسلته عن رأسي»[1].

- **دخول المدينة:**

دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفرًا منصورًا، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة. وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم، فقسمهم على أصحابه، وأوصى بهم خيرًا[2].

- **فرح النجاشي رضي الله عنه بوقعة بدر:**

روى الحافظ البيهقي عن رجل من أهل صنعاء، قال:

أرسل النجاشي ذات يوم إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فدخلوا عليه (أي: على النجاشي) وهو في بيت عليه خلقان ثياب، جالس على التراب.

قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما أن رأى ما في وجوهنا، قال: إني أبشركم بما يسركم؛ إنه جاءني من نحو أرضكم عين لي، فأخبرني أن الله ﷻ قد نصر نبيه ﷺ، وأهلك عدوه، وأسر فلان وفلان وفلان، وقتل فلان وفلان وفلان.

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 3 / 313.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 209.

التقوا بواد يقال له (بدر) كثير الأراك (نوع من الشجر)، كأني أنظر إليه، كنت أرعى لسيدي - رجل من بني ضمرة - إبله، فقال له جعفر: ما بالك جالس على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاط؟

قال: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى أن حقًّا على عباد الله أن يُحدثوا لله تواضعًا عندما يحدث لهم من نعمة، فلما أحدث الله لي نصر نبيه ﷺ، أحدثت له (أي: لله ﷻ) هذا التواضع[1].

* * *

(1) البداية والنهاية 3/ 375.

الفصل الرابع

الأسرى

بعد أن أتم الله نصره لرسوله والمؤمنين، وانهزم المشركون وفروا تاركين وراءهم سبعين قتيلًا، ألقيت جثثهم في القليب، وتركوا أيضًا سبعين أسيرًا، وضعوا في القيود، وقفل بهم المسلمون راجعين إلى المدينة. وقد جاء في حديث البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في (صحيح البخاري): أنهم قتلوا يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين.

- **«استوصوا بالأسارى خيرًا»:**

ولم تعرف البشرية محاربًا أرحم بمحاربيه ومن يقع في يديه من الأسرى من رسول الله ﷺ؛ فقد وضع ﷺ تصورًا ساميًا لحقوق الأسرى في بدر وما تلاها من غزوات. فكفل للأسير حق الطعام والشراب والكسوة، حتى عنون البخاري في صحيحه بابًا أسماه (باب الكسوة للأسارى)، وكفل للأسير حق الاعتقاد، فلم نعرف عنه ﷺ أنه أجبر أسيرًا على اعتناق الإسلام، بل كانت معاملته ﷺ للأسرى هي التي دفعت بعضهم إلى اعتناق الإسلام.

وقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بمعاملة أسرى بدر من المشركين معاملة حسنة، وقال لهم: (استوصوا بالأسارى خيرًا)[1]، فامتثل أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لأمره، وضربوا أروع الأمثلة في معاملة أسراهم.

- قال أبو عزيز بن عمير (أخو مصعب بن عمير): كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيرًا»، وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالبُر وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا.. ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال: فأستحي، فأردها على أحدهم، فيردها عليَّ، ما يمسها[2].

- وقال أبو العاص بن الربيع: كنت في رهط من الأنصار - جزاهم الله خيرًا - كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلو التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إليَّ)[3].

---

(1) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والكبير، وإسناده حسن.

(2) ابن هشام 1 / 644.

(3) المغازي للواقدي 1 / 119.

- وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة (أخو خالد بن الوليد)، يقول مثل ذلك وأكثر، يقول: (وكانوا يحملوننا ويمشون)[1]. أي إذا رأوا منهم جريحًا أو مريضًا أو متعبًا، حملوه؛ رفقًا به.

هذا الخلق الرفيع الذي أمر النبي ﷺ به أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فصار لهم خلقًا وطبيعة، أثر في إسراع مجموعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر، بُعيد وصول الأسرى إلى المدينة، وأسلم معه السائب بن عبيد، بعد أن فدى نفسه[2].

- القتل أم الفداء؟:

كانت الطغمة من كبراء مكة التي وقعت في الأسر يوم بدر، هم الذين آذوا الله ورسوله، وهم الذين ساقوا قومهم إلى الحرب وأحلوهم دار البوار، فكيف يُتركون بعد أن استمكنت الأيدي من خناقهم؟! فإن كان من حق الشجرة لكي تنمو أن تُقلم، فمن حق الحياة لكي تصلح أن تنقى من السفهاء[3].

وكان سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أُسر هؤلاء، يكره أسرهم، ويرى أن قتلهم أولى من استبقائهم. قال ابن إسحاق (وهو يقص أخبار الغزوة): (... ولما وضع القوم أيديهم يأسرون، رأى رسول الله ﷺ - فيما ذُكر لي - في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس.

فقال له: «كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟»

قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إليَّ من استبقاء الرجال[4].

وبعد أن رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، استشار أصحابه في الأسرى، أيُقتلون أم يُفادون بمال، فاختلف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على قولين:

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية،

---

(1) المصدر السابق.

(2) الصلابي: السيرة النبوية، ص 435، مختصرًا.

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص 254- 255، بتصرف.

(4) البداية والنهاية 3 / 347.

فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمكنَّا، فتُضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنِّي من فلان (نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة» - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ، وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾، إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: 61- 69]، فأحل الله الغنيمة لهم(1). وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستأْنِ بهم؛ لعل الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك، فاضرب أعناقهم، قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم نارًا، قال: فقال العباس: قطعت رحمك، قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئًا، قال: فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، قال: فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إن الله لَيُلِينَ قلوب رجال فيه، حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾ [إبراهيم]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح]. وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨﴾(2) [يونس]، أنتم عالة فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء، أو ضربة عنق».

(1) مسلم، كتاب الجهاد والسير 3/ 1763.

(2) مسند أحمد (1/ 383- 384)، رقم (3632).

قال عبد الله بن مسعود: فقلت: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء، فإني قد سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت، قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء في ذلك اليوم، حتى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: 67].

تعقيب:

دلتنا هذه الواقعة على أن النبي ﷺ كان له أن يجتهد، والذين ذهبوا إلى هذا - وهم جمهور علماء الأصول - استدلوا على ذلك بمسألة أسرى بدر. وإذا صح أن يجتهد، صح منه بناء على ذلك أن يخطئ في الاجتهاد ويصيب، غير أن الخطأ لا يستمر، بل لابد أن تنزل آية من القرآن تصحح له اجتهاده، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن اجتهاده ﷺ قد وقع على ما هو الحق في علم الله تعالى[1].

- **افتداء الأسرى:**

وقد تباين فداء الأسرى؛ فمن كان ذا مال أخذ فداؤه أربعة آلاف درهم. وممن أخذ منه أربعة آلاف درهم أبو وداعة[2]، وأخذوا من العباس مائة أوقية، ومن عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، دفعها عنه العباس، وأخذوا من آخرين أربعين أوقية فقط[3].

وأطلق الرسول ﷺ سراح عمرو بن أبي سفيان مقابل أن يطلقوا سراح سعد بن النعمان بن أكال، الذي أسره أبو سفيان وهو يعتمر[4].

ومن لم يكن لديهم مقدرة على الفداء، وكانوا يعرفون الكتابة، فجُعل فداؤهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة.

وكان يُقبل من بعض الأسارى ما عندهم إذا تعذر المفروض، فقد أرسلت زينب بنت رسول الله ﷺ قلادة لها لتفدي زوجها أبا العاص بن الربيع، فردوها لها، وأطلقوا لها أسيرها؛ لمكانتها

---

(1) البوطي: فقه السيرة، 244.

(2) الهيثمي: المجمع (6/ 90)، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(3) رواه أبو نعيم في الدلائل 2/ 476 – 477، بإسناد حسن.

(4) ابن هشام 2/ 357- 358.

عند والدها محمد ﷺ[1]، وبهذا كان ابن الربيع ممن أطلق بدون فداء، وأطلق الرسول ﷺ ممن لم يقدر على الفداء بأي شكل من الأشكال، منهم: المطلب بن حنطب المخزومي، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبو عزة الشاعر[2].

ومما يدل على أنه كان بالإمكان إطلاق سراحهم جميعًا بدون فداء، قول الرسول ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له»[3]؛ وذلك لما قام به من حماية للرسول ﷺ عندما عاد من هجرته إلى الطائف، ودوره في تمزيق صحيفة المقاطعة.

وعندما استأذن رجال من الأنصار النبي ﷺ في ترك فداء العباس، قال: «والله لا تذرون منه درهمًا»[4]. وذلك على الرغم من أن العباس ذكر أنه كان مسلمًا، وأنه خرج مستكرهًا[5].

وإليك تفصيل ذلك:

- **مواقف في افتداء الأسرى:**

كان في افتداء الأسرى مواقف ذات عبر ودلالات، نذكر منها ما يمكن ذكره فيما يلي:

1- فداء أبي وداعة السهمي:

قال ابن إسحاق: وكان في الأسارى أبو وداعة بن ضبيرة السهمي.

فقال رسول الله ﷺ: «إن له بمكة ابنًا كيسًا تاجرًا ذا مال، وكأنكم به قد جاء في طلب فداء أبيه».

فلما قالت قريش: لا تعجلوا بفداء أسراكم؛ لا يأرب (يكون ماهرًا) عليكم محمد وأصحابه، قال المطلب بن أبي وداعة - وهو الذي كان رسول الله ﷺ عني: صدقتم، لا تعجلوا، وانسل من الليل وقدم المدينة (دون علم قريش)، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم، فانطلق به.

---

(1) المسند: الفتح الرباني (14/ 100)، وقال الساعاتي: إسناده صحيح.

(2) ابن هشام 2/ 268 - 269.

(3) البخاري، الفتح (15/ 194، حديث 2024).

(4) البخاري، الفتح (15/ 191، حديث 4018).

(5) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 359- 360.

قال ابن كثير: وكان هذا أول أسير فدي، ثم بعثت قريش في فداء أسراهم[1].

2- فداء سهيل بن عمرو:

كان سهيل بن عمرو من أشراف قريش، ويكنى أبا يزيد، وكان أخًا للسكران بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كان زوجًا لسودة بنت زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قبل أن يموت ويتزوجها رسول الله ﷺ، وهو أيضًا ابن عمها. فلما قدم المسلمون بالأسارى كانت السيدة سودة بنت زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء (وهما من شهداء بدر كما تقدم)، وذلك قبل أن يُضرب الحجاب، فلما أُخبرت بقدوم الأسارى، رجعت إلى بيتها ورسول الله فيه، فإذا سهيل بن عمرو ومجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فما ملكت نفسها حين رأته كذلك أن قالت: «أي أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم، ألا متم كرامًا؟!»، (أي: كان الأكرم لكم أن تقاتلوا فتُقْتَلوا ولا تُأسروا)، قالت: فوالله ما أنبهني إلا قول رسول الله ﷺ من البيت: (يا سودة، أعلى الله وعلى رسوله تحرضين؟!)، فقالت: والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي أن رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه، أن قلت ما قلت، فقبل النبي ﷺ اعتذارها[2].

وكان الذي أسره مالك بن الدخشم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخو بني سالم بن عوف، فقال في ذلك:

أسرت سهيلا فلا أبتغي ... أسيرًا به من جميع الأمم

وخندف تعلم أن الفتى ... فتاها سهيل إذا يظلم

ضربت بذي الشفر حتى انثنى ... وأكرهت نفسي على ذي العلم[3]

وقدم مكرز بن حفص بن الأخيف المدينة في فداء سهيل بن عمرو[4]، فلما خاطبهم في فداء سهيل بن عمرو، قالوا له: هات الذي لنا (يريدون المال مقابل الفداء). فقال لهم مكرز: اجعلوا رجلي مكان رجله (أي: خذوني مكانه)، وخلوا سبيله، حتى يبعث إليكم بفدائه، فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزًا مكانه.

---

(1) البداية والنهاية، ج2، ص 318-3.

(2) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، ج2، ص 154.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية 3/ 378.

(4) كان سهيل يعرف من شفته السفلى.

وكان سهيل بن عمرو خطيب قريش وفصيحهم، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثنيته[1]، فلا يقوم عليك خطيبًا في موطن أبدًا، فقال رسول الله ﷺ: «إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه».

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الذي قامه سهيل بمكة حين مات رسول الله ﷺ، وارتد من ارتد من العرب، ونجم النفاق بالمدينة وغيرها. فقام بمكة فخطب الناس، وثبتهم على الدين الحنيف[2].

3- فداء لا أخلاقي:

قال ابن إسحاق: وكان في الأسارى عمرو بن أبي سفيان صخر بن حرب، وكان الذي أسره علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقيل لأبي سفيان؛ افد عمرًا ابنك قال: أيجتمع عليَّ دمي ومالي؟! (أي: قتْل ابني وفداء ابني الثاني؟!) قتلوا حنظلة (ابنه الذي قتل يوم بدر)، دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم.

قال: فبينما هو كذلك محبوس بالمدينة، إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال أخو بنو عمرو ابن عوف معتمرًا ومعه مرية (ناقة) له، وكان شيخًا مسلمًا، في غنم له بالبقيع، فخرج من هنالك معتمرًا، ولم يظن أنه يحبس بمكة؛ حيث إنه جاء معتمرًا، وقد كان عهد قريش أن قريشا لا يعرضون لأحد جاء حاجًّا أو معتمرًا إلا بخير.

فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو (أي: حتى يطلق المسلمون ابنه)، قال: ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان، فيفكوا به صاحبهم، فأعطاهم النبي، فبعثوا به إلى أبي سفيان، فخلى سبيل سعد[3].

4- قلادة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

قال ابن إسحاق: وقد كان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن أمية، ختن رسول الله ﷺ، وزوج ابنته زينب.

---

(1) **الثنية:** إحدى الأسنان الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من تحت.

(2) البداية والنهاية 3/ 378.

(3) ابن هشام 2/ 357- 358.

قال ابن هشام: وكان الذي أسره خراش بن الصمة أحد بني حرام.

قال ابن إسحاق: وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالًا وأمانة وتجارة، وكانت أمه هالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد، وكانت خديجة هي التي سألت رسول الله ﷺ أن يزوجه بابنتها زينب، وكان لا يخالفها، وذلك قبل الوحي.

وكان ﷺ قد زوج ابنته رقية - أو أم كلثوم - من عتبة بن أبي لهب، فلما جاء الوحي، قال أبو لهب: اشغلوا محمدًا بنفسه، وأمر ابنه عتبة فطلق ابنة رسول الله ﷺ قبل الدخول، فتزوجها عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومشوا إلى أبي العاص، فقالوا: فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأي امرأة من قريش شئت.

قال: لا، والله لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش، وكان رسول الله ﷺ يثني عليه في صهره خيرًا.

ثم روى ابن إسحاق: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها فافعلوا».

قالوا: نعم! يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها.

قال ابن إسحاق: فكان ممن سُمي لنا ممن منَّ عليه رسول الله ﷺ من الأسارى بغير فداء:

من بني أمية: أبو العاص بن الربيع.

ومن بني مخزوم: المطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم، أسره بعض بني الحارث بن الخزرج، فترك في أيديهم حتى خلوا سبيله، فلحق بقومه.

قال ابن إسحاق: وقد كان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه أن يخلي سبيل زينب - يعني: أن تهاجر إلى المدينة - فوفى أبو العاص بذلك[1].

---

(1) البداية والنهاية 3/ 379- 380.

5- «والله لا تذرون له درهمًا»:

ومن الأسرى: العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ. قال ابن إسحاق: لما أمسى رسول الله يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق، بات النبي ساهرًا أول الليل، فقال له أصحابه: ما لك لا تنام يا رسول الله؟! فقال: «سمعت أنين عمي العباس في وثاقه»، فأطلقوه فسكت، فنام رسول الله[1].

وروى الحاكم في المستدرك، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما أُسر العباس - فيمن أُسر يوم بدر - أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه»، فقال عمر: أفآتيهم؟ فقال: «نعم» فأتى عمر الأنصار، فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال عمر: فإن كان لرسول الله رضًا؟ قالوا: فإن كان له رضًا فخذه، فأخذه عمر، فقال له: يا عباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب إليَّ من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله يعجبه إسلامك.

ومع أن النبي تألم لألمه وهو في الأسر، فقد أبى إلا أن يأخذ منه الفداء، وقد فدى نفسه وابني أخويه: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفه عتبة ابن عمرو، أحد بني الحارث بن فهر بمائة أوقية من الذهب، ولما قال للنبي: إنه لا مال له، قال له: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، وقلت لها: إن أُصبت (قتلت) في سفري فهذا لبني: الفضل، وعبد الله، وقثم؟!»، فقال: والله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا شيء ما أعلمه إلا أنا وأم الفضل!!

ولما قال: إنه خرج مستكرهًا وإنه كان قد أسلم، قال له النبي: «أما ظاهرك فكان علينا، والله أعلم بإسلامك وسيجزيك»، وكذلك أبى أن يتنازل له الأنصار عن الفداء. روى البخاري في صحيحه، عن أنس بن مالك، قال: إن رجالًا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا[2] العباس فداءه، فقال: «لا والله، لا تذرون له درهمًا»[3].

---

(1) السيرة لأبن هشام ج 7 ص 248.

(2) هم أخوال أبيه عبد المطلب؛ لأن أمه سلمى بنت عمرو، من بني النجار.

(3) البداية والنهاية، ج 3، ص 299.

وهذا غاية العدل والإنصاف في المعاملة، فرسول الله مع رحمته بعمه، وشفقته عليه، وتخوفه أن يُقتل وهو يُرجى من ورائه للإسلام خير كثير، تأبى عليه نفسه السامية أن يفرق بينه وبين الأسارى في الفداء، أو أن يقبل أن يمن عليه الأنصار خشية أن يكون عملهم هذا لمكانه من رسول الله وقرابته، مع أنه ﷺ منَّ على بعض الأسارى دون فداء، وهذا ليس بعجيب ممن كان خلقه القرآن(1).

6- «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»:

ومن الأسرى: أبو عزة الشاعر، وكان فقيرًا ذا عيال، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ، فأطلق سراحه.

قال ابن إسحاق: وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمع، كان محتاجًا ذا بنات، قال يا رسول الله: لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة، وذو عيال، فامنن عليَّ.

فمن عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدًا.

فقال أبو عزة يمدح رسول الله ﷺ على ذلك:

من مبلغ عني الرسول محمدًا ... بأنك حق والمليك حميد

وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى ... لها درجات سهلة وصعود

فإنك من حاربته لمحارب ... شقي ومن سالمته لسعيد

ولكن إذا ذكرت بدرًا وأهله ... تأوب ما بي حسرة وقعود

ثم إن أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد الرسول عليه، ولعب المشركون بعقله، فرجع إليهم، فلما كان يوم أحد أسر أيضًا، فسأل من النبي ﷺ أن يمن عليه أيضًا، فقال النبي ﷺ: «لا أدعك تمسح عارضيك، وتقول: خدعت محمدًا مرتين».

ثم أمر به فضربت عنقه كما سيأتي في غزوة أحد.

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 160- 161.

ويقال: إن فيه قال رسول الله ﷺ: **«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»** .. وهذا من الأمثال التي لم تسمع إلا منه ﷺ(1).

7- ما كان صيفي ليوفي أمانة:

وكان في الأسرى صيفي بن أبي رفاعة بن عائذ من بني مخزوم، تعهد لمن أسروه من أصحاب رسول الله ﷺ إن تركوه أن يبعث لهم من مكة بفدائه، فخلوا سبيله، ولم يف لهم.

قال حسان بن ثابت في ذلك:

مـــا كـــان صـــيفي ليـــوفي أمانـــة قفـــا ثعلـــب أعيـــا بـــبعض المـــوارد

8- مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والولاء الحق:

قال ابن إسحاق: وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار، أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى، فرقهم بين أصحابه، وقال: «استوصوا بهم خيرًا».

قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى، قال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شديديك به؛ فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث،

ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر - وهو الذي أسره - ما قال: قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي؟

فقال له مصعب: إنه أخي دونك(2).

فسألت أمه عن أغلى ما فُدي به قرشي، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها.

---

(1) البداية والنهاية 3/ 380- 381.

(2) الروض الأنف 5/ 155.

9- الوليد بن الوليد بن المغيرة:

ومن الأسرى: الوليد بن الوليد بن المغيرة، افتداه أخواه خالد وهشام، فلما افتدي ورجع إلى مكة أسلم، فقيل له: هلا أسلمت قبل الفداء، فقال: خفت أن يعدوا إسلامي خوفًا. ولما أراد الهجرة إلى المدينة منعه أخواه، فبقي بمكة حتى فر إلى النبي ﷺ في عمرة القضاء[1].

10- إسلام شيطان قريش:

روى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير، قال: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر.

قال ابن هشام: والذي أسره رفاعة بن رافع، أحد بني زريق.

فذكر (عمير بن وهب) أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان (وهو صفوان بن أمية): والله ما إن في العيش بعدهم خيرًا.

قال له عمير: صدقت، أما والله لولا دين علي ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله؛ فإن لي فيهم علة: ابني أسير في أيديهم.

قال: فاغتنمها صفوان، فقال: عليَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فقال له عمير: فاكتم عليَّ شأني وشأنك.

قال: سأفعل.

قال: ثم أمر عمير بسيفه، فشحذ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم؛ إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 161.

فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا وحزرنا (قَدَّر عددنا) للقوم يوم بدر، ثم دخل على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه.

قال: «فأدخله علي».

قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه، فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ؛ فإنه غير مأمون.

ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: «أرسله يا عمر، ادن يا عمير».

فدنا ثم قال: أنعم صباحًا - وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة».

قال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد.

قال: «فما جاء بك يا عمير؟»

قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه.

قال: «فما بال السيف في عنقك؟!»

قال: قبحها الله من سيوف وهل أغنت شيئًا؟

قال: «اصدقني ما الذي جئت له؟»

قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي، لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك».

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله؛ قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره» .. ففعلوا.

ثم قال يا رسول الله: إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام؛ لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم.

فأذن له رسول الله ﷺ، فلحق بمكة، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب، فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه أبدًا.

قال ابن إسحاق: فلما قدم عمير مكة، أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديدًا، فأسلم على يديه ناس كثير(1).

11- الوفاء والاعتراف بالجميل:

كان المطعم بن عدي من زعماء مكة، وهو سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف، توفي قبل أن يسلم، ورغم ذلك كان له في نفس رسول الله ﷺ والمسلمين مكانًا؛ فهو أحد الذين نقضوا صحيفة قريش الجائرة، وهو الذي أجار النبي ﷺ لدى عودته من الطائف، بعد أن تهرب من إجارته الأخنس بن شريق، وسهيل بن عمرو، وقام هو وبنوه بحماية رسول الله ﷺ، وعندما كشفت قريش أمر بيعة العقبة الثانية، وقامت بمطاردة المبايعين بعد أدائهم الحج، فأمسكت بسعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خلصه المطعم من أيديهم، فرجع لم يمسسه سوء .. فحفظ رسول الله ﷺ له هذا، وقال يوم أسرى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى (يعني أسارى بدر) لتركتهم له»(2).

إن المطعم بن عدي كافر، لا يختلف في عقيدته عن بقية قريش، وإن أبا جهل وأبا لهب كافران كذلك مثل المطعم بن عدي، لكن الفرق بين النوعين واضح: كافر مسالم مناصر، وكافر عدو محارب. ورسول الله ﷺ يربينا على أن نرد المعروف لأهله ولو كانوا كفارًا، ويعلمنا أن نحفظ

---

(1) البداية والنهاية 3/ 381 – 382.

(2) رواه البخاري، الفتح (12/ 226- 227، حديث 3139).

الود لأهله، ولو كانوا عبدة أصنام وأوثان[1]. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[2]. وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن استجار بالله فأجيروه، ومن آتى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له، حتى تعلموا أن قد كافأتموه»[3].

12- الفداء بالتعليم:

من لم يكن له مال من الأسرى، ويعرف القراءة والكتابة، أعطاه رسول الله ﷺ عشرة من غلمان المدينة، يعلمهم القراءة والكتابة. وقد روى ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في ذلك رواية طريفة فقال: إنه كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فجاء غلام يبكي إلى أمه، فقالت: ما شأنك؟ فقال: ضربني معلمي، فقالت: الخبيث يطلب بذحل بدر (أي ينتقم ليوم بدر)، والله لا تأتيه أبدًا[4].

- حكم الفداء في الإسلام:

كان القتل للأسرى في هذه المعركة خيرًا من المفاداة، ثم جعل فيما بعد الخيار للإمام بين القتل أو الفداء أو المن ما عدا الأطفال والنساء؛ إذ لا يجوز قتلهم ما داموا غير محاربين[5]. قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: 4].

وعلى هذا لا يكون هناك اختلاف (كما رأى معظم المفسرين) بين مدلول هذه الآية ومدلول آية الأنفال، التي عاتب الله فيها الرسول ﷺ؛ لاستكثارهم من الأسرى في غزوة بدر والتقتيل أولى، وذلك حيث يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:67]؛ لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام كانت هي الهدف الأول من القتال حين

---

(1) الغضبان: المنهج الحركي، ص 140.

(2) رواه أحمد (7897)، والطبراني (519)، وابن حبان (3371).

(3) أخرجه أحمد(5357)، وأبو داود (1673)، والنسائي في الصغرى (2568).

(4) رواه أحمد (2225)، وانظر البداية والنهاية، ج 3، ص 338.

(5) انظر السيرة النبوية، مهدي رزق الله، ص 358.

كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة، وكانت الكثرة للمشركين، وكان قتل محارب يساوي شيئًا كبيرًا في ميزان القوى حينذاك. والحكم ما يزال ساريًا في عمومه في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو، وتعجيزه عن الهجوم والدفاع[1].

- **نداء إلى الأسرى:**

وقد وعد الله سبحانه الأسارى من آمن منهم وأسلم وحسن إسلامه، بالعوض عما أخذ منهم، قال عز شأنه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال].

وهو ترغيب لهم في الإيمان، ووعد لهم بالعوض في الدنيا والغفران في الآخرة، وكان العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن ناله هذا الوعد الكريم، فكان يقول: أبدلني الله من ذلك (أي: مما دفعته من فداء يوم بدر) عشرين عبدًا - وفي رواية أربعين - كلهم تاجر بمالي، وأعطاني زمزم - يريد السقاية - وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة. وكان يقول بعدما ناله من الخير حتى رضي: وأنا بعد أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه[2].

* * *

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

(2) السيرة لأبي شهبة، ج 2، ص 165.

الفصل الخامس

مكانة بدر في العالمين

كانت بدر - من حيث أثرها الخطير - ظاهرة كونية في عالم الإنس والجن والملائكة:

أولا: في عالم البشر:

كان رسول الله ﷺ يوم بدر يلح على ربه بالنصر، حتى ليسقط رداؤه عن كتفيه، ويخشى أن تكون هذه المعركة نهاية العصبة المؤمنة في الأرض. «اللّهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض». لقد كان الرهان في عالم الأرض على افتتاح التاريخ بهذا النصر من أي الفريقين، فلقد كان أبو جهل يقول: والله لن نرجع حتى نرد بدرًا، فننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، ويعلم العرب بخروجنا هذا لا يزالون يهابوننا أبدًا).

فلقد كانت مطامح أبي جهل أن يكون مقود العرب بيده بعد بدر، ولا تزال تهابه أبدًا. وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللّهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض»، وإذا بنصر الله يتنزل، فتنقلب الموازين، ويتأرجح التاريخ، ويصبح مقوده بيد المسلمين، ومن ذلك الوقت لم يعودوا على هامش الأحداث، يأملون ويدعون كما كانوا أيام انتصار الفرس على الروم؛ بل صاروا صناع أحداثه، في بدر وبعدها، وجاء هذا النصر من الحسم ومن الضخامة بحيث اجتث الباطل من جذوره .. فلقد سقط قادة الكفر صرعى في هذه المعركة، وهم الذين كانوا يحملون عبء الحرب ضد الدعوة خمسة عشر عامًا أو تزيد .. إنه جيل قادة كامل سقط على الساحة صريعًا بين يدي هذه العصبة المؤمنة.

أما الجيل الجديد من القادة، والذي نجا يوم بدر، فمعظمه كتب الله تعالى له الهداية فيما بعد، وها نحن نستعرض هؤلاء القادة بشكل سريع: أبو جهل بن هشام المخزومي، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة الأمويان، وأمية بن خلف الجمحي، وتبعهم بعدها النضر بن الحارث العبدري، وعقبة بن أبي معيط الأموي، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان. وقد عدد المقريزي أعداء رسول الله ﷺ الكبار في إمتاع الأسماع، فكانوا سبعة وعشرين رجلًا، قتل منهم في بدر وبعدها بقليل قرابة العشرين. وعن أبي طلحة «أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد

قريش، فقذفوا في طوِيٍّ من أطواء بدر خبيث مخبث»[1]. وكان من فضل الله تعالى على المؤمنين أن سقط بعض هؤلاء الصناديد صرعى بيد العتبان الشباب من الأنصار، مثل مقتل أبي جهل وأمية بن خلف، وعلى يد المستضعفين من المسلمين، أمثال بلال وعبد الله بن مسعود؛ تحقيقًا لموعود الله ﷻ.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص] .. فلقد سقط فرعون الأمة أبو جهل صريعًا، وأخزاه الله على يد رويعي الغنم عبد الله بن مسعود، وكانت بدر في عالم الأرض عرسًا للمؤمنين[2].

ثانيًا: في عالم الجن:

حين توجهت قريش إلى بدر، مر هاتف من الجن المؤمن على مكة في اليوم الذي أوقع بهم المسلمون، وهو ينشد بأنفذ صوت، ولا يُرى شخصه:

أزار الحنيفيون بدرًا وقيعة ... سينقض منها ركن كسرى وقيصرا

أبادت رجالًا من لؤي وأبرزت ... خرائد يضربن الترائب حسرا

فيا ويح من أمسى عدو محمد ... لقد جار عن قصد الهدى وتحيرا[3]

ولقد أدرك المؤمنون من الجن أبعاد هذه المعركة، وأنها ستطيح بعرش كسرى وقيصر. وبمقدار ما كان العرس في عالم الجن من المؤمنين، بمقدار ما كان المأتم والويل والثبور عند كفار الجن وشياطينهم.

فلقد تحدثنا عن اشتراك إبليس - لعنه الله - في التخطيط لبدر، وفي آماله العراض بهزيمة محمد ﷺ، وكيف كان دوره في دفع قريش دفعًا إلى المواجهة حين خافت من أن تغزوها بنو كنانة. فجاءهم على صورة سراقة بن مالك، قائلًا: أنا جار لكم من بني كنانة أن يأتوكم بشيء تكرهونه، وجاء حليفًا لقريش ووضع يده بيد أبي جهل، وأخيه الحارث ابن هشام. فلما رأى ما

(1) أخرجه البخاري (3890)، وأحمد (12216).

(2) المنهج الحركي، ص 243- 244.

(3) إمتاع الأسماع للمقريزي، ص 72.

يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه، وقال له المشركون: إلى أين يا سراقة؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا، لا تفارقنا؟! فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب، ثم فر حتى ألقى نفسه في البحر.

وحدثنا رسول الله ﷺ عن خزي إبليس يوم بدر، فقال: «ما رُئِيَ الشيطان يومًا فيه أصغر ولا أدحر، ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما يرى فيه من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما رُئِيَ يوم بدر؛ فإنه رأى جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يزع الملائكة»(1). لقد اندحر الشيطان وحزبه من الإنس والجن يوم بدر، وكانت الهزيمة الساحقة للشياطين في الأرض والكفار من الجن أشد هولًا وأقسى مرارة منها على كفار قريش، بشهادة رسول الله ﷺ - كما علمه من ربه - فلقد كانت أقسى هزيمة لإبليس على مدار تاريخه منذ خلقه إلى يوم يبعثون .. فهو في أشنع هزائمه في كل سنة في عرفة حين تحبط مخططاته، ولكن هذا كله كان يهون عن هزيمة بدر؛ حيث خطط لنصر حلفائه، فسقط مع حلفائه، حين جاء جبريل بنصر الله(2).

ثالثًا: في عالم الملائكة:

وكانت بدر عرسًا في عالم الملائكة والملأ الأعلى، فلأول مرة يؤذن للملائكة، ولأميرهم جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يشترك مع ألف من سادة الملائكة في المعركة ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال]، والله تعالى أصدر أوامره وتعليماته لهم بدخول المعركة السافرة: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال].

---

(1) رواه مالك مرسلًا (961).

(2) المنهج الحركي، ص 245- 246، مختصرًا.

وقد أخبر جبريل رسول الله ﷺ أن من شهد بدرًا من الملائكة بقوا في الفضل من سادة الملائكة. فكما أن المؤمنين في الأرض - على مدار التاريخ - يعتبرون من شهد بدرًا من المؤمنين أعلى طبقة فيهم، ويعتبرونهم خير هذه الأمة، فكذلك الأمر فيمن شهدها من الملائكة.

فعن رفاعة بن رافع الزرقي، قال: (جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها - قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة)[1]. وهكذا مضت بدر مثلًا في تاريخ الأرض والسماء، وفرقانًا في عالم الإنس والجن والملائكة[2].

* * *

(1) رواه البخاري (3905).

(2) المنهج الحركي، ص 246- 247، مختصرًا.

الفصل السادس

فضائل أهل بدر

أهل بدر هم سادات المسلمين، بل وسادات الخلق أجمعين، خلا النبيين والمرسلين، وهم أعظم ثلة ظهرت في دنيا العقيدة والإيمان، تسابقوا إلى الشهادة، فكان كل واحد فيهم يتمنى أن يموت قبل صاحبه، وكانوا يؤثرون عقيدتهم على آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم، بل يؤثرونها على أنفسهم وأزواجهم، وكان انتصارهم إيذانًا بالميلاد الحقيقي لدولة الإسلام، فقاد المسلمون بعدها العالم إلى الخير والصلاح والنور قرونًا طويلة.

وقد وصفهم الله – عز وجل – في القرآن بصفة الإيمان في غير ما موضع:

– قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: 17].

–وقال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤﴾ [آل عمران].

– وقال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: 12].

وأثنى عليهم أيضًا بقوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ١٣﴾ [آل عمران].

أما ثبوت فضلهم في السنة فكثير .. من ذلك:

1– روى البخاري في صحيحه، من حديث معاذ بن رفاعة بن رافع، عن أبيه – وكان أبوه من أهل بدر – قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: (ما تعدون أهل بدر فيكم؟، قال: من أفضل المسلمين – أو كلمه نحوها – قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة)[1].

2– وبين رسول الله ﷺ أن من قتل منهم نال الفردوس الأعلى .. روى البخاري في صحيحه، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن أم الربيع بنت البراء – وهي أم حارثة بن سراقة

---

(1) صحيح البخاري برقم (3992).

- أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة؟ - وكان قُتل يوم بدر، أصابه سهم غرب (سهم طائش) - فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»(1).

قال ابن كثير: (وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر، فإن سراقة هذا لم يكن في بحيحة (وسط) القتال، ولا في حومة الوغى (أشد موضع في القتال)، بل كان من النظارة (الحراسة) من بعيد، وإنما أصابه سهم غرب (طائش) وهو يشرب من الحوض، ومع هذا أصاب بهذا الفردوس التي هي أعلى الجنان، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، التي أمر الشارع أمته إذا سألوا الجنة أن يسألوه إياها، فإذا كان هذا حال هذا، فما ظنك بمن كان واقفًا في نحر العدو، وعدوهم على ثلاثة أضعافهم عددًا وعُدَدًا)(2).

3- وبين رسول الله ﷺ أيضًا أن أهل بدر مغفور لهم .. روى الإمام أحمد في مسنده، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «إن الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»(3). قال ابن حجر: (وهي بشارة عظيمة لم تقع لغيرهم)(4).

4- وكان رجاء النبي ﷺ لأهل بدر ألا يدخلوا النار .. روى مسلم في صحيحه، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن عبدًا لحاطب بن أبي بلتعة، جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطبًا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت.. لا يدخلها؛ فإنه شهد بدرًا والحديبية»(5).

5- أخبر رسول الله ﷺ بأنه لولا أهل بدر لم يصلنا الإسلام، ولقضي عليه معهم(6). روى مسلم في صحيحه، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ

(1) صحيح البخاري، برقم (2809).
(2) البداية والنهاية 5/ 258.
(3) برقم 1940.
(4) فتح الباري 7/ 305.
(5) برقم 2495.
(6) د. أمين بن عبد الله الشقاوي: فضائل غزوة بدر..

القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «اللّٰهم أنجز لي ما وعدتني، اللّٰهم آت ما وعدتني، اللّٰهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»[1].

أقوال العلماء:

- قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين[2].

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنه قد ثبت - بأدلة الكتاب والسنة - أن أفضل الأمة:

- أهل بدر.

- ثم أهل بيعة الرضوان.

- والعشرة (يقصد: العشرة المبشرون بالجنة)، مفضلون على غيرهم (أي أفضل الجميع)، والخلفاء الأربعة أفضل الأمة[3].

- وقال أيضًا: وذلك أن أهل السنة عندهم أن أهل بدر كلهم في الجنة[4].

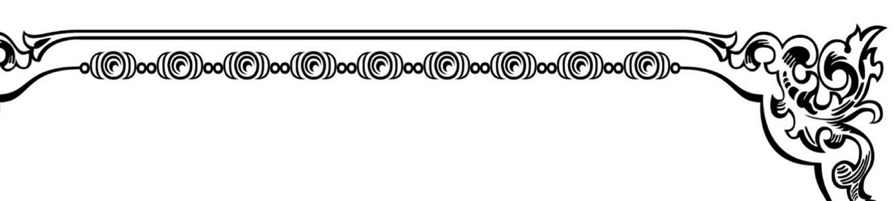
* * *

(1) برقم 1763.

(2) جامع بيان العلم (1425و 1805).

(3) مجموع الفتاوى 2/ 476.

(4) منهاج السنة 4/ 166.



الباب الثاني عشر

أحداث مجتمع المدينة بعد غزوة بدر الكبرى

الفصل الأول

تشريعات

توالى تنزل التشريعات في السنة الثانية من الهجرة بعد غزوة بدر، وبعد عودة رسول الله ﷺ والمسلمين إلى المدينة .. فتنزلت التشريعات بعبادات ومعاملات وبفرائض وسنن، تكاملت مع ما سبقها وما جاء بعدها، حتى أكمل الله دينه، وأتم نعمته .. وكان نصيب هذه الفترة من السنة الثانية من الهجرة، أن فرض الله على عباده صدقة الفطر والزكاة، وسن لهم صلاة العيدين.

1- صدقة الفطر:

في رمضان من هذه السنة شرع الله عز وجل زكاة الفطر أو زكاة الأبدان .. وقد روي أن رسول الله ﷺ خطب الناس قبل الفطر بيوم أو يومين، وأمرهم بها، فصارت واجبة على كل مسلم قادر عليها. وأضيفت إلى الفطر لأنه سبب وجوبها، قال ابن حجر: (أضيفت الصدقة للفطر؛ لكونها تجب بالفطر من رمضان)[1].

وتمتاز صدقة الفطر عن غيرها من الزكوات، بأنها مفروضة على الأبدان (الأشخاص) لا على الأموال .. بمعنى أنها فرضت لتطهير نفوس الصائمين، وليس لتطهير الأموال كما في زكاة المال. فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: (فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين ...)[2]. وقيل هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى].

وقد أمر بها رسول الله ﷺ كل مسلم، يكون لديه ما يزيد عن قوته وقوت عياله في يوم العيد وليلته، يخرجها عن نفسه وزوجته، وعن كل من تلزمه نفقته، فعن ابن عمر

---

(1) (361/3).

(2) أخرجه أبو داود (609)، وابن ماجه (1821)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: (أمر رسول الله ﷺ بصدقة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد ممن تمونون)[1] .. أما عن أحكامها فتطلب من كتب الفقه.

2- أول صلاة لعيد الفطر في الإسلام:

في الأول من شوال من هذه السنة، صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين صلاة عيد الفطر، فكانت أول صلاة عيد صلاها المسلمون في الإسلام. خرج فيها الناس جميعًا إلى المصلى يهللون ويكبرون، ولم يتخلف منهم أحد، حتى الحيض والعواتق (الفتيات أول إدراكهن). فعن أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: (أُمرنا أن نخرج، فنُخرج الحيض والعواتق، وذوات الخدور - أي المرأة التي لم تتزوج - فأما الحيض فيشهدن جماعة المسلمين ودعوتهم، ويعتزلن مصلاهم)[2].

وخرج رسول الله ﷺ بحربة الزبير بن العوام، التي وهبها له النجاشي، فوهبها للنبي ﷺ، فصلى بالناس، وخطبهم مذكرًا ومنذرًا ومرهبًا ومرغبًا، ثم انصرف الناس إلى عيدهم في فرح وسعة ولهو مباح، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان؟»، قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما، يوم الفطر ويوم النحر»[3].

ولقد تميز هذا العيد (والأعياد من بعده) عن غيره من أعياد الجاهلية، بأن كان قربة وطاعة لله، وتعظيمًا وذكرًا وتهليلًا وتكبيرًا له سبحانه، وفرحًا بنعمة العيد ونعمة إتمام الصوم.

3- فرض الزكاة:

في هذه السنة، أخذت الزكاة مكانها في شريعة الله، وفي النظام الاقتصادي الإسلامي، فصارت ركنًا من أركان الإسلام، وفريضة محتمة معلومة، تزكو النفس بأدائها، ويجعلها الله وشيجة تراحم وتضامن بين أفراد الأمة.

---

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (61/4)، والدار قطني في سننه (141/2)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (835).

(2) أخرجه البخاري (969).

(3) أخرجه أحمد (11750).

وقد كان تشريع الزكاة بعد شهر رمضان من هذه السنة؛ لأنه جاء بعد صدقة الفطر، كما روى قيس بن سعد بن عبادة، فقال: (أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت فريضة الزكاة، فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله)(1).

4- أول أضحى في الإسلام:

في اليوم العاشر من ذي الحجة من السنة الثانية من الهجرة، شهد المسلمون أول أضحى، وأول أضحية في الإسلام .. حيث خرج رسول الله ﷺ، فصلى بالناس، وذبح بيديه الشريفتين كبشين؛ أحدهما عن أمته، والآخر عنه وعن آل بيته.

روى الواقدي، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما رجعنا من بني قينقاع، ضحينا في ذي الحجة صبيحة عشر، وكان أول أضحى رآه المسلمون، وذبحنا في بني سلمة، فعددت في بني سلمة سبع عشرة أضحية.

وذكر الطبري في تاريخه: وحَضَرَت الأضحى، فذُكِر أن رسول الله ﷺ ضحى وأهل اليسر من أصحابه يوم العاشر من ذي الحجة، وذبح فيه بالمصلى بيده شاتين، وقيل ذبح شاة.

وعن أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين(2)، فإذا صلى وخطب الناس، أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه، فذبحه بنفسه بالمدية، ثم يقول: «اللّهم هذا عن أمتي جميعًا، من شهد لك بالتوحيد، وشهد لي بالبلاغ»، ثم يأتي بالآخر فيذبحه بنفسه ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد»، فيطعمهما جميعًا للمساكين، ويأكل هو وأهله منهما(3).

---

(1) رواه أحمد (23458)، وابن خزيمة (2380)، والنسائي (2508)، وابن ماجه (1881)، والحاكم (1524)، وقال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح (فتح الباري، ج3، ص 207).

(2) **الأملح:** هو الذي يكون بياضه أكثر من سواده.

(3) رواه أحمد (26784)، والبيهقي (19400). انظر: ابن كثير، التفسير، ج 4، ص 642.

الفصل الثاني
عمليات جهادية خاصة

1- قتل عصماء بنت مروان:

كانت عصماء بنت مروان ممن يؤذي النبي ﷺ، وتعيب الإسلام، وتحرض على النبي ﷺ، وقالت في ذلك شعرًا، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: ألا آخذٌ لي من ابنة مروان؟ فسمع ذلك عمير بن عدي الخطمي - من قوم زوجها - فجاءها في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها، وحولها نفر من ولدها، منهم من ترضعه في صدرها، فجسها بيده؛ لأنه كان أعمى، ونحى الصبي عنها، ثم قتلها، ثم صلى الصبح مع النبي ﷺ، فقال له: أقتلت ابنة مروان؟ قال: نعم، فقال له النبي ﷺ: نصرت الله ورسوله يا عمير[1]، فقال عمير: هل عليّ في ذلك شيء؟ فقال: لا ينتطح فيها عنزان[2] (أي: لا قيمة لها). فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ[3]، وقال لأصحابه: إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب، فانظروا إلى عمير بن عدي، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انظروا إلى هذا الأعمى الذي يسري في طاعة الله تعالى، فقال: لا تقل الأعمى ولكنه البصير.. فلما رجع عمير وجد بنيها في جماعة يدفنونها، فقالوا: يا عمير أنت قتلتها؟ قال: نعم، فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون، فوالذي نفسي بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت (مِن سبِّ رسول الله ﷺ والتحريض عليه) لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم. فيومئذ ظهر الإسلام في بني خطمة، فمدح حسان عمير بن عدي، وكان قتل عصماء لخمس بقين من رمضان، مرجع النبي ﷺ من بدر، على رأس تسعة عشر شهرًا[4].

---

(1) ابن هشام 4/ 379.

(2) رواه أبو داود في سننه (4/ 528- 529، ك الحدود).

(3) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 367.

(4) إمتاع الأسماع للمقريزي 1/ 101- 102.

إنها امرأة واستطاعت بكيدها للإسلام أن تحول بينه وبين بني خطمة، وخوف المؤمنين فيهم من سلاطة لسانها جعلهم يخفون إسلامهم، فكان شعرها كلسع النار على ظهر المؤمنين، وتحرك الإيمان في قلب عمير، الذي رأى من تبجحها وسفاهتها في غيبة رسول الله ﷺ في بدر، ما جعله ينذر قتلها إن عاد ﷺ. أقدم على قتلها بحمية إيمانية عجيبة، ودون أن يستأذن النبي ﷺ، وصلى الصبح مع رسول الله ﷺ في المدينة، وفي قلبه بعض الخوف من أن يكون قد أساء بقتلها، فطمأنه ﷺ، وأثنى عليه وأذهل عمر أنه أعمى، وتمكن من البحث عن هذه الحية الرقطاء فقتلها في بيتها. فصحح له عليه الصلاة والسلام قوله: إنه البصير. ولم يكن عمير في قتله هذا بعد إجازة رسول الله ﷺ له يخشى أحدًا في هذه الأرض، لم يجمجم ولم يتلعثم حين سأله بنوها عن القاتل، أكد لهم أنه قتلها، وسيقتلهم جميعًا لو قالوا مثل قولها، وتحداهم: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

وكان لهذا الموقف الصلب من الأثر والقوة أكبر من مقتل ابنة مروان. فلابد أن يغدو الكفر صاغرًا قليلًا أمام المؤمنين، وأنقذ رقاب إخوانه جميعًا من الأذى، وصارت العزة لهم، والذل والصغار لمن خالف أمرهم، وظهر الإسلام في بني خطمة[1].

2- قتل أبي عفك اليهودي:

وبالطريقة نفسها، وللأهداف ذاتها تم قتل أبي عفك اليهودي بعد شهر واحد من مقتل عصماء بنت مروان، وكان شيخًا من بني عمرو بن عوف، وقد بلغ عشرين ومائة سنة، وكان يحرض على عداوة النبي ﷺ، ولم يدخل في الإسلام، وقال شعرًا، فنذر سالم ابن عمير الأنصاري - أحد البكائين من بني النجار - ليقتلنه أو يموت دونه، وطلب له غرة، حتى كانت ليلة صائفة، ونام أبو عفك بالفناء في بني عمرو بن عوف، فأقبل سالم فوضع السيف على كبده، فقتله[2].

(1) انظر: المنهج الحركي للغضبان، ص 346- 347.

(2) المصدر السابق، ص 347.

الفصل الثالث

جهاد لا يتوقف

استاءت قوى الشرك في الجزيرة من انتصار المسلمين الفاصل في بدر، وخافوا أن تقوم في المدينة دولة قوية تهدد عقائدهم ومصالحهم، فجعلوا يحقدون على المسلمين، ويتربصون بهم الدوائر؛ بل ويجهزون لغزوهم وإضعاف شوكتهم.

وكان البدو الضاربون حول المدينة مثل قومهم من مشركي الجزيرة، قد أصابهم الذعر لانتصار المسلمين في بدر، وخافوا أن يمنعهم المسلمون من السلب والنهب، الذي كان مصدر قوتهم الأول، فأخذت جموعهم تحتشد؛ تبغي انتهاز الفرصة للإغارة على المدينة.

ولكن رسول الله ﷺ كان لهم بالمرصاد، فنهض لإرهابهم، وتشتيت جمعهم فور فراغه من بدر.

قال ابن إسحاق: لما قدم رسول الله ﷺ من بدر، لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال، حتى غزا بنفسه يريد بني سليم ..

1- غزوة بني سليم:

علم النبي ﷺ - عبر استخبارات المدينة - أن بني سليم وغطفان قد تجمعوا يريدون مهاجمة المدينة، فخرج لهم رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وقيل ابن أم مكتوم).

فباغتهم النبي ﷺ عند ماء من مياههم، يقال له (قرقرة الكدر)[1]، ففروا إلى رءوس الجبال، وتركوا خمسمائة بعير مع غلام لهم يقال له (يسار)، غنمها المسلمون، فخُمست، وأخذ النبي ﷺ الخمس، وكان فيه (يسار)، فأعتقه ﷺ وقسم بقيتها، فأصاب كل رجل بعيرين.

وأقام النبي ﷺ في المكان ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة.

---

(1) **القرقرة:** الأرض الملساء، **والكدر:** طير في ألوانها كدرة.

2- غزوة السويق:

قال ابن إسحاق: وكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة، ورجع فل قريش (الفارون المهزومون) من بدر، نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا، فخرج في مائتي راكب من قريش - لتبر يمينه - فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: «نيب» من المدينة على بُعد بريد (اثني عشر ميلًا) أو نحوه.

ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل، فأتى حيي بن أخطب، فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له وخافه، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه، فأذن له، فقراه (أطعمه) وسقاه، وبطن له (أسر له) من خبر الناس.

ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث رجالًا من قريش، فأتوا ناحية منها (أي: من المدينة) يقال لها العريض، فحرقوا في أصوار من نخل بها، ووجدوا رجلًا من الأنصار وحليفًا له في حرث لهما، فقتلوهما وانصرفوا راجعين، فنذر بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة أبا لبابة بشير بن عبد المنذر.

قال ابن إسحاق: فبلغ قرقرة الكندر، ثم انصرف راجعًا وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، ووجد أصحاب رسول الله ﷺ أزوادًا كثيرة قد ألقاها المشركون، يتخففون منها، وعامتها سويق (شراب من الشعير ونحوه)، فسميت غزوة السويق، قال المسلمون: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة؟

قال: نعم[1].

* * *

(1) البداية والنهاية 3/ 416.

الفصل الرابع

مجتمعيات

- **موت رقية بنت رسول الله ﷺ في غياب أبيها:**

لما تجهز المسلمون لبدر، كانت رقية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد مرضت مرضًا شديدًا، فأذن النبي ﷺ لزوجها عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يتخلف؛ ليكون إلى جوارها يطببها، ولكنها ما لبثت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن ماتت، ودفنت بالبقيع، وقد فرغ المسلمون من دفنها حين وصل زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببشارة نصر الله لرسوله ﷺ والمؤمنين في بدر.

وقد روى البخاري بسنده من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ جعل لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أجر من شهد بدرًا وسهمه؛ لأنه إنما تغيب بأمره ﷺ لتمريض السيدة رقية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[1].

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح): روى الحاكم في (المستدرك)، من طريق حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: خلف النبي ﷺ عثمان وأسامة بن زيد على رقية في مرضها لما خرج إلى بدر، فماتت رقية حين وصل زيد بن حارثة بالبشارة، وكان عمر رقية لما ماتت عشرين سنة[2]. ثم زوج النبي ﷺ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأختها أم كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولهذا كان يقال لعثمان: ذو النورين، ويقال: إنه لم يغلق أحد على ابنتي نبي واحدة بعد الأخرى غيره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

- **وفاة أبي لهب:**

لم يمكث أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب - لعنه الله - إلا بضع ليال بعد بدر، حتى رماه الله بمرض العدسة، فقضى عليه، وكانت قريش تتقي هذا المرض، فتركه ابناه بعد موته ثلاثًا حتى أنتن، فقال لهما رجل من قريش: ألا تستحيان؟!!، إن أباكما قد أنتن في

---

(1) انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان (3698).

(2) فتح الباري 7/ 13.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية 3/ 419.

بيته، ألا تدفنانه؟! فقالا: إنا نخشى عدوى هذه القرحة، فقال: انطلقا وأنا أعينكما عليه، فغسلوه قذفًا بالماء من بعيد، ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدار ثم ردموا عليه الحجارة(1).

- **زواج علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:**

روى البيهقي في الدلائل، أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

خُطِبَت فاطمة إلى رسول الله ﷺ، فقالت مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ.

قلت: لا. قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك.

فقلت: وعندي شيء أتزوج به؟

فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوجك.

قال: فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ، فلما أن قعدت بين يديه أُفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلم؛ جلالة وهيبة.

فقال رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟».

فسكت، فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟»، فقلت: نعم.

فقال: «هل عندك من شيء تستحلها به؟»

فقلت: لا والله يا رسول الله!

فقال: «ما فعلت درع سَلّحتُكها؟»، أي: أين الدرع التي أعطيتك إياها.

فوالذي نفس عليّ بيده إنها لحطيمة ما قيمتها أربعة دراهم، فقلت: عندي.

فقال: «قد زوجتكها، فابعث إليها بها فاستحلها بها»، فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج 2، ص 158.

قال ابن إسحاق: فولدت فاطمة لعلي حسنًا وحسينًا ومحسنًا - مات صغيرًا - وأم كلثوم وزينب.

ثم روى البيهقي، من طريق عطاء بن السائب، عن أبيه، عن علي قال: جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل وقربة ووسادة أدم، حشوها إذخر[1].

- **وفاة عثمان بن مظعون رضي الله عنه:**

توفي بعد بدر أبو السائب عثمان بن مظعون بن حبيب، أحد سادات المهاجرين، وأخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وأحد السابقين بالإسلام، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا، وكان عابدًا مجتهدًا، صوامًا قوامًا زاهدًا .. قال سعيد بن المسيب: سمعت سعدًا - يعني سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - يقول: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل (اعتزال النساء للعبادة)، ولو أذن له لاختصينا[2].

ولما توفي رضي الله عنه، دخل عليه رسول الله ﷺ، فقبله وبكى، حتى سالت الدموع على وجهه، فعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ دخل على عثمان بن مظعون وهو ميت، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله وبكى، حتى رأيت الدموع تسيل على وجنتيه[3].

ولما دفن رضي الله عنه، أمر النبي ﷺ رجلًا أن يأتي بحجر، فلم يقدر الرجل حمله لكبره، فقام النبي وأحضره ووضعه عند رأسه، وقال: «أُعلم به قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي»[4]، ومن هنا أُخذ جواز تمييز القبر بحجر ونحوه[5]، ولما توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ، قال: «الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون»[6].

---

(1) البداية والنهاية 3/ 418.

(2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 154.

(3) البيهقي: السنن الكبرى، ج 3، ص 401.

(4) رواه أبو داود، انظر نيل الأوطار، ج 4، ص 55، 132.

(5) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج 2، ص 181.

(6) رواه الهيثمي (15655)، والطبراني في الكبير (837).

وكان ابن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أول المهاجرين وفاة بالمدينة، وأولهم دفنًا بالبقيع.

قدوم زينب بنت الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة:

قال ابن إسحاق: ولما رجع أبو العاص إلى مكة، وقد خلي سبيله - أي: بعد الأسر في بدر - بعث رسول ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار، فقال: «كونا ببطن يأجج، حتى تمر بكما زينب، فتصحباها، فتأتياني بها».

فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تجهز.

قال ابن إسحاق: حُدثت عن زينب، أنها قالت: بينا أنا أتجهز، لقيتني هند بنت عتبة، فقالت: يا ابنة محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟

قالت: فقلت: ما أردت ذلك (تخفي عنها).

فقالت: أي ابنة عم، إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك أو بمال تتبلغين به إلى أبيك فإن عندي حاجتك فلا تضطبني مني فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل.

ولكني خفتها، فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

قال ابن إسحاق: فتجهزت، فلما فرغت من جهازها، قَدَّم إليها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيرًا، فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهارًا، يقود بها وهي في هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش، فخرجوا في طلبها، حتى أدركوها بذي طوى، وكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى الفهري، فروعها هبار بالرمح وهي في الهودج، وكانت حاملًا - فيما يزعمون - فطرحت (أي وضعت ما في بطنها)، وبرك حموها (أخو زوجها) كنانة، ونثر كنانته.

ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمًا، فتكركر الناس عنه.

وأتى أبو سفيان في جلة من قريش، فقال: يا أيها الرجل، كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكف، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد (يقصد يوم بدر)، فيظن الناس - إذ خرجت بابنته إليه علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا - إن ذلك عن ذل أصابنا، وإن ذلك ضعف منا ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها من أبيها من حاجة .. ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها، فسلها (أخرجها) سرًّا وألحقها بأبيها، قال: ففعل.

قال ابن إسحاق: فأقامت ليال حتى إذا هدأت (أي: أصوات المعترضين على خروجها)، خرج بها ليلًا، حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها ليلًا على رسول الله ﷺ.

وقد روى البيهقي في (الدلائل)، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، فذكر قصة خروجها، وردهم لها، ووضعها ما في بطنها، وإن رسول الله ﷺ بعث زيد بن حارثة، وأعطاه خاتمه (علامة لها)؛ لتجيء معه، فتلطف زيد، فأعطاه راعيًا من مكة، فأعطى الخاتم لزينب، فلما رأته عرفته، فقالت: من دفع إليك هذا؟

قال: رجل في ظاهر مكة، فخرجت زينب ليلًا، فركبت، حتى قدم بها المدينة[1].

* * *

(1) البداية والنهاية 3/ 399- 400.

الفصل الخامس

ظهور النفاق في المدينة

بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وإلى غزوة بدر، لم يكن النفاق قد نجم بعد؛ فلقد كان معسكر الشرك واضحًا، بزعامة عبد الله بن أبي، والذي كانت الجرأة تصل به أن يطالب رسول الله ﷺ بالكف عن الدعوة إلى الله، وكان معسكر اليهود واضحًا كذلك، اللّهم إلا أفرادًا من اليهود، قاموا بمهمة الجاسوسية في الصف المسلم، يتظاهرون بالإسلام ويبطنون الكفر.

وقد ذكر القرآن هذا النموذج بقوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران].

ونستطيع القول إذًا: إن معسكر المنافقين لم يبرز حتى بدر. ووجود أفراد محددين لا يصل خطره إلى أن يطلق عليه اسم معسكر أو تجمع، إنما برز بعد الانتصار الحاسم في بدر(1)، الذي مكن للإسلام والمسلمين، وجعل سلطانهم مهيبًا في المدينة وما حولها، ومد نفوذهم على طريق القوافل في شمال الجزيرة، فأصبح لا يمر بها أحد إلا بإذنهم، حينئذ اتخذ أعداء الإسلام طريق الدس والنفاق والمخاتلة، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهرًا، وقلوبهم تغلي حقدًا وكفرًا(2).

واستمرت حركة النفاق إلى قرب وفاة رسول الله ﷺ، ولم تنقطع في أي وقت تقريبًا، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين. وقد كانت هذه الحركة ذات أثر واضح في السيرة النبوية وفي أحداثها، فشغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرًا كبيرًا، وورود ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة، يدل على ضخامة هذه

---

(1) الغضبان: المنهج الحركي، ص 248.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 256.

الحركة، وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين[1].

فلم يعد يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد، أن يظهروا علنًا في نزعتهم وعدائهم، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام، والقيام بأركانه، والتضامن مع قبائلهم، وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المرواغة والخداع والتمويه، وإذا كانوا وقفوا أحيانًا مواقف علنية فيها كيد ودس، وعليها طابع من النفاق البارز، فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادة التي كانت تحدق بالنبي والمسلمين، والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف، بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي ﷺ والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار، كما أن المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في الأزمات، كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتًا، وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون، وتدفعهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم، وتحذر النبي ﷺ والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة[2].

المبحث الأول: منافقو المشركين

روى أسامة بن زيد، قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب - كما أمرهم الله تعالى - ويصبرون على الأذى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: 109]. فكان النبي ﷺ يتأول في العفو الذي أمر الله به، حتى أُذن فيهم[3]. فلما غزا بدرًا، وقتل الله فيها من قتل من صناديد

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

(2) محمد عزة دروزة: سيرة الرسول - صور مقتبسة من القرآن الكريم.

(3) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، وقال الألباني (في هامش فقه السيرة للغزالي): حديث صحيح.

قريش، وقفل رسول الله وأصحابه منصورين غانمين، معهم أسراهم ، قال عبد الله بن أبي ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه (أي استقر فلا مطمع في إزالته)، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، فأسلموا[1]. فكانوا أشد خطرًا من الكفار والمشركين، ولذا .. فقد حذر الله منهم، فبين أنهم هم الأعداء الحقيقيون، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ [المنافقون]. ومن أبرز من عرف من منافقي المشركين:

1- عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي:

وكان رأس المنافقين ورئيس الخزرج والأوس أيضًا، كانوا قد أجمعوا على أن يملكوه عليهم في الجاهلية، فلما هداهم الله للإسلام قبل ذلك شرق اللعين بريقه، وغاظه ذلك جدًّا، وهو الذي قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وقد نزلت فيه آيات كثيرة جدًّا[2].

وكانت عقدة الزعامة تأكل قلبه، فلم تطاوعه نفسه أن يسلم نفسه لله، ولم يعد قادرًا بعد بدر أن يواجه رسول الله ﷺ عدواة واضحة؛ لأن من حوله سوف ينفضون عنه؛ لضعفهم أمام قوة المسلمين، فأمسك بالعصا من الوسط، وضمن بقاء جنوده وأتباعه، فظاهر الأمر هم مسلمون، وضمن بقاء قيادته وزعامته لهم، طالما أنهم غير مكلفين بالمواجهة السافرة[3].

2- جلاس بن سويد بن الصامت:

وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة: 74]، وذلك أنه قال حين تخلف عن غزوة تبوك: لئن كان هذا الرجل صادقًا (يعني رسول الله ﷺ) لنحن شر من الحمير، فنماها (نقلها) ابن امرأته عمير بن

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 256- 257.

(2) البداية والنهاية 3/ 293.

(3) الغضبان: المنهج الحركي، ص 248، بتصرف.

سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله ﷺ، فأنكر جلاس ذلك، وحلف ما قال، فنزل فيه ذلك، **قال ابن إسحاق:** وقد زعموا أنه تاب وحسنت توبته، حتى عرف منه الإسلام والخير(1).

3- الحارث بن سويد بن الصامت:

أخو جلاس، كان منافقًا، وخرج مع المسلمين يوم أحد، فقتل من المسلمين المجذر بن زياد البلوي، وقيس بن زيد أحد بني ضبيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لما التقى الناس عليهما، فقتلهما، ثم لحق بقريش.

قال ابن هشام: وكان المجذر قد قتل أباه سويد بن الصامت في بعض حروب الجاهلية، فأخذ بثأر أبيه منه يوم أحد.

قال ابن إسحاق: وقد كان رسول ﷺ، أمر عمر بن الخطاب بقتله إن هو ظفر به، فبعث الحارث إلى أخيه الجلاس يطلب له التوبة ليرجع إلى قومه، فأنزل الله - فيما بلغني عن ابن عباس: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 86].

4- نبتل بن الحارث من بني لوذان بن عمرو بن عوف:

وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى هذا». وكان رجلًا جسيمًا أدلم (أسود طويلًا)، ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع (حمرة تضرب إلى السواد) الخدين، وكان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ، ثم ينقله إلى المنافقين. وهو الذي قال: إنما محمد أُذن، من حدثه بشيء صدقه(2). فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: 61].

5- مربع بن قيظي (أعمى القلب والبصر) وأخوه أوس:

قال ابن إسحاق: ومربع بن قيظي - وكان أعمى - وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه (سار في بستانه) وهو ذاهب إلى أحد: لا أحل لك إن كنت نبيًّا أن تمر

(1) انظر: البداية والنهاية لابن كثير 3/ 291.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية 3/ 291.

في حائطي، وأخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر»[1].

قال: وأخوه أوس بن قيظي، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ يوم الخندق: إن بيوتنا عورة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: 13].

6- حاطب بن أمية بن رافع:

وكان شيخًا جسيمًا قد عسا في جاهليته، وكان له ابن من خيار المسلمين، يقال له: يزيد ابن حاطب، أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراحات، فُحمل إلى دار بني ظفر، فاجتمع إليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو يموت، فجعلوا يقولون: أبشر بالجنة يا ابن حاطب.

قال: فجعل أبوه يقول: أجل جنة من حرمل، غررتم والله هذا المسكين من نفسه.

7- قزمان والجد بن قيس:

وقزمان حليف بني ظفر الذي قتل يوم أحد سبعة نفر من المشركين، ثم لما ألمته الجراحة قتل نفسه، وقال: والله ما قاتلت إلا حمية على قومي، ثم مات - لعنه الله - (وسيأتي ذكره).

قال ابن إسحاق: ومن الخزرج: الجد بن قيس، وهو الذي قال يوم تبوك: يا محمد ائذن لي ولا تفتني[2].

المبحث الثاني: منافقو اليهود

ذكر ابن إسحاق من أسلم من أحبار اليهود على سبيل التقية، فكانوا كفارًا في الباطن، فكان منهم:

---

(1) انظر البداية والنهاية لابن كثير 3/ 292.

(2) البداية والنهاية 3/ 292.

سعد بن حنيف، وزيد بن اللصيت، وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ: «والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، فهي في هذا الشعب، قد حبستها شجرة بزمامها». فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك.

ورفاعة بن زيد بن التابوت: وهو الذي هبت الريح الشديدة يوم موته عند مرجع رسول الله ﷺ من تبوك، فقال: **«إنها هبت لموت عظيم من عظماء الكفار»**. فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة قد مات في ذلك اليوم. وسلسلة بن برهام، وكنانة بن صوريا، فهؤلاء ممن أسلم من منافقي اليهود، قال: فكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد، ويسمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون، ويستهزئون بدينهم، فاجتمع في المسجد يومًا منهم أناس، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم إلى بعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ، فأُخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا، فقام أبو أيوب إلى عمرو بن قيس، أحد بني النجار - وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه، وهو يقول - لعنه الله: أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة؟ (يقصد المكان الخرب قبل بناء المسجد فيه).

ثم أقبل أبو أيوب إلى رافع بن وديعة النجاري، فلببه بردائه، ثم نثره نثرًا شديدًا، ولطم وجهه، فأخرجه من المسجد، وهو يقول: أفٍّ لك منافقًا خبيثًا ..

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو - وكان طويل اللحية - فأخذ بلحيته، وقاده بها قودًا عنيفًا حتى أخرجه من المسجد.

وقام أبو محمد مسعود بن أوس إلى قيس بن عمرو بن سهل، وكان شابًّا - وليس في المنافقين شاب سواه - فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه[1].

---

(1) البداية والنهاية 3/ 295.

المبحث الثالث: المنافقون بين الأمس واليوم

إن النفاق الذي بدأ بعد بدر في المدينة، واستمر إلى وفاة النبي ﷺ، لم ينقطع في أي وقت من الأوقات، وإن تغيرت مظاهره ووسائله من حين إلى حين. فمنذ ذلك الحين والمنافقون يدبرون المكائد، ويحيكون الدسائس؛ لإطفاء نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون، وما أصاب الأمة من نكبات وهزائم إلا بجهود أولئك المنافقين[1].

ويخطئ من يظن أن النفاق الذي أفاض القرآن في الحديث عنه، وأن المنافقين الذين أسهب القرآن في التحذير منهم، كان يمثل مرحلة تاريخية، انقضت بدخول الناس في دين الله أفواجًا؛ فإن كان عصر النبوة لم يخل من ظلم النفاق وظلماته، فهل تعصم منه العصور التالية؟!

إن جوهر النفاق وطينة المنافقين واحدةٌ على مر العصور، ولكن الفرق في الظروف المتوفرة للمنافقين بين الأمس واليوم، فالنفاق في مراحل تمكين الدين وغلبة المسلمين كان ذُلًّا يستخفي، وضعفًا يتوارى، وخضوعًا مقموعًا. كان تمكين الدين وقتها يمكن المؤمنين من جهاد أولئك المنافقين الأسافل باليد واللسان والقلب، وإقامة الحدود، وكان القرآن ينزل كاشفًا لخبايا نفوسهم، وخبث طويتهم؛ ولذا فلا يرى أحدهم إلا وهو محاصر مكدود، أو معتذر مكشوف.

أما اليوم فالنفاق صرح ممرد، وقواعد وجيوش تتحرك، وقلاع تشيد .. إنه اليوم دولة بل دول، ذات هيئات وأركان، وأحلاف وتكتلات، ومعسكرات وسلطان، وإعلام يمارس الضرار في كل مضمار[2].

- **مواقف المنافقين في عهد النبوة:**

من كل ما ذكرناه عن المنافقين - فيما تقدم - تستطيع أن ترصد بعضًا من كيدهم للدولة المسلمة ولرسول الله ﷺ ولدعوته، وسترى فيما سيأتي ذكره في أبواب الكتاب

(1) خالد الراشد: المنافقون، بتصرف.

(2) د. سليمان بن حمد العودة: النفاق والمنافقون.

وفصوله، تنامي هذا الكيد وتنوعه، وسترى تعاونهم مع كل من عادى هذا الدين وحاربه؛ فهم مع المشركين على المسلمين، وهم حلفاء بل إخوان لليهود - بنص القرآن - وهم متحالفون مع الأحزاب، وهم عون للنصارى في حربهم ضد المسلمين .. ففي غزوة أحد - حين جاءت قريش بكبريائها، تريد الثأر لقتلاها في بدر - قام المنافقون وفي أحلك الظروف بخذلان المؤمنين، وانسحب زعيمهم عبد الله بن أبي بثلث الجيش؛ مما أوشك أن يوقع الفشل في طوائف من المؤمنين، قال الله عنهم: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ [آل عمران: 122].

وحين انكشفت المعركة وأصيب من أصيب من المؤمنين، تشفى المنافقون وسُرُّوا لمصابهم، واشتركوا مع اليهود في المشاعر الفاسدة، قال ابن حجر: «حين بكى المسلمون على قتلاهم سُرَّ المنافقون، وظهر غَشَشُ اليهود، وفارت المدينة بالنفاق، فقالت اليهود لو كان نبيًّا ما ظهروا عليه - يعني المشركين - وقال المنافقون لو أطاعونا ما أصابهم هذا!!»[1].

بل جعلوا يقولون لأصحاب رسول الله ﷺ لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل، وهم يهدفون إلى تفريق المسلمين، والتخذيل عن مصاحبة النبي ﷺ.

وفي معركة الخندق، وحين تحزب الأحزاب على المسلمين في المدينة، في جمع لم تشهده المدينة من قبل، وبلغ الكرب بالمسلمين مبلغه، كان للمنافقين دورهم وسهامهم مع أولئك الأحزاب، حتى ابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالًا شديدًا.

﴿**وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾**﴾ [الأحزاب].

وهكذا شكل المنافقون دورهم مع الأحزاب في الإرجاف والتخذيل، ومحاولة التسلل والاعتذار عن الخندق أولًا، وعن مجابهة العدو ثانيًا.

---

(1) الفتح 7/ 347.

أما علاقة المنافقين باليهود، فيكفي تعبير القرآن عنها، يقول الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحشر].

إنهم – بحكم القرآن – إخوان لليهود، وهم جاهزون للخروج معهم لو أخرجوا، ومستعدون للقتال معهم، إن قاتلوا!! فهل بعد هذا من نصرة وتقارب بين المنافقين واليهود، والمنافقون كذلك مُصانعون للنصارى، وفي غزوة العسرة ظهر تخذيلهم للمسلمين وتعظيمهم للنصارى، فقد قال أحدهم: يغزو محمد بني الأصفر (أي الروم)، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال.

وما سلم الرسول ﷺ من شرهم في هذه الغزوة، من قعد منهم عن الخروج ومن خرج، فلم يرد إلا خبالًا وفتنة .. أجل لقد أرجف نفر منهم بالمؤمنين عن الخروج، وقالوا: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾.

وقالوا: ﴿ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [التوبة].

ولمزوا القليل الذي يجد، قالوا له إن الله غني عن صدقة هذا!! والذين خرجوا نفاقًا استهزءوا بالصحابة، وكفرهم الله وإن اعتذروا، بل وصل الأمر بهم أن خططوا لقتل النبي ﷺ في مرجعه من تبوك.

أما الذين بقوا، فوجدوها فرصة للتخطيط والاجتماع بأطراف معادية من خارج المدينة، وكان المشروع المنكر في بناء مسجد الضرار، أحكموه وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وطلبوا منه أن يصلي فيه؛ ليحتجوا بصلاته على إقراره وإثباته، فاعتذر إليهم بالسفر، فلما رجع من تبوك نزل الوحي عليه مسميًا هذا المسجد بمسجد الضرار، كاشفًا ما اعتمدوه فيه من الكفر والتفريق بين المؤمنين، فبعث رسول الله ﷺ من هدمه وأحرقه [1].

(1) د. سلمان العودة.

- **منافقو اليوم:**

افتتح عبد الله بن أبي بن سلول طريق النفاق قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، فسارت فيه من بعده أفواج المنافقين عبر التاريخ، وفي عصرنا الراهن لا تخطئ العين ملامحهم، التي حددتها آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ، حتى لكأنك تعرفهم بسيماهم: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد].

وإن كان للنفاق والمنافقين عصور تؤرخ، فإن عصرنا هو عصر تمكين المنافقين بامتياز .. ففي ظل الاستبداد وتغييب الشريعة عن نظم الحكم في غالب أوطان الإسلام، وفي ظل غياب ضوابط الاختيار الصحيحة لمن يصلح لقيادة المسلمين - خلا المجال لكل أفاك أثيم من أهل النفاق؛ كي يمتطي شعبًا من الشعوب عبر طرق ومسالك أعانه عليها قوم آخرون من أهل الكفر واليهود.

ويوم مُكن المنافقون في أوطاننا، قاموا بأمرين، كل منهما أشد جرمًا من الآخر:

1- إزاحة الإسلام عن واقع الحياة، بتعطيل شرع الله، والحكم بغير ما أنزل؛ يستمدون بذلك أسباب بقائهم .. فهم فاسدون مفسدون، شذاذ أفاكون، ومنهج الإسلام لا يوافق أهواءهم، ولا يحقق مآربهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء].

2- تسهيل مصالح اليهود والكافرين في بلاد المسلمين؛ لتيقنهم أن بقاءهم مرتبط برضى هؤلاء ودعمهم: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء]، فمكنوهم من موارد البلاد وخيراتها، وتوافقوا معهم على الحيلولة بين الشعوب والنهوض والتقدم ومواكبة العصر؛ كي تظل فقيرة متخلفة، يسهل قيادها وتطويعها.

ونفاق العصر ليس قاصرًا على نفر من أهل السلطة والسياسة، بل هو مستشرٍ في أهل الثقافة والفن والقلم، بل وبين بعض المنتسبين للعلم الشرعي والفتوى، ممن تُلَبس هويتهم، وتخفى حقيقتهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة].

هم صناع الكيد والمكر والمخادعة، ورءوس الخيانة والغدر .. يحبون الفساد والإفساد، ويعشقون الفسوق والعصيان، معوجة أخلاقهم، ومطبوع على قلوبهم، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:67]. وتحت مسمى التنوير والإصلاح، يقتلون الحياء والفضيلة، ويدعون إلى الدياثة والرذيلة، والعهر والفجور، والإباحية الهابطة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة].

يحملون أفكارًا أو مبادئ مسمومة، جلبوها من قمامات الأمم شرقًا وغربًا، وفرضوها على الإعلام والصحافة والمنتديات، وعلى مناهج التربية ومحافل العلم، فهم دعاة على أبواب جهنم، من أطاعهم قذفوه فيها.

وما أدق ما وصف به ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ جرائمهم، حين قال:

(فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه!، وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه!، وكم من علم قد طمسوه!، وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه!، وكم خربوا بمعاول الشُبَه في أصول غراسه ليقلعوها!، وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!، فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون، ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم والله متم نوره ولو كره الكافرون).

ولا أمل للأمة المسلمة في نهضة أو تقدم إلا إذا انتبهت لخطر هؤلاء المنافقين وكيدهم: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾ [المنافقون]، فنحتهم عن قيادتها، ودفعتهم وجاهدتهم بكل السبل والوسائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التحريم: 9]، وأبعدتهم عن تشكيل وعيها، وجنبت مؤسساتها الإعلامية والثقافية والتعليمية شرورهم وآراءهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: 1]، وحصنت مراكز العلم الشرعي والفتوى من أذنابهم، فلا يتخذونها غطاءً لمؤامراتهم وحربهم الخفية على الإسلام: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدًا ضِرَارًا وَكُفۡرًا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادًا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة].

والأمر يستدعي من الدعاة والمصلحين وأهل العلم وبناة النهضة أن يجيشوا الأمة والمجتمع كله لمجابهة هؤلاء المنافقين، كلٌّ حسب استطاعته، ولا يحق لأحد بعدما تبين له شرهم وجنايتهم، أن يجادل عنهم، ويدافع عما يدعونه من حقوق، هي في حقيقتها إثم وخيانة: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ [النساء].

* * *

الفصل السادس

اليهود

لم تمض أيام على اختلاط اليهود بالمسلمين في المدينة حتى شرعوا يحرجون صدورهم ويعينون عليهم، ولو أنهم كذبوا بمحمد ﷺ كما كذبوا بعيسى من قبل، واعتقدوا أن ما وراء توراتهم باطل باطل، واكتفوا بأداء عبادتهم في بِيَعِهم (معابدهم)، وحبسوا في أفواههم المطاعن على أنبياء الله - لتركهم المسلمون وشأنهم، يكفرون إلى قيام الساعة، دون حرب أو ضرب.

أما أن يجتهد المسلمون في بناء دولتهم فيجتهد هؤلاء في نقضها .. أما أن يصطدم الإسلام بالشرك فينضم بنو إسرائيل بعواطفهم وألسنتهم ودعاياتهم ضد محمد وصحبه، فهذا ما لا يستساغ.

وفي فرحة المسلمين بانتصارهم في بدر، لم يستح أولئك اليهود أن يقولوا لرسول ﷺ: **«لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة .. أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس!!»**.

وقد نزل الوحي ينذر هؤلاء بسوء المنقلب ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾[آل عمران] (1).

المبحث الأول: جدليات يهودية

كانت الجولة الأولى لليهود مع الإسلام والمسلمين لا تتجاوز المواجهة الإعلامية، فقد وقفوا موقفًا سفيهًا من رسول الله ﷺ ودعوته، وفضحهم القرآن فضحًا بينًا وهو يرد

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 258- 259.

على افتراءاتهم وأكاذيبهم. والقرآن الكريم غني بنماذج من ذلك، ويكاد يكون الجزء الأول من سورة البقرة في دحض ادعاءاتهم وتفنيد أباطيلهم[1]: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة].

وثارت بين المسلمين واليهود حرب كلامية، تذرع فيها اليهود بالأباطيل، والاختلاق على الله وعلى الرسل، ونسبوا إليهم ما لا يليق بهم .. روى ابن إسحاق بسنده، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: دخل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيت المدراس[2]، فوجد من اليهود ناسًا كثيرين قد اجتمعوا على رجل منهم، يقال له: فنحاص بن عازوراء من علمائهم وأحبارهم ، فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير، وإنا عنه لأغنياء!! لو كان غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم[3]، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنيًّا ما أعطانا الربا!! (أي ما ضاعف لنا الأجر على الصدقة).

---

(1) المنهج الحركي، ص 284.

(2) **المدراس:** الكنيس الذي يتدارسون فيها كتبهم.

(3) يريد قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

فغضب الصديق وضرب وجهه ضربة شديدة - على ما كان يتصف به الصديق من الحلم والرزانة والوقار - وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله، فذهب فنحاص شاكيًا إلى رسول الله، فقال الرسول لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟»، فأخبره بمقالة فنحاص وتجرئه على الله، فجحد (أنكر) فنحاص، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران].

وزعموا أيضًا أن الله أخذ عليهم العهد أن لا يؤمنوا برسول حتى يقدم قربانًا، فتأتي نار من السماء فتأكله، وأنهم لن يؤمنوا برسول الله حتى يكون كذلك، وقد كذبهم الله ورد عليهم ردًّا مفحمًا، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران].

وقد يستبد ببعضهم الغضب والحمق، فينكر بعض الحقائق الثابتة التي يقر بها .. جاء مالك بن الصيف ليخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي: «أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين» - وكان حبرًا سمينًا - فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء. فلما لامه أصحابه على مقالته، قال: أغضبني محمد فقلت ذلك، وقد ذكر الله مقالتهم والرد عليها في قوله:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾(1) [الأنعام].

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج 2، ص 391- 392.

وجاء رافع بن حريملة - عليه لعائن الله - يقول في جدله الساقط: يا محمد إن كنت رسولًا من الله كما تقول، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة].

وهذا سلام بن مشكم، ونعمان بن أبي أوفى، ومحمود بن دحية، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، يقولون للرسول ﷺ كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله. فأنزل الله ردًّا عليهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة].

وهذا جَبَل بن أبي قشير، وشمويل يجادلان رسول الله ﷺ، فيقولان له: يا محمد، أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيًّا كما تقول. فأنزل الله تعالى ردًّا عليهم قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف].

وهذا نعمان بن أضا وبحري بن عمرو وشاس بن عدي، أتوا النبي ﷺ يتحدونه، فكلموه وكلمهم ﷺ، ودعاهم إلى الله تعالى، وحذرهم نقمته، فقالوا ما تخوفنا يا محمد!، نحن والله أبناء الله وأحباؤه، فأنزل الله تعالى ردًّا عليهم من سورة المائدة قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة].

وهذا رافع بن حارثة وسلّام بن مِشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حريملة، أتوا النبي ﷺ يجادلونه، فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ قال: **«بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها**

مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من إحداثكم». فقالوا معاندين: إنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك، فأنزل الله تعالى فيهم قوله من سورة المائدة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المائدة].

وهذا النحام بن زيد، وكردم بن كعب، وبحري بن عمرو، أتوا النبي ﷺ يجادلونه، فقالوا: يا محمد، أما تعلم مع الله إلهًا غيره، فقال رسول الله ﷺ: «الله لا إله إلا هو، بذلك بُعثت وإلى ذلك أدعو»، فأنزل الله تعالى فيهم وفي قولهم: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنعام][1].

إلى غير ذلك مما أثاروه من جدل حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وأي المسجدين أفضل: الكعبة، أم بيت المقدس؟، وأي النبيين هو الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟، وحكم الزاني المحصن في التوراة أهو الرجم أم الجلد؟ وتحريفهم للتوراة، ولاسيما فيما يتعلق بالبشارة بالنبي ﷺ[2].

المبحث الثاني: يهود بني قينقاع ينقضون العهد

كان رسول الله ﷺ حريصًا على الالتزام بما جاء في معاهدته مع اليهود، فلم يخالف نصًّا من نصوصها، وكذلك فعل أصحابه رضي الله عنهم .. ولكن اليهود أهل غدر وخيانة ونكث للعهود، أخذوا في الدس والتآمر والتحرش بالمسلمين. وكان أول من بادر بالغدر منهم يهود بني قينقاع؛ ذلك أنهم لما رأوا نصر الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين في بدر، وأنهم قد صارت لهم شوكة وهيبة، تحرك الغل في قلوبهم، ونطق على ألسنتهم.

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 196- 198.

(2) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 392.

قال ابن إسحاق: (كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق قينقاع، ثم قال: يا معشر اليهود، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم.

قالوا: يا محمد إنك ترى أنَّا كقومك؟ (أي: قريش التي هزمتها في بدر)، لا يغرنك أن لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنَّا نحن الناس).

قال ابن إسحاق: (قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت هؤلاء الآيات إلا فيهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾، يعني أصحاب بدر من أصحاب رسول الله ﷺ وقريش ﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

- **غزوة بني قينقاع:**

في منتصف شوال من السنة الثانية للهجرة(1)، تعجل بنو قينقاع الشر فباءوا به، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم .. فقد قدموا على فعلة دنيئة نكراء، نقضوا بها العهد مع رسول الله ﷺ والمسلمين، الذين احترموا عهودهم ومواثيقهم معهم، فلم يسيئوا إليهم بقول أو فعل، ولم يزعجوهم في مسكن أو مقام، ولكنهم أبَوا إلا الغدر والمكر السيئ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43].

روى ابن هشام عن أبي عون، قال: كان أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها (ما يجلب إلى السوق للبيع)، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى

---

(1) المغازي للواقدي (1/ 176)؛ الطبقات لابن سعد (2/ 28)؛ تاريخ الطبري (2/ 4709).

ظهره، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًّا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستخرج أهل المسلم المسلمين على يهود، فغضب المسلمون، فوضع الشر بينهم وبين بني قينقاع، فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ [1].

وحين علم رسول الله ﷺ بذلك، سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال السنة الثانية للهجرة، وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذ حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر العمري.

وحين سار إليهم رسول الله ﷺ، نبذ إليهم العهد، كما أمره تعالى في قوله: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال].

وحين علم اليهود بمقدمه ﷺ، تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة[2]، واستمر الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، واضطروا للنزول على حكمه ﷺ، فأمر بهم، فربطوا، فكانوا يكتفون أكتافًا، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي الأوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

- ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة]:

حاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحل حلفاءه من وثاقهم، فعندما مر عليهم، قال: حلوهم. فقال المنذر: أتحلون قومًا ربطهم رسول الله ﷺ؟! والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه، فاضطر عبد الله بن أبي بن سلول أن يتراجع عن أمره، ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي ﷺ بفك أسرهم، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أحسن في

---

(1) انظر سيرة ابن هشام (3/ 54).

(2) سيرة ابن هشام (3/ 55).

(3) انظر: السيرة النبوية للصلابي، ص 455- 456.

مواليّ – وكانوا حلفاء الخزرج – قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أبي يده في جيب ودرع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني»، وغضب رسول الله ﷺ، حتى رأوا لوجهه ظللًا[1]، ثم قال: «ويحك أرسلني»، قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟! إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: «هم لك».

فخلى رسول الله سبيلهم، ثم أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحاول ابن أبي سلول أن يحدث رسول الله ﷺ في يهود بني قينقاع لكي يقرهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله ﷺ عويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فرده عويم حتى جحش وجه ابن أبي الجدار فسال الدم.

وكان عبادة بن الصامت، أحد بني عوف، لهم من حلف بني قينقاع مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي، فمشى لرسول الله ﷺ وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. ولما تقرر جلاء بني قينقاع، أمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يجليهم، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج – ونحن مواليك – فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لمَّا حاربتم (المسلمين) جئت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم، وكان ابن أبيّ وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف، فقال عبد الله بن أبي: تبرأت من حلف مواليك؟ ما هذا بيدهم عندك، فذكَّره مواطن قد أبلوا فيها (مع عبادة وقومه)، فقال عبادة: يا أبا الحباب، تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لمعصم بأمر، سنرى غيَّه غدًا، فقالت قينقاع: يا محمد، إن لنا دَيْنًا في الناس، قال النبي ﷺ: «تعجلوا وضعوا»، وأخذهم (طالبهم)

---

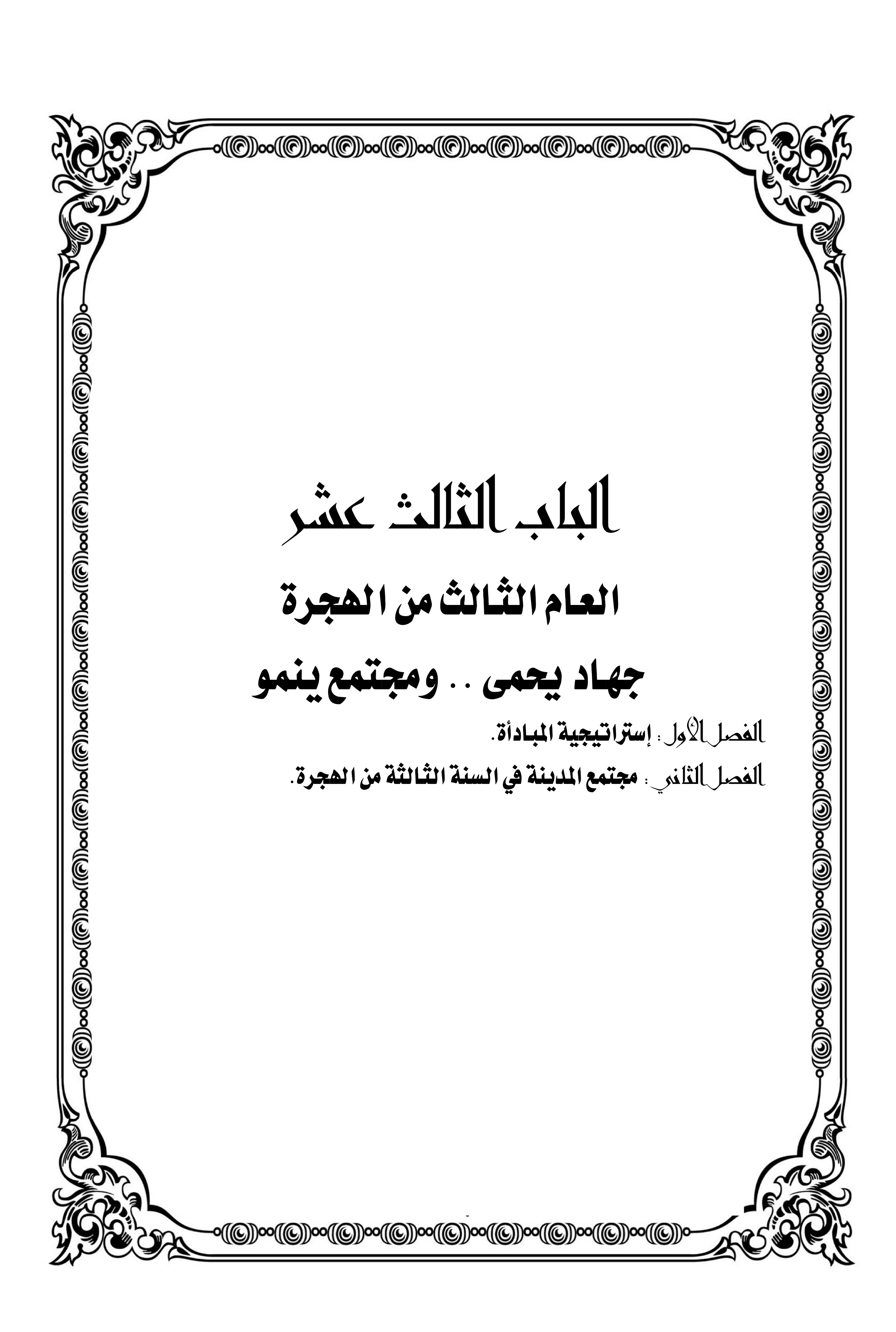
(1) **ظللًا:** جمع ظلة، وهي السحابة، استعارة لتغيير الوجه عند الغضب.

عبادة بالرحيل والإجلاء، وطلبوا التنفس (مهلة)، فقال لهم: ولا ساعة من نهار، لكم ثلاث لا أزيد عليها، هذا أمر رسول الله ﷺ، ولو كنت أنا ما نفستكم (ما أمهلتكم)، فلما مضت ثلاث، خرج في آثارهم حتى سلكوا إلى الشام، وهو يقول: الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى، وبلغ خلف الذباب ثم رجع، ولحقوا بأذرعات[1].

قال ابن إسحاق: وفي عبادة بن الصامت وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات من المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ....﴾ الآيات حتى قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾، يعني: عبد الله بن أبي، إلى قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، يعني: عبادة بن الصامت.

* * *

(1) السيرة للصلابي، ص 456- 457.



الباب الثالث عشر

العام الثالث من الهجرة

جهاد يحمى .. ومجتمع ينمو

الفصل الأول: إستراتيجية المبادأة.

الفصل الثاني: مجتمع المدينة في السنة الثالثة من الهجرة.

الفصل الأول

إستراتيجية المبادأة

في هذه السنة، واجه النبي خصومًا لم يكن له بهم سابق عهد؛ ذلك أنه كان حالف معظم القبائل التي تسكن غربي المدينة، بينها وبين ساحل البحر، فكاد يصبح طريق تجارة مكة إلى الشام مغلقًا، ولكن ماذا يصنع القرشيون والتجارة هي روحهم وعماد معيشتهم؟!؛ لذلك فكروا في طريق صحراوي آخر من مكة إلى نجد، ومنها إلى العراق والشام، وكان بنو سليم وغطفان أهم من يسكن هذا الطريق من القبائل، وكانوا حلفاء قريش، يستخدمونهم في تأمين متاجرهم إلى العراق.

وقد وثق القرشيون ما بينهم وبين سليم وغطفان وأغروهم بمحاربة الرسول.

وقد كان من سياسة النبي الحكيمة في محاربة هذه القبائل هي مبدأ المبادأة، فما إن يعلم بعزمهم على حربه حتى يسرع إليهم بالخروج؛ ليريهم أنهم أقوياء، وقد أثمرت هذه السياسة ثمرتها، فكان النبي إذا خرج إلى قوم منهم ألقي في قلوبهم الرعب وفروا، فيعود غانمًا منتصرًا، وقد كفاه الله والمؤمنين القتال[1].

- **غزوة ذي أمر:**

قال الواقدي: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعًا من غطفان من بني ثعلبة بن محارب تجمعوا بذي أمر، يريدون حربه، فخرج إليهم من المدينة يوم الخميس لثنتي عشرة خلت من ربيع الأول سنة ثلاث، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان، فغاب أحد عشر يومًا، وكان معه أربعمائة وخمسون رجلًا، وهربت منه الأعراب في رءوس الجبال، حتى بلغ ماء يقال له ذو أمر، فعسكر به، وأصابهم مطر كثير، فابتلت ثياب رسول الله ﷺ، فنزل تحت شجرة هناك ونشر ثيابه لتجف، وذلك بمرأى من المشركين.

(1) السيرة لأبي شهبة، ج 2، ص 183.

فبعث المشركون رجلًا شجاعًا منهم، يقال له غورث بن الحارث (أو دعثور بن الحارث)، فقالوا: قد أمكنك الله من قتل محمد، فذهب ذلك الرجل ومعه سيف صقيل، حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف مشهورًا، فقال: يا محمد، من يمنعك مني اليوم؟

قال: الله، ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: من يمنعك مني؟ قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والله لا أُكَثِّرُ عليك جمعًا أبدًا (أي: لا أنحاز إلى أعدائك أبدًا)، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، فلما رجع إلى أصحابه فقالوا: ويلك ما لك؟

فقال: نظرت إلى رجل طويل، فدفع في صدري، فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملك، وشهدت أن محمدًا رسول الله، والله لا أكثر عليه جمعًا، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام.

ونزل في ذلك قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ [المائدة: 11].

قال البيهقي: وسيأتي في غزوة ذات الرقاع قصة تشبه هذه .. فلعلهما قصتان.

- **اغتيال شيطان:**

كان كعب بن الأشرف أحد يهود بني النضير، وكان طائي الأصل، ينتسب إلى عشيرة بني نبهان من طيئ؛ ذلك أن أباه كان قد أصاب دمًا في الجاهلية (قتل رجلًا)، فهرب إلى المدينة، وحالف يهود بني النضير، وتزوج منهم عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعبًا.

نشأ كعب في يثرب غنيًّا مترفًا جميلًا، معروفًا بجماله بين العرب، شاعرًا من شعرائها، وكان شديد الحنق على رسول الله ﷺ والمسلمين، مظاهرًا عليه في كل وادٍ، داعيًا إلى حربه.

قال محمد بن إسحاق: كان من حديث كعب بن الأشرف، أنه لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر (من المشركين)، حين قدم زيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، قال: والله لئن

كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها، فلما تيقن عدو الله الخبر، خرج إلى مكة، فنزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضبيرة السهمي، وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فأنزلته وأكرمته.

وجعل يحرض على قتال رسول الله ﷺ، وينشد الأشعار، ويندب من قُتل من المشركين يوم بدر، وقال موسى بن عقبة: وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أناشدك، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؟ إنا نُطعم (الحجيج) الجزور الكوماء (الجمل ضخم السنام)، ونسقي اللبن على الماء، ونُطعم ما هبت الشمال.

فقال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلًا.

فأنزل الله على رسوله ﷺ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: 51- 52] وما بعدها[1].

قال ابن إسحاق: وقدم للمدينة يعلن بالعداوة، ويحرض الناس على الحرب، ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله ﷺ، وجعل يشبب (يتغزل) بأم الفضل بنت الحارث (زوج العباس عم النبي ﷺ)، وبغيرها من نساء المسلمين، فقال رسول الله ﷺ:

- «من لابن الأشرف؟»، فقال له محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله. قال: «فافعل إن قدرت على ذلك».

قال: فرجع محمد بن مسلمة، فمكث ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب، إلا ما تعلق به نفسه، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاه فقال له: «لم تركت الطعام والشراب؟» فقال: يا رسول الله قلت لك قولًا لا أدري هل أفي لك به أم لا؟

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية 4/ 8.

قال: «إنما عليك الجهد»، قال: يا رسول الله إنه لابد لنا أن نقول (أي: أن نطعن في الإسلام ورسوله؛ لمخادعته)، قال: «فقولوا ما بدا لكم؛ فأنتم في حل من ذلك».

قال: فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة، وسلكان بن سلامة بن وقش، وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وقش أحد بني عبد الأشهل، والحارث بن أوس بن معاذ أحد بني عبد الأشهل، وأبو عبس بن جبر أخو بني حارثة.

قال: فقدَّموا بين أيديهم إلى عدو الله (كعب) سلكان بن سلامة أبا نائلة (أخاه من الرضاع)، فجاءه فتحدث معه ساعة، فتناشدا شعرًا - وكان أبو نائلة يقول الشعر - ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني، قال: أفعل.

قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء (يقصد رسول الله ﷺ)، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبيل، حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا.

فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أُخبرك يا ابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول، فقال له سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعامًا، ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك.

قال: ترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إن معي أصحابًا لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم، وتحسن في ذلك، ونرهنك من الحلقة (السلاح) ما فيه وفاء. وأراد سلكان أن لا ينكر (كعب) السلاح إذا جاءوا (كي لا يخاف حين يجيئون إليه بعد ذلك ومعهم أسلحتهم).

فقال (كعب): إن في الحلقة لوفاء. قال: فرجع سلكان إلى أصحابه، فأخبرهم خبره، وأمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: فحدثني ثور بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم، وقال: «انطلقوا على اسم الله، اللَّهم أعنهم».

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، وهو في ليلة مقمرة، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعرس (أي كعب)، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها، وقالت: أنت امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة.

قال: إنه أبو نائلة لو وجدني نائمًا ما أيقظني، فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشر.

قال: يقول لها كعب: لو دعي الفتى لطعنة أجاب (ينفي عن نفسه الجبن). فنزل فتحدث معهم ساعة، وتحدثوا معه، ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشرف أن تتماشى إلى شعب العجوز، فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟

قال: إن شئتم. فخرجوا فمشوا ساعة. ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه (أي: مسح بيده رأس كعب)، ثم شم يده، فقال: ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر قط.

ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن (أي: اطمأن كعب إلى إمساك أبي نائلة برأسه).

ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها، فأخذ بفودي رأسه، ثم قال: اضربوا عدو الله! فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئًا (لم تقتله).

قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغولًا في سيفي فأخذته، وقد صاح عدو الله صيحة، لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار.

قال: فوضعته في ثنته (تحت سرته)، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسه، أصابه بعض سيوفنا.

قال: فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد، ثم على بني قريظة، ثم على بعاث، حتى أسندنا في حرة العريض، وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس، ونزفه الدم، فوقفنا له ساعة، ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه، فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل، وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه، فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو الله.

وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا، ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه.

قال ابن جرير: وزعم الواقدي أنهم جاءوا برأس كعب بن الأشرف إلى رسول الله ﷺ[1].

وعندما احتجت اليهود على هذا الفعل، بين لهم الرسول ﷺ ما صدر من كعب من أفعال .. ولكنهم خافوا على أنفسهم، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى كتابة معاهدة بينهم، فكتب صحيفة عامة؛ تأكيدًا لما في المعاهدة التي كتبت من قبل بين المسلمين وبينهم، والمشهورة بصحيفة المدينة[2].

وبذلك نلحظ الأثر العظيم لاغتيال كعب بن الأشرف، فلقد قضى على التحرك المعادي للمسلمين في عقر دارهم، وخفتت الأصوات الإعلامية المعادية، وكتب اليهود كتابة يعلنون تراجعهم عن هذا العداء السافر، ودخل الرعب في قلوبهم، لدرجة أنه لم يجرؤ أحد من قادتهم على الخروج وحده[3]؛ فقد علموا أن رسول الله ﷺ لن يتوانى في استخدام القوة حين يرى أن النصح لا يجدي نفعًا، لمن يريد العبث بالأمن، وإثارة الاضطرابات، وعدم احترام المواثيق، فلزموا الهدوء، وتظاهروا بإيفاء العهود، واستكانوا وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبئ فيها، وتفرغ رسول الله ﷺ - إلى حين - لمواجهة الأخطار التي كان يتوقع حدوثها من خارج المدينة، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التي كانوا يتوجسونها، ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى[4].

- **تعقيب:**

لا شك أن كعب بن الأشرف قد ارتكب في حق النَّبي ﷺ والمسلمين جرائم وخيانات عديدة، كل واحدة منها تعد نقضًا للعهد، وتستوجب قتله. ورسول الله ﷺ الذي توجه لفتح مكة بسبب نقض قريش لشروط عهد الحديبية، ما كان ليسكت على كعب بن الأشرف، فما الفرق أن يكون الغادر الناكث للعهد فردًا أو جماعة.

---

(1) البداية والنهاية 4/ 9.

(2) د. العمري: المجتمع المدني، ص 142؛ د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص 314- 315.

(3) الغضبان: المنهج الحركي، ص 352.

(4) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 220.

وقد حقق اغتيال كعب بن الأشرف للدولة الإسلامية أهدافًا ومكاسب مهمة، كانت في حاجة إلى تحقيقها، وهي:

1- التخلص من واحد من الرتل (الطابور) الخامس، له موقعه القيادي بين يهود يثرب، وله نشاطه التآمري الواسع.

2- إرعاب المتربصين بالمسلمين؛ للتخفيف من اندفاعهم ضد الدولة المسلمة، لا سيما أن نجاح الاغتيال قد بين لهم أن الدولة المسلمة تمتلك أدوات ووسائل كافية للردع، كما أثبت لهم جدية النبي ﷺ في المواجهة.

3- بين هذا العمل ليهود المدينة أن رسول الله ﷺ ليس هدفًا سهلًا، وأزال ما قد يكون تبقى لديهم بعد معركة بدر من أوهام بهذا الخصوص.

كما اشتملت عملية الاغتيال على تكتيكات بارعة، نجملها فيما يلي:

1- اختيار شخصين قريبين إلى المراد اغتياله؛ لتسهيل استدراجه.

2- إيكال المهمة إلى رجال من الأوس، وهم حلفاء بني النضير (وكعب من بني النضير)، ويهدف هذا التكتيك إلى منع ردود الفعل المحتملة إزاء مقتله في أوساط الأوس .

3- التظاهر أمام كعب بمعارضة النبي ﷺ والاستياء منه؛ استغلالًا لوجود معارضة فعلية في يثرب، سواء من المنافقين أو بقايا المشركين.

4- جعل العملية في الليل؛ لتسهيل الانسحاب بعدها[1].

وقد تبين من قتل كعب بن الأشرف أن مواجهة أعداء الإسلام ومحاربي الدولة الإسلامية، لا تقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك، وإنما يتعدى ذلك إلى كل عمل تحصل به النكاية بالأعداء ما لم يكن إثمًا، وقد يوفر القضاء على رجل له دوره البارز في حرب المسلمين، جهودًا كبيرة وخسائر فادحة، يتكبدها المسلمون. وهذا مشروط بالأمن من الفتنة، وذلك

(1) هادي العلوم: الاغتيال السياسي في الإسلام، بتصرف.

بأن يكون للمسلمين شوكة وقوة، بحيث لا يترتب على نوعية هذا العمل فتك بالمسلمين، واجتثاث الدعاة من بلدانهم، وإفساد في مجتمعاتهم .. وكل ذلك يحتاج إلى فتوى صحيحة من أهلها، واستيعاب فقه المصالح والمفاسد، وهذا يحتاج إلى علماء راسخين؛ حيث تتشابك المصالح في عصرنا، وحيث للرأي العام دوره الكبير في قرارات الدول، وحيث احتمالات توسع الأضرار[1].

- غزوة بحران:

هي دورية قتال كبيرة، قوامها ثلاثمائة مقاتل، قادها رسول الله ﷺ في ربيع الآخر من السنة الثالثة للهجرة، إلى أرض يقال لها (بحران)[2]، على الطريق التجارية بين مكة والشام، يريد قريشًا، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم ينشب قتال بين الفريقين، وكانت غيبته ﷺ عن المدينة عشرة أيام.

- سرية زيد بن حارثة .. نكبة جديدة لقريش:

قال صفوان بن أمية لقريش: (إن محمدًا وصحبه عوروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل؟ (طريق القوافل الذي يمر قريبًا من المدينة)، وأهل الساحل قد وادعوهم (صالحوهم)، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين المسلك (لتجارتنا)، وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء)، فقال له الأسود بن عبد المطلب: تنكب (تجنب) الطريق على الساحل، وخذ طريق العراق (وهو طريق وعر قليل الماء). ودله على (فرات بن حيان) من بني بكر بن وائل؛ ليكون رائدهم (دليلهم) في هذه الرحلة[3].

---

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص 463، مختصرًا.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 222.

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص 266.

قال الواقدي: ثم إن نعيم بن مسعود قدم المدينة من مكة معه خبر هذه العير، وهو على دين قومه. واجتمع بكنانة بن أبي الحقيق في بني النضير، ومعهم سليط بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أسلم، فشربوا (وكان ذلك قبل أن تحرم الخمر)، فتحدث نعيم بن مسعود بقضية العير، وخروج صفوان بن أمية فيها وما معه من الأموال. فخرج سليط من ساعته فأعلم رسول الله ﷺ، فبعث من وقته زيد بن حارثة[1].

فخرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مائة راكب، وكان ذلك في مستهل جمادى الأولى من السنة الثالثة، فسارت السرية حتى لقوا العير عند ماء يسمى (القردة) ففر الرجال، وأصاب المسلمون العير، وكانت أول غنيمة ذات قيمة غنمها المسلمون، وعادت السرية بها، فخمسها رسول الله ﷺ، فبلغ خمسها خمسة وعشرين ألف درهم، وقسم الباقي على رجال السرية، وكان فرات بن حيان فيمن أسر، فعرضوا عليه الإسلام فأسلم[2].

ولقد حزنت مكة لهذه النكبة الجديدة، وزادها إصرارًا على المطالبة بثأرها، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة .. فكان ذلك وما سبقه من أحداث التمهيد القوي لمعركة (أحد) في السنة الثالثة من الهجرة[3].

* * *

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 4/ 6.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج 2، ص 185.

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص 266.

الفصل الثاني

مجتمع المدينة في السنة الثالثة من الهجرة

- زواج عثمان بأم كلثوم:

في هذه السنة كان زواج عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، بعد وفاة أختها رقية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عام بدر، فكان يقال لعثمان (ذو النورين)، وقد عقد عليها في ربيع الأول، ودخل بها في جمادى الآخرة من هذه السنة، ولم تلد له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وبقيت عنده إلى سنة تسع؛ حيث توفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في شهر شعبان.

وكانت أم كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا متزوجة من عتيبة بن أبي لهب قبل النبوة، فلما بُعث رسول الله ﷺ، قال أبوه أبو لهب: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته، ففارقها ولم يكن دخل بها، فأبدلها الله ﷻ به رجلًا جليلًا كريمًا، تستحي منه الملائكة، فكان نعم الزوج، ويقال: إنه لم يغلق أحدٌ (بابه) على ابنتي نبي واحدة بعد الأخرى غير عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- مصاهرة النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

توفي خنيس بن حذافة السهمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان من السابقين إلى الإسلام، وهاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة مع عمر بن الخطاب، وأخيه زيد وعياش بن أبي ربيعة وسعيد بن زيد، وشهد بدرًا وتوفي بعدها (وقيل بعد أحد)، فتأيَّمت حفصة ولها عشرون سنة.

وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وُلدت قبل البعثة بخمس سنين، وقد روي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنها ولدت إذ قريش تبني البيت، وأمها هي زينب بنت مظعون بن حبيب، أخت عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي أخت عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لأبيه، وهي أسن منه بست سنين.

ولما تأيمت حفصة وانقضت عدتها، أراد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يتخير لها زوجًا، فعرضها على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلم يجبه بشيء، وعرضها على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: بدا لي اليوم ألا

أتزوج، فوجد عليهما وانكسر. وقد روى البخاري في صحيحه، عن سالم بن عبد الله أنه سمع عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يحدث: أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فتوفي بالمدينة، فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي، ثم لقيني فقال: بدا لي ألا أتزوج يومي هذا، قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر، فلم يرجع إليَّ شيئًا، وكنت أوجد عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي. ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئًا؟، قال عمر: قلت نعم. قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها[1].

وقد بنى النبي ﷺ بحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في شعبان من هذه السنة، فدخلت بيت النبوة ثالثة الزوجات لرسول الله ﷺ بعد سودة وعائشة، وتبوأت المنزلة الكريمة من بين أمهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. روى الذهبي في (سير أعلام النبلاء)، أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت عن حفصة: هي التي كانت تساميني (أي تعادلني وتضاهيني في المنزلة) من أزواج النبي ﷺ.

وقد وثق رسول الله ﷺ بزواجه من حفصة صلته بصاحبه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكرمه، وأزال عن حفصة تأيمها، بضمها إليه. قال الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: واتجاه الرسول ﷺ إلى مصاهرة عمر بعد مصاهرة أبي بكر، ثم تزويجه ابنته فاطمة لعلي بن أبي طالب، وتزويجه ابنته أم كلثوم لعثمان بعد وفاة رقية، يشير إلى أن النبي ﷺ يبغي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة، الذين عُرف بلاؤهم وفداؤهم للإسلام في الأزمات التي مرت به، وشاء الله أن يجتازها[2].

---

(1) صحيح البخاري، برقم 4830.

(2) فقه السيرة، ص 261.

- **مولد الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:**

في شهر رمضان من هذه السنة، ولدت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ابنها الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسماه جده ﷺ حسنًا، ولم يكن هذا الاسم معروفًا عند العرب .. روى البخاري في الأدب عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما ولد الحسن سميته (حربًا)، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: أروني ابني، ما سميتموه؟ قلت: حربًا، قال ﷺ: (بل هو حسن)[1]، ثم أذن ﷺ في أذنيه، كما روى أبو رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: رأيت النبي ﷺ أذن في أذني الحسن حين ولدته فاطمة بالصلاة[2].

وعق عنه رسول الله ﷺ بكبشين، وحلق رأسه، وأمر أن يصدق بوزن شعره فضة على المساكين[3].

وكناه ﷺ بـ (أبي محمد)، أما ألقابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكانت كثيرة، وأعلاها (السيد)، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر والحسن بن علي معه، وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة، ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[4]. وقد تحققت هذه النبوءة لرسول الله ﷺ سنة 41هـ، حين تنازل الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، فصار أهل العراق وأهل الشام تحت إمام واحد، وسمي هذا العام عام الجماعة.

وكان الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشبه جده رسول الله ﷺ في الخلقة، وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة، قال: رأيت النبي ﷺ وكان الحسن يشبهه. وروى البخاري أيضًا عن عقبة بن الحارث، قال: صلى أبو بكر العصر، ثم خرج يمشي، فرأى الحسن بن

(1) البخاري، الأدب 286.

(2) أبو داود، برقم (5105).

(3) انظر: السيرة لابن حبان (1/ 216).

(4) صحيح البخاري (3351).

علي يلعب مع الصبيان، فحمله على عاتقه، وقال: بأبي شبيه بالنبي، لا شبيه بعليّ .. وعلي يضحك.

وروى الترمذي، عن أنس بن مالك، قال: لم يكن أشبه برسول الله ﷺ من الحسن ابن علي. وكان رسول الله ﷺ يحب الحسن حبًّا جمًّا، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ والحسن بن علي على عاتقه، يقول: «اللّهم إني أحبه فأحبه»(1).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ حاملًا الحسن بن علي على عاتقه، فقال رجل: نعم المركب ركبت يا غلام. فقال النبي ﷺ: «ونعم الراكب هو»(2).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: كان النبي ﷺ يجلسني والحسن بن علي، فيقول: «اللّهم إني أُحبُّهما فأَحبَّهما»(3).

وعن إياس عن أبيه، قال: لقد قُدْت بنبي الله ﷺ والحسن والحسين بغلته الشهباء، حتى أدخلتهم حجرة النبي ﷺ، هذا قدامه وهذا خلفه(4).

وفي كتاب (الإصابة) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، قال: أنا أحدثكم بأشبه أهله به ﷺ وأحبهم إليه: الحسن بن علي ، رأيته وهو ساجد (يعني النبي ﷺ) فيركب رقبته - أو ظهره - فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل، ولقد رأيته يجيء وهو راكع، فيفرج له بين رجليه؛ حتى يخرج من الجانب الآخر.

* * *

(1) رواه البخاري (3663)، ومسلم (6211).

(2) رواه الترمذي (3945).

(3) راوه البخاري (3661).

(4) رواه مسلم (6213).



الباب الرابع عشر

غزوة أحد

الفصل الأول: **قبل المعركة.**

الفصل الثاني: **المعركة.**

الفصل الثالث: **بعد المعركة.**

الفصل الرابع: **العودة إلى المدينة.**

الفصل الخامس: **غزوة حمراء الأسد.**

الفصل السادس: **نظرات العلماء في غزوة أحد.**

الفصل الأول

قبل المعركة

اجتمع رأي زعماء قريش - ممن لم يقتلوا يوم بدر - على الثأر لقتلاهم، وأن يستعينوا بعير أبي سفيان (التي نجا بها من المسلمين) وما فيها من أموال لتجهيز جيش قوي لقتال رسول الله ﷺ، واستنفروا حلفاءهم من الأحابيش، والقبائل المنتشرة حول مكة من كنانة وأهل تهامة. ونذكر هنا ما ساقه ابن إسحاق وغيره في هذا الشأن .. قالوا:

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش من أصحاب القليب، ورجع فلهم (الفارون المهزومون) إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له تلك العير من تجارة قريش.

فقالوا: يا معشر قريش إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه؛ لعلنا ندرك منه ثأرنا، ففعلوا. **قال ابن إسحاق:** ففيهم - كما ذكر لي بعض أهل العلم- أنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال].

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها، ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة.

وكان أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، قد مَنَّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر، وكان فقيرًا ذا عيال وحاجة، وكان في الأسارى.

فقال له صفوان بن أمية: يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر، فأعنا بلسانك واخرج معنا.

فقال: إن محمدًا قد منَّ عليَّ، فلا أريد أن أظاهر عليه.

قال: بلى، فأعنا بنفسك فلك الله إن رجعت أن أغنيك، وإن قُتلت أن أجعل بناتك مع بناتي، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر.

فخرج أبو عزة يسير في تهامة، ويدعو بني كنانة ويقول:

أيـــا بنـــي عبـــد منـــاة الـــرزام أنـــتم حمـــاة وأبـــوكم حـــام

لا يعـــدوني نـــصركم بعـــد العـــام لا تـــسلموني لا يحـــل إســـلام

قال: وخرج نافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى بني مالك بن كنانة يحرضهم، ويقول:

يـــا مـــال مـــال الحـــسب المقـــدم أنـــشد ذا القـــربى وذا التـــذمم

مـــن كـــان ذا رحـــم ومـــن لم يـــرحم الحلـــف وســـط البلـــد المحـــرم

قال: ودعا جبير بن مطعم غلامًا له حبشيًّا يقال له: وحشي، يقذف بحربة له قذف الحبشة، قلما يخطئ بها، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق[1].

- قريش تخرج بحدها وحديدها:

استكملت قريش قواها، وجمعت ثلاثة آلاف مقاتل من رجالها، وممن أطاعها من كنانة وأهل تهامة، ومعهم مائتا فرس، وسبعمائة دارع، وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وجعلت اللواء لبني عبد الدار، أما القيادة العامة فكانت لأبي سفيان بن حرب.

وخرجت معهم مجموعة من النساء؛ لإثارة حماسهم وخوفهم من العار إذا فروا. **قال ابن إسحاق:** فخرجت قريش بحدها وحديدها، وجدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظعن (الزوجات)؛ التماس الحفيظة، وأن لا يفروا،

(1) البداية والنهاية 4/ 12.

وخرج أبو سفيان بن صخر بن حرب، وهو قائد الناس، ومعه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة، وخرج عكرمة بن أبي جهل بزوجته ابنة عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة.

وخرج عمه الحارث بن هشام بزوجته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان ابن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية، وخرج عمرو بن العاص بربطة بنت منبه بن الحجاج، وهي أم ابنه عبد الله بن عمرو، وذكر غيرهم ممن خرج بامرأته.

قال: وكان وحشي كلما مر بهند بنت عتبة أو مرت به تقول: ويهًا أبا دسمة اشف واشتف .. يعني تحرضه على قتل حمزة بن عبد المطلب[1].

وتحرك الجيش المكي الزاحف إلى المدينة، حتى وصل إلى الأبواء؛ حيث قبر السيدة آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، ففكر بعض سوقتهم في نبش قبرها، ولكن زعماءهم أبوا ذلك؛ حتى لا تكون سنة سيئة في العرب، وقالوا: لا تذكروا من هذا شيئًا، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وبنو خزاعة موتانا. وتابعت قريش سيرها حتى نزلت عند بعض السفوح من جبل أحد على خمسة أميال من المدينة[2]، وأرسلت خيلها ترعي الزروع الممتدة هناك.

- **رؤيا الرسول ﷺ:**

وكان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أن في سيفه ثلمة (شرخ أو ثغرة)، ورأى بقرًا تذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينة، فتأول الثلمة في سيفه برجل يُصاب (يُقتل) من أهل بيته، وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الدرع بالمدينة .. فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي (ظني) إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 4/ 13.
(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج 2، ص 187.

أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها أيضًا بقرًا والله خير، فإذا هم النفر من المؤمنين (الذين قُتلوا) يوم أحد»[1].

وروى البيهقي عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت فيما يرى النائم كأني مردف كبشًا، وكأن ضبة سيفي انكسرت، فأولت أني أقتل كبش القوم، وأولت كسر ضبة سيفي قتل رجل من عترتي (أهلي)**». فقتل حمزة، وقتل رسول الله ﷺ أبيّ بن خلف.

- رصد تحركات قريش:

كتب العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ من مكة كتابًا مع رجل من بني غفار، يخبره خبر قريش، فقدم عليه وهو بقباء.

فقرأه عليه أبي بن كعب، واستكتم أبيًّا، ونزل رسول الله ﷺ على سعد بن الربيع، فأخبره بكتاب العباس، فقال: والله إني لأرجو أن يكون في ذلك خير، وقد أرجفت اليهود والمنافقون وشاع الخبر. وقدم أيضًا عمرو بن سالم الخزاعي في نفر، وقد فارقوا قريشًا من ذي طوي، فأخبر النبي ﷺ (خبر قريش) وانصرفوا .. وبعث رسول الله ﷺ أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة ليلة الخميس عينين، فاعترضا لقريش بالعقيق، وعادا إلى النبي ﷺ فأخبراه، ونزل المشركون ظاهر المدينة يوم الأربعاء، فرعت إبلهم آثار الحرث والزرع يوم الخميس ويوم الجمعة حتى لم يتركوا خضراء، وبعث رسول الله ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح، فنظر إليهم، وعاد وقد حزر (قَدَّر) عددهم وما معهم، فقال ﷺ: لا تذكروا من شأنهم حرفًا، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللّهم بك أحول وبك أصول[2].

- تأمين المدينة:

وظلت المدينة في حالة استنفار عام، لا يفارق رجالها السلاح حتى وهم في الصلاة، وقامت مفرزة من الأنصار فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، بحراسة رسول الله ﷺ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح، وقامت على مداخل

(1) رواه البخاري (3992) واللفظ له؛ ومسلم (5886).

(2) إمتاع الأسماع للمقريزي 1/ 115.

المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها؛ خوفًا من أن يؤخذوا على غرة. وقامت دوريات من المسلمين لاكتشاف تحركات العدو، تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين[1].

- **المشاورة:**

جمع رسول الله ﷺ وجوه المهاجرين والأنصار؛ يتشاورون فيما دهمهم، وحضر معهم عبد الله بن أبي بن سلول، وكان ذلك في يوم جمعة، وكان رأي رسول الله ﷺ المقام بالمدينة والتحصن بها، فإن هم دخلوا عليهم قاتلوهم.

ورأى هذا الرأي شيوخ المهاجرين والأنصار، ورأى هذا الرأي أيضًا عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال: (يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فإن أقاموا (أي: المشركون) أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين).

ولكن الكثيرين - ولا سيما الشباب ممن لم يشهد بدرًا، أو شهدها وأمتعهم الله بالنصر - قالوا: يا رسول الله: اخرج بنا إلى أعدائنا، ولا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا، ومن هؤلاء حمزة بن عبد المطلب، فقال: والذي أنزل عليك الكتاب لنجالدنهم.

وصلى رسول الله ﷺ بهم الجمعة، ووعظ الناس وذكرهم، وحثهم على الثبات والصبر، ثم دخل بيته فلبس لأمته[2]، ثم خرج عليهم، فلما رآه الذين أشاروا بالخروج، ندموا، وقالوا: استكرهناك ولم يكن لنا ذلك، يا رسول الله إن شئت فاقعد، فقال: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل، أو يحكم الله بينه وبين أعدائه»[3].

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 226.

(2) عدة الحرب من درع ومغفر ونحوهما.

(3) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج 2، ص 188- 189.

- **الخروج إلى أحد:**

أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج، فرفعت راية سوداء، وعقدت الألوية، فأعطى رسول الله ﷺ لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، وكان الجيش متألفًا من ألفٍ من أصحابه رضوان الله عليهم، معهم فَرَسان ومائة دارع، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسار بالجيش، وكان دليله أبو خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .. **قال ابن إسحاق:** (... ثم قال النبي ﷺ لأصحابه: «من رجل يخرج بنا على القوم من كثب - أي: من قريب - من طريق لا يمر بنا عليهم».

فقال أبو خيثمة أخو بني حارثة بن الحارث: أنا يا رسول الله، فنفذ به في حرة بني حارثة، وبين أموالهم، حتى سلك به في مال لمربع بن قيظي، وكان رجلًا منافقًا ضرير البصر، فلما سمع حس رسول الله ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب، ويقول: إن كنت رسول الله، فإني لا أُحل لك أن تدخل في حائطي (بستاني).

قال ابن إسحاق: وقد ذُكر لي أنه أخذ حفنة من التراب في يده، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوه؛ فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر»[1].

- **(لا نستعين بالمشركين على المشركين):**

وعندما تجاوز رسول الله ﷺ في مسيره إلى أحد ثنية الوداع رأى كتيبة خشناء، فقال: «من هؤلاء؟» قالوا: هذا عبد الله بن أبي بن سلول في ستمائة من مواليه من اليهود. قال: «وقد أسلموا؟»، قالوا: لا يا رسول الله. قال: «قولوا لهم فليرجعوا؛ فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين»[2]، وهذا أصل وضعه النبي ﷺ في عدم الركون إلا أعداء الإسلام في الاستنصار بهم[3].

(1) البداية والنهاية 4/ 17.

(2) انظر: السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 382.

(3) الصلابي: السيرة النبوية، ص 479.

- انخذال المنافقين:

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالشوط (مكان بين المدينة وأحد) انخذل عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني (أي: أطاع من أشاروا بالخروج)، ما ندري علام نقتل أنفسنا هٰهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب.

وكان ابن سلول ما يزال سيدًا في قومه، لم يكشف لهم عن نفاقه، ولم يدمغه القرآن بهذا الوصف بعد، فجعل لانخذاله سببًا ظاهرًا يتذرع به أمام المسلمين، وهو أن النبي ﷺ إنما أخذ برأي الشبان الأغرار، ولم يأخذ برأي أمثاله من الشيوخ وأرباب الحجى والأحلام. غير أنه - في واقع الأمر - أراد بانخذاله ومن معه من المنافقين إحداث رجة وزلزلة في صفوف المسلمين، ومآزرة وتشجيع الكافرين .. فجعل الله ذلك وبالًا عليه وعلى من تبعه من المنافقين، فبرزوا بأشخاصهم وأعيانهم، قد كشف الله طويتهم وفضح أمرهم، وغدت الجماعة المؤمنة تنظر إليهم بعين الحذر والكراهية.

قال الإمام الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان عبد الله بن أبي له مقام يقومه كل جمعة لا ينكسر له شرفًا في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفًا إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس، قام (عبد الله أبيّ)، فقال: أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله به وأعزكم به، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع، ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس أي عدو الله، والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجرًا[1]، إن قمت أشدد أمره، فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب إليَّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بُجرًا أن قمت أشدد أمره، قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله. قال: والله ما أبغي أن يستغفر لي[2].

---

(1) **بُجرًا:** شرًّا.

(2) البداية والنهاية (4/ 53).

- ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ﴾:

ولما انخذل عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش، وانصرف عائدًا هو ومن معه من أهل النفاق إلى المدينة، اتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: يا قوم، أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم، عندما حضر من عدوهم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أن يكون قتال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ[1].

قال ابن كثير: وهؤلاء القوم هم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران]. يعني إنهم كاذبون في قولهم ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾؛ وذلك لأن وقوع القتال أمره ظاهر بيِّن واضح لا خفاء، ولا شك فيه[2].

وروى البخاري أن المسلمين اختلفوا في أمر هؤلاء الذين انخذلوا عن المسلمين، ففرقة منهم تقول نقاتلهم[3]، وأخرى تقول دعوهم، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨﴾ [النساء].

وروى الإمام أحمد، عن زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فيهم فرقتين: فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تقول: لا، هم المؤمنون. فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾؟، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «إنها طيبة (أي المدينة)، وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد».

---

(1) ابن هشام (3/ 93).

(2) البداية والنهاية 4/ 16.

(3) البخاري، الفتح (15/ 232، حديث 4050).

واقترح بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الاستعانة باليهود عوضًا عمن انخذل من المنافقين، على ما بينهم من ميثاق التناصر؛ فقد ذكر الزهري: أن الأنصار استأذنوا حينئذ رسول الله ﷺ في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة، فقال: (لا حاجة لنا فيهم) [1].

- ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾:

وراود الضعف والفشل قلوب بني سلمة وبني حارثة بعد تلك الحركة الخائنة التي قام بها رأس النفاق (عبد الله بن أبي بن سلول)، فكادتا تفشلان وتضعفان، فتنخذلان مع المنافقين، لولا أن أدركتهما ولاية الله عز وجل وتثبيته، كما أخبرنا سبحانه: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 122].

قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾.

قال: نحن الطائفتان، بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب (أو ما يسرني) أنها لم تنزل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[2].

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: (... فوقاهم الله الفشل، وصرفه عنهم، وأيدهم بولايته؛ فالله حاضر معهم، عالم بمكنونات ضمائرهم حين يدركهم الضعف، ويدب فيهم الفشل، يشملهم بعونه ورعايته وولايته؛ ليعرفوا أين يتوجهون وأين يلجئون، فلا وجهة لهم غيره سبحانه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[3].

- رد جماعة من الغلمان:

وعندما وصل رسول الله ﷺ مكانًا يقال له (الشيخان)، استعرض الجيش، فرد من استصغره ولم يره مطيقًا للقتال، وكان قد خرج بعض الغلمان؛ رغبة في الجهاد وحبًّا

---

(1) البداية والنهاية 4/ 16.

(2) رواه البخاري (3963)؛ ومسلم (6365).

(3) في ظلال القرآن، بتصرف.

للاستشهاد، قال ابن كثير: وقد رد رسول الله ﷺ جماعة من الغلمان يوم أحد، فلم يمكنهم من حضور الحرب لصغرهم، منهم عبد الله بن عمر، كما ثبت في الصحيحين قال: عُرِضت على النبي ﷺ يوم أحد فلم يجزني، وعُرِضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني. وكذلك رد يومئذ أسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس بن قيظي، وابن سعيد بن خيثمة، وأجازهم كلهم يوم الخندق[1].

وألح رافع بن خديج وسمرة بن جندب أن يشتركا مع النبي ﷺ في القتال، وهما ابنا خمس عشرة سنة، فردهما النبي ﷺ؛ لصغر سنهما، فقيل له: (يا رسول الله إنما رافعًا رام، فأجازه، فبلغ ذلك سمرة بن جندب، فذهب إلى زوج أمه مري بن سنان بن ثعلبة، عم أبي سعيد الخدري (وهو الذي رباه في حجره)، يبكي ويقول: يا أبت، أجاز رسول الله ﷺ رافعًا وردني، وأنا أصرع رافعًا، فرجع زوج أمه هذا إلى النبي ﷺ، فالتفت النبي ﷺ إلى رافع وسمرة، فقال لهما: «تصارعا»، فصرع سمرة رافعًا، فأجازه كما أجاز رافعًا.

ونلحظ أن رسول الله ﷺ أجاز رافعًا وسمرة لامتياز عسكري امتازا به على أقرانهما، ورد صغار السن خشية أن لا يكون لهم صبر على ضرب السيوف ورمي السهام وطعن الرماح، فيفروا من المعركة إذا حمي الوطيس، فيحدث فرارهم خلخلة في صفوف المسلمين[2].

- **المبيت في (الشيخان):**

وفي هذا المكان أدركهم المساء، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه المغرب، ثم صلى العشاء، وبات هنالك، واختار خمسين رجلًا لحراسة المعسكر، يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بطل سرية كعب بن الأشرف، وتولى ذكوان ابن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة، فلم يفارقه[3].

(1) البداية والنهاية 4/ 17.

(2) انظر: محمد رسول الله (3/ 572)، والسيرة النبوية للصلابي، ص 479-480.

(3) انظر: الرحيق المختوم، للمباركفوري، ص 229.

- ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾:

في صبيحة يوم السبت، السابع من شهر شوال سنة 3هـ، مضى رسول الله ﷺ في سبعمائة من أصحابه (وهم من تبقى في الجيش بعد انخذال المنافقين) نحو اللقاء مع العدو، وفي الطريق إلى المعركة، أراد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يعطي درعه لأخيه زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له زيد: (إني أريد من الشهادة مثل الذي تريد) فتركاه جميعًا[1]، وعندما وصل جيش المسلمين إلى الشعب من جبل أحد، جعل رسول الله ﷺ ظهورهم إلى الجبل، ووجوههم إلى المدينة. وانتقى خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير، ووضعهم فوق تل عينين المقابل لجبل أحد (عرف فيما بعد بجبل الرماة)؛ خشية أن يطوق المشركون المسلمين. وأصدر أوامره إليهم قائلًا: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم». وقد روى الإمام أحمد والحاكم. أن رسول الله ﷺ قال لهم: «احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا»[2]. وفي رواية البخاري أنه ﷺ قال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم».

وبذلك سيطر المسلمون على المرتفعات، وتركوا الوادي لجيش مكة؛ ليواجه أحد وظهره إلى المدينة[3]. واطمأن رسول الله ﷺ بذلك إلى مؤخرة جيشه، فأقبل يتعهد باقي الجيش، وظاهر هو نفسه بين درعين (لبس أحدهما على الآخر).

وجعل رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ميمنة الجيش، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام، يسانده المقداد بن الأسود، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في

---

(1) رواه أحمد (2612)، والطبراني (10731)، وقال الهيثمي: (ورجاله رجال الصحيح).

(2) المسند (4/ 209/ شاكر)، والمستدرك (ج/ 296).

(3) انظر: السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 384.

وجه فرسان خالد بن الوليد، وجعل في مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة[1]. وفي هذا نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران: 121].

- تحريض المؤمنين على القتال:

وكان من هديه ﷺ أن يحرض أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على قتال الأعداء، ويحثهم على التحلي بالصبر في القتال، ففعل ذلك يوم أحد .. قال الواقدي[2]:

(ثم قام رسول الله ﷺ، فخطب الناس: يا أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه، من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذُخر، لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه له على الصبر واليقين، والجد والنشاط؛ فإن جهاد العدو شديد كريه، قليل من يصبر عليه، إلا من عزم الله رشده؛ فإن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي آمركم؛ فإني حريص على رشدكم؛ فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز، والضعف مما لا يحب الله، ولا يعطي عليه النصر ولا الظفر)[3].

- (من يأخذ هذا السيف بحقه؟):

وأخذ رسول الله ﷺ يتخير الرجال أولي النجدة والبأس؛ ليكونوا في طليعة المؤمنين حين يلتحم الجمعان، فعدد المسلمين دون الربع من المشركين، ولن يعوض هذا التفاوت إلا الأشخاص الذين يوزنون بالألوف، وهم آحاد[4].

---

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم.

(2) مغازي الواقدي (1/ 221- 222).

(3) الصلابي، ص 480.

(4) الغزالي: فقه السيرة، ص 271.

روى الإمام أحمد، عن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أحد، فقال: «من يأخذ هذا السيف؟»، فأخذ قوم فجعلوا ينظرون إليه، فقال: «من يأخذه بحقه؟»، فأحجم القوم، فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه، فأخذه ففلق به هام المشركين[1].

قال ابن إسحاق: وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا، يختال عند الحرب، وكان له عصابة حمراء يُعلم بها عند الحرب، يعتصب بها، فيُعلم أنه سيقاتل: فلما أخذ السيف عن يد رسول الله ﷺ، أخرج عصابته تلك فاعتصب بها، ثم جعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن»[2]. وجعل أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

يعني بعدم قيامه في الكيول: ألا يقاتل في مؤخرة الصفوف، بل يظل أبدًا في المقدمة[3].

- في معسكر قريش:

أما في معسكر الشرك، فقد عبأت قريش جيشها وتصافوا، وكان معهم مائتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وكان حامل لوائهم طلحة بن عثمان من بني عبد الدار[4]، فأراد أبو سفيان أن يحمس أصحاب اللواء ويستثير حميتهم، فقال لهم - كما روى ابن إسحاق: يا بني عبد الدار قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زلت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه،

(1) ورواه مسلم أيضًا (7/151).

(2) البداية والنهاية 4/ 18.

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص 271.

(4) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 19.

فهموا به، وتواعدوه وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟! ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع .. وذلك الذي أراد أبو سفيان[1]. وكان اللواء في قريش من نصيب بني عبد الدار، ورثوها عن جدهم قصي بن كلاب منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب من بعده (كما أسلفنا في باب سابق).

وقامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال، ويحرضن على القتال، فقالت هند فيما تقول:

ويهًا[2] بني عبد الدار ويهًا حماة الأدبار

ضربًا بكل بتار

وتقول أيضًا:

إن تُقبلوا نعانق ونفرش النمارق[3]

وإن تُدبروا نفارق فراق غير وامق[4]

- **أبو عامر الفاسق:**

واسمه عبد عمرو بن صيفي بن مالك الأوسي، كان شريفًا مطاعًا في الأوس قبل الإسلام، مكانته بين قومه كمكانة ابن خالته عبد الله بن أبي في الخزرج. وسمي في الجاهلية بـ (الراهب)؛ لكثرة عبادته، كما قال القرطبي: (إن تسمية (أبو عامر) بالراهب لأنه كان يتعبد (على دين إبراهيم) ويلتمس العلم)[5]، وكان قد اطلع على كتب اليهود حتى ذُكر أنه ما كان في الأوس والخزرج رجل أوصف لمحمد ﷺ من أبي عامر الراهب،

(1) البداية والنهاية 4/ 18.

(2) كلمة إغراء وحث وتحريض.

(3) **النمرق:** الوسادة الصغيرة يتكأ عليها.

(4) **غير وامق:** لا حب فيه.

(5) تفسير القرطبي: 8/ 231.

كان يألف اليهود ويسألهم عنه، ويخبرونه بصفة رسول الله ﷺ قبل البعثة، وأن هذه دار هجرته[1]. ثم خرج إلى يهود تيماء، فأخبروه بمثل ذلك، ثم خرج إلى الشام، فسأل النصارى، فأخبروه بصفته، فرجع وهو يقول: أنا على دين الحنيفية، فأقام مترهبًا ينتظر خروج النبي ﷺ، ولكنه بعد بعثة النبي ﷺ وهجرته إلى المدينة، حمل الضغينة في قلبه لرسول الله ﷺ، وحسده على ما منَّ الله به عليه، فجاهر بمعارضته للإسلام، ووقف إلى جانب خصومه، وقال: يا محمد أنت تخلط الحنيفية بغيرها، فقال رسول الله ﷺ: «أتيت بها بيضاء نقية، أين ما كان يخبرك الأحبار من صفتي؟!»، قال: لست بالذي وصفوا لي، فسماه رسول الله ﷺ: (الفاسق)[2]. وكان أبناؤه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من أوائل من أسلم في المدينة، ونذكر منهم:

1- حنظلة بن أبي عامر، الملقب بغسيل الملائكة، وقد قتل شهيدًا في هذه المعركة (أحد).

2- صيفي بن أبي عامر، وذكره ابن حجر في شهداء أحد أيضًا.

3- عامر بن أبي عامر.

4- حبيبة بنت أبي عامر، وكان زوجها زيد بن الخطاب.

5- جميلة بنت أبي عامر، وزوجها سعد بن الحارث بن مالك.

6- الشموس بنت أبي عامر، وزوجها ثابت بن أبي الأقلح[3].

وخرج أبو عامر من المدينة كافرًا مباعدًا لرسول الله ﷺ، ومعه جماعة عن غلمان الأوس، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ، ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه. قال ابن كثير: ذهب أبو عامر إلى قريش، يؤلبهم

---

(1) ابن القيم، هداية الحيارى (1/ 90- 91).

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.

(3) ظافر أكرم قدوري، سماهر محيي موسى: (أبو عامر الراهب).

على رسول الله، ويحضهم على قتاله، مع ما هم منطوون على رسول الله ﷺ وأصحابه من الخنق، ووعد المشركين أنه يستميل لهم قومه من الأوس يوم اللقاء حتى يرجعوا إليهم(1).

فلما كان يوم أحد، خرج أبو عامر الفاسق في خمسين من قومه (وقيل كانوا خمسة عشر) معه عبيد قريش، فنادى: يا آل الأوس، أنا أبو عامر، فقالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق. فلما سمع ردهم قال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ثم قاتلهم قتالًا شديدًا، ثم أرضخهم بالحجارة (2).

فكان أول من اشتبك من المشركين مع جيش المسلمين أبو عامر ومن تبعه من قومه والأحابيش وعبدان مكة(3).

ولم يكن هذا دوره الأوحد في المعركة؛ فقد حفر حفائر بين الصفين وأخفاها، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ (كما سيأتي)، فجرح وجهه وكسرت رباعيته (هي السن بين الأسنان والأنياب)، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه(4).

ولما انتهت المعركة، أخذ أبو عامر وأبو سفيان يمران بين القتلى للتعرف عليهم، وكان أبو عامر كلما مر بواحد منهم يشير إلى أبي سفيان بموقعه من قومه (أي: بمكانة القتيل)، حتى وصل إلى حنظلة ابنه فسكت، فقال أبو سفيان: من هذا؟ قال: هذا أعز من هاهنا عليَّ، هذا حنظلة بن أبي عامر(5). وذكر موسى بن عقبة أنه قال (مخاطبًا حنظلة): ولقد نهيتك عن مصرعك هذا، ولقد والله كنت وصولًا للرحم، برًّا بالوالد(6). ثم نادى: يا معشر قريش، حنظلة لا يُمثل به، وإن كان خالفني، فإنه لم يأل بنفسه فيما يرى خيرًا(7).

(1) السيرة النبوية لابن كثير 4/ 39.

(2) البداية والنهاية 4/ 18.

(3) ابن هشام: السيرة 3/ 587.

(4) ابن كثير: السيرة النبوية 2/ 402.

(5) المغازي للواقدي (1/ 336).

(6) البداية والنهاية 4/ 24.

(7) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.

الفصل الثاني

المعركة

المبحث الأول: انتصار المسلمين أول المعركة

- بدء القتال:

وابتدأ القتال بالمبارزة، فقد دعا طلحة بن أبي طلحة العبدري أحد حملة لواء المشركين يومئذ إلى البراز، فأحجم عنه الناس، فبرز إليه الزبير بن العوام، فوثب حتى صار معه على جمله، ثم ألقاه على الأرض وذبحه بسيفه، فقال الرسول ﷺ: «إن لكل نبي حواريًّا، وحواريّ الزبير»، وقال: «لو لم يبرز إليه أحد لبرزت أنا إليه، لما رأيت من إحجام الناس عنه»، وخرج سباع بن عبد العزى من صفوف المشركين، وهو يقول: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال له: يا سباع، يا ابن أنمار أتحاد الله ورسوله؟! ثم شد عليه فقتله، فكان كأمس الذاهب.

ونادى أبو سعد بن أبي طلحة - وكان أحد حملة لواء المشركين وقد سمع علي بن أبي طالب يقول: أنا أبو القُصَم - فقال: هل لك يا أبا القصم في البراز من حاجة؟ قال: نعم، فبرزا بين الصفين، فاختلفا ضربتين، فضربه عليّ فصرعه ولم يجهز عليه، فقال له بعض الصحابة: أفلا أجهزت عليه؟ فقال: إنه استقبلني بعورته، فعطفتني عليه الرحم، وعرفت أن الله قد قتله[1].

- سقوط لواء المشركين:

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين. فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة، وتقدم للقتال وهو يقول:

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج 2، ص 192- 193.

إن علـــى أهــــل اللـــــواء حقًّـــا أن تخـــضب الــــصعدة أو تنـــدقا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه، حتى وصلت إلى سرته، فبانت رئته.

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم أصاب حنجرته، فأدلع لسانه ومات لحينه. وقيل: بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز، فتقدم إلى علي بن أبي طالب، فاختلفا ضربتين، فضربه عليٌّ فقتله.

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح بسهم فقتله، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فانقض عليه الزبير ابن العوام وقاتله حتى قتله، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته، وقيل: بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح بسهم فقضى عليه.

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار، قتلوا جميعًا حول لواء المشركين، ثم حمله من بني عبد الدار أرطأة بن شرحبيل، فقتله علي بن أبي طالب، وقيل: حمزة بن عبد المطلب، ثم حمله شريح بن قارظ، فقتله قُزمان - وكان منافقًا قاتل مع المسلمين حمية - ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدري، فقتله قزمان أيضًا، ثم حمله ولد لشرحبيل بن هشام العبدري فقتله قزمان أيضًا.

فهؤلاء عشرة من بني عبد الدار - من حملة اللواء - أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء، فتقدم غلام لهم حبشي - اسمه صواب - فحمل اللواء، وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله، فقد قاتل حتى قطعت يداه، فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط حتى قتل، وهو يقول: اللّهم هل أعذرت!!

وبعد أن قتل هذا الغلام سقط اللواء على الأرض، ولم يبق أحد يحمله، فبقـي ساقطًا[1]، حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية، فرفعته لقريش، فاجتمعوا عليه.

---

(1) انظر: الرحيق المختوم، ص 233.

- **أمت .. أمت:**

كان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ: (أمت .. أمت)، فكان الرجل منهم ينادي على أخيه بهذا الشعار، فتقوى روحه ويشتد بأسه، فينطلقون خلال صفوف المشركين انطلاق الطوفان، وأبلى أبطال الصحابة بلاءً حسنًا، مثل طلحة والزبير وحمزة وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وأنس بن النضر وسعد بن الربيع وأبو طلحة الأنصاري، وأبطال غيرهم كثيرون، فأعملوا القتل في المشركين، وراحوا يحسونهم في اندفاع مذهل، وأظهر جيش المسلمين من البطولات ما أعجز المشركين ودحرهم وفل عزائمهم.

- **أبو دجانة في الصفوف :**

وأقبل أبو دجانة معلمًا بعصابته الحمراء، آخذًا بسيف رسول الله ﷺ، مصممًا على أداء حقه، فقاتل حتى أمعن في الناس، وجعل لا يلقى مشركًا إلا قتله، وأخذ يهد صفوف المشركين هدًّا[1].

قال ابن هشام: وحدثني غير واحد من أهل العلم، أن الزبير بن العوام قال: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف (أي: سيفه ﷺ) فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه وسألته إياه قبله، فأعطاه أبا دجانة وتركني، والله لأنظرن ما يصنع، فاتبعته (أي: أبا دجانة) فأخرج عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب، فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر في الكيول ... أضرب بسيف الله والرسول

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 234.

(الكيول يعني مؤخر الصفوف)، قال الزبير: فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع جريحًا إلا ذفف (أجهز) عليه، فجعل كل منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها (لما علم أنها امرأة). فقلت: الله ورسوله أعلم. (أي أنه علم حكمة النبي ﷺ في إعطاء سيفه لأبي دجانة).

قال ابن إسحاق: قال أبو دجانة: رأيت إنسانًا يحمس الناس حمسًا شديدًا، فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة[1]، وكانت تلك المرأة هي هند بنت عتبة.

- وحشي يقتل حمزة:

قاتل أسد الله حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتال الأبطال، فاندفع إلى قلب جيش المشركين، يقاتلهم ويثخن فيهم القتل، ويهدهم هدًّا، فأطاح برءوس نفر منهم من عتاة المجرمين.

قال ابن هشام: وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أرطأة بن عبد شرحبيل بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار، وكان أحد النفر الذين يحملون اللواء، ثم مر به سباع بن عبد العزى الغشباني، وكان يكنى بأبي نيار، فقال له حمزة: هلم إليَّ يا ابن مقطعة البظور، (وكانت أمه أم أنمار ختانة بمكة)، فلما التقيا ضربه حمزة فقتل.

وقتل حمزة كذلك عثمان بن أبي طلحة، وهو حامل اللواء[2].

وظل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفعل الأفاعيل بصناديد المشركين، حتى صُرع وهو في مقدمة المبرزين، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجهًا لوجه في ميدان القتال، وإنما كما يغتال الكرام في حلك الظلام[3].

---

(1) البداية والنهاية 4/ 18.

(2) البداية والنهاية 4/ 20.

(3) المباركفوري: الرحيق المختوم، 234.

وروى وحشي بن حرب هذا المشهد، فقال:

(كنت غلامًا لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أُصيب (قُتل) يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد، قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت حر، قال: فخرجت مع الناس، وكنت رجلًا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها .. فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس، كأنه الجمل الأورق[1]، يهد الناس بسيفه هدًّا، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني، فلما دنا هززت حربتي، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثنته - تحت سرته - حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء (يجيء) نحوي فغُلب (فوقع)، وتركته وإياها حتى مات، ثم أخذت حربتي ورجعت، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأُعتق[2].

ثم يروي وحشي - كما ذكر ابن إسحاق - ما كان من رسول الله ﷺ معه يوم أن أسلم، فيقول: فلما قدمت مكة أُعتقت، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف، فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيّت عليَّ المذاهب، فقلت: ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد، فوالله إني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك (إنه والله ما يقتل أحدًا من الناس دخل في دينه وتشهد شهادته. فلما قال لي ذلك، خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يرعه إلا بي قائمًا على رأسه أتشهد بشهادة الحق، فلما رآني قال: أوحشي؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة، قال: فحدثته، فلما فرغت من حديثي، قال: ويحك**!!** غيب عني وجهك فلا أرينك. قال: فكنت أتنكب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يراني، حتى قبضه الله ﷺ.

---

(1) **الأورق:** الذي لونه بين الأبيض والأسود (الرمادي).

(2) البداية والنهاية، ج2، ص 18.

- **عاصم بن ثابت:**

قال ابن إسحاق: وقاتل عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقتل نافع بن أبي طلحة وأخاه جلاس، فكان كل منهما يأتي أمه (سلافة) قبل أن يموت فيضع رأسه في حجرها، فتقول: يا بني، من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلًا حين رماني يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح.

فنذرت (سلافة) إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر، فكان منها ما سيأتي ذكره في حديثنا عن (يوم الرجيع).

- **حنظلة الغسيل:**

وكان من أبطال الصحابة يومئذ حنظلة بن أبي عامر الراهب (الفاسق) - الذي ذكرنا خبره - وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث عهد بعرس، فلما سمع منادي الجهاد انخلع من أحضان امرأته، وقام عن فوره ملبيًا النداء، فلما التقى الجيشان، أخذ يشق صفوف المشركين حتى خلص إلى قائدهم أبي سفيان بن حرب، فضرب عرقوب فرسه، فوقع أبو سفيان على الأرض، فعلاه حنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهم بذبحه، فصاح أبو سفيان (يا معشر قريش أنا أبو سفيان بن حرب)، فأدركه شداد بن الأسود، فضرب حنظلة بالرمح فأنقذه، ومشى إليه حنظلة بالرمح، فضربه شداد الثانية فقتله.

قال ابن إسحاق: والتقى حنظلة بن أبي عامر، واسمه عمرو، هو وأبو سفيان صخر بن حرب، فلما علاه حنظلة رآه شداد بن الأوس، وهو الذي يقال له (ابن شعوب)، فضربه شداد فقتله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن صاحبكم لتغسله الملائكة، فاسألوا أهله ما شأنه»، فسُئلت صاحبته، وهي جميلة بنت أبي بن سلول، وكانت عروسًا تلك الليلة، فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كذلك غسلته الملائكة»[1].

ولذا عرف بعد ذلك بـ (غسيل الملائكة)، أو (الغسيل).

---

(1) البداية والنهاية 4/ 23، وابن هشام (3/ 107- 108)، وحسنه الألباني.

وفي رواية الواقدي: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبي سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبحها قتال أحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلى بالصبح غدا يريد رسول الله ﷺ ولزمته جميلة، فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بعْدُ: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت (أي في المنام) كأن السماء فُرجت فدخل فيها حنظلة ثم أُطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بها[1] (مخافة إن حملت من ليلتها هذه أن ينكر أحد عليها نسبة الحمل لزوجها).

وقد ولدت جميلة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا من حنظلة ولدًا سُمي عبد الله، فكان بنوه يقال لهم: بنو غسيل الملائكة.

- **التزام الرماة:**

التزم الرماة - بقيادة عبد الله بن جبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - أمر رسول الله ﷺ، فلم يبرحوا مكانهم بأصل الجبل. فكان لالتزامهم هذا أثر كبير في أن تدور رحى الحرب لصالح المسلمين، فقد حاول خالد بن الوليد وفرسان قريش ثلاث مرات أن يتسربوا إلى ظهور المسلمين لينزلوا بهم الهزيمة، ولكن الرماة كانوا في كل مرة يرشقونهم بالنبل، فتفشل المحاولة، فظل الجيش الإسلامي مسيطرًا على ميدان المعركة.

- **﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾:**

أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، وقذف في قلوب أعدائهم الرعب، فأخذ المسلمون يحسونهم (يقتلونهم)، ويستأصلون شأفتهم، بعد أن خارت عزائمهم وتبددت صفوفهم، وولولت نساؤهم، وأخذن يشتددن في الجبل هربًا، وقد رفعن سوقهن، فبدت خلاخيلهن .. قال الزبير بن العوام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم (جمع خدمة وهي الخلاخيل) هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون

---

(1) المغازي للواقدي (1/ 273).

أخذهن قليل ولا كثير (أي: يمكن أخذهن بسهولة). فأضحت هزيمة المشركين واقعًا، فتبعهم المسلمون يقتلون ويغنمون. وقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أنه قال: ما نصر الله في موطن كما نصر يوم أحد، قال عبيد الله: فأنكرنا ذلك، فقال (ابن عباس): بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أحد: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ [آل عمران: 152]، يقول ابن عباس: والحس: القتل.

المبحث الثاني: الرماة يخالفون أمر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

- ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [آل عمران: 151].

قال الشيخ الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ:

قد يجد المرء نفسه في حفل يموج بالأنوار، وتنتشر في أجوائه الأشعة المبصرة، ثم يقع خلل مفاجئ يقطع التيار، فإذا المصابيح تعتم، ثم يسود المكان ظلام موحش سقيم!.

إن هذا مثل التحول المستنكر الذي قلب سير الحوادث في معركة (أحد).

لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنساني، عرضت لفريق من الجند، فأوقعت الارتباك في صفوف الجيش كله، فضاعت كل المكاسب التي أحرزتها الشجاعة النادرة، والتضحية البالغة!

لقد عَلِمْتَ كيف شدد الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الرماة أن يلزموا أماكنهم؛ صيانة لمؤخرة المسلمين، وأوصاهم ألا يبرحوها أبدًا، ولو رأوا الجيش تتخطفه الطير؟! غير أن أثارة من حب الدنيا عصفت بهذه الوصاة في ساعة غفلة!! فما إن رأى الرماة الهزيمة حلت بقريش والنساء يهمن في الجبل، والرجال يولون الأدبار، والغنائم التي خلفها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادي، حتى غادروا مواقعهم، هابطين إلى الميدان؛ يبغون انتهاب أنصبتهم من الأسلاب والأموال!!.

ويقول المقريزي:

(ولكن المسلمين أُوتوا من قبل الرماة؛ فإن المشركين لما انهزموا وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا، ووقعوا ينتهبون عسكرهم، قال بعض الرماة لبعض: لم تقيمون ها هنا في غير شيء؟! قد هزم الله العدو، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم! فادخلوا عسكر المشركين، فاغنموا مع إخوانكم. فقال بعضهم: ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم: احموا ظهورنا، ولا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن غنمنا فلا تشركونا .. احموا ظهورنا؟ فقال الآخرون: لم يرد رسول الله هذا، وانطلقوا، فلم يبق منهم مع أميرهم عبد الله بن جبير إلا دون العشرة، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون)(1).

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152].

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على هذه الآية: (وهو تقرير لحال الرماة، وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة، ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله ﷺ، وانتهى الأمر إلى العصيان، بعدما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذي يحبونه، فكانوا فريقين: فريقًا يريد غنيمة الدنيا، وفريقًا يريد ثواب الآخرة. وتوزعت القلوب، فلم يعد الصف وحْدَة، ولم يعد الهدف واحدًا، وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذي لابد منه في معركة العقيدة .. فمعركة العقيدة ليست ككل معركة؛ إنها معركة في الميدان، ومعركة في الضمير .. ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصار في معكرة الضمير .. إنها معركة الله، فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم لله .. وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها، فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذا محصهم ومحضهم للراية التي رفعوها؛ كي لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية. ولقد يغلب

---

(1) إمتاع الأسماع، ج1، ص 127- 128.

المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة في بعض المعارك - لحكمة يعلمها الله - أما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها إخلاص التجرد، فلا يمنحهم الله النصر أبدًا، حتى يبتليهم؛ فيتمحصوا ويتمحضوا .. وهذا ما أراد الله - سبحانه - أن يعلمه للجماعة المسلمة، وهي تتلقى الهزيمة المريرة، والقرح الأليم ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[آل عمران: 152]. والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم .. عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ما كنت أرى أن أحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد الدنيا، حتى نزل فينا يوم أحد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[آل عمران: 152][1].

- تطويق جيش المسلمين:

قال المقريزي:

(وكانت الريح أول النهار صبا[2]، فصارت دبورًا[3]، وبينا المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم، إذ دخلت الخيل تنادي فرسانها بشعارهم: (يا للعزى، يا لهبل) ووضعوا في المسلمين السيوف وهم آمنون، وكل منهم في يديه أو في حضنه شيء قد أخذه، فقتلوا فيهم قتلًا ذريعًا، وتفرق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا، وخلوا من أسروا. وكسر خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل في الخيل إلى موضع الرماة، فرماهم عبد الله ابن جبير بمن معه حتى قُتل، فجردوه ومُثِّل به أقبح المثل، وكانت الرماح قد شرعت في بطنه حتى خرقت ما بين سرته إلى خاصرته إلى عانته وخرجت حشوته، وجرح عامة من كان معه، وانتقضت صفوف المسلمين).

---

(1) في ظلال القرآن، سورة آل عمران، ص 106- 108.

(2) **الصبا:** ريح تهب من المشرق.

(3) **الدبور:** ريح تهب من المغرب.

واندفعت قريش كالسيل الآتي إلى معسكر المسلمين، وصار المسلمون بين نارين، وهنالك دارت الدائرة على المسلمين، ووقع الاضطراب في صفوفهم، وصار كل واحد يلقي بما في يده من مغنم، وعاد إلى سيفه يسله ليقاتل به، ولكن هيهات هيهات .. لقد تفرقت الصفوف، وتمزقت الوحدة، وابتلع البحر اللجي من جيش قريش هذه الفئة القليلة من المسلمين.

لقد كانوا منذ ساعة يقاتلون بوحي من إيمانهم، ودفاعًا عن عقيدتهم، وها هم الساعة يقاتلون لينجوا من براثن الموت، ويفلتوا من ذل الأسر، وكانوا يقاتلون متراصين متضامنين، وهم الآن يقاتلون مبعثرين مفرقين، لا نظام يجمعهم ولا وحدة تشملهم، وكانوا يقاتلون تحت قيادة حكيمة حازمة، وهم الآن يقاتلون ولا قيادة لهم[1].

- **(إن محمداً قد قتل):**

وحمل ابن قمئة على مصعب بن عمير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ حيث كان شديد الشبه برسول الله ﷺ، فقتله، فقال لقريش: قد قتلت محمدًا، وشاع أن محمدًا قد قتل، فتفرق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل، واختلطت على الصحابة أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة، ففر جمع من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتال، وآثر آخرون الشهادة بعد أن ظنوا أن رسول الله ﷺ قد مات[2].

وفي هؤلاء وأمثالهم[3] نزل قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]. أما أولئك الذين فروا، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 195.

(2) السيرة للصلابي، ص 485.

(3) الصلابي: السيرة النبوية، ص 485.

يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ [آل عمران].

- **لواء المسلمين:**

حمل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لواء المسلمين بأمر من رسول الله ﷺ بعد مقتل مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقاتل عليٌّ دونه قتالًا شديدًا هو ومن انحاز إليه من أصحاب رسول الله ﷺ، فلم يسقط لواء المسلمين.

- **(إليَّ عباد الله .. إليَّ عباد الله):**

وكان رسول الله ﷺ في مؤخرة جيشه في تسعة نفر من أصحابه (سبعة منهم من الأنصار)، يرقب مطاردة المسلمين للمشركين، فبوغت بخالد بن الوليد وفرسان قريش، فكان أمامه طريقان: إما أن ينجو بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد، فاختار رسول الله ﷺ الأخيرة، فرفع صوته ينادي أصحابه: (إليّ عباد الله .. إليّ عباد الله)، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطرًا بنفسه في هذا الظرف الدقيق(1).

قال ابن جرير في (تاريخه): تفرق أصحاب رسول الله ﷺ، فدخل بعضهم المدينة، وانطلق طائفة فوق الجبل إلى صخرة، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس: (إليَّ عباد الله). وكان قد فشا في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل، حتى أن بعض أصحاب الصخرة قال: ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أبي، فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان (أي يُؤَمِّنا من أبي سفيان)، يا قوم إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

(1) **انظر:** الرحيق المختوم، للمباركفوري، ص 238.

فقال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ، اللّٰهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء (يقصد أصحابه)، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (يقصد المشركين)، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل.

وانطلق رسول الله ﷺ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه وضع رجل سهمًا في قوسه يرميه (أي يرمي رسول الله ﷺ)، فقال: «أنا رسول الله»، ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله ﷺ، وفرح رسول الله ﷺ حين رأى أن في أصحابه من يمتنع به.

فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ﷺ، ذهب عنهم الحزن، فأقبلوا يذكرون الفتح، وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا، فقال الله عز وجل في الذين قالوا «إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى قومكم»: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]. فأقبل أبو سفيان حتى أشرف عليهم، فلما نظروا إليه نسوا ذلك الذي كانوا عليه.

فقال رسول الله ﷺ: «ليس لهم أن يعلونا، اللّٰهم إن تقتل هذه العصابة لا تعبد في الأرض»، ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم(1).

- قتال المسلمين بعضهم بعضًا:

رجعت طائفة أخرى من المسلمين فاختلطت بالمشركين، والتبس العسكران فلم يتميزا، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض. روى البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لما كان يوم أحد هُزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أي عباد الله أخراكم، أي احترزوا من ورائكم. فرجعت أولاهم فاجتلدت (اقتتلت) هي وأخراهم، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان (يضربه المسلمون بسيوفهم)، فقال: أي عباد الله أبي أبي. قالت: فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم(2).

---

(1) البداية والنهاية 4/ 26.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 238.

قال المقريزي: ونادى إبليس عند جبل عينين، وقد تصور في صورة جعال بن سراقة: إن محمدًا قد قُتل، ثلاث صرخات؛ فما كانت دولة أسرع من دولة المشركين. واختلط المسلمون وصاروا يقتلون، ويضرب بعضهم بعضًا، ما يشعرون من العجلة والدهش، وجرح أسيد بن حضير جرحين، ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار وما يدري؛ وضرب أبو زعنة أبا بردة ضربتين وما يشعر، والتقت أسياف المسلمين على اليمان وهم لا يعرفونه حين اختلطوا، وحذيفة يقول: أبي! أبي! حتى قتل. فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. فزادته عند رسول الله ﷺ خيرًا (أي: مكانة)، وأمر رسول الله بديته أن تُخرج، فتصدق حذيفة بن اليمان بديته على المسلمين.

وأقبل الحباب بن المنذر بن الجموح يصيح: يا آل سلمة!! فأقبلوا إليه عُنُقًا واحدة: لبيك داعي الله! فيضرب يومئذ جبار بن صخر في رأسه وما يدري، حتى أظهروا الشعار بينهم، فجعلوا يصيحون: أمت أمت، فكف بعضهم عن بعض.

- **المشركون ورسول الله ﷺ:**

قال المقريزي: (... وصار أبو سفيان بن حرب يقول: يا معشر قريش أيكم قتل محمدًا؟، فقال ابن قمئة: أنا قتلته! قال: نسوِّرك[1] كما تفعل الأعاجم بأبطالها. وجعل يطوف بأبي عامر الفاسق في المعرك، هل يرى محمدًا؟ وتصفح القتلى، فقال: ما نرى مصرع محمد، كذب ابن قمئة. ولقي خالد بن الوليد، فقال: هل تبين عندك قتل محمد؟ قال: رأيته قبْلُ في نفر من أصحابه، مصعدين في الجبل. قال أبو سفيان: هذا حق. وجعل رسول الله ﷺ وقد انكشف الناس إلى الجبل وهم لا يلوون عليه، يقول: إليَّ يا فلان، إليَّ يا فلان، أنا رسول الله ﷺ! فما عرج واحد عليه .. هذا والنبل يأتيه ﷺ من كل ناحية، وهو في وسطها، والله يصرفها عنه.

(1) **نسوِّرك:** نلبسك الأساور كسواري كسرى.

وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا وتعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، وعرفهم المشركون بذلك، وهم عبد الله بن شهاب، وعتبة بن أبي وقاص، وعمرو بن قمئة وأبي بن خلف.

وكانت أحرج ساعة بالنسبة لحياة رسول الله ﷺ، وفرصة ذهبية بالنسبة للمشركين، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبي ﷺ، وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشقه (جنبه)، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكلمت (جرحت) شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب، فشجه في جبهته .. وجاء عبد الله بن قمئة، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين (على رسول الله ﷺ)، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر[1] في وجنته، وقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ له وهو يمسح الدم عن وجهه: أقمأك الله.

وفي الصحيح أنه ﷺ كسرت رباعيته، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله، فأنزل الله ﷻ، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾» [آل عمران][2].

وفي رواية الطبراني أنه قال يومئذ: «اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله»، ثم مكث ساعة ثم قال: «اللّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[3]. وكذا في صحيح مسلم أنه كان يقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[4]، وفي الشفاء للقاضي عياض أنه قال:

(1) غطاء للرأس.

(2) صحيح البخاري (2/ 582)، وصحيح مسلم (2/ 108).

(3) فتح الباري (7/ 373).

(4) صحيح مسلم، باب غزوة أحد (2/ 108).

«اللّٰهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[1][2].

- **مصير من أصاب رسول الله ﷺ:**

سمع الله دعاء رسوله ﷺ في عبد الله بن قمئة، فعن ابن عائذ: أن ابن قمئة انصرف إلى أهله (بعد معركة أحد) فخرج إلى غنمه، فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها، فشد عليه تيسها، فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع[3]. وعند الطبراني: فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة[4].

أما عتبة بن أبي وقاص - الذي رمى رسول الله ﷺ، فكسر رباعيته اليمنى والسفلى، وجرح شفته السفلى - فقد قال سعد بن أبي وقاص: ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة - يعني أخاه - ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على من دمَّى وجه رسول الله»، وقد دعا عليه الرسول ﷺ فما حال عليه الحول حتى مات كافرًا [5].

- **رجال حول الرسول ﷺ:**

روى مسلم أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما أرهقه المشركون، قال: من يردهم عني وله الجنة؟، فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، ثم أرهقوه، فقال: من يردهم عني وله الجنة؟، فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه (أي القرشيين): ما أنصفنا أصحابنا - يعني من فروا وتركوه. وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط. فقال رسول الله ﷺ: «ادنوه مني»، فأدنوه منه، فوسده قدمه، فمات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(1) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (1/ 81).
(2) **انظر:** الرحيق المختوم للمباركفوري، ص 240.
(3) فتح الباري (7/ 373).
(4) فتح الباري (7/ 366).
(5) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 199.

وخده على قدم رسول الله ﷺ، وبقي رسول الله ﷺ في صاحبيه القرشيين فقط، ففي الصحيحين عن أبي عثمان، قال: «لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص»[1].

وقام طلحة وسعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ببطولات نادرة بين يدي رسول الله ﷺ، فقاتلا ببسالة، ولم يتركا للمشركين سبيلًا له ﷺ، وكانا من أمهر مقاتلي العرب، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري عن قيس بن أبي حازم، قال: رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد. وروى البخاري أيضًا عن سعيد بن المسيب، قال: سمعت سعد بن أبي وقاص، يقول: نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد، وقال: «ارم فداك أبي وأمي»[2].

وفي صحيح البخاري أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد، إلا لسعد بن مالك (ابن أبي وقاص)، فإني سمعته يقول يوم أحد: «يا سعد، ارم فداك أبي وأمي»[3].

قال محمد بن إسحاق: حدثني صالح بن كيسان، عن بعض آل سعد، عن سعد بن أبي وقاص، أنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ.

قال سعد: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولني النبل ويقول: «ارم فداك أبي وأمي» حتى إنه ليناولني السهم ليس له نصل، فأرمي به.

وقاتل أبو طلحة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يدي رسول الله ﷺ؛ يفتديه بنحره وصدره وكل جسده.

---

(1) البخاري (3639)، ومسلم (6195).

(2) رقم (3967).

(3) رقم (3971).

وقد روى الإمام أحمد بسنده، أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي النبي ﷺ يوم أحد، والنبي ﷺ خلفه يترس به، وكان راميًا، وكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه؛ ينظر أين يقع سهمه، ويرفع أبو طلحة صدره، ويقول: هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك.

وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ، ويقول: إني جلد يا رسول الله، فوجهني في حوائجك، ومرني بما شئت.

وروى البخاري، عن أنس، قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي رسول الله ﷺ مجوّب عليه بجحفة له.

وكان أبو طلحة رجلًا راميًا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثًا، وكان الرجل (من المسلمين) يمر (هاربًا) معه الجعبة من النبل، فيقول رسول الله ﷺ: انثرها لأبي طلحة.

قال: ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف؛ يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك[1].

- سقوط النبي ﷺ في الحفرة:

كان عدد المشركين يتضاعف كل آن، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم، وزاد ضغطهم على المسلمين، حتى سقط رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها، فجحشت ركبته[2]، وأخذ عليٌّ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا، وقال نافع بن جبير: سمعت رجلًا من المهاجرين يقول: شهدت أحدًا، فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت

(1) البداية والنهاية 4/ 31.

(2) خدشت خدشًا شديدًا.

عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه (قد أعماه الله عنه)، ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله أنه منا ممنوع[1].

- **الصحابة في أول الجيش يهرعون لحماية النبي ﷺ:**

لم يكد الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا في مقدمة الجيش يرون تغير الموقف، أو يسمعون صوت رسول الله ﷺ ينادي: «إليَّ عباد الله» حتى أسرعوا إليه؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات، وستة من الأنصار قد قتلوا، والسابع قد أثبتته الجراحات، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح، فلما وصلوا أقاموا حوله سياجًا من أجسادهم وسلاحهم، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو، ورد هجماتهم. وكان أول من رجع إليه هو ثانيه في الغار أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة، قالت: قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ، فكنت أول من فاء (رجع) إلى النبي ﷺ، فرأيت بين يديه رجلًا يقاتل عنه ويحميه، قلت: كن طلحة، فداك أبي وأمي، كن طلحة، فداك أبي وأمي، فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقني، فدفعنا إلى النبي ﷺ، فإذا طلحة بين يديه صريعًا، فقال النبي ﷺ: «دونكم أخاكم؛ فقد أوجب (أي: وجبت له الجنة)»، وقد رُمي النبي ﷺ في وجنته، حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، فذهبت لأنزعهما عن النبي ﷺ، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني. قال: فأخذ بفيه، فجعل ينضضه؛ كراهية أن يؤذي رسول الله ﷺ، ثم استل السهم بفيه، فندرت ثنية أبي عبيدة، قال أبو بكر: ثم ذهبت لآخذ الآخر، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني، قال فأخذه فجعل ينضضه حتى استله،

---

(1) زاد المعاد (2/ 97)، والرحيق المختوم، ص 271.

فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى، ثم قال رسول الله ﷺ: «دونكم أخاكم، فقد أوجب»، قال: فأقبلنا على طلحة نعالجه. وقد أصابته بضع عشرة ضربة[1].

وخلال هذه اللحظات الحرجة، اجتمع حول النبي ﷺ عصابة من أبطال المسلمين، منهم أبو دجانة، وعلي بن أبي طالب، وسهل بن حنيف، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب بن أبي بلتعة، وسهل بن حنيف، وأبو طلحة[2].

- الملائكة تقاتل دفاعًا عن رسول الله ﷺ:

روى البخاري ومسلم في الصحيحين، عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد، وفي رواية يعني جبريل وميكائيل. وقد تقدم قول نافع بن جبير أنه سمع رجلًا من المهاجرين يقول: شهدت أحدًا فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها، كل ذلك يُصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله أنه منا ممنوع، فخرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك[3].

وهذا خاص بالدفاع عن النبي ﷺ؛ لأن الله تكفل بعصمته من الناس، ولم يصح أن الملائكة قاتلت في أحد سوى هذا القتال؛ وذلك لأن الله تعالى وعدهم أن يمدهم، وجعل وعده معلقًا على ثلاثة أمور: الصبر والتقوى وإتيان الأعداء من فورهم، ولم تتحقق هذه

---

(1) زاد المعاد (2/ 95).

(2) الرحيق المختوم، ص 272.

(3) زاد المعاد 2/ 97.

الأمور، فلم يحصل الإمداد[1]، قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران].

المبحث الثالث: قدوات المقاتلين

قاتل أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد قتالًا عظيمًا، لم يسجل التاريخ مثله. فكانوا رضي الله عنهم في ذلك قدوات للأمة من بعدهم (وقد ذكرنا ما كان من بعضهم فيما تقدم). وأول من يقتدى به في ذلك الأمر - وفي كل أمر - رسول الله ﷺ.

- رسول الله ﷺ لا يشبهه أحد:

أقبل أُبيّ بن خلف يركض فرسه، فجعل يصيح بأعلى صوته، يا محمد، لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله! ما كنت صانعًا حين يغشاك، فقد جاءك! وإن شئت عطف عليه بعضنا، فأبى ﷺ، ودنا أُبيّ، فتناول النبي ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة (ويقال الزبير بن العوام)، ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير، فتطاير عنه أصحابه - ولم يكن أحد يشبه رسول الله ﷺ إذا جد الجد - ثم أخذ الحربة فطعنه بها في عنقه وهو على فرسه، فجعل يخور كما يخور الثور، ويقول له أصحابه: أبا عامر! والله ما بك من بأس، ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ما ضره (أي: أن إصابتك بسيطة)! فيقول: لا واللات والعزى، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، أليس قال لأقتلنك[2].

---

(1) السيرة للصلابي، ص 523.

(2) المنهج الحركي، أول ص 409؛ وابن هشام، ج4، ص 60، بعنوان: ما تحقق من وعده ﷺ أبي بن خلف، وما قاله حسان في مقتل أبي بن خلف، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله»، وفي رواية البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «اشتد غضب الله على من قتله رسول الله بيده في سبيل الله».

- **أم عمارة (قتال يعجز عنه الرجال):**

كانت معركة أحد هي أول معركة قاتلت فيها المرأة المسلمة في الإسلام، وكانت هذه المرأة هي أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، خرجت يوم أحد؛ لتنظر ما يصنع الناس لتقوم بما يمكنها القيام به؛ كإغاثة الجرحى بالماء، وما شابه ذلك، وكان زوجها زيد بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وابنيها حبيب وعبد الله من الجند الذين قاتلوا في المعركة، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ، تذب عنه بالسيف وترمي بالقوس، حتى خلصت الجراحات إليها، فجرحت يومئذ ثلاثة عشر جرحًا؛ فقد تلقت عنه ﷺ الطعنات، وجعلت من نحرها درعًا دون نحره ﷺ، فمضت تقيه وتفديه، وتناجز العدو، فلا تعبأ بما يصيب جسدها من جراح، وما ينال صدرها من سهام، ولما أصيب ابنها عبد الله راحت تضمده، وتحثه على مواصلة القتال، وتقول: انهض بني، وضارب القوم، فجعل النبي ﷺ يعجب لها، ويقول: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟!».

وفي رواية عن أم سعيد بنت سعد بن الربيع، تقول: دخلت عليها، فقلت: حدثيني خبرك يوم أحد. قالت: خرجت أول النهار إلى أحد، وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء. فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين. فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال، وأذب عن رسول الله بالسيف، وأرمي بالقوس، حتى خلصت إليَّ الجراح. قالت (أم سعد): فرأيت على عاتقها جرحًا له غور أجوف، فقلت: يا أم عمارة من أصابك هذا؟ قالت: أقبل إليَّ ابن قمئة، وقد ولى الناس عن رسول الله ﷺ، وهو يصيح دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا، فاعترض له مصعب بن عمير، وناس معه، فكنت فيهم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان.

وقالت أم عمارة: قد رأيتني وقد انكشف الناس عن رسول الله ﷺ، فما بقي إلا في نفير ما يتمون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه، نذب عنه، والناس يمرون به منهزمين، ورآني لا ترس معي. فرأى رجلًا موليًا معه ترس، فقال لصاحب الترس: ألق ترسك إلى

من يقاتل .. فألقى ترسه، فأخذته، فجعلت أترس به عن رسول الله ﷺ، فأقبل رجل على فرس فضربني، وتترست له، فلم يصنع سيفه شيئًا، وولى، وأضرب عرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النبي ﷺ يصيح يا ابن أم عمارة، أمك، قالت: فعاونني عليه حتى أوردته شعوب[1].

وكان ضمرة بن سعيد المازني يحدث عن جدته، وكانت قد شهدت أحدًا تسقي الماء، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان، وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحًا. وكانت تقول (جدة ضمرة): إني لأنظر إلى ابن قمئة وهو يضربها على عاتقها، وكان أعظم جراحها، فداوته سنة. ثم نادى منادي رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، فشدت عليها بثيابها، فما استطاعت من نزف الدم! ولقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح حتى أصبحنا. فلما رجع رسول الله ﷺ من الحمراء، ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها، فسر بذلك النبي ﷺ[2].

عن عبد الله بن زيد (ابن نسيبة بنت كعب)، قال: جرحت يومئذ (يوم أحد) جرحًا في عضدي اليسرى، وضربني رجل كأنه الرفل (النخلة الطويلة)، ولم يعرج علي ومضى عني، وجعل الدم لا يرقأ، فقال رسول الله ﷺ: اعصب جرحك، فتقبل أمي إليَّ، ومعها عصائب في حقويها قد أعدتها للجراح، فربطت جرحي، والنبي واقف ينظر إليَّ، ثم قالت: انهض يا بني فضارب القوم!! فجعل النبي ﷺ يقول: «من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة[3]؟!».

---

(1) **شعوب:** اسم من أسماء المنية.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد/ 413.

(3) المنهج الحركي، ص 385.

قالت أم عمارة: وأقبل الرجل الذي ضرب ابني، فقال رسول الله ﷺ هذا ضارب ابنك. قالت: فأعترض له، فأضرب ساقه، فبرك. قالت: فرأيت رسول الله ﷺ يتبسم حتى رأيت نواجذه، وقال: استقدت (ثأرت) يا أم عمارة. ثم أقبلنا نَعْلُه بالسلاح حتى أتينا على نفسه، فقال النبي ﷺ: الحمد لله الذي ظفرك، وأقر عينك من عدوك، وأراك ثأرك بعينك(1).

- الحباب بن المنذر والعصابة الخضراء:

قال المقريزي: وكان الحباب بن المنذر يحوش المشركين كما تحاش الغنم، واشتملوا عليه حتى قيل قد قتل، ثم برز والسيف في يده، وافترقوا عنه، وجعل يحمل على فرقة منهم، وإنهم ليهربون منه، وكان يومئذ معلمًا بعصابة خضراء(2).

- سهل بن حنيف الصادق في القتال:

ثبت سهل بن حنيف الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله ﷺ، وبايعه على الموت، وجعل ينضح بالنبل بين يديه، ورسول الله ﷺ يقول للناس: نبلوا سهلًا فإنه سهل(3). وصدق سهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في القتال، فشهد له رسول الله ﷺ بذلك حين انتهى إلى بيته وعاد إلى أهله في المدينة، فناول سيفه ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال: «اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني اليوم»، فناولها علي بن أبي طالب، فقال: «وهذا أيضًا فاغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم»، فقال رسول الله ﷺ: «لئن كنت صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة» (4).

---

(1) إمتاع الأسماع للمقريزي 1/ 138، ثم ص 391 رقم 1.

(2) إمتاع الأسماع 1/ 143.

(3) المغازي للواقدي، ص 253.

(4) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 252، وروى مثله الحاكم، والطبراني، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

- عبد الرحمن بن عوف والجراحات العشرون:

جرح عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومئذ إحدى وعشرين جراحة ... جرح في رجله فكان يعرج بها، وسقطت ثنيتاه فكان أهتم. **قال ابن إسحاق:** (... كان ساقط الثنيتين، أهتم، أعسر، أعرج، كان أصيب يوم أحد فهتم، وجرح عشرين جراحة بعضها في رجله فعرج.

- علي بن أبي طالب وسط المشركين:

قال المقريزي: وكان علي بن أبي طالب يذب عن رسول الله ﷺ من ناحية، وأبو دجانة من ناحية، وسعد بن أبي وقاص يذب طائفة، وانفرد عليٌّ بفرقة فيها عكرمة بن أبي جهل، فدخل وسطهم بالسيف، فضرب به وقد اشتملوا عليه، حتى أمضى إلى آخرهم، ثم كر فيهم ثانيًا حتى رجع من حيث جاء[1].

المبحث الرابع: كسر الحصار والانسحاب إلى شعب الجبل

فاء إلى رسول الله ﷺ الكثيرون من أصحابه، ممن تفرقوا يقاتلون بين الصفوف، وممن أذهلتهم شائعة قتله ﷺ، فقعدوا عن القتال، وكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد شائعة قتله كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما روى ابن إسحاق، فقال: وكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة وقول الناس: قُتل رسول الله ﷺ - كما ذكر لي ابن شهاب الزهري - كعب بن مالك، قال: عرفت عينيه تزهران من المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليَّ رسول الله ﷺ: أن أنصت وكان في إشارته ﷺ لكعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حكمة بالغة، فشائعة قتله ﷺ من شأنها أن تخفف وطأة المشركين، فإذا ما علموا أنه ﷺ حي عاودوا الكرة على المسلمين، وكرروا محاولة قتل النبي ﷺ.

(1) إمتاع الأسماع 1/ 143.

ولكن لم يلبث الخبر أن ذاع وانتشر بين المسلمين، فقويت عزائمهم، وتجمعت صفوفهم من جديد، فوجد رسول الله ﷺ من أصحابه من يشق بهم الطريق إلى جيشه المطوق، فأخذ في الانسحاب إلى شعب من شعاب جبل أحد. **قال ابن إسحاق:** فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ، نهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب، معه أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام رضي الله عنهم، والحارث بن الصمة، ورهط من المسلمين.

وأخذ المشركون من جانبهم يشتدون في هجومهم؛ لعرقلة انسحاب النبي ﷺ ومن معه، فتقدم عثمان بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ وهو يصيح من فوق فرسه: لا نجوت إن نجا، فقام له رسول الله ﷺ، إلا أن فرس عثمان عثرت في بعض الحفر، فنازله الحارث ابن الصمة رضي الله عنه، فقتله وأخذ سلبه، فأعطاه لرسول ﷺ، فأعطاه رسول الله السلب، ولم يعط السلب يومئذ أحدٌ غيره. فعطف عبد الله بن جابر على الحارث بن الصمة، فضربه بالسيف على عاتقه فجرحه، فحمله المسلمون، وانقض أبو دجانة على عبد الله بن جابر فقتله.

واستطاع رسول الله ﷺ أن يشق بمن معه طريقًا إلى شعب الجبل، وتلاحق به جيش المسلمين، فصاروا في مأمن من المشركين.

قال ابن هشام: فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب، حتى ملأ درقته ماء (الدرقة: ترس من جلد) من المهراس (حجر مجوف، وقيل: اسم ماء بأحد)، فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحًا، فعافه فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: «اشتد غضب الله على من دمَّى وجه نبيه».

- عمر يصعد الجبل لقتال قريش:

قال ابن إسحاق: فبينا رسول الله ﷺ بالشعب، معه أولئك النفر من الصحابة، إذ علت عالية من قريش الجبل. قال ابن هشام: كان على تلك الخيل خالد بن الوليد، فقال

رسول الله ﷺ: «اللّهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا»، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل.

- **أوجب طلحة:**

قال ابن إسحاق: ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة من الجبل ليعلوها، وقد كان رسول الله ﷺ بدن (زائد الوزن)، وظاهر بين درعين (أي يلبس درعين)، فلما ذهب لينهض ﷺ لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به، حتى استوى عليها، فقال رسول الله ﷺ: «أوجب طلحة»، أي وجبت له الجنة.

- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾:

وأثناء هذا القتال المرير أنزل الله تعالى النعاس على المؤمنين، الذي اغتموا بما وقع لرسول الله ﷺ وإخوانهم، فناموا يسيرًا، ثم أفاقوا وقد ذهب الخوف عنهم، وسكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، وعاد إليهم بعض نشاطهم؛ ليواصلوا جهادهم والدفاع عن نبيهم.

روى الترمذي والنسائي عن أبي طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: رفعت رأسي يوم أحد، وجعلت أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت جحفته[1] من النعاس[2].

وفي رواية أخرى عن أبي طلحة: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه»[3].

وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران:154]. وقد اختص الله بهذا الفضل أولئك الذين صدقوا وجاهدوا وصبروا (فسكب في قلوبهم السكينة والأمن إلى درجة لا يكاد يصدقها العقل، لولا أنها جاءت في

---

(1) **الجحفة:** ترس من جلد.

(2) الترمذي (3102)، والنسائي (11093).

(3) البخاري، الفتح (242/15، حديث 4068).

كتاب الله وسيرة رسوله؛ ذلك أن الأمن قد بلغ حد النعاس في قلب المعركة، والسيوف كالصواعق تنصب من كل جانب، والنبال تنهمر كالمطر، وخيل المشركين تقتحم الصفوف)[1].

أما طائفة المنافقين، سواء التي انسحبت مع ابن سلول أو فلولهم التي سارت مع المؤمنين، فقد قال الله عنهم في الآية نفسها[2]: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران].

لن ينالوا منا مثلها حتى تستلموا الركن:

كان رسول الله ﷺ دائمًا في المحنة رجلها الأول، وبكلمات قلائل ينفخ في جيشه روح الاستبسال والجهاد، ويتحدث عن النصر في أحرج اللحظات وأشدها هولًا، حين يفقد الناس أملهم بالنصر.

قال المقريزي: خرج محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطلب مع النساء ماءً، وكان رسول الله ﷺ قد عطش عطشًا شديدًا، فذهب محمد بن مسلمة إلى قناةٍ حتى استقى من حس (رمل متراكم أسفله صخر صلد ينبع منه ماء عذب)، فأتى بماء عذب فشرب رسول الله ﷺ، ودعا له بخير، وجعل الدم لا ينقطع من وجه رسول الله ﷺ، وجعل النبي ﷺ يقول: «لن ينالوا منا مثلها حتى تستلموا الركن»[3] أي: لن ينتصروا علينا بعد ذلك أبدًا حتى ندخل مكة فاتحين. وهذا يعني أن النصر قادم لا محالة له بإذن الله، والنصر لهذه العصبة بالذات التي تدخل مكة وتستلم ركن الكعبة المشرفة [4].

(1) الغضبان: المنهج الحركي، ص 326.

(2) د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص 395.

(3) إمتاع الأسماع 138/1.

(4) الغضبان: المنهج الحركي، ص 344.

أبو دجانة .. يبقى يقاتل حين يتوقف الجميع:

روى ابن إسحاق، أن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** كنت فيمن خرج من المسلمين، فلما رأيت مُثَلَ المشركين بقتلى المسلمين (أي تمثيلهم بجثثهم بعد القتال)، قمت فتجاوزت، فإذا رجل من المشركين جمع اللأمة (أدوات الحرب كلها من رمح وسيف ودرع) يجوز المسلمين وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم (أي استوسقوا من ذبحهم)، قال: إذ رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته، فمضيت حتى كنت من ورائه، ثم قمت أقدر (أرقب) المسلم والكافر ببصري، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيأة. قال: فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف فبلغت وركه، وتفرق فرقتين، ثم كشف المسلم وجهه، وقال: كيف ترى يا كعب، أنا أبو دجانة[1].

نساء المشركين:

انطلقت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي كن معها إلى قتلى المسلمين، يمثلن بهم بحقد وغيظ وشراسة، فصرن يجدعن الآذان والأنوف، ويبقرن البطون، حتى إن هندًا بقرت عن كبد سيد الشهداء حمزة، فلاكتها (مضغتها)، فلم تستطع أن تسيغها (تبتلعها)، فلفظتها. وبالغن في التمثيل بالشهداء، ونسين صنع الرسول والمسلمين في قتلاهم ببدر؛ حيث أمر بدفنهم، ولم يتركهم للسباع والطير، فضلًا أن يمثّلوا بأحد منهم .. فشتان ما بين الصنيعين!!

وصنعت هند من الآذان والأنوف خلاخيل وأقراطًا وقلائد، وأعطت وحشيًّا قلائدها وخلاخيلها وأقراطها القديمة؛ مكافأة له على جريمته النكراء، بل بلغ الأمر بأبي سفيان ابن حرب أن صار يضرب في شدق سيد الشهداء حمزة بزج الرمح، ويقول: ذُقْ عُقَق – يعني يا عاق – فمرَّ عليه الحُلَيس بن زبان سيد الأحابيش يومئذ وهو يفعل ذلك، فقال: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحمًا؟![2]، فقال أبو سفيان: ويحك اكتمها

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية 19/4.

(2) **لحمًا:** يعني ميتًا لا يقدر على الانتصار لنفسه.

علي؛ فإنها كانت زلة[1].

قال ابن إسحاق: ثم علت هند على صخرة مشرفة، فصرخت بأعلى صوتها، فقالت:

نحـــن جزينـــاكم بيـــوم بـــدر ... والحـــرب بعـــد الحـــرب ذات ســـعر

مـــا كـــان لي مـــن عتبـــة مـــن صـــبر ... ولا أخـــي وعمـــه وبكـــر

شـــفيت نفـــسي وقـــضيت نـــذري ... شـــفيت وحـــشي غليـــل صـــدري

فـــشكر وحـــشي عـــليّ عَمـــري ... حتـــى تـــرم أعظمـــي في قـــبري

نساء المسلمين:

رافقت بعض النسوة جيش المسلمين إلى ساحة القتال. وقيل: كن أربع عشرة امرأة، منهن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعائشة أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وأم سليم بنت ملحان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وحمنة بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وأم أيمن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فكن يحملن الطعام على ظهورهن، ويسقين العطشى، ويحملن على ظهورهن القرب.

روى الشيخان في صحيحيهما عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم (يعني أمه) وإنهما لمشمرتان، أرى خدم (خلخال) سوقهما، تنقزان (تسرعان المشي)، القرب على متونهما (ظهورهما)، تفرغان في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم[2].

وجاء في الكامل لابن الأثير: أن أم أيمن كانت تسقي الجرحى في الجيش، فرماها حبان بن العرقة بسهم، فوقعت وانكشفت، فأغرق عدو الله في الضحك، فدفع رسول الله ﷺ إلى سعد بن أبي وقاص سهمًا لا نصل له (النصل: حديدة السهم)، وقال: ارم به، فرمى به، فوقع السهم في نحر حبان المشرك، فوقع مستلقيًا حتى تكشف، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: استقاد (ثأر) لها سعد، أجاب الله دعوته[3].

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 207.

(2) البخاري، الفتح (15/238-239، حديث 4064، ومسلم (3/1443، حديث 1811).

(3) وقد أورده المقريزي في إمتاع الأسماع 1/133.

وكانت أم أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالمدينة يوم أحد، فلما رأت فلول المسلمين الفارين من القتال، أخذت تحثو التراب في وجوهم، وتقول لبعضهم: هاك المغزل وهلم سيفك (أي خذ المغزل فاعمل عمل النساء وهات سيفك أقاتل عنك)، ثم سارعت إلى ساحة القتال[1].

ومنهن أيضًا أم سليط بنت عبيد بن زياد الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد روى البخاري بسنده، أن عمر بن الخطاب (في زمن خلافته) قسم مروطًا (جمع مرط: وهو كساء من صوف أو حرير تتلفع به المرأة) بين نساء من نساء المدينة، فبقي منها مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين، أعط هذا بنت رسول الله التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت علي - فقال عمر: أم سليط أحق به منها، قال عمر: فإنها كانت تزفر (تحمل) لنا القرب يوم أحد[2].

مداواة النبي ﷺ:

استقر رسول الله ﷺ بالشعب، وقد دمي وجهه الشريف، فجعل الدم يسيل على وجهه، وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم؟!»، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) ﴾ [آل عمران].

روى الإمام مسلم بسنده عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال يوم أحد وهو يسلت الدم عن وجهه: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وأدموا وجهه؟!»، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران:128].

قال القرطبي: فلما نزلت هذه الآية، علم أن منهم من سيسلم، وقد آمن منهم كثير، منهم: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم [3].

(1) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري، ص 247.
(2) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ذكر أم سليط (3843).
(3) تفسير القرطبي، ج4، ص 188.

وذكر الطبراني أنه لما انصرف المشركون خرج نساء الصحابة لتقديم العون لهم، فكانت فاطمة فيمن خرج. فلما لقيت النبي ﷺ اعتنقته، وجعلت تغسل جراحاته بالماء فيزداد الدم، فلما رأت ذلك أخذت شيئًا من حصير، فأحرقته بالنار وكمدته به حتى لصق الجرح، فاستمسك الدم(1).

وعالج أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كما ذكرنا - إخراج حلقتي المغفر من وجه رسول الله ﷺ، وكره تناولهما بيده فيؤذي الرسول ﷺ، فأزّم على إحدى الحلقتين بفمه فاستخرجها، وقد سقطت ثنيته معها، ثم أزّم على الأخرى فاستخرجها، فوقعت الثنية الأخرى، فكان أبو عبيدة لذلك من أحسن الناس هتمًا.

ومص مالك بن سنان - والد أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - الدم عن وجه رسول الله ﷺ، ثم ازدرده (ابتلعه)، فقال رسول الله ﷺ: «من مس دمي دمه لم تصبه النار» (2).

الله أعلى وأجل:

كان النبي ﷺ - كما ذكرنا - قد ارتقى الصخرة في سفح أحد، حيث يوجد أصحابه، فجاء أبو سفيان يحاول الوصول إلى الصخرة، وقد طمع أن يجعل المعركة حاسمة قاصمة، فرده المسلمون ومن معه خاسئًا مدحورًا، فعلم أن دون إفنائهم صعاب لا قِبل له بها، فاكتفى مما ظفر بالإياب، وقبل أن ينصرف أشرف على الجبل - كما روى البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقال: (أفي القوم محمد؟، فقال ﷺ: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه، قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال (أبو سفيان): إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يحزنك، قال أبو سفيان: اعلُ هبل، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال:

---

(1) سمط النجوم العوالي 2/88.

(2) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، ص 199-200.

قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. وتجدون مُثْلَة (أي: تمثيل بجثث قتلاكم) لم آمر بها ولم تسؤني[1]، وفي رواية عند أحمد[2] وابن إسحاق[3]، قال عمر: لا سواء؛ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار)[4].

وفي رواية لابن إسحاق قال: (... فقال له أبو سفيان: هلم إليَّ يا عمر، فقال رسول الله ﷺ لعمر: (ائته فانظر ما شأنه)، فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدًا؟

فقال عمر: اللّهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن.

قال: أنت عندي أصدق من ابن قمئة (الذي ادعى قتل النبي) وأبر.

قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: (قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد)[5].

اخرج في آثار القوم:

قال ابن إسحاق: ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: «اخرج في آثار القوم، وانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم».

قال علي: فخرجت في أثرهم؛ أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة [6].

---

(1) البخاري، الفتح (227/15-228، حديث 4043).

(2) المسند (209/4، 181/6) بإسناد حسن.

(3) ابن هشام (136/3).

(4) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 396.

(5) البداية والنهاية 43/3

(6) المصدر السابق 43/4.

المبحث الخامس: شهداء أحد

سارت خطى أصحاب رسول الله ﷺ الكرام حثيثةً في طلب الشهادة، فانطلقوا إلى أحد، متجردين من الأعراض والأغراض، تتجاوز مشاعرهم وتصوراتهم نطاق هذه الحياة العاجلة الزائلة التي جعلوها زادًا للآخرة، يفدون به على ربهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة]، فمنَّ الله على سبعين منهم بالشهادة والمكانة، فأضافوا إلى فضل صحبتهم لرسول الله ﷺ، وفضل حمل الرسالة في مهدها، والاغتراب بالعقيدة والصبر والمصابرة على البيان والبلاغ، وفضل الإنفاق والقتال في سبيل الله ومعاداة الأقربين والأبعدين من أصحاب الباطل؛ موالاة لله ورسوله، أضافوا إلى ذلك كله فضل الشهادة والمكانة الرفيعة عند الله عز وجل. روى ابن إسحاق، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش. فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب. فقال الله تبارك تعالى: فأنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله ﷻ على نبيه هذه الآيات: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران].

وروى مسلم بسنده عن مسروق، قال: سألنا عبد الله (وهو ابن مسعود) عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران] قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش،

تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطِّلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي! ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا»(1) .

وروى ابن إسحاق عن عبد الله بن محمد بن عقيل، قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: «ألا أبشرك يا جابر؟»، قال: قلت: بلى يا نبي الله، قال: «إن أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله عز وجل، ثم قال له: ما تحب يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك؟ قال: أي رب، أحب أن تردني إلى الدنيا فأقاتل فيك، فأقتل مرة أخرى».

وروى البيهقي عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما أجرى معاوية (في زمن خلافته) العين عند قتلى أحد بعد أربعين سنة استُصرِخنا إليهم، فأتيناهم، فأخرجناهم، فأصابت المسحاة (أداة للجرف) قدم حمزة، فانبعث دمًا. وفي رواية ابن إسحاق عن جابر، قال: فأخرجناهم كأنما دفنوا بالأمس.

وذكر الواقدي أن معاوية لما أراد أن يجري العين، نادى مناديه: من كان له قتيل بأحد فليشهد، (أي فليأتي)، قال جابر: فحفرنا عنهم، فوجدت أبي في قبره كأنما هو نائم على هيئته، ووجدنا جاره في قبره عمرو بن الجموح، ويده على جرحه، فأزيلت عنه، فانبعث جرحه دمًا، ويقال إنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وذلك بعد ست وأربعين سنة من يوم دفنوا.

وإليك نماذج من هؤلاء الذين كانوا ومازالوا وسيظلون مصابيح الهدى والنور للأمة في كل زمان ومكان (وقد ذكرنا آنفًا ما كان من حمزة وحنظلة وغيرهم):

عبد الله بن جحش .. المجدَّع في الله:

دعا عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم أحد أن يرزقه الله الشهادة، فقال لسعد بن أبي وقاص ألا تأتي فندعوا؟ قال سعد: فخلونا في ناحية، فدعا سعد، فقال: يا رب إذا لقينا

(1) مسلم، كتاب الإمارة، باب (أرواح الشهداء في الجنة)، (1887/3).

القوم غدًا فلقِّني رجلًا شديدًا حرده (أي قويًّا خبيرًا بالقتال)، أقاتله فيك، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه. قال: فأَمَّن عبد الله بن جحش، ثم قال عبد الله: اللّٰهم ارزقني رجلًا شديدًا حرده أقاتله فيك، حتى يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك قلت هذا فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت. قال سعد: فكانت دعوة عبد الله خيرًا من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار، وإن أنفه وأذنه لمعلق في خيط[1].

وفي رواية أنه قال في دعائه إذ ذاك: اللّٰهم إذا لاقوا هؤلاء غدًا فإني أقسم عليك لما يقتلوني ويبقروا بطني، ويجدعوني، فإذا قلت لي لم فعل بك هذا؟، فأقول: اللّٰهم فيك. فلما التقوا فعلوا ذلك به، وقال الرجل الذي سمعه: أما هذا فقد استجيب له، وأعطاه الله ما سأل في جسده في الدنيا، وأنا أرجو أن يعطى ما سأل في الآخرة[2].

فكان يقال عنه: المجدع في الله، وقد قتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق، ودفن هو وخاله حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قبر واحد، فأمه أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ، وكان له يوم قُتل نيف وأربعون سنة.

مصعب بن عمير .. حامل اللواء:

قال الواقدي: لما كانت غزوة أحد، سأل رسول الله ﷺ: «من يحمل لواء المشركين؟» قيل: بنو عبد الدار (وكانوا هم أصحاب اللواء في قريش كما ذكرنا في باب سابق)، قال: «نحن أحق بالوفاء منهم، أين مصعب بن عمير؟» (وكان من بني عبد الدار) قال: هاأنذا، قال: «خذ اللواء»، فأخذه مصعب بن عمير، فتقدم به بين يدي رسول الله ﷺ.

قال ابن عبد البر: ولم يختلف أهل السير أن راية رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم أحد كانت بيد مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

(1) ابن حجر، الإصابة 2/287.
(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى 3/90-91.
(3) الاستيعاب 3/412.

وقاتل مصعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أحد دون رسول الله ﷺ حتى قتل، قتله ابن قمئة الليثي وهو يظنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش، فقال: قتلت محمدًا. فلما قتل مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب ورجالًا من المسلمين[1]، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم قتل ابن أربعين سنة وأزيد شيئًا[2].

قال خباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله[3]، فمنا من مضى في سبيله ولم يأكل من أجره شيئًا (أي: لم ينل من الدنيا شيئًا)، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أُحد، ولم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «غطوا رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر»[4]، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها. ومن حديث عبد الرحمن بن عوف أنه أُتي بطعام وكان صائمًا، فقال: قتل مصعب بن عمير، وكان خيرًا مني، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه، إلا بردة. وقُتل حمزة أو رجل آخر خيرٌ مني، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه، إلا بردة ، لقد خشيت أن يكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي، ومن حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فائتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه.

ما وجدت لشماس بن عثمان شبيهًا إلا الجُنة:

كان عثمان بن عثمان بن الشريد المخزومي من أحسن الناس وجهًا، فسمي شماسًا لوضاءته.

---

(1) الذهبي: السير 1/148.

(2) الصلابي، ص 491، 492.

(3) محمد بن عبد الله بن عبد القادر غبان: شهداء أحد الذين ذكرهم ابن إسحاق في مغازيه، ص 389.

(4) **الإذخر:** نوع من العشب.

شهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدرًا وأحدًا، وكان رسول الله ﷺ لا يرمي ببصره يمينًا ولا شمالًا يوم أحد إلا رأى شماسًا يدفع عنه بسيفه. قال المقريزي: وكان شماس بن عثمان لا يرمي رسول الله ﷺ ببصره يمينًا وشمالًا إلا رآه في ذلك الوجه، يذب بسيفه، حتى غُشي رسول الله ﷺ (أحاط به المشركون)، فترس بنفسه دونه حتى قتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فذلك قول رسول الله ﷺ: «ماوجدت لشماس شبيهًا إلا الجُنة»[1]، وفي رواية: «ما أوتي من ناحية إلا وقاني»، والجنة (بضم الجيم) هي كل ما ستر أو وقى من سلاح وغيره.

وكان يوم قتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابن أربع وثلاثين سنة، وليس له عقب.

أنس بن النضر .. يجد ريح الجنة:

روى البخاري في صحيحه[2]، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللَّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه)، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين)، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أورمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

سعد بن الربيع .. نصح لله ولرسوله حيًا وميتًا:

قال ابن إسحاق: وفرغ الناس لقتلاهم، فقال رسول الله ﷺ: «من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟»، فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر

(1) إمتاع الأسماع 144/1.

(2) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير (2595).

لك يا رسول الله ما فعل سعد، فنظر فوجده جريحًا في القتلى وبه رمق. قال: فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف. قال: ثم لم أبرح حتى مات، قال: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره.

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد: «من يأتيني بخبر سعد بن الربيع؛ فإني رأيت الأسنة قد أشرعت إليه»، فقال أبي بن كعب أنا، وذكر الخبر وفيه: ... فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «رحمه الله، نصح لله ولرسوله حيًّا وميتًا »[1].

عمرو بن الجموح يطأ بعرجته الجنة:

قال ابن إسحاق: كان عمرو بن الجموح رجلًا أعرج، شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد. فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا له: إن الله عز وجل قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك»، وقال لبنيه: «ما عليكم أن لا تمنعوه؛ لعل الله أن يرزقه الشهادة»، فخرج معه فقتل يوم أحد[2].

وقد حمل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو وابنه خلاد على المشركين حين انكشف المسلمون، فقتلا جميعًا[3]، فنال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما تمنى .. روى الإمام أحمد عن أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «... فمر عليه رسول الله ﷺ، فقال: كأني أنظر إليه يمشي برجله هذه صحيحة في الجنة» [4].

(1) ابن عبد البر: الاستيعاب 2/ 34-35، وابن الأثير، أسد الغابة 2/ 196-197.

(2) السيرة النبوية لابن هشام (3/ 93).

(3) أخرجه الثلاثة (أسد الغابة 4/ 8).

(4) المسند (5/ 299).

عبد الله بن عمرو بن حرام .. ظليل الملائكة:

رأى عبد الله بن عمرو بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في منامه قبل أحد مبشر بن عبد المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وهو من شهداء بدر)، يقول له: أنت قادم علينا في أيام، فقال: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نسرح فيها كيف نشاء، فقال له: ألم تقتل يوم بدر؟، قال: بلى ثم أُحييت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «هذه الشهادة يا أبا جابر»[1].

فلما كانت أحد خلَّف عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنه جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أخواته البنات السبع؛ ليرعاهن، وليقض دين أبيه إذا منَّ الله عليه بالشهادة.

وقد روى البخاري ذلك عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: لما حضر يوم أحد دعاني أبي ليلًا، وقال: يا جابر ما أراني إلا سأكون مقتولًا مع أول من يُقتل، والله ما تركت نفسًا أعز عليّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليّ دينًا فاقضه عني، واستوصِ بأخواتك خيرًا[2].

وبعد فراغ القتال ذهب جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبحث عن أبيه، فوجده بين الشهداء، وقد مثل به المشركون كما مثلوا بغيره من شهداء المسلمين، وفي الصحيحين عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما قُتل أبوه، صار يكشف عن وجهه الثوب ويبكي، وصارت عمته تبكي أيضًا، فقال رسول الله: «تبكيه أو لا تبكيه، لم تزل الملائكة تظله حتى رفعتموه» وروى البيهقي عن جابر، قال: نظر إليَّ رسول الله ﷺ، فقال: «ما لي أراك مهتمًّا؟»، فقال: قُتل أبي وترك دينًا وعيالًا، فقال له: «ألا أخبرك؟ ما كلَّم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وإنه كلَّم أباك كفاحًا - يعني مواجهة - وقال له: يا عبدي سَلْني أعطك. قال: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأُقتل فيك ثانية، فقال الحق تبارك وتعالى: إنه سبق مني القول أنهم إليها - أي الدنيا - لا يرجعون، قال: ربي فأبلغْ مَنْ ورائي، فأنزل الله سبحانه:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران].

---

(1) زاد المعاد (3/209).

(2) صحيح البخاري، رقم 1315.

وهب بن قابوس المزني .. قاهر الكتائب:

أقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس، بغنم لهما من جبل مُزينة، فوجدا المدينة خلوًا، فسألا: أين الناس؟، فقالوا: بأحد، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش، فقالا: لا نبتغي أثرًا بعد عين، فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد، فيجدان القوم يقتتلون، والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه، فأغارا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من ورائهم، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلطوا، فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «من لهذه الفرقة؟»، فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا، ثم رجع.

فانفرقت فرقة أخرى، فقال رسول الله ﷺ «من لهذه الكتيبة؟»، فقال المزني: أنا يا رسول الله، فقام فذبها بالسيف، حتى ولَّوا، ثم رجع المُزني. ثم طلعت كتيبة أخرى، فقال: «من يقوم لهؤلاء؟»، فقال المزني: أنا يا رسول الله، فقال: «قم وأبشر بالجنة»، فقام المزني مسرورًا، يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله ﷺ ينظر إلى المشركين حتى خرج من أقصاهم ورسول الله ﷺ يقول: «اللَّهم ارحمه»، ثم يرجع فيهم، فما زال كذلك وهم مُحدقون به حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه، فوجد به يومئذٍ عشرون طعنة برمح، كلها قد خلصت إلى مقتل، ومُثل به أقبح المُثلة يومئذٍ. ثم قام ابن أخيه، فقاتل قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحبَّ ميتة أموت لَـمَا مات عليه المزني[1].

وكان بلال بن الحارث المزني يُحدث يقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص، فلما فتح الله علينا وقُسمت بيننا غنائمنا، فأُسقط فتى من آل قابوس من مُزينة (أي: لم ينل سهمه من الغنائم)، فجئت سعدًا حين فرغ من نومه، فقال: بلال؟ قلت: بلال! قال:

---

(1) المغازي للواقدي (1/275).

مرحبًا بك، من هذا معك؟ قلت: رجل من قومي من آل قابوس، قال سعد: ما أنت يا فتى من المزني الذي قتل يوم أُحد؟ قال: ابن أخيه. قال سعد: مرحبًا وأهلًا وأنْعم الله بك عينًا، ذلك الرجل شهدتُ منه يوم أُحد مشهدًا ما شهدته من أحد، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطنا، والكتائب تطلع من كل ناحية، وإن رسول الله ﷺ ليرمي ببصره في الناس يتوسمهم، يقول: من لهذه الكتيبة، كل ذلك يقول المزني: أنا يا رسول الله! كل ذلك يرده، فما أنسى آخر مرة قامها فقال رسول الله ﷺ: «قم وأبشر بالجنة!» قال سعد: وقمت على أثره، يعلم الله أني أطلب مثلما يطلب يومئذٍ من الشهادة، فخضنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية، وأصابوه، ووددت والله أني كنت أصبت يومئذٍ معه، ولكن أجلي استأخر، ثم دعا سعد من ساعته بسهمه، فأعطاه وفضله، وقال: اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع، فرجعنا.

وقال سعد: أشهدُ لرأيت رسول الله ﷺ واقفًا عليه وهو مقتول، وهو يقول: «رضي الله عنك، فإني عنك راض». ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه، وقد نال النبي ﷺ من الجراح ما ناله، وإني لأعلم أن القيام ليشقُّ عليه على قبره (أي: قبر المزني) حتى وُضع في لحده، وعليه بردة لها أعلام خضر، فمدّ رسول الله ﷺ البُردة على رأسه، فخمره، وأدرجه فيها طولًا، وبلغت نصف ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحرْمل، فجعلناه على رجليه وهو في لحده، ثم انصرف. فما حال أموتُ عليه أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المُزني(1).

خيثمة يلحق بابنه في الجنة:

قال خيثمة أبو سعد (لرسول الله ﷺ)، وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر: لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصًا حتى ساهمت ابني في الخروج

---

(1) انظر: المغازي للواقدي (1/275)، والسيرة للصلابي، ص 495-496.

(اقترعت معه)، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقًّا، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقًا إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سنِّي، ورقَّ عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة، فدعا له رسول الله ﷺ بذلك، فقتل بأحد شهيدًا [1].

الأصيرم .. يدخل الجنة ولم يسجد لله قط:

روى ابن إسحاق بسنده أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصل صلاة قط، فإذا لم يعرفه الناس يسألونه: من هو؟ فيقول: هو أصيرم بني عبد الأشهل، عمرو بن ثابت بن وقش، كان يأبى الإسلام على قومه، فلما كان يوم أحد، وخرج رسول الله ﷺ بدا له الإسلام فأسلم، ثم أخذ سيفه حتى أتى القوم، فدخل في عرض الناس، فقاتل حتى أثبتته الجراحة، فبينا رجال من عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم، إذا هم به، فقالوا: إن هذا الأصيرم فما جاء به؟! لقد تركناه، وإنه لمنكِر لهذا الأمر، فسألوه ما جاء به، فقالوا له: ما جاء بك يا عمرو، أحدبا (عطفًا) على قومك؟ أم رغبة في الإسلام؟، فقال: بل رغبة في الإسلام، فآمنت بالله ورسوله، فأسلمت، وأخذت سيفي وقاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما أصابني، ثم لم يلبث أن مات في أيديهم، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: «إنه لمن أهل الجنة»[2].

وقد روى أبو داود والحاكم وغيرهما، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سبب خروجه إلى أحد، فقال: إن عمرو بن وقش كان له ربا في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء (من سفره) في يوم أحد، فقال: أين بنو عمي؟، قالوا: بأحد، قال: بأحد، فلبس لامته وركب فرسه، ثم توجه قبلَهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنت، فقاتل قتالًا حتى جُرِح، فحُمِل إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ، فقال لأخيه سلمة

---

(1) المصدر السابق، ص 495.

(2) رواه أحمد، وابن حجر في تمييز الصحابة (2/526).

بن وقش: حمية لقومه أو غضب لله ولرسوله؟ فقال: بل غضب لله ورسوله، فمات فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة.

ذكوان بن عبد قيس .. المهاجر الأنصاري:

هو ذكوان بن عبد قيس بن خلدة الخزرجي الأنصاري، شهد العقبة الأولى والثانية، ثم خرج من المدينة إلى رسول الله ﷺ، فكان معه بمكة (قبل أن يهاجر ﷺ)، وكان لذلك يقال له: مهاجر أنصاري، وشهد بدرًا، وقتل يوم أحد شهيدًا[1]، قتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق، فشد عليّ بن أبي طالب على أبي الحكم وهو فارس، فضرب رجله بالسيف، فقطعها من نصف الفخذ، ثم طرحه عن فرسه، فذفف (أجهز) عليه[2].

وكان النبي ﷺ لما خرج إلى أحد، قال: من ينتدب؟ (أي من يبادر بالقتال؟)، فقام ذكوان بن عبد قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال النبي ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى رجل يطأ بقدمه غدًا خضرة الجنة فلينظر إلى هذا» [3].

حُسيل بن جابر وثابت بن وقش:

لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد، رُفع حُسيل بن جابر، وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش في الآطام[4]، مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أبا لك!، ما تنتظر؟! فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلا ظمء[5] حمار، إنما نحن هامة اليوم أو غدًا [6]، أفلا نأخذ سيوفنا ثم نلحق برسول الله ﷺ؛ لعلّ الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ؟

---

(1) ابن عبد البر: الاستيعاب 1/482-483، وابن سعد الطبقات الكبرى 3/593، وابن الأثير: أسد الغابة 2/ 16-17.

(2) المصدر السابق.

(3) ابن حجر: الإصابة 1/482.

(4) **الآطام**: الحصون.

(5) أي مقدار ما بين شربتي حمار.

(6) أي: نموت اليوم أو غدًا.

فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس ولم يُعلم بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حسيل بن جابر، فاختلفت عليه أسيافُ المسلمين، فقتلوه ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي، فقالوا: والله إن عرفناه، وصدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه (يدفع ديته لحذيفة)، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ [1] خيرًا.

أسماء شهداء أحد رضي الله عنهم:

أولًا: من استشهد من المهاجرين: ذكر ابن إسحاق في كتاب (المغازي) أربعة من المهاجرين:

1- حمزة بن عبد المطلب بن هاشم رضي الله عنه من بني هاشم.

2- عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي رضي الله عنه، من بني أمية .. فهو حليف لهم من بني أسد بن خزيمة.

3- مصعب بن عمير رضي الله عنه، من بني عبد الدار.

4- شماس بن عثمان رضي الله عنه، من بني مخزوم.

ثانيًا: من اشتشهد من الأوس: وذكر ابن إسحاق أربعة وعشرين صحابيًّا من الأوس استشهدوا يومئذ، وهم:

5- عمرو بن معاذ بن النعمان رضي الله عنه، من بني عبد الأشهل.

6- الحارث بن أنس بن رافع رضي الله عنه، من بني عبد الأشهل.

7- عمارة بن زياد بن السكن رضي الله عنه، من بني عبد الأشهل.

8- سلمة بن ثابت بن وقش رضي الله عنه، من بني عبد الأشهل.

---

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (3/298)، والسيرة للصلابي، ص 491.

9- عمرو بن ثابت بن وقش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عبد الأشهل.

10- ثابت بن وقش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عبد الأشهل.

11- رفاعة بن وقش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عبد الأشهل.

12- حسيل بن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبو حذيفة، وهو اليمان من بني عبد الأشهل.

13- صيفي بن قيظي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عبد الأشهل.

14- حباب بن قيظي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عبد الأشهل.

15- عباد بن سهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عبد الأشهل.

16- الحارث بن أوس بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عبد الأشهل.

17- إياس بن أوس بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من راتج.

18- عتيك بن التيهان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من راتج.

19- حبيب بن يزيد بن تيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من راتج.

20- يزيد بن حاطب بن أمية بن رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من راتج.

21- أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عمرو بن عوف.

22- حنظلة بن أبي عامر بن صيفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، غسيل الملائكة من بني عمرو بن عوف.

23- قيس بن زيد بن ضبيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بني ضبيعة.

24- أنيس بن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عبيد.

25- أبو حبة بن عمرو بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني ثعلبة بن عمرو بن عوف.

26- عبد الله بن جبير بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أمير الرماة، عن بني ثعلبة بن عمرو ابن عوف.

27- خيثمة أبو سعد بن خيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني السلم.

28- ومن حلفائهم من بني العجلان: عبد الله بن سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثالثًا: من استشهد من الخزرج:

ذكر ابن إسحاق سبعة وثلاثين صحابيًّا من الخزرج، أو من مواليهم وحلفائهم، استشهدوا في أحد، وهم:

29- سبيع (سويبق) بن الحارث بن حاطب بن هيشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني معاوية بن مالك.

30- عمرو بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني النجار.

31- قيس بن عمرو بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني النجار.

32- ثابت بن عمرو بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني النجار.

33- عامر بن مخلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني النجار.

34- أبو هبيرة بن الحارث بن علقمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني مبذول.

35- عمرو بن مطرف بن علقمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني مبذول.

36- أوس بن ثابت بن المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عمرو بن مالك.

37- أنس بن النضر بن ضمضم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عدي بن النجار.

38- قيس بن مخلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني مازن بن النجار.

39- كيسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عبد لبني مازن بن النجار.

40- سليم بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني دينار بن النجار.

41- نعمان بن عبد عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني دينار بن النجار.

42- خارجة بن زيد بن أبي زهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني الحارث بن الخزرج.

43- سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني الحارث بن الخزرج.

44- أوس بن الأرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني الحارث بن الخزرج.

45- مالك بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أبو أبي سعيد الخدري، من بني الأبجر.

46- سعيد بن سويد بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني الأبجر.

47- عتبة بن ربيع بن رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني الأبجر.

48- ثعلبة بن سعد بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني ساعدة بن كعب بن الخزرج.

49- ثقف بن فروة بن البدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني ساعدة بن كعب بن الخزرج.

50- عبد الله بن عمرو بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني طريف (رهط سعد بن عبادة).

51- ضمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حليف بني طريف، من بني جهينة.

52- نوفل بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عوف بن الخزرج.

53- عباس بن عبادة بن نضلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عوف بن الخزرج.

54- نعمان بن مالك بن ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عوف بن الخزرج.

55- المجذر بن ذياد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حليف بني عوف بن الخزرج، من بلي.

56- عبادة بن الخشخاش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عوف بن الخزرج.

57- عبد الله بن عمرو بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني سلمة.

58- عمرو بن الجموح بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بني سلمة.

59- خلاد بن عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني سلمة.

60- أبو أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مولى عمرو بن الجموح، من بني سلمة.

61- سليم بن عمرو بن حديدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني سواد بن غَنْم.

62- عنترة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مولى سليم بن عمرو بن حديدة، من بني سواد بن غَنْم.

63- سهل بن قيس بن أبي كعب بن القين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني سواد بن غَنْم.

64- ذكوان بن عبد قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني زريق بن عامر.

65- عبيد بن المعلى بن لوذان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني زريق بن عامر.

قال ابن إسحاق: فجميع من استشهد من المسلمين مع رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار خمسة وستون.

وقد زاد ابن هشام العدد إلى سبعين، فقال: وممن لم يذكر ابن إسحاق من السبعين الشهداء الذين ذكرنا:

66- مالك بن نميلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حليف بني معاوية بن مالك، من الأوس.

67- عبد الله بن جشم بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني خطمة، من الأوس.

68- مالك بن إياس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني سواد بن مالك، من الخزرج.

69- إياس بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني عمرو بن مالك بن النجار، من الخزرج.

70- عمرو بن إياس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من بني سالم بن عوف، من الخزرج.

فائدة:

أما قتلى المشركين، فقد **قال ابن إسحاق:** فجميع من قتل الله تبارك وتعالى يوم أُحد من المشركين اثنان وعشرون رجلًا.

وقال المباركفوري - تعقيبًا على ما ذكره ابن إسحاق: ولكن الإحصاء الدقيق، بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير، والتي تتضمن ذكر قتل المشركين في مختلف مراحل القتال، يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون، لا اثنان وعشرون، والله أعلم [1].

---

(1) الرحيق المختوم، ص 252.

الفصل الثالث

بعد المعركة

أخذت قريش طريقها إلى مكة، وقد استخفها النصر الذي أحرزته، فطارت به على عجل، كأنها غير واثقة مما نالت بعد الهزيمة التي حاقت بها أول القتال. وأقبل المسلمون يتحسسون مصابهم في الرجال، ويجهزون القتلى لمضاجعهم[1]، وخرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده، ومُثل به، فجُدع أنفه وأذناه[2]، فحزن حزنًا شديدًا، وبكى حتى نشغ[3] من البكاء، وقال ﷺ: «لولا أن تحزن صفية (أخته)، ويكون سُنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلًا منهم». فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن ظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب[4]، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]. لقد ارتكب المشركون صورًا من الوحشية؛ حيث قاموا بالتمثيل في قتلى المسلمين، فبقروا بطون كثير من القتلى، وجدعوا أنوفهم، وقطعوا الآذان، ومذاكير بعضهم، ومع ذلك صبر رسول الله ﷺ وأصحابه، واستجابوا لتوجيه المولى ﷻ، فعفا وصبر، وكفر عن يمينه، ونهى عن المثلة. روى ابن إسحاق بسنده عن سمرة بن جندب، قال: (ما قام رسول الله ﷺ في مقام قط ففارقه، حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة»[5].

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص: 289.

(2) البداية والنهاية 44/4.

(3) **النشغ:** الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشي.

(4) ابن هشام (106/3).

(5) انظر: السيرة للصلابي، ص 503.

وقال ابن إسحاق: وقد أقبلت - فيما بلغني - صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه (أي حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وكان أخًا لأبيها وأمها، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «القها فأرجعها؛ لا ترى ما بأخيها». فقال لها: يا أمه، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك قال: خل سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن[1].

وروى ابن إسحاق، أن رسول الله ﷺ لما أشرف على القتلى يوم أحد، قال: «أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون دم والريح ريح مسك» [2].

دفن الشهداء:

ثم أمر رسول الله ﷺ أن يدفن الشهداء حيث ماتوا، وكان أناس من أصحابه قد حملوا قتلاهم إلى المدينة، فأمر أن يردوهم فيدفنوا في مصارعهم .. قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما كان يوم أحد جاءت عمتي بأبي لتدفنه في مقابرنا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: ردوا القتلى إلى مضاجعهم[3].

وكان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟»، فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد، وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة»، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصل عليهم ولم يُغسلوا[4].

(1) ابن هشام (3/145-146).
(2) ابن هشام (2/142)، وأخرجه أحمد (5/432،431)، وصححه الألباني.
(3) أخرجه أبو داود، والنسائي، وأحمد، وصححه الألباني.
(4) البخاري، الفتح (15/255، حديث 4079).

أما الأحاديث التي وردت في أن رسول الله ﷺ صلى على شهداء أحد، وأنه كان كلما أُتي بشهيد جعل حمزة معه وصل عليهما، فلم يصح منها حديث. وثبت أنه ﷺ صلى عليهم بعد ذلك بسنين عديدة قبل وفاته بيسير، كما روى البخاري عن عقبة بن عامر، قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثماني سنين، كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر، فقال: «إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها». قال: فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ[1].

وكان منظر الشهداء مريعًا يفتت الأكباد. قال خباب: إن حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه، حتى مدت على رأسه، وجعل على قدميه الإذخر (نوع من النبات) وقال عبد الرحمن بن عوف: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في برده إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وروي مثل ذلك عن خباب، وفيه: فقال لنا النبي ﷺ: «غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر»[2].

ونزل في قبر حمزة أبو بكر وعمر والزبير، وجلس رسول الله ﷺ على حافة القبر[3]. قال ابن هشام: ولما وقف النبي ﷺ على حمزة، قال: «لن أصاب بمثلك أبدًا، ما وقفت قط موقفًا أغيظ إليّ من هذا».

وأمرهم ﷺ بدفن الاثنين والثلاثة في قبر واحد؛ لما كان بهم (أي: الصحابة رضوان الله عليهم) من الجراح والجهد الذي يشق عليهم معه أن يحفروا لكل واحد قبرًا[4]، وكان يجمع بين الرجلين المتصاحبين في اللحد الواحد، كما جمع بين عبد الله بن عمرو بن حرام

---

(1) البداية والنهاية 4/47-48.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 205.

(3) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 268.

(4) أبو شهبة: السيرةالنبوية، ج2، ص 215، وابن كثير: البداية والنهاية 4/47.

والد جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وصهره عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنهما كانا متصاحبين(1).

وفقدوا نعش حنظلة بن أبي عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتفقدوه، فوجدوه في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله(2).

وكان رسول الله ﷺ يتمنى أن يمضي شهيدًا مع أصحابه الذين استشهدوا يوم أحد، وقد روى أحمد، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله ﷺ إذا ذكر أصحاب أحد يقول: «أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بحضن الجبل»(3).

وكان ﷺ بعد ذلك يزورهم، ويتابع زيارتهم، كما روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء، فإذا أتى فرضة الشعب (فتحته)، قال: «السلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار»(4).

ثم كان أبو بكر بعد النبي ﷺ يفعله، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله، وكان عثمان بعد عمر يفعله. قال الواقدي: كان النبي ﷺ يزورهم كل حول، فإذا بلغ نقرة الشعب يقول: «السلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار». ثم كان أبو بكر يفعل ذلك كل حول، ثم عمر، ثم عثمان .. وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تأتيهم فتبكي عندهم وتدعو لهم. وكان سعد يسلم، ثم يقبل على أصحابه، فيقول: ألا تسلمون على قوم يردون عليكم، ثم حكي زيارتهم عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(5).

قزمان في النار:

قاتل مع المسلمين يوم أُحد رجل يدعى قزمان، كان يعرف بالشجاعة، وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا ذُكر له: «إنه من أهل النار»، فتأخر عن الخروج يوم أُحد فعيَّرته نساء

---

(1) المصدر السابق.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 250.

(3) رواه أحمد في المسند، الفتح الرباني (58/21)، بإسناد حسن.

(4) رواه البيهقي في الدلائل (306/3).

(5) البداية والنهاية 51/4.

بني ظفر، فأتى رسول الله ﷺ وهو يسوي الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلًا كأنها الرماح، ويكتُّ كتيت الجمل، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة (من المشركين) وأصابته جراحة، فوقع فناداه قتادة بن النعمان: يا أبا الغَيْداق هنيئًا لك الشهادة، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قُزمان فأبشر، قال: بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومي، فلولا ذلك ما قاتلت. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنه من أهل النار، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

مخيريق خير يهود:

وكان في قتلى أُحد رجل من يهود بني ثعلبة، يقال له (مخيريق)، ذكره ابن إسحاق فقال: وكان ممن قُتل يوم أُحد مخيريق، وكان أحد بني ثعلبة بن الفطيون، لما كان يوم أحد قال: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق (لما كان بينه ﷺ وبينهم في صحيفة المدينة)، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم .. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أُصبت (قُتلت) فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ، فقاتل معه حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ: «مخيريق خير يهود».

وقد اختلف في إسلامه، فنقل الذهبي في التجريد وابن حجر في الإصابة عن الواقدي[1]، أن مخيريق مات مسلمًا، وذكر السهيلي في الروض الأنف أنه مسلم، وذلك حين قال معقبًا على رواية ابن إسحاق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مخيريق خير يهود»، قال: ومخيريق مسلم.

وقد حقق هذه المسألة الدكتور عبد الله الشقاري في كتابه (اليهود في السنّة المطهرة)، وذهب إلى أن مخيريق قد أسلم ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدق بماله مع كثرته، ومع ما عرف عن اليهود من حب المال والتكالب عليه[2].

---

(1) تجريد أسماء الصحابة (3/10)، والإصابة (3/393).

(2) انظر: السيرة للصلابي، ص 499.

قال السهيلي: فجعل رسول الله ﷺ أموال مخيريق - وكانت سبع حوائط (بساتين) - أوقافًا لله بالمدينة. قال محمد بن كعب القرظي: وكانت أول وقف بالمدينة [1].

الأسير الأوحد:

قال موسى بن عقبة: (... ولم يؤسر من المشركين (في أحد) سوى أبي عزة الجمحي، وقد كان في الأسارى يوم بدر، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ بلا فدية، واشترط عليه ألا يقاتله، فلما أسر يوم أحد، قال: يا محمد امنن عليّ لبناتي، وأعاهد أن لا أقاتلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول خدعت محمدًا مرتين». ثم أمر به فضربت عنقه.

وذكر بعضهم أنه يومئذ قال رسول الله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[2]، قال ابن كثير: أمر رسول الله ﷺ الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فضرب عنقه[3].

استووا حتى أثني على ربي ﷻ:

وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه الفرض قاعدًا؛ لكثرة ما نزف من دمه، وصلى وراءه المسلمون قعودًا، ثم توجه ﷺ إلى ربه بالدعاء والثناء.

روى الإمام أحمد عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه، قال:

لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثني على ربي ﷻ»، فصاروا خلفه صفوفًا، فقال:

«اللّهم لك الحمد كله، اللّهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا

(1) البداية والنهاية 4/ 41.
(2) البداية والنهاية 4/ 53.
(3) المصدر السابق.

مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللّهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللّهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللّهم إني أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم الخوف.

اللّهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللّهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللّهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللّهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللّهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق» [1].

ثم انصرف ﷺ راجعًا إلى المدينة.

* * *

(1) البداية والنهاية 4/ 43.

الفصل الرابع

العودة إلى المدينة

انصرف رسول الله ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم عائدين إلى المدينة، فدخلوها مساء يوم السبت السابع من شهر شوال سنة 3هـ، في نفس يوم وقعة أحد (1).

انصرفوا إلى المدينة وقد أودعوا عند سفح جبل أحد أعز الناس وأقربهم إلى قلوبهم. فالصفوة النقية التي حملت أعباء الدعوة، وعادت في سبيل الله الأقربين والأبعدين، واغتربت بعقائدها، وأنفقت وقاتلت، وصبرت وصابرت .. هذه الصفوة اختط لها القدر مثواها الأخير في هذا الجبل الأشم، فتوسدت ثراه راضية مرضية (2).

إن زوج المرأة منها لبمكان:

قال ابن إسحاق: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش، فلما لقيت الناس نُعي إليها أخوها عبد الله بن جحش، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت. فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبمكان»؛ لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها.

كل مصيبة بعدك جلل:

روى ابن إسحاق، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب (أي: قتل) زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نُعوا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟

قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين.

---

(1) قيل: يوم السبت الخامس عشر من شوال.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 291.

قالت: أرونيه حتى أنظر إليه.

قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل (بسيطة).

قال ابن هشام: الجلل يكون من القليل والكثير، وهو ههنا القليل(1).

أما رسول الله فصالح:

وروى المقريزي في (إمتاع الأسماع) ما كان من هند بنت عمرو بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ورسول الله ﷺ بأحد قبل أن يرجع إلى المدينة، فقال: (... وخرج عمرو بن الجموح وهو أعرج، وهو يقول: اللّهم لا تردني إلى أهلي، فقتل شهيدًا، واستشهد ابنه خلاد بن عمرو، وعبد الله بن عمرو بن حرام، أبو جابر بن عبد الله، فحملتهم هند بنت عمرو بن حرام - زوجة عمرو بن الجموح - على بعير لها تريد بهم المدينة، فلقيتها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقد خرجت في نسوة تستروح الخبر، ولم يضرب الحجاب يومئذ، فقالت لها: عندك الخبر، فما وراءك؟ قالت: أما رسول الله فصالح، وكل مصيبة بعده جلل (بسيطة)، واتخذ الله من المؤمنين شهداء .. قالت عائشة: من هؤلاء؟ قالت: أخي وابني خلاد وزوجي عمرو بن الجموح؛ قالت: فأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها. ثم قالت: حل - تزجر بعيرها - فبرك، فقالت عائشة: لما عليه (أي: برك من ثقل ما يحمل). قالت: ما ذاك به، لربما حمل ما يحمل البعيران، ولكني أراه (قد برك) لغير ذلك. وزجرته فقام، فوجهته راجعة إلى أحد، فأسرعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك (أي: بما كان من رفض البعير التوجه إلى المدينة)، فقال: فإن الجمل مأمور، هل قال شيئًا؟ (أي زوجها قبل أن يخرج للقتال) قالت: إن عمرًا لما وجه إلى أحد، قال: اللّهم لا تردني إلى أهلي خزيان وارزقني الشهادة!، فقال رسول الله ﷺ: فلذلك الجمل لا يمضي؛ إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح. يا هند! مازالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن، ثم مكث ﷺ حتى قبرهم. ثم قال: يا

---

(1) ابن هشام (3/145-146).

هند قد ترافقوا في الجنة، عمرو بن الجموح وابنك خلاد وأخوك عبد الله. قالت! قلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني معهم)[1].

شهداء بني عبد الأشهل الاثني عشر:

أقبل رسول الله ﷺ حتى طلع على بني عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم، فخرج النساء ينظرن إلى سلامته ﷺ.

فقالت أم عامر الأشهلية: كل مصيبة بعدك جلل (أي هينة)، وجاءت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله ﷺ، وقد وقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذ بعنان الفرس، فقال سعد:

يا رسول الله! أمي! فقال: مرحبًا بها، فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ، وقالت: أما إذا رأيتك سالمًا فقد أشوت[2] المصيبة. فعزاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال: يا أم سعد! أبشري وبشري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعًا - وهم اثنا عشر رجلًا - وقد شُفِّعوا في أهليهم، قالت: رضينا برسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادع يا رسول الله لمن خلّفوا، قال: اللّهم أَذهبْ حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلِّفوا؛ ثم قال: يا أبا عمرو، إن الجراح في أهل دارك فاشية، وليس منهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان: اللون لون الدم، والريح ريح المسك، فمن كان مجروحًا فليقر في داره وليداوِ جرحه، ولا يبلغ معي بيتي، عزمة مني، فنادى فيهم سعد: عزمة من رسول الله ألا يتبع رسول الله ﷺ جريح من بني عبد الأشهل، فتخلف كل مجروح، فباتوا يوقدون النيران ويداوون الجراح، وإن فيهم لثلاثين جريحًا، ومضى سعد مع رسول الله ﷺ، حتى جاء بيته، فما نزل (رسول الله ﷺ) عن فرسه إلا حملًا (يحمله أصحابه)، واتكأ على سعد بن معاذ وسعد بن عبادة حتى

(1) إمتاع الأسماع 1/146-148.

(2) **أشوت:** هانت.

دخل بيته. فلما أذن بلال بصلاة المغرب، خرج على مثل تلك الحال، يتوكأ على السعدين، فصلى، ثم عاد إلى بيته[1].

ولكن حمزة لا بواكي له:

لما سمع رسول الله ﷺ بكاء نساء الأنصار على من قتل من أزواجهن، قال: «ولكن حمزة لابواكي له»، فلم يلبث أن سمع بكاءهن وندبهن بحمزة[2]، ونهى يومئذ عن النوح[3].

قال المقريزي: ومضى سعد بن معاذ إلى نسائه، فساقهن حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ، فبكين حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين المغرب والعشاء، والناس في المسجد يوقدون النار يتكمدون[4] بها من الجراح، وأذن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين غاب الشفق، فلم يخرج رسول الله ﷺ، فجلس بلال عند بابه حتى ذهب ثلث الليل، ثم ناداه: الصلاة يا رسول الله، فهب ﷺ من نومه وخرج، فإذا هو أخف في مشيته من حين دخل. وسمع البكاء، فقال: ما هذا؟ فقيل: نساء الأنصار يبكين على حمزة، فقال: رضي الله عنكن وعن أولادكن، وأمر أن ترد النساء إلى أولادهن، فرجعن بعد ليلٍ مع رجالهن، وصلى رسول الله ﷺ العشاء ثم رجع إلى بيته، وقد صف له الرجال ما بين بيته إلى مصلاه، يمشي وحده حتى دخل، وباتت وجوه الأوس والخزرج على بابه في المسجد يحرسونه؛ فرقًا من قريش أن تكر، ويقال إن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء بنساء بني سلمة، وجاء عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنساء الحارث بن الخزرج (كي يبكين حمزة)، فقال ﷺ: ما أردت هذا، ونهاهن الغد عن النوح أشد النهي [5].

---

(1) المنهج الحركي، ص 387-388.

(2) رواه أحمد في المسند (82/1)، وصحح شاكر إسناده.

(3) ابن هشام (45/3).

(4) **تكميد العضو:** تسخينه بخرق أو قطن.

(5) إمتاع الأسماع 1/163-165، والمنهج الحركي، ص 389.

شماتة المنافقين واليهود:

كانت الهزيمة في (أُحد) فرصة انتهزها المنافقون واليهود، وكل ذي غمز على محمد ﷺ ودينه وأصحابه، ففارت المدينة كالمرجل المتقد، وكشف عن عداوته من كان قبلًا يواريها، وتحدث الكافرون بالإسلام عن خذلان السماء للنبي المرسل من عند الله [1].

وراح عبد الله بن أبي بن سلول يقول هو وأصحابه للمسلمين: «لو أطعتمونا ما قتل منكم من قتل»، وأخذوا يتساءلون عن النصر الذي كانوا يتوهمونه مع رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى آيات من سورة آل عمران؛ تعليقًا على إرجاف اليهود والمنافقين، وبيانًا لحكمه فيما حصل في غزوة أحد[2]، منها قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [آل عمران].

وقد روى المقريزي ما كان من المنافقين واليهود، فقال: وجعل عبد الله بن أبي والمنافقون يشمتون، ويسرون بما أصاب المسلمين، ويظهرون أقبح القول. فيقول ابن أبي لابنه عبد الله - وهو جريح قد بات يكوي جراحه بالنار - ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي! عصاني محمد وأطاع الولدان، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا، فقال ابنه: الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير.

وأظهرت اليهود القول السيئ، فقالوا: ما محمد إلا طالب ملك! ما أصيب هكذا نبي قط، أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه! وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله ﷺ أصحابه، ويأمرونهم بالتفرق عنه، ويقولون: لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك في أماكن، فمشى إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في قتل من سمع ذلك منه من اليهود والمنافقين، فقال ﷺ: يا عمر، إن الله مظهر دينه، ومعز نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم. قال: فهؤلاء المنافقون!! قال: أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 292.

(2) البوطي: فقه السيرة، ص 260-261.

الله، وأني رسول الله؟ قال (عمر): بلى، يا رسول الله! وإنما يفعلون ذلك تعوذًا من السيف، فقد بان لنا أمرهم، وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة! فقال: نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .. يا ابن الخطاب، إن قريشًا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن [1].

* * *

(1) إمتاع الأسماع، ج1، مقتطفات من غزوة أحد، من ص 127-166، انظر: المنهج الحركي، ص 318-319.

الفصل الخامس
غزوة حمراء الأسد

بات المسلمون في المدينة ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة 3 هـ، بعد الرجوع من معركة أحد، يداوون جراحاتهم، وقد أنهكهم التعب، ونال منهم أي منال .. باتوا وهم يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها، ويحرسون رسول الله ﷺ خاصةً [1].

أما المشركون .. فإنهم لما انصرفوا من أحد، وبلغوا الروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلًا من المدينة، أخذوا يتلاومون فيما بينهم؛ أن لم يستأصلوا شأفة المسلمين، فقال أبو سفيان: لا محمدًا قتلتم ولا الكواعب أردفتم (أي لم تغنموا نساءهم)، شر ما صنعتم [2]. فخالفه صفوان بن أمية (كما روى ابن هشام)، فقال: لا تفعلوا، فإن القوم قد حربوا، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان فارجعوا .. إلا أنهم لم يقبلوا رأي صفوان، وأجمعوا أمرهم على المسير نحو المدينة. وكان رسول الله ﷺ يستطلع خبر أعدائه دائمًا حتى بعد انتهاء المعارك، فبلغه أمر قريش، وعلم بنيتهم، فلما كان يوم الأحد (اليوم التالي ليوم أُحد)، أمر رسول الله ﷺ بلالًا أن ينادي: أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب العدو، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ... ودعا رسول الله ﷺ بلوائه وهو معقود لم يحل، فدفعه إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وخرج القوم وهم ما بين مجروح وموهون ومشجوج، حتى عسكروا بحمراء الأسد (مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة)، فأوقد المسلمون هناك نيرانًا عظيمة، حتى ترى من المكان البعيد، وتوهم كثرة أصحابها [3].

---

(1) المباكفوري: الرحيق المختوم، ص 253.

(2) مجمع الزوائد للهيثمي (6/121).

(3) البوطي: فقه السيرة، ص 261.

وفيهم نزل قول الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ ﴾ [آل عمران:172] ، قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خرج الذين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الخروج وهم مثخنون بالجراح، وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة. وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة، ومرارة الهزيمة، وشدة الكرب، وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا، فقل عددهم فوق ما هم مثخنون بالجراح.

ولكن رسول الله ﷺ دعاهم، ودعاهم وحدهم، ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم، وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيحاءات شتى، وتومئ إلى حقائق كبرى، نشير إلى شيء منها:

1- لعل رسول الله ﷺ شاء ألا يكون آخر ما تنضم عليه جوائح المسلمين ومشاعرهم هو شعور الهزيمة، وآلام البرح والقرح، فاستنهضهم لمتابعة قريش وتعقبها، كي يقر في أخلادهم أنها تجربة وابتلاء، وليست نهاية المطاف، وأنهم بعد ذلك أقوياء، وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء، وإنما هي واحدة وتمضي، ولهم الكرة عليهم، متى نفضوا عنهم الضعف والفشل، واستجابوا لدعوة الله والرسول.

2- ولعل رسول الله ﷺ شاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته، فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس؛ ليشعر قريشًا أنها لم تنل من المسلمين منالًا، وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها. وقد تحققت هذه وتلك كما سيأتي.

3- ولعل رسول الله ﷺ شاء أن يُشعر المسلمين، وأن تشعر الدنيا كلها من ورائهم بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض .. حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها، ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها .. عقيدة يعيشون لها وحدها، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها، ولا يقدمونها فداها [1].

(1) في ظلال القرآن.

نموذج من هؤلاء:

روى ابن إسحاق عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان، أن رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل، كان شهد أحدًا مع رسول الله ﷺ، قال: شهدت أحدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي، أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحًا، فكان إذا غلب (تعب) حملته عقبة (فترة)، ومشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون [1].

الإذن لجابر بن عبد الله بالخروج:

وأذن رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمسير معه، مع أنه لم يشهد أحدًا، إذ كان أبوه - كما ذكرنا - قد خلفه على بناته.

قال ابن إسحاق: (أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، فأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا رسول الله، إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على أخواتك، فتخلفت عليهن. فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه) [2].

معبد الخزاعي:

قال ابن إسحاق: وقد مر برسول الله ﷺ معبد بن أبي معبد الخزاعي، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتهامة (أي موضع سره وثقته لا تُخفي

---

(1) البداية والنهاية 50/4.

(2) المصدر السابق.

عليه شيئًا من الناس في تهامة)، صفقتهم معه، لا يخفون عنه شيئًا كان بها، ومعبد يومئذ مشرك، فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج (معبد) ورسول الله ﷺ (يعسكر) بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: أصبنا أحد أصحابه وأشرافهم وقادتهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم!! لنكرن على بقيتهم، فلنفرغن منهم، فلما رأى أبو سفيان معبدًا، قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويحك! ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل (أي: ستدرككم خيل محمد قبل أن ترتحلوا)، قال (أبو سفيان): فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، قال: والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتًا من شعر. فأدخل الله بذلك رعبًا عظيمًا في قلوب المشركين، فهبوا مسرعين عائدين إلى مكة.

ركب بني عبد القيس:

وحاول أبو سفيان - قبل أن ينسحب بجيشه إلى مكة - أن يشن حربًا نفسية على المسلمين، فأرسل إليهم بمعلومات كاذبة مع ركب من بني عبد القيس؛ لعله يرهبهم ويضعف عزيمتهم، فقد فمر به ركب من بني عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة؟ قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه (أكافئكم بها) غدًا زبيبًا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، وقد ذكر الله ﷻ ما كان من رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في هذه الغزوة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ

إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وأقام رسول الله ﷺ والمسلمون بحمراء الأسد ثلاثة أيام، وفي يوم الأربعاء الموافق الحادي عشر من شوال سنة 3 هـ، قفل راجعًا إلى المدينة.

* * *

الفصل السادس

نظرات العلماء في غزوة أحد

انطوت غزوة أحد على دروس بالغة الأهمية للأمة في كل عصر، ولكأن الحكمة من وقوعها على هذا الشكل أن تظل مرجعًا لأسباب النصر والهزيمة في صراع الجماعة المؤمنة مع أعدائها في كل زمان ومكان، ولقد تعددت النظرات والوقفات لعلماء الأمة وفقهائها ومفكريها في شأن هذه الغزوة .. تعددت ولم تتعارض أو تختلف، بل تكاملت وتنامت؛ لتخرج لنا رؤيا واضحة جلية لهذا الحدث المهم في سيرة النبي ﷺ والجماعة الأولى.

وسنعرض في هذا الفصل لبعض هذه النظرات؛ كي ترسخ الفائدة في النفوس، وتتضح الدروس في الأذهان.

أولا: هل انتصرت قريش في أحد؟:

قال المباركفوري في (الرحيق المختوم)[1]:

تلك هي غزوة أحد بجميع مراحلها وتفاصيلها، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة، هل كانت هزيمة أم لا؟ والذي لا يشك فيه أن التفوق العسكري في الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت في جانب المسلمين أكثر وأفدح، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعًا، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكي، لكن هناك أمورًا تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح.

فمما لا شك فيه أن الجيش المكي لم يستطع احتلال معسكر المسلمين، وأن المقدار الكبير من الجيش المدني لم يلتجئ إلى الفرار - مع الارتباك الشديد والفوضى العامة - بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش

(1) الرحيق المختوم، ص 253.

المكي، وأن أحدًا من جيش المدينة لم يقع في أسر الكفار، وأن الكفار لم يحصلوا على شيء من غنائم المسلمين، مع أن جيش المسلمين لم يزل في معسكره، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يومًا أو يومين أو ثلاثة أيام -كما هو دأب الفاتحين في ذلك الزمان - بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال، قبل أن يتركها المسلمون، ولم يجترئوا على الدخول في المدينة لنهب الذراري والأموال، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب، وكانت مفتوحة وخالية تمامًا.

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة، نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامي.

ثانيًا: الحكم الربانية فيما أصاب المسلمين:

قال ابن حجر: قال العلماء: وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة، منها:

- تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ أن لا يبرحوا منه.

- ومنها أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائمًا دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين؛ لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيًّا عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول، عاد التلويح تصريحًا، وعرف المسلمون أن لهم عدوًّا في دورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

- ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضمًا للنفس، وكسرًا لشماختها، فلما ابتُلي المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون.

- ومنها أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن؛ ليصلوا إليها.

- ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء، فساقها إليهم.

- ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك، من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين[1].

ثالثًا: ما اشتملت عليه الغزوة من أحكام فقهية:

عقد ابن القيم في (زاد المعاد) [2] فصلًا فيما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام الفقهية، ننقلها باختصار؛ لما فيها من فائدة:

1- أنه لا يجب على المسلمين إذا طرقهم عدوهم في ديارهم الخروج إليه، بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم، ويقاتلوهم فيها إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم، كما أشار به رسول الله ﷺ عليهم يوم أحد.

2- أنه لا يأذن الإمام لمن لا يطيق القتال من الصبيان غير البالغين، بل يردهم إذا خرجوا، كما رد رسول الله ﷺ ابن عمر ومن معه.

3- جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن، فيما دون القتال، مثل السقي والتطبيب.

4- جواز الانغماس في العدو، كما انغمس أنس بن النضر وغيره.

5- أن الإمام إذا أصابته جراحة، صلى بأصحابه قاعدًا، وصلوا وراءه قعودًا، كما فعل رسول الله ﷺ، واستمرت على ذلك سنته إلى حين وفاته.

---

(1) انظر زاد المعاد (2/99-108)، والرحيق المختوم، ص 255.

(2) زاد المعاد (3/211-212)، والسيرة لمهدي رزق الله، ص 402-404.

6- جواز دعاء الرجل وتمنيه أن يقتل في سبيل الله، وليس ذلك من تمني الموت المنهي عنه، كما فعل عبد الله بن جحش.

7- أن المسلم إذا قتل نفسه، فهو من أهل النار، كما في حال قزمان.

8- أما الصلاة على الشهيد فقد اختلف فيها العلماء؛ وقد رجح ابن القيم أن الإمام مخير بين الصلاة عليه وتركها؛ لمجيء الآثار بكل واحد من الأمرين.

9- أن الجهاد يلزم بالشروع فيه، حتى إن استعد له وتأهب للخروج، ليس له أن يرجع عن ذلك حتى يقاتل عدوه.

10- جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيته إذا صادف ذلك طريقه، وإن لم يرض المالك، كما كان حال مربع بن قيظي مع الرسول ﷺ وجيشه.

13- أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد، لمرض أو عرج [شديد أو شيخوخة]، يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح، وهو أعرج، واليمان (والد حذيفة)، وثابت بن وقش، وهما شيخان كبيران.

14- أن المسلمين إذا قتلوا واحدًا منهم في الجهاد يظنونه كافرًا، فعلى الإمام دفع ديته من بيت المال، كما في واقعة قتل اليمان.

رابعًا: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾:

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويقف المسلم أمام قول الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:152]، فمن الذي فشل وتنازع وأحب الدنيا؟

ظاهر الأمر أن هذا الكلام مُنْصَبٌّ على الرماة السبعين، وهم عشر الصف الإسلامي، هم عُشْر الجيش. والتنازع قد وقع بين من يريد أن ينفذ أمر رسول الله ﷺ ويريد الآخرة،

وبين من نازعته نفسه إلى الغنيمة في الدنيا. خطيئة يقع بها أقل من عشر الجيش، فتنزل العقوبة بالجيش الإسلامي كله، وينتزع منه النصر بأمر الله سبحانه - وقائد الجيش محمد رسول الله - فما هو الميزان في ذلك؟

إن الله تعالى العليم بما في القلوب، يعرف من هم من غير الرماة يريدون الدنيا، فالظاهرة ليست محصورة فيهم. ولا شك في ذلك؛ لأن المنافقين الذين هاجمهم القرآن الكريم لتخاذلهم أمام المحنة لم يكونوا من الرماة، ولا نشك في إرادتهم للدنيا وحبهم لها. لكننا نقول كذلك أن في جيش محمدٍ ﷺ، غير الرماة وغير المنافقين من يحبون الدنيا، ويركنون لها، وإرادة الله تعالى سبحانه أن يعاقب جيشًا فيه أمثال هؤلاء. ولا شك أن معصية واحدة واضحة صريحة صدرت من عشر الجيش، انعكس أثرها على الجيش نفسه، بل على قائده محمد ﷺ، وقد شج وجهه، وكسرت رباعيته وأدميت شفته. ونقارن بين قضيتين:

لقد كان المنافقون المنسحبون في بداية الأمر ثلث الجيش. ومع هذا العدد الضخم فلم يُحرم المؤمنون النصر، أو يستحقوا العقوبة، ويشير القرآن كذلك إلى وجود المنافقين في الجيش بعد الثلث الذي انفصل، وذلك في الحديث عنهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:154].

ومع وجود المنافقين في الجيش، ومع انفصال المنافقين عنه، مع هذا العدد الضخم كله لم يحرم المؤمنون النصر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:152]. فلقد استحقوا موعود الله بالنصر (في أول القتال) رغم انفصال ثلث الجيش، وانكشاف البقية من المنافقين .. إنما كانت العقوبة من أجل هذا العشر الذي عصى بوضوح أمر رسول الله ﷺ، وقد رأى ما يحب من موعود الله .. من أجل هذا العشر (الذي عصى ربه)، ومن معه من الذين أحبوا الدنيا وأرادوها، كانت العقوبة[1].

* * *

(1) في ظلال القرآن.

فهرس الجزء الأول

الباب الأول
الأنبياء إخوة ودينهم واحد

الموضوع **الصفحة**

الباب الثاني
جزيرة العرب – العرب – مكة – قريش

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الباب الرابع
من الميلاد إلى البعثة المباركة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الباب الخامس
الدعوة الجهرية

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الباب السادس
البحث عن آفاق أرحب للدعوة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الباب السابع
السابقون بالهجرة إلى المدينة

الموضوع الصفحة

الباب الثامن
الهجرة النبوية

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب التاسع
الدولة الإسلامية الأولى

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب العاشر
الإذن بالقتال

الموضوع **الصفحة**

الباب الحادي عشر
يوم الفرقان .. يوم التقى الجمعان

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الباب الثاني عشر
أحداث مجتمع المدينة
بعد غزوة بدر الكبرى

الباب الثالث عشر
العام الثالث من الهجرة
جهاد يمن .. ومجتمع ينمو

الموضوع **الصفحة**

الباب الرابع عشر
غزوة أحد

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

* * *